

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الموصل

العراق في التاريخ القديم

II

موجز التاريخ الحضاري

دكتور
عامر سليمان

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الموصل

العراق في التاريخ القديم

II

موجز التاريخ الحضاري

تأليف

دكتور عامر سليمان
استاذ التأريخ القديم - قسم التأريخ
كلية الآداب - جامعة الموصل

نشر وطبع وتوزيع
دار الكتب للطباعة والنشر - الموصل
شارع ابن الاثير - الموصل
هاتف ٧٦٣٢٣١
٧٦٣٢٣٥
تلكس ٨٠٩٢

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

تؤكد نتائج التنقيبات الاثرية يوما بعد آخر أصالة الحضارة العراقية القديمة وعمق تأثيراتها على الحضارات البشرية كافة . وفي الجزء الاول من هذا الكتاب استعرضنا بايجاز نشأة هذه الحضارة وتطورها في عصورها المبكرة مع الاشارة الى الظروف البيئية والبشرية التي ساعدت على ذلك ، كما قدمنا موجزاً مركزاً لمجمل التطورات الحضارية في عصور ماقبل التاريخ والمامة سريعة بأهم الاحداث السياسية التي مرت على بلاد وادي الرافدين منذ فجر العصور التاريخية وحتى نهاية التاريخ القديم بظهور الاسلام وتحرير العراق في معركة القادسية .

وفي هذا الجزء محاولة لالقاء الضوء على أهم المظاهر الحضارية التي اتسمت بها حضارتنا الاصيلة مستقاة من المصادر الاصلية المتمثلة بما اسفرت عنه التنقيبات الاثرية من نتائج وما تضمنته النصوص المسمارية من معلومات وما تم نشره من دراسات وبحوث متخصصة في تاريخ حضارة العراق القديم ، غير ان طبيعة الكتاب ومحدودية حجمه حالت دون التفصيل في العديد من الملامح والجوانب التي كنا نود التفصيل فيها واكتفينا باحالة القارىء الى اهم الكتب والدراسات العربية التي تناولت الموضوع بالتفصيل .

وانه مما يبعث في النفس السرور ان اسجل شكري وتقديري الى كل من ساهم في انجاز هذا الكتاب وفي المقدمة عمادة كلية الاداب وقسم التاريخ على تكليفي بتأليف الكتاب ومتابعة اعداده وطبعه . كما يسعدني ان اقدم شكري وعميق امتناني الى كل من ساهم في تقويم الكتاب وتصحيحه واخراجه بهذه الحلّة وبصورة خاصة الى اخي وصديقي الاستاذ الفنان يوسف ذنون على جهوده الفنية الطيبة في التصميم والاخراج والى ادارة مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر والعاملين بها . على السرعة في الانجاز والصبر على قراءة المسودات والدقة في الطبع والتصحيح والتصوير وحسن الاخراج داعياً من الله سبحانه وتعالى ان يجزيهم عنا خير الجزاء . ومن الله العلي القدير السداد والتوفيق .

عامر سليمان

شباط ١٩٩٣

المحتويات

تمهيد

مولد الحضارة

يجمع الباحثون في تاريخ الحضارات البشرية على ان الحضارة العراقية القديمة هي من أقدم الحضارات البشرية الناضجة المعروفة في العالم حتى الآن، ان لم تكن اقدمها على الاطلاق، فإنها من أولى الحضارات ذات التطور المتميز والمنفرد، فقد نشأت ونمت وازدهرت في ارض الرافدين المعطاء والقاسية في الوقت نفسه، بفضل الجهود المضنية والعمل المثابر والدؤوب الذي بذله الانسان العراقي القديم لتسخير تلك الطبيعة القاسية لخدمته ولبناء حضارته.

ويختلف الباحثون في تحديد مفهوم الحضارة، كما يختلفون في تحديد مفهوم المدنية إذ نجد في معاجم اللغة العربية، ان مفهوم المصطلحين متقارب جداً ويكاد الفرق بينها لايبين، فالحضارة مصطلح مشتق من الحاضرة بمعنى المدينة أو القرية والريف وما فيها من منازل مأهولة، فهي بذلك تختلف عن البادية التي إشتقت منها البداوة، والانسان المتحضّر هو الشخص الذي يسكن الحاضرة، اما المدنية، فهي مشتقة من المدينة المؤلفة من عدد من البيوت يزيد على مايوجد في القرية عادة، والانسان المتمدّن هو الشخص الذي يسكن المدينة.

ومع ذلك، فإن هناك من يرى ان المقصود بالحضارة في اللغة العربية هو الجوانب المعنوية غير المادية مما يتعلق بحياة الانسان، اما المدنية فتشمل المظاهر المادية والتقنية منها في حين يرى آخرون ان الحضارات تمايز من حيث مستوياتها وان الحضارات ذات المستوى الراقي هي التي يمكن تسميتها بالمدنية.(١)

ان مايقصد بالحضارة هنا هو المفهوم العام للحضارة، أي أنها تضم كل مايتعلق بحياة الفرد من نظم اجتماعية وسياسية واقتصادية ودينية وفكرية وتقنية وغيرها، وان ذلك لايقتصر على العصور التاريخية بل ان الحضارة تمتد، وفق هذا المفهوم؛ بجذورها الى عصور

---

(١) انظر تفصيل ذلك: تقي الدباغ، اصالة حضارة العراق القديم في: العراق في موكب الحضارة، بغداد، ١٩٨٨، ج١، ص١٤ وما بعدها.

ماقبل التاريخ لتشمل الانجازات المهمة التي حققها الانسان في تلك العصور، كصناعة الآلات والأدوات الحجرية والزراعة والتدجين وبناء البيوت وتشييد القرى والمستوطنات الزراعية وحياكة الملابس وصناعة الفخار واختراع العجلة والعربة والسفينة والتعدين وغير ذلك من مبتكرات انسان عصور ماقبل التاريخ.

والحضارة بهذا المفهوم الواسع لايمكن ان تكون وقفا على جنس معين من البشر دون الاجناس الاخرى أوعلى منطقة معينة دون غيرها بل ان مختلف ارجاء العالم شهدت ومنذ عصور مبكّرة من تاريخها نشوء حضارات كثيرة ونموها وازدهارها. ومع الاعتراف بعدم وجود حضارة نقية تماماً خاصة بشعب معين أو أمة معينة، لأن التراث الحضاري هو مُلك البشرية جمعاء ساهمت في رفده شعوب وامم كثيرة اخذ اللاحق منها من السابق، إلا أنه يمكن التمييز بصورة عامة بين نوعين رئيسين من أنواع الحضارات البشرية، يضم النوع الأول الحضارات التي تسمى عادةً بالحضارات الاصيلة، في حين يضم الثاني بقية الحضارات التي يمكن تسميتها بالحضارات الفرعية او المقتبسة، وهذا ماأشار اليه فرانكفورت عند حديثه عن مولد الحضارة الانسانية حيث قال ان "الانتقال من الاحوال البدائية الى الاحوال المتمدّنة قد حصل اكثر من مرة في التاريخ ولكن هذا الانتقال، كان الدافع أو الحافز اليه، بسبب الاحتكاك والاتصال بشعوب غريبة متمدّنة. ونحن نعرف فقط امثلة ثلاثة كان فيها ظهور المدنيّة تلقائياً، اي انه لم يكن نتيجة احتكاك واتصال بأمم غريبة". [1] وبعبارة اخرى ان الحضارات التي تظهر وتنمو تلقائياً دون ان تتصل بحضارات اخرى سابقة او معاصرة لها هي من الحضارات التي يمكن تسميتها بالحضارات الاصيلة، اما اذا كانت الحضارة نتيجة الاحتكاك والاتصال بشعوب اخرى غريبة، فعندها تكون الحضارة فرعية او مقتبسة. والحضارة الاصيلة تضم عادة مجموعة من القيم والمعايير والمثل والمظاهر والمعارف الاصيلة التي تحدّد هويتها[2] وليس من الضروري ان تكون حضارة ما اصيلة في جميع مظاهرها او نظمها، بل قد تختص ببعض المظاهر دون غيرها. فالاضافات المبدعة والافكار المبتكرة قد تكون في الحقول العلمية مثلاً دون الانسانية او في الحقول العلمية وبعض الحقول الانسانية أو العكس أوقد تكون في بعض النظم دون غيرها، ومع ذلك تعد حضارة أصيلة.

---

(١) هـ. فرانكفورت، فجر الحضارة في الشرق الأدنى، ١٩٥٠، ترجمة ميخائيل خوري، بيروت، ١٩٥٩، ص١٣.

(٢) فاروق عمر فوزي، العراق في موكب الحضارة، بغداد، ١٩٨٨، ج١، ص٥.

ويتفق الباحثون ، ومنهم فرانكفورت ، ان الحضارات الاصيلة المعروفة محدودة العدد وانها ظهرت في ثلاث مناطق من العالم ، كما المحنا ، هي منطقة الشرق الأدنى القديم ، والصين ، وجنوب أمريكا . فأما بالنسبة للحضارة التي ظهرت في الصين ، فإنه ينبغي ان نأخذ بنظر الاعتبار امكانية او احتمال وجود دافع من الغرب في حين يكتنف حضارة امريكا الغموض وتبقى منطقة الشرق الأدنى القديم المتمثلة بوادي الرافدين ووادي النيل ، موطن الحضارات الاصيلة الاولى المعروفة في العالم ، وهي المنطقة التي شهدت فعلاً مولد الحضارة البشرية بوجه عام .[1]

اما حضارة وادي الرافدين ، فمع التأكيد على انها من اقدم الحضارات الاصيلة المعروفة الا أنّها لم تكن خاصة بعنصر معين من العناصر البشرية التي عاشت في العراق في العصور المختلفة بل انها حضارة ساهمت في بنائها جميع الاقوام السومرية والأكدية والبابلية والآشورية وغيرها ، كما انها تمتد بجذورها الى عصور ماقبل التاريخ حيث كانت البدايات الاولى لكثير من المظاهر الحضارية المهمة ، كالزراعة والتدجين وصناعة الفخار وتشييد البيوت وفن النحت وصناعة الاختام والحياكة . وفي الألف الثالث قبل الميلاد ، تبلورت تلك المظاهر الحضارية ونمت وتطورت حتى ازدهرت خلال الالفين الثاني والأول قبل الميلاد فكانت بحق من الحضارات الاصيلة القليلة بل والسبّاقة بين الحضارات الاصيلة في معظم الجوانب الحضارية . وهكذا كان العراق بمثابة الوعاء ، او البوتقة ، التي انصهرت فيه جميع العناصر الحضارية التي ساهمت بها الاقوام المختلفة التي تتابعت على السكنى في العراق ، وكان جلُّهم من الاقوام القادمة من شبه الجزيرة العربية ، والعناصر الحضارية التي تأثر بها العراقيون القدماء نتيجة احتكاكهم واتصالهم باقوام اجنبية في حالات الحرب أو السلم ، فكانت نتيجة هذا الانصهار والتفاعل والاندماج بين العناصر الحضارية المختلفة ان تبلورت حضارة عراقية متماسكة مترابطة بمظاهرها المختلفة ، منسجمة في اتجاهاتها ، لها نموذج ثقافي معين يعطي مؤسساتها السياسية والقضائية كما يعطي فنونها وآدابها وعلومها ومعارفها ومعتقداتها وافكارها شكلاً خاصاً يحمل طابعاً عراقياً مميزاً عن غيره ، ولم يعد بالامكان تمييز العناصر الحضارية التي ساهمت في بناء الحضارة العراقية القديمة بطابعها المميز هذا اهي سومرية أم أكدية ، بابلية ام آشورية ، لذا فإنه لايصح نسبة الحضارة الى اي من الاقوام التي تتابعت على العيش في العراق وساهمت في بناء حضارته بشكل مستقل بل تجدر الاشارة الى الحضارة العراقية القديمة في عصر معين او حقبة معينة كقولنا مثلاً حضارة العراق في العصر البابلي القديم او في العصر الآشوري الحديث وهكذا .

---

(١) فرانكفورت ، فجر الحضارة ، ص١٣ .

وكما انه لايمكن نسبة الحضارة الى عنصر معين من البشر دون غيره ممن عاشوا في العراق عبر العصور، كذلك لايمكن نسبة اي من المظاهر او العناصر الحضارية المختلفة الى مدة زمنية محددة بالسنين وبشكل دقيق، فلا يمكن القول، مثلاً، بأن صناعة الاختام الاسطوانية بدأت عام ٤٣٠٠ ق.م. او ان الكتابة المسمارية ابتدعت عام ٣٥٠٠ ق. م. اوان بناء الزقورة بدأ في العراق عام ٢٥٠٠ ق.م، حيث لاتظهر عادة المظاهر الحضارية فجأة وفي سنة معينة بل لابد وان تمر بمرحلة من التطور الى ان تبرز وتشيع وتترك آثاراً يمكن للباحث تتبعها. لذا، فاذا اردنا ان نشير الى وقت ظهور هذه العناصر الحضارية علينا ان نقول ان صناعة الاختام الاسطوانية ظهرت في حدود ٤٣٠٠ ق.م. وان الكتابة ابتدعت في اواسط الالف الرابع قبل الميلاد (حدود ٣٥٠٠ ق.م) وان بناء الزقورة بدأ في حدود اواسط الالف الثالث قبل الميلاد وهكذا بالنسبة الى بقية المظاهر والعناصر الحضارية المختلفة.

وينطبق الشيء نفسه على اختفاء بعض العناصر او المظاهر الحضارية، فلا تختفي تلك العناصر والمظاهر فجأة أو بمجرد زوال الكيان السياسي لهذه المملكة او تلك او بغياب الاقوام السومرية اوغيرها من على المسرح السياسي بل تبقى تتصارع مع غيرها من العناصر الحضارية الجديدة الى ان يتغلب بعضها على البعض الآخر وتبدأ بالاختفاء التدريجي، وقد تبقى بعض العناصر الحضارية لقرون عديدة بعد زوال الكيان السياسي للاقوام التي ابتدعتها او طورتها، وما التراث الحضاري العراقي القديم في الحضارات المعاصرة– مما سنتحدث عنه في مكان آخر– الا مثل على ذلك. كما لايصح القول ان الحضارة العراقية القديمة ماتت بنهاية الكيان السياسي للآشوريين والبابليين طالما ظل العراقيون القدماء ومن سيطر عليهم من اقوام اجنبية غازية، يعيشون في ظلالها لقرون عديدة من بعد زوال الكيان السياسي لآخر حكم وطني في العراق، بل ظل تأثير الحضارة العراقية القديمة ظاهراً في الحضارات التالية وحتى وقتنا الحاضر.

ان معلوماتنا عن الحضارة العراقية القديمة مستمدة ومستنبطة من مصادر كثيرة ومتنوعة ومتباينة في قيمتها التاريخية والآثارية، كما سبق واشير الى ذلك، وقد تمكن الباحثون المحدثون من بعد دراسة وتحليل ماهو متوفر من معلومات من وضع صور تقريبية عن الجوانب المختلفة للحضارة العراقية القديمة، الا ان معلوماتنا عن العصور والادوار التي مرّت على العراق عبر العصور القديمة غير موزّعة بشكل متوازن، فقد تتوفر لدينا، مثلاً، معلومات تفصيلية عن القوانين وما تعكسه من عادات وتقاليد اجتماعية في العصر البابلي القديم (حدود ٢٠٠٠– ١٦٠٠ ق.م)، ولا تتوفر لدينا مثل تلك المعلومات عن هذا الجانب

بالذات من العصر الآشوري الحديث (٩١١- ٦١٢ ق.م) على الرغم من الأهمية القصوى التي احتلها العصر الآشوري الحديث في تاريخ العراق القديم وكثرة المخلفات المادية التي امكن الكشف عنها والتي ترقى بتاريخها الى هذا العصر. وما يقال عن القوانين ينطبق على مختلف الجوانب الحضارية الاخرى الفكرية والمادية. لذلك فإنه من الصعب جداً، بل قد يكون من المستحيل احياناً، ان تتحدث عن الجوانب الحضارية المختلفة في كل عصر من العصور أو دور من الادوار التي مرّت على العراق، فقد لاتتوفر لدينا اية معلومات عن القوانين او العلوم البحتة مثلاً من عصور معينة على الرغم من اهمية تلك العصور في حين تكون معلوماتنا غزيرة عن جوانب اخرى من حضارة تلك العصور وهكذا. لذا حاولنا ان يكون الحديث عن المظاهر الحضارية في العراق القديم عامّاً ودون تحديد العصور والأدوار غالباً على فرض ان ماهو متوفر لدينا من معلومات عن المظاهر الحضارية وان كانت خاصة بفترات معينة الا انها تنطبق على جميع العصور والأدوار التي مرت على العراق، الا اذا اشير الى غير ذلك. وقد اشير احياناً الى الفترات الزمنية التي ترقى اليها معلوماتنا المتيسرة عن بعض المظاهر والعناصر الحضارية زيادة في الدقة.

ولابد هنا من الاشارة الى ان معظم المعلومات المتوفرة لدينا عن الحضارة العراقية القديمة خاصة بالعصور التي كان العراق فيها يحكم من قبل سلالات وطنية بمعنى محلية، اما فترات الحكم الأجنبي، فمعلوماتنا عنها قليلة نسبياً ولاسيما في العصور التي اعقبت سقوط بابل عام ٥٣٩ ق.م. الا انه من المؤكد ان بلاد بابل وآشور ظلت تعيش في ظل الحضارة العراقية القديمة وتسير على النظم والمبادئ التي وضعها العراقيون القدماء من بابليين وآشوريين وان العناصر الحضارية التي ادخلها الغزاة الأجانب لم تقض على الحضارة العراقية القديمة، ولنا ان نفترض ان الخطوط العامة التي حكمت الحضارة العراقية في العصور الآشورية والبابلية ظلت سائدة في المنطقة لعدة قرون من بعد نهاية الدولة البابلية الحديثة.

الفصل الأول

نظام الحكم

نشوء اولى انظمة الحكم

ان المقصود بنظام الحكم هو اسلوب ادارة شؤون المدينة ، او البلد الذي يضم اكثر من مدينة واحدة ، الداخلية والخارجية ونوعية السلطة التي تتولى ذلك ، ولا يعرف بالضبط متى ظهرت اولى انظمة الحكم في مدن العراق الجنوبية حيث يصعب التعرف على ذلك من خلال الآثار المادية ، ومع ذلك ، فإن بعض الآثار المكتشفة ، كمقرات الحكام والبنايات العامة كتلك المكتشفة في تل الصوان في جنوب سامراء وابنية المعابد وملحقاتها قد تنم عن وجود حكام اتخذوا من تلك البنايات مقرّات لهم لادارة شؤون المدينة وما يتبعها من اراضٍ وقرى . كما يمكن الافادة من بعض النصوص المسمارية المتأخرة من حيث تاريخ التدوين والتي تتحدث عن الملوك والحكام والسلالات التي حكمت في الأزمنة السابقة ، كجداول الملوك ومما ورد في بعض القصص والاساطير والملاحم التي تشير بشكل غير مباشر الى انظمة الحكم والى الحكام والملوك السابقين. اضافة الى ذلك ، فإن طبيعة ارض جنوب العراق القاسية وما املته على الانسان الذي عاش فيها من متطلبات لتسخيرها لخدمته قد يعطي تصوراً عاماً عن اولى انظمة الحكم التي لابد وان ظهرت في المدن الاولى لتنظيم العمل وتكثيف الجهود من اجل مواجهة تحديات الطبيعة القاسية . ومنذ ان شاع استخدام الكتابة للتدوين في مطلع الالف الثالث قبل الميلاد ، اي منذ بداية العصور التاريخية الفعلية ، تبدأ معلوماتنا عن انظمة الحكم تزداد تدريجياً وتصبح موثقة بنصوص معاصرة ، وكلما تقدمنا مع الزمن كلما زادت معلوماتنا عن هذا الجانب المهم من حياة السكان في العراق القديم حتى تصبح معلوماتنا عن نظام الحكم في الالف الثاني قبل الميلاد غاية في التفصيل .

ويبدو انه كان لطبيعة ارض العراق الجغرافية وموقعه اثراً كبيراً على نشوء اولى انظمة الحكم ، كما سبق واشرنا ، حيث املت هذه الطبيعة القاسية التي اتسمت ، لاسيما في القسم الجنوبي من العراق ، بشحّة امطارها وارتفاع درجات الحرارة فيها وبفيضاناتها المفاجئة والمدمّرة وتحدياتها الصعبة، نمطاً معيناً من الحياة حيث كان على السكان ، ان هم ارادوا العيش برخاء واطمئنان ، انّ يعملوا متكاتفين من اجل فتح القنوات والجداول لري الحقول وتصريف المياه وكري الانهار واقامة السدود والحواجز لدرء اخطار الفيضانات وتجميع القوى القادرة على صد اي هجوم اجنبي لحماية القرى والمستوطنات الزراعية والممتلكات .

ومن الطبيعي ان الاعمال الجماعية اللازمة لتنفيذ مثل هذه المشاريع الكبيرة كانت بحاجة الى ادارة مركزية حازمة تسيطر عليها وتنظم اعمالها وتوجهها لفائدة المجموع ، شأنها شأن اي عمل جماعي ، فكان ان ظهرت تلك الادارات او القيادات التي كانت النواة التي انبثقت عنها اولى الادارات المركزية واولى انظمة الحكم .

وحيث ان ثقة الناس في العهود المبكرة كانت في الرجال القائمين على خدمة الآلهة ، وهم الكهنة ، حيث تصوّر الناس بأن الكهنة كانوا الوسطاء بينهم وبين آلهتهم ، ولاعتقاد القوم بأن جميع الظواهر الطبيعية المؤثرة على حياتهم ، كالامطار والفيضانات والشمس والقمر وغيرها ، تسير وفق رغبة الآلهة ، لذا فإن من المحتمل جداً ان القوم توسّلوا الى آلهتهم واسترضوها من خلال الكهنة فاختاروا من بين اولئك الكهنة من يتولى الاشراف على ادارة شؤونهم الدنيوية اضافة الى الواجبات الدينية ، واطلقوا على الكاهن المنتخب لقب « اين » En ، اي « السيد » . وتشير اقدم النصوص المكتشفة أن « الاين » كان يعيش في الازمنة المبكرة في جناح خاص يسمى إگيپار Egipar ، ملحق بالمعبد . ويؤيد هذا الرأي ان الملوك والحكام في الازمنة التالية ظلوا يحتفظون بصفتهم الدينية هذه على الرغم من انفصال السلطة الدينية عن السلطة الدنيوية ، فكانوا يلعبون دوراً رئيساً في احتفالات رأس السنة على اعتبار انهم الكهنة الاعلون للآلهة . وهكذا كانت كما يبدو بدايات انظمة الحكم في المدن الرئيسة في القسم الجنوبي من العراق الذي عرف فيما بعد ببلاد سومر واكد .

وبعد ان تطورت الحياة وتعقدت وزادت مسؤوليات « الاين » ، الذي يترجم عادة بلقب « الحاكم » ، وتنوعت مهامه الدنيوية ، إنتقل مقرحكمه الى قصر خاص منفصل عن المعبد وما لبث ان اصبح له حاشية كبيرة ضمت الكتبة والطباخين والسقاة والحرفيين والمغنيين والموسيقيين وغيرهم من اصناف حاشية البلاط المعتادة واصبح اهتمام الاين الاول بالشؤون الدنيوية وادارة شؤون المدينة وما يتبعها في حين انيطت المسؤوليات والواجبات

الدينية بكاهن آخر ظل مقرّه في المعبد يعاونه في ذلك عدد كبير من الكهنة والكاهنات الذين اختص كل منهم بعمل معين من اعمال المعبد الكثيرة والمتنوعة. ومنذ اواخر عصر فجر السلالات يتوضح انفصال السلطة الدينية عن السلطة الدنيوية تماماً.

وفي اواخر عصر فجر السلالات ايضاً يظهر لقب جديد هو لقب انسي Ensi الذي يرادف لقب اين En احياناً، وقد يعني ايضاً «وكيل الآلهة» وقد تلقب به بعض حكام المدن، واخيراً ظهر لقب جديد آخر هو لقب «الملك» وبالسومرية لوجال lugal، ومعناه الحرفي «الرجل العظيم»، الذي ينم عن صفة حاملة. ولم يكن لقب لوجال يطلق في بداية الامر على اي حاكم مدينة بل كان يشير الى الحاكم الذي امتد نفوذه وسلطانه الى خارج حدود مدينته الرئيسة. ونظراً للقدسية التي احتلتها مدينة نيبور (نفَر) في نفوس السومريين عامة، ولاعتقادهم بأن شرعية حكم الملك «لوجال» تستوجب اعتراف اله مدينة نيبور بالملك، لذا فإن لقب لوجال كان يطلق على الحاكم متى اعترفت مدينة نيبور بحكمه وسلطانه. ثم شاع استخدام لقب لوجال وترجم الى الاكدية بصيغة شَرُّ Šarru الذي يعني «الملك». اما لقب إنسي Ensi، والذي يقابله بالاكدية اللقب إيشّاكو Iššakku، فقد اصبح يستخدم عندما يراد الاشارة الى صفة الملك الدينية وعلاقته بالآلهة، كما استخدم ايضاً للاشارة الى الحكام الذين كان يعينهم الملك على المدن والمقاطعات التابعة له بعد ان توحّدت المدن وغدت تحت سلطة دولة مركزية واحدة.

دول المدن السومرية — Sumerian City – States

شهد النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد نمو واتساع المدن السريع وزيادة عدد سكانها وغدت بعض المدن الرئيسة مراكز حضارية مهمة. وحيث ان القسم الجنوبي من العراق تميز بوجود العديد من الاهوار والمستنقعات اضافة الى الانهار الرئيسة والفرعية، التي كانت تفصل بين منطقة واخرى، ولصعوبة المواصلات، فقد استقلت المدن الرئيسة كل بادارتها الخاصة المهيمنة على المدينة وما يتبعها من قرى وارياف واراضٍ، وغدت كل مدينة رئيسة وحدة متكاملة ذات كيان مستقل ولها حدودها التي تفصلها عن غيرها ولها حاكم مستقل يمثل، في تصور الناس، الآلهة على الأرض ويحكم باسمها وينوب عنها في ادارة شؤون البشر، ولها تقاليدها وانظمتها ومواردها الخاصة بها، وقد عرفت كل وحدة من تلك الوحدات المستقلة باسم المدينة الرئيسة فيها، وهي العاصمة، التي تبلورت حولها او باسم الحاكم او الملك الذي يحكم فيها. اما الباحثون في الوقت الحاضر، فقد سمّوا تلك

الوحدات السياسية المستقلة باسم «دول المدن» City – States . ولأن السومريين كانوا يؤلفون العنصر الغالب في تلك الأزمنة فلقد عرفت تلك الدول او المالك بدول المدن السومرية الا ان دول المدن هذه لم تقتصر على السومريين فقط ، بل لابد وان كان هناك دول مدن في الاجزاء الاخرى من العراق ولاسيما في بلاد آشور وعلى نهر الفرات وفي منطقة ديالى ، غير ان معلوماتنا عنها قليلة نسبياً نظراً لقلّة النصوص المسمارية المكتشفة في تلك المناطق والتي ترقى الى هذه الازمنة المبكرة من العصور التاريخية .

وهكذا كانت ارض وادي الرافدين في عصر فجر السلالات (حدود ٢٩٠٠ – ٢٤٠٠ ق . م) مجزأة الى عدد من دول المدن يحكم كل منها سلالة حاكمة مستقلة عن غيرها ، وقد ترتبط دولة مدينة باخرى بمعاهدة او اتفاقية ثنائية ، الا ان العلاقات بين دول المدن كانت في الغالب علاقات عدائية . وقد وصل عدد دول المدن المتعاصرة والمستقلة ، احياناً الى اكثر من عشر دول تتقاسم الحكم في ارجاء العراق المختلفة ، ولم يكن هناك دولة هي الاقوى لكي تسيطر على بقية الدول .

دولة القطر الواحدة

ويبدو ان الاتجاه العام الذي يمكن تلمّسه منذ اواخر عصر فجر السلالات كان نحو توحيد دول المدن وضمها في دولة مركزية واحدة تسيطر على جميع انحاء العراق . ويبدو انه كان لطبيعة ارض العراق وموقعه الجغرافي اثر كبير في ظهور هذا الاتجاه فقد فهم حكام وملوك العراق القدماء ضرورة توحيد دول المدن في دولة قوية واحدة . فالعراق ، وخاصة سهله الرسوبي ، مع خصوبة تربته ووفرة مياهه العذبة وسعة اراضيه الزراعية وملاءمة مناخه للزراعة ، الا انه فقير بالمواد الخام الضرورية لقيام اية حضارة ناضجة ، فهو يفتقر الى المعادن على اختلافها بما فيها الاحجار الجيدة والى الاخشاب الصالحة لصناعة الآثاث والى التوابل والبخور وغيرها من المواد الضرورية . لذا كان على حكام وملوك دول المدن ان يؤمّنوا الحصول على تلك المواد من مصادرها البعيدة في آسيا الصغرى وبلاد الشام وايران وما وراء الخليج العربي ، وذلك عن طريق التجارة . وكان على القوافل التجارية ان تمر عبر حدود ممالك متعددة الى ان تصل الى وجهتها النهائية وكان عليها ان تدفع الضرائب والاتاوات وقد تتعرض للسلب والنهب .. وحيث ان الدولة كانت تسيطر بصورة عامة على التجارة الخارجية لاسيما وان المواد الخام المستوردة كانت من اجل بناء القصور والمعابد وعمل المسلات والتماثيل الملكية ، لذا فقد عملت دول المدن المختلفة للسيطرة على الطرق

التجارية او حمايتها بشكل من الاشكال ، وكان ذلك من اسباب نشوب الحروب والمنازعات بين دول المدن. اضافة الى ذلك ، فقد كانت المناوشات الحدودية والتنافس للحصول على المزيد من الأراضي الزراعية ومصادر المياه من اسباب نشوب الحروب بين الدول المتجاورة ولعل خير مثل على ذلك هي الحرب الطويلة التي دارت بين دولة لجش ودولة اوما المجاورة والتي استمرت مايقرب من مائة سنة بسبب رغبة كل من الدولتين السيطرة على السهل الخصب الواقع بينهما وعلى القناة المائية ، كما يشير الى ذلك نص اينتمينا حاكم لجش.

اضافة الى ذلك ، يبدو انه لم يكن غائباً على حكام وملوك دول المدن السومرية اخطار الغزو والاحتلال الأجنبي المتوقع ، ولاسيما القادم من الشرق ، متى كانت سلطة الحكومات المركزية في بلاد سومر واكد ضعيفة ومبعثرة — وقد اشارت جداول الملوك السومريين الى مثل هذا الغزو عندما تحدثت عن انتقال الملكية بقوة السلاح الى مدن تقع في بلاد عيلام ، الى الشرق من بلاد سومر. فالمعروف ان بلاد سومر واكد تشكل اقليماً مفتوحاً امام الاقوام القاطنة في الشرق والشمال الشرقي لايحجزها عن تلك الاقوام اي حاجز طبيعي منيع ، كما كانت اقليماً مفتوحاً من جهة الغرب والشمال الغربي يسمح بهجرة القبائل البدوية الجزرية وتغلغلها بين السكان دون ان يوقف هجرتها حاجز منيع حتى شواطئ نهر الفرات ، وقد استمرت فعلاً هجرة القبائل الجزرية وتغلغلها في المنطقة منذ اقدم العصور والى فترة متأخرة من تاريخ العراق القديم.

وازاء هذه الظروف التي املت على حكام وملوك دول المدن السومرية سياسة تقضي بتقوية دولهم وتوسيع سلطانهم ومد نفوذهم وبناء قدراتهم العسكرية ، لضمان امن وسلامة الطرق التجارية وتوفير المواد الخام ومن اجل الحصول على المزيد من الأراضي الزراعية ومصادر المياه وللمحافظة على البلاد من الغزو المتوقع من الاقوام والقبائل القادمة من الشرق ولايقاف هجرة الاقوام البدوية الجزرية من الغرب ولتحقيق طموحات الحكام والملوك الذاتية في توسيع سلطانهم ، فقد كانت هناك اكثر من محاولة لتوحيد جميع او بعض دول المدن القائمة وضمها تحت لواء دولة واحدة ، ومن تلك المحاولات التي نعرف عنها بعض الشيء محاولة لوجال زاجيزي في اواخر عصر فجر السلالات ، وربما سبقها محاولات اخرى لم تصلنا معلومات عنها وربما كان ميسيلم حاكم كيش من الحكام الذين حاولوا توحيد المنطقة كما يستشف ذلك من دوره في عقد معاهدة الصلح بين اوما ولجش.

الا ان المحاولة الناجحة في توحيد جميع دول المدن وتأسيس دولة القطر الواحدة تتمثل بما قام به سرجون الأكدي (٢٣٧١ - ٢٣١٦) فقد تمكن سرجون، كما سبق وأن أشرنا الى ذلك، خلال حكمه الطويل وحملاته العسكرية الكثيرة ان يسيطر على جميع انحاء العراق من اقصى الشمال الى اقصى الجنوب ويوحّد جميع دول المدن تحت راية دولة مركزية قوية واحدة بل انه امتد الى ماوراء حدود بلاد بابل وآشور الاعتيادية ووصل بنفوذه العسكري والسياسي الى سواحل البحر المتوسط وربما سيطر على بعض اجزاء آسيا الصغرى الجنوبية الشرقية، وضم بلاد عيلام الى حدود مملكته المتنامية التي اصبحت بحق امبراطورية تهيمن على معظم انحاء المنطقة وتمكن من خلال ذلك من الوقوف بصلابة امام اي خطر قد يظهر في الجهات الشرقية او الغربية قد يهدد حدود دولته، بل انه سارع، كما يحكي لنا احد النصوص المسمارية المكتشفة في العمارنة في مصر، الى نجدة بعض التجار الاكديين الذين كانوا يقطنون في آسيا الصغرى لأن حاكماً محلياً في آسيا الصغرى قد ظلمهم. كما انه امّن بذلك طرقه التجارية المؤدية الى مصادر المواد الخام التي غدا معظمها تحت سيطرته المباشرة وتفاخر بأن سفن دلمون وماجان وميلوخا كانت ترسوا محملة بالبضائع في ميناء اكد.

ولقد ظلت السياسة التي وضع اسسها سرجون الأكدي والتي تقوم على اساس تأسيس دولة مركزية واحدة تضم جميع انحاء القطر، نموذجاً يحتذى من قبل العديد من الملوك الذين برزوا في تاريخ العراق القديم مثل اور- نمو مؤسس سلالة اور الثالثة وحمورابي وسرجون الثاني الآشوري ونبوخذنصر وغيرهم، بل ان تاريخ بعض الملوك، وخاصة الآشوريين منهم، كان عبارة عن سلسلة من الحملات العسكرية الهادفة الى تثبيت اركان الدولة المركزية الواحدة وبسط هيمنتها على جميع انحاء العراق. ومن اليسر على الباحث المتتبع ان يلاحظ وقوع العراق فريسة للغزو الأجنبي متى ضعفت الحكومة المركزية وتقلّصت حدودها، وهذا ماحدث في اواخر عهد الدولة الأكدية عندما غزا الكوتيون بلاد سومر واكد وفي اواخر عهد سلالة حمورابي عندما احتل الكشيون بلاد بابل وفي فترة الضعف التي انتابت بلاد آشور فاحتلّها الميتانيون في اواسط الالف الثاني قبل الميلاد. وعندما حلّت ببلاد بابل الازمات الاقتصادية وانقطعت الطرق التجارية وضعفت الحكومة المركزية، وقع العراق ثانية فريسة للغزو الأجنبي القادم دوماً من الشرق وذلك عندما غزا الأخمينيون بلاد بابل، وقد توالى على حكم العراق بعد ذلك الغزاة الأجانب حتى كان تحرير العراق على ايدي الجيوش العربية المسلمة في معركة القادسية.

سبقت الأشارة الى كيفية نشوء اولى انظمة الحكم في القسم الوسطي والجنوبي من العراق وكيف كان للعوامل الجغرافية والطبيعية ولموقع العراق اثر كبير في نشوئها وطبيعتها. فكانت دول المدن المتعددة التي توحدت فيما بعد لتكون مايعرف بدولة القطر الواحدة التي سيطرت على جميع انحاء العراق. كما اشرنا ايضاً الى كيفية انتخاب اول الحكام والملوك ممن اطلق عليهم لقب إين En وانسي Ensi ثم لوجال Lugal ، معتمدين في ذلك على ما ورد في بعض النصوص المسمارية من القاب وتسميات. ومع ذلك تبقى معلوماتنا عن شكل النظام السياسي الذي ساد المدن السومرية الاولى في عصورها المبكّرة قليلة وغامضة نظراً لقلة النصوص المسمارية التي تتطرق الى شكل النظام السياسي، او انعدامها، وعدم امكانية الافادة من الآثار المادية، ان وجدت، عن مثل هذه الأمور. لذا، فان الصورة التي وضعت عن شكل نظام الحكم في العصور الاولى تبقى في اطار التخمين والاستنتاج ولايمكن عدّها صورة دقيقة ونهائية.

ولتفسير كيفية نشوء وتطور شكل النظام السياسي في المدن السومرية الاولى حتى تبلور في أواخر عصر فجر السلالات، كما هو معروف لدينا من النصوص المسمارية، ومن ثم تطور الى النظام الملكي الوراثي، فقد قام احد الباحثين الأوربيين، وهو جاكوبسون Jacobsen[1] بدراسة تحليلية لعدد من النصوص التي كانت قد دونت في بداية الالف الثاني قبل الميلاد او قبل ذلك، ولاسيما الملاحم والأساطير الدينية التي تحدثت عن تصرفات ومآثر الآلهة كما تصورها السومريون وغيرها من النصوص مما قد يعكس لنا شكل النظام السياسي الذي كان سائداً في العصور المبكرة بشكل مباشر او غير مباشر، وتوصل الى وضع نظرية خاصة بكيفية نشوء اولى الأنظمة السياسية وأسلوب تطورها حتى انبثق عنها النظام الملكي الوراثي المعروف. ويبدو ان نظرية جاكوبسون قد نالت قبولاً بصورة عامة من قبل معظم الباحثين حيث لم يظهر حتى الآن دراسة ترفضها كلياً. وان ظهرت بعض الدراسات التي عدّلت فيها بعض الشيء. وفحوى هذه النظرية ان اولى الأنظمة السياسية في المدن العراقية القديمة كانت تتسم بنوع من الديمقراطية، الا انها كانت

(1) Th. Jacobsen, "The Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia, Journal of Near Eastern Studies II, (1943), pp.159—172.

انظر كذلك Frank fort, H., Kingshipand Gods, Chicago, 1965 pp. 215—410.

ديمقراطية بدائية Primitive Democracy كما عبَّر عنها جاكوبسون ، حيث كانت السلطة العليا في المدينة بيد مجلس عام ضم جميع المواطنين ، ولعلّه ضم النساء والرجال[١] ، يجتمع ليقرر ما يجب عمله في الحالات الطارئة والتي تنذر بالخطر ، وكان لكل مواطن حق الكلام ، غير ان رأي بعضهم ، لاسيما الرجال المسنين الذين الّفوا ما يشبه مجلسَ الشيوخ داخل المجلس العام ، كان اكثر وزناً من رأي الآخرين وكان النقاش يستمر حتى يتم التوصل الى قرار نهائي وبالاجماع ، حيث لم يكن هناك اسلوب اخذ رأي الأكثرية[٢] ، وكان القرار النهائي يعلن عادة من قبل مجموعة صغيرة تدعى مشرّعي القانون ، وكان من بين القرارات المهمة التي كان على المجلس اتخاذها باستمرار هو اختيار من يكون مسؤولاً عن شؤون المدينة ، وقد اطلق على هذا المنتخب لقب اين En الذي اصبح يعني « السيد » او « الحاكم » وكان يسكن في جناح خاص في المعبد يسمى إكيپار Egepar . وكانت واجبات الأين في بداية الامر دينية ثم اصبح يعني بالشؤون الدنيوية ايضاً . وكانت سلطة الاين في ادارة شؤون المدينة محدودة ومقيدة بالصلاحيات المخولة له من قبل المجلس العام ، فلم يكن بمقدوره مثلاً اتخاذ قرار هام وخطير كاعلان الحرب او قبول الصلح أو عقد معاهدة بل كان عليه في مثل هذه الحالات ان يرجع الى المجلس ، وربما كان يرجع الى المسنين اولاً لاستشارتهم ومن ثم يعقد المجلس العام لطرح الموضوع عليه ، وهذا ما توكده قصة جلجامش حاكم مدينة لجش مع آجا حاكم مدينة كيش.

وفي حالات الطوارئ القصوى ، مثل حالة الحرب او الفيضان المفاجئ او تفشّي الوباء ، والتي كانت بحاجة الى اتخاذ قرارات حاسمة وسريعة يصعب معها الرجوع الى مجلس المدينة واخذ رأيه فيها ، كان لابد للمجلس من اختيار شخصية قوية تمتاز بالحنكة والمقدرة وحسن الادارة والتصرف ، وربما كان الاين نفسه ، ومنحها جميع الصلاحيات بصورة مؤقتة ، لادارة شؤون المدينة ومواجهة حالة الطوارئ. وقد اطلق على هذا الموظف الذي انتخبه المجلس في حالة الطوارئ لقب لوجال Lugal ، اي « الرجل العظيم » او « الرجل الكبير » . ولم تكن هذه الوظيفة في الاصل دائمية او وراثية بل كان يفترض ان تتزامن مع حالة الطوارىء فقط وتنتهي بانتهاءها . ومع ذلك ، فأن ما حصل ، كما يشير الى ذلك جاكوبسون في دراسته ، ان الرجل العظيم ، لوجال ، الذي ترجم الى « الملك » ، لم يتنازل

---

(١) انظر ساكز، عظمة بابل ، لندن ، ١٩٦٢ ، ترجمة عامر سليمان ، ص ٥٧.

(٢) ان هذا الاسلوب في اتخاذ القرارات الحاسمة بالاجماع ما يزال يعمل به لاسيما عند انتخاب البابا او توصل المحلفين في بعض المحاكم الاوربية والامريكية الى قرارهم بادانة او براءة المتهم.

عن السلطة والصلاحية التي منحت له وقت الطوارئ من قبل المجلس ، بل آثر الاحتفاظ بها حتى بعد زوال حالة الطوارئ وان ذلك لايشير الى منتخب واحد معين بل الى العديد من المنتخبين في المدن المختلفة . وهكذا ظل الرجال المنتخبون لوظيفة «لوجال» مستمرين في وظائفهم ومتمتعين بالسلطة المطلقة الممنوحة لهم ، ومن جهة اخرى ؛ عملوا على تقليص صلاحيات ونفوذ المجالس التي انتخبتهم تدريجياً والغاء مهامها ومسؤولياتها حتى لم يعد لها تأثير في توجيه سياسة المدينة وادارة شؤونها العامة . وزادوا في ذلك بأن جعلوا وظائفهم الملكية وراثية وذلك منذ اواخر عصر فجر السلالات .

ولكي يظهروا امام الناس بأنهم جاؤا الى الحكم باسلوب شرعي ، وان لم يتم انتخابهم من قبل مجالس المدن،خاصة اولئك الملوك الذين جاؤا الى الحكم عن طريق القوة وليس عن طريق الوراثة ، ادعوا بانهم آنما وصلوا للحكم عن طريق انتخابهم من قبل الآلهة نفسها التي اختارتهم من بين جموع البشر ليكونوا ممثلين لها على الارض ونواباً عنها في ادارة شؤون المدينة وما فيها ومن فيها . وفي حالة توريث الحكم الى ولي العهد ، ادعوا ايضاً بأن الآلهة هي التي اوحت اليهم تعيين احد الابناء ليكون ولياً للعهد . وكانت الآلهة توصل ، حسب تصورهم ، رغباتها الى الملوك والبشر عامة عن طريق الرؤى والاحلام او من خلال الكهنة المختصين بالطرق الكهنوتية المعروفة عندهم سواء عن طريق التنجيم او قراءة اكباد القرابين او غيرها من طرق العرافة . ولابد وأن صدق الناس ما ادعى به الملوك وآمنوا به حيث انهم زادوا من احترامهم للملوك وبدأوا احياناً بتقد يسهم بل ووصلوا الى درجة تأليه بعضهم وعدّوا الملكية ، وهي الوظيفة التي يحملها الملك ، وظيفة آلهية مقدسة كانت في الاصل في السماء ممثلة بشارات الحكم ، وهي التاج والصولجان وعصا الرعي ، ثم نزلت الى الارض ومنحت الى احد الافراد انتخبته الآلهة ليكون ممثلاً لها ونائباً عنها على الارض ، وهذا ما اشارت اليه صراحة جداول الملوك السومريين.

واستناداً الى هذه النظرية ، فأن تطور شكل النظام السياسي في المدن السومرية كان من النظام الديمقراطي البدائي الى النظام الملكي الوراثي المستبد الذي انبثق عنه وليس العكس ، كما هو متوقع ، وان الديمقراطية البدائية التي شهدتها مدن جنوب العراق لم تتبلور وتتطور وتتعمق بل تلاشت قبل ان ينتهي عصر فجر السلالات وان ظلت بعض آثارها في النظام الملكي ، حيث كانت سلطة الملك مع انها مطلقة وواسعة الا انها مقيدة برغبة الالهة وموافقتها على ما يتخذه الملك من قرارات مهمة .

ولاسناد النظرية التي جاء بها جاكوبسون حول شكل النظام السياسي في المدن السومرية الاولى واسلوب تطوره ، فقد اشار مؤيدو هذه النظرية الى الامور الآتية :

١ – تشير قصة جلجامش حاكم الوركاء وآجا حاكم كيش التي يظن انها حدثت في الطور الثالث من عصر فجر السلالات الى ان سلطة جلجامش لم تكن مطلقة بل كانت مقيدة عند النظر في الامور ذات الاهمية كقرار اعلان الحرب او قبول الاستسلام ، وكان على الحاكم ان يأخذ رأي المسنين اولاً وان لم يتوصل الى قرار نهائي ان يجمع مجلس المدينة العام لاتخاذ القرار المناسب . وموجز القصة أن حاكم كيش «آجا» عندما شعر بالقوة والبأس ، ورغبة في مد نفوذه وتوسيع سلطانه وضم مدينة الوركاء الى حدود مملكته ، بعث برسله الى جلجامش حاكم الوركاء منذراً ومهدداً وطالباً منه الاستسلام والخضوع والاعتراف بسيادة كيش وحاكمها والا عرّض نفسه ومدينته الى الدخول في حرب طاحنة لاتبقي ولا تذر. ويبدو أن جلجامش على الرغم من عدم موافقته على الاستسلام ، الا انه لم يستطع اتخاذ القرار النهائي واجابة الرسل بالرفض او القبول ، فاستشار المسنين في المدينة الذين يكونون مركز الثقل في مجلس المدينة ، ويبدو أيضاً ان المسنين آثروا الاستسلام ورفضوا الدخول في الحرب ، وهو امر طبيعي تمليه طبيعة الرجال المسنين التي تميل غالباً الى السلم والاستقرار. وعندما لم يوافق جلجامش على ذلك ، عرض الموضوع على المجلس العام الذي ضم جميع المواطنين ولاسيما القادرين على حمل السلاح ممّن سيقع عليهم عبء الحرب ومسؤولياتها ، واثار فيهم الحماس والوطنية وطلب منهم اتخاذ القرار فكان قرارهم بالاجماع هو تأييد جلجامش واعلان الحرب على كيش وعدم الاستسلام لآجا مهما كانت النتائج ، فاجيب الرسل واعلنت الحرب بين المدينتين.

٢ – كما افاد جاكوبسون من تحليل ماورد في النصوص المسمارية ، وخاصة القصص والاساطير الدينية التي نسجها الكهنة حول تصرفات الالهة ومآثرهم وعلاقاتهم ببعضهم البعض واسلوب ادارة شؤون مجمع الالهة الذي صوّره الكهنة ، وإن كانت تلك النصوص قد دونت في فترة تالية . فحسب رأي جاكوبسون أن هذه القصص والاساطير تعكس بشكل غير مباشر طبيعة الحياة السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة في مجتمع المدن السومرية البشري في عصر فجر السلالات ، وربما في العهد الشبيه بالكتابي ايضاً ، وإن كانت خاصة بمجتمع الآلهة . ويفسر ذلك بالقول ان المعتقدات الدينية العراقية القديمة والتي تدور حول مبدأ الشرك ، اي تعدد الالهة ، اتصفت بما يعرف عادة بمبدأ التشبيه ، اي تشبيه الآلهة التي تصور وجودها الكهنة

بالبشر بصفاتها الروحية والمادية . لذا صورت الالهة التي اعتقدوا بوجودها على هيئة البشر باشكالها الجسمية وحواسّها وعلاقاتها الاجتماعية وعواطفها ونظمها واحتفالاتها واجتماعاتها والى غير ذلك من الصفات التي اتسم بها البشر مع التركيز على بعض الصفات والمبالغة في بعضها الآخر لتمييز الآلهة عن البشر. وبعبارة اخرى ، فان جميع الصفات التي وصفت بها الآلهة ومجتمعها هي في واقع الحال انعكاس لما اتصف به مجتمع البشر. وقد جاء في القصص والاساطير الدينية ، وبصورة خاصة في قصة الخليقة ، إن الآلهة كانت تجتمع في مجالس خاصة بها لتناقش ما يعرض عليها من امور خاصة بمجمع الآلهة ، وكان هناك مجلس عام يضم جميع الآلهة الكبار والصغار الا انه كان هناك مجموعة من الآلهة الكبار كان لها رأي اكثر وزناً يرأسها رئيس الآلهة او ابو الآلهة جميعاً . وكان على الآلهة ان تتخذ القرار المناسب بشأن القضايا التي تعرض عليها ، وكان من بين تلك القضايا الرئيسة ، كما تذكر قصة الخليقة ، اختيار بطل الآلهة وملكها ليعهد اليه القضاء على تيامة التي حاربت الآلهة واعدّت لهم. وهكذا تم اختيار مردوخ ، اله مدينة بابل ، ليكون بطل الآلهة وخوّل جميع الصلاحيات والامكانات التي تمكنه من القضاء على تيامة . واستناداً الى مبدأ تشبيه الآلهة بالبشر الذي اشرنا اليه انفاً ، فأن مجالس الآلهة هذه ومناقشاتها واختيارها بطل الآلهة وتخويله الصلاحيات اللازمة لمواجهة تيامة ، الخطر الذي يهدد جميع الآلهة ، ماهو في الواقع الا انعكاس لما كان سائداً في مجتمع البشر في المدينة السومرية ، من مجالس ومناقشات وانتخاب للرجل العظيم . وبعبارة اخرى ، ان الكهنة وصفوا الآلهة في اسلوب ادارتها شؤون مجمع الآلهة بالصفات نفسها التي كانت موجودة في مجتمع المدينة السومرية ، وان ما نجده في القصص والاساطير الدينية وان كان وصفاً لمجمع الآلهة الا انه انعكاس لمجتمع المدينة السومرية في العصور المبكرة.

٣- تشير النصوص المسمارية المكتشفة الى انه على الرغم من أن الملكية المستبدة كانت قد قضت على الديمقراطية البدائية منذ اواخر عصر فجر السلالات ، الا أن بقايا ذلك النظام ظلت موجودة في العصور التالية حيث نجد في كل مدينة بابلية من العصر البابلي القديم (٢٠٠٠ – ١٦٠٠ ق . م) مجلس يضم المسنين او الشيوخ ينظر في القضايا القانونية التي كانت تعرض عليه او تحال اليه من قبل الحاكم او الملك وربما اشرف المجلس ايضاً على تنفيذ بعض العقوبات الصادرة بحق المجرمين. كما ضمت المراكز التجارية الآشورية التي نشأت في اقليم كبدوكيا في آسيا الصغرى في العصر الآشوري القديم الموازي للعصر البابلي القديم تقريباً من حيث المدة الزمنية ،

مجالس خاصة ضمت عدداً من التجار كانت تنظر في القضايا ذات العلاقة بتنظيم حياة التجار الآشوريين في تلك المراكز.

إن وجود مثل هذه المجالس في المدن المختلفة وإن كانت صلاحياتها محدودة يشير الى وجود مجالس مشابهة في العصور المبكرة ربما كانت صلاحياتها اوسع بكثير.

٤ - مما يلاحظ ان الكثير من الملوك، وبصورة خاصة اولئك الذين جاؤا الى الحكم بالقوة حاولوا إضفاء الشرعية على حكمهم بالادعاء بانهم جاؤا الى العرش نتيجة انتخاب الآلهة لهم من بين جموع البشر، اي انهم ادعوا بانهم جاؤا عن طريق الانتخاب ايضاً، ولكن من قبل الآلهة. وقد يعكس ذلك فكرة انتخاب الملك «لوجال» من قبل سكان المدينة في العصور المبكرة. كما ان تعيين ولي العهد كان يتم ايضاً استناداً الى اختيار الآلهة، وقد لا يكون الابن المختار هو الابن الاكبر بل حسبما ترغب الالهة في تصورهم.

واذا اخذنا نظرية جاكوبسون بنظر الاعتبار، طالما لم يظهر ما ينفيها او يفندها، فأن اولى انظمة الحكم التي نشأت في المدن السومرية في بداية عصر فجر السلالات، وربما منذ العهد الشبيه بالكتابي، كانت تتصف بصفات ديمقراطية الا ان تلك الديمقراطية لم تستمر طويلاً، وبدلاً من ان تتعمق وتتركز في المجتمع، ونظراً لظروف المنطقة القاسية، انبثق عن النظام الديمقراطي نظام ملكي وراثي قادر على ادارة دفة الحكم والسيطرة على المدينة وتسخير الطبيعة القاسية لخدمة السكان وبناء القوة اللازمة لصد اي هجوم أو غزو اجنبي وقد ظل النظام الملكي الوراثي هو السائد عبر جميع العصور العراقية القديمة وارتفع شأن الملك ومركزه احياناً الى درجة التأليه والتقديس.

النظام الملكي

بعد أن تطور نظام الحكم في المدن السومرية في عصور فجر السلالات وتبلور النظام الملكي الذي انبثق عن النظام الديمقراطي البدائي، كما سبق واشرنا، وضعت القصص والاساطير الدينية لتفسير هذا النظام ولكن بشكل غير مباشر، فحسب تلك القصص والاساطير فأن الملكية كانت من المظاهر الآلهية وكان اول من تقلّد وظيفة الملك في السماء والارض هو احد الآلهة، وهو الاله إنليل على وجه التحديد. كما جسّدت تلك القصص الملكية ورمزت اليها بشارات الملك، وهي التاج والصولجان وعصا الرعي، التي صورت بأنها كانت امام اله السماء آنو. وعندما خلق البشر ليعبد الآلهة وينوب عنها في ادارة شؤون

البشر على الارض ، كانت الملكية احدى الهبات التي منحتها الآلهة الى البشر لتمكينهم من ادارة شؤونهم والقيام بواجباتهم تجاه الآلهة . وهكذا هبطت الملكية ، ممثّلة بشارات الملك ، من السماء ، كما اعتقدوا ، لتحل في مدينة اريدو ، حيث منحت الى من انتخبته الآلهة من البشر ليكون ممثلاً لها ونائباً عنها على الارض ، واصبح ذلك الشخص المنتخب ملكاً . وتشير جداول الملوك السومريين[١] ان الملكية رفعت الى السماء عندما حلّ الطوفان ، ثم عادت وهبطت ثانية في مدينة كيش بعد ان انحسرت المياه .

«في ذلك الوقت ، لم يكن قد لبس تاج ..
وكان الصولجان ورباط الرأس والتاج والعصا
مودعة في السماء امام آنو ...
(ثم) هبطت الملوكية من السماء فكانت اريدو مركز
الملوكية وحكم في اريدو آلوليم ملكاً مدة ...
ثم جاء الطوفان (وجرف البلاد) . وبعد الطوفان
هبطت الملوكية (مرة ثانية) وحلّت في كيش ،
وصارت كيش مركز الملوكية »[٢]

فالملكية كانت في تصور السومريين ، وظيفة آلهية في حين كان حاملها ، وهو الملك من البشر بيد انه منتخب من قبل الآلهة لينوب عنها ويمثلها في الارض . وقد ظل هذا الاعتقاد سائداً عند العراقيين القدماء في مختلف العصور ، بل أن العديد من الملوك اكدّوا على انهم كانوا فعلاً منتخبين من قبل الآلهة . فهذا اسرحدون الآشوري (٦٨٠ - ٦٦٩ ق.م) مثلاً يقول عن نفسه :

---

(١) 1 — See: Th.Jacobsen, ThéSumerian King-Lists, Chicago, 1973.

(٢) حول ترجمة جداول الملوك السومريين الكاملة انظر : طه باقر ، ص ٢٨٨ - ٢٩٧ وجداول الملوك هي نصوص دونت في اواخر الالف الثالث قبل الميلاد ، في عهد سلالة اور الثالثة ، وضمت اسماء الملوك الذين تعاقبوا على الحكم في المدن المختلفة ، قبل الطوفان وبعد الطوفان ، وفيها سلبيات عديدة الا انها مصدرنا الوحيد احياناً عن تأريخ عصر فجر السلالات . انظر تفصيل ذلك الفصل الثاني من الجزء الاول من الكتاب .

«انا (الملك) المختار من قبل الاله آشور»[1]

وللتأكيد على أن الملك هو من البشر وإن الملكية هي هبة من الآلهة تنزعها عنه متى شاءت، يلاحظ أن من مراسيم احتفالات رأس السنة ان يدخل الملك في اليوم الخامس من ايام الاحتفالات الى المعبد حيث يقف امام تمثال الاله مردوخ ثم يترك لوحده فترة من الزمن، بعدها يدخل الكاهن الاعلى فينتزع عنه شارات الملك، وهي التاج والصولجان وعصا الرعي، ويضعها على منضدة خاصة وضعت امام تمثال الاله، دلالة رمزية على ان الملك لم يعد ملكاً بل بشراً اعتيادياً ثم يبدأ الملك بعد ذلك بالاعتراف امام تمثال الاله مؤكداً انه لم يذنب ولم يهمل ولم يظلم ولم يهدم الى اخره من الاعترافات ثم يتقدم الكاهن بعد ذلك ليصفع الملك على وجهه صفعة قوية ويجر اذنيه وكان الاعتقاد انه كلما اشتدت الصفعة كلما كان ذلك سبباً في تحقيق المزيد من الخير والرخاء للبلاد، بعد ذلك يعيد الكاهن شارات الملك الى الملك بعد ان تكون الآلهة قد رضيت عنه واعادت اليه الملوكية.

ومن الجدير بالاشارة ان هذا الاعتقاد وهذه الطقوس التي تؤكد على ان الملك كان من البشر الا انه ممثل للالهة على الارض تناقض تماماً اعتقاد المصريين القدماء بملوكهم حيث ظن المصريون القدماء أن الآلهة تجسدت في شخص الملك وبذلك فأن الملك اصبح الهاً مقدساً، وكان يلقب بابن الاله، لذا فانهم تحاشوا ذكر اسمه تقديساً واحتراماً بل اشاروا اليه ورمزوا له وغالباً ما كانوا يقولون «القصر» او «البيت الكبير» اشارة الى من يسكن القصر، وهو الملك. وكانت كلمة القصر تلفظ برعو، ومنها كلمة فرعون.[2]

تأليه الملك

ومع ذلك، فقد وصل احترام الملك وتقديسه في العراق القديم الى درجة التأليه احياناً ولكن في مدد محددة فقط فكانت تلك الحالات استثناء من القاعدة العامة. ففي عهد نرام سين حفيد سرجون الاكدي، اظهرت المنحوتات الملك وهو يلبس الخوذة ذات القرنين، وهي خوذة ترمز عادة الى الاله وكتب اسمه مسبوقاً بعلامة النجمة، وهي علامة دالة كانت توضع قبل اسماء الآلهة عادة. وفعل الشيء نفسه مؤسس سلالة اور الثالثة اور-

---

(١) نقلاً عن علي ياسين، نظام الحكم، في موسوعة الموصل الحضارية، ج١، موصل، ١٩٩١، ص ٢٣٢.

(٢) حول القاب الملك المصري انظر ارمان، مصر والحياة المصرية في العصور القديمة، صفحة ٤٣

انظر كذلك: عامر سليمان وفاضل عبدالواحد، عادات وتقاليد الشعوب القديمة، موصل، ١٩٧٩، ص ٢١١ - ٢١٢

نمو وابنه شولجي واولاده ، حيث عدّوا انفسهم من جملة الآلهة وقدمت لهم القرابين والتراتيل الدينية ووضعت تماثيلهم الى جوار تماثيل الآلهة ، وقد يكون ذلك ذو علاقة بطقوس الزواج المقدس التي ساهم فيها الملوك ممثلين عن الالهة(١) او انهم قد الّهوا انفسهم فعلاً ولا سبيل الى معرفة مدى تصديق الناس ذلك.(٢)

وعلى الرغم من ان بعض الملوك قد الّهوا انفسهم وغالبية الملوك في العراق القديم تمتعوا بمركز يصل الى درجة التقديس ، وان سلطاتهم كانت مطلقة لاتقيدها الا رغبات الآلهة وموافقتها على اعمالها الا ان بعض الرسائل تشير الى امكانية احد الحكام او التابعين انتقاد تصرفات الملك نفسه ، كالملك اسرحدون الآشوري (٦٨٠ – ٦٦٩ ق. م) الذي كان من الملوك الأقوياء البارزين في العصر الآشوري الحديث حيث بعث اليه احد حكام الأقاليم ، على اغلب الظن ، رسالة ينتقده فيها على تعيين اثنين من ابنائه في منصب ولاية العهد حيث يقول المرسل في رسالته :

«الى الملك سيدي ، خادمك...

ان بعض الأشياء التي يجب الا تعمل حتى في السماء قام بها سيدي الملك على الارض ، وجعلنا نراها ، لقد البست احد ابنائك ملابس الملكية وعهدت اليه بحكم بلاد آشور وعينت ابنك الاكبر حاكماً على بابل ،... ان ما قام به الملك سيدي لاجل ابنائه ليس عملاً جيداً للآشوريين الآن ، ياسيدي الملك ، منحك الاله آشور السلطة على الاقطار من مشرق الشمس الى مغربها... ان الملك سيدي وضع خطة غير جيدة ، وفي هذه القضية انك تبدو ضعيفاً» (٣)

---

(١) انظر تفصيل ذلك : محمد صالح طيب الزيباري ، النظام الملكي في العراق القديم ، رسالة ماجستير غير منشورة ، الموصل ١٩٨٩ ص ٥٤ وما بعدها.

(٢) انظر سامي سعيد الاحمد ، الادارة ونظام الحكم ، في حضارة العراق ، ج٢ ، ص ١٣ – ١٤.

(٣) Pfeiffer, R.H., State Letters of Assyria, New Haven, 1935, p. 113, N.151.

وحول تفاصيل ما كان على الملك القيام به اثناء اختفائه انظر محمد صالح طيب ، النظام الملكي ، ١٠٠ – ١٠١

الملك البديل

تؤكد جميع الدلائل على أن الملك كان من البشر الا انه كان ممثلاً للآلهة ونائباً عنها ؛ وقد وصل احترامه وتقديسه ، كما اشرنا ، الى درجة التأليه احيانا . ومثلما كان الملك يمثل الآلهة على الارض فقد كان يمثل البشر امام الآلهة حسب اعتقاد القوم كما كان الكاهن الاعلى للبلاد وقائد الشعب في الحرب والسلم لذلك فأن اي خطر قد يهدد حياة الملك كان ينظر اليه بانه خطر يهدد امن وسلامة المملكة كلّها بمن فيها . وقد يفسر الكهنة المختصون بعض الظواهر الطبيعية بانها نذر شؤم على حياة الملك ، كالخسوف والكسوف وغيرهما ، وكانوا ينذرون الملك بذلك ويطلبون منه عدم حضور احتفال معين او طقوس معينة فيقوم الملك عندها بارسال رداءه او تمثاله او قد يبعث من ينوب عنه للمشاركة في الاحتفال او الطقس ، وقد يطلب من الملك الاختفاء في قصره وعدم الظهور امام الناس لفترة معينة ، وقد يطلب احياناً من الملك التخلي عن الحكم لفترة مؤقتة ، يوم واحد او مائة يوم ، وتعيين بديل عنه من عامة الناس مستعد لمواجهة الخطر الذي تنبأ الكهنة بانه محدق بحياة الملك ، عندها ينصب الملك البديل ملكاً رسمياً على البلاد وتعطى له جميع الصلاحيات ويسكن في القصر الملكي في حين يختفي الملك الحقيقي . وفي النصوص الآشورية المتأخرة اشارات واضحة الى ذلك وان الملك البديل كان يحكم مائة يوم وربما كان يقتل بعدها وقد ترافقه سيدة من القصر تقوم بدور الملكة . وفي رسالة الى الملك اسرحدون الآشوري (٦٨٠-٦٦٩ ق.م) يذكر المرسل حول الملك البديل :

> «الملك البديل الذي وصل في اليوم الرابع عشر عند مغيب الشمس ، امضى ليلة الخامس عشر في القصر الملكي ، لقد حدث الكسوف بحضوره . دخل مدينة اكد في اليوم العشرين بدون اية حادثة (مشكلة) وبقي هناك» .[1]

وفي رسالة اخرى من عهد آشور بانيبال (٦٦٩- ٦٢٦ ق.م) اشارة الى مقتل الملك البديل ومعه سيدة القصر التي رافقته في مهمته كبديل للملك :

(١) انظر علي ياسين ، نظام الحكم ، في موسوعة الموصل الحضارية ، ج١ ، ٢٣٩

«دامقي وسيدته من البلاط ، وكما هو مناسب ، قد أخذوا
على عاتقهم مسؤولية الملك البديل ، بدلاً من الملك
(آشور بانيبال) سيدي ، وبدلاً من شمش- شوم-
اوكن ، اتخذوا قرارهم (كملك وسيدته) ، لقد لقي حتفه ،
فبنينا له قبراً هو وسيدته من البلاط ، جهزوا للدفن وسجّوا
في نعش مكشوف ، ثم دفنوا وندبوا»[1] .

ويبدو ان الاعتقاد بقدسية الملك وضرورة حمايته كان راسخاً في نفوس البعض من رعيته الى درجة انهم كانوا على استعداد لمواجهة الموت ، كما تشير الرسالة اعلاه ، في سبيل تخليص الملك وحمايته من اي خطر.

وكان تقليد الملك البديل معروفاً منذ العصر البابلي القديم (حدود ٢٠٠٠- ١٦٠٠ ق.م) على اقل تقدير، وهناك حادثة طريفة من بداية هذا العصر تشير الى تعيين احد الأشخاص الاعتياديين ملكاً على مملكة ايسن بديلاً عن الملك الحقيقي ايرّا- ايمتي الذي تنبأ الكهنة بأنه في خطر. وكان الملك البديل بستانياً بسيطاً يعمل في حديقة القصر. وما ان تولىٰ البستاني السلطة واصبح ملكاً الا ومات الملك في اليوم التالي اثر تناوله وجبة طعام مما يشير الى أنه مات مسموماً ، وربما كان هناك اتفاق بين الكهنة والبستاني للتخلص من الملك الحقيقي حكم بعدها الملك البديل ايسن لمدة عشرين سنة كاملة .

فقد ورد في احد النصوص المسمارية ما نصه :

«من اجل استمرار السلالة ، الملك ايرا- ايمتي جعل
البستاني انليل- باني يحل محله ويجلس على عرشه ووضع
التاج الملكي على رأسه ، مات ايرا- ايمتي في قصره لانه
تناول حساءاً حارّاً ، انليل- باني الذي كان على العرش لم
يتنازل عن العرش وعين ملكاً» .[2]

وقد أمكن التعرف على عدد من الحالات التي عيّن
فيها الملك البديل في العصر البابلي القديم والوسيط وفي
العصر الآشوري الحديث (ثمان حالات على الأقل) .[3]

---

(١) علي ياسين، نظام الحكم ، ص. ٢٤

(٢) Frankfort, H., Kingship and the Gods, Chicogo, 1948, P. 263.

(٣) انظر اسماء الملوك هؤلاء محمد صالح طيب. النظام الملكي ، ص ١٠٧ .

اسم الملك والقابه

تشير اسماء بعض الملوك الشخصية الى انها كانت اسماءً ملكية تسمى بها الملك بعد توليه الحكم ، وخير مثال على ذلك اسم سرجون الذي كان يلفظ بالأكدية شَرُّكين Šarrukin بمعنى « الملك الثابت » او « الملك المكين » ، وواضح من المعنى ان الاسم قد اطلق عليه بعد ان اصبح ملكاً ولا نعرف اسمه الشخصي قبل ذلك .

اما الملوك الذين جاؤا الى الحكم بالوراثة ، فلابد وان كانت اسماؤهم ملكية منذ ولادتهم طالما ولدوا في بيت ملكي وأطلقت عليهم اسماء ملكية . ومما يؤكد ان الاسماء الملكية هي خاصة بالملوك ان الكثير منها يتألف من جمل مفيدة ذات معانٍ .

كما اننا نلاحظ عدم ورود الاسماء الملكية ضمن اسماء الاشخاص الاعتياديين كما وردت في النصوص المسمارية المختلفة مما يشير الى ان تلك الاسماء كانت مقصورة على الملوك والامراء .

اما الالقاب الملكية فكثيرة وهي تنم عن مركز الملك وسعة نفوذه وتعطي فكرة واضحة عن بعض الاوضاع السياسية القائمة كما انها تنم عن النظرة التي كان ينظر من خلالها الملك الى نفسه والصورة التي رسمها الكتبة له سواء بتوجيه او ايحاء من الملك نفسه او تملقاً له وربما اعتقاداً منهم بانه كان يتصف بتلك الصفات والنعوت الكثيرة التي وصف بها .

وفي الفترات الاولى ، كان حاكم المدينة يلقب اين En ، كما اشرنا ، ثم ظهر لقب إنسي Ensi الذي لقب به بعض الملوك حتى في الفترات المتأخرة ولكن بصفتهم الدينية ، واخيراً ظهر لقب لوجال Lugal ، اي « الرجل العظيم » اي « الملك » (بالاكدية شَرُّم Šarrum) والذي كان يلقب به الحكام متى امتد نفوذهم الى خارج حدود مدينتهم ولاسيما اذا امتد الى مدينة نيبور (نفر) ، المدينة ذات القدسية الخاصة عند السومريين ، حيث كان ذلك يضفي الشرعية على حكم الملك .

ثم تطورت القاب الملوك منذ اواخر عصر فجر السلالات ، فلقب لوجال زاجيزي نفسه بلقب « ملك الاقليم » Lugal Kalamma ، اي « ملك البلاد » ، و « ملك سومر » كما اتخذ لنفسه لقب ملك كيش . اما سرجون الاكدي فقد اضاف الى هذه الالقاب لقب « ملك الجهات الاربعة » دلالة على اتساع سلطانه وسيطرته على جميع الاقاليم ، وكان هذا اللقب من الالقاب التي لقبت بها الآلهة ايضاً مما اضفى على الملك سرجون مدلولاً دينياً .

وفي عهد سلالة اور الثالثة ، استخدم لقب جديد آخر هو لقب «ملك بلاد سومر واكد» وربما يشير ذلك الى محاولة حكام اور الثالثة ترضية كل من السومريين والاكديين الذين يؤلفون الغالبية العظمى من السكان. اما الملوك الآشوريون ، فقد استخدموا القاباً جديدة اخرى تشير ايضاً الى سعة نفوذهم وقوة مملكتهم مثل لقب «ملك الكون» و «ملك آشور» و «ملك بلاد مصر العليا والسفلى».

اضافة الى ذلك ، فقد وصف الملوك بصفات ونعوت كثيرة قد تشغل احيانا جزءاً كبيراً من النصوص الملكية منها : «الاول بين الامراء» و «القوي» و «الاوحد» و «الرحيم» و «الراعي المخلص» و «المحب للحق والعدالة» و «فاعل الخير» والذاهب لمساعدة الفقير وغيرها من النعوت الكثيرة[1]

مسؤوليات الملك وواجباته

كانت مسؤوليات الملك وواجباته كثيرة ومتنوعة ، فاضافة الى واجباته الدينية تجاه الآلهة باعتباره ممثلاً لها على الأرض فقد كان عليه التزامات ومسؤوليات الحكم الكثيرة ومسؤوليات تجاه الرعية.

ونظراً لمكانة الملك في الممالك العراقية القديمة وقدسيته ، فقد كانت شخصيته تطغى على المملكة باسرها وتطبعها بطابع خاص ، فإذا كان الملك من الملوك البارزين ومن ذوي الشخصية القوية والكفاءة الادارية والسياسة المحنكة ، ارتفع شأن المملكة واتسع نفوذها ، وعلى النقيض من ذلك اذا تولى الحكم ملك ضعيف ذو شخصية مهزوزة ، تدهورت المملكة وتقلصت حدودها وقلَّ شأنها ، لذلك غالباً ما كانت تسمى المملكة باسم ملكها. ويصدق هذا القول بالدرجة الاولى على اولئك الملوك الثائرين الذين جاؤا الى الحكم بالقوة وأسسوا سلالة ملكية جديدة كسرجون الأكدي وسرجون الآشوري ونبو بلاصر وابنه وغيرهم.

وكان من اولى واجبات الملك تجاه الآلهة باعتباره ممثلها على الأرض ونائباً عنها هي ترجمة رغبات الآلهة التي يعلن الملك انها اوحتها اليه اما عن طريق الرؤى والاحلام او من خلال الكهنة بطرق عرافتهم الخاصة ، وكان على الملك ان يصدع لتنفيذ تلك الرغبات دون تردد.

---

(١) انظر مثلاً عامر سليمان ، الكتابة المسمارية والحرف العربي ، موصل ، ١٩٨٢ ، ص٥٤.

كما كان على الملك ان يساهم شخصياً بالعديد من الاحتفالات والطقوس الدينية ولاسيما طقس الزواج المقدس واحتفالات رأس السنة الجديدة ومراسيم نصب تماثيل الآلهة في المعابد وتقديم القرابين والنذور الى الآلهة ، وقبل كل شيء تشييد المعابد وتجديدها وتعميرها وتزيينها . وقد صور الملوك على المنحوتات او على هيئة تماثيل صغيرة وهم يقومون باداء الطقوس الدينية او يحملون سلال الطين والآجر المعدة للبدء ببناء المعبد .

وقد يقوم الملك مقام الكاهن الاعلى في المعبد الرئيس في المدينة وقد يعين احد افراد اسرته ، ولاسيما واحدة من بناته ، كاهنة عليا في المعبد الرئيس .

ومن جهة اخرى ، كانت الآلهة تشرف على أداء الملك واجباته تجاهها وتجاه الرعية وقد يكتب الملك رسالة مفصّلة عن اعماله موجهة الى الآلهة ، كما فعل سرجون الآشوري عندما دون رسالة الى الاله آشور عن تفاصيل حملته الثامنة ، اضافة الى ذلك ، فقد كان على الملك ان يستشير الآلهة في كل عمل مهم ينوي القيام به كقيادة حملة عسكرية او بناء معبد او مدينة او تعيين احد كبار الموظفين وذلك عن طريق الكهنة ايضاً ، ومن خلال مايقدم من اضحيات وقرابين للآلهة وما يفسّره الكهنة .

اما مسؤوليات الملك الدنيوية تجاه الرعية ، فهي الاخرى كثيرة ومتنوعة حيث كان المسؤول الأول عن ادارة شؤون المملكة والناس ، فكان ينبوع العدالة والقاضي الاعلى في البلاد فهو الذي يصدر القوانين وينشر العدالة ويتابع تنفيذها ويحكم بين الناس في القضايا المهمة التي تتعلق بقضية نفس ، كما كان مسؤولاً عن قيادة الجيش في حملاته العسكرية المهمة ، اما الحملات الأقل اهمية فقد ينيب عنه احد ابنائه او حكامه او قادته العسكريين ، وكان الملك يصدر التعليمات والمراسيم الملكية بشأن تنظيم الحياة الاقتصادية كذلك واعفاء البعض من الضرائب او من الخدمة العسكرية واعطاء الامتيازات لفئة من الناس او مدينة من المدن كما كان المسؤول عن تعيين كبار موظفي الدولة من حكام وقضاة وقادة وغالباً ما كان يستشير الآلهة في مثل هذه الامور عن طريق الكهنة ومن خلال تقديم الاضاحي الى المعابد .

وكان الملك المسؤول الاول عن تنظيم الحياة في المدينة واقامة اسوارها وحمايتها وكذلك فتح قنوات الري ومتابعة ادامتها وغالباً ماتفاخر الملوك بأنهم اهتموا بمشاريع الري وفتحوا القنوات والجداول . وتشير الرسائل المكتشفة سواء تلك المرسلة من الملك او الى الملك الى مدى حرص بعض الملوك التدخل في الكثير من قضايا الافراد وحل مشاكلهم كما تشير الى انه كان بامكان الافراد الاعتياديين ان يبعثوا برسائلهم الى الملك مباشرة استعطافاً واسترحاماً .

وقد امدتنا النصوص المسمارية المكتشفة بمعلومات وافية عن حياة الملك الخاصة والعامة كما افاد الباحثون من المنحوتات الكثيرة التي تصور الملك في مشاهد دينية واخرى ذات علاقة بالشؤون الدينية وبنشاطاته اليومية بل وفي حياته الخاصة ايضاً ، كمشاهد الصيد والاحتفالات وغيرها .

ولابد من الاشارة الى ان الصورة التي صوّر بها الملك في النصوص المسمارية والمنحوتات هي الصورة المثالية التي وضعها الملوك انفسهم او اوعزوا بوضعها وليس لدينا نصوص او منحوتات تعطينا فكرة دقيقة عن واقع حياة الملوك ونشاطاتهم اليومية من وجهة نظر الرعية .

ولاية العهد

كان النظام الملكي في العراق القديم منذ نشأته في اواسط الألف الثالث قبل الميلاد نظاماً وراثياً يرث الابن ، وغالباً الابن البكر ، اباه في الحكم ، وكان اختيار ولي العهد وتعيينه يتم ، كما في الوقت الحاضر ، اثناء حكم الملك الأب . وحيث ان نظرة العراقيين القدماء نحو الملك بأنه مختار من الآلهة ، لذلك كان يفترض ان اختيار ولي العهد كان يتم ايضاً من قبل الآلهة وغالباً ماادعى الملوك انهم مسوقون برغبة الآلهة التي اوحت اليهم بطريقة من الطرق التي كانت معروفة في اختيار ولي العهد الذي قد يكون اصغر الأبناء . وتشير النصوص المسمارية من العهد الآشوري الى تفاصيل كيفية اختيار ولي العهد ، إذ بعد ان تتم استخارة الآلهة في تعيين احد الأبناء وليّاً للعهد كان يقام احتفال ملكي كبير يحضره جميع القادة والحكام والملوك والامراء التابعين وكبار موظفي الدولة اضافة الى افراد الاسرة المالكة ليبايعوا ولي العهد ويقسموا قسم الولاء له وطاعته والعمل على خدمته والمحافظة على ملكه من بعد وفاة الملك الأب ومساعدته على تولّي مهام الحكم والقضاء على كل من يحاول النيل منه او من مملكته . وقد تبرم المعاهدات مع الامراء والملوك التابعين لتثبيت ذلك تحريرياً ولعل خير مثال لذلك هي المعاهدات التي عقدها اسرحدون مع حكام وامراء الاقاليم التابعة له عند تسميته آشوربانيبال ولياً للعهد على عرش آشور واخيه شمش – شم – اوكن ولياً للعهد على عرش بابل[1] والتي جاء فيها :

---

(١) انظر: D.J.Wisemon, The Vassal Treaty of Esarhaddon, Iraq, XX, 1958.

"(هذه هي) المعاهدة التي عقدها معكم اسرحدون ، ملك بلاد آشور، امام آلهة السماء والأرض العظيمة ، (ونيابة عنها) من اجل تعيين ولي العهد آشوربانيبال ، ابن سيدكم اسرحدون ، ملك بلاد آشور، الذي رشحه وعيّنه لخلافته. فعندما يفارق اسرحدون ، ملك بلاد آشور، الحياة ، عليكم ان تنصبوا آشوربانيبال ، ولي العهد المرشح ، على العرش الملكي. وسيمارس عليكم ملوكية وسيادة بلاد آشور، (واذا) لم تخدموه في الأرض المكشوفة وفي المدينة ، ولم تقاتلوا وتموتوا من اجله ، ولم تتكلموا معه دائماً بصوت تام ، ولم تنصحوه دائماً (بنصيحة) صادقة وباخلاص تام ، ولم تمهدوا طريقه في كل ناحية ، واذا ابعدتموه ونصبتم محله على عرش بلاد آشور، احد اخوته ، صغيراً (كان) ام كبيراً ، اذا غيّرتم او سمحتم لاحد ان يغير قرار اسرحدون ، ملك بلاد آشور، اذا لم تخضعوا (كرعايا) لولي العهد المرشح آشوربانيبال ابن اسرحدون ، ملك بلاد آشور، سيدكم ، ولم تمكنوه من ممارسة الملوكية والسيادة عليكم ..."

ثم يعدد اسرحدون بعد ذلك جميع الاعمال والاقوال والالتزامات والواجبات التي يجب عليهم القيام بها او عدم القيام بها ومن ثم يستنزل اللعنات على كل من يخالف ذلك والتي شغلت جزءاً كبيراً من المعاهدة.[1]

وبعد ان تتم تسمية ولي العهد ، ينتقل من القصر الملكي الى قصر خاص اعد له يسمى بيت ريدوتي ، اي قصر ولاية العهد[2] ، حيث تتم تربية وتنشأة وتثقيف ولي العهد وتدريبه واعداده لتسلم مهام منصبه المرتقب. وقد يدرب فعلياً على قيادة الحملات العسكرية او ادارة حكم احدى المقاطعات او حتى يشرك في الحكم مع ابيه ويعمل كنائب له ، كما فعل شمشي- ادد الأول (١٨١٠- ١٧٨٢ ق.م) مع ولديه. اضافة الى ذلك ، كان يثقف ويعلم القراءة والكتابة والعلوم المهمة ولعل في النص الآتي توضيح لكيفية تعيين ولي العهد ، وهو خاص بتعيين اسرحدون ولياً للعهد الآشوري.

«لقد كنت اصغر اخوتي البالغين ، الا ان ابي الذي انجبني
(رفع) اسمي بين اخوتي بأمر من الآلهة اشور- وشمش....
قائلا : «هذا هو خليفتي» واستفسر من الاله شمش وادد
عن طريق الفأل ، واجابوه مؤكدين : «انه هو الذي يجب

(١) حول الترجمة العربية لهذه المعاهدة انظر: وليد محمد صالح فرحان العلاقات السياسية الآشورية ، بغداد ، ١٩٧٦ ، الملحق. (اطروحة ماجستير غير منشورة مقدمة الى جامعة بغداد) ص١٤٩- ١٧٣.

(٢) انظر: عامر سليمان ، اكتشاف مدينة تربيص الآشورية ، آداب الرافدين ، (١٩٧١) ، ص١٥- ٥٠. حيث تم اكتشاف قصر ولاية العهد الذي كان قد شغله عدد من اولياء العهود الآشوريين كان آخرهم آشوربانيبال (٦٦٩- ٦٢٦ق.م).

ان يخلفك، وبهذه المناسبة المهمة والكريمة دعوت الآشوريين كبيراً وصغيراً، فضلاً عن اخوتي الذين ولدوا في بيت الابوة وامام الآلهة آشور وسين.... جعلتهم يقسمون وليحترموا اولويتي. وفي يوم جميل من شهر نيسان وطبقاً للارادة الآلهية دخلت الى (قصر) ولاية العهد (بيت ريدوتي)[1]

وقد يدرب ولي العهد منذ سِنٍ مبكرة، كما حدث ذلك بالنسبة لآشور بانيبال ولي عهد اسرحدون على عرش آشور حيث يذكر في احد نصوصه

«... تعلمت من الآلهة ادابا (ندابا) واكتسبت معرفة جميع الكنوز الكتابية الغامضة وحذقت آيات السماء والارض، كنت شجاعاً، استطعت حل مسائل صعبة في القسمة والضرب وقرأت الكتابات السومرية والأكدية الصعبة واستمتعت بقراءة احجار ماقبل الطوفان... هذا ماكنت اقوم به خلال ايامي. كنت امتطي جوادي وارمي السهام رمز شجاعتي ورميت الرماح وامسكت بعنان الخيل وقيادة العربات وتعلمت حمل الترس، وكنت ارغب ان اصبح سيد جميع العمال الماهرين (من صانعي السلاح)، وفي الوقت نفسه اتعلم التهذيب الملكي واسير في طريق الملوك وكنت احضر امام الملك الذي انجبني واصدر التعليمات الى النبلاء ولم يكن يتم تعيين اي حاكم او تعيين اي مدير مقاطعة دون موافقتي واثناء غيابي». [2]

وفاة الملك ومراسيم الدفن

اشارت بعض النصوص الى موت الملك بشكل طبيعي في حين ذكرت نصوص اخرى اغتيال الملك، مثل الملك سنحاريب.

---

(١) انظر علي ياسين، نظام الحكم، ص٢٣٣.

(٢) نفس المصدر، ص٢٤٣.

وليست لدينا معلومات وافية عن المراسيم التي كانت تتم بعد وفاة الملك واثناء دفنه. ومع ذلك، هناك رسالة من العصر الآشوري الحديث تشير الى ان الحزن كان يعم ارجاء المملكة عند وفاة الملك وربما كان الحداد يعلن ويخرج الناس الى الشوارع يندبون ملكهم ويبكون عليه، حيث تذكر الرسالة :

«لقد خرجنا للطم الصدور والبكاء على الميت. في اليوم الذي سمعنا بأن الملك قد مات، سكان مدينة آشور خرجوا للنحيب عليه»[1].

وكان الملوك يدفنون عادة في عاصمة ملكهم ولم تكن مقابرهم ضخمة كالتي نجدها في مصر وان كانوا يدفنون مع الميت بعض الادوات والاسلحة والحلي. وفي بلاد آشور، كانت العادة ان يدفن الملوك في مدينة آشور نفسها حتى وان لم يكن الملك المتوفي قد اتخذها عاصمة لملكه وذلك لمكانتها الدينية في نفوس الآشوريين. وقد تم الكشف عن عدد من مدافن الملوك الآشوريين في مدينة آشور كما كشف عن عدد من القبور الملكية في السنوات الاخيرة في مدينة النمرود ضمت كنوزاً ثمينة من الحلي الذهبية وربما كانت تلك المدافن تخص ملكات واميرات آشوريات فقط. وقد اشار احد النصوص الآشورية الى مراسيم الدفن الخاصة بالملك :

«في القبر، المكان الخفي، وفي المرج الملكي، جعلته يرقد بسلام التابوت الحجري والفتحة لغطائه، غطيت الفتحة، بنحاس قوي وثبتُّ رقبته الخاصة (ضد السراق والارواح الشريرة)
التجهيزات من الذهب والفضة والتي تناسب القبر، والشارات الملكية التي يحبها والتي عرضتها على ضوء الشمس، ثم وضعت كل هذا في القبر...»[2].

مراسيم التتويج

يستمر تثقيف وتدريب ولي العهد على اسلوب ادارة المملكة الى ان يحين الوقت لتسلم مهام منصبه الجديد ملكاً على البلاد وذلك بعد وفاة الملك الأب واقامة مراسيم دفنه وفق الطقوس المعروفة. وكان ولي العهد يتوج بعد دفن الملك مباشرة، وقد يتأخر عن ذلك اذا

(١) محمد صالح طيب الزيباري، النظام الملكي، ص ٨٤
(٢) المصدر نفسه ص ٢٤٠ - ٢٤١.

كان في مكان بعيد عن العاصمة كما حدث لنبوخذنصر عندما توفي ابوه وهو في بلاد الشام على رأس الجيش البابلي وقد استغرقت رحلته الى بابل اكثر من عشرين يوماً ، الى المعبد الرئيس الذي تقام فيه مراسيم التتويج ، وفي العصر الآشوري كان معبد الاله آشور في مدينة آشور مخصصاً للتتويج. وكان الكاهن الاعلى قد ودّع شارات الملك امام تمثال الاله ، ويشير احد النصوص الآشورية المكتشفة ان ولي العهد كان يحمل على الاكتاف وهو في طريقه الى المعبد ثم يدخل ولي العهد الى غرفة الهيكل في المعبد يتقدمه الكاهن الاعلى ويقوم بالطقوس المطلوبة لتقديم فروض الطاعة الى الاله ومن ثم يقوم الكاهن بمسحه بالزيت دلالة رمزية على منحه الملكية ثم يلبسه التاج ويسلمه الصولجان وعصا الرعي التي كانت قد اودعت في المعبد عند وفاة الملك ويردد الكاهن تراتيل واناشيد خاصة بالمناسبة ودعاء للملك الجديد. ولابد وان كان يرافق ذلك اقامة احتفالات وتزيينات عامة واقامة صلوات للاحتفال بالملك الجديد. ويحمل ولي العهد بعدها ، وهو على كرسي عرشه ، الى القصر الملكي المخصص لاقامته حيث ينتظره كبار موظفي القصر والمملكة من حكام وقضاة وقادة وغيرهم وقد نزعوا عنهم شارات وظائفهم ورتبهم العسكرية ووقفوا بشكل غير منتظم وبدون مراعاة التسلسل الاداري وكأنهم قد تخلّوا عن وظائفهم وذلك لكي يقوم الملك الجديد بتعيينهم من جديد او اعفاء بعضهم وتعيين غيرهم تماماً كما يفعل الملوك ورؤساء الدول في الوقت الحاضر عندما تستقيل الوزارة تلقائياً عند تتويج ملك جديد او انتخاب رئيس جديد للدولة ومن ثم يعاد تشكيلها وفق رغبة الملك الجديد.

بعد ان تتم مراسيم التتويج يباشر الملك الجديد اعماله في القصر الملكي في العاصمة وغالباً ما كان يقوم بتجديد القصر الملكي او بناء قصر جديد له وقد يقوم ببناء عاصمة جديدة ، كما فعل سرجون الأكدي وسرجون الآشوري ، او اعادة بناء العاصمة ، كما فعل آشور ناصربال وسنحاريب وغيرهما.

الاسرة الملكية

على الرغم من وفرة النصوص المسمارية الملكية ومن مختلف العصور، فان مالدينا من معلومات عن الاسرة الملكية في العراق القديم قليل جداً ، الا ان ذلك لايعني ان الاسر الملكية لم تكن تتمتع بمركز مرموق وتحتل اهمية خاصة وتؤثر احياناً في سياسة الدولة بل ربما كانت طبيعة النصوص الملكية ، ومعظمها يتحدث عن الانجازات العسكرية والعمرانية للملك او يخص ادارة الدولة ، هي التي تحكّمت في نوعية المعلومات التي حملتها النصوص الملكية.

ومع ذلك ، تشير الادلة المتوفرة إلى ان زوجة الملك ، اي الملكة نِن Nin ، كانت في العصور السومرية المبكرة تتمتع بمركز خاص حيث كانت مسؤولة غالباً عن خدمة معبد الهة المدينة في حين كان زوجها الملك او الحاكم مسؤولاً عن خدمة معبد اله المدينة كما تشير اصلاحات اوروكاجينا (اورو انيمجينا) التي اصدرها لاصلاح المفاسد التي عمت مدينة لجش ، الى ان زوجة الحاكم كانت قد سيطرت على حقول وبساتين خاصة بالمعبد وكذلك اولاد الحاكم حتى غدت :

«كانت ... بيوت حريم القصر وحقول حريم القصر وبيوت اولاد القصر وحقول اولاد القصر مزدحمة بعضها الى جانب بعض ...»[1]

كما كانت زوجة حاكم لجش تتاجر بالقمح والماشية والاخشاب والمجوهرات وكانت لها علاقات مع اميرات اخريات[2] .

وكان من عادة الملوك ان يعينوا زوجاتهم او احدى بناتهم كاهنة عليا للمعبد الرئيس في المدينة ، وهذا مافعله سرجون الاكدي وحفيده نرام – سين ، وكذلك فعل الملك نبو نائيد آخر ملوك الدولة البابلية الحديثة والذي كانت امه ايضاً كاهنة عليا لمعبد الاله سين في مدينة حّران .

كما اشتهرت اخت حمورابي بأنها كانت تعمل بالتجارة وكذلك ورد ذكر اسماء بعض الملكات والاميرات من العصر البابلي القديم ممن تمتعن بمركز مرموق .[3]

اما اشهر الملكات اللائي ذكرن في النصوص المسمارية او عثر على بعض من اثارهن ، فقد ورد ذكر الملكة پو آبي pu – abi (وكان الاسم يقرأ خطأ شبعاد) من سلالة اور الاولى (حدود ٢٦٠٠ ق . م) حيث كشف عن قبرها في مقبرة اور الملكية ومعها عدد كبير من الحاشية ، ربما كانوا قد دفنوا معها ، واثاث وحاجيات ثمينة أخرى مما يشير الى مركزها الرفيع .[4] كما ورد اسم الملكة نين – باندا من الفترة نفسها تقريباً وورد ذكر الملكة كوبابا Kubaba (حدود ٢٤٣٠ ق.م) التي كانت آخر من حكم في سلالة كيش الثالثة . كما كان لزوجة الملك السومري شولجي (٢٠٩٤ – ٢٠٤٦ ق.م) شأن كبير وشخصية قوية .

---

(١) عامر سليمان ، القانون في العراق القديم ، موصل ، ١٩٧٧ ، ص ١٤٤

(٢) محمد صالح طيب ، النظام الملكي ، ص ٦٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٠

(٤) المصدر نفسه ص ٧٠ – ٧١ .

كما كان للملكة شيبتوم زوجة الملك زمري- ليم (١٧٨٢- ١٧٥٦ ق.م) ملك مملكة ماري على نهر الفرات وابنه الملك ياريم ليم ملك مملكة يمخد (حلب) في شمال سوريا دور كبير ومهم في ادارة المملكة ولاسيما عند غياب زوجها في حملاته العسكرية كما تشير الى ذلك بعض الرسائل التي كانت قد ارسلتها اليه تخبره فيها عن امور ادارية وسياسية واخرى اقتصادية خاصة بالمملكة.[1]

الا ان اكثر الملكات شهرة في تاريخ العراق القديم هي الملكة سمير - اميس، وهي الصيغة اليونانية للاسم الاشوري شمو- رامات، وكانت سمير اميس زوجة الملك شمشي- أدد الخامس (٨٢٤- ٨١١ ق. م) ثم اصبحت. وصية على ابنها القاصر أدد - نراري الثالث لمدة ثلاث سنوات وحكمت الدولة الاشورية خلال تلك الفترة القصيرة بكفاءة ومقدرة الا انها لم تقم باعمال باهرة او انجازات ضخمة تبرر مانسج حولها من قصص واساطير خيالية وردت في كتابات الكتاب الاغريق والرومان والارمن. ومع ذلك، عثر على بعض التماثيل التي ورد فيها اسم هذه الملكة الى جانب اسم ابنها أدد- نراري كما عثر على مسلة من الحجر تحمل اسمها تذكر:

" مسلة شمو رامات، زوجة شمشي- ادد (الخامس)، ملك العالم ملك الاشوريين، ام ادد- نراري (الثالث) ملك الاشوريين، كنّة شيلمنصر (الثالث) ملك اقاليم العالم الاربعة "[2]

وقد سميت في كتابات اخرى انها سيدة القصر، اي ملكة.

ومن الملكات الاخريات المشهورات، الملكة نقية زاكوتو، زوجة الملك سنحاريب (٧٠٤- ٦٨١ ق.م) وام الملك اسرحدون التي اضطلعت بدور سياسي بارز لاسيما في تولي ابنها العرش الاشوري، وكانت من اصل ارامي وقد ظلت تعيش في عهد ابنها وحفيدها. وقد ظهرت زاكوتو على مسلة من البرونز مع ابنها اسرحدون في حين تشير بعض الرسائل الى دورها الفعّال في ادارة شؤون الاجزاء الجنوبية من الامبراطورية الاشورية في عهد ابنها

---

(١) Artzi,P. and Malmat, J. A., The Correspondance of Šibtu Queen of Mari, Oientalia, 40, 1971, p.76.

(٢) Luckenbill, D.D., Ancient Records of Assyria and Baby lonia ,Chicago, 1926, vol. I, p. 260.
انظر كذلك سامي سعيد الاحمد، سمير اميس، بغداد ١٩٨٨، ٩- ١٣.

اسرحدون[1] . كما ورد ذكر زوجة سنحاريب الثانية وهي الملكة تاشميتوم .. ومن العصر البابلي الحديث (٦٢٦ – ٥٣٩ ق.م) ورد ذكر زوجة الملك نبوخذنصر الميدية وام الملك نبونائيد التي عاشت ، كما اشرنا ، اكثر من مائة سنة وعاصرت اربعاً من الملوك الاشوريين والبابليين ، وكانت كاهنة معبدسين في حران العليا وكان تاثيرها كبير ، لاسيما من ناحية الافكار الدينية ، على نبونائيد وقد ورد اسمها على هيئة آدد – كوبي . كما تظهر زوجة الملك اشور بانيبال وهي جالسة على كرسي حول منضدة الى جوار زوجها في حديقة القصر وهما يحتسيان شراباً احتفالاً بالانتصار الذي حققه اشور بانيبال على مملكة عيلام.[2]

ومع ذلك ، فانه من الواضح ان الملكات لم يلعبن دوراً رئيساً ومهما في شؤون المملكة في العراق القديم الا استثناءً – كما انه كان للمصاهرات السياسية اثرها في اقامة الاحلاف والمعاهدات والعلاقات الطيبة في المالك المختلفة ، وقد اشير الى زيجات كثيرة منذ عهد شولجي وزمري – ليم وياريم – ليم وعدد من الملوك الكشيين والاشوريين ، وكان لكل من هذه الزيجات اثار سياسية معينة .[3]

وكان القصر الملكي ، ولاسيما في العصر الاشوري ، يضم اعداداً كبيرة من النساء منهن زوجات الملك وسراياه وجواريه ، وكانت المشاكل بينهن كثيرة الى درجة انه اشير الى معاقبة كل من يسترق السمع عن عراك حريم القصر او غنائهن بأشد العقوبة ، وهي صلم الاذن .[4] وكان هناك جناح خاص في القصر الملكي مخصص لحريم القصر الا انه من المؤسف انه قلّما مثلت زوجات الملك او بناته على المنحوتات او المسلات وتبقى معلوماتنا عنهن محدودة .. وقد اثارت المكتشفات الحديثة في مدينة نمرود (كلخو) اهتماماً كبيراً حيث تم الكشف عن كنوز ذهبية ثمينة في قبرين من القبور الملكية في قصر اشور ناصربال الثاني (٨٥٨ – ٨٢٤ ق . م) ربما عائدين لملكات او اميرات اشوريات .[5]

---

(١) محمد صالح طيب ، النظام الملكي ، ٧٢ – ٧٣ .

(٢) سامي سعيد الاحمد ، سمير اميس ، ٩ – ١٣ .

(٣) انظر تفاصيل ذلك ، محمد صالح طيب ، النظام الملكي ، ٧٣ – ٧٥

(٤) ساكز ، عظمة بابل ، ١٥٠ .

(٥) تولت دائرة الآثار والتراث العراقية التنقيب في المدينة باشراف السيد منهل جبر وادارة السيد مزاحم حسين.

مصادر منتخبة

الجبوري ، علي ياسين ، نظام الحكم ، في موسوعة الموصل الحضارية ، موصل ، ١٩٩١ ، ج ١ ، ص ٢٢٩-٢٤٣ و(الادارة) ص ٢٤٣-٢٦٣.

الاحمد ، سامي سعيد ، الادارة ونظام الحكم ، في حضارة العراق ، بغداد ، ١٩٨٥ ، ج ٢ ، ص ٧- ٣٨.

الطعان ، عبدالرضا ، الفكر السياسي في العراق القديم ، بغداد ، ١٩٨١ .

طيب ، محمد صالح طيب ، النظام الملكي في العراق القديم ، دراسة مقارنة مع النظام الملكي المصري ، رسالة ماجستير غير منشورة ، مقدمة الى كلية الآداب ، جامعة الموصل ، ١٩٨٩ .

Frankfort, H., Kingship and Gods, Chicago, 1965.

Jacobsen, The Sumerian King-Lists, Chicago 1973.

Primitive Democracy in Ancient Mesopotaima, JNES, 11/3 (1943).

Luckenbill, D.D. Ancient Records of Assyria and Babylonia , Chicago, 1926.

Wiseman, D.J. The Vassal Treaties of Esarhaddon, Iraq, XX 1958.

الفصل الثاني

الإدارة والعلاقات الخارجية

الادارة في عصر فجر السلالات

حكم في العراق منذ مطلع الالف الثالث قبل الميلاد وحتى نهاية العصر البابلي الحديث في اواسط الالف الاول قبل الميلاد اشكال مختلفة من الدول والممالك. ففي العصور المبكرة وقبل ان يتبلور النظام الملكي في اواخر عصر فجر السلالات، كانت المدينة، كما سبق واشرنا، تحكم من قبل مجلس المدينة العام الذي انتخب، حسب نظرية جاكوبسون، احد اعضائه او احد الكهنة، ليكون مسؤولاً عن ادارة المدينة وقد سمي هذا المنتخب اين En ثم استخدم لقب انسي Ensi. ولابد أن يعاون الاين او الانسي كادر من الكهنة والموظفين من الجباة والمفتشين والمراقبين وغيرهم، لاسيما وان الاين كان مسؤولاً في بداية الأمر عن الشؤون الدينية والدنيوية في المدينة، وهذا ماشارت اليه اصلاحات اوروكاجينا (اوروإينمجينا) صراحة حيث ذكرت ان من بين من كان يعمل مع الانسي ويعاونه في ادارة شؤون المدينة المسؤول عن اصحاب القوارب ورئيس الرعاة والحمير والاغنام والمسؤول عن مصائد الاسماك وجباة وموظفو الاينسي [1]. وقد ورد ذكر هؤلاء على انهم افسدوا الاوضاع الاقتصادية في مدينة لجش. ويبدو من النصوص القليلة المكتشفة ان المعبد كان يهيمن الى درجة كبيرة على كل نشاطات المدينة الاقتصادية والثقافية اضافة الى مهامه الدينية، ويتبع ذلك ان تدخله في الامور الادارية كان كبيراً ايضاً. وازدادت سلطة الحاكم في بعض المدن احياناً الى درجة بدأ يتعسف في جباية

(١) انظر: عامر سليمان. القانون في العراق القديم، موصل ١٩٧٧، ص ١٤٤.

الضرائب وابتزاز اموال الناس من خلال موظفيه وجباته ويصادر املاكهم ويستولي على املاك المعبد واراضيه وحقوله الزراعية ، كما يفهم ذلك مما حدث في مدينة لجش في حدود ٢٤٠٠ ق. م. حيث ثار الكهنة على الحاكم وقضوا على حكمه وجاءوا بأحد الكهنة ليصلح ما افسده الحكام ويعيد حقوق المعبد التي كان الحاكم وافراد اسرته قد استولوا عليها وينصف الفقير والمظلوم ويقضي على الجباة والمفتشين واستغلالهم. وكان اوروانيمجينا (اوروكاجينا) النموذج لذلك الحاكم المصلح الذي دوّن لنا اصلاحاته الاقتصادية والاجتماعية على رقيم من الطين والتي تعد بحق اقدم اصلاحات اقتصادية واجتماعية معروفة حتى الان. ومن الطبيعي جداً ان ادارة الحكم في المدن السومرية في عصر فجر السلالات كانت ادارة مركزية يشرف عليها حاكم المدينة وبشكل مباشر او من خلال موظفيه وعيونه الكثيرين ، ولم يكن ذلك من الامور الصعبة طالما كانت دولة المدينة صغيرة المساحة نسبياً ولاتضم غالباً سوى مدينة رئيسة واحدة هي مقر الحاكم وقد يتبعها بعض القرى والارياف وربما بعض المدن الصغيرة القريبة وفي هذه الفترة ايضاً ظهر لقب لوجال Lugal الذي ترجم بمصطلح «الملك».

النظام الاداري في عصر دولة القطر الواحدة :

بعد ان تأسست الدولة الاكدية في حدود ٢٣٧١ ق. م. ، كان لابد ان تتغير الاساليب المتبعة لادارة شؤون المملكة ، فبعد ان كانت دول المدن السومرية صغيرة المساحة وكانت كل منها متجانسة من حيث اللغة والقومية والمعتقدات الدينية واساليب الحياة ، ضمت الدولة الاكدية اجناساً مختلفة يتكلمون لهجات او لغات مختلفة ويعتقدون بالهة متعددة ويعيشون حياة ذات اساليب متباينة ، وان كانت الخطوط العامة التي تؤطر حضارتهم واحدة. وكان على الملوك الاكديين ان يتبعوا سياسة مركزية محكمة ويقسّموا دولتهم المترامية الاطراف الى مقاطعات يحكم في كل منها حاكم يعتمد على ولائه للملك الحاكم ويسير وفق توجيهاته الملكية وينفذ سياسته. كما تطلبت الادارة الجديدة ازالة اسوار المدن التي كان وجودها ضروريا في عصر دول المدن السومرية لحماية المدينة ضد هجمات المدن الاخرى القريبة ، اما بعد توحيد دول المدن في دولة واحدة ، لم يعد هناك حاجة لمثل هذه الاسوار طالما كانت المدينة ضمن حدود دولة واسعة تحمي حدودها قطعات عسكرية مرابطة على

الحدود . اضافة الى ذلك ، فان وجود الأسوار المنيعة قد يشجع حاكم المدينة وسكان المدينة الى التمرد ضد السلطة المركزية الحاكمة خاصة وان تلك السلطة قد ضمت جميع المدن تحت لوائها بالقوة ومن عهد قريب ولابد وان كانت المدن تسعى الى الانفصال والعودة الى النظام القديم حيث كانت كل مدينة رئيسة مركزاً لدولة صغيرة وهذا مايفسر قيام الفتن والتمردات في المدن المختلفة بعد وفاة سرجون مؤسس السلالة الاكدية مباشرة. لذلك كان اعتماد سرجون وحفيده نرام- سين على الحكام من العناصر الاكدية بالدرجة الاولى ، كما كان على الملك وهو في عاصمته اكد الواقعة في قلب الامبراطورية الاكدية ، ان يعتمد على الرسل والمبعوثين ويطور نظاماً للمواصلات والبريد لكي يمكن ايصال التعليمات الملكية الى حكام المدن والمقاطعات بأسرع وقت ويقف على ما كان يجري في ارجاء الامبراطورية من تمردات او عصيان او غير ذلك.

وينطبق هذا الاسلوب من الادارة على سلالة اور الثالثة (٢١١٣- ٢٠٠٦ ق.م) ايضاً، طالما ضمت الاقاليم نفسها التي ضمتها الدولة الاكدية ، وتشير النصوص المتوفرة الى ان النظام الاداري المركزي الذي اتبعه ملوك اور الثالثة كان على درجة عالية من الكفاءة بل عدة البعض اكفأ نظام اداري قبل العصر الاشوري الحديث. [١] وقد اتبع ملوك سلالة اور الثالثة سياسة نقل حكام المدن والمقاطعات من وقت لآخر الى اماكن اخرى كي لاتزداد روابطهم المحلية وبالتالي قد يتمردون على السلطة المركزية ويعملون على الانفصال عنها ، كما تضمنت سياستهم فصل الادارة المدنية التي انيطت بحاكم مدني عن الادارة العسكرية في المدينة التي كان يشرف عليها آمر عسكري يرتبط بالملك مباشرة ، وبذلك تمكن الملك من ضمان ولاء المدن وعدم حدوث فتن واضطرابات داخلية فيها.

كما اهتم ملوك اور ايضاً بوسائل الاتصال وارسال الرسل والمبعوثين للاطلاع على ما كان يجري في ارجاء الامبراطورية.

اما في العصر البابلي القديم (حدود ٢٠٠٠- ١٦٠٠ ق. م) فقد تميز القسم الاول منه ، وهو ماعرف بعصر ايسن- لارسا ، بتعدد دول المدن الحاكمة وعودة

---

(١) ساكز، عظمة بابل، ص ٢٧٤.

القطر الى التجزئة في حين اتصف القسم الثاني والذي يبدأ منذ اواخر عصر حمورابي بوحدة القطر تحت ادارة مركزية قوية واحدة هي ادارة الملك حمورابي .

ويبدو من النصوص المسمارية المكتشفة في عدد من دول المدن التي قامت في اعقاب سقوط سلالة اور الثالثة والتي سيطر عليها الاموريون بصورة عامة ، ان الدولة الواحدة كانت تضم عدداً من المدن والقرى والارياف الى جانب المدينة الرئيسة التي كانت مقراً للاسرة الحاكمة . وكان يحكم في المدن الصغيرة موظف يسمى خزانُ hazānu بمعنى المشرف او المحافظ . وكان في كل مدينة مجلس يضم المسنين او الشيوخ ، شيبوتمُ Šibūtum ، وكان حاكم المدينة مسؤول عن حفظ الأمن وتطبيق العدالة والاشراف على قنوات الري . الا ان المسؤولية النهائية كانت بيد الملك ، لذا كان على حكام المدن ان يقدّموا تقارير متتالية الى الملك . وقد اوضحت بعض النصوص المكتشفة ان حاكم المدينة كان يبعث الى الملك بتقارير مفصّلة تضم مختلف الشؤون كحدوث الاوبئة والفيضانات وغزو الجراد اضافة الى الامور الادارية والعسكرية الاخرى . وقد يكون تحت سلطة حاكم المدينة وحدة عسكرية خاصة لحفظ الأمن وتفتيش القنوات ولاعمال الشرطة العامة .

وبعد ان توحدت جميع دول المدن تحت ادارة مملكة واحدة يرأسها ملك قوي الشخصية وهو حمورابي ، وضح فصل السلطة الدينية عن السلطة الدنيوية تماماً حتى في القضاء وتعاظمت سلطة الملك وغدا القصر الملكي يضم جهازاً كبيراً من الموظفين والاداريين لادارة شؤون المملكة يؤيد ذلك ماتم الكشف عنه من قصور ملكية ضخمة ، مثل قصر زمري ليم في مدينة ماري ، وقصر ملك اشنونا في مدينة اشنونا (تل اسمر حالياً) ، فقد ضم قصر زمري ليم مايزيد عن ثلاثمائة غرفة مما يشير الى أن القصر كان بمثابة مركز المملكة وانه ضم عدداً كبيراً من الموظفين والاداريين المسؤولين عن ادارة شؤون المملكة[١] ، يقابل ذلك تناقص حجم المعبد وبالتالي تناقص عدد كهنته وابتعاده عن الادارة الدنيوية . كما اتصف النظام الاداري ومنذ عصر حمورابي بالمركزية المطلقة الى درجة ان الملك كان يتدخل في كل قضية ، مهما كانت قليلة الشأن ، من القضايا التي كانت تواجه حكام المدن والاقاليم على الرغم من بعدهم عن مقر الحكم في العاصمة . وقد امكن التعرف على تفاصيل النظام الاداري الذي اتبع في عهد حمورابي من خلال المئات من الرسائل الملكية التي كان قد بعث بها الملك الى حكام المدن وضمنها توجيهاته وتعليماته الملكية الخاصة باسلوب حل المشاكل ومعالجتها ، كما تعكس لنا قوانينه المشهورة جانباً من الادارة المركزية التي اعتمدها حمورابي .

---

(١) انظر سامي سعيد الاحمد ، الادارة ونظام الحكم ، حضارة العراق ، ج٢ ، ص ٢٤ وما بعدها .

وكان من الاساليب الناجحة التي اعتمدها حمورابي في ادارة شؤون المملكة ، كما يستدل على ذلك من نصوص القوانين، مكافأة الموظفين من عسكريين ومدنيين واصحاب الحرف والصناعات والعاملين في التجارة والكتبة وغيرهم بمساحات معينة من الاراضي الملكية كانت تقطع الى كل منهم لاستغلالها طوال حياة الشخص مقابل الخدمة التي كان يقدمها للقصر الملكي. وكانت مثل هذه الاراضي تنتقل بالوراثة من الاب الى الابن ، اذا كان الابن قادراً على اكمال الخدمة المطلوبة والايفاء بالالتزامات المفروضة على الارض ، الا انه لم يكن يسمح ببيع الارض او منحها لمن لايقدر على اداء الخدمة المفروضة عليها . وكان من بين الموظفين الذين خصصت لهم «اراضٍ ملكية ، والتي كانت تسمى «حقل ادامة» ، افراد القوات المسلحة من صنف الريدوم rêdum وصنف البائيروم bāirum ، اي الجندي والقناص ، وكذلك ما سمّي پاپا PA· PA ولابُتُّ labuttu .[1] كما كانت الاراضي تقطع الى اي شخص يقدم خدمة ما الى القصر شريطة قيامه باداء الخدمة المفروضة عليها . وكانت مساحات الاراضي المقطعة على هذا النحو تتباين ربما استناداً الى نوع الخدمة التي يقدمها الشخص وطبيعة عمله . وكان الحصول على اقطاعات ملكية من هذا النوع يعد امتيازاً حرص الموظفون على الحصول عليه والمحافظة على الارض والا استردّت منهم . وكان لهذا الاسلوب في اقطاع الاراضي الملكية فوائد مزدوجة حيث انه عوّض عن دفع الاجور الى الموظفين لقاء خدماتهم الى القصر وفي الوقت نفسه ضمن حرص من اقطعت له الارض على زراعتها واستغلالها ومن ثم دفع ما يترتب عليها من ضرائب الى خزينة الدولة .

وقد اعتمد حمورابي في ادارة شؤون مملكته ، ولاسيما في السنوات العشر الاخيرة من حكمه عندما توسعت حدودها وضمت اليها جميع دول المدن التي كانت قائمة في بلاد بابل وآشور من قبل توليه الحكم ، على عدد كبير من الموظفين من ذوي الكفاءة والمقدرة العالية ، وربما اشرف شخصياً على اختيارهم ، وكان هؤلاء الموظفون يوجهون مركزياً من قبل الملك مباشرة ومن خلال الرسائل الكثيرة التي كان يبعث بها اليهم حول اسلوب ادارة المدن والمقاطعات التي عهدت اليهم . وقد ورد في تلك الرسائل مصطلحان خاصّان باسماء الوحدات الادارية يشير الاول منها ، وهو مصطلح پاطُم Pāṭum ، الى المدينة وجميع الاراضي الزراعية التابعة لها في حين كان يقصد بالمصطلح الثاني ، وهو إرصيتمُ Irṣitum ،

---

(1) A. Suleiman, A Study of Land Tenure in the Old Babylonian Period, London, 1966, pp. 63 ff.

وهي اطروحة دكتوارة غير منشورة مقدمة الى جامعة لندن . إنظر كذلك هوست كلنغل ، حمورابي ملك بابل وعصره ، ترجمة غازي شريف ، بغداد ، ١٩٨٧ ، ص ١١١ ومابعدها .

احد احياء المدينة الكبيرة. اما القاب الموظفين الاداريين ومهامهم، فقد ذكرت النصوص عدداً من الالقاب مثل لقب رابيانُم rabiānum الذي يمكن ترجمته بالمحافظ او رئيس المدينة او البلدة، ولقب شكانكُم šakanakkum، الذي كان يشغل وظيفة كبيرة في المدينة ايضاً. وكان في كل مدينة مجلس ضم المسنين، او الشيوخ، كانت تعهد اليه بعض القضايا التي تحتاج الى تحقيق محلي وحل الخصومات التي تنشب بين الافراد، كما كان في كل مدينة عدد من الموظفين الاداريين الآخرين المسؤولين عن ادارة الاراضي الملكية وآخرين مسؤولين عن العبيد وعن حفظ الامن اضافة الى رسل الملك وجباته والمراقبين والمفتشين وغيرهم. وكانت الرقابة الملكية شديدة على الموظفين وقد توجه اليهم الاوامر والانذارات والتوبيخات كما قد يستدعى احدهم للمثول امام الملك وبالسرعة الفائقة:

«قل لسين- ادينّام أن حمورابي يقول: حالما تلمح لوحتي هذه توجه الى بابل وامثل بين يديَّ، ولايجوز أن تتاخر- احضر بسرعة!». (١)

في حين طلب الملك في رسالة اخرى من شماش- خاصر الذي كان موظفاً كبيراً في مدينة لارسا، وربما كان المسؤول الاول فيها، المثول امامه خلال يومين فقط، وكانت المسافة بين لارسا وبابل اكثر من مائتي كيلومتر. وقد يطلب الى الموظف المسؤول ان يأتي بالوثائق والمستمسكات الخاصة بقضية معينة اشتكى اصحابها الى الملك مباشرة للتحقيق فيها او ان يطلب من الحاكم جلب عدد من ذوي العلاقة معه، ولاسيما اذا كانت القضية ذات علاقة بقضية استلام رشوة او انتزاع ملكية ارض او اهمال في الاشراف على قنوات الري.

ومهما كانت كفاءة حمورابي الادارية الا انه لم يتمكن خلال الفترة القصيرة التي حكم فيها من بعد انجازه وحدة البلاد من وضع الاسس الثابتة لاسلوب ادارة المملكة، وكان اعتماده بالدرجة الاولى على مراقبته الشخصية، ويبدو انه كان يسعى الى توحيد جميع النظم والاساليب التي كانت متبعة في دول المدن، وهذا ما تفصح عنه قوانينه التي حاول من خلالها توحيد القواعد القانونية المتبعة في ارجاء المملكة وقد نجح الى حد كبير في هذا المجال.

---

(١) كنلفل، حمورابي، ص ١٥٨.

وفي مدة السيطرة الكشية التي أعقبت العصر البابلي القديم ، أستمر النظام الاداري الذي وضع أسسه حمورابي يعمل به دون تبديل او تغيير يذكر وكانت بلاد بابل مقسمّة الى عشرين مقاطعة على أقل تقدير سميت كل منها غالباً باسم المدينة الرئيسة فيها مثل مقاطعة ايسن ومقاطعة نفر وهكذا أو باسم القبيلة التي استقرت فيها ، مثل مقاطعة بيت سين– ماجر. وكان مسؤولو المقاطعات مسؤولون عن حفظ الامن وتطبيق القانون وعن جمع الضرائب وادارة شؤون المقاطعة الادارية وعن الاشراف الدقيق على قنوات الري. وقد عمد الملوك الكشيون الى اسلوب اقطاع بعض رؤوساء القبائل والعشائر والمتنفذين من رجالات الدولة مساحات واسعة من الاراضي التابعة للقصر وكانت مثل تلك الاقطاعات تدون على أحجار خاصة تسمى أحجار الحدود «كودورّو Kudurru» ، وربما كانت هذه الأحجار تحفظ كوثيقة رسمية في المعبد الرئيس في المدينة أو العاصمة ، وكان يدون على كل منها اسم الملك الذي منح الاقطاعية والقابه واسم الشخص أو الأشخاص الذين منحت لهم الارض وفي أعلى الحجر، التي كانت غالباً على شكل مسلة غير منتظمة ترتفع الى ما يقرب من المتر، تنقش رموز الآلهة الرئيسة. وكان يكتب عادة على الوجه الثاني من المسلة موقع الارض ومساحتها وما تحمله من امتيازات وحقوق اضافة الى تحذيرات الملك الى كل من يخالف ما جاء فيها من حقوق وامتيازات او يعترض على صاحب المنحة.

الادارة في العصر الآشوري الحديث

يعد النظام الاداري الآشوري من أكفأ الانظمة الادارية التي عرفت في تأريخ العراق القديم بل انه يعد من الانظمة الادارية المتطورة حتى بالنسبة لمقاييس العصر الحديث ، وإن نظرة سريعة الى الاساليب الادارية التي اتبعت في ادارة المملكة الآشورية التي ضمت جميع انحاء العراق تؤكد بأن انظمتنا الحالية قد تمتد بجذورها الى العصور القديمة. وقد امدتنا النصوص المسمارية الكثيرة المكتشفة ، ولاسيما النصوص الملكية التي عثر عليها في العواصم الآشورية ، بمعلومات غزيرة عن النظام الاداري الآشوري.

كان الملك ، كما سبق أن أشرنا ، يقف على رأس النظام الاداري ، فمن قصره الملكي في العاصمة (إكَل مَشَرّاتِ ekal mašarrāti) تصدر الاوامر والتعليمات وترسم الخطط ويوجه وينذر ويعاقب ويكافأ الحكام والقادة ، فهو قلب المملكة النابض وبؤرة النشاط والحركة فيها. وكانت اوامر الملك وتوجيهاته ، والتي عُبّر عنها احياناً بعبارة صِمدات شَرِّ

Şimdāt Šarrim[1] (اي المراسيم الملكية) ، واجبة التنفيذ ليس لانها صادرة عن الملك باعتباره رأس الدولة فحسب بل لان الاعتقاد الذي كان سائداً لدى العراقيين القدماء أن الملك كان ممثل الآلهة على الارض ونائبها فيها مما اضفى على اوامره وتعليماته قدسية دينية خاصة وجعل الخروج عنها وعدم طاعتها خروجاً عن الأوامر الآلهية ورغباتها وبالتالي قد يعرض ذلك المخالف الى غضب الآلهة ونقمتها.

وكانت صلاحيات الملك ، وفق هذه النظرة مطلقة ولاتحددها مجالس المدن او المسنين او غيرهم باستثناء ما ادّعاه الملوك انفسهم بأنهم مسوقون برغبة الآلهة وانهم كانوا يستشيرونها في حالات كثيرة ويأتمرون بأمرها في تحديد وقت تجهيز الحملات العسكرية وتعيين ولي العهد وكبار الموظفين وفي العزم على بناء القصور والمعابد وغيرها من الامور ذات الاهمية ، اي أن صلاحياتهم كانت مطلقة الا من تقييد الآلهة ، وكانت رغبات الآلهة تنقل اليهم اما عن طريق الرؤى والاحلام او من خلال الكهنة بأساليب العرافة المتبعة لديهم. ومع ذلك ، فقد ينتقد تصرفات الملك احد التابعين ، كما تؤكد ذلك الرسالة التي سبق وان اشرنا اليها والتي ينتقد فيها مرسلها الملك الآشوري أسرحدون على تعيينه اثنين من ابنائه بوظيفة ولي العهد على بلاد آشور وبابل ويَعد ذلك تصرفاً غير جيد ، ينمُّ عن ضعف الملك نفسه.

وكان الملك قائد الجيش الاعلى وغالباً ما كان يقود جيشه الى حملات عسكرية بعيدة قد تستغرق عدة أشهر وقد ينصب عنه في مكانه احد اولاده في العاصمة او قد يبعث بأحد كبار قادته على رأس الحملة العسكرية أو أحد أولاده ، ولاسيما ولي العهد ، وفي حالات السلم ، قد يشرك احد اولاده في الحكم ، وقد يشرك اثنين من اولاده ، كما فعل شمشي – ادد الاول (١٨١٤ – ١٧٨٢ ق.م) عندما عيّن احد أبنائه نائباً له على اقليم إكلاتُم جنوب بلاد آشور والابن الثاني نائباً له في اقليم ماري على نهر الفرات.

ومن الطبيعي أنه كان يعاون الملك ويساعده في ادارة شؤون المملكة لتنفيذ السياسة التي يضع خطوطها الرئيسة كادر ضخم من الموظفين والمقربين من الامراء وغيرهم وتشير النصوص المكتشفة الى اصناف عدة من كبار موظفي الدولة الذين كانوا يقيمون في القصر الملكي في العاصمة في معظم الاوقات ويعاونون الملك ويخدمونه ، وغالباً ما كان هؤلاء

---

(1) Driver., G.R., and Miles, J.,The Babylonian Laws, Oxford, 1955, rd I, pp. 17-20

عامر سليمان ، القانون في العراق القديم ، موصل ، ١٩٧٧ ص ١٤٩ – ١٥٦

الموظفون ينحدرون من طبقة النبلاء والطبقة الارستقراطية ويرث الوظيفة الابن عن ابيه وقد تختص بعض الاسر بوظائف معينة تتوارثها ، وقد تنمو قوة اسرة معينة الى الحد الذي تهدد فيه سلطان الملك ونفوذه وهيمنته على المقاطعة او المدينة مما يستوجب ايقافها عند حدّها واعادة تنظيم الهيكل الاداري للمملكة ، وهذا ما فعله العديد من الملوك الآشوريين البارزين ولاسيما الملك تجلاتبليزر الثالث (٧٤٥-٧٢٢ق.م) الذي اعاد تنظيم المقاطعات الآشورية وتقسيماتها واستحدث مقاطعات جديدة بهدف احكام السيطرة عليها. وكانت التنظيمات الادارية التي ادخلها الاساس الذي قام عليه النظام الاداري الآشوري في الفترة اللاحقة.

وقد ذكرت النصوص المسمارية عدداً كبيراً من الوظائف التي كانت معروفة في العصر الآشوري ، وقد لاينم اسم الوظيفة او لقب الموظف عن طبيعة الوظيفة ومركزها الاداري فغالباً ما تفقد الوظيفة صفتها القديمة وقد تنمو وتصبح من الوظائف المهمة في حين كانت في الاصل وظيفة بسيطة كالحاجب والساقي وغيرهما.

وكان تعيين كبار موظفي الدولة ، كالحكام والقضاة والقادة ، يتم من قبل الملك مباشرة وقد يستشير الملك الآلهة بشأن ذلك بأن يكتب اسم الموظف المرشح على رقم من الطين ويرميه وفق طقوس معينة مع رقم تحمل اسماء اخرى امام تمثال الاله لمعرفة رغبة الآلهة واختيارها من بين الاسماء فتنحر القرابين ويقرأ الكهنة الاشارات التي كانوا يظنون ان الآلهة تكتبها على اكباد القرابين حتى يتم اختيار الموظف المناسب من بين الاسماء المكتوبة على رقم الطين.

وقد وردت اسماء كبار موظفي الدولة مسلسلة احياناً حسب مراكزها في القصر الملكي ، لاسيما فيما يعرف بقوائم اللمّو ، وهي قوائم خاصة باسماء الموظفين الذين شغلوا وظيفة اللمّو بالتناوب حيث كان كل موظف يشغل الوظيفة لمدة سنة واحدة فقط ثم تنتقل الوظيفة الى الموظف الثاني والثالث وهكذا وقد كان ذلك الاساس الذي تقوم عليه طريقة تأريخ السنة حيث كانت السنة تسمّى باسم الموظف الذي يشغل تلك الوظيفة في تلك السنة.

ويأتي في مقدمة كبار موظفي المملكة التُرتانُ "^{m}turtānu" ، وكان قائداً للجيش اضافة الى وظيفته حاكما لاحدى المقاطعات التي كانت تعرف باسمه. ويليه من حيث الاهمية والمركز الموظف الذي يحمل لقب رَب شاقي "^{m}rab šāqē" ، اي رئيس السقاة[1] وكان

(١) حول الالقاب الوظيفية وتفاصيل اعمال كل موظف وما ورد عنهم في النصوص المسمارية انظر علي ياسين، نظام الحكم، ص ٢٤٤- ٢٥٦.

المسؤول الاول عن اعمال الري وادامة القنوات اضافة الى كونه حاكما لمقاطعة وقد يكلف بقيادة حملة عسكرية ، ولنا في حادثة حصار الجيش الآشوري لمدينة اورشليم[1] في عهد الملك سنحاريب خير مثال على ذلك حيث كان الجيش الآشوري بقيادة الرَّب شاقة. اضافة الى ذلك ، كان هنالك موظف كبير مسؤول عن استقبال الزوار والوفود والتصريح باسم الملك وآخر مسؤول عن خزانة المملكة وغيرهما من كبار موظفي القصر الملكي الذين كانوا يعملون الى جانب الملك ، وقد يرسلون الى بعض المقاطعات لقيادة الحملات العسكرية.

وضم القصر، اضافة الى ذلك ، عدداً كبيراً من الموظفين والعاملين والتابعين لادارة شؤون القصر الملكي الذي كان يؤلف العمود الفقري لجهاز الدولة الاداري والمشرف الاول عليه فكان يضم الكتبة والمترجمين والمقربين والتشريفاتية والاطباء والمنجمين والقضاة والحجاب وموظفي التجنيد والعزّامين والعرّافين ومسؤولي الاعاشة والتموين والموسيقيين والمغنين والجباة والمفتشين والمراقبين والطباخين وغيرهم كثير.

كانت الدولة الآشورية مترامية الأطراف ولا يتمكن اي ملك مهما كانت كفاءته وقابلياته من ادارتها بصورة مباشرة ، لذا فقد قسّمت اراضيها الى عدد من المقاطعات الرئيسة وقسّم كل منها الى وحدات ادارية اصغر واصغر واصغر وكان على رأس كل مقاطعة او وحدة ادارية موظف اداري مسؤول يرتبط بمن هو اعلى منه من حيث التسلسل الاداري ويرتبط به من هو بمرتبة ادنى.

وكانت المقاطعة تسمّى پيخاتُ Pihātu يشرف عليها مسؤول عنها يلقب (سيد المقاطعة) بيل پيخاتِ bēl pihāti وكان يعين كممثل شخصي عن الملك في المقاطعة ومسؤول عن الواجبات الدينية والمدنية والمالية والامنية. وكان مقره في عاصمة المقاطعة يسمى (القصر) إكَلُّم ekallum ، وكان يلحق القصر كادر كبير من الموظفين من الكتبة والرسل والمساحين والمحاسبين والكهنة وضباط التجنيد ومراقبي القنوات وغيرهم. وكانت اهمية المقاطعات تتباين بالنسبة لموقع المقاطعة واقدمية حكامها ، فبعضها قديم وله امتيازات خاصة واخرى حدودية تدافع عن حدود الدولة وثالثة حديثة وصغيرة واهميتها قليلة وهكذا. وقد يضطر سيد المقاطعة اي حاكمها الى ترك المقاطعة لمدة قصيرة للذهاب الى القصر الملكي حيث كان يترك مكانه نائباً له. والى جانب المقاطعة ، التي ربما كانت تمثل اقليما ،

(١) اي مدينة القدس. والاسم اورشليم هو اسم كنعاني بحق يشير الى اصل المدينة الكنعاني وقد سميت فيا بعد بالقدس وشيدت المدينة في وقت لم يكن لليهود فيا وجود ثم احتلها اليهود واتخذوها مقراً لهم وتمكن الآشوريون من القضاء عليهم في حدود عام ٧٢٩ ق. م. انظر حول هذا الاسم والاسماء الكنعانية الاخرى احمد سوسة ، مفصل العرب واليهود في التأريخ ، بغداد ، ١٩٨١ ، ص ٣٢٣.

اي وحدة جغرافية معينة ، هناك مصطلح آخر هو نَجو nagū ، الذي كان يوازي الاقليم من حيث السعة والأهمية ، وكانت المقاطعة تقسّم الى عدد من الوحدات الأصغر عرف كل منها باسم قَنٌّ qannu ، والتي كانت تعني حرفيا (حلقة)[1] . وكان مركز كل قَنّ احدى مدن المقاطعة الرئيسة وكانت تحت ادارة موظف يعرف باسم رَب آلانِ rab alāni ، اي رئيس المدينة او البلدة ، وكان هناك وحدة ادارية اصغر تعرف كَپرُ Kapru ، وربّما تضاهي الكلمة العربية كَفْرٌ .

وكان من مهام كل موظف اداري مسؤول عن وحدة ادارية ان يحافظ على امن الوحدة الادارية ويجبي الضرائب المفروضة ويرسلها الى المستودعات التابعة للدولة ويجند الجنود المفروض عددهم عليه ، كما كان على كل مسؤول اداري ان يقدم تقريراً مفصلاً الى الموظف الاعلى في حين كان حاكم المقاطعة يقدم تقريره الدوري الى الملك مباشرة . وكان الاتصال يتم بين الموظفين حسب التسلسل الاداري الا انه كان بامكان اي موظف مهما كان صغيراً بل اي مواطن نظرياً على الأقل ان يبعث بشكواه الى الملك مباشرة من خلال رسالة يبعث بها الى القصر الملكي .

ولضمان وصول التعليمات الملكية الى حكام المقاطعات القريبة والبعيدة وكذلك وصول تقارير الحكام والمفتشين الى الملك ، فقد طوّر نظام المواصلات ونظام البريد ، ويبدو انه كان هناك اربعة او خمسة اصناف من الرسل والمبعوثين الذين كان يبعث بهم الى مختلف المناطق . وكانت الطريقة الاعتيادية للاتصال بالحكومة المركزية هي بواسطة موظف يدعى مار شبري mār šipri اي أبن الرسالة ، وكان هناك محطات بريدية على الطريق التي تصل بين المدن الرئيسة تحت حراسة حكومية وكان للرسول او المبعوث ان يتوقف فيها ويستبدل حيواناته ويتزود بالغذاء والشراب ثم يتابع مسيره الى جهته . لذا يظهر ان نظام البريد الذي ينسب خطأً من قبل بعض الباحثين الى الفرس هو نظام عراقي قديم كان على درجة كبيرة من التطور في العهد الآشوري ثم اخذه عنهم الاخمينيون عندما احتلوا بلاد بابل وآشور.

وكانت بعض المدن القديمة تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي فكانت تمنح بعض الامتيازات الخاصة بها ، وكان يشرف على مثل هذه المدن موظف اداري يسمى خزانُ hazānu كما كان في مثل هذه المدن مجلس للمسنين يقف على رأس المجلس الخزانُ نفسه

---

(١) مازال الكلمة مستخدمة حالياً في اللهجة العامية الموصلية للدلالة على البيت الصغير الخاص بالدواجن.

ويمكن ترجمة اللقب الى «محافظ» ، وكان مركزه دينياً ودنيوياً . وكان هناك من يعاونه على ادارة شؤون المدينة ، وكان الخزانُ المسؤول عن حفظ الامن وجباية الضرائب وحماية طرق المواصلات والرد على اي غزو خارجي .

من هذا الاستعراض السريع للنظام الاداري الكفوء في العصر الآشوري الحديث لعل من الممكن عقد مقارنة بينه وبين النظام الاداري المتبع في العراق حتى الوقت الحاضر حيث قسّم العراق الى عدد من المحافظات وقسمت كل محافظة الى عدد من الأقضية والأقضية الى نواحي والنواحي الى قرى ، وعلى كل من هذه الوحدات الادارية موظف مسؤول يتدرج في السلم الوظيفي ويرتبط بمن هو اعلى ويكون مسؤولاً عمن هو ادنى وعليه الواجبات الادارية والمالية والأمنية في حدود وحدته الادارية .

٤ – الادارة في العصر البابلي الحديث (الكلدي) (٦٢٦ – ٥٣٩ ق . م)

انتهى كيان الآشوريين السياسي مع نهاية القرن السابع قبل الميلاد (٦١٢ ق . م) ، الا ان النظم الادارية والقانونية وغيرها من المظاهر الحضارية ظلت تهيمن على الحياة العامة والخاصة في عهد الدولة البابلية الحديثة التي خلفتها في الحكم حيث لايمكن تفسير الازدهار الحضاري والقوة العسكرية التي تمتعت بها الدولة البابلية الحديثة خلال فترة قصيرة من بعد تأسيسها الا بانها ورثت عن سابقتها اساليب الحكم والادارة وتنظيم الجيش وغيرها من المظاهر الحضارية الاساسية . ومع ذلك ، فإن انهيار الدولة الآشورية وقيام حكم جديد مركزه في بابل قد اثّر على الاساليب الادارية المتبعة حيث تقلّصت نسبياً سلطات الملك المركزية وزادت على حساب ذلك سلطات المعبد ومؤسساته ولاسيما في بعض المدن السومرية والبابلية القديمة والعريقة مثل مدينة الوركاء وقد لايبدو ذلك غريباً اذا علمنا ان الاقوام الكلدية التي اسست الدولة البابلية الحديثة كانت تستوطن اصلاً القسم الجنوبي من العراق ولاسيما اقصى الجنوب لذلك فقد تمكنت ان تحصل على امتيازات خاصة عندما تولت الحكم في بابل . وهكذا تمتعت مؤسسات المعابد بصورة عامة في العصر البابلي الحديث بنوع من الاستقلال وغدت تهيمن على ادارة شؤون المدينة نظراً لأن غالبية اراضي المدينة كانت ، حسب المعتقدات السائدة انذاك ، ملكاً للمعبد وآلهته .

وكانت المدن الرئيسة في بلاد بابل والتي تسيطر عليها المعابد ، تدار من قبل ثلاثة اداريين يسمى الأول منهم شَتَمُّ šatammu ، والذي ربما يعني (حارس المنطقة) والثاني اطلق عليه لقب قِپُ qipu الذي يعني (الناظر) واخيراً الكاتب طُپشَرُّ tupšarru ، وكان

هؤلاء الاداريون تابعون الى المعبد لذا فقد عيّن الملك من جانبه موظفاً آخر ذا مركز كبير للاشراف على مصالحه ومصالح الدولة في مثل هذه المدن، ولاسيما فيما يخص جمع الضرائب وارسالها الى الخزانة الملكية، [1] وكانت مهام هؤلاء الموظفين الرئيسة هي حفظ الأمن وضمان امن وسلامة الطرق التجارية والاشراف على جباية الضرائب ومراقبة ادامة قنوات الري والاشراف على الاعداد الكبيرة من الناس العاملين على اراضي المعبد وفي المعبد نفسه. ومع الدرجة المتطورة الذي وصلها النظام الاداري في هذا العصر الا انه حدث ارتباك وفوضى ادارية في عهد نبونائيد كانت من الاسباب التي ادت الى انهيار الدولة في النهاية على ايدي الجيوش الاخمينية الغازية.

العلاقات الخارجية

ان عبارة "العلاقات الخارجية" تنم دون شك عن وجود كيانات سياسية مستقلة ولها اراضيها وحدودها الخاصة ولها علاقاتها مع غيرها من الكيانات او الدول خارج حدودها، فالعلاقات الخارجية السياسية والدبلوماسية خاصة اذن تدل على درجة متقدمة من النضج الحضاري والسياسي، ويفترض ان مثل هذه العلاقات بدأت منذ ان نشأت الدول او الممالك المستقلة في بداية عصر فجر السلالات، اي مع بداية الالف الثالث قبل الميلاد، حيث لايمكن لأية دولة مستقلة مهما كانت صغيرة من حيث مساحة اراضيها وقلّة عدد سكانها ان تعيش بمعزل عن غيرها من الدول، ولاسيما المجاورة، في العصور القديمة او الحديثة بل لابد وان تنشأ بينها وبين الدول الاخرى علاقات تجارية او سياسية او علاقات عدائية تمليها المنافسة على تملك المزيد من الأراضي او غيرها من الاسباب.

ومعلوماتنا عن العلاقات الخارجية في العراق القديم مستمدة بالدرجة الاولى مما ذكرته النصوص المسمارية من اشارات وما توحيه المشاهد المنحوتة على المسلات والنصب والتي قد تعبّر عن بعض تلك العلاقات، كاستقبال السفراء والوفود واسلوب معاملتهم وتقديم الجزية والضرائب وتخليد الانتصارات العسكرية.

---

(١) انظر تفصيل ذلك ساكز، عظمة بابل، ص٣٠١ - ٣٠٢.

العلاقات الخارجية في عصر فجر السلالات (حدود ٢٩٠٠ – ٢٣٧١ ق.م)

اتسم الوضع السياسي العام في عصر فجر السلالات، كما سبق واشير الى ذلك، بوجود عدد من دول المدن المستقلة التي كانت تحكم في ارجاء بلاد وادي الرافدين المختلفة، وقد عاصر بعضها البعض الآخر كلاً اوجزءاً ويبدو ان العلاقات التي كانت تربط تلك الدول مع بعضها كانت تستند قبل كل شيء على قوة كل دولة مدينة تجاه الدول الاخرى فمتى ماضعفت احدى المدن سياسياً اوعسكرياً، كانت المدينة الاقوى مستعدة لاحتوائها ضمن نفوذها[1]، وهذا ماتشير اليه جداول الملوك السومريين بخصوص انتقال الملكية من مدينة الى اخرى حيث تعبر عن ذلك بأن الملكية انتقلت الى مدينة اوروك، مثلاً، بعد ان ضربت مدينة كيش بالسلاح[2]، وبعبارة اخرى، ان مدينة اوروك كانت الاقوى فاحتوت كيش وقضت على سلالتها الحاكمة بالقوة.

ومن جهة اخرى، تشير احدى القصائد السومرية التي تتحدث عن اينمركار ثاني حكام سلالة الوركاء الاولى التي يفترض انها حكمت في عصر فجر السلالات، وعلاقته مع حاكم مدينة ارَاتا، وهي مدينة تقع في جنوب غربي ايران، الى اقدم العلاقات السياسية الخارجية المعروفة حيث تذكر القصيدة السومرية باسلوبها الأدبي الملحمي الرفيع[3] وخيال كاتبها الخصب الى ان البطل اينمركار الذي عاش في قديم الزمان بالنسبة الى كاتب القصيدة، وتنفيذاً لرغبة آلهته بعث برسوله المختار الى حاكم مدينة ارّاتا، التي تقع في اعلى الجبال وتفصلها عن اوروك سبع جبال، يطلب منه أن يقدّم الذهب والفضة واللازورد والاحجار الكريمة الاخرى لبناء المعابد والمزارات في مدينة اوروك. وتعد هذه الاشارة الى ارسال السفراء والمبعوثين اقدم اشارة معروفة لدينا. ويبدو ان الرسول كان يحمل رسالته مدونة على رقيم من الطين حيث يلمّح كاتب القصيدة الى ان اينمركار كان اول من كتب على الالواح الطينية وانه فعل ذلك لأن رسوله كان (ثقيل الكلام) وربما عاجزاً عن ترديد الرسالة شفوياً لاسيما اذا كانت رسالة طويلة كالتي حملها الى حاكم ارّاتا. وبعد ان قطع الرسول الجبال السبعة ووصل الى مدينة ارّاتا تلى على حاكمها رسالة سيده، الا ان

(١) انظر Gadd, C.J. The Cities of Babylonia, CAH, Vol.I, part 2, 3nd edition, London, 1971, p.105.

(٢) حول ترجمة هذه الجداول انظر طه باقر، المقدمة، ص ٢٩٠ – ٢٩٧.

(٣) حول تفاصيل هذه القصيدة وترجمتها الى العربية انظر كريمر، من الواح سومر، شيكاغو، ١٩٥٦، ترجمة طه باقر، ص ٦٣ – ٧٩.

حاكم ارّاتا رفض الاذعان الى التهديد والوعيد ان هو تلكأ في ارسال الذهب والفضة واجاب اينمركار محذراً من اللجوء الى السلاح ومقترحاً ان تقام مبارزة بين بطلين يتم اختيارهما من المدينتين. ويبدو من قراءة نص القصيدة الذي بقي منه مايقرب من ستمائة سطر مدونة باثني عشر حقلاً ، بأن مهمة الرسول لم تكن مهمة سهلة وهيّنة حيث كان عليه ان يقوم بعدة جولات من المفاوضات وينقل في كل جولة جواب وشروط سيده الى حاكم ارّاتا او بالعكس. وفي نهاية النص ، وعلى الرغم من تلف بقية القصيدة ، يبدو ان اهل ارّاتا وحاكمها قد اذعنوا للأمر وقدّموا الذهب والفضة واللازورد الى معبد اناّنا في الوركاء.

ويؤيد وجود مثل هذه المفاوضات والعلاقات السياسية بين دول المدن السومرية ماورد في قصة جلجامش ، خامس ملوك سلالة اوروك نفسها وصاحب الملحمة المعروفة باسمه ، مع آجا حاكم مدينة كيش الواقعة الى الشمال من بلاد سومر[1] والتي سبق وان اشير اليها والتي تضمنت ايضاً ارسال مبعوثين من قبل حاكم كيش الى جلجامش حاكم الوركاء طالبين منه الاذعان الى سلطة ونفوذ كيش او اعلان الحرب ، وكانت النتيجة هذه المرة مغايرة حيث وقعت الحرب بين المدينتين.

وفي كلتا الحالتين يلاحظ ان الحكام كانوا مطمئنين على سلامة الرسل على الرغم من العداء الموجود بين طرفي المفاوضات وعلى الرغم من طبيعة الرسائل التي كان يحملها الرسل ، كما تشير هاتين الحالتين الى ان المفاوضات الدبلوماسية من خلال الرسل كانت تمثل المحاولات الاولى لتصفية العلاقات الدولية ، وفي حالة فشلها كانت تنشب الحرب لحسم النزاع.

وفي اواخر عصر فجر السلالات ايضاً ابرمت اقدم معاهدة دولية معروفة حتى الآن وهي المعاهدة التي ابرمت بين مدينتي لجش واومّا بتوسط ميسيلم ، حاكم كيش. وقد تعرفنا على هذه المعاهدة من نص دونه انيتمينا حاكم لجش الذي حكم في حدود ٢٤٠٠ ق.م. وقد سجل في هذا النص تاريخ المنازعات الحدودية الطويل بين لجش واومّا والذي استمر لمدة ثلاثة اجيال متعاقبة ، اي لمدة تقرب من مائة سنة ، الى ان جاء اينتمينا الى الحكم. ويذكر النص ان ميسيلم حاكم كيش كان قد تدخل في الأمر وفض النزاع وثبّت الحدود ودون كل ذلك على مسلّة ، او مسلاّت ، خاصة وضعت على الحدود بين المدينتين ، الا ان حاكم اوما قام بعد فترة وجيزة بنقض المعاهدة وانتهاك الحدود واحتلال

---

(١) انظر لمبرت ، موريس ، عصر ماقبل سرجون ، سومر ، (١٩٥٢) ، ص٨٤ ترجمة د. فرج بصمة جي.

اراضٍ تابعة للجش مما نتج عنه استئناف الحرب بين المدينتين انتهت بابرام معاهدة حدودية ثانية جديدة وحفرت هذه المرة قناة مائية تفصل بين المدينتين ونحتت مسلة تذكارية تخلد هذا الحدث عرفت لدى الباحثين بمسلة النسور او العقبان تظهر فيها لجش كطرف منتصر. ثم تجدد النزاع مرة اخرى وهذه المرة في عهد انيتمينا وانتهت بانتصار لجش ايضاً.

ومما يلاحظ في النصوص الخاصة بعقد المعاهدات او حتى اجراء المفاوضات، بين الدول والمدن المختلفة انها كانت تصور المعاهدات وكأنها قد ابرمت بين آلهة المدن المعنية وان الصراع بين المدن هو الآخر على انه صراع بين آلهة المدن وكان الملوك والحكام يقومون بتمثيل الآلهة في ابرام المعاهدات أو شن الحرب مما اعطى تلك المعاهدات قدسية خاصة وجعل نقضها انتهاكاً للعهد مع الآلهة [1]، وان لذلك اهمية خاصة حيث كانت الاطراف المتعاقدة تحذر من نقض المعاهدة طالما كان ذلك مثيراً لغضب الآلهة ونقمتها.

العلاقات الخارجية في عهد دولة القطر الواحدة

تمكّن سرجون الأكدي (٢٣٧١ – ٢٣١٦ ق.م) من توحيد جميع دول المدن التي كانت قائمة في وادي الرافدين في دولة مركزية واحدة امتدت بنفوذها من البحر الاعلى (المتوسط) الى البحر الاسفل (الخليج العربي) وضمت كذلك بلاد عيلام وربما بعض اجزاء آسيا الصغرى الجنوبية الشرقية لذلك لم تعد المعاهدات والاتفاقيات تبرم بين دول المدن الصغيرة، كما كانت عليه الحالة في العصور السابقة، بل غدت تبرم بين دولة قوية كبرى، وهي الدولة الاكدية، واخرى صغيرة تابعة او موالية، لذا كانت المعاهدات اقرب الى معاهدات التبعية التي سنأتي الى ذكرها فيما بعد حيث تتعهد فيها الدولة الضعيفة بالالتزام بالشروط التي تمليها الدولة القوية وتنفذ سياستها العامة وربما تدفع لها الجزية مقابل تركها مستقلة وحمايتها عند الحاجة. وهذا مايفهم من المعاهدة التي ابرمت بين نرام– سين، الملك الاكدي وحفيد سرجون، مع ملك اوان في بلاد عيلام والتي تعهد فيها ملك اوان ان يكون عدوّاً لمن يعادي نرام– سين وصديقاً لمن يصادقه بينما لم يذكر نرام– سين مثل هذا التعهد بالنسبة له. وتعد هذه المعاهدة اقدم معاهدة بين دولتين اجنبيتين، اي دولة في بلاد بابل وآشور واخرى خارج حدودهما الاعتيادية [2].

---

(١) انظر عامر سليمان، العلاقات السياسية الخارجية في حضارة العراق، ج٢، ص١١٤– ١١٧.

(٢) انظر: سامي سعيد الاحمد، الاتفاقات العسكرية والمعاهدات في العراق القديم، بحث مقدم الى المؤتمر العلمي الأول لجمعية المؤرخين والآثاريين في العراق، بغداد، ١٩٨١، ص٣.

وفي عهد سلالة اور الثالثة (٢١١٣ - ٢٠٠٦ ق.م) التي قامت في اعقاب طرد الكوتيين من بلاد سومر واكد وحدت جميع اراضي وادي الرافدين في ظل دولة موحدة على غرار ما كان قائماً في عهد الدولة الاكدية ، فقد وردت اشارات الى وجود علاقات سياسية بين حكام سلالة اور الثالثة وحكام البلدان الاجنبية ، ولاسيما مع حكام وملوك المدن العيلامية والتي قامت على اساس من المصاهرات السياسية بين السلالات الحاكمة . كما اشارت النصوص الى تبادل الوفود ووصول وفود من عيلام الى مدينة اور. وعلى الرغم من المصاهرات السياسية وما يفترض ان رافقها من معاهدات ثنائية ، فقد استغلت عيلام فرصة الضعف الذي انتاب مملكة اور في عهد آخر حكامها ابي - سين ونقضت جميع المعاهدات وباغتت اور بهجوم عسكري في حدود عام ٢٠٠٦ ق.م. وأنهت سلالتها الحاكمة .[1]

العلاقات الدولية في الالف الثاني قبل الميلاد (من حدود ٢٠٠٦ ق.م- ٩١١ق.م)

ضم الالف الثاني قبل الميلاد ما اصطلح على تسميته بالعصر البابلي القديم (٢٠٠٦ - ١٥٩٥ ق.م) وفترة السيطرة الكشية على بلاد بابل (١٥٩٥ - ١١٥٧ ق.م) وفترة حكم سلالة ايسن الثانية بالنسبة لبلاد بابل. اما في بلاد آشور، فقد سميت الفترة من حدود ٢٠٠٠ الى ١٥٢١ ق.م بالعصر الآشوري القديم في حين سميت الفترة التالية وحتى عام ٩١١ ق.م بالعصر الآشوري الوسيط.

كانت نهاية اور الثالثة نهاية حقبة زمنية تميزت بوحدة القطر ووجود دولة مركزية واحدة تهيمن على جميع أجزائه ، اعقبتها فترة جديدة تميزت بتدفق الاقوام الامورية من الغرب عرفت بالعصر البابلي القديم. وقد تميز القسم الاول من هذا العصر والذي استمر قرابة القرنين بالتجزئة والانقسام وقيام العديد من دول المدن الامورية المستقلة التي عاصر بعضها البعض الآخر كلا او جزءاً في حين اتسم القسم الثاني من هذا العصر الذي يبدأ منذ أواخر حكم حمورابي . بتوحيد بلاد بابل وآشور وعودة البلاد الى عهد الدولة المركزية الواحدة.

وكان الصراع والتنافس بين دول المدن في القسم الاول من العصر البابلي القديم على اشدّه للسيطرة على المزيد من الاراضي ومصادر المياه ولتأمين أمن وسلامة طرق المواصلات التجارية ولتوحيد المدن في دولة واحدة لمواجهة الاخطار والتحديات الخارجية. وكان من نتائج هذا الصراع أن قامت الاحلاف والمعاهدات السياسية والعسكرية وكلما

(١) انظر عامر سليمان ، العلاقات السياسية ، ص١١٩ .

نمت احدى الدول وتعاظمت قوتها واتسعت بنفوذها سارعت الدول الاخرى الى اقامة حلف عسكري وسياسي مضاد للوقوف امامها والتصدي لها وتحجيم خطرها.[1] وكان لشخصية الملوك والحكام وعلاقاتهم الشخصية مع الحكام الآخرين أثر كبير في اقامة تلك الاحلاف والمعاهدات وقد يؤدي موت احد الملوك الى تغير الاحلاف بل وتغير الظروف السياسية كلها، كما حدث ذلك عند موت الملك الآشوري شمشي- ادد الاول الذي عاصر حمورابي في أواخر حكمه. وكان هناك اكثر من حلف واحد يتوزع المنطقة وقد ينسحب زعيم دولة معينة من هذا الحلف لينضم الى الحلف المضاد تحت تأثير من علاقاته الشخصية او لاهداف معينة. ولعل خير مايمثل الاوضاع السياسية العامة في العصر البابلي القديم قبل توحيد دول المدن الرسالة الآتية التي عثر عليها في الارشيف الملكي في مدينة ماري.

«لايوجد هناك ملك هو الأقوى وحده، فهناك عشرة أو خمسة عشر ملكاً يتبعون حمورابي (ملك) بابل، والعدد نفسه يتبع ريم سين (ملك) لارسا، والعدد نفسه يتبع ابال- بيل (ملك) اشنونا، والعدد نفسه يتبع اموت- ابي- ايل (ملك) قطنا، وعشرون ملكاً يتبعون يارم- لم (ملك) يمخد»[2]

وقد زودتنا الرسائل الملكية المكتشفة في مدينة ماري وفي غيرها من المدن البابلية والآشورية بمعلومات وافية عن هذه الاحلاف والمعاهدات وعن اساليب وكيفية اقامة تلك الاحلاف وشكلياتها مما سيأتي ذكره فيما بعد، في حين نفتقر الى معلومات خاصة بالعصور التالية التي توحّدت فيها جميع دول المدن في دولة واحدة حيث لابد وان كانت هناك معاهدات قد ابرمت بين حمورابي من جهة وملوك وحكام الشرق الادنى القديم المعاصرين له من جهة اخرى.

---

(١) انظر: شعلان كامل اسماعيل، العلاقات الدولية في العصور العراقية القديمة، موصل، ١٩٩٠ ص ٢٩ (رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى كلية الآداب- جامعة الموصل)

(٢) انظر ساكز، عظمة بابل، ص ٨٤.

أما في مدة السيطرة الكشية على بلاد بابل (١٥٩٥ – ١١٥٧ ق. م) ، فقد شهدت كما سبق وان واشرنا أحداثاً وتقلبات سياسية على ساحة الشرق الادنى القديم غاية في الاهمية ، ولم تعد الممالك التي قامت في بلاد بابل وآشور دولاً محلية لا يعنيها مايحدث في بقية ارجاء المنطقة بل اصبحت جزءاً من تلك الاحداث والتقلبات تتأثر بها وتؤثر فيها ، وكانت علاقاتها السياسية الخارجية تتغير تبعاً لتغير الاحداث والظروف الى حد بعيد ، وقد افرزت تلك العلاقات المتشابكة بين الدول المتعاصرة والصراعات الحادة على السيطرة ومد النفوذ قيام احلاف سياسية وعسكرية وعقد معاهدات كثيرة.

وتأتي معلوماتنا الرئيسة عن العلاقات السياسية الخارجية في هذه الحقبة من مجموعة مهمة من الرسائل الملكية التي اكتشفت في موقع العمارنة ، عاصمة الملك المصري اخناتون ، في مصر والتي عرفت لدى الباحثين برسائل العمارنة . ويبلغ عدد هذه الرسائل اكثر من ثلاثمائة رسالة كان قد استلمها الملك المصري امنوفس الثالث (١٤٠٥ – ١٣٦٧ ق. م) وابنه اخناتون (١٣٦٧ – ١٣٥٠ ق. م) من ملوك وحكام دول وممالك الشرق الادنى القديم آنذاك.

ومن الجدير بالاشارة أن جميع الرسائل المكتشفة في العمارنة ، باستثناء ثلاثة منها فقط ، جاءت مدونة على رقم من الطين باللغة الاكدية بخطها المسماري في حين انها كانت قد ارسلت من قبل حكام وملوك ميتانيين وحثيين وكشيين من حكام دول بلاد الشام والعراق أنذاك مما يشير الى أن اللغة الاكدية كانت تستخدم في هذه الحقبة الزمنية لغة دبلوماسية يتفاهم بواسطتها حكام وملوك الشرق الادنى القديم على اختلاف لغاتهم واجناسهم . وحيث انه لم يكن في هذه الحقبة دولة بابلية او آشورية قوية تتمكن من فرض استخدام اللغة الاكدية على غيرها من الدول ، لذلك فان التفسير الوحيد لاستخدام اللغة الاكدية في المخاطبات الملكية أن الثقافة العراقية القديمة كانت قد انتشرت واثرت في معظم انحاء الشرق الادنى القديم.

والى جانب رسائل العمارنة ، امكن التعرف على جانب من العلاقات الكشية – الآشورية من وثيقة آشورية مهمة عرفت بأسم التأريخ التعاصري تتحدث عن علاقة الملوك الآشوريين بمعاصريهم من الملوك البابليين.

وقد تميزت العلاقات الكشية – الآشورية بأنها كانت متأرجحة بين العلاقات السلمية والحربية ، وكانت السلالة الكشية تجنح غالباً للسلم وترجح اقامة علاقات ودية مع المملكة الآشورية على أساس من التعايش السلمي لذلك ابرمت عدة معاهدات بين الدولتين

اقرت الاوضاع القائمة على الحدود بينهما اذ لم تكن هنالك حدود طبيعية تفصل بينهما بل كانت تتوقف على قوة او ضعف هذا الطرف او ذاك وقد اشارت وثيقة التأريخ التفاصري الى عدد من هذه المعاهدات وان ملكي الدولتين قد «اقسما يميناً وعينا بينهما حدوداً ثابتة».

اما بالنسبة الى علاقة الكشيين والآشوريين من جهة والممالك المعاصرة خارج بلاد بابل وآشور من جهة اخرى، فتشير رسائل العمارنة انه كانت هناك اتفاقات ثنائية وعلاقات ودية بين الكشيين والمصريين وبين الآشوريين والمصرين وان الكشيين حاولوا أن يمنعوا اقامة علاقات ودية بين الآشوريين والمصريين بحجة ان الآشوريين كانوا، بعد ان تخلصوا من الاحتلال الميتاني، تابعين الى الكشيين. كما تشير الرسائل المتبادلة بين الملوك الكشيين والآشوريين والمصريين والتي استخدمت في مخاطبة الملك المصري عبارة «اخوك»، بأن هذه الممالك كانت تتعامل على قدم المساواة معاملة الند للند ولم تكن اي منها تابعة الى الاخرى. وما يقال عن علاقة الكشيين بالمصريين ونظرة الكشيين الى الآشوريين ينطبق على الحثيين ايضاً. فهذا الملك الحثي يبعث برسالة الى الملك البابلي يستعرض فيها العلاقات الاخوية، بينه وبين والد الملك الكشي ثم يستفسر فيها عن سبب قطع المراسلات معه وكأنه اراد بذلك استمالة الملك الكشي ضد الملك الآشوري وفيما يلي مقتطفات من هذه الرسالة:

> «لماذا اوقفت، يا اخي العزيز، ارسال رسلك؟ هل تكلم اني – مردوخ – بلاطو ثانية امام اخي بكلمات معادية لي؟»

ثم يذكر له ضعف ملك آشور وعدم تمكنه من اعتراض رسله فيقول:

> «ان ملك بلاد آشور– بكل مشاته وسلاح عرباته لايوازي مشاة بلادك... (من الذي) يستطيع من ملوك بلاد آشور أن يمنع رسلك...؟»

وينهي خاتو شيليش، ملك الحثيين، رسالته بتحريض سافر للملك الكشي ضد الملك الآشوري فيقول:

> «... تقدم الآن وقم بغزوة الى بلاد العدو، واني متشوق لسماع كم سيذبح اخي من الاعداء. لقد اعتادوا ان يدعوا والدك، الملك الذي يستعد للحرب لكنه يمكث في وطنه بعد ذلك، الم يقولوا ذلك عنه دائماً؟ اخي يجب

ان لاتبقى في الوطن ، اذهب الى بلاد الاعداء وادحر العدو... » [1]

اما الملك الكشي ، فقد ارسل رسالة الى الملك المصري يقول فيها :

« الى نفخور يريا ، ملك مصر ، هكذا يقول بورنابورياش ، ملك بابل ، اخوك . انا بخير ، فعسى ان تكون انت وبيتك وازواجك واولادك ونبلاؤك وخيلك وعرباتك باحسن حال ... »

في عهد ابي كوريكالزو ارسل اليه الكنعانيون يقولون : « لنذهب الى مصر ولنغزها جميعنا وسوف نعقد معك حلفاً » اما ابي فقد اجاب على رسالتهم قائلاً : « ليكن الحلف ما بينكم ، ولكن لتحذروا (جانبي) اذ لما كان ملك مصر حليفي فمن ذا الذي يصدّني عن أن اغزوكم ؟ »

وهكذا من اجل ابيك لم يسمع ابي قولهم اما ما يخص بعض الآشوريين من اتباعي (كذا؟) افلم اخبرك برسالتي في شأنهم ؟ ، فلم دخلوا الى بلادك؟ وبما انك تحبني فيقيني انك لن تدخل معهم في شيء (من التحالف) وإنك ستعمل على احباط سعايتهم وجهودهم . وفي الختام لقد ارسلت اليك هدية : ثلاث منّات من حجر اللازورد وعشرة افراس لخمس عربات » . [2]

وعلى الرغم من ادعاء الملك الكشي في هذه الرسالة بأن الآشوريين كانوا تابعين له ، فان الرسالة تشير دون شك الى تنافس كل من الملك الآشوري والملك الكشي لكسب ود الملك المصري وعقد علاقات طيبة معه وفي نهاية المطاف عقد الملك الكشي معاهدة صداقة وسلام مع الملك الآشوري ختمت بمصاهرة سياسية

العلاقات الخارجية في العصر الآشوري الحديث

يعد العصر الآشوري الحديث (٩١١ - ٦١٢ ق . م) من ازهى العصور التي مرت على بلاد آشور وقد تميز بتعاظم قوة الآشوريين السياسية والعسكرية وازدهار حضارتهم واتساع نفوذهم . وكان عصراً مليئاً بالاحداث والتقلبات السياسية التي كانت تجرى على ساحة الشرق الادنى القديم ، وكانت بلاد آشور خلاله محاطة بقوى معادية لم يرق لها نمو الدولة

(١) انظر عامر سليمان ، العلاقات السياسية الخارجية ، ص ١٣٨ .

(٢) انظر طه باقر ، المقدمة ، ص ٤٥٩ .

الآشورية وتهديدها لمصالحها الاقتصادية والسياسية فكانت تتحين الفرص للانقضاض عليها والقضاء على نفوذها المتزايد. ولتحقيق ذلك عمدت الى عقد الاحلاف العسكرية فيما بينها وابرمت المعاهدات الثنائية لتشكيل جبهات قوية لمواجهة النفوذ الآشوري وصده والعمل للقضاء عليه والحد من توسعه. وكانت تلك الاحلاف والمعاهدات تعقد بين دول الاعداء في الجبهات المختلفة في مقدمتها الجبهة الشمالية الغربية المتمثلة بالممالك والدويلات السورية، والجهة الشمالية الشرقية التي تزعمتها اورارتو. اما الجبهة الجنوبية فكانت تتزعمها مملكة عيلام التي كانت دوماً تعمل على تغذية الفتنة بين القبائل الكلدية وغيرها للوقوف ضد الآشوريين وتعقد معها الاحلاف والمعاهدات وتقدم لها العون المادي والعكسري.[1]

وكانت العلاقة التي تربط الدولة الآشورية بالدول والممالك الموالية او التابعة على انواع، فكان هناك الممالك الصغيرة الموالية للدولة الآشورية، طوعاً او خوفاً، والسائرة في فلكها، غير انها كانت دولاً مستقلة، وكان على مثل هذه الدول أن تعترف بسلطان الدولة الآشورية وتقدم للملك الآشوري الجزية السنوية والهدايا المقررة عليها كما كان عليها ان تلتزم بعلاقاتها السياسية الخارجية بما تمليه مصلحة الدولة الآشورية فتعادي من يعاديها وتصادق من يصادقها وتحصل مقابل ذلك على امتياز الحماية العسكرية، ضد أي اعتداء خارجي او تمرد داخلي، من الدولة الآشورية القوية.

اما اذا امتنعت مثل هذه الدول والممالك عن تقديم الولاء ودفع الجزية او رفضت الاعتراف بسلطان الدولة الآشورية او دخلت حلفاً او ابرمت معاهدة مضادة لمصلحة الآشوريين، عندها تتعرض لحملة عسكرية آشورية تغير حاكمها احياناً وتأتي بآخر موالٍ للسياسة الآشورية ومستعد لدفع الجزية وكانت مثل هذه العلاقة الجديدة ايضاً توثق بالمعاهدات وتختم بالقسم امام الآلهة العظام كما كانت تتضمن تعيين موظف آشوري في البلاط المحلي يشرف على تنفيذ الاتفاق ويراقب سياسة الحاكم المحلي المعيّن وقد يزود الموظف الآشوري بقوة عسكرية صغيرة تحسباً وتحرزاً لاي طارئ.

وفي حالة حنث الملك الحاكم القسم وعدم اعترافه بالدولة الآشورية او طرده او قتله الموظف الآشوري المعين في بلاطه ورفضه دفع الجزية السنوية او دخوله حلفاً مضاداً للمرة الثانية، عندها تتخذ الاجراءات العسكرية الفورية اللازمة للقضاء على مثل هذا الحاكم ومعاقبته ومن معه من المتمردين عقوبة قاسية ورادعة وضم اراضي مملكته الى حدود الدولة الآشورية وعدّها مقاطعة آشورية تدار من قبل موظف آشوري يعين من قبل الملك الآشوري.

---

(١) انظر عامر سليمان، العلاقات الخارجية، ١٣٨ - ١٤٠.

وتؤكد الرسائل المكتشفة تطور علاقة الدولة الآشورية مع بعض الدول والممالك، ولاسيا في سوريا، على هذا النحو ولعل ابرز مثل عليها مملكة خانيگلبات (ميتاني) في اعالي مابين النهرين التي انتهت بضمها الى حدود الدولة الآشورية وعدها مقاطعة آشورية.

اضافة الى الرسائل الملكية الكثيرة التي تبادلها الملوك الآشوريون مع ملوك وحكام الممالك والدول في الجهات المختلفة، فقد تم العثور على نسخ من نصوص عدد من المعاهدات التي ابرمت بين الدولة الآشورية وعدد من حكام وامراء الدول والممالك التابعة لها ومن فترات مختلفة. وتعد هذه المعاهدات من اهم مالدينا من نصوص مسمارية خاصة بالعلاقات السياسية الدولية من هذه الفترة بل انها اقدم المعاهدات المعروفة بشكلها وصيغتها الاصلية التي دونت بها في حين كانت جميع المعاهدات الاخرى التي سبقت الاشارة اليها عبارة عن اشارات وردت في الرسائل والوثائق الملكية وغيرها.

كانت المعاهدة التي عقدها اشور-نراري الخامس (٧٥٤-٧٤٥ ق.م)[١] مع ماتع ايلو حاكم ارواد على الساحل السوري، من اقدم المعاهدات التي وصلتنا بصيغتها الاصلية. وكانت المعاهدة قد ابرمت اثر قيام الملك الاشوري بحملة عسكرية على مدينة ارواد الآرامية وقد الزمت ماتع- ايلو بالاخلاص للملك الاشوري والاشتراك الفعلي في اي حرب يشنها الملك الاشوري على الاعداء حيث جاء فيها:

«اذا لم تخلص لاشور- نراري، اذا لم يكرس قلبك لاشور- نراري، ملك بلاد اشور، فانك وابناؤك وشعب بلادك [...] اذا ذهب (الجيش الآشوري) للحرب باوامر اشور- نراري، ملك بلاد اشور، ولم يأتِ ماتع- ايلو مع موظفيه وجيشه وعربته (الى الحملة) باخلاص كامل، فعسى ان يكسوسين، السيد العظيم الذي يقيم في حّران، ماتع- ايلو وابناءه وموظفيه وشعب بلاده بالجذام كالرداء يغطي اجسامهم فيهيموا على اوجههم في العراء وعسى ان لايرحمهم.....»[٢].

---

(١) انظر: سومير، أ. د.، 'معاهدة تبعية من القرن الثامن ق.م'، الحوليات الاثرية السورية، ١٠ (١٩٦٠)، دمشق، ص٢٣٤- ٢٣٦، ترجمة عدنان البني.

(٢) هناك معاهدة اخرى عقدها شمشي- ادد الخامس (٨٢٣- ٨١١ ق.م) مع مردوخ- زاكر- شومي ملك بابل الا ان معظم اجزائها تالفة وما يفهم منها قليل. حول ترجمتها انظر: شعلان كامل، العلاقات الدولية، ص ١٨١- ١٨٣.

وشبيهة بالمعاهدة التي عقدها آشور- نراري الخامس المعاهدة التي أبرمها أسرحدون (٦٨٠ - ٦٦٩ ق. م) مع بعل حاكم صور الفينيقية وقد أبرمت هي الأخرى بعد ان قام اسرحدون بحملة عسكرية على صور. وقد وصلتنا المعاهدة بحالة رديئة وتالفة ولايمكن قراءة جميع بنودها. وبعد ان تذكر اسرحدون وألقابه الكثيرة وبيان قوته، تتطرق الى المندوب الملكي، الذي عينه اسرحدون في مدينة صور وصلاحياته. كما تنص المعاهدة على تعهد الملك الآشوري بحماية السفن التابعة لصور وعدها من السفن التابعة له، فاذا تحطمت في مكان آخر تابع لنفوذ الدولة الآشورية، يعد كل اعتداء عليها اعتداء على اموال الملك الآشوري نفسه:

«اذا تحطمت سفينة لبعل او لشعب صور في بلاد الفلسطينين او في اي مكان على حدود اقليم آشوري، فكل شيء في السفينة ملك لاسرحدون، ملك بلاد آشور، لكن يجب ان لايلحق اي ضرر باي شخص على ظهر (السفينة) (بل) عليهم تسجيل اسمائهم [واخبار الملك بها]».

وفي ختام المعاهدة دعاء الى جميع الآلهة الآشورية بانزال اللعنات والويلات على بعل في حالة نقضه المعاهدة او خروجه عن ولاءه للملك الآشوري.

وتأتي المعاهدة التي عقدها اسرحدون عام ٦٧٢ ق.م. مع رمتايا حاكم اركز بانو الميدية والتي عثر عليها في نمرود، اكمل مثال على معاهدات التبعية التي كانت تبرم بين الملوك الآشوريين وحكام وملوك الدول والممالك التابعة. وكان اسرحدون قد ابرم تسع معاهدات متشابهة مع الحكام التابعين، ومعظمهم من الميديين، لاتختلف عن بعضها الا باسماء المدن والحكام، غير ان المعاهدة التي ابرمت مع رمتايا هي اكمل النسخ المكتشفة من هذه المعاهدات. وكان الهدف الاساس من ابرام هذه المعاهدات هو مبايعة ولي العهد الآشوري اشور بانيبال على عرش بلاد آشور ومبايعة اخيه شمش - شوم - اوكن على عرش بلاد بابل واخذ التعهدات من الحكام التابعين بالولاء والطاعة لهما في حالة وفاة والدهما اسرحدون ومعاونتهما على اعتلاء العرش مهما كانت الظروف، وقد ضمت المعاهدة اكثر من اربعمائة سطر من الكتابة يتقدمها ختم الاله اشور لاضفاء القدسية والشرعية عليها ثم تأتي المقدمة التي تذكر:

«(هذه هي) معاهدة اسرحدون، ملك العالم، ملك بلاد آشور، ابن سنحاريب، ملك العالم كذلك، ملك بلاد آشور، مع رمتايا حاكم مدينة اركزابانو (و) مع

ابنائه واحفاده وجميع شعب اراكزا بانو (و) مع كل الرجال الذين تحت أمرته الصغير (منهم) والكبير. معكم جميعاً، ومع ابنائكم واحفادكم الذين سيأتون في المستقبل... ابرمت المعاهدة بخصوص اشور بانيبال، ولي العهد، ابن اسرحدون، ملك بلاد آشور»

ويستمر النص في ذكر اسماء الآلهة التي وثقت المعاهدة والغاية من ابرامها حيث تقول:

«(هذه هي) المعاهدة التي عقدها معكم اسرحدون ملك بلاد آشور، امام آلهة السماء والارض العظيمة، (ونيابة عنها) من اجل تعيين ولي العهد آشور بانيبال ابن سيدكم اسرحدون، ملك بلاد آشور، الذي رشحه وعينه لخلافته، فعندما يفارق اسرحدون، ملك بلاد آشور، الحياة عليكم ان تنصبوا عليكم ملوكية وسيادة بلاد آشور...»

ثم تأتي الفقرات الخاصة بأخذ العهد من الحكام التابعين لتنفيذ ذلك بدقة والعمل باخلاص من اجل آشور بانيبال واخيه:

«اذا مات اسرحدون وابناؤه صغار، فعليكم مساعدة آشور بانيبال، ولي العهد المرشح، على اعتلاء عرش بلاد آشور، وعليكم ان تنصبوا اخاه العزيز، شمش- شم- اوكن، ولي العهد المرشح لبلاد بابل على عرش بلاد بابل، وتعهدوا اليه الحكم على (بلاد) سومر واكد وكاردونياش، ولاتحتجزوا اية هدية اعطاه اياها والده اسرحدون، ملك بلاد آشور، بل تمكنوه من أن يأخذها معه». (١)

ثم تستمر المعاهدة في تعداد الفرضيات في حالة نشوب اية محاولة لاغتصاب العرش او قتل ولي العهد او التآمر عليه او محاولة تغذية الخلافات بين الاخوين...الخ ومن ثم يأتي القسم واللعنات والويلات على كل من يفعل ذلك او يخرج عن بنود المعاهدة ثم ختمت المعاهدة بالتأريخ والغرض من المعاهدة ثانية.

---

(١) انظر Wiseman, D.J., The Vassal Treaties of Esarhaddon, London, 1958.

وعلى الرغم مما جاء في هذه المعاهدة وفي مثيلاتها من التي عقدت مع الحكام والملوك التابعين لحماية العرش الآشوري ، الا ان الاحداث التي وقعت بعد ذلك دلّت على عدم جدوى تلك المعاهدات وان مفعولها في غياب الملك القوي الذي فرضها يكاد يكون معدوماً .

وفي العصر البابلي الحديث (٦٢٦ - ٥٣٩ ق.م) يبدو أن السياسة الخارجية التي اتبعها نبوبلاصر ومن ثم نبوخذ نصر لم تكن تختلف كثيراً عن السياسة الآشورية ولاسيما فيما يخص علاقة الدولة البابلية بالدول والممالك التابعة ولعل خير مثل على ذلك علاقة الدولة البابلية بدويلة يهوذا التي كانت تابعة وموالية وتدفع الجزية الا انها تمردت ضد الملك البابلي اكثر من مرة فكان ان قضي عليها نهائياً .

ومن الاشارات المهمة عن العلاقات السياسية والدبلوماسية في العصر البابلي الحديث ان احد قادة نبوخذ نصر ، وهو نبونائيد الذي اختير فيما بعد ليكون ملكاً على بلاد بابل ، قام بالتوسط في المفاوضات التي جرت بين مملكة ليديا والميديين ووضع حداً للنزاع المسلح بين الطرفين وعقدت معاهدة سلام بينها وذلك عام ٥٨٥ ق. م.

وعندما اعتلى نبونائيد العرش البابلي كانت تربطه بالملك الاخميني كورش معاهدة صداقة وثيقة غير انه ما ان قويت الدولة الاخمينية وقضى الملك الفارسي على الميديين في ايران الا وبدأ بنقض المعاهدة مع الملك البابلي والاعداد للهجوم على بلاد بابل وآشور مستغلاً فرصة الارتباك الاقتصادي الذي ساد بلاد بابل في هذه الفترة .

من استعراض العلاقات السياسية الخارجية التي كانت تربط الدول والممالك التي تتابعت على الحكم في العراق بعضها بالبعض الآخر او بالدول والممالك المجاورة يتضح بأنها كانت على درجة كبيرة من التطور والنضج وانها اتبعت ، ومنذ اقدم العصور المعروفة لدينا من خلال النصوص المسمارية ، اساليب وطرقا سياسية ودبلوماسية كانت الاساس الذي قامت عليه فيما بعد القوانين الدولية سواء كان ذلك في استخدام السفراء والمندوبين وارسال الرسائل الملكية وعقد المفاوضات وتوقيع المعاهدات والاتفاقيات الثنائية وتوثيقها بالقسم او باستخدام اساليب التحكيم الدولية واقامة الاحلاف العسكرية او السياسة او بالطقوس والمراسيم التي كانت ترافق كل ذلك والتي تطورت وتبلورت فيما بعد لتصبح جزءاً من مراسيم عقد المعاهدات .

العلاقات الدبلوماسية

يقصد بالعلاقات الدبلوماسية اسلوب ادارة وتنظيم العلاقات الدولية ويسمى العاملون على تنفيذ ذلك بالدبلوماسيين ، وهم الاشخاص الرسميون المكلفون من الملك او الحاكم للقيام بواجبات معينة لدى الدول الاخرى ، وقد يكونون سفراء دائميين او رسل او مندوبين للقيام بمهام معينة .

وكان للعمل الدبلوماسي في العراق القديم اثر كبير على العلاقات الدولية التي كانت تربط الدول والممالك المختلفة مع بعضها ، لذا كان الاهتمام بانتخاب السفراء والرسل وضرورة تمتعهم بصفات خاصة من حيث الكفاءة والمكانة الاجتماعية لكي يحسنوا تمثيل اسيادهم الملوك والحكام لدى الدول الاخرى. وكان السفراء والرسل يؤلفون الواسطة الوحيدة المتيسرة لدى الحكام والملوك القدماء للاتصال مع بعضهم البعض واجراء المفاوضات والتوصل الى عقد الاحلاف والمعاهدات حيث لم يرد ذكر للقاءات تمت بين الملوك والحكام انفسهم. وتشير قصيدة اينمركار السومرية الى اختيار رسول لائق ، حكيم المنطق ، يحمل رسالة اينمركار الى حاكم ارّاتا[1] ، في حين يفهم من رسائل العمارنة انه كان من صفات الرسل ايضاً المطلوبة ان يحسنوا القراءة والكتابة وربما يعرفوا لغات اجنبية تمكنهم من التفاهم مع حكام الدول الاخرى الاجانب ، وكان السفراء والرسل على درجات يأتي في مقدمتهم مارشبر mār šipri ، اي ابن الرسالة ، وكان له الحق والقدرة على مناقشة محتويات الرسالة التي يحملها وهناك صنف آخر عرفوا بالركبو rakbu ، اي الراكبين ، وكانوا مختصين بنقل الرسائل العسكرية بين قادة الجيوش اضافة الى نقل المعلومات الاستخبارية والتجسسية[2] . وكان هناك رسل الملك ورسل القادة والوزراء ورسل حكام المقاطعات[3] . وتشير بعض الرسائل الى ان الرسل كانوا يتقاضون اجوراً او رواتب على مهامهم تتناسب واهميتهم وحسب الفترة الزمنية .

ويبدو ان العرف الذي كان سائداً في مختلف العصور هو الحفاظ على سلامة الرسل حين عودتهم الى ممالكهم بسلام على الرغم من العلاقات العدائية التي قد تكون قائمة بين الدولتين ، وهذا مايلاحظ بالنسبة للرسل الذين بعث بهم آجا الى جلجامش واينمركار الى حاكم ارّاتا ، ومع ذلك ، فقد يتربص الاعداء للرسل وهم في طريقهم الى الدولة

---

(١) انظر، كريمر، من الواح سومر، ص ٧٢-٧٩.

(٢) Wiseman, D.J., op. cit., p. 316.

(٣) Alan D. Crown, Tidings and Instructions: How News, Travelled in the Ancient Nen East, JESHO, XVIY3 (1974), London, P. 244 Rt.

الثانية ومن قبل ان يصبحوا من مسؤولية الملك او الحاكم للحصول على المعلومات التي يحملونها. ولتفادي مثل هذه الحالات فغالباً ماكان الرسل يزودون برسائل مزيفة وغير حقيقية بهدف التمويه في حين كان على الرسول ان يحفظ عن ظهر قلب الرسالة الحقيقية. وقد امكن التوصل الى هذا الاستنتاج من مراجعة عدد كبير من الرسائل التي بعث بها الملوك والحكام وتبين بان غالبيتها لاتشير الى سبب ارسال الرسالة بل تتعرض الرسائل الى امور ثانوية وغير مهمة كطلب البحث عن حيوانات مفقودة او العثور على سارق اطعمة او مواد غذائية او غير ذلك في حين يظن ان الرسل كانوا يحملون رسائل مهمة حفظوها عن ظهر قلب لايصالها الى الملوك او الحكام مباشرة[١] . ومن الطبيعي ان الرسائل المعروفة كانت توثق بختم الملك وقد توضع داخل غلاف.

ويبدو ان الرسل كانوا يتمتعون بمركز مرموق حيث كانوا يتكلمون بصراحة مهددين ومنذرين دون خوف، كما توضح ذلك المفاوضات التي قام بها رسول اينمركار وآجا. وكان العرف السائد هو تسهيل مهمة الرسل واستقبالهم من قبل الملك او الحاكم ومعاملتهم معاملة جيدة والا توترت العلاقات بين الدولتين، وهذا ماشارت اليه رسالة شمشي – ادد الاول الى ابنه ونائبه في ماري حيث يؤنبه في الرسالة لتأخيره المبعوثين الذين كانوا في طريقهم اليه من قطنا في سوريا[٢] . وقد يزودون من قبل ملوكهم برسائل او تصاريح تطلب مساعدتهم في التنقل واداء مهامهم اشبه ماتكون بالجوازات الدبلوماسية[٣] واذا تعرّض الرسول او المبعوث الى اي خطر او تأخير فقد يشكو الملك الذي بعثه ذلك الى الملك المقابل، كما فعل الملك الكشي عندما عاتب الملك المصري على تأخير رسوله في مصر[٤] .

وفي العصر الاشوري الحديث، كان الملك الاشوري يعين غالباً مندوباً أو سفيراً عنه بصورة دائمية في بلاط الملك او الحاكم التابع كما تشير الى ذلك صراحة المعاهدة التي عقدها اسرحدون مع بعل حاكم مدينة صور[٥] .

---

(١) انظر شعلان كامل، العلاقات الدولية، ص ٨٠ حيث يذكر نماذج من هذه الرسائل.

(2) Dossin, G., Archives Royales de Mari (ARM) Paris, 1950, I, 15, p.q.

(3) Alan D. Grown, op. cit. p. 260–61.

(٤) سامي سعيد الاحمد، العصر الكشي، سومر، ٣٩ (١٩٨٣)، بغداد، ص ١٣٨ – ١٣٩.

(٥) Reine E. Akkaadian Treaties from Syria and Assyria, ANET, New Gersy 1969, 3nd ed pp. S33–34

وكان لاستقبال السفراء والمبعوثين من قبل الملوك الاشوريين في عصرهم الاخير مراسيم وتقاليد خاصة تفصح عن هيبة الملك وقوته وعلاقاته الودية مع الملوك والحكام الذين ارسلوا السفراء وجلبوا الهدايا. وكان السفراء يضعون الهدايا امام الملك كرمز للصداقة ، ومن الطبيعي ان اسلوب استقبال السفراء كان يختلف وفقاً لمكانة الملك او الحاكم الذي ارسلهم وعلاقته مع الملك الاشوري.[١]

ومن الجدير بالاشارة انه كانت هناك بعض الممارسات الدبلوماسية التي عرفها العراقيون القدماء وكانت اساساً لمثيلاتها في العصور التالية كقطع العلاقات الدبلوماسية وابعاد الرسل والمندوبين[٢] او اللجوء السياسي ، اي لجوء ملك او حاكم مبعد الى دولة اخرى ، كما فعل شمشي ادد الاول عندما لجأ الى بلاد بابل[٣] ، وقد يرفض اللجوء الى دولة ما ضماناً للعلاقات الودية التي تربط الدولتين[٤] .

كما كان للهدايا المتبادلة بين الحكام والملوك اثرها في ايجاد علاقات ودية او تقوية تلك العلاقات ، وقد يكون بعضها على صيغة جزية او ضرائب تقدم الى الملك الاقوى وقد تكون متبادلة بين ملوك متكافئين من حيث المنزلة . وقد تضم الهدايا مختلف الاشياء ولكن تأتي في مقدمتها ، ولاسيما التي تقدم الى الملوك العراقيين القدماء ، الذهب والفضة ، ولعل في المقتطفات الاتية من رسالة للملك الكشي الى الملك المصري مايوضح ذلك .

> «حين عقد ابي وابوك الصداقة مابينهما كانا يتهاديان اثمن الهدايا ، ولم يمنع احدهما ما كان يطلبه الآخر مهما عز وغلا والان لقد اهدى اليَّ اخي (منين) من الذهب ، فكم تمنيت لو انك ارسلت اليَّ بقدر ما كان يرسله ابوك . واذا كان لابد من تقليل المقدار ، فارسل الي نصف ما كان يرسله ابوك . فلم اقتصرت على ارسال "منين" من الذهب فقط ؟ انني الان ابذل جهداً كبيراً في بناء المعبد ، وسوف

---

(١) انظر جورج كونتينو ، الحياة اليومية في بلاد بابل واشور ، ١٩٧٩ ، ص ٢٤٤-٢٤٦ .

(٢) سامي سعيد الاحمد ، المدخل الى تأريخ العالم القديم ، القسم الاول ، العراق القديم ، ج٢ ، بغداد ، ١٩٨٣ ، ص ١٩٩ .

(٣) Oppenheim L. International Laws Londan,1957, p. 127.

(٤) وليد فرحان ، العلاقات السياسية ص ٩٥ .

انجز العمل بدقة ، فارسل الي قدراً وافياً من الذهب ؛
واذا رغبت في شيء يوجد في بلادي مهما كان فابعث الي
رسلك ليأتوك به.

وفي الختام لقد ارسلت اليك هدية : ثلاثة «منات»
من حجر اللازورد وعشرة افراس لخمس عربات»[1] .

وتصور لنا المنحوتات الاشورية مشاهد مختلفة من تقديم هدايا الملوك والحكام التابعين الى الملوك الاشوريين[2] ، كما تظهر مشاهد تقديم الهدايا ، وغالباً ما كانت في الواقع تمثل الجزية المفروضة على الدولة التابعة ، المسلات الاشورية ، وكان الملوك التابعين يسعون لكسب ود ورضا الملوك الاشوريين فيبالغوا في ارسال الهدايا اليهم[3] .

كما كانت المصاهرات السياسية من الوسائل المهمة لايجاد علاقات ودية بين الدول والممالك او لتقوية تلك العلاقات وغالباً ما كانت الاحلاف والمعاهدات تختم بزواج سياسي ولدينا من الامثلة الشيء الكثير عبر العصور التاريخية وربما كان ابرز الامثلة مافعله زمري-ليم ملك ماري عندما وطد علاقاته مع كثير من الممالك المعاصرة من خلال تزويج بناته الاحدى عشر الى الملوك والحكام المعاصرين له كما قام الملوك الكشيون بتزويج اميرات كشيات من الفراعنه المصرين ، وقامت زيجات سياسية ايضاً بين الاسرة المالكة الاشورية والاسر المالكة الاخرى في بلاد بابل والممالك السورية وغيرها وكان من الزيجات السياسية المشهورة ، على الرغم من انها ليست مؤكدة تاريخياً ، زواج نبوخذنصر ولي العهد البابلي من ابنة الملك الميدي كي اخساو قبل توليه العرش البابلي.

انواع وشكليات المعاهدات

كانت النتائج المتوقعة لنجاح المفاوضات السياسية ونجاح الرسل والمندوبين في مهامهم عقد حلف او اتفاقية او ابرام معاهدة صداقة وقد تختم العملية كلها بمصاهرة سياسية.

فاما الاحلاف ، فغالباً ما كانت احلافاً عسكرية يتم الاتفاق عليها شفوياً وقلما توثق بوثيقة وقد يعقبها زواج سياسي ، وقد تضم الاحلاف العسكرية اكثر من طرفين اثنين واجهة خطر معين نتيجة غزو اقوام اجنبية او ظهور دولة قوية ، وهذا مايلاحظ في فترات

---

١) طه باقر، المقدمة ، ٤٥٨-٤٥٩.

٢) كونتينو، الحياة اليومية ، ٢٤٥.

٣) حول تفصيل ذلك انظر شعلان كامل ، العلاقات الدولية ص ٩٣-٩٧.

تعدد الدول القائمة كعصر فجر السلالات والقسم الاول من العصر البابلي القديم ، وكانت الغاية من تلك الاحلاف المحافظة على توازن القوى في المنطقة .

وكانت الاتفاقيات ، من جانب آخر ، تضم بعض الامور ذات العلاقة بالحياة الاقتصادية غالباً ، وليست لدينا سوى اشارات عابرة عن بعض الاتفاقيات التي كان قد عقدها التجار الاشوريون مع الحكام المحليين في اسيا الصغرى عندما اقاموا لهم مراكز تجارية اشورية فيها كذلك لابد وان كان هناك اتفاقيات بين ملوك الدول التي كانت تمر من خلالها القوافل التجارية هدفها حماية سلامة وامن تلك القوافل .

اما المعاهدات ، وهي العقود التي تنظم العلاقة بين دولتين او اكثر وتعنى بالقضايا العامة السياسية والعسكرية وغيرها ، فقد عرفت في العراق القديم منذ العصور التاريخية المبكرة ، وتمثل معاهدة لجش مع اوما اقدم تلك الامثلة وكذلك معاهدة نرام - سين مع حاكم اوان العيلامي . ومع ذلك ، فان مالدينا من معاهدات عن العصور التاريخية التالية قليل جداً بل ان جل مالدينا اشارات الى تلك المعاهدات التي لابد وان كانت مدونة على رقم طينية او مسلات . وان الامثلة المتوفرة لدينا عن المعاهدات تاتينا بالدرجة الاولى من العصور الاشورية ، ولاسيما العصر الاشوري الحديث .

كانت المعاهدات على نوعين ، معاهدات تبرم بين اطراف متكافئة ومتساوية من حيث القوة والمنزلة ، وهي قليلة جداً ، ومعاهدات تبعية كانت تبرم بين طرف قوي واخر ضعيف وتمثل النوع الاول من المعاهدات التي يمكن ان نسميها ايضاً بمعاهدات الصداقة والسلام ، العلاقات البابلية - الاشورية ، كالمعاهدة التي عقدها ادد - نراري الثاني (٩١١ - ٨٩١ ق . م) مع ملك بابل ومعاهدة شيلمنصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤ ق . م) مع ملك بابل ايضاً .

اما النوع الثاني من المعاهدات ، والذي اطلق عليه في اللهجة الاشورية ادي ade ، فتمثله معظم المعاهدات المعروفة لدينا والتي كانت قد ابرمت في العصور العراقية القديمة وقد امدتنا التنقيبات الاثرية بعدد من معاهدات التبعية وبصورة خاصة من اواخر العصر الاشوري الحديث . وكان على الملوك والحكام التابعين الذين يرتبطون بهذا النوع من المعاهدات ان يعترفوا بسلطان الدولة الاقوى ، وهي الدولة الاشورية غالباً ، وبهيمنتها على سياستهم الخارجية وعلاقاتهم الدولية ويقدموا الجزية السنوية وينفذوا الالتزامات الكثيرة التي كان يفرضها الملك الاشوري عليهم كتقديم القطعات العسكرية عند الحاجة وضمان امن وسلامة القوافل التجارية الاشورية وغير ذلك من الالتزامات مقابل مايضمنه الملك الاشوري من حماية عسكرية لاولئك الملوك والحكام من الاخطار الخارجية والمؤامرات

الداخلية وقد اعتمد الاشوريون الى حد بعيد على مثل هذه المعاهدات في تنظيم علاقاتهم الدولية وبسط نفوذهم وربط معظم الدول والممالك الصغيرة ولاسيما ممالك بلاد الشام بمعاهدات تبعية صارمة. ويبدو ان الكثير من الممالك والدول الصغيرة كانت تسعى جاهدة لكسب ود الاشوريين والدخول معهم في معاهدة من هذا النوع بهدف الحصول على الحماية العسكرية والاستقرار الداخلي، وهو امر يمكن ملاحظته في الوقت الحاضر عندما تسعى الدول الصغيرة لكسب ود القوى الكبرى واعطائها جميع الامتيازات السياسية والعسكرية والاقتصادية مقابل ما تقدمه تلك الدول من حماية عسكرية وموقف مؤيد.

وكانت غالبية المعاهدات التي تم العثور على نماذج منها تدون باللغة الاكدية على رقم الطين، وقد دونت بعضها على ورق البردي وتلفت بعد فترة قصيرة. وكانت تتضمن عادة مقدمة تعرف بالاطراف المتعاقدة والقابها ثم القسم بالالهة العظام على الالتزام ببنود المعاهدة ولاعطاء المعاهدة صفة دينية ثم تلي ذلك بنود المعاهدة ونصوصها الخاصة والتي تحدد طبيعة المعاهدة وموضوعها اضافة الى تحديد واجبات وحقوق ومسؤوليات الاطراف المتعاقدة عليها وقد تضم بنوداً اضافية خاصة بموضوع معين، كالمعاهدات التي عقدها اسرحدون مع الحكام الميديين بخصوص ولاية العهد الاشوري ومن ثم هناك اللعنات التي ستصيب كل من يحاول نقض المعاهدة حيث لم يكن نقض المعاهدة من الامور غير المألوفة... واخيراً كانت المعاهدة تختم بختم الملكين او طرفي المعاهدة.

وكان يرافق ابرام المعاهدات بعض الشكليات والطقوس والمراسيم لاضفاء نوع من القدسية على المعاهدة، كما كان يرافق ذلك بالتأكيد القيام باحتفالات معينة. وقد تكون الطقوس اعمال او حركات رمزية كذبح جحش او مسك رداء الملك القوي او صولجانه او لمس الحنجرة. اما نقض المعاهدة فكان يعبر عنه بعبارة ضرب اليد. وكان يعقب ابرام المعاهدة وفق الطقوس الدينية مصافحة بين الطرفين.[1]

(١) عامر سليمان، العلاقات السياسية الخارجية، ج ٢ ص ١٢٩–١٣٠.
شعلان كامل، العلاقات الدولية، ص ١٢٣–١٥٩.

مصادر منتخبة

الأحمد، سامي سعيد: الأدارة ونظام الحكم في: حضارة العراق، بغداد، ١٩٨٥، ج٢، ٧- ٣٨.

الأتفاقيات العسكرية والمعاهدات في العراق القديم، بحث مقدّم الى المؤتمر العلمي الاول لجمعية المؤرخين والآثاريين في بغداد، ١٩٨١.

اسماعيل، شعلان كامل: العلاقات الدولية في العصور العراقية القديمة، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى جامعة الموصل/ كلية الآداب، موصل، ١٩٩٠.

الجبوري، علي ياسين: نظام الحكم في: موسوعة الموصل الحضارية، موصل، ١٩٩١، ج ١ ص ٢٩٩- ٢٤٢: ٢٤٣- ٢٦٢.

الزيباري، اكرم: العلاقات بين اقطار الشرق الأدنى القديم في الالف الثاني قبل الميلاد. مجلة كلية الآداب، ٢٧، ١٩٧٩، بغداد، ص ١٢٦- ١٥٨.

سليمان، عامر: العلاقات السياسية الخارجية، في: حضارة العراق، ج٢، ص ١٠٩-٣٤٨.

سومير، ا. د.، معاهدة تبعية من القرن الثامن ق. م. الحوليات السورية، دمشق، ١٠ (١٩٦٠)، ص٢٣١- ٢٥٢. ترجمة عدنان البني.

الشيخلي، عبدالقادر عبدالجبار: الأدارة والسياسة في العراق في موكب الحضارة، بغداد، ١٩٨٨ ص ٣١٣-٣٤٨.

طه، منير يوسف: علاقات الآشوريين مع الأقاليم المجاورة، في: موسوعة الموصل الحضارية، موصل، ١٩٩١، ج١، ١٠٩- ١٢١.

فرحان، وليد محمد صالح: الصراع الدولي في الشرق الأدنى ما بين القرنين الخامس عشر والثالث عشر قبل الميلاد، آداب الرافدين، موصل، ١٩٧٩، ص ٢١٣- ٢٣٨.

فرحان، وليد محمد صالح: العلاقات السياسية في الدولة الآشورية، بغداد، ١٩٧٦، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى جامعة بغداد/ كلية الآداب.

(1) Albright, W.F., Treaties andCoalitions: ANET, 3rd ed. New Gersy, 1969.

(2)Oppenheim, International Law, London, 1967.

(3) Parpola, S. and Watanabe, K., Neo Assyrian Treaty and Loyalty Oaths, State Archives of Assyria, Vol. II, Helsinke, 1988.

(4) Rankin, J.M., Diplomacy in Western Asia in the Early second mellenium B.C., Iraq. 18, London 1956, PP.88 – 110.

(5) Reiner, E., Akkadian Treaties fromSyria and Assyria , ANET, 3rd ed., New Gersy, 1969

(6) Wiseman, D.J., The Vassal Treaties of Esarhaddon, London 1958

الفصل الثالث

الجيش والسلاح

يحتل الجيش والسلاح مكان الصدارة في تاريخ جميع الدول قديمها وحديثها وفي مختلف البلدان والاقاليم ، فهو سورها المنيع الذي يحميها من اي اعتداء ويصد عنها اي خطر خارجي ويوفر لها الامن والاستقرار، وتزداد اهمية الجيش والسلاح بالنسبة للدول والممالك التي قامت في ارض العراق منذ اقدم العصور وحتى الان نظراً لطبيعة ارض العراق الجغرافية ، فهي ارض معطاء تتوفر فيها المياه العذبة والاراضي الخصبة والسهول الفسيحة ، فقامت فيها اقدم المراكز الحضارية التي عرفها الانسان وشهدت اقدم محاولات الانسان في الزراعة والتدجين والكتابة والتدوين وغيرها من المظاهر الحضارية الاساسية في حياة الانسان ، وفي الوقت نفسه ، فهي اقليم مفتوح امام الاقوام الاخرى ، ولاسيما الجبلية منها ، التي كانت تقطن في الجهات الشرقية والشمالية الشرقية من بلاد سومر واكد ، فكانت معرضة للغزو والهجوم عبر العصور المتتالية متى ما ضعفت قدراتها العسكرية وسلطاتها المركزية . وهكذا ادرك العراقيون القدماء ومنذ فترة مبكرة من تاريخهم انهم اذا ما ارادوا العيش بأمن وسلام ويحافظوا على اراضيهم كان عليهم ان يمتلكوا قوة عسكرية كفيلة بالدفاع عن حدودهم الخارجية مسلحة باحسن واقوى الاسلحة المعروفة انذاك ، فكان ان اولى الملوك والحكام جل اهتمامهم لتجنيد الجيش وتنظيمه وتدريبه وتسليحه حتى غدا الجيش في العصر الاشوري الحديث اقوى جيش في منطقة الشرق الادنى القديم بأسرها .

وللتعرف على تاريخ الجيش وسلاحه في العراق القديم ، اعتمد الباحثون المحدثون على ثلاثة مصادر رئيسة لرسم صورة تقريبية له ضم الاول منها جميع المخلفات المادية ذات العلاقة بالجيش والسلاح كالأسلحة والابنية الدفاعية كالاسوار والحصون والقلاع ، وبقايا

العربات والكبائش والدبابات وغيرها. اما المصدر الثاني فيتمثل بالمشاهد الحربية المختلفة المنقوشة او المنحوتة على المسلات والنصب والتماثيل والمنحوتات والاختام والعاجيات او المرسومة على الاواني الفخارية او الجدران مما يعكس جانباً من جوانب الحياة الحربية التي عاشها العراقيون القدماء في عصورهم المختلفة، وتضمن المصدر الثالث من مصادر معلوماتنا عن الجيش والسلاح النصوص المسمارية الكثيرة التي تحدثت عن الحملات العسكرية والانتصارات الكثيرة التي تحققت ولاسيما في العصر الاشوري الحديث، كالحوليات الملكية والنصوص التذكارية والنصوص المدونة على احجار الاسس واحجار الحدود (الكودورو) والنصوص الملكية الاخرى كالرسائل والقوانين والتعليمات وحتى بعض النصوص الادارية والدينية ذات العلاقة بشكل مباشر اوغير مباشر. وقد امدتنا التنقيبات الاثرية التي اجريت في المدن والمواقع الاثرية الكثيرة بمعلومات كثيرة من خلال هذه المصادر الثلاثة الا ان تلك المعلومات غير موزعة على جميع الفترات بشكل متوازن بل قد تكون المعلومات المتوفرة عن فترة معينة، كالعصر الاشوري الحديث مثلاً، غاية في الدقة والتفصيل في حين نفتقر الى المعلومات التي تخص فترات اخرى كفترة السيطرة الكشية على بلاد بابل مثلاً. كما تختلف اهمية المصادر الثلاثة الرئيسة حسب الفترات الزمنية ايضاً حيث تكون اهمية المشاهد المنحوتة على المنحوتات والمسلات والنصب في العصر الاشوري اكثر من غيرها في حين تزداد اهمية النصوص المدونة في العصر البابلي القديم وهكذا. وفيما يأتي صورة تقريبية وعامة عن نشوء وتطور الجيش والسلاح في العصور العراقية القديمة الرئيسة [1].

الجيش والسلاح في عصور ماقبل التاريخ

من المؤكد انه لم يكن للانسان في العصور الحجرية كلها وحتى بداية العصور التاريخية في حدود الالف الثالث قبل الميلاد اي تنظيم او مجموعة من الافراد التي يمكن ان يطلق عليها مصطلح (الجيش)، لذا فان الحديث عن عصور ماقبل التاريخ يقتصر على السلاح فقط الذي استخدمه الانسان كفرد او مجموعة من الافراد غير منظمة في تنظيم او وحدة عسكرية. ومن البديهي ان الانسان القديم استخدم انواعاً بدائية من الاسلحة، ممثلة بالحجارة واغصان الاشجار وعظام الحيوانات، ربما منذ ان وجد على الارض فحاجته

(١) صدرت مؤخراً موسوعة الجيش والسلاح "باجزائها الخمسة عن وزارة الثقافة والاعلام (بغداد ١٩٨٨) وقد ضم الجزئين الاول والثاني حديثاً مفصلاً عن الجيش والسلاح في العصور العراقية القديمة كتب من قبل عدد من الاساتذة المختصين، تحت عنوان الجيش والسلاح، بغداد، ١٩٨٨.

للدفاع عن النفس من اجل البقاء ضد الحيوانات الضارية لابد وان اوحت له استخدام ماهو متوفر لديه من مواد، كالحجارة والاغصان والعظام، سلاحاً لدرء الخطر، ومن المؤكد ان علاقة الانسان بالانسان لم تكن سلبية في تلك العصور المبكرة وتستدعي استخدام السلاح بل على العكس من ذلك تماماً حيث كانت حاجة الانسان الى اخيه الانسان كبيرة للتعاون على درء الخطر المشترك الذي يداهم بني الانسان والمتمثل بالحيوانات الضارية. ومنذ ان بدأ ظهور الملكية الفردية، وهي ملكية الارض الزراعية والات وادوات الزراعة وملكية الحيوانات المدجنة والبيوت المشيدة وما فيها من اثاث وادوات انتاج، ربما بدأت المنازعات والخصومات بين بني الانسان وبدأ استخدام الانسان للسلاح ضد اخيه الانسان، فكانت الحروب وكانت ويلاتها.

وفي عصور ماقبل التأريخ، كانت آلات الانسان واسلحته تصنع من الحجر والخشب والعظم ومن العاج وغيرها، ومعظم هذه المواد عضوية، باستثناء الحجر، وسريعة التلف لذا لم يبق منها شيء يذكر في حين ظلت الاسلحة المصنوعة من الحجر تقاوم الزمن كما قاومت الانسان والحيوان. وقد تم العثور على انواع مختلفة من الاسلحة المصنوعة من الحجر التي كانت تستخدم لصيد الحيوانات وقتلها ولضرب الانسان وقتله وكان منها الفؤوس والرماح وقاذفات الرمح والحربة والمدية والسكين والخنجر والقوس والسهم. وفي اواخر عصور ماقبل التاريخ ابتكر الانسان العجلة والعربة واستخدم اسلوب تسوير المدن للدفاع عنها.(١)

ومنذ اواسط العصر الحجري المعدني، اي في حدود ٤٥٠٠ قبل الميلاد، بدأ استخدام المعادن، ولاسيما النحاس ومن ثم البرونز. وكان طبيعياً ان يستخدم لصناعة رؤوس الحراب والسهام ونصال الرماح والمديّات والسيوف والخناجر وغيرها، وغدت الاسلحة المصنوعة من المعدن اكثر انتشاراً بمرور الوقت وزادت اهميتها في اواخر الالف الثاني قبل الميلاد عندما استخدم الآشوريون الحديد لصناعة السيوف والخناجر ورؤوس السهام والرماح.

وكما اشرنا سابقاً، ليست هناك اية معلومات عن وجود جيش في عصور ماقبل التاريخ الا انه من المؤكد ان كل مدينة كانت تستنفر جميع افرادها القادرين على حمل السلاح للدفاع عن المدينة متى داهمها الخطر وتعرضت لهجوم او غزو خارجي، كما قام سكان

---

(١) انظر تقي الدباغ، السلاح في عصور ماقبل التاريخ، في: الجيش والسلاح، ج١، بغداد، ١٩٨٥، ص١١-٤٦.

المدينة ومنذ فترة مبكرة بحماية المدينة وذلك ببناء سور حولها يحميها من غزو الاعداء ويعد سور قرية الصوان بمنطقة سامراء من اقدم التحصينات الدفاعية المعروفة في عصور ماقبل التاريخ في العراق[1] اذ يعود تاريخه الى اواسط الالف السادس قبل الميلاد، وقد شيد السور باللبن المجفف وبسمك مايقرب من متر وارتفاع متر ايضاً واحيط بخندق عمقه ثلاثة امتار، وللسور ثلاث مداخل رئيسة.

الجيش والسلاح في عصر فجر السلالات (حدود ٢٩٠٠– ٢٤٠٠ق.م)

اتسم الوضع السياسي العام في عصر فجر السلالات، كما اشير الى ذلك مراراً، بوجود عدد من دول المدن التي كانت تحكم في المناطق المختلفة من العراق، وكان بعضها يعاصر بعضها الآخر احياناً. وكان التنافس بينها على اشده لأسباب كثيرة منها الرغبة في السيطرة على مساحات اوسع من الأراضي الزراعية ومورد اكثر للمياه وكذلك لضمان أمن وسلامة الطرق التجارية الموصلة الى مصادر المواد الخام وقبل كل شيء لزيادة قوة الدولة لتتمكن من مواجهة اي خطر خارجي ولاسيما الغزو المتوقع من المناطق الجبلية الواقعة الى الشرق من بلاد بابل وآشور. واخيراً لابد وان كان لطموح الملوك والحكام ورغبتهم في السلطة وبسط النفوذ اثره في نشوب الحروب والمنازعات بين دول المدن المختلفة، كما كان التيار السياسي العام الذي ساد المنطقة، ولاسيما في اواخر عصر فجر السلالات، يهدف الى توحيد دول المدن في دولة مركزية واحدة تهيمن وتسيطر على جميع بلاد سومر واكد وتدافع عنها ضد اي خطر خارجي، فكانت الحروب التي استمر بعضها لسنين طويلة، كالحرب التي نشبت بين دولة مدينة لجش ودولة مدينة اومّا المجاورة لها والتي كانت آخر حلقاتها القضاء على حاكم لجش وضم اراضيها الى حدود اومّا التي مالبثت ان نمت واتسعت حتى سيطر ملكها لوجال زاجيزي على معظم المدن السومرية كما سبق واشرنا. لذا، كانت الحاجة ماسّة لوجود قطعات عسكرية منظمة ومستعدّة للدفاع عن حدود الدولة وعن اسرتها الحاكمة ومدربّة تدريباً جيداً ومسلّحة بأفضل الاسلحة واقواها، وربما كانت بدايات الجيش النظامي، اي الدائمي، منذ اواخر هذا العصر.

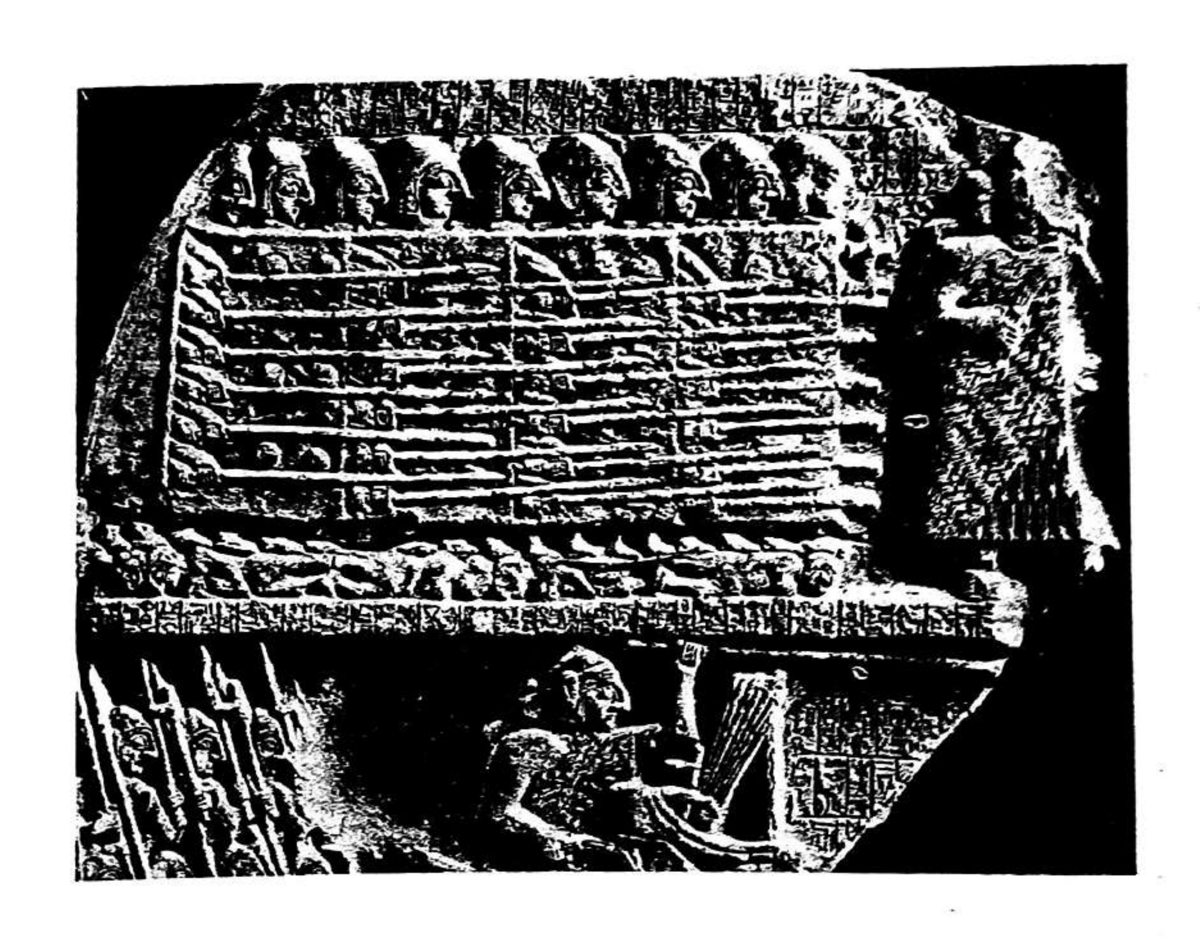
---

(١) انظر دوني جورج يوخنا، عمارة الالف السادس قبل الميلاد في تل الصوان، رسالة ماجستير غير منشورة، بغداد، ١٩٨٦ ص ٥٤– ٦٠.

ومن الواضح انه كان لطبيعة الحروب التي نشبت بين دول المدن المتجاورة والقريبة من بعضها البعض ، كما هي الحال بالنسبة لمدينة لجش ومدينة اومّا ، اثرها في تحديد اساليب القتال ونوع السلاح المستخدم ووسائل الدفاع وتنظيم الجيش. وقد افادتنا بعض المنحوتات المكتشفة والتي تعود الى هذا العصر فائدة كبيرة في معرفة ذلك ويأتي في مقدمة هذه المنحوتات مايعرف عادة بمسلة النسور او العقبان التي تعود الى اي انّاتم حاكم لجش (حدود ٢٥٠٠ ق.م) ، اما المنحوتة المهمة الثانية فهي مايعرف براية اور والتي تعود الى النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد والتي تم اكتشافها في مقبرة اور الملكية.

وتشير المعلومات المتوفرة من النصوص المسمارية وتلك المستنبطة من المنحوتات ان الجيش في هذا العصر كان يضم صنفين رئيسين اولهما صنف المشاة ، سيد الصنوف في جميع الجيوش وفي مختلف العصور. وكان المشاة يتسلّحون بالرماح والسيوف ويرتدون دروعاً من الجلد الثخين ويعتمرون بخوذ معدنية ويحملون دروعاً كبيرة احياناً. اما الصنف الثاني فيضم المقاتلين بالعربات التي تجرها الحيوانات وكان دورهم الاساس ، على مايبدو ، اختراق صفوف الاعداء وتشتيت قواتهم تمهيداً للهجوم عليهم من قبل المشاة. وتوضح مسلة النسور المشار اليها اعلاه ذلك جلياً حيث يظهر حاكم لجش اي انّاتم وهو على رأس جيشه مرتدياً درعاً واقياً من الجلد يتبعه جنده من المشاة المنتظمين في صف مرصوص وفق نظام الصف او الكراديس ، وقد حمل الجند رماحهم الطويلة المشرّعة وحملوا تروساً مستطيلة الشكل كبيرة الحجم صف بعضها الى جنب بعض حتى بدت وكأنها جداراً منيعاً ، وامام الجند وتحت اقدامهم وقع القتلى من الاعداء وقد انقضت عليهم النسور ، ومن هنا جاءت التسمية . وصور اي اناتم في المشهد الثاني من المسلة وكأنه راكباً عربة قتال مجهزة بجعبة للرماح الخفيفة ويحمل بيده اليمنى سيفاً معوجّاً ويلوح بيده اليسرى برمح طويل ، وضمت بقايا المشهد الثالث منظر تجميع قتلى الاعداء. اما الوجه الثاني من المسلة ، فقد صور الاله ننجرسُ ، اله مدينة لجش الحامي ، وبيده اليمنى صولجاناً يهوي به على رأس احد الاعداء وبيده اليسرى شبكة كبيرة اصطادت الاعداء ، مما يشير الى نوع الاسلحة المستخدمة وفي الوقت نفسه يشير الى اعتقاد العراقيين القدماء ان الحروب التي كان يشنها الملك او الحاكم ماهي الا تنفيذ رغبات الآلهة لذا فإنها كانت ، حسب تصورهم ، تشارك في الحرب وتحقق النصر لهم.

اما المنحوتة الثانية ، وهي راية اور ، وهي مصنوعة من الكلس والصدف واللازورد ويبلغ ارتفاعها ٢٠ سنتمتراً فقط وتحمل مشهدين احدهما على الوجه والآخر على القفا ، انجزا بطريقة التطعيم ويتكون كل مشهد من ثلاثة حقول افقية يصور المشهد الأول معركة



خاضها جيش مدينة اور بقيادة الملك ضد احد الجيوش المعادية ، ويصور المشهد الثاني الاحتفال بتحقيق النصر ونقل الغنائم. ويظهر في المشهد الأول ولأول مرة استخدام العربات التي تجرها الحيوانات في القتال ويركب في كل عربة اثنان من المقاتلين احدهما يقود العربة والآخر يتولى مهمة القتال ، كما صور في الحقل الثاني الجند المشاة يحملون السيوف ، ويعتمرون بالخوذ ويتدرعون بالدروع المصنوعة من الجلد الثخين ، وقد سار امامهم عدد كبير من الاسرى ، وقد صور الاسرى في الحقل الثالث ايضاً امام الملك. ويصور المشهد الثاني من راية اور عملية نقل الغنائم والاحتفال بالنصر.[1]

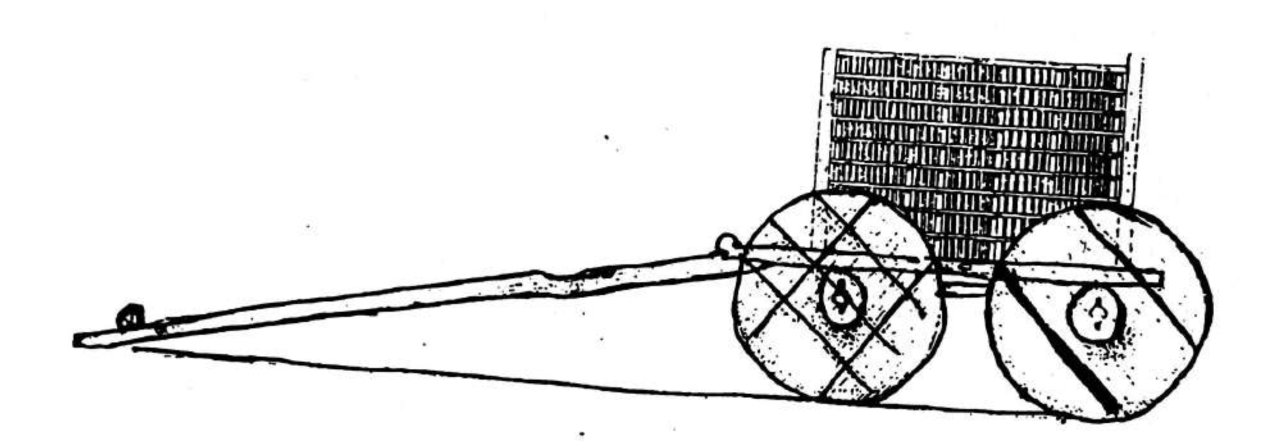
وتظهر كلا المنحوتتان انواع الاسلحة الثقيلة التي استخدمها الجند كالرماح الطويلة والسيوف الثقيلة والدروع الكبيرة كما استخدمت الفؤوس والدبابيس وغيرها من الاسلحة الثقيلة الوزن التي لايمكن استخدامها وحملها الا اذا كانت المسافات قصيرة وقريبة كما تظهر المشاهد المصورة على المنحوتات نوع الأزياء والخوذ والدروع التي استخدمها القادة والجند.

---

(١) حول تفاصيل ذلك انظر: فاضل عبدالواحد علي في : تاريخ القوات المسلحة ، بغداد ، ج١ ، ١٩٨٦ ، ص ٦٤-٦٧.

اما النصوص المسمارية ، فتذكر لنا بعض الرتب والالقاب الخاصة بافراد القوات المسلحة منها لقب اوجولا Ugula ونوبندا Nubanda وشاجنا Šagina الذي كان يمثل اعلى رتبة في الجيش اما الجند الاعتياديين فكانوا على صنفين صنف عرف باسم ايرن Erin وربما يعني الجندي الدائمي ، في حين عرف الصنف الثاني باسم جُرُش gurušربما بمعنى جندي الاحتياط .(١)

اما بالنسبة الى دفاعات المدن ، فقد كانت المدن الرئيسة تسوّر باسوار عالية ومنيعة وقد عمل سرجون الأكدي ، كما سبق واشرنا ، على هدم تلك الاسوار عندما وحّد دول المدن في دولة مركزية واحدة .



الجيش والسلاح في عصر الدولة الاكدية .

كان توحيد دول المدن التي كانت قائمة في عصر فجر السلالات في دولة مركزية واحدة في عهد سرجون الأكدي من الاحداث المهمة التي استوجب تحقيقها الدخول في حروب وصراعات عنيفة ومواجهة تحديات كثيرة . وكان لابد لقادة الجيش الاكدي ان يهيئوا جيشاً قوياً ومتدرباً ومنضبطاً ومزوداً باسلحة فعّالة . ومع ان معلوماتنا غزيرة عن الحملات العسكرية التي قادها الملوك الاكديون ، الا ان مالدينا عن تنظيم الجيش وتدريبه وصنوفه قليل جداً .

ـ (١) انظر فوزي رشيد ، الجيش والسلاح في عصر فجر السلالات في : الجيش والسلاح ، ج١ ، ص٨٨ .

ان اية صورة ترسم عن الجيش والسلاح في العصر الاكدي (٢٣٧١- ٢٢٣٠ ق.م) لابد ان تأخذ بنظر الاعتبار بعض الامور التي استجدّت في هذا العصر يأتي في مقدمتها هوية الاقوام الاكدية الجزرية ، فبعد ان كان القادة والضباط وغالبية الجنود في العصور السابقة من العناصر السومرية ، اصبح معظمهم الان من العناصر الاكدية التي لابد وان ادخلت الكثير من اساليب القتال وفنون الحرب وانواع الاسلحة التي اعتادت عليها وعرفتها الاقوام الجزرية بصورة عامة من قبل ان تحل في وادي الرافدين والتي كانت بالتأكيد تنسجم والحياة البدوية المتنقلة التي اتسمت بها حياة الاقوام الجزرية عامة. الا ان ذلك لايعني ان الاقوام الاكدية كانت اقواماً بدوية لاتعرف حياة المدن والاستقرار واساليب وفنون الحرب ، بل انها كانت متأثرة الى درجة كبيرة باصولها الجزرية ، وفي الوقت نفسه كانت متأثرة بحياتها المستقرة الجديدة في المدن والمراكز الحضارية فجمعت بذلك بين الاساليب والمفاهيم والقيم البدوية الجزرية وبين حياة المدن واساليبها وقيمها الخاصة.

اضافة الى ذلك ، فالمعروف ان معظم الحروب والمنازعات التي كانت تقع في عصر فجر السلالات ، بإستثناء القليل منها ، كانت تنشب بين دول المدن الصغيرة ، او بالاحرى بين المدن المتجاورة والمتقاربة وكان طبيعياً ان تكون اساليب القتال ونوع الاسلحة منسجماً مع هذه الحقيقة في حين لم تعد المعارك والحملات العسكرية التي خاضها الجيش الأكدي مقصورة على منطقة صغيرة او قريبة بل كان على الجيش الاكدي ان يواجه اعداء اجانب من مناطق اجنبية متباينة من حيث طبيعة المنطقة واساليب القتال ونوع الاسلحة وفنون الحرب ، فكان عليه ان يكون مدرّباً تدريباً جيداً ومستعدّاً لمواجهة مختلف انواع الاسلحة ويقاتل في مختلف البيئات بعيداً عن مراكز المدن الاكدية.

كما كان لاتساع رقعة الدولة- الاكدية وضرورة اعداد وتجهيز الحملات العسكرية المتتالية الى المناطق البعيدة ، ولاسيما المناطق الشرقية والشمالية الشرقية ، وحماية حدود الامبراطورية المترامية الاطراف اثره في التركيز على الجيش الدائم الذي ربما كانت نواته الاولى في اواخر عصر فجر السلالات. وهكذا تفاخر سرجون بأنه كان يطعم يومياً ٥٤٠٠ مقاتل يومياً في قصره وربما كان ذلك اشارة الى افراد القوات المسلحة من الحرس الملكي الدائمي الذي يمثل نواة الجيش النظامي الدائمي.

ولا يعرف كم كان عدد الجيش الأكدي ، لكن المتوقع أنه كان يضم عشرات الالوف من المقاتلين لكي تتمكن القطعات من الانتشار في جبهات عديدة وبعيدة وتحمي حدوداً طويلة وبصورة دائمية وتؤمن أمن وسلامة طرق المواصلات التي كانت تصل اكد بسواحل

البحر المتوسط ، كما ان عدد الاسرى الكبير الذين ذكرهم الملوك الاكديون يشير هو الآخر الى ضخامة عدد الجيش الأكدي .

وفيما يخص اسلوب تجنيد الجنود وتدريبهم ودفع الرواتب وغيرها ، فإن معلوماتنا المتوفرة قاصرة عن تفاصيل ذلك ولنا ان نفترض انها كانت مشابهة لما اصبحت عليه في الفترات التالية ولاسيما في عصر حمورابي . وكانت قيادة الجيش بالتأكيد من مهام الملك الاول ، وهكذا ظهر سرجون ونرام – سين على رأس جيوشهم في المسلات والنصب التي تركوها تخليداً لانتصاراتهم المهمة اما بالنسبة للحملات الاقل اهمية ، فكانت قيادتها تعهد الى القادة والضباط او حكام المقاطعات القريبة .

وتشير المشاهد الحربية المصورة على المسلات والنصب الاكدية ، وكذلك طبيعة التطورات السياسية وطبيعة المعارك العسكرية ، الى تنوع صنوف الجيش والى استخدام الاسلحة الخفيفة التي تساعد على خفة الحركة وسرعة المناورة وقطع المسافات البعيدة وهذا ماينسجم ايضاً وطبيعة الاقوام الجزرية التي اعتادت على الحركة وسرعة التنقل ، فبطل استخدام الاسلحة الثقيلة كالدروع والفؤوس والدبابيس والرماح الثقيلة ، واستحدث اسلوب المبارزة الفردية . وكان صنف المشاة يؤلف الجزء الاكبر من القطعات العسكرية وكان يتسلح بالفؤوس الخفيفة والخناجر والسيوف القصيرة . وكان يسند ويحمي المشاة رماة السهام والرماح الطويلة كما اسند المشاة برماة القذائف الخفيفة بدلاً من راجمات الاحجار الثقيلة التي قد تعيق تقدم الجند ، كما لابد وان ضمّ الجيش الاكدي صنفاً من المقاتلين مختص بدكّ الاسوار وهدمها وفتح الثغرات فيها ، فالمعروف ان معظم المدن السومرية كانت محمية باسوار ضخمة وكان على سرجون الاكدي في بداية نشاطاته ان يقضي على تلك المدن ويدكّ اسوارها ويضمها الى حدود دولته المتنامية وهذا ماتشير اليه بعض النصوص الاكدية :

« دمر مدينتهم وهدم سورها ثم دمر مدينة نما وهدم سورها ودمر مدينة .. وهدم سورها »[1]

وتظهر المنحوتات التذكارية الاكدية انه كان للملك القائد وللجنود المحاربين ازياء عسكرية خاصة اتصفت هي الاخرى بانها كانت بسيطة وخفيفة تساعد على سرعة

---

(١) حول تفاصيل الجيش الاكدي انظر عامر سليمان ، الجيش والسلاح في العصر الاكدي ، في : الجيش والسلاح ، ج ١ ، ص ١٠٧ – ١٥٠ .

الحركة ، وقد ظهر نرام- سين على مسلته المشهورة "مسلة النصر" وهو يلبس خوذة مخروطية ذات قرنين ويطأ بقدمه الاعداء ويحمل بيديه القوس والفأس والسهم ويرتدي رداءاً يغطي الجزء العلوي من جسمه تاركاً الارجل حرة في حركتها. اما المقاتلون ، فقد صوروا وهم يرتدون خوذاً مخروطية الشكل ويرتدون تنورات مشقوقة طولياً تصل الى ماتحت الركبة تساعد على حرية الحركة ايضاً.



صورة مسلة نرام- سين

وكان يؤتى بالاسرى الى العاصمة اكد مكبلين بالاغلال تأكيداً للانتصار على الاعداء وكوسيلة من وسائل الاعلام المتيسرة انذاك، كما كانت الغنائم ترسل ايضاً الى العاصمة. وقد تباهى الملوك الاكديون بالاعداد الكبيرة من الاسرى الذين جلبوهم الى العاصمة اكد.

اما بالنسبة الى الجيش والسلاح في عصر سلالة اور الثالثة التي اقامت هي الاخرى دولة موحدة حكمت جميع انحاء العراق لفترة جاوزت المائة سنة (٢١١٣ - ٢٠٠٦ ق.م) فإن معلوماتنا عنها قليلة جداً، الا ان لنا ان نفترض ان التنظيمات الأكدية ظلت متبعة في العصر السومري الجديد.[١]

الجيش والسلاح في العصر البابلي القديم (حدود ٢٠٠٠ - ١٦٠٠ ق.م)

تتوفر لدينا من العصر البابلي القديم نصوص مسمارية كثيرة جداً يتطرق بعضها الى بعض الجوانب الخاصة بالجيش. ومن هذه النصوص الرسائل الملكية الكثيرة التي اكتشفت في مدينة ماري على نهر الفرات ورسائل الملك حمورابي الموجهة الى حكام المدن بخصوص تجنيد الجنود والاعداد للحملة العسكرية او اقطاع الاراضي الخاصة بالقوات العسكرية او اجراء احصاء عام في المنطقة بهدف التجنيد ايضاً. كما تطرق قانون حمورابي في العديد من مواده الى قضايا تخص القوات العسكرية وحقوقها والتزاماتها وواجباتها ولاسيما فيما له علاقة بالالتحاق بالخدمة العسكرية او ارسال بديل وما يخص الاراضي الملكية المقطعة للجند. ومع كثرة هذه النصوص الا انها قاصرة عن اعطاء صورة واضحة عن تنظيم الجيش وتدريبه وتسليحه، ومن جهة اخرى، فإننا نفتقر الى المنحوتات والمسلات وغيرها مما قد يصور لنا مشاهد حربية وما يمكن ان تعكسه لنا من معلومات عن تنظيم الجيش وتسليحه وازيائه وربما اساليب قتاله.

ولابد لنا قبل ايجاز مالدينا من معلومات عن الجيش والسلاح في العصر البابلي القديم ان نستذكر ان هذا العصر تميز بغلبة الاقوام الامورية الجزرية الأصل وبأن الوضع السياسي العام في القسم الاول منه تميز بوجود عدد من دول المدن الحاكمة والمعاصر بعضها للبعض الآخر في حين اتسم القسم الثاني منه والذي يبدأ منذ اواخر عصر حمورابي بتوحيد البلاد في دولة مركزية واحدة مركزها بابل.

---

(١) انظر: فاضل عبدالواحد علي، وثيقة حرب التحرير للملك السومري اوتو- حيكال، في: الجيش والسلاح، ج١ ص: ١٥٣ - ١٧٣.

تشير النصوص المسمارية المتوفرة الى ان الجيش في العصر البابلي القديم وبصورة خاصة في عهد حمورابي ، ميّز بين نوعين من الخدمة العسكرية ، النوع الاول يمثل الخدمة الالزامية المفروضة على جميع المواطنين من الذكور، وربما في سن معينة ، الا من حصل على عفو من الملك يعطيه الحق لأن يرسل بديلاً عنه ، وكانت خدمة هؤلاء اشبه بخدمة الاحتياط حيث كانوا يستدعون عند الحاجة فقط للمشاركة في المعارك او الحملات العسكرية او القيام ببعض الاعمال العامة . اما النوع الثاني من الخدمة فهو مايقابل خدمة المتطوعين[1] حيث كان الجند ينخرطون في صفوف الجيش ويمتهنون الخدمة العسكرية ويعيشون على ماتدرّه عليهم من موارد وكانوا يسمون كِصرِ شَرّوتِ Kiṣir šaruti التي تعني القوات الملكية او الجيش الملكي.

ان المعلومات المتوفرة عن صفوف الجيش في العصر البابلي القديم محدودة نظراً لقلّة ماهو متوفر لدينا من منحوتات تصور لنا مشاهد حربية كالتي نمتلكها عن العصور السابقة او اللاحقة. ومع ذلك ، ورد ذكر بعض صنوف القوات المسلحة في مواد قانون حمورابي وغيره من النصوص المسمارية . فقد ورد في قانون حمورابي صنف وصف بمصطلح ريدوم redûm ، الذي يترجم عادة الى مصطلح (جندي مشاة) في حين وصف صنف آخر بكلمة بائيرُم bāirum الذي يترجم حرفياً بمصطلح (سمّاك) او (قنّاص) فذكرت المادة ٢٦ :

«اذا طلب التحاق جندي (ريدوم) او قناص (بائيرُم) ، في حملة للملك.....»

ويظهر من الاعمال التي كان يقوم بها الصنف الأول انه كان اقرب الى احد افراد الشرطة السيّارة ، اي الدرك ، حيث جمع ضمن واجباته بين واجبات الشرطي وواجبات الجندي.[2] اما اعمال الصنف الثاني ، اي القنّاص ، فيبدو انها كانت ذات علاقة بالصيد بالشباك وربما كان اشبه بالقنّاص في الوقت الحاضر او انه استخدم الشباك لصيد الاعداء لاسيما وان الشباك استخدمت فعلاً نوعاً من الاسلحة كما يستدل على ذلك من مسلة النسور التي سبقت الاشارة اليها او ان القنّاصة استخدموا القوارب والسفن ، كما يستخدمها السمّاكون ، لحماية الجند ونقلهم وربما توفير السمك لهم . اضافة الى ذلك ،

---

(١) انظر: سامي سعيد الاحمد ، الجيش والسلاح في العصر البابلي القديم ، في : الجيش والسلاح ، ج ١ ص ١٨٣ .

(٢) See: Amer Suleiman., A Study of Land Tenure, p.112 n. 2

فقد ورد ذكر عدد من المصطلحات الاخرى التي تشير الى ضابط التجنيد وغيره من الضباط المسؤولين عن التجنيد، كما تشير الى ذلك المادة ٣٣ من القانون.

«اذا وافق رئيس (لُ بَ. بَ luPA.PA) او عريف (لابندا LA.BÁNDA) على تخلّف جندي عن حملة الملك وقبل اجيراً وارسله عوضاً عنه في حملة الملك، فإن هذا الرئيس او العريف يعدم»(١)

وكانت المشاركة في حملة الملك العسكرية يُعبَّر عنها بعبارة (أَنَ خرَّان شَرِّم أَلاكُ ana ḫarrān šarrim alāku بمعنى الذهاب الى طريق الملك، اي حملة الملك. وتنص المادة ٣٣ آنفة الذكر الى العقوبة الشديدة التي كان يتعرض لها ضابط التجنيد ان هو وافق على تخلّف الجندي أو القنّاص عن المشاركة في حملة الملك او وافق على ارسال بديل عنه. اما بالنسبة للجندي او القنّاص نفسه، فاضافة الى معاقبته بعقوبة الاعدام، فكان يخسر بيته كما تنص على ذلك المادة ٢٦ :

> «اذا طلب التحاق جندي او قنّاص في حملة للملك، ولم يذهب بل اجّر بديلاً عنه وارسله عوضاً عنه، فإن ذلك الجندي او القنّاص يعدم. اما بديله، فله ان يأخذ بيته».

ولتشجيع القادرين على حمل السلاح من الرجال على التطوّع والانخراط في الخدمة العسكرية، فقد اتبع حمورابي اسلوباً ناجحاً، اثبت كفاءته في مختلف العصور، يقضي باقطاع الجند مساحات معينة من الاراضي الملكية وسمح لهم باستغلالها طالما كانوا في خدمة الملك الا انه منعهم من بيعها او التصرف بها الا وفق مايسمح به القانون. ولم يكتف حمورابي بذلك بل انه قدّم الحماية اللازمة للجند من تأثير رؤسائهم سواء عن طريق الابتزاز او سوء المعاملة، كما نصت على ذلك المادة ٣٤ من قانون حمورابي :

> «اذا تقبل رئيس او عريف حاجات جندي او اغتصب (اموال) جندي او اعطى جندياً كأجير او قدّم جندياً للمحاكمة بتأثير شخص قوي، فإن هذا الرئيس او العريف يعدم».

كما نص القانون على حماية الجند في حالات الاسر، فاذا وقع احدهم في الاسر وهو في خدمته العسكرية، فإن له الحق باسترداد ارضه واملاكه متى عاد من الاسر حتى اذا كانت قد اعطيت الى غيره اثناء غيابه (المادة ٢٧) اما اذا كان لديه ابن قادر على اداء

(١) حول ترجمة المواد انظر فوزي رشيد، الشرائع العراقية القديمة، بغداد، ١٩٨٧، ص١٢٥.

الخدمات الاقطاعية المفروضة على الأرض بدلاً منه ، ففي حالة الاسر يعطى الحقل والبستان الى ابنه حتى يعود من الاسر (المادة ٢٨) :

«اذا اسر جندي او قنّاص في اثناء الخدمة المسلّحة للملك ، وكان ابنه قادراً على القيام بالالتزامات الاقطاعية ، فعليهم ان يعطوه الحقل والبستان ، وعليه ان يمارس حقوق والده الاقطاعية» .

اما اذا كان الابن صغيراً وغير قادر على اداء الخدمة المطلوبة ، عندها يعطى ثلث املاك الأبن الاسير الى الزوجة لتتمكن من اعالة ابنها حتى يكبر (المادة ٢٩) . اما اذا كان غياب الجندي او القناص بسبب هروبه من الخدمات المفروضة على ارضه ، واعطيت الارض الى شخص ثانٍ ، فاذا عاد بعد سنة واحدة فقط ، تعاد له الارض (المادة ٣١) ، اما اذا استمرت غيبته لمدة ثلاث سنوات ، فانها لاتعاد له بل تصبح من حق من استولى عليها وادّى الخدمات المفروضة عليها (المادة الثلاثون)[1] .

«اذا تخلّىٰ جندي او قنّاص عن حقله وبستانه وبيته بسبب واجباته (العسكرية) وابتعد ، وبعد ذلك استولى شخص ثان على حقله وبستانه وبيته وقام بالتزاماته الأقطاعية لمدة ثلاث سنوات ، فاذا عاد وطالب بحقله وبستانه وبيته ، فعليهم ان لايعطوه له ، ان الذي استولى عليها وقام بواجباته الاقطاعية ، عليه ان يستمر في ادارتها» .

أما المادة ٣١ فتنص على أنه :

«اذا كان قد تغيب سنة واحدة ثم رجع ، فان حقله وبستانه وبيته يجب ان تعاد اليه وله ان يمارس حقوقه الاقطاعية» .

من جهة اخرى، قدّم قانون حمورابي في مادته الثانية والثلاثون حماية الاسير وضمان عتقه من العبودية ان هو بيع في الاسر الى تاجر عاد به الى بلاد بابل ، ونص على افتداء الاسير من اموال الدولة ان لم يكن لدى ذوي الاسير ما يكفي لعتقه ، وهذه هي اول حالة لتأمين حرية الاسير معروفة حتى الآن فقد نصت المادة انه :

---

(١) حول تفصيل ذلك انظر: عامر سليمان ، القانون في العراق القديم ، موصل ، ١٩٧٧ ، ص ٢٣٢ وما بعدها.

«اذا اسر جندي او قناص في اثناء حملة للملك ، واعتقه تاجر واوصله الى بلدته ، فاذا كان في بيته ما يكفي لعتق (نفسه) ، فعليه ان يعتق نفسه ، واذا كان لايوجد في بيته ما يكفي (لعتق (نفسه) ، فيعتق من (قبل) معبد بلدته ، واذا كان لايوجد في معبد بلدته ما يكفي لعتقه ، فعلى القصر ان يعتقه ولايجوز ان يعطى حقله وبستانه مقابل عتقه».

وقد أثبت هذا الأسلوب في معاملة الجند نجاحه على تشجيع الأنخراط بالخدمة العسكرية حيث تمكن حمورابي من تجنيد الجند واستخدامهم لتنفيذ السياسة التي رسمها والتي كانت تهدف الى توحيد جميع دول المدن القائمة في دولة مركزية واحدة. والى جانب نصوص القانون ، تلقي الرسائل الملكية الكثيرة التي تم اكتشافها الضوء على مدى اهتمام حمورابي بمتابعة تنفيذ هذا الاسلوب في اقطاع الأراضي الملكية وحماية افراد القوات المسلحة من الاعتداء.[1]

كما زودتنا الرسائل المكتشفة في ارشيف ماري على نهر الفرات والتي ضمها حمورابي في نهاية المطاف الى حدود مملكته ، باشارات واضحة الى القيام باجراء احصاء عام للرجال القادرين على حمل السلاح بهدف سوقهم الى الخدمة العسكرية والمساهمة في المشاريع العامة. ويبدو كان يفرض على كل منطقة تقديم عدد معين من الرجال المقاتلين يتناسب وعدد سكان تلك المنطقة ، ولم يكن تجنيد اولئك الرجال وارسالهم الى العاصمة من الأمور المحببة لدى الناس بالطبع بل على العكس من ذلك تماماً حيث اننا نقرأ عن محاولات التخلف والهرب ورفض الالتحاق بالخدمة الى الحد الذي عوقب بها المكلفون ورؤساؤهم.

اما بالنسبة الى الأسلحة المستخدمة في هذا العصر، فقد ضمت مختلف انواع الاسلحة الثقيلة والخفيفة كالفؤوس والخناجر والسكاكين والهراوات والعصي والمقاليع وعظم الفخذ ، وهو سلاح قوي على شكل عظم الفخذ صور على العديد من الاختام الاسطوانية [2] ، اضافة الى السيوف والرماح والقسي والشباك والعربات التي تجرها الحيوانات والسفن والقوارب التي استخدمها القنّاصة.

---

(١) سامي سعيد الاحمد ، الجيش والسلاح ، ص ١٨٩ – ١٩١.

(٢) نفس المصدر، ص ١٩٤.

الجيش والسلاح في العصور الآشورية

كان للجيش في العصور الآشورية ، ولاسيما المتأخرة منها ، الدور الاول والحاسم في سياسة الدولة وفي حماية امنها واستقرارها وفي مواجهة الاخطار الجسيمة التي كانت تحدق بها من كل صوب والتي كادت تقضي عليها لولا قوة جيشها وصلابة قواتها وحنكة قادتها. والمتتبع للتاريخ الآشوري يلحظ بسهولة ان حكم الملوك الآشوريين البارزين كان عبارة عن سلسلة من الحملات العسكرية التي كانت توجه الى الجبهات المختلفة لمواجهة التمردات والفتن والتهديدات والتحديّات التي كانت تثيرها الاقوام والقبائل المختلفة التي كانت تقطن في البلدان والأقاليم المجاورة لحدود الدولة الآشورية ولاسيما في الجهات الشمالية الشرقية والشمالية الغربية كما سبق الحديث عن ذلك بشيء من التفصيل.

ان معلوماتنا عن الجيش والسلاح في العصور الآشورية وخاصة في العصر الآشوري الحديث (٩١١-٦١٢ق.م). غاية في الدقة والتفصيل ، وجل تلك المعلومات مستمدة من النصوص المسمارية الكثيرة التي تتحدث عن حملات الملوك العسكرية وكذلك من المشاهد الحربية المصورة على المنحوتات الجدارية والنصب والمسلات اضافة الى بعض الرسوم الجدارية التي صوّرت الجيش الآشوري بعدته الكاملة في مواجهة الاعداء فكانت عوناً للباحثين لاعطاء صورة مفصلة عن اسلحة وازياء الجيش واساليب القتال وقد طغت المشاهد الحربية على غيرها من المشاهد حتى غدت الصفة البارزة التي وصف بها الآشوريون.

الحرس الملكي نواة الجيش الدائم

من الطبيعي انه لم يكن للآشوريين في عصرهم المبكر قوات نظامية دائمية يستعان بها وقت الحاجة ، فظهور الجيش النظامي جاء في فترة متأخرة نسبياً ربما في العصر الآشوري الحديث ، اما في العصور الآشورية المبكّرة ، فكان يعتمد على استنفار جميع الرجال القادرين على حمل السلاح في المدن والقرى التابعة للدولة للمشاركة في حملة الملك الموجهة الى هذه المنطقة او تلك وذلك عندما يعلن الملك عن عزمه القيام بحملة عسكرية معينة ، وبعد انتهاء الحملة يعود كل فرد الى عمله الاعتيادي ، وربما كان مثل هؤلاء الجند يكافأون بمنحهم قطعاً من الاراضي الزراعية على غرار ما فعله حمورابي ، الا ان معلوماتنا عن ذلك محدودة.

ومع ذلك ، لابد وان كانت هناك بعض القوات المدرّبة المستخدمة بصورة دائمية لحماية الملك وافراد اسرته من اي اعتداء ولابد وان كانت تلك القوات التي عرفت بالحرس الملكي (كِصِر شُرّوتي Kisir šarrūti) منتخبة من بين الآشوريين المقربين للملك والمعروفين بولائهم المطلق له ، وكان الانخراط بهذه القوات يعد امتيازاً يمنح لبعض المقربين او لابنائهم . وبمرور الوقت ازداد عدد قوات الحرس الملكي ولم تعد مهامه مقصورة على حماية الملك بل لابد وان استعان الملك ببعضها لاداء مهام خاصة مستعجلة ولم يعد الانخراط بها مقصوراً على الآشوريين بل فسح المجال لغيرهم للانضمام للحرس الملكي وغدت قوات الحرس الملكي نواة الجيش الدائم الذي اعتمدت عليه الدولة فيما بعد .

وكان قيام الجيش الدائم في العصور التالية استجابة طبيعية لتوسع حدود الدولة وظهور الحاجة الى وجود قطعات عسكرية دائمية لحماية حدودها والقضاء على الفتن والاضطرابات التي قد تحدث في بعض ارجائها الواسعة لذا كان من الضروري ابقاء وحدات عسكرية صغيرة في الاقاليم والمدن الحدودية والرئيسة لحمايتها من اي اعتداء خارجي ولاخماد اي فتنه او تمرد داخلي ، وكانت مثل هذه القطعات توضع عادة تحت امرة آمرين مرتبطين بالملك مباشرة وكأنها جزء من حرسه الملكي . وقد يستعان بالقطعات العسكرية الموجودة في مقاطعة معينة لمواجهة خطر خارجي او داخلي حدث في مقاطعة مجاورة بهدف السرعة في تقديم العون والمساعدة العسكرية اللازمة . وكانت واجبات ومهام الجيش الدائم مستمرة على مدار السنة ولم يعد القيام بالحملات العسكرية مقصوراً على اشهر الصيف فقط عندما يمكن استنفار القادرين على حمل السلاح من الفلاحين وغيرهم بل اصبح بمقدور الحكومة المركزية الاستعانة بقواتها الدائمة التي نمت حول قوات الحرس الملكي ، للقيام بحملات عسكرية مستعجلة او لمعالجة تمرد ما بسرعة فائقة .

ومع ذلك ، ظل الملوك الآشوريون يعتمدون على القوات الاحتياط التي كانت تستنفر وقت الحاجة للقيام بحملة عسكرية ، غالباً في اعقاب موسم الحصاد ، وكان التجنيد يتم وفق أسس معينة حيث كان يطلب من حاكم كل اقليم او مقاطعة تقديم عدد معين من المقاتلين يتناسب عادة وعدد سكان الاقليم أو المقاطعة للمشاركة في الحملة العسكرية وكانت صنوفهم تختلف باختلاف الاقاليم والمقاطعات ,وفي حالات استثنائية ، كان الملك الآشوري يستنفر قوات الممالك الصغيرة التابعة كما يذكر لنا آشور بانيبال عندما استنفر قوات اثنين وعشرين ملكاً من ملوك السواحل الكنعانية للمشاركة في حملته على مصر . وكانت قوات الاحتياط تسرّح بعد الانتهاء من المهام التي جندت من اجلها لصعوبة الاحتفاظ

باعداد كبيرة من القوات العسكرية ، وقد ينضم الى الجيش الآشوري الدائم والاحتياط بعض القوات المرتزقة المجنّدون من البلدان والاقاليم التابعة.

اما بالنسبة لعدد افراد الجيش الآشوري الدائمي ، فلابد وان كان كبيراً الا اننا لانمتلك رقماً محدداً في اي عصر من العصور، ومن المؤكد انه تجاوز عشرات الالوف ، كما يصعب التفريق بين قوات الجيش الدائم والقوات الاحتياط . وقد ذكر لنا آشورناصربال الثاني مثلاً ان عدد المشاركين في معركة القرقار في سوريا بلغ خمسين الفاً في حين ذكر شيلمنصر الثالث ان عدد المشاركين في حملته الى سوريا بلغ ١٢٠ الفاً ، وقد قدّر احد الباحثين عدد القوات الآشورية بحدود ١٠٠ الى ٢٠٠ الف مقاتل . (١)

ولقد كان للمعارك العسكرية الكثيرة التي خاضها الجيش الآشوري عبر العصور والتي وقعت في ظروف مناخية وبيئات طبيعية متباينة مع اقوام مختلفة عرقياً وحضارياً اكبر الأثر في زيادة خبرة قادة وضباط الجيش واكتسابهم وجندهم قدرة قتالية عالية وتدريباً عملياً جيداً حيث تعرفوا خلال ذلك على اساليب القتال المختلفة وفنون الحرب المتبعة لدى الاقوام الاخرى وحاربوا في مناطق جبلية واخرى سهلية وثالثة مليئة بالاهوار والمستنقعات ، لذا خبروا المسالك الجبلية الصعبة وتمكنوا من التوغل في عمق الاهوار والمستنقعات ، وكانوا في كل ذلك يحققون الانتصار تلو الانتصار، كما كان لمعنويات الجيش العالية واعتقاد الافراد بأنهم انما يقاتلون تنفيذاً لرغبة الآلهة التي اوحتها الى الملك اثره في رفع المعنويات . (٢)

صنوف الجيش الآشوري

يمكن الاستنتاج مما اشير اليه في النصوص المسمارية وما صور على المنحوتات من مشاهد حربية ان الجيش الآشوري كان يضم صفوفاً مقاتلة واخرى مساعدة او ساندة اضافة الى بعض التابعين ممن كانت مهامهم ادارية بحْتة ، أمّا الصنوف المقاتلة ، فضمت القطعات التي كانت تشارك فعلاً في القتال وكانت تتألف من المشاة والمركبات والخيالة والقوات النهرية واخيراً آلات الحصار.

---

(١) انظر ساكز، عظمة بابل ، ٢٩٩ .

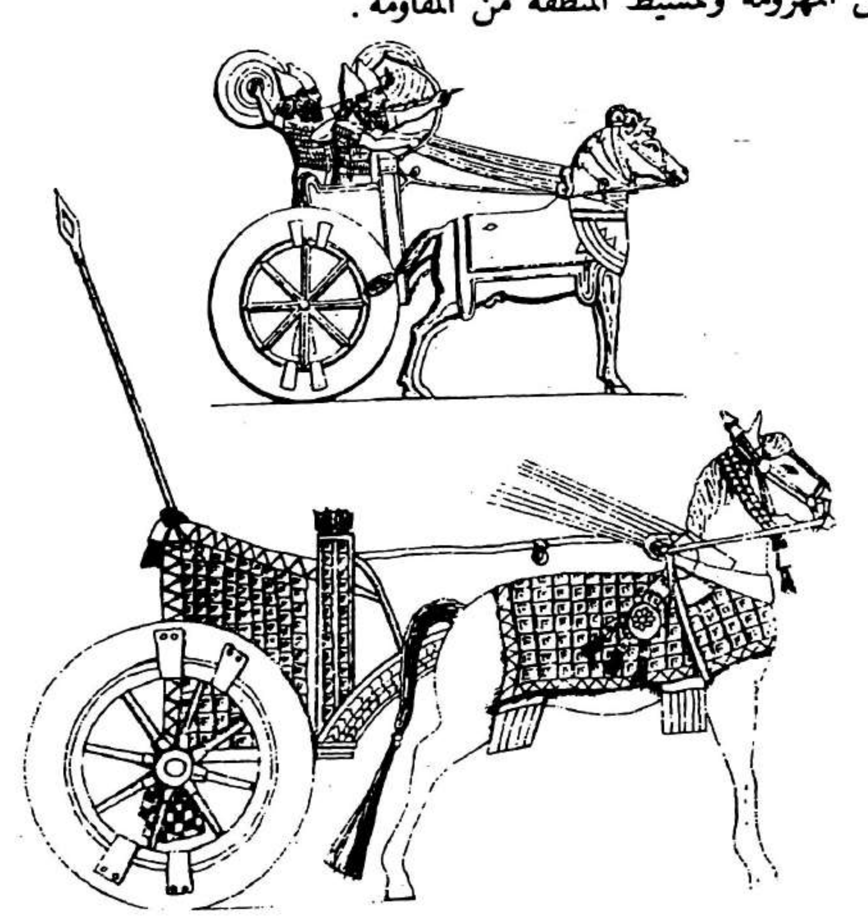
(٢) انظر عامر سليمان ، الجيش والسلاح في العصر الآشوري ، في الجيش والسلاح ، ج ١ ، ص ٢٦٩ - ٢٧٣ .

ويعد صنف المشاة اقدم واهم الصنوف جميعها حيث كانت جميع الصنوف الاخرى تعمل على مساعدته لتحقيق الانتصار على الاعداء والمحافظة على الأرض. وكان المشاة يؤلف الجزء الأعظم من قوات الجيش وكانت مهمته الاولى الاصطدام المباشر بالعدو وتحطيم قوته الرئيسة والسيطرة على الأرض، وكان المشاة غالباً يأتون بعد العربات او الخيّالة الذين يخترقون صفوف الاعداء ويفسحون المجال للمشاة للتقدم، كما كان المشاة ايضاً يوفرون الغطاء اللازم للجند المتقدمين نحو العدو. وينتظم المشاة، حسب نوع السلاح، في ثلاث اصناف من المقاتلين هم رماة السهام والرمّاحين وحملة المقاليع، وقد صور هؤلاء على المنحوتات وهم يلتحمون بالعدو في المناطق الجبلية والسهلية والنهرية. اضافة الى ذلك، فإن الجندي المشاة، حسب نوع سلاحه، يحمل سيفاً وترساً ويعتمر بخوذة معدنية او قد يرتدي درعاً من المعدن، كرماة السهام.

وكان المشاة ينتظمون في وحدات صغيرة واخرى كبيرة، وكانت اصغر الوحدات القتالية تتألف من عشرة مقاتلين، اي انها تقابل الحضيرة، وعلى رأسها آمر العشرة (رَب إشِرتِ rab ešerte)، وكانت كل خمس حضائر تحت امرة آمر الخمسين (رَب خَمشا rab ḫanšâ)، وتقابل الفصيل. وهناك آمر آخر يسمى (رَب كِصِر rab kiṣir) ربما كان يقابل آمر السرية حيث كان تحت آمرته عدد من الفصائل.

واستخدم الآشوريون العربات منذ فترة مبكرة من تاريخهم الا ان استخدامها كان على نطاق ضيق، وزاد استخدامها في العصر الآشوري الحديث الى درجة اصبح لها دور رئيس في المعارك العسكرية في المناطق السهلية المنبسطة والمكشوفة، وهي اكثر المناطق ملائمة لحركة العربات في حين يصعب استخدامها في المناطق الوعرة او في حصار المدن. وكان على صنف العربات مهمة اختراق صفوف الاعداء وتشتيت قواته تمهيداً لهجوم الصنوف الاخرى. وكان يجر العربة الآشورية جوادان في الغالب، الا ان العدد تضاعف منذ عهد سرجون الثاني (٧٢١ - ٧٠٥ ق. م)، وكانت العربة تحمل السائق المسلح بالرمح والترس والمحارب الذي كان القوس سلاحه الرئيس وحامل الترس الذي يقف خلف سائق العربة والمحارب ويحمل ترساً او ترسين لحمايتها، ثم اصبح هناك اثنان من حملة التروس يحمل كل منها ترساً ورمحاً طويلاً وسيفاً او خنجراً. وقد ادخل الآشوريون تحسينات عدة على العربة الحربية بهدف زيادة سرعتها وخفتها وسهولة قيادتها.

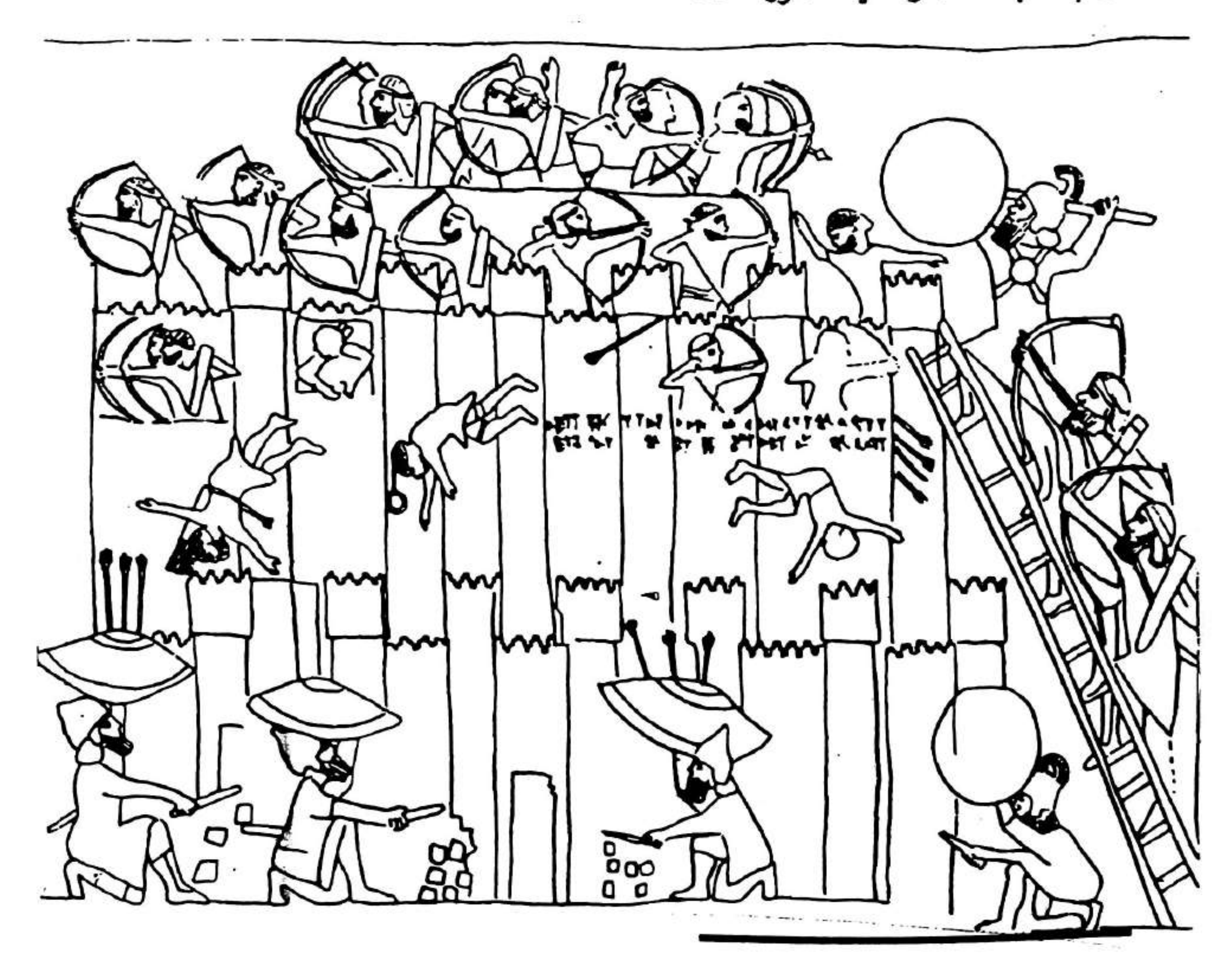
أما صنف الخيّالة ، فقد استخدم في المناطق السهلية والجبلية والمكشوفة الا ان استخدامه في حصار المدن كان محدوداً ، وكان الخيّال الآشوري يتسلح عادة بالرمح والسيف او بالقوس والسيف ويحمل جعبته على ظهره ، وكان يرافق الخيال الفارس فارس آخر يحمل ترساً لحمايته وقيادة جواده ، كما يشاهد ذلك على المنحوتات من عصر آشور ناصربال الثاني ، وبعد ان استعمل السرج وتمرّس الخيال الآشوري على الفروسية ، لم يعد هناك حاجة الى الفارس المرافق . وكان لصنف الخيّالة دور كبير في المعارك العسكرية حيث كان يؤمن للجيش الهجوم السريع والمفاجئ ومباغتة العدو كما ساعد الخيّالة على مطاردة فلول الجيوش المهزومة وتمشيط المنطقة من المقاومة .



أما القوات النهرية ، فقد استخدمت في عدد محدود من المعارك واستخدمت وسائل النقل النهرية المختلفة التي كانت معروفة آنذاك لنقل الجنود والارزاق ، منها القرب والاكلاك والقفف (جمع قفّة) والقوارب والزوارق الصغيرة والكبيرة وقد تستخدم وسائط النقل النهرية في مراحل معينة من الحملة العسكرية فقط ، كما فعل الملوك الآشوريون عند نقلهم الجيش بواسطة القوارب الى سواحل بلاد عيلام ومن ثم توغّلوا في بلاد عيلام كقوات عسكرية من المشاة فحسب . وقد استعان الملوكُ الآشوريون ، مثل سنحاريب ،

بالصناع الفينيقين لبناء السفن من اجل استخدامها لنقل الجند عبر الفرات ودجلة ثم الى الخليج العربي ، وصورت لنا المنحوتات الآشورية الجيش الآشوري محمولاً بالقوارب والقفف.

ويمكن ان نعد المهاجمين بآلات الحصار ودك الاسوار صنفاً من الصنوف المقاتلة ، وكانت مهمة هذا الصنف الرئيسة هي دك الاسوار واحداث ثغرات او فجوات في اسوار المدينة المحاصرة لتمكين الجيش من الدخول الى المدينة وقد استخدمت الكبائش والزحافات والابراج والدبابات والسلالم وادوات الهدم من فؤوس ومعاول وغيرها.[1] وقد صورت لنا المنحوتات الآشورية طرق واساليب حصار المدن وآلات الحصار المستخدمة اروع تصوير لاسيا وان معظم مدن الالف الاول قبل الميلاد في سوريا وفلسطين كانت محصنة باسوار ضخمة تتخللها الابراج وكانت بعض المدن تقاوم الحصار لسنوات طويلة ، كما كانت الحال بالنسبة لحصار مدينة صور مثلاً.



(١) انظر: يوسف خلف عبدالله ، صنوف الجيش الآشوري ، الجيش والسلاح ، ج ١ ، ص ٣٥٥ - ٣٩٤ وكذلك : طارق مظلوم ، آلات الحصار في الجيش الآشوري ، في : الجيش والسلاح ، ج ٢ ، ص ١١٧ - ١٧٨.

والى جانب الصنوف المقاتلة هناك الصنوف الساندة التي كانت تهيئ للقطعات المقاتلة ماتحتاجه في المعركة وما يسبقها من استعدادات كصنف الاستخبارات والبريد والهندسة حيث كانت هذه الصنوف تعمل على جمع الاخبار عن الاعداء وتقديم التقارير اللازمة الى الملك والقادة المسؤولين عن الحملة العسكرية وايصال تلك المعلومات بالسرعة الممكنة في حين كان صنف الهندسة يعمل على توفير الطرق والمسالك ولاسيما في الممرات الجبلية ويشرف على نقل الجند والعربات الحربية في زوارق خاصة في الأنهار كما كان من واجبات صنف الهندسة اصلاح المعدات الحربية وادامتها وتخطيط المعسكرات وبناؤها واقامة الجسور العوّامة على العوائق المائية والمؤلفة عادة من قوارب صغيرة يربط بعضها ببعض ثم توضع الالواح فوقها فتكون معبراً للجنود والخيالة. كما لابد وان كان هناك صنف خاص بالطبابة لمعالجة الجرحى ونقل القتلى واخلائهم الى الخطوط الخلفية وقد صورت لنا احدى المنحوتات الآشورية جريحاً منقولاً على مايشبه السدية الى خيمة خاصة في المعسكر.

كما كان الجيش يضم جهازاً ادارياً متطوراً عمل على تنظيم الشؤون غير العسكرية الخاصة بالقوات المسلّحة وتوفير المؤن والعتاد اللازم وقد وصلتنا العديد من النصوص المسمارية التي تشير الى توزيع الارزاق والمؤن على الضباط والجنود، كما ضمت القطعات العسكرية فرقاً موسيقية تعزف في اثناء الاحتفال بالنصر وعودة الجيش وتردد الأناشيد الحماسية ربما في اثناء الهجوم، كما ضمت الحملات العسكرية عادة عدداً من الكتبة والنحاتين والكهنة لتدوين وتصوير تفاصيل الحملة والمعارك التي خاضها الجيش والاسرى الذين تم اخذهم واحصاء الغنائم في حين كان دور الكهنة كبيراً ولاسيما وقت الازمات الحرجة حيث كانوا يقومون بالطقوس والشعائر الدينية اللازمة ويقرأون الطالع.

قيادة الجيش وادارته

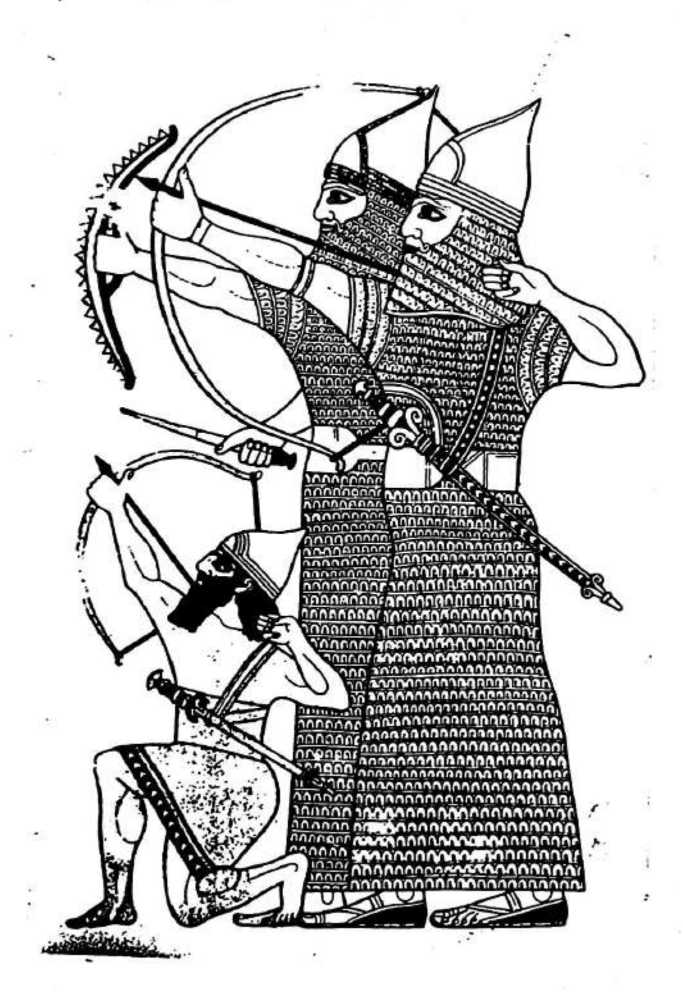
وكان يقف على رأس الجيش الملك القائد، وكان غالباً مايقود الحملة العسكرية بنفسه او ينيب عنه احد ابنائه.

وكان من الرتب العسكرية العليا رتبة الترتانُ turtānu التي كانت تطلق على مايقابل رئيس اركان الجيش وقد يقوم بقيادة الحملة العسكرية نيابة عن الملك، وتشير النصوص المسمارية الى وجود معاون له يحمل رتبة ترتانُ ثانٍ. ومن الرتب العسكرية الاخرى رتبة الربشاقة rab šāqe، وهي رتبة عالية ايضاً وقد يتولى الربشاقة قيادة الجيش احياناً. وهناك رتبة اخرى هي رتبة رَبّ موگي rab mūgi، وهو مبعوث الملك للشؤون العسكرية

الى البلدان الخارجية ومنصب رَب شَ ريشي rab sa resi ، اي كبير الضباط ، وكان مسؤولاً عن الامور ذات العلاقة بالشؤون الادارية والمالية لضباط الجيش. هذا بالاضافة الى آمر الفصيل وآمر الخمسين وآمر العشرة الذين سبق ذكرهم.(١)

وكان تدريب الجند يتم في مراكز تدريب خاصة ، ربما في المعسكرات او الثكنات ، وكان على الجند المدربين ان يرتدوا ازياء خاصة ليعتادوا عليها ويلتزموا بالأوامر والتعليمات ، وليس لدينا معلومات دقيقة عن حدود الاعمار التي كانت تجند أو تعفى من الخدمة العسكرية.(٢)

اما بالنسبة لرواتب الجند والضباط ، فليس لدينا مايشير الى دفع رواتب نقدية شهرية او اسبوعية الا ان النصوص تشير الى تقديم الى الارزاق والجرابات الى القطعات العسكرية مقابل خدماتها وكان الجندي يعطي كمية من المواد الاساسية للمعيشة كالحبوب والسمن والتمر والفواكه اضافة الى ما كان يحصل عليه المقاتلون من الغنائم.



(١) انظر تفصيل ذلك ، فاضل عبدالواحد علي ، تاريخ القوات العسكرية ، ص٩٥ – ٩٧.

(٢) انظر: بهيجة خليل اسماعيل ، الجيش الآشوري ، موسوعة الموصل الحضارية ، ج١ ، ص٢٩٦ – ٢٩٨.

وكان للقادة والجند ازياء خاصة بكل منهم ، كما تظهر ذلك المنحوتات الآشورية ، وغالباً ما كانت ازياء كبار القادة طويلة في حين كان الجند يرتدون ثوباً قصيراً كما كان صنف المقاتلين يتحكم في نوعية الازياء ، واستخدم جميع الجند والمقاتلون الخوذ لحماية الرأس.[1]

انواع الاسلحة:

استعمل الآشوريون انواعاً مختلفة من الأسلحة بعضها اساسية يحمله المقاتل معه اثناء الحرب فقط ، وهي الرمح والحربة والفأس والبلطة والقوس والمقلاع والآت الهدم، والاسلحة المساعدة او الشخصية التي كان جميع المقاتلين يحملونها بغض النظر عن صنفهم العسكري وذلك للدفاع عن النفس وتشمل الهراوة والمديّة والخنجر والسيف. كما تصنف الاسلحة الى اسلحة خفيفة واخرى ثقيلة ، فالخفيفة هي معظم الاسلحة المذكورة اعلاه باستثناء الآت الهدم اما الثقيلة فتضم العربات والكبائش والزحافات والآت الهدم. وقد امدتنا المنحوتات الآشورية بتفاصيل دقيقة عن اشكال واحجام جميع انواع الاسلحة واضافت الى ذلك النصوص المسمارية التي ذكرت لنا اسماءها. اما بالنسبة لصناعتها، فان النصوص تخلو من ذكر ذلك وكذلك المنحوتات. ومع ذلك، هنالك بعض المشاهد التي تصور بيوتاً كانت تستخدم لخزن الاسلحة وربما لصناعتها ايضاً. وقد ورد ذكر المشرفين على صناعة الاسلحة حيث كانوا يعرفون بمصطلح شَ خُلُّپتِ Sa hullupti، ولابد وان كان النجارون والحدادون وغيرهم يشاركون في صناعة الاسلحة. ومن المصادر الاخرى التي حصل من خلالها الآشوريون على الاسلحة هي الغنائم وقد تفرض على البلدان والاقاليم التابعة اعداد معينة من قطع السلاح جزءاً من الضريبة المفروضة عليها.

واذا تجاوزنا الاسلحة الاعتيادية المتعارف عليها، كالرمح والسيف والحربة والفأس والبلطة والقوس والهراوة والمدية والخنجر، وكلها من الاسلحة التي كانت معروفة منذ ازمنة قديمة سبقت الآشوريين، فيبدو ان الآشوريين زادوا من استخدام المقلاع الذي لم يكن استخدامه شائعاً في العصور السابقة ، ولم يصبح المقلاعيون قوة ثابتة في الجيش الا منذ أواخر القرن الثامن قبل الميلاد. ويعد المقلاع سلاحاً سانداً ومساعداً حيث يقوم المقلاعيون باسناد القطعات المتقدمة المؤلفة من العربات والخيّالة اثناء الهجوم ويبدو ان المقلاعيين كانوا يلبسون ثياباً مدرعة حيث يظهرون على المنحوتات دون حماية خلافاً لرماة النبال او لانهم

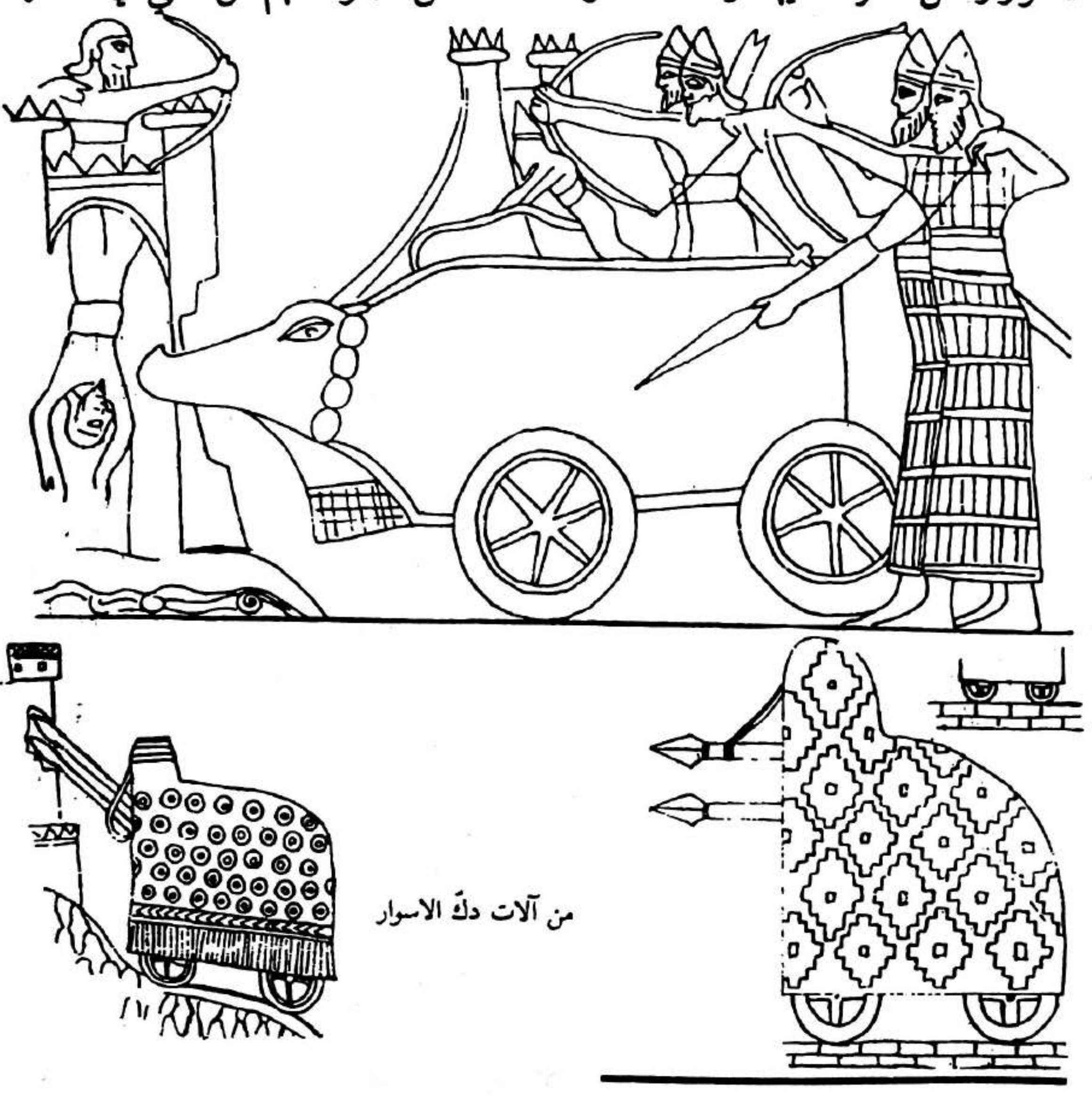
---

(١) انظر وليد الجادر، المناصب والازياء العسكرية الآشورية ، الجيش والسلاح ، ص٢١٥ - ٢٧٠ .

يقفون بعيداً في الخلف خارج مجال مدى رماية الاعداء. ويتألف المقلاع من قطعة صغيرة من الجلد او القماش الخشن يكون شكلها بيضوياً او معينياً ومن شريطين يثبتان على جانبي القطعة الجلدية على شكل حبلين احدهما اقصر من الآخر ويقوم المقلاعي بقذف الحجر بواسطة المقلاع الى مدى ابعد من رماة النبال[1].

كما صورت لنا المنحوتات الآشورية الآت وادوات الهدم التي استخدمتها القوات الآشورية كالمدك والمطرقة، او القزمة.

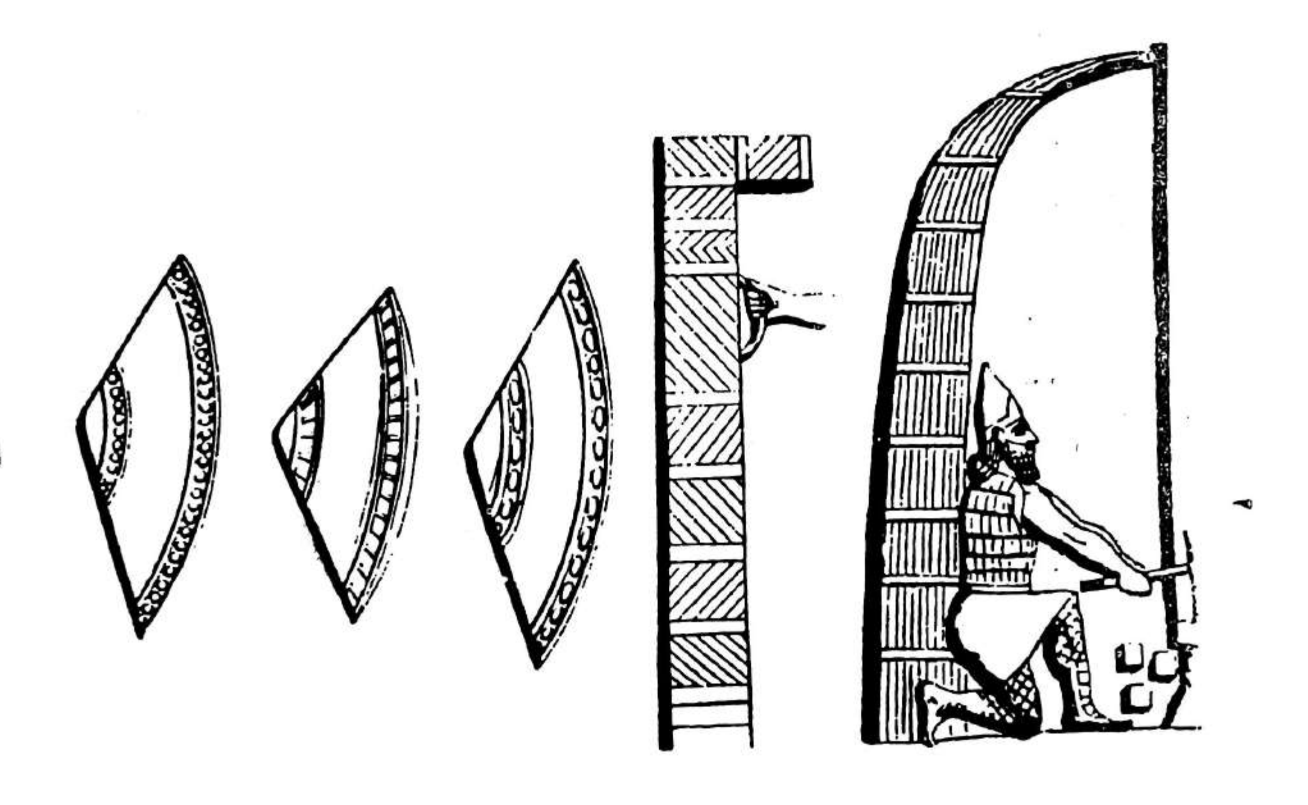
اما الآت الحصار فهي عادة تتألف من هيكل من الخشب والمعدن على هيئة صندوق خشبي ومغطى ببعض المواد ويخرج من الصندوق عمود او ذراع طويل يستخدم لدك الاسوار وعمل الثغرات فيها. ولآلة الحصار هذه طاقماً من الجنود منهم من يختفي في داخلها



من آلات دكّ الاسوار

(١) انظر تفصيل ذلك، يوسف خلف عبدالله، صناعة الاسلحة الآشورية في الجيش والسلاح ج ١ ص ٢٣ – ٢٥.

ومنهم من يظهر فوقها فالمختفين في الداخل مهمتهم تسيير عجلات الآلة وتحريك ذراعها وتوجيهه. وقد يكون لآلة الحصار زوجين او ثلاثة ازواج من العجلات وتكون مجهزة عادة بذراع، او رأس، واحد للتهديم وهو مايعرف بالكبش، وقد تكون برأسين. وقد تزود آلة الحصار ببرج عال ليقف عليه الجند المهاجمون. وتختلف الآت الحصار من حيث الشكل والحجم وعدد الكبائش والعجلات وعدد الجند باختلاف الفترات الزمنية التي تعود لها كما هي موضحة في المنحوتات الآشورية الكثيرة. ومن الآت الحصار الاخرى ابراج الحصار، وهي على شكل هياكل خشبية مثلثة الشكل مرتفعة الساقين يقف عليها الجنود لقذف الاعداء بالحجارة. كما استخدم الآشوريون دروع الحصار، وهي دروع مرتفعة بشكل عوائق لحماية الجند المهاجمين من سهام الاعداء، كما استخدمت السلالم المعمولة من الخشب والحبال لتسلق الاسوار[1]. اما الاعداء، فكانوا يحتمون بالاسوار المنيعة ويقفون وراء ابراجها لرمي المهاجمين بالسهام والنبال وقد تستخدم النار والمياه الحارة وغيرها من المواد لصبها على المهاجمين، وقد صورت لنا المنحوتات الآشورية طريقة الحصار والهجوم والاساليب المستخدمة في الدفاع.



نماذج من التروس الآشورية

(١) انظر: طارق مظلوم، الاسلحة الآشورية الثقيلة، في: الجيش والسلاح، ج٢، ص ٦١-٨٦.

اما بالنسبة الى العربات الحربية التي غدت من اهم عناصر القتال الآشورية في العصر الآشوري الحديث، فكانت تختلف من حيث الشكل والحجم وعدد العجلات والخيل التي تسحبها حسب فترات حكم الملوك المتعاقبين ففي العصر الآشوري كانت العربات الحربية خفيفة الهيكل وتسحب بواسطة حصانين وتحمل شخصين هما المقاتل والسائق لذا كانت سريعة الحركة وتعد من الاسلحة المتطورة وكان لها دورها الحاسم في تحقيق الانتصار، اما في العصر الآشوري الحديث، فكانت العربة اكثر ثقلاً واكبر حجماً من حيث الهيكل والعدة كما انها كانت تحمل ثلاثة او اربعة اشخاص، وقد اعطت لها هذه الميزات ميزات اخرى جديدة في القتال واقتحام صفوف الاعداء"[1]:

ولم تكن قوة القطعات الآشورية المسلحة وصلابتها وحسن تدريبها وخبرتها الطويلة المكتسبة في القتال في ظروف وبيئات متباينة وقوة سلاحها وتطورها مقارنة مع اسلحة العدو كافية لتحقيق الانتصار الحاسم على الاعداء، بل كان يسند كل ذلك ويقوّيه قيادة الجيش المقتدرة وحسن وضع الخطط السياسية والعسكرية، والتعرف على الظروف المحيطة بالاعداء تعرفاً دقيقاً من خلال جهاز الاستخبارات والجواسيس، ثم التعبئة والاساليب القتالية الملائمة للمنطقة المتوقع وقوع المعركة فيها وسرعة ايصال المعلومات من والى القيادة، كل ذلك يحمل على تحقيق الانتصارات المتلاحقة. كما كان يدعم ذلك ايضاً الجهاز الاداري الكفوء والمعنويات العالية والاعتقاد الراسخ بان الحرب انما هي تنفيذ لرغبات الآلهة، فكان ان وصلت قوة الآشوريين العسكرية في اواخر القرن السابع قبل الميلاد الى ذروتها، وحققت انتصارات رائعة على الاعداء في جميع الجبهات، الا ان حروبها لم تكن حروباً ظالمة او غاشمة، كما يحلو للبعض ان يصفها، بل كانت حروباً وقائية دفاعية تعمل على الحد من خطر الاقوام والقبائل التي كانت تتحين الفرص للانقضاض على الدولة الآشورية، كما سبق وشرحنا ذلك عند الحديث عن تقييم السياسة الآشورية في الجزء الاول من هذا الكتاب، وتؤمن امنها واستقرارها في الداخل وتضمن سلامة طرقها التجارية، كما انها لم تكن حروباً وحشية بل كانت، حسب المقاييس التي كانت معروفة وسائدة آنذاك، حروباً اعتيادية تتسم بالشدة والقسوة في قمع التمردات والفتن والقضاء على رؤوس التمرد.

---

(١) انظر: المصدر نفسه، ص ٦٤-٧٩.

مصادر منتخبة

اسماعيل، بهيجة خليل، الجيش في العصر الآشوري، في: موسوعة الموصل الحضارية، موصل ١٩٩١، ج ١، ص ٢٨١ - ٣٠٤.

الاحمد، سامي سعيد، الاتفاقات العسكرية والمعاهدات في العراق القديم، بحث مقدم الى المؤتمر الاول، لجمعية المؤرخين والاثاريين، بغداد، ١٩٨١، الجيش والسلاح، بغداد، ١٩٨٨، ج ١ ص ١٧٣ - ٢٠٤، المدن الملكية والعسكرية، المدينة والحياة المدنية، بغداد، ١٩٨٨، ج ١، ١٤٥ - ١٧٦.

الجادر، وليد محمود، المناصب والازياء العسكرية الآشورية في الجيش والسلاح، ج ٢،

خليل، جابر، التحصينات العسكرية في العصر السلوقي والعصور اللاحقة التي سبقت الاسلام، في الجيش والسلاح، ج ٢، ص ٢٧١ - ٣٢٨.

الدباغ، تقي، السلاح في عصور قبل التاريخ في حضارة العراق، ج ١، ص ١١ - ٤٤. السلاح في عصور قبل التاريخ في الجيش والسلاح، ج ١،

الراوي، فاروق، معارك النصر، بغداد، ١٩٨١، من مشاهير القادة الآشوريين في الجيش والسلاح، ج ١، ٢٧٥ - ٢٩٠، التعبئة واساليب القتال في الجيش الآشوري، في الجيش والسلاح، ج ٢،

سعيد، مؤيد، العمارة العسكرية في العراق القديم، في الجيش والسلاح، ج ٢،

سليمان، عامر، بلاد عيلام وعلاقتها بالعراق القديم، آداب الرافدين، ١٣ (١٩٨٢) ١٦٧ - ١٨١ الجيش الأكدي، في: الجيش والسلاح، ج ١، الجيش في العصر الآشوري، في الجيش والسلاح، ج ١،

الصالحي، واثق، مدن القوافل والحاميات العسكرية في: المدينة والحياة المدنية، الجيش والسلاح في الحضر في الجيش والسلاح، ج ٢،

عبدالله، يوسف، الجيش والسلاح في العصر الآشوري الحديث، بغداد ١٩٧٧ صنوف الجيش الآشوري، في الجيش والسلاح، ج ١، ٣٥٣ - ٣٩٥ صناعة الاسلحة الآشورية، الجيش والسلاح، ج ٢، ٥ - ٥٨.

علي، فاضل عبدالواحد، صراع السومريين والأكديين مع الاقوام الشرقية والشمالية الشرقية في: الصراع العراقي الفارسي، بغداد، ١٩٨٣، الجيش والسلاح في العصور القديمة في تاريخ القوات العراقية المسلحة، بغداد، ١٩٨٦، ج ١، ص ٦١ - ١٠٥.

مظلوم، طارق، الاسلحة الآشورية الثقيلة في الجيش والسلاح، ج ٢، ٥٩ - ١١٦.

الفصل الرابع

لمحات من المعتقدات الدينية

كان للمعتقدات الدينية اهمية قصوى في حياة الشعوب القديمة، بل كانت من اهم العوامل المؤثرة في سير حياتها وتطور حضارتها. فالمعتقدات الدينية تحدد سلوك الانسان وتطبع عاداته وتقاليده بطابع خاص وتنظم اعرافه وتقاليده وتضبط تصرفاته مع الآخرين. وبالنسبة لتاريخ الانسان العراقي القديم، قلّما نجد اي اثر تركه لنا الانسان الذي عاش في العصور التاريخية الا وكان للدين فيه تأثير واضح وكبير.

١ – مصادر معلوماتنا عن المعتقدات الدينية

ان دراسة نشأة المعتقدات الدينية العراقية القديمة وتطورها على درجة كبيرة من الصعوبة نظراً لعدم معرفتنا ببداياتها الاولى. فكما هو معروف ان معلوماتنا عن المعتقدات الدينية في عصور ماقبل التاريخ تعتمد اساساً على بعض المخلّفات المادية التي تركها الانسان والتي منها النقوش التي زيّنت بها الأواني الفخارية ودمى الطين والتماثيل والنصب والمشاهد الدينية المنقوشة على المسلات والاختام والمنحوتات على اختلافها، كما تضم الآثار المادية اسس ابنية المعابد والزقورات ودكاك القرابين ومرافق المعبد الاخرى كما تضم القبور واساليب الدفن فيها وماعثر فيها من مواد كانت قد دفنت مع الموتى كالحلي والأواني الفخارية والاسلحة. ومنذ بداية العصور التاريخية وبدء استخدام الكتابة لتدوين النصوص الدينية، اي منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، تضاف النصوص المسمارية المكتشفة الى مصادر معلوماتنا عن المعتقدات الدينية في العراق القديم.

ومع الاعتراف بأهمية الآثار المادية وما قد يستنتج منها من معلومات عن المعتقدات والطقوس الدينية. الا انه لايمكن الركون الى ما قد توحيه هذه الآثار الصماء من معلومات. لذا، اختلف الباحثون اختلافاً كبيراً في تفسير وتحليل تلك الآثار ومايمكن ان يستنتج منها من معلومات.

اما النصوص المسمارية، فتعد الان اهم مصدر لدينا عن معتقدات العراقيين القدماء وطقوسهم وشعائرهم الدينية وآرائهم الفلسفية ومثلهم وقيمهم القانونية والاخلاقية. ونظراً لتغلغل الدين في نفوس العراقيين القدماء وتأثيره الواضح في مختلف نشاطاتهم وممارساتهم اليومية، فإنه قلما يخلو نص مسماري مهما كانت طبيعته ومضمونه من اشارة مباشرة او غير مباشرة الى المعتقدات الدينية. ومع ذلك، فان هناك مجموعة معينة من النصوص المسمارية افادت اكثر من غيرها لانها ذات علاقة مباشرة بالمعتقدات الدينية ومنها الاساطير والقصص الدينية والنصوص الخاصة بالارشادات والتعاليم التي كان يصدرها الكهنة عن كيفية اقامة الطقوس والشعائر الدينية واجراء الاحتفالات، ومنها الرقى والتعاويذ ونصوص الفأل والتنبؤ وطرق الكهانة والعرافة ونصوص خاصة بالتنجيم او الفلك وقوائم اسماء الالهة وصفاتها وعلاقاتها ببعضها ونصوص خاصة بادارة المعبد وشؤون الكهنة والموظفين اضافة الى القوانين والرسائل والعقود واقضية المحاكم وما تعكسه من ممارسات ذات علاقة بالدين. وقد تم حتى الآن الكشف عن اعداد هائلة من هذه النصوص ترجم الكثير منها الى اللغات الحديثة ومايزال هناك اعداد كبيرة اخرى تنتظر دورها في الترجمة وهي بازدياد مستمر طالما استمرت التنقيبات تزودنا بالمزيد من الرقم الطينية المكتشفة سنة بعد اخرى. وترقى النصوص المسمارية المكتشفة بتاريخها الى ازمنة مختلفة من تاريخ العراق القديم وتقع في المدة الواقعة بين مطلع الالف الثالث قبل الميلاد و اواخر الالف الاول قبل الميلاد.

ومع غزارة المعلومات التي قدمتها لنا النصوص المسمارية هذه عن المعتقدات الدينية وما القته من ضوء على جوانب متعددة منها، الا ان هناك بعض الملاحظات التي لابد من اخذها بنظر الاعتبار عند دراستنا لهذه النصوص وتفسير ما ورد فيها من معلومات واستنتاج ما يمكن استنتاجه منها، ومن هذه الملاحظات:

أ- ان ماتم الكشف عنه حتى الآن من نصوص مسمارية سومرية واكدية ذات علاقة كثير جداً ولم تتم قراءة جميع تلك النصوص وترجمتها بعد وهناك سيل من النصوص الجديدة المكتشفة وان الالمام بجميع ماورد في هذه النصوص يعد امراً اقرب الى المستحيل على اي باحث خاصة وان ترجمة تلك النصوص قد ظهرت بلغات اجنبية مختلفة اوربية وغيرها

لذا فان من الصعوبات التي تواجه الباحث هنا هوكثرة النصوص وتنوعها وليس قلّتها كما هو المتوقع. كما ان النصوص المكتشفة قد دونت في ازمنة مختلفة وتخص آلهة متعددة كانت تقدس عند العراقيين القدماء وهذا مما زاد في تعقيد مهمة دراستها.

ب- من المعروف ان النصوص الدينية بصورة عامة تستخدم عادة اساليب لغوية وادبية معقدة وذات طابع قديم رغبة في المحافظة على ما هو قديم ومقدس، وهذا مانجده في النصوص المسمارية الدينية الى درجة سميت اللهجة المستخدمة في كتابة هذه النصوص «لهجة التراتيل والملاحم Hynmic – Epic Dialect»، ومن الطبيعي ان قراءة مثل هذه النصوص وفهمها فهماً صحيحاً ودقيقاً يعد من الامور الصعبة لذا اختلف الباحثون احياناً في قراءتهم وتفسيراتهم لتلك النصوص. فضلاً عن ذلك، فأن اراء الباحثين الخاصة في الوقت الحاضر ومعتقداتهم الدينية قد اثر بشكل او بآخر في كيفية تفسير بعض تلك النصوص خاصة وان بعض هذه النصوص تتحدث عن مواضيع ورد ما يماثلها او يشابهها في عدد من اسفار العهد القديم، كتاب اليهود المقدس.

جـ – ان دراسة النصوص المسمارية ذات العلاقة بالمعتقدات الدينية وتحليل ماورد فيها تؤكد ان هذه النصوص كانت قد دونت اصلاً من قبل الكهنة وان لم يحمل أياً منها اسم ومهنة الكاتب او المؤلف شأنها في ذلك شأن جميع النصوص الأدبية والعلمية وغيرها. وهكذا فان النصوص تعكس وجهة نظر الكهنة فحسب وتنقل لنا الصورة التي رسمها الكهنة انفسهم عن بعض القصص والاساطير الدينية وعن الالهة التي اعتقدوا بوجودها وصفاتها وعن اسلوب اجراء الطقوس الدينية كما ان الرغبة في المحافظة على ما هو قديم ومقدس دفع بالكهنة الى استنساخ النصوص الدينية جيلاً بعد جيل دون تغيير او تحريف الا بحدود معينة تمليها الظروف السياسية لهذه المدينة او تلك ومايتبع ذلك من تغير في مراكز الهة المدن الحامية المختلفة، وفقاً للتغييرات التي قد تحدث في تغير مراكز المدن السياسية، صنوفاً نتيجة دخول اقوام جديدة الى المنطقة عن طريق الغزو او الهجرة ومعها معتقداتها الدينية الخاصة بها وما قد ينتج عن ذلك من دخول تلك المعتقدات اوبعض منها وتأثيرها على المعتقدات السائدة. كما ان النصوص الدينية بصورة عامة تعكس وجهة نظر السلطة الحاكمة التي سمحت للكهنة بكتابة واستنساخ هذه النصوص والاحتفاظ بها والعمل بما جاء فيها، وان ما يؤكد ذلك ان معظم النصوص اكتشفت في مكتبات تابعة للمعابد او القصور الملكية.

هـ- إن مما يؤسف عليه أن التنقيبات الأثرية لم تكشف لنا بعد عن نصوص دينية تعكس لنا آراء ومعتقدات الافراد الاعتياديين لمعرفة مدى تصديقهم واعتقادهم بما كان ينشره الكهنة من تعاليم والتزامهم باقامة الطقوس والشعائر الدينية. فمن المؤكد انه كان بين افراد المجتمع من كانت له آراء وافكار تتعارض وافكار الكهنة الذين كانوا يمثلون في الغالب آراء السلطة الحاكمة ويعملون في فلكها، كما أنه من المؤكد ايضاً انه كانت هناك دعوات دينية مناهضة ومتقاطعة مع المعتقدات الدينية السائدة، والتي رسم خطوطها العامة كهنة المعابد، جاء ببعضها عدد من الرسل والانبياء، الا ان تلك الدعوات لم تلق طريقها للتدوين او لم يسمح لها بتدوين آرائها المعارضة ونشرها بين الناس شأنها في ذلك شأن اي رأي مناهض اساساً لرأي السلطة الحاكمة او المعتقدات السائدة في معظم الازمنة. ومع ذلك، فأنه يمكن تلمّس آثار تلك الدعوات التوحيدية في عدد من القصص والأساطير الدينية التي دوّنها الكتبة انفسهم.

ومع هذه الملاحظات التي يجب اخذها بنظر الاعتبار عند دراسة وتفسير النصوص المسمارية، تبقى النصوص المسمارية أهم مصدر من مصادر معلوماتنا عن المعتقدات الدينية العراقية القديمة الى جانب المصادر الاخرى. ولعل من الممكن ان نضيف الى ذلك مصادر كتابية اخرى وإن كانت اقل اهمية تلك هي الاشارات الواردة في عدد من اسفار العهد القديم الى عادات وطقوس البابليين والآشوريين وما دوّنه لنا الكتبة الكلاسيكيون من اخبار وروايات عن ذلك وما تناقلته الاجيال من قصص واساطير دينية وجدت أخيراً طريقها الى التدوين، الا أن جميع ذلك جاء مشوشاً ويكتنفه الغموض ويغلّفه الخيال.

٢- نشأة المعتقدات الدينية

يجد الباحث في نشأة المعتقدات الدينية القديمة في العراق وفي غيره من البلدان صعوبة كبيرة في معرفة بدايات تلك المعتقدات وكيفية نشوئها وتطورها خلافاً لما يجده زميله الباحث الذي ينكب على دراسة ديانة سماوية. فالباحث والدارس الذي يدرس ديانة سماوية يبدأ عادة دراسته من تأريخ ثابت معين تقريباً يمثل بداية الدعوة التوحيدية ولديه كتاب منزّل يضم جميع المبادئ والقيم والمثل والتعاليم الدينية الخاصة بتلك الديانة اضافة الى ما كتب عنها من تفسيرات وشروحات من قبل من سبقه من الفقهاء والباحثين في حين يفتقر الباحث في نشأة وتطور المعتقدات الدينية القديمة العراقية وغيرها الى كل ذلك، بل

ان ماهو متوفر لديه من معلومات قليل جداً ولا يمكن الركون اليه والوثوق به طالما اعتمد اساساً على بعض الآثار المادية الصماء اقتصرت غالباً على ماعثر عليه في القبور من حلي وأدوات واسلحة وما يمكن ان يستنتج من اساليب الدفن وعلى بعض الرسوم والنقوش والدمى. وكلما ابتعدنا بالزمن عن العصور التأريخية واوغلنا في القدم كلما قلت الآثار المكتشفة وبالتالي قل مايمكن ان يستنتج منها من معلومات عن حياة الانسان وافكاره ومعتقداته ، لذلك فانه من الصعب على الباحث العلمي ان يعطي فكرة واضحة عن بدايات المعتقدات الدينية عند انسان العصور الحجرية القديمة اعتماداً على هذه الآثار المادية القليلة وإن كل مايمكن استنتاجه منها هو انه كان للانسان في تلك العصور معتقدات دينية معينة وكان له افكاره عما يتبع الموت كما يستدل على ذلك من اساليب الدفن وما دفن مع الموتى من ادوات.

وبعد ان استقر الانسان الى جانب ارضه الزراعية وانتقل من مرحلة جمع القوت الى مرحلة انتاج القوت ، وعاش في بيوت بسيطة قريبة من بعضها ونشأت اولى القرى والمجتمعات الزراعية ، ولاسيما في القسم الشمالي من العراق ، تبلورت عند الانسان بعض المعتقدات الدينية. وقد خلف لنا انسان هذا العصر آثاراً مادية كثيرة ذات علاقة الا ان مايمكن استنتاجه منها من معلومات يبقى قليلاً اذا ماقورن بطول الفترة الزمنية واهميتها والممتدة من الالف الثامن قبل الميلاد وحتى بداية العصور التأريخية في الالف الثالث قبل الميلاد ، لذلك ظلت الصورة التي رسمها الباحثون عن نشأة وتطور المعتقدات الدينية مشوشة ومعتمدة اساساً على الظن والتخمين في معظم الحالات.

وحيث أن اعتماد الانسان في هذه الازمنة كان بالدرجة الرئيسة على ارضه الزراعية وما تدره عليه من غلال وعلى حيواناته المدجنة ، لذا يرى الباحثون ان معبوداته الاولى لابد من أنها كانت تدور اساساً على مبدأ تجسيد القوى والمظاهر المؤثرة في خصوبة الارض والحيوان التي جسدها على هيئة آلهة عامة تمثل الارض والخصب والقوى المؤثرة في الطبيعة ثم اخذ البشريرون في قوى الطبيعة الاخرى كوائن علوية جسدوها على هيئة آلهة ، "وقد كان هذا هو الحال بالنسبة للمعتقدات الدينية في وادي الرافدين حيث انتخب القوم اهم الظواهر الطبيعية التي كان لها أثر قوي في حياتهم وجسدوها بعدئذ ، اي شخصوها على هيئة آلهة"[1] ، وعبدوها تقرباً منها وابتغاءً لمرضاتها واتقاءً لشرها. وهكذا فسرت الدمى الطينية المكتشفة في المواقع القديمة والتي تمثل كل منها امرأة حبلى عارية مبالغ

---

(١) جون بوترو وآخرون ، الشرق الادنى ، ص ٣٣٤.

بانوثتها على انها تجسّد فكرة الخصوبة والتكاثر وتعبّر عن افكار سحرية خاصة بالخصوبة.[1] وانها رمز لآلهة الخصوبة التي عرفت فيما بعد بالالهة الام ، كما فسّرت الدمى الاخرى والنقوش التي كانت على هيئة رأس او ظلف ثور او على هيئة تشبه عضو الذكر على انها رمز للعنصر المذكر في الطبيعة وانها نظير الآلهة الام. اما الاواني والحلي وغيرها من المواد التي وجدت مدفونة في القبور، فقد فسّرت على انها تشير الى نوع من الاعتقاد بحياة ما بعد الموت او انها ، على اقل تقدير، دليل على أن الانسان لم ينظر الى الموت على أنه نهاية الحياة المطلقة.[2]

كما افاد الباحثون مما كشف عنه من اسس جدران معابد ودكاك قرابين وما وجد من مشاهد دينية منقوشة او محفورة على الاختام الاسطوانية وقطع الحجر وأواني الفخار للتعرّف على بعض الطقوس والشعائر الدينية التي مارسها الانسان ، ولاسيما في العصر الشبيه بالكتابي (حدود ٣٥٠٠- ٢٩٠٠ ق.م) ، كما امكن التعرف من خلال هذه المشاهد وآثار الابنية على بعض المعبودات التي عبدها او رمز اليها الانسان باشكال مختلفة.

لذلك تبقى معرفتنا ، كما يؤكد ذلك احد الباحثين ، «بالنظم والمعتقدات الدينية التي نشأت في العراق القديم لاتتعدى العصور التأريخية التي نجد فيها منذ اقدم عهودها نظاماً دينياً ناضجاً ، اما بداية هذا النظام واطواره البدائية التي مر بها قبل ان يتطور فيصبح في الحالة التي نعرفه فيها في العصور التأريخية فلا سبيل لنا لمعرفتها معرفة تأريخية اكيدة».[3]

وتزداد الآثار المادية ذات العلاقة بالمعتقدات الدينية وطقوسها وشعائرها في العصور التأريخية حيث تم الكشف عن العديد من المعابد والزقورات واعداد كبيرة من الدمى والتماثيل التي كانت ترمز الى الآلهة التي كانت تسيطر، حسب ظن الاقوام القديمة ، على تصرفات الانسان وحياته وعلى ادارة شؤون الكون الذي يعيش فيه ، اضافة الى المشاهد الدينية الكثيرة التي وجدت منقوشة على الاختام الاسطوانية وغيرها . واضافة الى ذلك فقد تم العثور على الاف النصوص المسمارية التي ضمت معلومات غزيرة عن المعتقدات الدينية على الرغم مما فيها من سلبيات سبق وأن اشرنا اليها. ومع ذلك ، تبقى الصورة التي استنبطها الباحثون عن المعتقدات الدينية العراقية القديمة وعن الطقوس والشعائر الدينية غير دقيقة او كاملة ولا تمثل الا جوانب معينة من تلك المعتقدات والطقوس ، كما تباينت

---

(١) طه باقر، المقدمة ، ص ٢٢٤.

(٢) جون بوترو وآخرون ، الشرق الادنى ، ص ٤٥.

(٣) طه باقر، المقدمة ، ص ٢٢٣.

اراء الباحثين في تفسير بعض الآثار المادية المكتشفة وذات العلاقة كمقبرة اور الملكية التي ضمت قبوراً جماعية واثاراً مادية مهمة كانت قد دفنت مع من دفن في تلك القبور. وما يقال عن مقبرة اور الملكية ينطبق على الآراء المتباينة التي قيلت في تفسير بناء الزقورة، وهي جزء مهم ومكمل من اجزاء المعبد في العراق القديم.

٣- ابرز سمات المعتقدات الدينية العراقية القديمة

تعدُّ سمة الشرك Polythesim ، اي تعدد الآلهة ، من ابرز ما اتسمت به المعتقدات الدينية في العراق القديم. فعلى الرغم من أن العراقيين القدماء قد حققوا تقدماً كبيراً في مختلف المجالات العلمية والانسانية وشادوا حضارة كانت بحق من الحضارات الاصيلة القليلة المعروفة في العالم ، الا انهم ابتعدوا عن التوحيد وظنوا بأن هناك آلهة متعددة تحكم وتسير هذا الكون وبنوا حياتهم على هذا الاساس. ومن المؤكد انه كانت هناك دعوات توحيدية في عصور ماقبل التأريخ ، كما تشير الى ذلك حادثة الطوفان التي يكان يجمع الباحثون على انها حدثت في العراق.[1] وفي العصور التأريخية اذ يتفق الباحثون على ان النبي ابراهيم الخليل عليه السلام عاش في بلاد بابل في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد[2] ومن البدهي انه دعا قومه للتوحيد الا انه لم يلق آذاناً صاغية. ومع ذلك ، تركت دعوة نوح ودعوة ابراهيم الخليل عليها السلام ودعوات الانبياء والرسل الآخرين الذين لانعرف تأريخهم الدقيق اثاراً واضحة في معتقدات العراقيين القدماء الدينية وطقوسهم الا انها جاءت بلباس ينسجم ومعتقدات القوم المعتمدة اساساً على الشرك والتشبيه.

وقد اعتقد العراقيون القدماء بوجود عدد كبير من الآلهة تملأ اسماؤها معجماً كبيراً[3] ونظموا جداول باسمائها وصنفوها الى مجاميع متعددة واوجدوا علاقات قربى بينها وقسموا الكون الى مناطق يحكم في كل منطقة اله معين او مجموعة من الآلهة كما خصصوا لشؤون الحياة المختلفة والظواهر الطبيعية آلهة بيدها نظامها واسبابها ، فكان احد الآلهة يسيطر مثلاً على السماء ويهيمن الآخر على الهواء والثالث على المياه العذبة والرابع على المياه المالحة وهكذا ، وهناك آلهة ثانوية مسؤولة عن امور اخرى اقل اهمية كالحراثة والطابوق والصوان

---

(١) طه باقر، المقدمة ، ص ٣٠٠.

(٢) احمد سوسة ، مفصل العرب واليهود في التاريخ ، ص ٥٠٦- ٥٠٧.

(٣) انظر مثلاً: Talliqvist, Akkadische Gotter pitheta 1938.

Deimel, A., Pantheon Babylonicum, Rome., 1914.

والمعادن وغيرها إذ كان لكل من هذه الظواهر او الاشياء اله خاص. كما كان لكل مدينة من المدن آلهتها الحامية الخاصة ، بل وكان لكل فرد مهما كان بسيطاً إلهه الحامي والشفيع الى جانب الآلهة العظام الاخرى. [1]

ولم تكن الآلهة ذات مكانة واحدة او مركز متساوٍ ، بل كان بعضها قليل الاهمية نسبياً ولم يكن يخصص لمثل هذه الآلهة الثانوية اكثر من مصلى صغير في زاوية من شارع ما في المدينة ، وكانت اهمية بعض الآلهة تقتصر على المدن التي تعبد فيها فقط دون غيرها من المدن في حين كانت هناك آلهة اخرى شعبية عبدت في مختلف المدن والمناطق وإن كانت معابدها الرئيسة في مدينة معينة ، كالإله القمر، اله مدينة اور الحامي واله الشمس ، اله مدينةسپار ومدينة لارسا الحامي والاله آنو، اله السماء وغيرها من الآلهة الرئيسة التي كانت عبادتها شائعة في معظم المدن.

ومع الاعتقاد بوجود هذا العدد الكبير من الآلهة ، فقد كانت بعض الآلهة تفضل على غيرها وتُخَصُّ بالتعظيم والتبجيل على حساب الآلهة الاخرى تبعاً للتطورات السياسية التي تمر بها البلاد. فعندما يرتفع شأن احدى المدن سياسياً ويزداد نفوذها وتبسط سلطانها على المدن الاخرى كان طبيعياً ان يعظَّم شأن اله تلك المدينة الحامي بالنسبة الى بقية الآلهة ، عندها يعمد الكهنة الى تحوير القصص والاساطير الدينية الخاصة بمجمع الآلهة وعلاقاتها مع بعضها لتحوير علاقة اله هذه المدينة التي برز شأنها على غيرها ، وهذا ماحدث عندما عظم شأن مدينة بابل فارتفع نتيجة ذلك مركز الهها الحامي مردوخ وصار سيد الآلهة ، فعمد الكهنة على تحوير القصص والاساطير الدينية وفقاً لذلك. وهذا ماحدث ايضاً عندما ارتفع شأن مدينة آشور حيث رافق ذلك ارتفاع مركز الاله آشور إلا أن تفضيل بعض الآلهة على غيرها تبعاً للتطورات السياسية لايعني ترك عبادة الآلهة الاخرى بل ظل القوم يؤمنون بالشرك وفي الوقت نفسه خصّوا بعض الآلهة بتقديس وتبجيل اكثر من غيرها ، وقد عرف هذا المبدأ عند الباحثين بمبدأ التفضيل او التفريد henotheism ، اي تفضيل او افراد احد الآلهة في العبادة وتمييزه عن غيره من الآلهة ، وربما يؤخذ ذلك على انه من تأثيرات الدعوات التوحيدية الا انه جاء في اطار الشرك السائد انذاك.

ومن السمات الاخرى التي اتصفت بها المعتقدات العراقية القديمة مايعرف عادة بمبدأ التشبيه Anthropomorphism ، أي تشبيه الآلهة بالبشر ونسبة جميع صفات البشر الروحية والمادية ، كالشكل والصورة والاعضاء والفكر والرأي والعواطف والحواس الى

---

(١) طه باقر، المقدمة ، ط٢، ١٩٥٥ ، ص ٢٢٩.

الآلهة . فالآلهة في ظنهم كانت تأكل وتشرب وتحب وتكره وتتزوج وتنجب وتفرح وتحزن تماماً كما كان البشر ، كما كانت علاقاتها الاجتماعية ببعضها كعلاقات البشر أيضاً بل انهم نسبوا اليها نظاماً يحكم مجمع الآلهة لابد وانه يعكس النظام الذي كان يسود ويحكم مجتمع البشر ، فاعتقدوا بأنه كان للآلهة مجالس تجتمع فيها وتقرر شؤون الكون بالمداولة والمناقشة والتصويت ، وكان من بينها مجموعة من الآلهة الكبار ذات الرأي الأكثر وزناً ، وكان يرأس المجلس رئيس او ابو الآلهة ، وهو الآله آنو ، اله السماء . —

ومع ان الآلهة كانت في نظر القوم تشبه البشر في كل شيء الا انها امتازت عليهم بصفة الخلود ، فهي لاتموت بعكس البشر الذي قرن بالموت منذ ان خلق ، وان كان هناك بعض الآلهة التي تموت لمدة مؤقتة ثم تعود للحياة .

وقد مثّلت الآلهة على هيئة البشر في شكلها المادي ، الا انها صوّرت بصور تختلف بعض الشيء عن الصور الآدمية بغية تمييزها وتفريقها عن البشر فبالغ النّحاتون بحجم العينين والاذنين ، دلالة على بعد النظر والحكمة ، ووضعت التيجان المقرّنة على رؤوسها والقلنسوة ذات الطيات التي اختصت بها الآلهة ومثلت الآلهة بصورة عامة بحجم اكبر من حجم التماثيل الاخرى الخاصة بالحكام والملوك .

وكان مقر الآلهة في السماء ، وهناك بعض الآلهة التي كان مقرها تحت الارض في العالم السفلي ، وقد تنزل الآلهة ، حسب تصور القوم ، الى الأرض وتعيش في بيوت فخمة كان على البشر ان يعدّها لها وهي المعابد وكان على البشر ان يقوم على خدمتها وتقديم القرابين لها ويضع تماثيلها في اماكنها المقدسة من المعبد ويقدم لها الصلوات والتراتيل ويؤدي امامها الطقوس والشعائر الدينية اللازمة ، واذا ماقصّر البشر في واجباته تجاه الآلهة غضبت عليه وعاقبته ، حسب ظنهم ، في هذه الدنيا وانزلت به مختلف الامراض والنكبات والشرور .

ومن السمات الاخرى التي اتصفت بها المعتقدات العراقية القديمة صفة الاستمرارية التاريخية ، اي ان جوهر المعتقدات الدينية التي تبلورت في الالف الثالث قبل الميلاد ، ظل سائداً خلال العصور التاريخية التالية دون تغيير يذكر على الرغم من تعرض البلاد للغزو والاحتلال الأجنبي اكثر من مرة وعلى الرغم من دخول اقوام كثيرة الى المنطقة من الشرق والغرب . لذلك ظلّت الآلهة التي كانت تعبد في عصر فجر السلالات كما هي مع تغيير احياناً باسمائها او اضافة بعض الصفات الجديدة لها ، كما حافظت المعابد على تخطيطها الرئيس واتجاهاتها ومرافقها الرئيسة ، وينطبق الشيء نفسه على الطقوس والشعائر الدينية الرئيسة من صلوات واحتفالات وغيرها .

كما اتصفت المعتقدات العراقية القديمة بما يعرف بمبدأ الحيوية ، اي الاعتقاد بوجود قوى او ارواح كامنة في مظاهر الطبيعة وتجسيدها بهيئة آلهة . وكان الانسان يرى نفسه محاطاً بقوى كانت بالنسبة له اما آلهة او عفاريت[1] ، وكانت العفاريت تهاجم الانسان في اوقات محددة ، كما جسّد الانسان الظواهر الأخرى وجعل لها آلهة ، فكان للنار اله وللمياه اله وللنهر وللجبال وللكتابة وللطب وغيرها آلهة ، وحظيت السماء باهتمام الانسان اكثر من غيرها فكان اله السماء آنو ، ابو الآلهة كلها ورئيسها ، كما جسّدت الأرض على هيئة اله وجسّد الهواء ، او الجو ، على هيئة اله ايضاً وهكذا .

٤ - ابرز الآلهة

كان تعدد الآلهة من اهم سمات المعتقدات العراقية القديمة ، كما سبق وأن اشرنا ، وقد وصلتنا جداول مطولة باسماء الآلهة التي تصور القوم وجودها ، وخُصَّ كل منها بمظهر من المظاهر الطبيعية او شأن من شؤون الحياة او ظاهرة من الظواهر العامة ، وصوّر الآلهة على هيئة البشر ونحتت لها التماثيل ووضعت في المعابد ورمز لبعض الآلهة بحيوانات معينة ووصفت بصفات تلك الحيوانات البارزة كالقوة والشجاعة والثبات والحيلة وغيرها كما رمز لعدد من الآلهة برموز خاصة ، فرمز للقمر بالهلال وللشمس بقرص ينبعث عنه الشعاع ولعشتار بالنجمة ولاله البرق والرعد بالشرارة التي تدل على الصاعقة وهكذا . كما رمز لبعض الآلهة بالأرقام ، وكان اعلاها مرتبة اله السماء آنو الذي رمز له بالرقم ٦٠ ، وهو الوحدة الكاملة حسب النظام الستيني عند السومريين ، في حين رمز الى الآلهة الاخرى بأرقام اقل ، فكان الرقم ٥٠ لاله الأرض والرقم ٤٠ لاله الجو والرقم ٣٠ لاله القمر وهكذا .

وكان الآله آنو . اله السماء ابرز الآلهة في تصور العراقيين القدماء ، وقد عدَّ ابو الآلهة جميعها وكان مقر عبادته في مدينة الوركاء ، وكان يرمز له بالنجمة وقد استخدمت النجمة ايضاً كعلامة دالّة على الالوهية بصورة عامة فكانت تتقدم اسماء الآلهة كما وضعت احياناً امام اسماء بعض الملوك الذين الّهوا انفسهم ، مثل الملك نرام - سين الأكدي . ويأتي الاله انليل ، وهو اله الجو والهواء ، في المرتبة التالية وقد لعب دوراً رئيساً في الاساطير والطقوس الدينية وارتفع شأنه الى درجة نافس احياناً الاله آنو . وكانت مدينة نفر المقر الرئيس لعبادته مما اكسبها قدسية خاصة ومكانة دينية مرموقة الى درجة ان اعترافها بشرعية حكم الملوك في المدن الاخرى كان شرطاً اساسياً . اما الاله انكي ، اله الأرض ، فقد سماه البابليون ايا ، وكانت اريدو مركز عبادته ، وكان اله الحكمة ايضا وقد تصوره الاقدمون بأنه

---

(١) انظر: ساكز، عظمة بابل، ص٣٣٩.

كان محبّاً للبشر ولعمل الخير تجاههم. ويأتي بعد هذا الثالوث من الآلهة التي قدّسها العراقيون القدماء ثالوث آخر ضم الاله ننا، اله القمر (بالاكدية سين) والاله اوتو، اله الشمس (بالاكدية شمش) والالهة انانا، الهة النجم القطبي (بالاكدية عشتار)، وهي الهة الخصب والبركة. وكان مقر عبادة اله القمر مدينة اور ومقر عبادة اله الشمس مدينة سپار ومدينة لارسا، وقد عدَّ ابنا للاله القمر، وكان اله الشمس هو اله الحق والعدل ومصدر القانون لهذا صوِّر في اعلى مسلة حمورابي. اما الالهة انانا (عشتار)، فقد اصبح اسمها يعني المعبودة الشخصية عموماً وظلت عبادتها شائعة في مختلف العصور ولقبت بالقاب كثيرة منها انها الالهة الام، مصدر الخصب والعطاء وكانت الالهة عشتار ايضاً الهة الحب والحرب وكانت مدينة الوركاء مركزاً لعبادتها.

ومن الآلهة المهمة الاخرى الاله ادد، اله البرق والرعد والفيضان، وقد احتل مكاناً مرموقاً عند الآموريين ولاسيما في منطقة ماري، وعد في آشور من الآلهة العظام وكان يرمز له بشرارة البرق المتشعبة ولم تكن له مدينة مخصصة لعبادته بل انه عبد في مختلف المدن ولاسيما الآشورية منها.

اما الاله نرجال، فكان اله العالم السفلي المخيف وكانت مدينة كوثى مركز عبادته لهذا وصفت المدينة بأنها مجمع الاشباح، وكانت زوجته الالهة ايريشكيجال.

ومن الآلهة الرئيسة ايضاً الاله مردوخ، اله مدينة بابل الحامي واله البابليين القومي وقد عُدَّ ابنا للاله ايا، اله الحكمة، وعُدَّ الاله نبو، اله الكتابة الذي كان مقر عبادته مدينة بورسپا، ابناً له. وعندما ارتفع شأن مدينة بابل وعدت عاصمة امبراطورية واسعة في عهد حمورابي، ارتفع شأن مردوخ واصبح على رأس مجمع الآلهة ولعب دور بطل الآلهة المنتصر في اسطورة الخليقة، وينطبق الشيء نفسه على الاله آشور، اله مدينة آشور واله الآشوريين القومي، حيث ارتفع شأنه هو الآخر عندما ارتفع شأن مدينة آشور ومعها الآشوريين وغدت عاصمة لمملكة واسعة الارجاء.

اضافة الى ذلك، هنالك المئات من الآلهة الثانوية التي تصور القوم وجودها والتي كانت حسب ظنّهم تتقاسم الحكم فيما بينها لحكم الكون وادارته، وقد اختص كل اله بشأن من شؤون الحياة، كما نسب لكل اله من الآلهة الرئيسة زوجة او اكثر وذكروا اسماء ابنائها وبناتها كما دخلت اسماء بعض الآلهة الأجنبية الى مجمع الآلهة ولاسيما في اوقات الاحتلال الأجنبي مثل الآلهة تشباك والاله داجان وغيرهما.

وترد اسماء الآلهة في تركيب اسماء الأشخاص غالباً حيث كانت العادة ان يتكون اسم الفرد من جملة ذات معنى يدخل في تركيبها اسم الاله المفضل عند العائلة التي اطلقت الاسم وقد يكون من الآلهة الرئيسة او المحلية.

٥ – المعبد

كانت المعابد من اولى الأبنية العامة التي شيدها العراقيون القدماء للاجتماع فيها واداء الطقوس الدينية، وترقى اقدم بقايا مكتشفة للمعابد الى دور حلف في أواسط العصر الحجري المعدني (حدود ٤٥٠٠ – ٤٠٠٠ ق.م) حيث كشف عن اقدم ابنية المعابد في تبة گورا قرب الموصل ومن ثم في اريدو في اقصى الجنوب ثم ازداد عدد المعابد المكتشفة في الادوار الحضارية التالية. ولابد وان كان الانسان قبل ذلك يتعبد ويقوم بالطقوس الدينية في بيته الى ان شعر بحاجة الى وجود مكان عام يجتمع فيه مع غيره للتعبد واجراء الطقوس ورافق ذلك ان اختص عدد من الناس بالخدمة في المعبد والقيام بدور الوسطاء بين الافراد الاعتياديين وبين الآلهة التي تصوّروا وجودها.

وكان للمعبد في العصور التاريخية المبكرة، وكما تشير الى ذلك النصوص المسمارية الكثيرة المكتشفة في المعابد الاولى، اهمية كبيرة في حياة الناس حيث لم يكن مكاناً للعبادة والقيام بالطقوس الدينية فحسب بل كان بؤرة المدينة ومركزها في مختلف شؤون الحياة الادارية والاقتصادية والثقافية. ففي جناح خاص من المعبد سمي إگيپار Egipar، كان يسكن اول الحكام الذين تولّوا ادارة المدينة في بداية عصر فجر السلالات والذين كانوا يحملون لقب إين En. ولابد وان كان يرافق الحاكم عدد من الموظفين او العاملين من معاونيه لادارة شؤون المدينة. كما كان المعبد ولفترة طويلة استمرت حتى العصر البابلي القديم، مركزاً رئيساً للقضاء بين الناس، وكان جل القضاة من الكهنة وكان جزء مهم من المرافعات القضائية، كاداء القسم، ذات علاقة بالمعبد والكهنة. كما كان المعبد، حسب المعتقدات السومرية، يمتلك، باسم اله المعبد، الجزء الأعظم من اراضي المدينة الزراعية وكان عليه ادارتها والاشراف على تأجيرها او زراعتها وجمع وارداتها والتصرف بتلك الواردات بهدف الصرف على المعبد ومن يعمل فيه ويعتمد عليه او تنميتها من خلال اقراض الناس القروض بفوائد معينة والقيام بمختلف انواع التجارة والصناعة وتشغيل مئات بل آلاف من الصنّاع والمزارعين وغيرهم، وقد تخصص عدد من الكهنة

والكاهنات للقيام بهذه المهام الاقتصادية المتشعبة[1] وخلّفوا لنا سجلاتهم الكثيرة التي تفصح عن ذلك.

كما كان المعبد مركزاً علمياً وثقافياً حيث تشير النصوص المسمارية المكتشفة في المعابد المهمة الى ان المعابد كانت المكان الأول الذي كان يتعلم فيه المبتدئون على القراءة والكتابة فكان يقوم مقام المدارس، ثم اصبحت المعابد مراكز للتاليف والاستنساخ والبحث والتعليم وبرز الكهنة في علوم كثيرة كالفلك والرياضيات والطب، وكان في كل معبد مهم مكتبة ضمّت نصوصاً علمية وادبية كثيرة ومهمة تلي المكتبات الملكية التي وجدت في بعض القصور الملكية.

وهكذا كان المعبد مؤسسة دينية وادارية واقتصادية وثقافية مهمة بل كان في بعض العصور، مثل عصر فجر السلالات والعصر البابلي الحديث، اهم مؤسسة في المدينة وكثيراً ماتدخّل كهنته في سياسة الدولة وعملوا على تغيير الملك او الحاكم وتنصيب غيره باساليب مختلفة كما سبقت الأشارة الى ذلك، حيث قد يتدخل الكهنة علناً وينصّبوا احد الكهنة او التابعين للمعبد حاكماً على المدينة، وهذا مايظن انه حدث عندما تولى اوروااينمجينا (اوروكاجينا) الحكم في مدينة لجش في حدود ٢٤٠٠ ق.م، ونبونائيد آخر الملوك الكلديين (٥٥٥- ٥٣٩ ق.م)، او ربما تدخلوا من خلال ثقة الملوك بهم واعتمادهم عليهم في قراءة الطالع وتحديد وتعيين اولياء العهد او تعيين الملك البديل او غير ذلك. كما يجدر التنويه ان اول الحكام كانوا، على اغلب الظن، من بين الكهنة وانهم جمعوا بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية في بداية الامر حتى استقلّت السلطة الدنيوية تدريجياً في العصر الأكدي وما بعده[2].

تخطيط المعبد

كان لبناية المعبد مكانة دينية مقدّسة في النفوس، لذلك حرص العراقيون القدماء على بناء المعبد في مكان منتخب من المدينة وعلى مصطبة ترتفع عن مستوى الأرض المحيطة وبشكل يدل على الابّهة والفخامة بما يتناسب ومركز الآلهة التي بنيت المعابد لتكون بيوتاً لها، لذلك زيّنت جدران المعابد منذ اقدم العصور بالطلعات والدخلات وبالمسامير الفخارية التي استخدمت كما تستخدم الفسيفساء في تزيين الجدران، وصبغت الجدران،

(١) حول دور المعبد في الحياة الاقتصادية في المدن السومرية انظر: تيومينيف، اقتصاد الدولة في سومر القديمة في: العراق القديم، تأليف جماعة من علماء الآثار السوفيت، ترجمة سليم طه التكريتي، بغداد، ١٩٧٦، ص٩٩- ١٣٠.
(٢) انظر: فوزي رشيد : المعتقدات الدينية، في: حضارة العراق، ج١، ١٨٩.

ولاسيما باللون الأبيض ، لتكون ساطعة في الليل والنهار وضمت غرفاً وقاعات لسكنى الحاكم والكهنة على اختلافهم ولخزن واردات وممتلكات المعبد كما ضمت ساحات مكشوفة واسعة لتجمع الناس في احتفالاتهم واعيادهم واثناء قيامهم بالطقوس الدينية المختلفة . وقد حافظ تخطيط المعبد الاساس على جوهره عبر العصور المتتالية ، وهذا جانب من جوانب صفة الاستمرارية التاريخية التي اتصفت بها المعتقدات العراقية القديمة ، ففي اطوار المعبد الاولى ، كان يضم حجرة صغيرة مشيدة باللبن وتحيطها ارض مربعة الشكل تقريباً ولا يزيد طول ضلع الغرفة عن ثلاثة امتار وفيها تجويف يعرف بالهيكل. [1] ونتيجة تطور المدينة واتساعها وتعقد الحياة الاقتصادية والاجتماعية وقيام المعبد بدور رئيس في حياة المدينة ، اتسع البناء وزاد حجمه واضيفت اليه مرافق كثيرة اخرى خصصت للحاكم والكهنة والمتعبدين ، الا انه ظل محافظاً عبر العصور على تخطيطه الاساس ، فظلت زوايا المعابد تتجه نحو الجهات الأربع ، الشمال والجنوب والشرق والغرب . وكان المعبد يضم عادة حجرة المدخل التي تؤدي الى ساحة مكشوفة ينفذ منها الى حجرة يجوز تسميتها بحجرة المابين تفصل بين الساحة وبين غرفة الهيكل. وكانت حجرة الهيكل اقدس جزء في المعبد حيث يوجد فيها تجويف يوضع فيه تمثال او تماثيل الآلهة وامام التجويف دكة المذبح.

وتكون مداخل هذه الحجرات الثلاث في اكثر المعابد البابلية بإتجاه واحد بحيث اذا انفتحت الأبواب يرى الواقف في حجرة المدخل تمثال الاله في التجويف المخصص له . وفي المعابد الآشورية ، وربما رغبة في اعطاء القدسية لتمثال الاله وجعله في مكان لايرى من الخارج ، فقد وضع التجويف وفيه تمثال الاله في جانب الغرفة وليس قبالة المدخل[2] . كما ظلت معظم المعابد مزينة بالطلعات والدخلات ، وقد تضم ساحات اضافية وحجرات ومرافق اخرى تحيط بالساحات للكهنة ولاجراء بعض الطقوس الدينية . وكانت معظم المعابد الرئيسة تحمل اسماء خاصة بها وقد يخصص المعبد لعبادة اله واحد او قد تكون فيه تماثيل آلهة عديدة ، وكان في كل مدينة معبد رئيس وقد يكون فيها عدد كبير من المعابد يصل الى العشرين معبداً احياناً ، كما كان عليه الحال في مدينة لجش. [3] ومما يلاحظ ان حجم مجمع المعبد كان يتناسب ومركز المعابد بصورة عامة ، ففي العصور المبكرة وحتى اواسط العصر البابلي القديم (حدود ١٨٠٠ ق.م) ، كان مجمع المعبد ضخماً ويضم مرافق كثيرة وواسعة في حين تقلص حجم المعبد منذ عصر حمورابي وبعد ان وضح

---

(١) طه باقر وآخرون ، تاريخ العراق القديم ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ج٢ ، ص٢٧.

(٢) فوزي رشيد ، المعتقدات الدينية ، ص١٨٩ ، طه باقر، المقدمة ، ط ٢ ، ١٩٥٥ ، ص٢٧٨.

(٣) طه باقر، المقدمة ، ص٣٣٥.

انفصال السلطة الدينية عن السلطة الدنيوية يقابل ذلك اتساع واضح في حجم القصور الملكية ، كما هي الحال بالنسبة لقصر زمريليم في ماري الذي ضم مايقرب من ثلاثمائة غرفة .

٦ – الزقورة

الزقورة عبارة عن برج او صرح اصم شاهق الارتفاع مؤلف من ثلاث الى سبع طبقات او مصطبات تتناقص بالمساحة ، قاعدتها مربعة او مستطيلة وربما نشأت فكرة بناء الزقورة ذات المصاطب المتعددة من طريقة بناء المعابد الاولى في القسم الجنوبي من العراق على مصطبة مرتفعة بعض الشيء عن مستوى سطح الارض المجاورة لكي يكون المعبد مرتفعاً ومهيمناً بشكل يتناسب واهميته الدينية من جهة وليكون كذلك بعيداً عن مياه الفيضانات والمياه الجوفية من جهة ثانية [١] . واسم الزقورة مشتق من الفعل الاكدي الذي يعني « بنى عالياً » [٢] . وكانت الزقورة تؤلف الجزء المكمل لمجمع المعابد الرئيسة وغدت سمة من سمات العمارة العراقية القديمة حيث لم يكشف عن أبنية مشابهة في بلدان اخرى في حين ضمت معظم المدن العراقية القديمة الرئيسة في بلاد بابل وآشور بقايا احدى الزقورات التي كانت قد شيدت الى جوار المعبد الرئيس في المدينة الا ان زقورة اور التي شيدها اور –نمو مؤسس سلالة اور الثالثة (٢١١٣ – ٢٠٩٦ ق. م) وزقورة بابل التي شيدها نبوخذنصر الثاني (٦٠٥ – ٥٦٢ ق. م) احتلت مكان الصدارة في الشهرة وذكرت ، ولاسيما الثانية منها ، في كتب الكتاب الكلاسيكيين واشار اليها العهد القديم .

والزقورة بناء شيّدت مصطباته باللبن المجفف بالشمس وغلّفت من الخارج بالآجر المفخور (الطابوق) المعلم غالبا باسم الملك الذي قام بتشييد او تعمير الزقورة . وكان حجم الزقورة يختلف من مدينة الى اخرى ، حسب اهمية المدينة والمعبد الذي تعود له الزقورة ، غير ان مساحة قاعدتها قد يبلغ مئات الامتار المربعة ، فمثلاً مساحة قاعدة زقورة اور المستطيلة تبلغ ٢٧٠٠ متر مربع تقريبا (٦٢,٥ × ٤٣ م) ، في حين قد يبلغ ارتفاع الزقورة الكلي اكثر من اربعين متراً ، اي مايعادل عمارة ذات ثلاثة او اربعة عشر دوراً ، اذا

---

(١) فوزي رشيد ، الديانة في حضارة العراق ، ج١ ، ص ١٨٥

(٢) حول الاسم واشتقاقه والنصوص التي ذكر فيها انظر:

The Assyrian Dictionary of the University of Chicago, 1961 H. (CAD),

Vot. 21, 129 ziqqurratn — ziqqurratu (صرح او برج المعبد : زِقُّرَتُ

وكذلك صفحة ٥٥ حيث ورد معنى الفعل زَقَارُ Zaqāru « بنى عالياً ».

افترضنا ان معدل ارتفاع الدور الواحد ثلاثة امتار. ومع ضخامة بناء الزقورة وفخامتها وسيطرتها الكاملة على المدينة وما حولها، ولاسيما في منطقة سهلية منبسطة كارض جنوب العراق، فان زقورة اور المؤلفة من ثلاث مصطبات فقط والتي لم يبق منها سوى المصطبة الاولى وجزء من المصطبة الثانية، فأنها تمتاز بالجمال والرشاقة المتأتين من التناسب في الابعاد والقياسات. وكان يرقى الى الزقورة عادة بسلالم خارجية. ففي زقورة اور كان هناك ثلاثة سلالم يرقى بها الى الاعلى واحد في الوسط واثنان جانبيان يتصلان بالسلم الوسطي في الاعلى. ويؤديان الى سطح المصطبة الاولى وهناك سلالم اخرى تؤدي الى الطابقين الثاني والثالث. ويفترض انه كان يتوج الزقورة في الاعلى معبد صغير، هو المعبد العلوي، الذي شيّد ليكون محلاً لبعض الطقوس الدينية الخاصة بالزواج المقدس وليكون مكاناً لاستراحة الآلهة، حسب تصورات القوم، عند نزولها الى الارض. الا ان عوامل التعرية الكثيرة عبر القرون لم تترك اثراً لتلك المعابد الصغيرة العلوية.

ومن الزقورات التي اشتهرت في التأريخ وذكرت في كتاب العهد القديم وفي مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين، زقورة او برج بابل، الا ان عوامل التعرية والتخريب ازالت الزقورة بكاملها ولم تترك سوى الارض التي شيدت عليها الزقورة محاطة بأربعة خنادق تمثل اسس القاعدة. ومن خلال التحريات الاثرية للموقع وما ذكر عن البرج في النصوص والكتابات القديمة توصل الباحثون الى تصور كامل لزقورة بابل التي يفترض انها كانت ذات قاعدة مربعة طول ضلعها ٩١,٥٥ متراً وانها كانت مشيدة باللبن ومغلفة بالآجر[١]، وانها كانت مؤلفة في عهد (نبوخذ نصر) من سبع طبقات كل طبقة اصغر من سابقتها ويرقى الى كل طبقة بسلالم خارجية، وربما كانت طبقاتها السبع، كما يذكر هيرودوتس، ملونة بالوان مختلفة.

وبالقرب من قاعدة الزقورة، كان يوجد عادة عدد من الحجرات والمرافق ويحيط بها سور والى جوار ذلك المعبد السفلي[٢].

ولايعرف الهدف الاساس من بناء الزقورة الا انها بالتأكيد لم تكن كالاهرامات المصرية مدافن للملوك وان تشابهت معها من حيث الشكل العام والضخامة. ومع ذلك، فهناك من الباحثين من يرى بأن الزقورة كانت بمثابة مدفن للاله المحتضر الذي

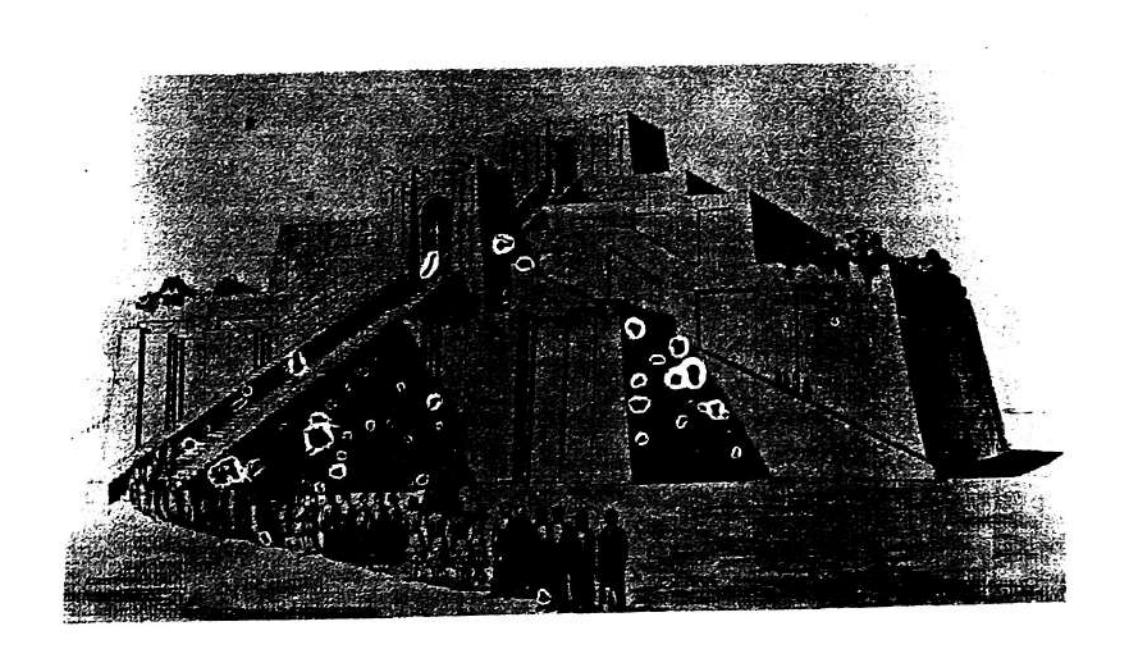
---

(١) حول زقورة بابل انظر طه باقر، المقدمة، ج١، ١٩٧٣، ٥٦٩– ٥٧٢

(٢) حول بناء الزقورة والمعابد بصورة عامة انظر مؤيد سعيد، العمارة من عصر فجر السلالات الى نهاية العصر البابلي الحديث، حضارة العراق، ج٣، ص ٩٧– ١٤٦

يموت بصورة مؤقتة ثم يقوم ويحيا حسب معتقدات القوم ، [١] الا انه لايوجد ادلة قوية تثبت هذا الرأي في حين يراها آخرون بانها مكان اعدّ لرصد النجوم والكواكب ، [٢] وهو رأي ضعيف حيث لايمكن ان نتصور ان تشيد هذه الأبنية الضخمة لمجرد الرصد بل يمكن القول ان الفلكيين استخدموها للرصد بعد ان كانت قد شيدت لخدمة اغراض المعبد. كما يرى بعض الباحثين ان السومريين حاولوا من بنائهم الزقورة تقليد ما كان لديهم في موطنهم الجبلي الاول حيث كانت الالهة تعبد على قمم الجبال [٣] ، وهناك اراء اخرى حول تفسير الهدف من هذا البناء الشامخ مما يؤكد ما اشير اليه سابقاً ان هناك الكثير من الامور ذات العلاقة بالمعتقدات الدينية التي لم يتوصل الباحثون الى رأي موحد بشأنها.

الا ان اكثر الآراء قبولاً الان هو ان الزقورة شيدت لكي يشيد فوقها معبد صغير هو «المعبد العالي» الذي كان مكان استراحة مؤقت للاله في طريقه ، حسب معتقدات القوم ، بين السماء والارض ، وهذا ما يؤكده ماورد في العهد القديم من اشارات الى الزقورة



(١) ساكز، عظمة بابل، ص ١٠٩

(٢) انظر: فوزي رشيد، الديانة، ص ١٨٦

(٣) جورج، رو، العراق القديم، ٢٢٨.

(٤) العهد القديم، سفر التكوين، ٣: ٥، ٢٨ : ١٢.

٧- الكهنة

ان اعتقاد العراقيين القدماء بان الالهة انما خلقت الانسان من اجل ان يخدمها ويقدم لها الطعام والشراب ويؤدي الطقوس الدينية الواجبة لتقديم الطاعة والخضوع لها وكذلك لادارة شؤون املاكها في الارض ، قد دفعت بعض المتعبدين ان يكرّسوا انفسهم لخدمة الالهة في بيوتها على الارض ، اي في المعابد ، في الوقت الذي اختارت الالهة ذاتها ، حسب تلك المعتقدات ، احد البشر ليكون ممثلها على الارض ونائبها فيها ليشرف على ادارة شؤون اراضيها واملاكها ، وقد سمي بالسومرية اين En (وبالاكدية بيلُ bēlu اي بعل) ، وكانت سلطته ، كما تقدمت الاشارة اليه ، مزيجاً من السلطتين الدينية والدنيوية ، اذ كان هو الحاكم الدنيوي والكاهن الاعلى في الوقت نفسه. وكان يعاونه في ادارة شؤون المعبد وخدمة الالهة اولئك الاشخاص الذين كرسوا حياتهم لخدمة الالهة والذين عرفوا بالكهنة وكانوا يقومون بجميع الواجبات الدينية والدنيوية الخاصة بالمعبد والذي كان ، كما اشرنا ، مؤسسة دينية واقتصادية وثقافية في آن واحد. وبمرور الوقت انفصلت السلطة الدنيوية عن السلطة الدينية ومع ان الحاكم او الملك الدنيوي ظل يحتفظ بصفته الدينية باعتباره ممثلاً للالهة على الارض ويدعي انه منتخب من قبلها مباشرة ويؤدي واجباته الدينية في بناء وتعمير المعابد ويقوم بدوره في احتفالات رأس السنة ، الا ان خدمة المعبد الدينية انيطت بالكاهن الاعلى الذي ظل يحتفظ بلقب اين En وكان الكاهن الاعلى في المعبد ذكراً اذا كان المعبد خاصاً بعبادة الهة ، كالالهة عشتار ، في حين كان يرأس الكهنة في معابد الالهة من الذكور كاهنة عليا. وقد يشغل منصب الكاهن الاعلى الملك نفسه بشكل فخري وقد يشغل منصب الكاهنة العليا (اينتمُ Entum) احدى بنات الملك. وفي العصور التاريخية المتأخرة نسبياً اصبح على رأس المعبد كاهن يحمل لقب شِشجال šeš – gal ، وكان يقوم بتتويج الملك في عيد رأس السنة البابلية ويمنحه شارات الحكم[1].

وتميز الكهنة ، كما يبدو ، بمعرفتهم القراءة والكتابة وربما بثقافتهم الواسعة لذا كان منهم المعلمين والقضاة والكتبة. وكان العمل في المعبد بصفة كاهن من الاعمال المرغوب فيها لما للكهنة من مركز ديني واجتماعي وربما اقتصادي مرموق. وكانت بعض الاسر والافراد ينذرون احد اولادهم ليكون في خدمة اله معين لذلك لم يتردد الملوك السومريون والبابليون

---

(١) انظر طه باقر وآخرون ، تاريخ العراق القديم ، ج ٢ ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص ٣٠-٣١.

من تعيين احدى بناتهم كاهنة عليا في احد المعابد وهذا مافعله سرجون الاكدي وحفيده نرام سين وحمورابي ونبونائيد وغيرهم .

وكان الكهنة على اصناف كثيرة نظراً لتنوع الاعمال والواجبات المناطة بهم ، وقد تطرق قانون حمورابي في عدد من مواده الى بعض اصناف الكاهنات فذكر الاينتم ، اي الكاهنة العليا ، والناديتم . وهي تليها بالمرتبة ولم يكن يسمح لها بانجاب الاطفال والشوگيتم والتي كان يحق لها الزواج والقادشتُم ، اي المقدسة والكَلَمَّشِتُم وهي اقلهن من حيث المرتبة . وقد اشار قانون حمورابي الى بعض حقوق هذه الاصناف من الكاهنات في تركة الوالدين وفي الزواج وفي التصرف بالارض المقطوعة لبعضهن من قبل الدولة .(١) وذكرت النصوص المسمارية الاخرى اصنافاً كثيرة من الكهنة منهم المسؤولون عن اداء الطقوس الدينية والمراسيم الخاصّة باحتفالات رأس السنة وآخرون عن تقديم القرابين والاضاحي في حين كان نحر هذه القرابين من اختصاص صنف آخر من الكهنة . وكان صنف ثالث مسؤول عن قراءة الطالع ومعرفة المستقبل في حين اختص صنف آخر بتفسير الاحلام والرؤى . ولطرد الارواح الشريرة بالرقى والعزائم والسحر اختص فريق من الكهنة بهذه المهمة وبمعالجة الناس واعطائهم الادوية اللازمة لذلك . واختص صنف من الكهنة بالعزف على الالات الموسيقية وآخرون بترديد التراتيل الدينية كما كان هناك صنف خاص بتطهير المعبد ودهنه وآخر عن طقوس الاغتسال المقدس في المكان الذي يسمى بيت- رمكي ، اي بيت الاغتسال وغير هذه الاصناف من الكهنة المسؤولين عن ادارة املاك المعبد واراضيه الزراعية المؤجرة او المستثمرة بشكل مباشر والمسؤولين عن مخازنه وعنابره وعن القيام بالمعاملات التجارية من قروض وتجارة والمشرفين على المشاغل المختلفة التابعة الى المعبد او المسؤولين عن العبيد الذين يمتلكهم المعبد والى غير ذلك من الاصناف.

ولابد ان كان لهذا العدد الكبير من اصناف الكهنة والكاهنات الذين كانوا يعملون في مجمع المعبد ويعيش بعضهم في اجنحة خاصة(٢) ، مثل الكاهنات اللائي كن يعشن في جناح يسمى گاگُ gagu اي الدير ، مثل الكاهن الاعلى او الكاهنة العليا ، الذي عاش في جناح خاص عرف باسم اگيپار Egipar او گيپار Gipāru ، تقول لابد وان كان لهم نظام كهنوتي على درجة كبيرة من التعقيد والكفاءة لكن ادارة شؤون هذه المؤسسة الضخمة التي اصبحت في بعض العصور اهم مؤسسة في المدينه

---

(١) انظر ساكر، عظمة بابل، ص ٣٩٩-٤٠٥.

(٢) عامر سليمان، القانون في العراق القديم، ص ٢٦٢ .

٨- العرافة

تهدف العرافة اساساً الى معرفة ما تقدّره الالهة ومايخبئه الغيب من خير او شر للفرد والمجتمع ، وهو امر شغل عقول الناس في جميع العصور وفي مختلف البلدان شرقاً وغرباً. وكان للعرافة في العراق القديم شأن كبير في حياة عامة الناس وفي نفوس الحكام والملوك بشكل خاص ، وكان الاعتقاد السائد انه من الممكن التعرّف على ارادة الالهة ومشيئتها وما قدرته او تقدرّه من اقدار بوسائل وطرق معينة يقوم بها طبقة معينة من الكهنة اختصوا بها وعرف الواحد منهم بالعرّاف او البصّار، وبالاكدية بارُ bāru وبالسومرية إزُ 1–zu : وقد ظن القوم انه من الممكن للعرّاف ان يعرف مشيئة الالهة وقراءة طالع الانسان من خلال مراقبة الظواهر السماوية وحركة الاجرام ، ومن تفسير الاحلام والرؤى والمخلوقات الشاذة ومن الامارات التي تظهر على كبد الحيوان المضحّىٰ والى غير ذلك من الطرق التي اتّبعها العرّافون لقراءة الطالع ومعرفة المستقبل واوهموا الناس بصحة مايقومون به ودقة مايستدلون عليه من خلال ذلك بل انهم ربطوا بين ولادة الانسان وحركة الاجرام السماوية لمعرفة مستقبل حياته ، كما اعتقدوا بانه من الممكن معرفة ماسيحدث قياساً على ماقد حدث من حوادث مشابهة ومترابطة وعدّوا الاولى منها علّة والثانية معلولة. ولم يقتصر الاعتقاد بصحة ودقة مايقوله العرّافون من منجمين وغيرهم على العراقيين القدماء ، بل ظل الاعتقاد بذلك شائعاً بين الناس عامة منذ اقدم العصور وحتى الوقت الحاضر وفي جميع بلدان العالم ومهما كانت درجة ثقافتهم وتقدمهم الحضاري ، وما الحقل الخاص بقراءة طالع ، اوكما يسمى حظ ، الانسان استناداً الى تاريخ ولادته ومايقابل ذلك في ابراج قبة السماء المفترضة في الصحف والمجلات ، وقراءة الكف والفنجان والاعتقاد بمعاني وتفسيرات معينة لبعض الظواهر والاحداث والمخلوقات بانها نذر خير او شؤم للانسان الا امثلة حقيقية على ذلك ، وقد يتمادى البعض من البسطاء بمثل هذا الاعتقاد الى درجة تحدد تصرفاته وتوجهها وجهة معينة. ولابد من التنبيه هنا بان العرافة بمختلف اشكالها وطرقها وفي جميع العصور القديمة والحديثة هي من الاوهام التي ابتدعها الكهنة لتحقيق مكاسب معينة مادية اوغير مادية من خلال ترضية الناس وايهامهم بانهم يتنبأون المستقبل ويعرفون الغيب وهو امر لايمكن لانسان مهماً اوتي من علم ومقدرة ان يطلع عليه او يعرف عنه شيئاً مؤكداً وربما امكن للانسان ان يتوقع ماسيحدث من احداث في ظروف معينة وان ذلك ليس بالتنبؤ او قراءة المستقبل بل هو توقع محتمل فحسب.

وتزخر النصوص المسمارية السومرية والاكدية بنصوص العرافة والفأل ويمكن من دراستها التمييز بين نوعين من العرافة التي استخدمها الكهنة العراقيون القدماء، فهناك العرافة العملية او المقصودة والعرافة السحرية او غير المقصودة[1]. فأما العرافة العملية، فقد اعتمدت وسائل عملية من اجل الاتصال، حسب ظنهم، بالالهة ومعرفة مشيئتها في قضايا معينة كان منها: (١) ضرب القداح، وهي سهام صغيرة محززة تشبه الازلاج عند عرب الجاهلية، ترمي وفق طقوس معينة امام تمثال الاله المعني لمعرفة مشيئته في قضية معينة، (٢) سكب الزيت في الماء ومراقبة حركة الزيت ومايكونه من اشكال وحلقات على سطح الماء وتفسير ذلك من قبل العرّاف، تماماً كما يفعل قراء الكف والفنجان والودع في الوقت الحاضر، (٣) تصاعد الدخان من حرق البخور والاعشاب ومراقبة شكل الدخان وتصاعده وتفسير ذلك وغيرها من الاساليب التي اتبعت لمعرفة المستقبل.

اما النوع الثاني من العرافة، وهو العرافة السحرية او غير المقصودة، فانها اعتمدت على امور لا دخل للانسان في حدوثها وكان العرّاف او المنجم يفسّرها بالنسبة الى المستقبل وما سيحدث فيه من احداث. ومن وسائلها:

١- التنجيم **Astrology**، وكما يفهم من الأسم ان لهذه الطريقة من العرافة علاقة وثقى بالنجوم. وكان المنجم، او العرّاف، يرصد النجوم ويراقب حركتها ووقت ظهورها واختفائها وماقد يحدث لها من ظواهر غير اعتيادية، كالخسوف والكسوف، ويفسر كل ذلك ويستدل منه على ماسيحل بالملك والمملكة، وقد عرف هذا النوع من التنجيم بمعرفة الاحكام Judical Astrology. وفي الازمنة المتأخرة من تأريخ العراق القديم، ربما من فترة السيطرة السلوقية (القرن الثالث والثاني قبل الميلاد) ظهر نوع ثانٍ من التنجيم، وهو الذي ظل شائعاً ومعروفاً عند عامة الناس الى الوقت الحاضر، يهدف الى معرفة طالع الانسان الاعتيادي من خلال الربط بين تأريخ ولادته وحركة النجوم والكواكب بالنسبة الى الابراج المفترضة التي تتألف منها قبة السماء.

---

(١) حول العرافة وطرقها انظر: طه باقر، المقدمة ط ٢ ١٩٥٥، ج ١، ص ٢٦٧-٢٧٢.
فاضل عبدالواحد علي، العرافة والسحر في حضارة العراق، ج ١، ص ٢٩٧-٢٠١.
فاضل عبدالواحد علي، طرق العرافة في النصوص المسمارية، مجلة كلية الاداب، ٢٥.
ص ٦٩٥-٧٠٧، سامي سعيد الاحمد، معتقدات العراقيين القدماء في السحر والعرافة، وساكر، عظمة بابل، ٣٥٨-٣٦٧.

وكان للتنجيم دور كبير في حياة الملك وغالباً ما كان له عرّافون خاصّون يطلعونه على مايتنبأون به من خلال مراقبتهم الاجرام السماوية وقد امكن العثور على اعداد كبيرة من الرسائل التي كان قد ارسلها العرّافون الى الملوك الاشوريين المتأخرين بهذا الصدد وكان للعرّافين دور كبير في تسيير امور الدولة نظراً لثقة الملوك بتنبوآتهم واحتمال استغلالهم ذلك في توجيه سياسة الملك والدولة وماتقليد الملك البديل الذي كان يعتمد اساساً على تنبؤ الكهنة باحتمال وقوع خطر يهدد حياة الملك الا مثل على ذلك. وكان الملوك يعتمدون على قراءة الطالع في كثير من امور الدولة كتعيين ولي العهد وكبار موظفي الدولة والقيام بالحملة العسكرية وتحديد موعد ذلك والمباشرة ببناء معبد او قصر والى غير ذلك من الامور المهمة. وكان العرّافون يحددون اياماً معينة تعد اياماً حسنة في حين هناك ايام نحسة لايحبّذ القيام فيها باعمال مهمة وقد يرجأ موعد الحملة العسكرية اذا تنبأ العرّافون بذلك ومن الطريف ذكره هنا ان اليوم الثالث عشر (١٣) من الشهر، وكذلك الرقم (١٣) بصورة عامة كان من الايام النحسة التي تطير منها البابليون[١].

٢- العرافة المستمدة من مراقبة حركة وسلوك الطيور والحيوانات الدبيبة والحشرات وغيرها، وكذلك الاجنة والولادات المشوهة البشرية منها والحيوانية. وكان سلوك الحيوانات والولادات المشوهة وغيرها تنبىء بسوء الطالع وحسنه وتحذر الانسان في محاولة لابعاده عن الخطر الذي ينتظره وذلك بالقيام بطقوس دينية معينة. وقد خلّف لنا العراقيون القدماء نصوصاً كثيرة، ولاسيما من العصر البابلي القديم فصاعداً، تتضمن قوائم بتنبؤات نموذجية تكون دليلاً للعرّاف في تنبؤاته وسميت هذه النصوص بنصوص الفأل ومن امثلة ماورد في بعضها.

«اذا مرّ ثعبان من جهة الرجل اليمنى الى جهة الرجل اليسرى فسيكون له اسم حسن.
اذا مرّ ثعبان من جهة الرجل اليسرى الى جهة الرجل اليمنى سيكون له اسم سيء.
اذا ظهر ثعبان في مكان حيث كان رجل وزوجته واقفين يتحدثان، فان الرجل والزوجة سيطلق احدهما الاخر»[٢].

---

(١) طه باقر، المقدمة، ط٢، ١٩٥٥، ص ٢٧٢.

(٢) ساكز، عظمة بابل، ص ٣٦٠.

٣- العرافة المعتمدة على قراءة كبد واحشاء الاضحية المقدمة الى الاله حيث كان العرّاف يتفحّص احشاء الاضحية بعد نحرها ويستنبط من شكل الكبد ووصفه العام ومن لونه وتضخمه او ضموره ومما عليه من تشوهات او فقاقيع او تشققات ومن وضع الغدة الصفراء وغيرها ، تفسيرات معينة خاصة بقراءة المستقبل بالنسبة لمقدم الأضحية حيث ظن القوم ان الالهة كانت تثبت مشيئتها ورغباتها وجوابها على المشكلة التي قدمت من اجلها الاضحية على كبد الحيوان وبعض اعضائه الاخرى. وقد لاتظهر العلامات المشيرة الى ذلك في الاضحية الاولى فتقدم اضحية ثانية وثالثة . كما استنبط العرّافون من كل ظاهرة معينة في كبد الحيوان فألاً معيناً ونظموا في ذلك كله قوائم خاصة تعرف بالعرافة المستمدة اجزاء الكبد كما تم اكتشاف نماذج عديدة من الطين على هيئة الكبد وعليها شروح تمثل اجزاءه المختلفة لمعاونة العرّاف في معرفة ذلك .



نموذج كبد حيوان من الطين وعليه علامات العرّافين.

٩- السحر Magic

كان للسحر عند العراقيين القدماء شأن كبير في حياتهم العامة وكان عندهم حقيقه لاريب فيها لمعالجة الأمراض وطرد الارواح الشريرة والخبيثة والاضرار بالغير، ونظراً لاهمية السحر واعتقادهم بفاعليته فقد نصت بعض المواد القانونية في قانون حمورابي[١] والقوانين الاشورية الوسيطة[٢] على عقوبة من يتعاطى السحر الاسود، اي الضار، ومن يتهم شخصاً بالسحر الاسود دون ان يتمكن من اثبات ذلك عليه وغدت ممارسة السحر الاسود من الجرائم الكبرى التي يعاقب عليها بالفعل.

وكان السحر عند العراقيين القدماء، كما كان عند غيرهم من الشعوب القديمة وربما عند بعض البسطاء من الناس الى الوقت الحاضر، مبني على قاعدتين الاولى فحواها «ان الشيء يحدث شبيهه» او ان العلل المتشابهة ينتج عنها نتائج متشابهة والقاعدة الثانية ان الاشياء التي كانت في وقت ما متصاحبة ويؤثر بعضها في بعض تستمر كذلك بعد ان ينفصل بعضها عن بعض[٣]. فاستناداً الى القاعدة الاولى يمكن للساحر حسب اعتقادهم احداث شيء بتقليد عملية حدوثه، فمثلاً عمل دمية تشبه شخص ما ومن ثم كسر يدها او اتلاف عينها يلحق بالرجل المقصود الاضرار نفسها التي حلت بالشبيه او البديل اي الدمية. واستناداً الى القاعدة الثانية فانه بمقدور الساحر ان يسبب الاذى لشخص معين من خلال تأثيره السحري على جزء انفصل عنه كخصلة من شعره او قلامة من ظفره او ضرس من ضروسه.

وكما اشرنا، فان هناك نوعان من السحر، سحر اسود، او ضار، حرمت القوانين ممارسته وعاقبت بقسوة من يقوم بذلك، وآخر نافع استخدم لمعالجة المرض وطرد الارواح الشريرة والخبيثة وقد اختص بعض الكهنة بهذا النوع من السحر واستخدموا من اجل ذلك التمائم والحرز التي كانت تحتوي على تعاويذ مكتوبة فيها دعوة للالهة لحماية صاحب التميمة او الحرز من الروح الشريرة او الخبيثة كما في التعويذة الاتية:

«تعويذة. انه ذلك الشيطان الذي اقترب من بيتي، يخيفني وانا في فراشي، انه يمزقني ويرسل علي الكابوس في الليل، فعسى ان يسلموه الى الاله حارس بوابة العالم

---

(١) عامر سليمان، القانون في العراق القديم، ص ٢٢٨ (قانون حمورابي م: ٢).

(٢) ص ٢٨٩ (القوانين الاشورية الوسيطة: لوح ١/ ٤٧.

(٣) طه باقر، المقدمة، ط ٢، ١٩٥٥ ص ٢٧٢-٢٧٤.

السفلي بامر من ننورتا امير العالم السفلي وبأمر من مردوخ الذي يقيم في ايساگيلا في بابل ، وعسى ان تعرف الباب والمزلاج انني بحماية هذين السيدين. تعويذة»[1]

وقد خلّف لنا البابليون نصوصاً سحرية كثيرة تضم التعاويذ والرقى المتنوعة وقد رتبوا ذلك بهيئة مجموعات وعنونوها بعناوين خاصة وتتعلق كل مجموعة بعمليات سحرية خاصة لشفاء الامراض وطرد الشياطين وغير ذلك وتعرف المجموعات الرئيسة الثلاث من هذه النصوص بنصوص شُربُ šurpu ومُقلُ muqlu وأُتُكِّ لِمنُتِ utukkilimnuti . وهناك اضافة الى ذلك مجموعات اخرى كثيرة منها خاص ببعض الالام كالصداع والم الاسنان وفك الانسان من شر حسد العين[2] وغيرها كثير.

١٠ – العبادات

اعتقد العراقيون القدماء ان الالهة خلقتهم لعبادتها وخدمتها وتخليصها من عناء العمل لكي تخلد الى الراحة ، كما جاء ذلك في قصة الخليقة البابلية ، لذلك كان على الانسان خدمة الآلهة وتقديم الصلوات والقرابين لها في حين حرص الملوك والحكام ممثلي الآلهة على الارض حسب تلك المعتقدات ، على بناء مساكن الآلهة ، هي المعابد ، وتجهيزها بكل ماتحتاجه لخدمة الآلهة كتقديم الطعام والشراب لها. واذا قصّر الانسان في خدمة الآلهة وطاعتها عاقبته الآلهة عقاباً شديداً في هذه الدنيا حيث لم يكن لديهم اعتقاد بوجود عالم ثانٍ فيه عقاب وثواب.

ومن اجل عبادة الآلهة ، مارس الانسان طرقاً شتى منها الدعاء اليها وانشاد التراتيل الدينية بتمجيد الالهة واداء صلوات معينة وقت شعوره بالحاجة الى مساعدة الآلهة ، كما كان جزءاً من العبادات تقديم القرابين.

ان المعلومات المتوفرة عن الادعية والتراتيل الدينية التي كانت تقرأ لتمجيد الالهة كثيرة حيث امكن العثور على نصوص سومرية وأكدية كثيرة تتضمن الادعية والتراتيل ، الا ان معلوماتنا قليلة عن كيفية اداء الافراد الاعتياديين الصلوات وهل كان هناك صلوات منتظمة وفي اوقات محددة ام انها اقتصرت على الاوقات التي يشعر الفرد فيها انه بحاجة إلى مساعدة الالهة فيقوم بالصلاة في المعبد امام تمثال الاله الحامي واقفاً وقفة المتعبد

---

(١) فاضل عبدالواحد علي ، العرافة والسحر ، ٢٠٣ .

(٢) ساكز ، عظمة بابل ، ص ٣٤٦.

الخاشع ، وقد يقوم الفرد باداء الصلاة بنفسه بدون وساطة الكهنة ، وقد يقوم الكاهن احياناً بدور الوسيط . ويبدو من بعض المشاهد المنحوتة على المسلات والمنحوتات ان المتعبد كان يقوم ببعض الاشارات الرمزية اثناء الصلاة منها رفع اليد الى امام مع الدعاء وقد يركع امام التمثال (١) .

وكان يجري في المعبد احتفالات وصلوات وطقوس معينة في اوقات محددة من الشهر القمري كالايام التي يظهر او يختفي فيها القمر اضافة الى بعض الاحتفالات الخاصة بوضع تمثال الاله او تطهير المعبد او غسله او غير ذلك من المناسبات .

كما كان تقديم القرابين يؤلف جزءاً مهماً من العبادات الضرورية للالهة حيث ان الغاية من القرابين هي تزويد الالهة بالطعام والشراب والزيت للمسح المقدس لذا صور البشر على الاختام الاسطوانية والمنحوتات وهم يقدمون القرابين اللازمة للآلهة كما ورد في النصوص المسمارية تخصيص الطعام والشراب والقرابين اليومية والاسبوعية والشهرية الى المعبد ، وكانت مائدة الطعام تقدم مرتين او اكثر في اليوم حيث توضع امام تماثيل الالهة ، وبالتأكيد فقد كان الكهنة يقومون ، نيابة عن الالهة ، بأكل الطعام . ويذكر احد النصوص من مدينة الوركاء من الازمنة المتأخرة المؤن المعّدة للالهة بانها ضمت اضافة الى مواد اخرى مايقدر بألف رغيف من الخبز يومياً مصنوع من الدقيق الذي كان ثلاثة ارباعه من الشعير والباقي من الحنطة ، وخمسين شاة وثورين وجمل واحد وثمانية خراف وخمسة واربعين اناء من الجعة والنبيذ من مختلف الاصناف . وتشير هذه المؤن الى العدد الكبير من الكهنة الذين كانوا تابعين للمعبد ومعتمدين على مايقدم الى المعبد من جرايات وقرابين وهدايا في تناول وجبات طعامهم . وكان هناك انواع متعددة من القرابين والاضحيات فمنها مايقدم من قبل الملك شخصياً ومنها مايقدمه المتعبدون من الافراد الاعتياديين وفي ايام معينة واوقات معينة وكان لكل منها مراسيمه الخاصة .

١١ – الاحتفالات والاعياد

تشير الادلة الاثارية الى ان الانسان حاول ومنذ اقدم الازمنة استغلال مناسبات معينة من السنة او احداث معينة قد تقع للاحتفال بها والتمتع بقسط من الراحة والترفيه عن النفس من مشاكل وتعب الحياة ، وهو امر طبيعي جداً حيث لايمكن للفرد مهما اوتي من عزم وقوة الاستمرار بالعمل والرغبة فيه طوال الوقت ومن دون ان يتخلل ذلك فترات

---

(١) انظر فاضل عبدالواحد ، الاعياد والاحتفالات ، حضارة العراق ، ج ١ ، ص ٢١٥ .

للراحة والترفيه عن النفس ، وربما كان ذلك السبب الرئيس الذي يكمن وراء الاحتفالات والاعياد الدينية وغيرها .

وتشير النصوص السومرية المكتشفة الى ان سكان بلاد سومر واكد في الالف الثالث قبل الميلاد كانوا يحتفلون بما يسمى بالزواج المقدس سنوياً. وقصة هذا الزواج ان السومريين اعتقدوا بان الهة الخصب والجنس انانا (عشتار) تزوجت من خبيبها الاله تموز، ولكي تتجدد حياة الزوجين سنوياً فقد كانت تعادوقائع ذلك الزواج كل عام ويقوم ممثلو الالهة من البشر، كالملك او الكاهن الاعلى ، بتقمص شخصية الزوج ، وهو الاله تموز بينما تقوم الكاهنة العليا بدور الزوجة وذلك في احتفال كبير ترافقه طقوس ومراسيم معينة. وقد وصلتنا تفاصيل وافية عن هذا الزواج في النصوص السومرية من سلالة اور الثالثة. ويذكر احد النصوص المسمارية ان الزواج المقدس كان يقع في يوم رأس السنة ويوم القمر الجديد. وكان الهدف الاساس من هذا الزواج هو تجديد الحياة في الطبيعة والاستزادة من اسباب الخصوبة والرخاء وزيادة المحاصيل وتكاثر الحيوانات.

وكانت مراسيم الزواج المقدس تختتم باحتفال كبير يشارك فيه عامة الناس وتعزف خلاله الموسيقى وتردد الأغاني وتقدم المأكولات والمشروبات. ويذكر لنا احد النصوص السومرية زواج الملك إدن– دَجان من عروسته التي كانت تقوم بدور الآلهة انانا فيذكر ان الملك كان يجلس على العرش والى جانبه العروس وانه كان يضع ذراعه حول كتفيها «وانها كانت تبدو مثل ضوء النهار وهي تعتلي العرش». ثم وضعت صنوف الطعام والشراب امام العروسين وبدأت مواكب المحتفلين تمر امامها وهم يرددون الأغاني القديمة على انغام الطبل والقيثارة ، «فكان القصر في عيد والملك في سرور والناس في نعيم»[١] .

وفي الفترات المتأخرة ، ولاسيا في الالف الاول قبل الميلاد ، ادمج عيد الزواج المقدس بعيد أكيتُ Akitu الذي كان معروفاً هو الآخر منذ العصور السومرية الا انه اكتسب اهمية خاصة في العصور الآشورية والبابلية المتأخرة وشيدت له معابد خاصة عرفت باسم بيت أكيتِ bit/akiti تم الكشف عن عدد منها في نينوى وبابل وغيرهما. وكان يقع عادة خارج المعبد الرئيس وربما خارج اسوار المدينة ، واصبح العيدين عيداً واحداً يسمى بعيد رأس السنة الجديدة ، يبدأ مع بداية السنة في شهر نيسان ويستمر لمدة احد عشر يوماً . وواضح ان اختيار وقت العيد في مطلع ايام الربيع التي تتجدد فيها الحياة

(١) فاضل عبدالواحد ، الاعياد والاحتفالات حضارة العراق ؛ ج١ ، ص ٢١٥.

وتخضر الارض وتزهو ويطيب الجو اشارة الى اصول العيد البعيدة وعلاقتها بالخصوبة وتجدد الحياة وتكاثر النبات والحيوان اضافة الى ملاءمة الوقت للاحتفال والتمتع بايام الربيع الجميلة ، وقد ظلت هذه العادة ، وهي الاحتفال بمقدم الربيع سنوياً معروفة عبر العصور المتتالية والى الوقت الحاضر وان كانت قد نسبت لاسباب ومناسبات مختلفة وما عيد الشجرة ومهرجانات الربيع الا مثل على ذلك.

ان المعلومات المتوفرة لدينا عن اعياد رأس السنة تردنا من بلاد بابل من عصورها المتأخرة ولنا ان نفترض ان ما كان يجري في بلاد بابل بهذه المناسبة ، كان يجري في بلاد آشور وفي العصور المختلفة خلال الالفين الثاني والاول قبل الميلاد. ومع ذلك ، فان المعلومات المتوفرة عن المراسيم والطقوس والشعائر الدينية التي كانت تجري خلال ايام العيد غير كاملة الا انها تشير الى احتفال كبير كانت تؤخذ فيه تماثيل الآلهة من معابدها الى معبد أكيتُ في موكب مهيب ومن طريق خاص ، ومن هنا جاء اسم شارع الموكب في بلاد بابل حيث كان موكب تماثيل الآلهة يمر هناك عبر بوابة عشتار الى بيت اكيتِ. ويبدو ان الايام الاربعة الاولى من الاحتفال كانت مخصصة لاقامة الصلوات وقراءة التراتيل وانشاد الأناشيد الدينية اضافة الى القيام بتطهير المعبد وتنظيفه وفق طقوس دينية معينة كما كان الكاهن المختص يقوم بترتيل قصة الخليقة باكملها ، وربما كان هناك تمثيل لبعض مقاطعها[1] . اما في اليوم الخامس ، فكان مخصصاً للقيام بطقوس التطهير ايضا وتقديم القرابين النظامية.

وكانت مساهمة الملك الشخصية ركناً اساساً من الاحتفال ، حيث كان يصل الى المعبد في اليوم الخامس بعد اكمال عملية التطهير ويقوم الكهنة بتقديمه الى تمثال الاله ثم يترك لوحده مدة من الزمن. وفي هذه الاثناء يتجمهر الناس في ساحة المعبد المكشوفة بانتظار اكمال الطقوس الخاصة بهذا اليوم. ثم يدخل الكاهن الاعلى وينزع عن الملك شارات ملكه ، وهي[2] التاج والصولجان وعصا الرعي او شريط القياس ، ويضعها امام تمثال الاله مردوخ اعترافاً منه بانه لم يعد ملكاً وان الملكية هي هبة من الآلهة تأخذها متى شاءت. ويبرك عندها الملك امام التمثال ويتلو اعترافاً بالسلب يدعي فيه انه لم يغضب الالهة باية طريقة :

---

(١) انظر ساكز، عظمة بابل، ص ٤٤٠.

(٢) طه باقر، المقدمة، ط ٢، ١٩٥٥، ص ٢٦٢.

لم ادمر بابل ، ولم افرض (اي شيء) لازعجها ،
لم ازعج اسا گلا [مجمع المعبد في بابل] لم اكن ناسياً لطقوسه ،
لم اضرب ذقن الشعب تحت حمايتك ،
لم اتسبب في اهانتهم ،
لقد اهتممت ببابل ، لم ادمر اسوارها »[1]

ثم يصفع الكاهن وجه الملك صفعة قوية ويجر اذنيه ، وكلما كانت الصفعة اقوى والمعاملة اشد الماً كان ذلك افضل لبابل ، واذا نزلت الدموع من عيني الملك فإن ذلك يعد بمثابة اشارة عن رضا الاله . ويمكن ان يفسر ذلك بانه محاولة لتذكير الملك بطبيعته البشرية وبان الالهة هي التي منحته الملوكية لكي لايصيبه الغرور ، فالحصول على رضا الآلهة امر واجب وضروري واستمرار الملك بالحكم مرهون بموافقة الآلهة .

ويبدو ان عامة الناس الذين كانوا يحتشدون في ساحة المعبد بانتظار اكمال المراسيم واعادة شارات الملك الى الملك ، كانوا في حزن عميق على مليكهم الذي جرّد من الملوكية وربما كانوا يصرخون ويبكون ويولولون الى ان تعاد اليه شارات الملك[2] ، فاذا لبس الملك التاج ومسك بالصولجان ، عم الفرح والسرور وابتهج الناس وبدأت الاحتفالات ثانية .

وهناك طقوس ومراسيم اخرى كان يقوم بها الملك خلال اليوم الخامس تتضمن تقديم قربان وتلاوة رقى وتعاويذ معينة . وفي اليوم السادس يصل تمثال الاله نبو الى المعبد . اما ما كان يحدث في الايام الاخرى ، فغير معروفة لدينا تماماً وان كانت هناك بعض الاشارات حولها . ومن المؤكد ان حضور الملك ومساهمته الفعلية في هذا العيد كانت ضرورية الى درجة ان عدم استطاعة الملك نبونائيد آخر الملوك الكلديين ، المساهمة بالاحتفال نتج عنه الغاء الاحتفال لتلك السنة .

اضافة الى هذا العيد ، فقد كانت هناك اعياد واحتفالات يطغى عليها الطابع الديني كاحتفال النصر او الاحتفال باقامة تمثال الاله او انشاء او تدشين مدينة او حفر قناة او الاحتفال بالتتويج وكان دور الكهنة مهماً في جميع الاحتفالات .

---

(١) نفس المصدر، ص٤٤١ .

(٢) طه باقر، المقدمة ، ط ٢ ، ١٩٥٥ ، ص ٢٣١ وملاحظة ٢ .

١٢ - ابرز المعتقدات الدينية

سبقت الاشارة الى ان من اليسر على الباحث في معتقدات العراقيين القدماء ان يتعرف على جوانب معينة من تلك المعتقدات ، كالشعائر والطقوس الدينية وبناء المعابد وطرزها ومراسيم تدشينها وتطهيرها واسماء الآلهة وتماثيلها وصفاتها ومراكز عبادتها والى غير ذلك من الجوانب التي يمكن استنباطها من المخلفات المادية ومن بعض النصوص المسمارية التي خلفها لنا العراقيون القدماء. وتبقى الصعوبة في التعرف على ماكان يجول في اذهان الافراد الاعتياديين من عقائد وما آمنوا به من المعتقدات التي نشرها الكهنة وكتبوا عنها القصص والأساطير والملاحم ووجهوا الناس لاقامة الطقوس والشعائر الدينية ، حيث لاسبيل الى التعرف الى هذه الامور الا اذا توفرت لدينا نصوص كان قد دونها الافراد انفسهم من غير الكهنة وهذا مالم نعثر عليه حتى الآن ، لذا فإن جلّ معلوماتنا عن هذه الجوانب تعكس الصورة التي وضعها الكهنة وصوّروا بها المعتقدات التي ارادوا ان تكون عليه معتقدات الناس وبغض النظر فيما اذا كانوا مؤمنين بها ام لا .

ولعل من ابرز الامور التي شغلت اذهان الناس منذ اقدم العصور هي نهاية الانسان المحتومة بالموت والسبيل الى التخلص من ذلك ، فما لاشك فيه ان العراقيين القدماء آمنوا بحتمية الموت على الانسان وانه مقدر من الآلهة منذ ان خلق الانسان ، كما تؤكد ذلك قصة الخليقة البابلية . وكان الموت في نظرهم من طبيعة الانسان وتركيبه في حين كان الخلود من نصيب الآلهة ، ومع ذلك ، فإن هناك ، كما ظنوا ، بعض الآلهة التي كانت تموت موتاً مؤقتاً ثم تعود وتحيا ، كما كان يحدث ذلك لآله الخصوبة الذي يموت في الخريف ويحيا في الربيع مع عودة الحياة الى الطبيعة بصورة عامة . وقد حاول الانسان جاهداً ان يحصل على الخلود الا ان محاولاته باءت بالفشل ، وخير مثل لتلك المحاولات ماقام به جلجامش لكي يحصل على الخلود ومع ذلك فقد كان مصير محاولاته الفشل ايضاً بل انه لم يتمكن من الحصول في النهاية حتى على نبات ظنوا انه يجدد الحياة .(١)

ومع الاعتقاد بأن الموت أمر حتمي ومن نصيب الانسان ، فإنهم لم يتصوروا بأنه النهاية المطلقة والفناء التام وان بموت الانسان تنتهي الحياة وتنعدم انعداماً كلياً بل كان الموت في تصورهم ، كما تشير بعض النصوص ، انقسام في الكائن الحي وانفصال بين الجسد والروح . فبالموت تنفصل الروح وتنتقل الى طور جديد من الوجود اذ تنحدر بعد وضع الجسد في القبر مباشرة الى عالم الارواح ، ذلك العالم المظلم المخيف لتحيا فيه الى ابد الآبدين دون ان يكون هناك قيامة او بعث ،كما لم يعتقدوا ، كما يبدو ، بأن هناك حساب

وعقاب وثواب او جنة او نار. ومع ذلك ، فإن الصلة بين الروح والجسد تبقى حتى بعد الموت ولاسيما في الفترة الاولى التي تعقب الموت حيث كانت راحة الروح واستقرارها في عالم الارواح تتوقف على مايبذل في دفن الميت وفق الطقوس الدينية وما يقدم من قرابين وما يودع معه من حاجات ومأكولات وما يحتفل به من طقوس في المناسبات الدينية ، كما كان ذلك يعتمد ايضاً على بعض الاعمال الصالحة التي كان الانسان قد قام بها في حياته وعلى ماترك من ذرية ولاسيما من الاولاد الذكور. وهكذا يمكن تفسير طرق الدفن وما كان يدفن مع الميت من تجهيزات كالآثاث والحلي واللوازم الاخرى من مأكل ومشرب وفق هذا الاعتقاد ، الا انهم لم يعتقدوا ، كما اعتقد المصريون القدماء ، بعودة الروح الى الجسد وبوجود حياة ثانية يحتاج فيها الانسان الى ما كان يحتاج اليه في حياته الاولى.[1] اما اذا اهمل الاحياء العناية بدفن الميت وفق الطرق الدينية السائدة او ان الميت لم يدفن اصلاً لأي سبب كان او ان قبره نبش بعد الدفن فان روحه عندئذ لاتستقر في عالم الارواح وتهيم حول مكانه على الارض وقد تخرج بهيئة شبح مخيف يفزع الاحياء ويلحق بهم الضرر والاذى. ولذلك نجد ان من العقوبات الصارمة التي كانت تفرض على المجرمين الذين قاموا بجرائم بشعة هي القتل مع عدم دفن الجثة[2] ، كما ان الملوك كانوا يقومون بنبش قبور اعدائهم امعاناً في تعذيبهم وجعل ارواحهم غير مستقرة.

أما بالنسبة الى العالم السفلي فقد تصوره العراقيون القدماء بأنه عالم مخيف ومظلم ومن يدخله لايمكن الخروج منه الا اذا قدّم البديل ، كما تشير الى ذلك احدى الاساطير السومرية ، وانه يقع تحت سطح الأرض ، لذلك سمي بأرض اللارجعة حيث كانت تحتجز فيه الارواح الى ابد الدهر. وتصوروا ان للعالم السفلي بوابات عدّة تؤدي اليه منها بوابة في مدينة الوركاء واخرى في اقصى الغرب حيث تغيب الشمس وان هناك آلهة مخيفة تحرس بواباته السبع ، كما تصوروا العالم السفلي كمملكة لها نظامها الخاص ولها ملكها وملكتها ، وهما نرجال وايريشكيجال. واعتقدوا ان العالم السفلي لم يكن مقراً لارواح البشر فقط بل فيه الآلهة ايضاً ممن يقيمون فيه بحكم وظائفهم التي تحتم عليهم البقاء هناك او انهم اجبروا على البقاء كما يحدث ذلك للاله الذي يموت في الخريف ويحيا في الربيع.

وكما فكّر العراقيون القدماء بقضية الموت وحتميته وبما بعد الموت ، كذلك فكّروا بقضية الخلق بصورة عامة وخلق الانسان على وجه الخصوص والّفوا في ذلك قصصاً واساطير

---

(١) حول تفاصيل ذلك انظر: طه باقر، المقدمة ، ط ٢ ، ١٩٥٥ ، ٢٣٥ - ٢٣٨.

(٢) انظر: عامر سليمان ، القانون في العراق القديم ، ص ٢٨٩.

كثيرة تتناول بصورة مباشرة او غير مباشرة هذا الموضوع ومن اليسير على الباحث المتفحص ان يجد فيها افكاراً توحي بأنها مستمدة من الافكار والمعتقدات التوحيدية التي دعا اليها

الرسل والأنبياء في فترات مختلفة من التاريخ القديم من عهد نوح ومن جاء بعده الا انها لم تنتشر ويتقبلها الناس ومع ذلك تركت آثارها في معتقدات القوم ولكن بصيغة املتها طبيعة المعتقدات الدينية السائدة واتصافها بالشرك والتشبيه. ولقد وصلتنا العديد من القصص والاساطير الدينية السومرية والأكدية التي تتحدث عن كيفية خلق الكون ومن ثم خلق الانسان، ومع اختلافها في التفاصيل، الا انها تدور حول نقاط رئيسة واحدة.

وبموجب المعتقدات السومرية القديمة، فإن المياه كانت اصل الوجود ومنها ولد الجبل الكوني الذي يمثل السماء والارض، اللتان جسّدتا على هيئة اله وآلهة، وكانتا متحدتين، وكان من نتيجة اتحادهما ان ولد الهواء الذي جسّد هو الآخر بهيئة الاله انليل. وفصل الاله انليل السماء عن الأرض وحصل ابوه آنو على السماء وحمل هو الأرض. وبعد ان تم فصل السماء والأرض خلقت الكواكب والنجوم وظهرت معالم الحياة على الأرض بموجب هذه المعتقدات.

ولا تختلف المعتقدات البابلية كثيراً عن ذلك الا انها تضع الاله مردوخ اله بابل بطل الآلهة بدل الاله انليل حيث قتل الآلهة تيامة، التي تمثل المياه المالحة، وشطر جسدها الى شطرين، حسب قصة الخليقة البابلية، وجعل من اولها السماء ومن الآخر الأرض.

أما بالنسبة الى خلق الانسان، فهناك قصص واساطير سومرية وبابلية ايضاً تتحدث عن ذلك الا انها على وجه العموم تتفق على ان الانسان خلق من طين، او طين مخلوط بدم احد الآلهة، وان الغاية من خلقه ليقوم بخدمة الآلهة وتخليصها من العناء الذي اصابها من جراء العمل في الأرض فأرادت ان تخلق من يحمل عنها مشقات العمل لذلك كان على الانسان ان يفلح ويكدح في الأرض لكي يريح الآلهة ويقدم لها الطعام والشراب كما ان الانسان خلق وقد قدّر عليه الموت في حين احتفظت الآلهة لنفسها بصفة الخلود،[1] وان جميع هذه الآراء تعكس لنا تأثيرات الدعوات التوحيدية التي من المؤكد أنها ظهرت في العراق القديم الا انها ابتعدت عن صيغتها الاصلية وغلّفت بافكار الشرك والتشبيه السائدة.

---

(١) حول تفاصيل ذلك انظر طه باقر، المقدمة، ط٢، ١٩٥٥، ص٢٣٥-٢٣٨

مصادر منتخبة

الاحمد، سامي سعيد، الحضارة العراقية في الأديان والمعتقدات في: العراق في موكب الحضارة، بغداد، ١٩٨٨، ج١، ص١٣٩ - ١٧٨. معتقدات العراقيين القدماء في السحر والعرافه، المؤرخ العربي، ٢، ١٩٧٥ ص٥٧ - ١١١. المعتقدات الدينية في العراق القديم، بغداد، ١٩٨٨. المظاهر الدينية في العراق القديم، المجلة التاريخية، ٥، ١٩٧٥، ١٢٩ - ٢٤٠.

الأمين، محمود، اكيتو او اعياد رأس السنة البابلية، مجلة كلية الآداب، ٥، ١٩٦٢، ١٥ - ٢٧.

باقر، طه، ديانة البابليين والآشوريين، سومر، ٢ (١٩٤٦)، ١ - ١٩، ١٧٩ - ١٩٦. معابد العراق القديم، سومر، ٣ (١٩٤٧)، ١٢ - ٣٧. الخليقة واصل الوجود، ٥ (١٩٤٩)، ١ - ٣٦، ١٧٥ - ٢١٤. عقائد سكان العراق القدماء في العالم الآخر، سومر، ١٠ (١٩٥٤) ٨ - ٣٦. ملحمة جلجامش، بغداد، ١٩٨٠.

بوترو/ جين، الديانة عند البابليين، ترجمة وليد الجادر، بغداد، ١٩٧١.

حنون، نائل، عقائد مابعد الموت، بغداد، ١٩٨٦.

رشيد، فوزي، نشأة الدين والحضارة والعصور الجليدية، سومر، ٣٢ (١٩٧٦)، ١١ - ٤٠. السياسة والدين في العراق القديم، بغداد، ١٩٨٣. الديانة في: حضارة العراق، بغداد، ١٩٨٥، ج١، ١٤٥ - ١٩٦.

سعيد، مؤيد، المدن الدينية والمعابد، في المدينة والحياة المدنية، بغداد، ١٩٨٨، ج١، ١٣٥ - ١٤٤.

علي، فاضل عبدالواحد، الطوفان في المراجع المسمارية، بغداد، ١٩٧٥ طرق العرافة في النصوص المسمارية، مجلة كلية الآداب، ٢٥ (١٩٧٦) العرافة والسحر في حضارة العراق، ج١، ١٩٧ - ٢٠٦. الاعياد والاحتفالات في حضارة العراق، ج١، ٢٠٧ - ٢٣٠. عشتار

ومأساة تموز، الطبعة الثانية ، بغداد ، ١٩٨٦ من الواح سومر
الى التوراة ، بغداد ، ١٩٨٩ المعتقدات الدينية ، في حضارة
الموصل الحضارية ، موصل ١٩٩١ ، ج ١ ، ٣٠٤ - ٣١٨ .
كريمر ، صموئيل ، الاساطير السومرية ، ترجمة يوسف داؤد عبدالقادر ، بغداد ، ١٩٧١ .
مهدي ، علي محمد ، دور المعبد في المجتمع العراقي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، بغداد ، ١٩٧٥ .
النعيمي ، راجحة ، الاعياد في حضارة بلاد وادي الرافدين ، رسالة ماجستير غير منشورة ، بغداد ، ١٩٧٦ .
الهاشمي ، رضا ، النظام الكهنوتي في العراق القديم ، مجلة كلية الآداب ، ١٩٧٣ .

الفصل الخامس

الأوضاع الاجتماعية

نشأة المجتمعات وتطورها

ان الحديث عن الأوضاع الاجتماعية يفترض مسبّقاً وجود مجتمعات على درجة كبيرة من التنظيم. والمعروف ان الانسان عاش القسم الأعظم من حياته التي اعتمدت على الصيد وجمع القوت في جماعات صغيرة في الكهوف والمغارآت المبعثرة في المناطق الجبلية بشكل خاص. ولم يكن نمط الحياة انئذٍ يساعد على نشوء المجتمعات.

وتشير الأدلة المتوفرة الى ان نشوء المجتمعات الاولى يرتبط ارتباطاً وثيقاً باهتداء الانسان للزراعة وممارسته تدجين الحيوان وانتاجه للقوت. فالحياة الجديدة هذه املت على الانسان التجمع بالقرب من الارض الزراعية والى جوار زرائب الحيوانات المدجّنة، فكان ان شيَّد بيوت السكن واقام اولى المستوطنات والقرى الزراعية وذلك في الحقبة الزمنية التي اصطلح على تسميتها بالعصر الحجري الحديث والتي تمتد من الألف الثامن وحتى اواسط الألف السادس قبل الميلاد. ويتفق الباحثون على ان منطقة الشرق الأدنى القديم التي يؤلف العراق جزءاً مهماً منها، شهدت بدايات الزراعة وتدجين الحيوان في العالم وبدايات الاستقرار ونشوء المستوطنات والقرى الزراعية. وقد تم الكشف في القسم الشمالي من العراق عن عدد من تلك القرى منها قرية جرمو قرب كركوك وقرية حسونة قرب الموصل وقرى نينوى ويارم– تبة وام الدبّاغية ومطّارة وشمشارة وغيرها. وقد شهدت هذه القرى اولى المجتمعات البشرية التي عاشت حياة بدائية بسيطة تمثل المرحلة الاولى من حياة الاستقرار.[1]

---

(١) انظر تفصيل ذلك: تقي الدبّاغ، من القرية الى المدينة، في: المدينة والحياة المدنية، بغداد، ١٩٨٨، ج ١، ص١٥– ٣٩ كذلك: وليد الجادر، التجمعات الزراعية الاولى، المدينة والحياة المدنية، بغداد، ١٩٨٨، ج ١، ص٥٩– ١١١.

ومع بداية العصر الحجري المعدني في اواسط الألف السادس قبل الميلاد، بدأ الانتقال التدريجي والبطيء من حياة القرى الزراعية البسيطة باتجاه حياة المدن التي ازدهرت في العصور التالية. فقد اتسعت القرى من حيث المساحة وزاد عدد سكانها وتنوعت نشاطات الانسان فيها بعد ان ظهر التخصص في العمل، وتتابعت الاختراعات والابتكارات على بساطتها، الا انها كانت مهمة وفعّالة في تغيير انماط الحياة، فاخترع المحراث واستخدمت العجلة وصنع الفخار والخزف والزورق الشراعي، واستخدمت المعادن في صناعة الآلات والأدوات والحلي. وفي القسم الثاني من العصر الحجري المعدني (خلال الألف الخامس قبل الميلاد) بدأ الاستيطان في القسم الجنوبي من العراق إذ لم يكن قبل هذا التاريخ صالحاً للاستيطان، وظهرت القرى الزراعية التي اتسعت ونمت بسرعة واستخدمت وسائل الري الاصطناعية. ويبدو ان الظروف الطبيعية في هذا الجزء من العراق كانت اكثر تحفيزاً من الاقسام الاخرى لنمو القرى الزراعية السريع واتساعها ولحدوث الانقلاب الحضري والانتقال الى حياة المدينة، كما تقدمت الاشارة الى ذلك، فكان ان نشأت المدن الاولى وتبلورت حياة المجتمع فيها.

وتعد مدينة الوركاء، التي ضمت طبقتها الرابعة اقدم الالواح الطينية التي تحمل علامات كتابية، والمدن المعاصرة لها في القسم الجنوبي من العراق، من اولى المدن المعروفة في العالم. وتشير الآثار المكتشفة فيها الى انها اصبحت مدناً واسعة ضمت ابنية عامة ضخمة، هي المعابد التي شيّدت على مصاطب اصطناعية، وزقورات عالية، وكانت بعض المدن مسوّرة بسور طويل يحميها من هجوم الاعداء، كما كان تخطيط المدينة على درجة من التنظيم. وتشير الآثار المكتشفة ايضاً الى ان مجتمع المدن الاولى كان قد قطع مرحلة نحو التنظيم والنضوج ولم يعد مجتمعاً زراعياً بسيطاً بل ضمت المدينة فئات متنوعة من الناس اختصت كل منها بجانب من جوانب الحياة المدنية الجديدة، فكان هناك الى جانب الحاكم، الكهنة والمقاتلون والتجار واصحاب الحرف المختلفة والفلاّحون وغيرهم، ومن البديهي ان يكون هناك عادات وتقاليد واعراف تنظم حياة المجتمع وتضبط تصرفات افراده تجاه بعضهم البعض وتجاه السلطة الحاكمة، وكان للدين اثره الكبير في تحديد تلك العادات والتقاليد. وكما هو معروف فإن العادات والتقاليد تمثل مختلف اوجه السلوك الانساني تجاه الغير التي ثبت صلاحها وفائدتها بالنسبة للمجتمع بصورة عامة واصبح الخروج عنها خروجاً عن المألوف وقد يعرّض الفرد الى الانتقاد والاستهجان من قبل بقية افراد المجتمع، وربما تعرض الفرد الى بعض العقوبات التي يفرضها المجتمع بوسائله الخاصة، كالنبذ والعزل وغيرها.

ومنذ بداية عصر فجر السلالات (حدود ٢٩٠٠- ٢٤٠٠ ق.م)، نمت المدن واتسعت مساحتها وزاد عدد سكانها واصبح بعضها يمثل عواصم لدول قامت في المنطقة عرفت بدول المدن السومرية. وكان طبيعياً ان يرافق ذلك تبلور ونضوج نظم الحياة الاجتماعية وانماطها. وكان تطور الحياة وتعقدها، وتضارب مصالح الطبقات والفئات الاجتماعية قد استوجب وضع القوانين الملزمة لتنظيم السلوك الاجتماعي وحماية حقوق الافراد ومنع وقوع الاعتداء على الغير حيث لم تعد العادات والتقاليد كافية لتنظيم مجتمع المدينة المعقد. وهكذا حلّ القانون الصادر عن السلطة الحاكمة محل العادات والتقاليد في اغلب الاحيان واصبح الخروج عن القانون يعرّض الفرد لمحاسبة الدولة وانزال العقوبة الرادعة. ومع اننا لم نعثر حتى الآن على القوانين التي من المؤكد انها كانت تنظم العلاقات الاجتماعية في عصر دول المدن السومرية، الا اننا نمتلك نموذجاً للاصلاحات الاجتماعية التي كان قد اصدرها احد حكام تلك الدول، وهو اوروانيمجينا (اوروكاجينا) من القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد.

وفي العصور التالية، من عصر سلالة اور الثالثة (٢١١٣- ٢٠٠٦ ق.م) فصاعداً، تتابع اصدار القوانين المنظمة لحياة المجتمع، فكان قانون اور- نمّو وقانون لبّت- عشتار وقانون اشنونا وقانون حمورابي وغيرها مما لم يصلنا بعد، وتشير جميع هذه القوانين الى ان المجتمع العراقي القديم كان قد وصل الى درجة متقدمة من التنظيم تحدّده القوانين، الى جانب التقاليد والاعراف، وتراقب تصرفات افراده اجهزة الدولة المختلفة التي يقف على رأسها حاكم دنيوي يمتلك الصلاحية والقوة اللازمة لضبط تصرفات الافراد ومحاسبتهم متى خرجوا عن القانون.

ومن الطبيعي ان اقواماً كثيرة دخلت العراق واستقرت فيه واندمجت مع سكانه، كما تعرّض العراق عبر العصور الى غزو اقوام كثيرة اخرى ولابد وان ترسّب بعضها واندمج مع السكان المحليين، وكان لكل من تلك الاقوام عاداته وتقاليده الخاصة. ومع ذلك، فقد كان العراق اشبه بالبوتقة الكبيرة التي استوعبت جميع العادات والتقاليد والعناصر الحضارية المختلفة الاخرى وصهرتها وطبعتها بطابع خاص مميز، فكان هناك انصهار ثقافي رائع الى درجة لم يعد بالامكان التمييز بين العناصر الحضارية المختلفة التي نجدها في حضارة العراق القديمة ومعرفة اصولها الاولى. اضافة الى ذلك، فعلى الرغم من ان العراق تعرّض عبر العصور التاريخية الطويلة الى غزو الاقوام الأجنبية التي جاء معظمها من الشرق، كالاقوام الكوتية والكشية والعيلامية والاخمينية الفارسية والفرثية والساسانية، وتسلّط

تلك الاقوام لأزمنة طويلة على الحكم في العراق ، الا انها لم تتمكن من التأثير على نمط الحياة الاجتماعية فيه تأثيراً كبيراً. فالحياة الاجتماعية بعاداتها وتقاليدها وقوانينها ، من اكثر المظاهر الحضارية التصاقاً بالمجتمع الذي وضعها واكثرها محافظة على سماتها الخاصة دون ان تتأثر بالمؤثرات الخارجية على الرغم مما قد يحدث من تغييرات سياسية وتأثيرات اجنبية ، لذلك ظلت الحياة الاجتماعية العراقية القديمة تحتفظ بسماتها العراقية العامة لآلاف من السنين بل ان بعض تلك السمات ظل يميز العادات والتقاليد العراقية السائدة حتى يومنا هذا ، كما تشير الى ذلك اية مقارنة بسيطة بين ما كان سائداً من عادات وتقاليد ومراسيم اجتماعية ، مع ماهو سائد في العراق حالياً ولاسيما في الأوساط الشعبية.

ومع ذلك ، ونظراً لطول الحقبة الزمنية التي ستحدث عنها ، وتباين طبيعة المناطق والاقاليم ، وتعدد الدول والممالك والتقلبات السياسية والعرقية الكثيرة التي شهدها العراق ، فقد كان لكل عصر من العصور ولكل منطقة من المناطق خصوصيتها وسماتها المميزة ولكن ضمن الاطار العام والخطوط الرئيسة التي طبعت الحضارة العراقية القديمة بصورة عامة.

ان الحديث عن الحياة الاجتماعية في اي عصر من العصور هو ، في الواقع ، من امتع الاحاديث واكثرها واقعية والتصاقاً بالنفس لأنه حديث يعنى بحياة الافراد والجماعات على اختلافهم ويتصل بعلاقاتهم الشخصية واحوالهم الخاصة. ولرسم صورة تقريبية عن الحياة الاجتماعية في العراق القديم ، لابد من الاعتماد على ماتعكسه النصوص المسمارية الكثيرة ، وفي مقدمتها القوانين المدونة ، من عادات وتقاليد وقوانين ، اضافة الى مايمكن استنباطه من الآثار المادية التي خلّفها لنا العراقيون القدماء ، كأبنية البيوت واثاثها والآلات والأدوات التي استخدمها الانسان وما نحته من مشاهد على المسلات والمنحوتات الجدارية وغيرها. ومع كثرة المصادر وغزارة ماتقدمه من معلومات عن الحياة الاجتماعية في العراق القديم ، الا انها غير موزعة بشكل متوازن على جميع العصور والمناطق ، كما نتمنى ان تكون ، فقد تتوافر معلومات جيدة عن عصر من العصور ، كالعصر البابلي القديم مثلاً ، وقد تقلّ او تنعدم المعلومات بالنسبة لعصر آخر اما لأسباب عفوية ناتجة عن عدم اكتشاف مدينة من المدن او ناتجة عن ندرة فعلية في المصادر بسبب تعرض هذه المدينة او تلك للغزو الأجنبي او الى التدمير والتخريب وحرق ما كان فيها من بقايا. وحيث ان جل مالدينا من معلومات تفصيلية عن الحياة الاجتماعية يرقى بتاريخه الى العصر البابلي القديم (حدود ٢٠٠٠ - ١٦٠٠ ق.م) لذا فإن الحديث سيركز على هذا العصر بالذات ويؤخذ على انه نموذج للعصور الاخرى مع التأكيد على ان لكل عصر خصوصيته وقد تختلف سمات المجتمع فيه كثيراً او قليلاً عن سمات المجتمع في العصر البابلي القديم.

التركيب السكاني

كان السومريون يؤلفون العنصر الرئيس والغالب في بلاد سومر واكد (بلاد بابل) خلال عصر فجر السلالات. ومنذ بداية العصر الأكدي في حدود ٢٣٧١ ق.م. تبرز الاقوام الجزرية القادمة اصلاً من شبه الجزيرة العربية على مسرح الاحداث السياسية، وربما كان هناك هجرة جزرية اخرى تسبق هجرة الاكديين لايعرف عنها معلومات تفصيلية، حيث تشير جميع الادلّة المتوافرة الى وجود الاقوام الجزرية في هذا الجزء من العراق منذ عصور قبل التاريخ كما سبق وتحدثنا عن ذلك في فصل سابق. وتتابعت هجرة الاقوام الجزرية الى وادي الرافدين وسميت الموجة الثانية الكبرى بالموجة الآمورية، ويشير الاسم الى الطريق الذي جاءت منه تلك الهجرة، وهو الغرب. وبعد ان استقر الآموريون في وادي الرافدين اقاموا لهم ممالك عدة في كل من ايسن ولارسا واشنونا وماري وآشور وبابل وغيرها. وينتمي كل من البابليين والآشوريين الى الاقوام الآمورية. كما كانت القبائل الكلدية التي اقامت احداها الدولة البابلية الحديثة هي الاخرى من الاقوام الجزرية وكانت ذات علاقة وثقى بالقبائل والأقوام الآرامية التي انتشرت على طول الحدود الغربية لبلاد آشور في الألف الأول قبل الميلاد. وتمثل القبائل العربية التي انتشرت في انحاء العراق منذ وقت مبكر وزاد عددها وانتشارها من بعد ظهور الاسلام وانتشاره في ربوع العراق، اكبر مجموعة من الاقوام الجزرية استقرت في العراق. وهكذا يتبين بأن الاقوام الجزرية غدت تؤلف الغالبية العظمى من سكان العراق خلال العصور المختلفة، باستثناء العصور السومرية المبكرة، ويليها في الأهمية الاقوام السومرية. أما الأقوام الأجنبية التي غزت العراق وترسَّب بعضها في مناطق معينة او انها تغلغلت في بعض مناطقه واندمجت مع السكان المحليين، كالأقوام الحورية والكشية والفارسية وغيرها، فإن تأثيرها كان محدوداً وتأثرها بحضارة السكان الاصليين كان كبيراً الى درجة يصعب احياناً تلمس تأثيراتها الحضارية المحدودة.

ومن الملاحظ عند دراسة المجتمع العراقي القديم انه لم تكن هناك صراعات عرقية بين السومريين والأكديين مثلاً او بين البابليين والآشوريين او غيرهم من الاقوام الا انه كان هناك صراع وتنافس سياسي واقتصادي واقليمي. ويبدو انه كان من عوامل وحدة المجتمع العراقي القديم البارزة هو سيادة اللغة الأكدية بلهجاتها المختلفة في ارجاء بلاد بابل وآشور، وشيوع عبادة وتقديس الآلهة نفسها التي عبدها السومريون والأكديون مع تحويرات بسيطة في الصفات والمراكز المنسوبة للآلهة وتكامل المنطقة الاقتصادي وحاجة كل منطقة الى المناطق الاخرى بما فيها من موارد طبيعية.

الطبقات الاجتماعية

اشارت القوانين العراقية القديمة ، ومنها قانون حمورابي ، وبعض النصوص المسمارية الاخرى عرضاً الى الطبقات الاجتماعية التي كان يتألف منها المجتمع العراقي القديم ، والى الفئات الاجتماعية الكثيرة التي كانت تؤلف تلك الطبقات الاجتماعية. وقد اعترفت القوانين بطبقتين رئيستين فقط وميزت في المعاملة بين افرادهما ، وهما طبقة الاحرار وطبقة العبيد ، وضمت طبقة الاحرار جميع الفئات الاجتماعية من السكان في المدينة والقرية والريف من غير المملوكين ، اي من غير العبيد. وكان التمييز بين الاحرار معروفاً في جميع المجتمعات. ويرى كثير من الباحثين المحدثين ان المجتمع العراقي القديم ضم ثلاث طبقات اجتماعية ، فضم اضافة الى طبقتي الاحرار والعبيد طبقة ثالثة وسطى كان افرادها من غير العبيد ، اي من الاحرار، الا ان حريتهم كانت مقيدة في حين لم يكن للعبيد اية حرية. وقد اعتمد اصحاب هذا الرأي على ماورد في قانون اشنونا وقانون حمورابي من اشارات ومصطلحات تشير الى الفئات الاجتماعية المختلفة. فقد ورد مصطلح «أويلُم» awīlim بمعنى «رجل» ، ومار أويلُم mar awīlim بمعنى «ابن رجل» وكأنهما يشيران الى افراد طبقة الاحرار العليا كما ورد مصطلح مُشكينم muskēnum للاشارة ، حسب هذا الرأي ، الى الفرد من الطبقة الوسطى مقيدة الحرية ، الا ان تحليل المواد القانونية القليلة التي ورد فيها ذكر المشكينُم[1] ومقارنتها مع بقية المواد القانونية يؤكد بأن المقصود من كلا المصطلحين هو الاشارة الى طبقة الاحرار غير ان القوانين ميزت بين فئتين من الاحرار نسبة الى امكاناتهم الاقتصادية ، فقصدت من المصطلح الاول ، أويلُم ، عامة الناس الاحرار من المتمكنين اقتصادياً ، ولهذا عالجت معظم مواد قانون حمورابي القضايا الخاصة بالاويلم وبدأت معظم المواد بعبارة شُمَّ أويلُم بمعنى «اذا رجل» ثم يتبع ذلك ذكر الحالة المفترضة وحكم القانون فيها نحو:

---

(١) ورد مصطلح مشكينم في خمس مواد من قانون اشنونا فقط من مجموع ستين مادة وهي المواد ١٢ – ١٣ ، الخاصتان بالقبض على السارق في بيت اوحقل مشكينم والمادة ٢٤ الخاصة باحتجاز زوجة اوابن مشكينم بدون وجه حق والمادة ٣٤ الخاصة باعطاء امة القصر ابنها او ابنتها الى مشكينم والمادة ٥٠ الخاصة بالقبض على عبد او امة مشكينم. اما قانون حمورابي المؤلف من ٢٨٢ مادة فقد ذكر المشكينم في مجموعتين رئيستين فذكر في المجموعة الاولى الى جانب القصر وضمت هذه المجموعة المواد ٨ و١٥ – ١٦ و١٧٥ – ١٧٦. اما المجموعة الثانية فقد ذكر المشكينم باعتباره من فئة تختلف عن فئة الاويلم وقد حددت المواد صداق زوجة المشكينم المطلقة بثلث صداق زوجة الاويلم وتضمنت المواد ١٩٨ و٢٠١ و٢٠٤ و٢٠٨ و٢١١ و٢١٢ حالات الاعتداء على مشكينم والتعويض عنها مادياً كما ورد ذكر المشكينم في تحديد اجور الطبيب الذي يعالجه. وكل هذه المواد ذات علاقة بالناحية الاقتصادية وقد حددت عقوبة او اجور تتناسب وحالة المشكينم الاقتصادية.

المادة : ١٢٩ : «اذا اتخذ اويلُم زوجة له ولم يدون عقدها ، فإن هذه المرأة ليست زوجة» .

المادة : ٥٩ : «اذا قطع اويلم شجرة من بستان اويلم من دون موافقة صاحب البستان ، فعليه ان يدفع نصف منا فضة» .

أما المصطلح الثاني ، اي مشكينُم ، فقد استخدم بشكل خاص وفي عدد محدود من المواد القانونية فقط للاشارة الى الفرد من طبقة الاحرار من غير المتمكنين اقتصادياً ، اي من فئة الفقراء والمساكين ، لذلك لم تذكر القوانين هذا المصطلح الا حينما تكون هناك معالجة لناحية اقتصادية او مادية معينة . وتظهر دراسة قانون حمورابي الى ان حمورابي وغيره من المشرعين كانوا يحاولون دائماً اخذ الوضع الاقتصادي للفرد بنظر الاعتبار عند فرض العقوبة المادية او تحديد الحكم تماماً كما تفعل القوانين الحديثة ، لذلك كانت العقوبات المفروضة على المشكينُم اقل من تلك المفروضة على الاويلُم ، اي الفرد من الاغنياء ، وكذلك كانت اجور الطبيب ومهر الزوجة المطلقة والى غير ذلك .[١]

واذا تركنا الطبقات الاجتماعية ونظرة القانون الى افرادها جانباً ، وجدنا المجتمع العراقي القديم ، وفي جميع عصوره التاريخية ، مؤلف من فئات وشرائح اجتماعية متعددة منها الحاكمة والمتنفذة ، ومنها المحكومة التي لم يكن لها الا تنفيذ ماتقرره الفئات الحاكمة ، اضافة الى ذلك ، كانت هناك طبقة العبيد .

ويأتي الملك او الاسرة المالكة ، في قمة الهرم الذي يمثل المجتمع العراقي ، وكان يحتل مركزاً مقدساً في نظر العراقيين القدماء وان لم يرق ذلك المركز الى مرتبة التألية الا استثناء . وكان ينظر الى الملك ، كما سبق وان اشرنا الى ذلك ، على انه ممثل الآلهة على الأرض ونائبها فيها ، وقد تجاوز بعض الملوك هذا وادعوا بأنهم على صلة قربى بالآلهة عن طريق التبني ليزيدوا من احترام الرعية لهم وخوفهم منهم ، والى جانب الملك تقف الاسرة المالكة التي ضمت زوجات الملك واولاده . وقد احتل افرادها مراكز مرموقة وقد يعين بعض الامراء نواباً للملك او حكاماً لبعض الاقاليم او قادة للجيش ، ولاسيما ولي العهد ، في حين عيّنت بنات الملوك وزوجاتهم احياناً كاهنات في المعابد الرئيسة ، وبرزت بعض الملكات على مسرح الاحداث السياسية .

---

(١) انظر مناقشة هذا الرأي بالتفصيل : عامر سليمان ، القانون في العراق القديم ، ص٤١ - ٨٣ . وبالنسبة للمجتمع في العصر الآشوري انظر: فاروق الراوي ، الاوضاع الاجتماعية ، موسوعة الموصل الحضارية ، موصل ، ١٩٩١ ، ج١ ، ص٢٦٥ .

ومن الطبيعي كانت حياة الاسرة المالكة تختلف تمام الاختلاف عن حياة عامة الناس ، فقد عاشت الاسرة المالكة في قصور فارهة مزودة بجميع وسائل الراحة المتيسرة انذاك ، وكان يقوم على خدمتها اعداد كبيرة من الخدم والحاشية والعبيد من الذكور والاناث الا ان معلوماتنا عن تفاصيل الحياة داخل القصور الملكية قليلة نسبياً ومستمدة بالدرجة الاولى من المخلفات المادية التي وجدت في القصور من آثاث وحلي وغيرها كما ان هناك بعض المنحوتات ، ولاسيما من العصر الآشوري الحديث ، التي صوّرت لنا جانباً من حياة الملك الخاصة في قصره كجلوس آشور بانيبال مثلاً مع زوجته الملكة على كراسي حول منضدة في وسط حديقة القصر وهما يحتسيان الخمر احتفالاً بالنصر على مملكة عيلام.

ويلي الاسرة المالكة ، فئات عدة من المجتمع تؤلف بمجموعها الطبقة المتنفذة ، فإلى جانب الامراء والنبلاء واصحاب الاقطاعات الكبيرة ، هناك قادة الجيش وضباطه وكهنة المعابد وكبار موظفي الدولة من حكام المناطق والأقاليم . كما كان هناك فئات ذات مركز مرموق في المجتمع كالاطباء والقضاة والكتبة والمفتشين والمراقبين والتجار وكبار المهنيين او الحرفيين واصحاب رؤوس الاموال وجميع المتنفذين سياسياً او اقتصادياً او دينياً . وطبيعي كانت حياة هذه الفئات المتنفذة مرفّهة نسبياً فقد وفّرت لها مراكزها الاجتماعية او امكاناتها المادية العيش في بيوت فخمة مؤثثة بآثاث مريح ومزودة بوسائل الراحة ، وكان يقوم على خدمة هذه الفئات عدد من الخدم والعبيد من الجنسين.

اما بقية السكان ، وهم عامة الناس باستثناء العبيد ، فكانوا يتألفون من صغار التجار والكسبة والباعة والاجراء واصحاب الحرف والصناعات اليدوية والعاملين في الحقول والبساتين والمزارع وجميع ذوي الدخول المحدودة . وكانت هذه الفئات تعيش حياة بسيطة في بيوت صغيرة ، او مايشبه الصرائف ، وتعتمد اساساً على جهدها اليومي لتوفير معيشتها ، وغالباً ما كانت تحت طائلة الديون ، لاسيما في اوقات الأزمات الاقتصادية التي تمر بالبلاد نتيجة الجفاف او غيره مما كان يدفع بالملوك والحكام الى اصدار المراسيم لتخفيض نسب الفوائد والغاء بعض الديون والضرائب التي كانت ترهق الطبقة الفقيرة من عامة الناس.

وكان الرقيق يؤلفون الفئة الدنيا من فئات المجتمع وكانت هذه الفئة اقل الفئات حظّاً في الحياة من جميع الأوجه الاجتماعية والاقتصادية . ولم يكن الرقيق يؤلفون نسبة كبيرة من سكان المدينة في الأزمنة الاولى من تاريخ العراق القديم ثم زاد عددهم تدريجياً بازدياد الحروب والمعارك العسكرية ومن ثم زاد اعداد الاسرى الذين آلوا الى العبودية وكان عدد الاناث من الرقيق في العصور المبكّرة اكثر من عدد الذكور نظراً للرغبة في الحصول على

الاماء لقائدتهم المزدوجة كعاملات وخادمات وكمحظّيات او سرايا . وكان يؤتى بالاماء من الاقاليم المجاورة ، ولاسيما المنطقة الجبلية ، كما تشير الى ذلك العلامة الصورية المستخدمة للدلالة على كلمة امة او عبد والمؤلفة من علامتين على شكل صورتين تعنى الاولى ذكر او انثى وتعني الثانية جبل ، وذلك عن طريق التجارة . ثم كانت الحروب بعد ذلك سبباً في زيادة عدد الذكور من الرقيق . ولم يقتصر مصدر الرقيق على اسرى الحرب والمتاجرة بل كان حال بعض الافراد الاحرار يؤول الى العبودية اما نتيجة وقوعهم تحت طائلة الديون او ارتكابهم لبعض الجرائم التي نص عليها القانون وحدد عقوبتها بالعبودية . كما كان الاطفال غير الشرعيين يؤولون الى العبودية عادة اذا ماتركوا في الشوارع او على ابواب المعابد والبيوت . اضافة الى ذلك ، فقد كان تزاوج العبيد فيما بينهم وتكاثر عددهم يؤدي الى زيادة العدد باستمرار.

وكان الرقيق يعد من ممتلكات سيده الخاصة ، له الحق بالتصرف به كيفما شاء ، ولم يكن العبد ينتسب الى ابويه الحقيقيين بل كانت نسبته عادة الى صاحبه وربما كان يعلم بعلامة خاصة بالعبودية على يده او جبينه او باسلوب قص شعره ، كما اشار الى ذلك قانون حمورابي بشكل غير مباشر. وكان من الممكن بيع الرقيق بموجب عقد مدون :

> «اذا اشترى رجل عبداً او امة واصابه مرض قبل اتمام شهره ، فعليه ان يعيده الى بائعه . والمشتري يسترجع النقود التي دفعها . » (المادة ٢٧٨).

ولم تعترف القوانين بكامل اهلية الرقيق بل عدّته قاصراً ومنعت التعامل التجاري معه في المادة ٧ من قانون حمورابي حيث نصت على انه :

> «اذا اشترى رجل او استلم على سبيل الامانة اما فضة او ذهباً او عبداً او امة او ثوراً او حماراً او شاةً او اي شيء من يد ابن رجل او عبد رجل بدون شهود وعقود ، فان ذلك الرجل سارق ويجب ان يعدم»

ومع ذلك ، لم يكن الأرقاء يختلفون عن اسيادهم من حيث اللون او الجنس او الدين او الزي الا اذا كان يحمل علامة خاصة . وعلى الرغم من وضع الرقيق السيء ، فقد كانت له بعض الحقوق التي اقرّتها القوانين ، فكان له حق الزواج الشرعي وتكوين عائلة وامتلاك الاثاث والتمتع بها في حياته كما كان من الجائز للعبد ان يتزوج من أمرأة حرّة

وبالعكس كان من الجائز للامة ان يتزوجها رجل حر. في الحالة الاولى كان الاولاد الناتجين عن الزواج يعّدون احراراً :

«اذا تزوج عبد القصر او عبد مشكينم ابنة رجل وانجبت اطفالاً ، فلا يحق لصاحب العبد ان يدعي بعبودية ابناء ابنة الرجل» (قانون حمورابي ، المادة ١٧٥).

اما في الحالة الثانية ، اي اذا انجبت امة الرجل اولاداً من سيّدها ، فانْ اعترف صاحب الأمة ببنوة الاولاد ، عندها يصبحون اولاداً شرعيين لايختلفون عن اولاده الاخرين ، وبعد وفاة الاب تمنح الحرية للام كذلك.[1]

وعاقبت القوانين كل من يعتدي على الرقيق. ويبدو ان مركز الرقيق كان في تحسن مستمر حيث اصبح لهم في العهود الاشورية والبابلية الحديثة مركزاً يفوق احياناً مركز بعض الاحرار، فكان بامكان بعضهم ان يتقلد الوظائف الحكومية او يمتلك الاموال الخاصة وان يتفق مع مالكه على افتداء نفسه وشراء حريته باموال يجنيها هو نفسه من خلال عمله في احدى الحرف ، كما كان له ان يسكن في بيت خاص به بل ان بعض النصوص تشير الى ان بعض العبيد كانوا يمتلكون رقيقاً يقومون على خدمتهم وراحتهم مما لانجد له مثيلاً في اي مجتمع قديم آخر حتى تلك المجتمعات التي عاشت بعد المجتمع العراقي القديم بقرون عديدة كالمجتمع اليوناني والمجتمع الروماني. ومع ذلك ، كان هروب الرقيق من الحالات المعروفة الى درجة نص قانون حمورابي على معاقبة كل من يحاول ايواء رقيق هارب بعقوبة قاسية ، كما عاقبت القوانين نفسها الحلاّق الذي يحاول ازالة علامة العبودية بعقوبة قاسية ايضاً :

«اذا غيّر حلاّق علامة عبد بحيث يصعب تمييزه بلا معرفة (صاحبه) فعليهم ان يقطعوا يدي الحلاّق» (المادة ٢٢٦).

تنظيم الاسرة

الأسرة هي اللبنة الاساسية في بناء المجتمع ، لذا فان متانتها تعني متانة بناء المجتمع المؤلف من مجموع الأسر. وقد أولت القوانين العراقية القديمة اهتماماً خاصاً لبناء الاسرة وضبط احكامها وتنظيم علاقات افرادها بعضهم بالبعض الآخر، وتدل النصوص

(١) المادة ١٧٠ و ١٧١ من قانون حمورابي.

المسمارية المكتشفة ذات العلاقة بالاحوال الشخصية ، ولاسيما العقود ، على مدى اهتمام العراقيين القدماء بتنظيم الاسرة وفق الاعراف والتقاليد والقوانين السائدة. ان المعلومات المتوفرة لدينا عن تنظيم الاسرة في العصر البابلي القديم كثيرة وتفصيلية نظراً لان القوانين قد خصصت نسبة كبيرة من موادها لذلك ، كما ان القوانين لم تعترف باي عقد ذي علاقة بالاحوال الشخصية ، كالزواج والطلاق والتبني او تقسيم التركة ، الا اذا كان محرراً وكان من نتائج ذلك ان تم العثور على مئات من العقود المبرمة بين الأطراف المعنية لاسيما وان طبيعة العقود ذات العلاقة بالاحوال الشخصية هي ديمومتها واستمرار العمل بها لمدد طويلة. وفيما يأتي نبذة موجزة عن اهم العلاقات الأجتماعية التي تنظم حياة الاسرة العراقية القديمة في العصر البابلي القديم :

الخطوبة

يعد اختيار الزوجة المقبلة واعلان الخطوبة الخطوة الاولى التي تتم نحو اكمال مراسيم الزواج. وكما هي الحالة في الوقت الحاضر فليس هناك نصوص قانونية تحدد اسلوب اختيار الرجل لزوجته المقبلة اوطريقة الخطبة بل كان ذلك يتم وفق العادات والتقاليد السائدة في المجتمع. ويبدو ان اختيار الرجل لزوجته المقبلة كان يتم غالباً من خلال الوسطاء وبتدخل والديه وقلما يحدث ان تختار الفتاة زوجها المقبل ، كما لايوجد لدينا ما يشير الى ان الخطوبة قد تمت بين الفتىٰ والفتاة بصورة مباشرة دون تدخل ذويها بل على العكس من ذلك نصت القوانين على عدم شرعية الزواج ان لم يكن مقترناً بموافقة والدي الفتاة حتى وان عاشت المرأة سنة كاملة في بيت الرجل زوجة له ، ويشير ذلك الى الدور الرئيس الذي كان يلعبه الأبوين في الزواج ولاسيما بالنسبة لإختيار الفتاة. وقد يفسّر ذلك بان التقاليد التي كانت سائدة كانت تقضي بالزواج المبكر حيث لم يكن سن الفتاة ، او الفتى ، كافياً لحسن الاختيار. وربما لعبت السمسارات (الخطابات) دوراً في التوفيق بين الفتىٰ والفتاة ، كما هي الحال أحياناً الى الوقت الحاضر. ومع ذلك ، لابد وان كانت بعض الاتفاقات الثنائية بين الفتىٰ والفتاة تتم من دون علم ذويها ومن ثم كان يتدخل الابوين وغالباً ما كان ذلك يحدث بين الاقرباء.

وبعد ان يتم اختيار العروس ، تقام الاحتفالات العائلية للاعلان عن ذلك وتقدم الهدايا المناسبة الى ذوي العروس ، وقد تتضمن بعض المراسيم صب الزيت والعطور على رأس الفتاة اشارة رمزية عن اكتمال مراسيم الخطوبة والاعلان عنها. وقد تطول فترة الخطوبة او تقصر تبعاً لظروف الخطيبين المادية والاجتماعية ، ولم يكن هناك سن محددة

للزواج ، وربما كان البلوغ هو المعوّل عليه في ذلك. وقد تفسخ الخطوبة بعد اعلانها لسبب او آخر، وقد نصت القوانين على تحمل الطرف المسؤول عن فسخ الخطوبة التبعات المالية الناتجة عن ذلك :

«اذا جلب رجل هدية الخطوبة الى بيت عمه واعطى المهر، ونظر (بعدئذ) الى امرأة ثانية وقال لعمه : «لن أتزوج ابنتك» فلوالد الفتاة ان يأخذ كل شيء قد جلبه اليه» (قانون حمورابي ، المادة ١٥٩).

اما اذا كان سبب فسخ الخطوبة هو ابو الخطيبة ، عندها عليه ان يعوّض الخطيب ضعف ما كان قد جلبه من هدايا :

«اذا جلب رجل هدية الخطوبة الى بيت عمه ودفع المهر، ثم قال (له) والد الفتاة : «لن اعطيك ابنتي» فعليه ان يرد (له) ضعف كل شيء كان قد جلبه اليه» (قانون حمورابي ، المادة ١٦٠)

واذا كان سبب فك الخطوبة هو وفاة الفتاة ، عندها يحق لخطيبها ان يختار احدى اخواتها او استرداد الهدايا التي كان قد قدّمها لها فترة الخطوبة. وبالعكس ، اذا توفي الفتىٰ حق لوالده ان يزوج خطيبة ابنه المتوفىٰ الى احد ابنائه الآخرين.[1]

وكان يحق للرجل ان يختار زوجته المقبلة بحرية تامّة غير أنه كان هناك حدود وقيود لهذه الحريّة حددّت المحارم من النساء بالنسبة للرجل. فمثلاً لايجوز الزواج من امرأة متزوجة كما لايجوز الاتصال بالابنة او بزوجة الابن. وطبيعي ان مجتمعاً وصل الى هذه الدرجة من التنظيم عد اتصال الابن بامّه من بعد وفاة ابيه من الجرائم الشنيعة التي عاقبت عليها القوانين بقوة شديدة كما منع الاتصال بالاخت ،[2] الا ان المعلومات عن المحارم الاخرى قليلة ولنا ان نفترض انها كانت مشابهة لما عرف عن الاقوام الجزرية في شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام حتى الوقت الحاضر.

---

(١) القوانين الآشورية الوسيطة ، المادة ٣١ والمادة ٣٠ على التوالي.

(٢) انظر: عامر سليمان وفاضل عبدالواحد ، عادات وتقاليد الشعوب القديمة ، موصل ١٩٧٩ ، ص ٧٠ - ٧١ ، وكذلك عامر سليمان ، الحياة الأجتماعية والخدمات في موسوعة المدينة والحياة المدنية ، بغداد ، ١٩٨٨ ، ج١ ، ص ١٩٥ - ١٩٩.

الزواج

لم يكن الزواج يعد شرعياً تتحقق بموجبه الحقوق والواجبات الا اذا تم تحرير عقد الزواج على رقيم من الطين وبحضور شهود :

«اذا اخذ رجل زوجة (له) ولم يدون عقدها ، فان هذه المرأة ليست زوجة» (قانون حمورابي ، المادة ١٢٨) .

وبعد ان يتم تدوين عقد الزواج ، يصبح الزواج قانونياً وتتحقق جميع حقوق ومسؤوليات والتزامات الزوجين المالية والاجتماعية ، ويصبح الرجل والمرأة زوج وزوجة ، وقد تم الكشف عن مئات من عقود الزواج . ويظهر من العقود المكتشفة بان العقد كان يبرم بين الرجل ، او الزوج المقبل ، وولي امر الزوجة المقبلة ، تماماً كما يحدث في الوقت الحاضر ، وربما كانت موافقة الفتاة معروفة ضمناً الا اذا كانت صغيرة السن . وتشير بعض المواد القانونية حق بعض النسوة في اتخاذ قرار الزواج واختيار الزوج المناسب ، كزواج الكاهنات او الارامل او زواج الزوجة التي غاب عنها زوجها غيبة طويلة .[1]

«اذا قررت أرملة لايزال ابناؤها صغاراً ، الدخول الى بيت (رجل) ثان ، فلا يحق لها الدخول دون (علم) القضاة . وعندما ....» (قانون حمورابي ، المادة ١٧٧) .

وتضمنت عقود الزواج مختلف تفاصيل المبالغ والهدايا المقدمة والتزامات كلا الطرفين أحياناً اضافة الى بعض الشروط الجزائية . وكان يحق للزوج ان يدخل بزوجته بعد تسجيل العقد ، وقد يتأخر ذلك لحين استكمال متطلبات الزواج ولابد انه كانت هناك احتفالات ترفيهية ودينية ترافق مراسيم الخطوبة والزواج وتعمل على اشهار الزواج على اوسع نطاق .

ولم يكن الزواج في العراق كما يراه بعضهم ، يتضمن بيع الفتاة لقاء مبلغ معين يقدمه الزوج لاهل الزوجة ، بل كان يقوم ، كما يفهم من القوانين والنصوص ذات العلاقة ، على مساهمة كلا الطرفين لتوفير متطلبات الزواج المادية ، فكان والدا الفتاة يقدمان هدايا خاصة الى ابنتها تتناسب وامكاناتها المادية ، وقد تضم هذه الهدايا اموالاً منقولة او غير منقولة تمثل في الواقع حصة الفتاة في أموال وتركة ابويها ، وكانت هذه الهدايا تسمى شيرقتم šeriqtum . وكان للزوجة ان تأتمن زوجها على هذه الهدايا ، واذا ماتت الزوجة ، آلت هداياها الى اولادها :

---

(١) انظر قانون حمورابي المواد : ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٧٧ .

«اذا اخذ رجل زوجة وولدت له اطفالاً ، ثم ذهبت هذه المرأة الى اجلها ، فلا يحق لوالدها الادعاء بالهدية (التي كانت قد جلبتها من بيت والدها) ، لأن هديتها تعود الى اولادها» (قانون حمورابي المادة ١٦٢)

اما ان لم تكن الزوجة قد انجبت ، وذهبت الى اجلها عندها تؤول الهدية الى والديها[1]. ويقابل الهدايا التي يقدمها والدا الفتاة ، هدايا يقدمها الزوج الى زوجته المقبلة تسمى هدايا الخطوبة (النيشان) تليها هدية الزواج (المهر) التي كانت تسمى ترخاتم terḫatum. وهناك هدية ثالثة يقدمها الزوج تسمى ببلم biblum[2]، كانت تقدم الى والدي الزوجة ، الا انها لم تكن من الهدايا الاساسية في الزواج وربما كانت تمثل نفقات مراسيم الزواج (تسمى حالياً وباللهجة المحلية نقوط).

ومن الجدير بالاشارة ان الزواج الذي يتم وفق ماذكرناه كان يمثل القاعدة العامة ، وهو الزواج الكامل او التام في حين كان هناك انواع اخرى من الزواج اقل وروداً وشيوعاً ، منها الزواج الناقص الذي يتم فيه تحرير العقد ويتأخر تنفيذه والدخول بالفتاة الى فترة معينة ، وقد تطول لاسباب مختلفة ربما لصغر السن اوعدم اكتمال الترتيبات اللازمة فتستمر الفتاة بالعيش في بيت ابويها حتى يتم الزواج فعلياً. وهناك الزواج الذي يتم دون تحرير عقد ويقع هذا الزواج في حالات خاصة اعترف القانون بشرعية هذا النوع من الزواج الا انه لم يعط المرأة حقوق الزوجية الكاملة ، فقد تدخل المرأة بيت رجل ثانٍ لغياب زوجها غيبة طويلة دون ان يترك لها ماتعيش عليه من مواد غذائية :

«اذا اسر رجل ولم يكن في بيته الطعام (الكافي) ، ودخلت زوجته بيت رجل ثانٍ ، فان هذه المرأة لا ذنب لها» (قانون حمورابي ، المادة : ١٣٤)

العلاقات الزوجية

تشير القوانين البابلية والاشورية والنصوص المسمارية الاخرى ذات العلاقة بان السمة العامة التي اتسم بها نظام الاسرة في العراق القديم هي سلطة الأب المطلقة في بيته ، لذا سمّي الأب «ربُّ الاسرة» فهو معيلها الاول واليه ينتسب الاولاد وعليه يعتمدون في حياتهم ، وله حق الزواج والتزويج والطلاق في حين كانت حقوق الزوجة في المرتبة الثانية ،

---

(١) قانون حمورابي ، المادة ١٦٣.

(٢) انظر تفصيل ذلك : رضا الهاشمي ، نظام العائلة في العهد البابلي القديم ، بغداد ، ١٩٧١ ، ص٥٦ - ٨٠.

وهي محددة على كل حال. وهذا لايعني ان المرأة لم يكن لها حقوق او مركز اجتماعي ، بل كانت لها حقوق قانونية ومالية نصت عليها القوانين منها مالانجده حتى في بعض القوانين الحديثة. فلقد كانت لها شخصيتها المالية المستقلة ، فلها ان تمتلك الاموال المنقولة وغير المنقولة وتتصرف بها وفق مشيئتها ، وقد تصبح تاجرة او مرابية او بائعة خمر او كاهنة او كاتبة او قاضية او شاهدة... الخ ، وكانت تركتها تؤول الى ابويها ان لم يكن لها اولاد يرثونها. وكان لها حق الزواج ثانية في حالات معينة كما كان لها حق الطلاق في حالات حددها القانون[1]

وكان تعدد الزوجات معروفاً في حالات معينة ، كمرض الزوجة او عدم انجابها اولاداً ، كما كان التسرّي معروفاً ايضاً.

والى جانب الحقوق التي حددتها القوانين لكل من الزوج والزوجة كل عند الأخر ، فقد فرضت عليها واجبات والتزامات معينة يأتي في مقدمتها المحافظة على بيت الزوجية وعدم الاخلال بسمعة الزوج او الزوجة. وهكذا نصت احدى مواد قانون لبّت عشتار (المادة ٣٠) من العصر البابلي القديم على طرد الزوج من بيته ان هو اراد تطليق زوجته التي هي ام اولاده بسبب عشيقته ومنعته من الزواج من تلك العشيقة :

> «اذا عاشر رجل متزوج زانية من الشارع ، وامره القضاة بعدم زيارتها ، ثم طلق زوجته ودفع لها صداقها ، فلا يحق له الزواج من الزانية».

في حين نص قانون حمورابي على حق الزوجة بالطلاق اذا ثبت تكرر خروج الزوج من بيته وقيامه باعمال تحط من سمعته وسمعة زوجته. [1] من جهة اخرى ، كان على الزوجة ان تحافظ على سمعة زوجها من خلال محافظتها على سمعتها وعلى شرفها وحسن سلوكها والا تعرضت لعقوبة قاسية :

> «اذا عزمت زوجة رجل تعيش في بيت زوجها على الخروج ومارست عملاً خرّبت (به) بيتها واحطّت من شأن زوجها ، فعليهم ان يثبتوا (ذلك) عليها ، فاذا قال زوجها بانه سوف يطلقها ، فيمكنه ان يطلقها وسوف لايعطيها نقود طلاقها ، واذا قال زوجها بانه سوف

---

(١) قانون حمورابي ، المادة ١٤٢.

> «لايطلقها ، فلزوجها ان يأخذ زوجة ثانية ، وسوف تعيش تلك المرأة كأمة في بيت زوجها» (قانون حمورابي ، المادة ١٤١)

كما اشارت القوانين الاشورية الوسيطة الى حق الزوج تأديب زوجته وضربها او سحب شعرها في حالات معينة : ماعدا عقوبات زوجة الرجل الموصوفة في الرقيم ، فللرجل الحق في جلد زوجته او نتف شعرها اوركلها اوتحطيم اذنيها اذ لاتوجد عقوبة على ذلك .» (المادة ٥٩)

وتعاقب القوانين بشدة الزوج او الزوجة ان تسبب احدهما بموت الأخر.

وكان من واجبات الزوجة الرئيسة ان توفر لزوجها واولادها بيتاً هادئاً مطمئناً وتسهر على تربية الاولاد وتوفر لهم ولزوجها الماكل والمشرب والملبس وقد تعمل اثناء النهار في الحقل او البستان او تقوم ببعض الحرف اليدوية البسيطة كالحياكة ، في حين كان الزوج يتولى مهمة توفير السكن ومستلزمات المعيشة لجميع افراد الاسرة ، وكانت سلطته في بيته تشبه سلطة الملك في مملكته وكان احترامه واجب والخروج عن طاعته والتجاوز عليه يعرّض للحرمان من البنوة وحتى الاستعباد :

> «اذا اقترف (الابن) اثماً كبيراً يستوجب حرمانه من الارث ، عليهم ان يعفوا عنه لاول مرة ، واذا اقترف اثماً كبيراً للمرة الثانية ، (يحق) للوالد ان يحرم ابنه من الارث» (قانون حمورابي ، المادة ١٦٩)
>
> اما اذا ضرب ابن اباه :
>
> «اذا ضرب أبن أباه ، فعليهم ان يقطعوا يده» (قانون حمورابي ، المادة ١٩٥).

كما ورد في سلسلة أنَ إتِّشُ ana ittišu ، وهي نصوص مسمارية من العصر البابلي القديم تذكر بعض العبارات والمفردات والمواد القانونية باللغتين السومرية والاكدية، ان بامكان الابوين أستعباد الولد العاق وبيعه وينطبق الشيء نفسه على الاولاد بالتبني.

الاولاد :

كان الهدف الرئيس من الزواج ، هو تكوين اسرة جديدة على اسس قوية وانجاب اطفال ينتسبون الى ابوين معروفين. وكانت الرغبة في الاكثار من البنين هي الشائعة ، كما هي اليوم. ومع ذلك ، لم تكن ولادة الاناث ، كما يبدو، تخلق مشاكل عائلية رئيسة

بالنسبة للزوجين، بل ان المشكلة كانت تظهر في حالة عدم الانجاب. ويبدو ايضاً ان العراقيين القدماء ظنّوا ان الزوجة فقط هي المسؤولة عن عدم الانجاب لذا فانهم وضعوا الحلول امام الزوج للحصول على الاولاد، كما تشير الى ذلك القوانين. ومن هذه الحلول اعطاء الزوج الحق في الزواج ثانية:

> «اذا تزوج رجل كاهنة ناديتوم، ولم تجهزه بالاولاد، وعزم على ان يتزوج الشوگيتوم، فيمكنه تزوج الشوگيتوم ويدخلها الى بيته، ويجب على الشوگيتوم ان لاتساوي نفسها مع كاهنة الناديتوم» (قانون حمورابي، المادة ١٤٥).

كما اعطي الزوج الحق في ان يطلّق زوجته التي لم تلد له اطفالاً:

> «اذا اراد رجل ان يطلق زوجته التي لم تلد له اولاداً، فعليه ان يعوضها نقوداً بقدر مهرها ويسلّمها الهدية التي جلبها من بيت ابيها ثم يطلّقها» (قانون حمورابي، المادة ١٣٨).

ثم تستمر المادتان التاليتان في تحديد كمية مبلغ الطلاق ان لم تكن الزوجة قد اعطيت مهر محدد. وقد يتخذ الزوج احدى الاماء سرية له تنجب له الاطفال دون ان يؤثر ذلك، نظريا على الاقل، على مركز الزوجة الاولى المختارة[١] وكان من الحلول الاخرى التي اتبعها العراقيون القدماء للحصول على الاولاد هو التبني. وكان التبني شائعاً في المجتمع العراقي القديم.

التبني:

يقصد بالتبني ايجاد علاقة البنوة بين رجل او امرأة، او كليهما، من جهة مع ولد او بنت من جهة اخرى. ويتم اقرار هذه العلاقة بموجب عقد قانوني محرر وبموجب القواعد القانونية السائدة. وتتضمن العلاقة الجديدة حقوقاً وواجبات للطرفين وكما ينص عليها عقد التبني[٢].

---

(١) قانون حمورابي، المادة ١٤٦، ١٤٧.

(٢) حول تفصيل التبني انظر: رضا الهاشمي، نظام العائلة في العهد البابلي القديم، بغداد، ١٩٧١، ص١٧٦–١٩٨، حسين ظاهر محمود، مكانة الاولاد في المجتمع العراقي القديم، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى جامعة الموصل، ١٩٩١، ص٧٧–٨٦.

وكان التبني من النظم الاجتماعية الشائعة في المجتمعات القديمة وظل معمولاً به في جميع انحاء الشرق الادنى القديم حتى ظهور الاسلام وتحريمه هذا النظام الذي يؤدي من دون شك الى ضياع النسب وتفسخ الأسرة الطبيعية وتشتت بعض افرادها. ومع ذلك، فقد نظمت القوانين العراقية القديمة اسلوب التبني وعدّته عملاً مشروعاً يلجأ اليه الافراد الذين لم يرزقوا بالاولاد او اولئك الذين ارادوا زيادة عدد الافراد العاملين في الاسرة. فقد اشارت العقود الخاصة بالتبني ان من اسباب التبني، اضافة الى حصول الاسر التي ليس لديها اولاد على اولاد يحملوا اسمها ويقوموا باداء الطقوس الدينية اللازمة على ارواح الابوين من بعد وفاتها، الرغبة في استمرار حرفة الاب المتبني ان لم يكن لديه ابن طبيعي او اعالة الابوين بالتبني عند الشيخوخة والحصول على ايدي عاملة شابة في الاسرة. كما فسح نظام التبني المجال لبعض اصناف الكاهنات، مثل الناديتوم، اللاتي كان يسمح لهن بالزواج الا انهن كنّ يمنعن من الانجاب لاسباب دينية خاصة بواجباتهن في المعبد. وكان تبني الاطفال يتم عادة عند الولادة او في سن الرضاعة، كما تشير الى ذلك بعض عقود التبني، وهناك حالات اخرى يتم فيها تبني الاولاد وهم في سن الصبية حيث اشير اليهم بالصغار. وتحدد عقود التبني عادة حقوق وواجبات والتزامات طرفي العقد، وكان الابن المتبني يحمل اسم ابويه بالتبني ويتمتع بجميع الحقوق الطبيعية التي يتمتع بها الابن الطبيعي ويعامل معاملة الابن الطبيعي حتى وان حصل الابوين بالتبني على ابن طبيعي، كما كان على الابن المتبني ان يقوم بواجبات والتزامات الابن الطبيعي تجاه ابويه طالما بقيا على قيد الحياة. وقد خصص قانون حمورابي عدداً من موادّه لمعالجة قضايا التبني ووضع الضوابط القانونية لها:

«اذا تبنى رجل طفلاً (ليسمى) باسمه، وقام بتربيته فلا يطالب بذلك الطفل المتبني».

«اذا تبنى رجل طفلاً، وعندما اخذه واصل (الطفل) البحث عن امّه وابيه، فذلك المتبني يرجع الى بيت أبيه».

«اذا لم يَعُد رجل الطفل الذي تبناه ورباه مع اولاده، فلذلك المتبني الرجوع الى بيت ابيه»[1].

---

(1) انظر قانون حمورابي، المواد ١٨٥ و١٨٦ و ١٩٠ على التوالي، انظر كذلك المواد ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣.

وقد جاءت عقود التبني مفصّلة في بيان حقوق والتزامات طرفي التبني ولاسيما في العصر البابلي القديم وكما في العقد الأتي المكتشف في تل حرمل القريب من مركز مدينة بغداد ، حيث جاء فيه :

«بنت صغيرة اسمها إنباتُم ، تبنّاها شُمًّ-اِلُ وشامختُم زوجته من نُطُبتّم امّها.

في المستقبل ، اذا قالت إنباتُم الى شُمَّ-اِلُ ابوها وشامختُم امها «انت لست ابي ، انت لست امي» سيحلقونها ويبيعونها. واذا قال شُمَّ- اِلُ ابوها وشامختُمُ امها الى ابنتها «انت لست ابنتنا» سيخسرون البيت وبنّوتها. وكل من يطالب بانباتُم بدفع منا من الغضة.

اسماء سنة شهود» .[1]

الرضاعة :

قد لاتتمكن الام الطبيعية او الام بالتبني من رضاعة طفلها وتربيته لاي سبب كان ، عندها كان يلجأ الى المرضعات الممتهنات ، وقد حددت القوانين مسؤولية المرضعة ومقدرتها على رضاعة الطفل وسلامة صحتها :

«اذا اعطى رجل ابنه الى مرضعة ، وهذا الابن مات في يد المرضعة ، فاذا تعهدت المرضعة (برضاعة) طفل آخر بدون (معرفة) ابيه وامه (بموت الطفل الاول) ، فعليهم اثبات ذلك عليها. وبسبب تعهدها (ارضاع) طفل آخر بدون (معرفة) ابيه وامه (بموت الطفل الاول) ، عليهم ان يقطعوا ثدييها. »[2]

اما قانون اشنونا ، فقد حدد التزامات الاب تجاه المرضعة حيث نص على انه : اذا اعطى رجل ابنه للرضاعة والتربية ، ولكنه لم يدفع جرايته من الحب والزيت واللباس طوال ثلاث سنوات ، فعليه ان يدفع (الى مربية ابنه) عشرة منات من الفضة اجرة تربية ابنه وعليه ان يستعيد ابنه [3]

---

(1)، انظر A.Sulaiman A Study of Land Tenure... p.394.

(2) فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ، ص١٥٥ ، ترجمة مادة ١٩٤ من قانون حمورابي .

(3)، نفس المصدر- ص٩١ مادة ٣٢ من قانون اشنونا .

ولابد وان كان الابوين يسميّان طفلهما الجديد في الايام الاولى من ولادته ، وكان اختيار الاسم من الامور المهمة لدى العراقيين القدماء. وكان الاختيار دائماً يقع على الاسم الحسن الذي يدل على البركة والنعم الالهية ، وغالباً ما كان الاسم يتألف من جملة ذات معنى مفيد وقد يدخل في تركيبها اسم احد الالهة او احدى صفاته ، كما يفهم ذلك من الاسماء «سنحاريب ونبوخذ نصر بمعنى الاله سين يزيد من الاخوة ، والاله نبويحمي الذرية ، وإلِ — اشراني بمعنى الهي يرعاني ، ولبِّت — عشتار ، بمعنى «صنع الالهة عشتار» وهكذا»[1] .

الطلاق :

الطلاق هو فسخ العلاقة القانونية والاجتماعية القائمة بين الزوجين، وقد سبقت الاشارة الى الحالات التي يمكن فيها للزوج ان يطلق زوجته او يحق فيها للزوجة ان تطلّق زوجها. ويبدو ان القاعدة العامة كانت تقضي باستمرارية الزواج حتى اذا ماتزوج الرجل من زوجة ثانية. وهناك حالات تستوجب الطلاق حددتها القوانين. وكان الطلاق عادة بيد الرجل ولكن كان يحق للزوجة ان تطلق قانوناً ان أخلَّ الزوج بالتزاماته تجاه زوجته او غاب عنها غيبة طويلة دون ان يترك لها ما يكفيها لتغطية نفقات معيشتها وبدون عذر مقبول :

«اذا كرهت امرأة زوجها وقالت (له) لاتأخذني. في ادارة بلدتها سوف يدرس (سلوكها) ، فأذا كانت محترسة ولم ترتكب خطيئة ، (بينما) زوجها يخرج كثيراً ويحط من قدرها ، فلا جرم على ترك المرأة ويمكنها ان تأخذ هديتها (التي جلبتها من بيت ابيها) وتذهب الى بيت والدها».
(قانون حمورابي ، المادة ١٤٢).

اي بعبارة اخرى يحق لها الحصول على الطلاق من زوجها واخذ مبلغ الطلاق ، وهو الهدية. وفي حالة هروب الزوج :

«اذا نبذ رجل مدينته وهرب ، ودخلت زوجته بعد ذلك بيت رجل ثان ، فاذا عاد هذا الرجل وضبط زوجته (في

(١) انظر: حسين ظاهر، مكانة الاولاد ص ٦٣—٦٦ وكذلك :
Ranke,H. The Early Babylonian Personal Names... Philadelphia/ 1905.

بيت رجل ثان) ، فلا ترجع زوجة الهارب الى زوجها بسبب كرهه لمدينته ولهروبه» (قانون حمورابي ، المادة ١٣٦).

وكان الطلاق مثل الزواج يتم بموجب عقد محرر ويترتب عليه تبعات مالية معينة حددتها القوانين ، وكان على الزوج ان يدفع الى زوجته المطلّقة مبلغاً من المال ، مقابل المهر المؤجل ، اضافة الى الهدايا التي كانت الزوجة قد جلبتها من بيت ابيها ، وكان مبلغ الطلاق يختلف بالنسبة الى الفئة التي ينتمي اليها الزوج :

«اذا لم يكن هناك مهر، فعليه ان يعطيها مناً واحداً من الفضة مقابل الطلاق» (قانون حمورابي ، المادة ١٣٩).

«اذا كان (الزوج) مُشكينُم ، فعليه ان يعطيها ثلث المنا من الفضة (ثم يطلّقها)» (قانون حمورابي ، المادة ١٤٠).[1]

تقسيم الارث

من القضايا ذات الاهمية الكبيرة في تنظيم المجتمعات قديماً وحديثاً هو اسلوب تقسيم الارث بين الورثة وحقوق كل فرد من افراد الاسرة في تركة الوالدين وقد خصصت القوانين العراقية القديمة ، ولاسيما قانون حمورابي ، عدداً كبيرا من موادّها لتنظيم توزيع التركة ووضع ضوابط ذلك الا انها اغفلت بيان بعض الجوانب المهمة ربما لانها كانت معروفة ومن التقاليد السائدة التي لاتحتاج الى تثبيت في القوانين او لاسباب اخرى نجهلها . ومن هذه القضايا حقوق الاناث من الاولاد في تركة الابوين وهل كانت البنت ترث كما يرث الابن ام انها لم تكن تقتسم مع اخوتها تركة الابوين ؟ فالقوانين نصت صراحة على ان تركة الابوين كانت تقسّم بين الابناء الذين من صلب الاب المتوفي بالتساوي بعد اقتطاع حصص ومبالغ معينة اشارت اليها القوانين. فقد كان الابن البكر يختار الحصة الاولى وقد يعطى بعض الامتيازات الاخرى تقديراً لمركزه الاجتماعي بين افراد الاسرة وتحمله مسؤولية ادارة الاسرة واعالتها من بعد وفاة ابيه ، وهي طريقة ظلت شائعة في المجتمعات الشرقية في جميع العصور. كما كان يقتطع من التركة ما سبق للأب ان اوصى به بموجب وثيقة محرّرة لاحدى زوجاته او لابنه المفضل او لابنه بالتبني ، من امواله المنقولة وغير المنقولة .

(١) حول تفصيل ذلك انظر: رضا الهاشمي ، نظام العائلة ، ص١١٨-١٣٣.

او لجميعهم . وهو ايضاً اسلوب قانوني ينطبق على الوصية التي تنفذ عادة من قبل تقسيم التركة حتى الوقت الحاضر. واذا كان الاولاد قاصرين ودون سن الزواج ، فكان على اخوتهم ان يقتطعوا لهم من التركة مبلغاً من المال يساوي هدية الزواج (المهر) وذلك من قبل تقسيم الارث ويضاف ذلك المبلغ الى حصصهم القانونية في التركة . اما حقوق اولاد الامة في التركة ، فاذا كان الاب قد اعترف ببنوتهم وهو على قيد الحياة عندها تعطى لهم حقوق مساوية لحقوق الاولاد الاخرين وتمنح لهم حريتهم هم وامهم اما اذا لم يكن الاب قد اعترف ببنوتهم من قبل وفاته ، فلا حقوق لهم في التركة الا انهم كانوا يمنحون الحرية هم وامهم من بعد وفاة ابيهم . اما البنات ، فكما المحنا لم تصرح القوانين بوضوح ذلك الا انه يفهم من بعض المواد انه كان للبنت غير المتزوجة حق اخذ جزء من تركة ابيها تساوي هدية زواجها التي كان الآب يعطيهاعادة الى ابنته وذلك من قبل ان تقسم التركة . اما اذا كانت البنت من صنف الكاهنات «ناديتوم» ولم يسبق لها ان حصلت على هدية الزواج من ابيها فكانت تعطى حصة تساوي ثلث حصة ابن من الابناء . اما الزوجة ، فكانت تأخذ اولاً الهدية التي كان زوجها قد خصصها لها واوصى بها بموجب وثيقة محرّرة اضافة الى حصتها القانونية في تركة زوجها والتي تساوي عادة حصة ابن من الابناء . واذا ما اعطيت هذه الحصص والهدايا الى مستحقيها من قبل تقسيم التركة ، بعدها يقسّم الباقي بالتساوي بين الابناء وامهم . واذا كان هناك ابناء بالتبني فانهم كانوا يتقاسمون مع اخوتهم بالتساوي ولم تذكر القوانين اي شيء عن حقوق والدي الاب ، اي الجدّين ، ولا عن اخوته في التركة في حين اشارت الى ان تركة الزوجة تؤول الى بيت ابويها ان لم يكن لها اولاد وقياساً على ذلك فان تركة الزوج تؤول الى بيت ابويه ان لم يكن له اولاد ايضاً .

واذا توفي الأب وكان اولاده قاصرين ، تسلم التركة الى الام التي تصبح وصيةً عليهم وعلى املاكهم لحين بلوغهم السن القانونية ، التي لم تذكر في القوانين. واذا ارادت الام ان تتزوج ثانية كان على القضاة ان يثبتوا تفاصيل املاكهم واموالهم بموجب وثيقة ويعهدوا بها الى امهم وزوجها الثاني وعليها المحافظة عليها لحين بلوغ القاصرين السن القانونية :

> «اذا قرّرت ارملة لايزال ابناؤها صغاراً الدخول الى بيت (رجل) ثانٍ ، فلا (يحق) لها الدخول دون (علم) القضاة. وعندما تدخل بيت (الرجل) الثاني ، على القضاة ان يدرسوا وضعية بيت زوجها السابق ويعهدوا (بمسؤولية) زوجها السابق الى تلك المرأة وزوجها الاخير. ويطلبوا منها ان يتركا رقيماً (يتعهدان فيه) بالمحافظة على

البيت وتربية الاطفال الصغار ولا (يحق) لها بيع حاجات
البيت مقابل نقود والمشتري الذي يشتري حاجات ابناء
الارملة يخسر نقوده وتعاد الحاجات لاصحابها » حمورابي

وكان حرمان احد الاولاد من الارث يعد من العقوبات القاسية التي يعاقب بها الابناء العاقين ولم يكن ذلك يتم الا من خلال المحاكم وبموجب قرار قانوني ولاسباب مقنعة

البيت (بالاكدية بيت bitu)

كشفت التنقيبات الاثرية التي اجريت في المواقع العراقية القديمة عن العديد من الاحياء السكنية الخاصة بعامة الناس ، كما كشف عن قصور ملكية وبيوت فارهة خاصة بالطبقة الغنية من الناس. ومن الطبيعي ان الاثار المتبقية من دور السكن العامة قليلة نظراً لطبيعة المواد الانشائية المستخدمة في بنائها ، والتي اقتصرت غالباً على اللبن والخشب ، وينطبق الشيء نفسه على الاثاث ايضاً.

وكان الانسان قد بدأ ببناء البيوت منذ ان استقر الى جوار ارضه الزراعية في العصر الحجري الحديث ، وكانت اقدم البيوت على شكل بيضوي ومشيدة بالحجارة والحصو واستخدم التراب المرطب مادة لاصقة وتمثل هذه البيوت مرحلة انتقال من الحياة في الكهوف والمغاور والمستوطنات المكشوفة الى حياة الاستقرار في بيوت مشيدة للسكن[1] . وكانت البيوت الاولى تخلو من النوافذ والفتحات باستثناء فتحة صغيرة تؤدي الى داخل البيت. وفي العصر الحجري المعدني ، كشف عن بيوت ذات مخطط دائري في مناطق عدّة ولاسيما في موقع الاربجية في الموصل.

وبتقدم حياة الانسان وتطورها وزيادة حاجاته وجد ان البيوت المربعة او المستطيلة اكثر ملائمة للعيش فيها فشاع استخدام هذا النوع من البيوت ولم تكن تختلف كثيراً عما هو معروف حتى الان في القسم الشمالي من العراق والذي يعرف عادة باسم « دام » وجمعه « دوم » بمعنى « كوخ » او « بيت ». وبعد ان استقر الانسان في القسم الجنوبي من العراق ، بنى له بيوتاً تتلائم وطبيعة المنطقة الجغرافية ومناخها وطبيعة المواد الانشائية المتوفرة فيها . ومع اننا لم نعثر على بقايا تلك البيوت الا ان بعض المشاهد المنحوتة على الحجر او الاختام تشير

(١) حول مخطط البيت العراقي القديم في عصور ماقبل التاريخ انظر: موفق جرجيس ، عمارة البيت العراقي القديم في عصور ماقبل التاريخ ، بغداد ، ١٩٧٦ (رسالة ماجستير غير منشورة).

الى أنها كانت شبيهة الى حد كبير الى ما يعرف حالياً بالصريفة في القسم الجنوبي من العراق .

الى جانب ذلك ، كانت هناك بيوت متطورة ومشيدة باللبن ومسقفة باعمدة من الخشب عليها طبقة من الحصير والطين يمكن ان تسمى بالبيوت الشرقية قياساً على ماهو معروف حالياً من بيوت في العراق . وكان قوام البيت من هذا النوع ساحة وسطية مربعة او مستطيلة مكشوفة يحيط بها عدد من الغرف المتلاصقة والمطّلة على الساحة . ويقع مدخل البيت في احدى الغرف المطّلة على الشارع . ويطل البيت على الطريق او الشارع الضيق الذي تتجمع على جانبيه ابواب البيوت . وكان لكل غرفة عدد قليل من الفتحات الضيقة للانارة والتهوية وغالباً ما كانت تسد بأجرّة مثقّبة تسمح بالانارة والتهوية معاً وتمنع دخول الحيوانات . وكان المطبخ يشغل احدى الغرف الصغيرة او احدى زوايا الساحة المكشوفة حيث يقام الموقد او التنور.

وقد يضم البيت طابقين ، لاسيما في مراكز المدن حيث يرتفع سعر الارض السكنية ، وكان هناك بناؤن محترفون يقومون ببناء البيوت ويتقاضون اجوراً استناداً الى مساحة بناء البيت وقد حدد قانون حمورابي اجورهم في المادة ٢٢٨ التي تنص :

«اذا بنى بناء داراً لرجل واكمله له ، فعليه ان يدفع له
شيقلين فضة عن كل سار من (مساحة) البيت مكافأة له» .

كما كان البناؤن يتحملون مسؤولية الاهمال والتقصير وعدم اتقان العمل حيث كانوا يعاقبون معاقبة شديدة وفق مبدأ القصاص الذي اخذ به قانون حمورابي ان هم تسببوا في موت صاحب الدار او احد افراد اسرته (المادة ٢٢٩) :

«اذا بنى بناء لرجل بيتاً ولم يقوّ عمله بحيث انهار
البيت الذي بناه وسبب قتل صاحب البيت ، فيجب ان
يقتل ذلك البناء» .

اما اذا كان نتيجة سقوط البيت وانهياره تلف اموال منقولة فقط ، وهي اثاث البيت ، فعلى البناء ان يعوّض صاحب البيت عن كل مافقده وكذلك يعيد بناء البيت الذي بناه :

«اذا تلفت حاجات (صاحب البيت) ، عليه ان
يعوّض ماتلف

وبسبب سقوط البيت الذي بناه ولم يقوّه ، عليه ان يعيد بناء البيت الذي سقط من امواله الخاصة » . (المادة ٢٣٢) [1]

ويبدو ان ازمة السكن كانت معروفة منذ تلك الازمنة وقد استغل ذلك بعض اصحاب رؤوس الاموال والملاكين فكانوا يشيدون بيوتاً معّدة للايجار حيث تم العثور على اعداد من عقود ايجار البيوت ، وكانت البيوت تؤجر عادة لمدة سنة وقد اشار قانون حمورابي الى ذلك حيث نص في المادة (و) على :

«اذا أجّر رجل داراً لرجل آخر لمدة سنة واحدة ، والمؤجر قد دفع لصاحب الدار الايجار كاملاً حسب العقد ولمدة سنة واحدة . فاذا طلب صاحب الدار من المؤجر ان يخلي (الدار) قبل الموعد ، فعلى صاحب الدار لكونه قد طلب من المؤجر ان يخلي (الدار) قبل الموعد ان يخسر النقود التي دفعها المؤجر له» .

كما عثر بين العقود الكثيرة المكتشفة على اعداد كثيرة من عقود بيع ورهن البيوت . وكانت قيمة البيت ترتفع او تنخفض نسبة الى موقعه ومساحة البناء ونوع البناء .

ان دراسة مخطط البيت العراقي القديم في العصور المختلفة والتعرف على اسلوب بنائه والمواد الانشائية المستخدمة تشير الى ان العراقيين القدماء قد حاولوا بما لديهم من مواد اولية ان يجعلوا من بيوتهم البسيطة اماكن مريحة وملائمة للسكن تقوى على مواجهة التقلبات المناخية وتطرّفها من حيث الحرارة والبرودة ، فقد استعاضوا عن الشبابيك الواسعة التي لاتساعد على تدفئة البيت او تبريده ، بفتحات صغيرة للتهوية والانارة ، واستخدموا الطين او الآجر للبناء ، وقد ثبت بانها من اكثر المواد المتوفرة ملائمة لمناخ العراق . وجعلوا جدران البيت سميكة زيادة في عزل البيت عن التقلبات الجوية ، واستخدموا الرمل الجاف في اسس الابنية ووضعوا طبقة من القير على القسم السفلي من اوجه الجدران الداخلية ، كما غلّفوا احياناً الجدران الداخلية بقطع من الرخام او الحجر ، ولاسيما القصور والبيوت الفخمة ، كل ذلك من اجل منع تسرب الرطوبة الى داخل البيت . وكانت البيوت تطلى غالباً من الخارج باللون الابيض لزيادة جمال البيت وربما شعروا بانه اكثر الالوان ملائمة لجو العراق وعواصفه الرملية .

---

(١) انظر كذلك المواد : ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ . من قانون حمورابي .

تخطيط المدن

تشير التنقيبات الاثرية التي اجريت في المدن المختلفة ، ولاسيا المدن الكبيرة ومنها ، الى انه كان يشق المدينة عادة عدد من الشوارع الرئيسة والواسعة التي تؤدي غالباً الى مركز المدينة وتنتهي من الجهة الأخرى باحدى بواباتها الرئيسة. وكان كثير من هذه الشوارع مبلّط بالآجر واحياناً بقطع من الرخام او الحلاّن. وطبيعي ان مثل هذه الشوارع كانت معدة للاحتفالات الدينية والمهرجانات الكبرى ولاستخدام الملك ، وكانت مثل هذه الشوارع تسمى باسماء معينة وغالباً ما كانت تحمل اسماء البوابات التي تنتهي بها ، وكانت المدينة تحاط بسور ضخم مشيد باللبن يتقدمه غلاف حجري ويتخلل السور عدد من البوابات والابراج. الى جانب الشوارع الرئيسة هناك الشوارع الفرعية الضيقة التي تقسم الاحياء السكنية والمباني العامة وتأخذ الشكل الذي تمليه الابنية لذلك كانت تتسع وتضيق حسب الابنية المشيدة على جانبي الطريق وتشكل بصورة عامة شبكة غير منتظمة كما كان هناك ازقة ضيقة تمثل الفواصل التي تفصل بين البيوت السكنية. ولابد وان كان هناك ساحات وسطية واسعة في المدينة لتجمع الناس في ايام الاحتفالات او لاتخاذها مكاناً للالتقاء وبيع السلع.

وقد يقطع المدينة نهر، كمدينة بابل ومدينة كوثا ، عندها تظهر الحاجة الى وجود جسر يصل بين جزئي المدينة. وهذا مانجده في اثار مدينة بابل حيث اقيم جسر مؤلف من خمس قناطر على نهر الفرات ليصل بين جزئي المدينة.

ويحدثنا سنحاريب بانه اسس في عاصمته نينوى حديقة واسعة جمع فيها مختلف انواع النباتات وجلب اليها نباتات من جميع البلدان والاقاليم التي وصلت اليها جيوشه بما في ذلك اشجار الصوف (القطن) ، كما اشار ملوك اخرون الى الحدائق الغناء التي اقاموها في القصور والعواصم وخير مثل ماذكر عن الجنائن المعلّقة. كما اشار سنحاريب الى انه جلب مختلف انواع الحيوانات ووضعها في حديقة خاصة في نينوى.

ومن القضايا التي شغلت الملوك والحكام لتوفير الحياة المرفهة للسكان هي توفير المياه العذبة. ولم يكن ذلك ليخلق مشكلة كبيرة في مدن جنوبي العراق طالما كانت المدن على شواطئ الانهار وان تجهيزها بالمياه العذبة بواسطة القنوات والجداول من الامور السهلة ، غير ان المشكلة تظهر في بلاد اشور حيث المدن مرتفعة عن مستوى المياه او بعيدة كليا عن الانهار مما اضطر الملوك الى جلب المياه بقنوات خاصة ومن اماكن بعيدة مرتفعة ، كما فعل اشور ناصربال الثاني عندما جلب المياه من نهر الزاب الى كلخو (نمرود) وكما فعل

سنحاريب في جلب المياه من نهر الگومل قرب جروانة الى نينوى بواسطة قنوات وقناطر اقيمت بعضها على الوديان العميقة كما اقام السدود على نهر الخوصر لرفع مناسيب المياه ليمكن ايصاله بعد ذلك الى مدينة نينوى وماجاورها. اضافة الى ذلك، اعتمد السكان على مياه الابار ومياه الينابيع والعيون احياناً، وقد اظهرت التنقيبات في كلخو (نمرود) عدداً من الابار التي كانت تستخدم من قبل ساكني القصر الملكي وكان احدها مايزال الى الان ينتج ماقدره خمسة الاف غالون من الماء يومياً وقد عثر في البئر نفسه على بكرة خشبية مازالت عليها اثار احتكاك الحبال واضحة حيث كان يسحب الماء بواسطة اواني خاصة تربط برأس الحبل ويلف الحبل على البكرة لتيسير عملية السحب.

تجهيز المياه وتصريفها

كانت معظم المدن والقرى العراقية القديمة تقع على ضفاف الانهار والجداول وقنوات الري، لذلك لم يكن من الصعب على السكان توفير مياه الشرب والمياه اللازمة للاستعمال المنزلي، ولنا ان نتصور صبيان وفتيات الاسرة ينقلون المياه العذبة من النهر او الجدول بجرار فخارية او جلود حيوانات (قِرَب) محمولة على الرأس او على ظهور الحيوانات تماماً كما يفعل سكان القرى والارياف حتى الوقت الحاضر، وربما كان هناك سقاة مختصون يزودون البيوت في المدينة بالمياه اللازمة. وكان كل بيت يضم جراراً فخارية كبيرة (حباب) مخصصة لحفظ وتبريد المياه. وقد يكون في البيت بئر خاص به لتزويد الاسرة بما تحتاج من المياه.

وقلّما كانت البيوت الاعتيادية تضم حمامات خاصة بل اقتصر وجود الحمامات على القصور وبيوت الطبقة المرفهة، ولانعرف فيما اذا كان هناك حمامات عامة مشابهة لما نجده في العصور التالية وحتى الوقت الحاضر. ويبدو ان سكان البيت استخدموا احدى الغرف او الدهاليز مكاناً للاستحمام، كما اعتادوا السباحة في النهر القريب. اما القصور الملكية، فقد ضمت حمامات خاصة مزودة بالمياه النظيفة.

ولم يكن هناك انظمة خاصة لتصريف المياه الثقيلة غير انه وجدت حفر كبيرة وسط ساحات البيوت كانت معدة لتجميع المياه القذرة وتصريفها الى خارج البيت في حين ضمت بعض القصور، ولاسيما القصور الاشورية، انظمة كفوءة لتصريف المياه قوامها اقنية فخارية مدفونة تحت مستوى ارضية الغرف والحمامات حيث تتجمع فيها المياه ويتصل

بعضها ببعض لتؤدي الى خارج البناء وتصب في الوادي او النهر القريب ، وكانت فوهة المجرى النهائية تسد بمشبك من الفخار لمنع دخول الحيوانات وربما اللصوص ايضاً.[1]

وقد تضم بعض البيوت مكاناً خاصاً لدورة المياه فقد عثر في بعض تلك البيوت على مرافق صحية نظامية شبيهة بالمرافق الصحية المعروفة في العراق في الوقت الحاضر حيث كانت تتألف من دكتين من الحجر او الاجر المفخور تتوسطها فوهة حفرة لتجميع الاوساخ. وقد كشف عن مجموعة من هذه المرافق في احد القصور الملكية في منطقة ديالى وعثر في بعضها على اوانٍ فخارية لحفظ المياه النظيفة وجد في احدها مغرفة صغيرة مما يشير الى استخدام المياه للتنظيف ، وهي الطريقة المثلى الشائعة اليوم في العراق والتي تتناسب مع مناخ العراق وتحقق النظافة.

الانارة والتدفئة

كانت الانارة في البيوت تتم بواسطة المسارج والمشاعل ، وقد استخدمت انواع بسيطة من المسارج تتألف الواحدة من اناء صغير في احدى نهايتيه ثقب يخرج منه فتيل ، وكان الزيت يوضع في الاناء. وقد كشف عن انواع مختلفة من المسارج منها ماهو جميل للغاية الا انه يحمل الفكرة نفسها. وتشير بعض النصوص المسمارية الى استخدام زيت السمسم في الغالب وقوداً للمسارج كما استخدم زيت الزيتون ولكن في حالات قليلة وربما استخدم النفط الخام ايضاً الذي كان يسمى «زيت الحجر» وإن لم يكن يصفّى غير أن النور الذي يعطيه عند اشعاله هو افضل بكثير من بقية الزيوت. اما المشاعل ، فكان استخدامها خارج البيوت في الحقول والطرقات واثناء المعارك شائعاً. وقد راعى البنّاؤن عند تشييد البيوت والقصور وضع فتحات صغيرة لدخول النور خلال النهار اضافة الى فائدة تلك الفتحات للتهوية.

وكانت التدفئة تتم بواسطة حرق اغصان الاشجار وجذوعها داخل مواقد مصنوعة من الطين المفخور، وربما استخدمت فضلات الحيوانات لهذا الغرض ايضاً.

---

(١) انظر عامر سليمان، الكتابة المسمارية والحرف العربي ، موصل ١٩٨٢ ، ص ٣٣-٣٧ والصور الخاصة بنظام تصريف المياه الثقيلة في مدينة ترزيص الاشورية قرب نينوى.

الأثاث

من الطبيعي أن أثاث البيت وجودته ونوعيته يتناسب ومستوى اصحاب البيت المعاشي. وان كنا قد تعرفنا على مخطط البيت العراقي القديم العام عبر العصور وبعض الطرز المعمارية والفنية التي كانت شائعة من الآثار المكتشفة ، فأن مما يؤسف عليه اننا لم نعثر على الآثاث الذي كان بداخل بقايا البيوت المكتشفة ربما لان معظمها كان يصنع من مواد سريعة التلف كالاخشاب والسّجاد والقماش ، كما ان الآثاث الجيد لايبقى في البيت بعد هجره الا في حالات قليلة . ومع ذلك ، يمكن الافادة من النصوص المسمارية في التعرف على اسماء بعض قطع الاثاث الذي كان مستخدماً كما صورت لنا بعض المنحوتات الجدارية مشاهد من الحياة اليومية في القصور الملكية اظهرت جانباً من الاثاث الذي كان مستخدماً في تلك القصور الى جانب ما كشف عنه من ادوات واثاث منزلية كانت مصنوعة من مواد غير قابلة للتلف ، كالفخاريات والاواني المعدنية وغيرها .

ويبدو أن البيت المتوسط كان يضم عدداً من الاسرة والكراسي والخزانات او الدواليب الخشبية ، وكان السرير يخصص لرب الاسرة غالباً في حين كان بقية افراد الاسرة ينامون على الارض ويلتحفون السّجاد والجلود ، وربما استخدمت دكاك الطين للجلوس والنوم . ولا نعرف فيما اذا اعتاد العراقيون القدماء النوم فوق سطوح المنازل ، كما يفعل بعضهم اليوم ، ام انهم اكتفوا بالنوم في ساحة البيت المكشوفة او امام البيت في ليالي الصيف الحارّة . ولنا ان نفترض أن سكان البيت الواحد كانوا يجتمعون في ليالي الشتاء الباردة في احدى الغرف قعوداً على الارض ، او على الدكاك ، يتوسطهم موقد النار وتنير لهم المسارج الغرفة المظلمة ، وقد فرشوا الارضيّة بالسجاد والحصير. وعند تناول وجبة الطعام ، كانوا يضعون المائدة على الارض مباشرة او على مصطبة قليلة الارتفاع . اما في القصور الملكية ، فتشير بعض المنحوتات الى استخدام المناضد المرتفعة ومن حولها الكراسي اعدت للجلوس وتناول المشروبات او الاطعمة ، كما كانت الطريقة نفسها تستخدم في اعداد موائد الطعام الى الآلهة في المعابد . وكان سعف النخيل والقصب من المواد الاساسية التي استخدمت لصناعة الكراسي والمناضد والاسرة ، كما هي الطريقة المتبعة الان في القسم الجنوبي من العراق .

الى جانب الاثاث المصنوع من الخشب ، ضمت البيوت اوانٍ وادوات كثيرة مصنوعة من الفخار ذي الطرز المتنوعة والالوان والاشكال الجميلة ، وكان المطبخ عادة يضم موقداً للطبخ وتنوراً للخبز ، وكلاهما مصنوع من الطين ، الى جانب الاواني الفخارية

الكثيرة وبعض الاواني الاخرى المصنوعة من النحاس او الحجر، ومنها الجرار على اختلاف حجومها واشكالها والاطباق والاقداح والكؤوس والحباب والطاوات والمدقات والهاونات والمطاحن والمجارش والكاسات والطاسات والقدور والقناني والسكاكين والمقاشط وغيرها.

وكانت الطريقة الشائعة لتناول الاطعمة استخدام اصابع اليد، ومع ذلك عثر على مايشبه الشوكات المصنوعة من العظم ذات اصبع واحد، كما كشف عن سكاكين ومغارف من المعدن او الفخار او القار او العظم وملاعق من الطين، وربما كان هناك مغارف وملاعق من الخشب ايضاً.

أنواع المأكولات والمشروبات

توفر في العراق القديم مختلف أنواع المواد الغذائية من المنتجات النباتية والحيوانية بل يمكن القول اننا اذا استثنينا بعض المواد الغذائية التي دخلت العراق في العصور المتأخرة، كالحمضيات والطماطة والبطاطة والرز، فان معظم المواد الغذائية الاخرى الموجودة في العراق حالياً كانت متوافرة في العصور القديمة، وفي مقدمتها الحبوب على اختلافها والبقوليات والخضراوات والفواكه والتمور. كا دجّنت مختلف الحيوانات التي استخدمت لحومها وزيوتها للأكل كالاغنام والابقار والجاموس والماعز والجمال والخنازير وغيرها اضافة الى الطيور والاسماك وعرفت تربية الدواجن في الالف الاول قبل الميلاد.

ويبدو ان أساس الوجبة الغذائية كان الخبز الفطير وبعض الخضراوات والزيوت ومشتقات الحليب. وقد ورد العديد من اسماء المأكولات في النصوص المسمارية، كان من بينها الكبّة. وصورت بعض المأكولات على المنحوتات. وكان اكل اللحوم محدوداً بصورة عامة ويزداد في ايام الاعياد والمناسبات. وقد استخدمت طرق شتى لحفظ اللحوم والفواكه والخضراوات، كالتمليح والتجفيف والتقديد. اما بالنسبة للمشروبات، فكانت الجعة منتشرة الى درجة ان قانون حمورابي اشار الى اسلوب بيعها والى بائعة الخمر، صاحبة الحانة، وكانت تصنع من الشعير في حين استخدم النبيذ المصنوع من التمر او العنب. وقد وردت تسميات كثيرة لانواع الجعة والخمور «اذا اعطت بائعة الخمر شراب البيخم (وهو نوع من انواع الجعة) على سبيل الاعارة، فعليها ان تستلم خمسين سوت من الحبوب وقت الحصاد»[1]. وتشير بعض الوصفات الطبية، وكذلك بعض الامثال الشعبية، الا ان

---

(١) قانون حمورابي، المادة ١١١ (انظر فوزي رشيد الشرائع العراقية، ص ١٣٦ - ١٣٧)

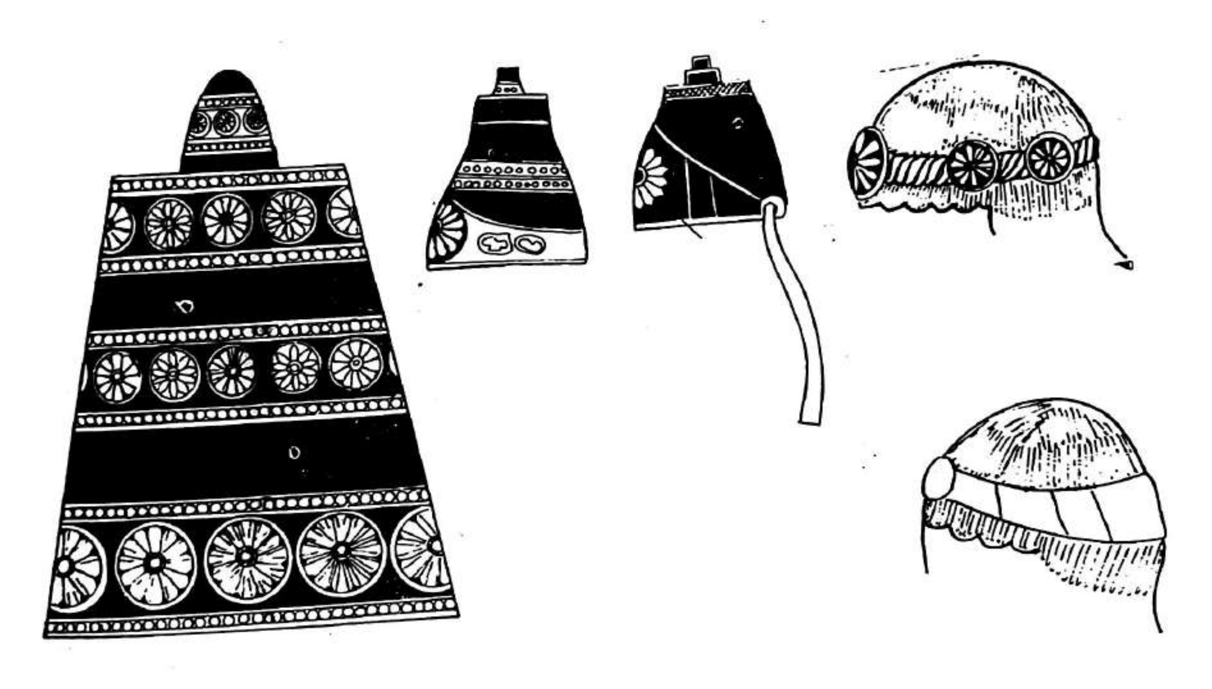
الافراط في تناول المسكرات كان معروفاً ومن الظواهر المكروهة. وكان للتمور اهمية كبيرة في قائمة المأكولات الى درجة أن احد الكتبة غالى في بيان تلك الاهمية فذكر انه كان للنخلة ٣٦٥ فائدة، وربما قصد بذلك انها كانت مفيدة على مدار ايام اسنة. ولعل من خير الامثلة التي تعطينا اسماء المأكولات والمشروبات والمنتجات النباتية والحيوانية التي كانت معروفة هو ما دوّنه لنا الملك الآشوري آشو ناصربال الثاني (٨٨٣-٨٥٩ق.م) على مسلته التي وضعها في قصره وذكر لنا فيها الاحتفالات التي اقامها بمناسبة تدشين المدينة ودعا اليها ما يقرب من سبعين الف ضيف وذكر فيها قائمة المواد الغذائية التي اعدها لتقديم الاطعمة والمشروبات لهم.

الأزياء

تشير المنحوتات الجدارية والمسلات والتماثيل والمشاهد المصورة علىٰ الاختام الاسطوانية الىٰ اختلاف ازياء النساء والرجال نسبة الىٰ الفئات الاجتماعية التي كانوا ينتمون اليها وكذلك نسبة الىٰ المكان والزمان. ويشير بعضها الىٰ ان الرداء الذي كان شائعاً في العصور السومرية المبكرة كان اشبه بالتنورة، وقد استخدم هذا النوع من الرداء من قبل معظم الفئات الاجتماعية حتىٰ الجنود منهم مع رداء آخر فضفاض طويل كان يتدلىٰ علىٰ الكتفين ويثبت بكلاب. وقد مثّل جوديا، وهو حاكم مدينة لجش، مرتدياً نوعاً من اللباس السائب من الشال الطويل الذي يصل الىٰ الكعبين ويتدلىٰ على الكتف الايسر تاركاً الكتف الايمن عارياً، وهي الطريقة التي شاعت انذاك في تصميم الالبسة.

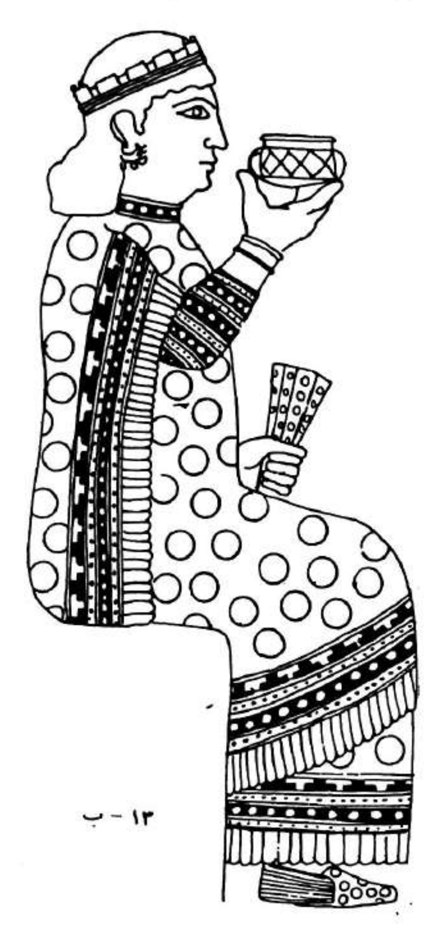
وكانت القطعة الرئيسة الاخرىٰ هي المعطف، او القباء او الزبون، وكانت تلبس فوق القميص وتستخدم عادة من قبل الموسرين ورجال الدين. ويكون القباء مفتوحاً من الامام من الاعلىٰ الىٰ الاسفل. ومن الجدير بالاشارة ان هذا النوع من اللباس مازال يستخدم في العراق حتىٰ الوقت الحاضر اضافة الىٰ ذلك كانت هناك ازياء خاصة بالاحتفالات والاعياد واخرىٰ للقيام ببعض الطقوس الدينية. كما كان غطاء الرأس يأخذ اشكالاً متنوعة وهو دليل الابهة والمركز الاجتماعي. فاستخدم الملوك التيجان في حين استخدم الحكام والنبلاء غطاء للراس يشبه العمّه او العمامة، كما تظهر على رأس الحاكم جوديا، وهناك العقال اضافة الىٰ عصابات تحيط بالرأس وتتدلىٰ منها شرائط ترمز الىٰ مركز حاملها





نماذج من الأزياء الملكية واغطية الرأس

وفي الالفين الثاني والاول قبل الميلاد ، اصبح الثوب الزي العام لكلا الجنسين ولكنه اختلف في طوله فكان فوق الركبتين او دونها قليلاً عند الرجال وطويل عند النساء وتميز باكمام قصيرة في الغالب وكان دائرياً عند الرقبة وفضفاضاً يسمح بحرية الحركة والعمل. وكانت هناك ازياء خاصة بالكهنة واخرىٰ للعمال او الفلاحين او الصناع وهكذا. وكان معظم الرجال والنساء من الطبقات الميسورة ينتعلون الصنادل الجلدية او الاحذية



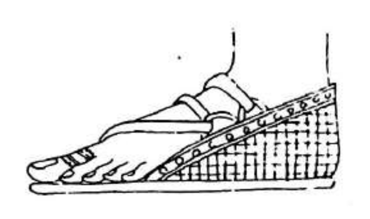
١٣ - ب



١٣ - ا

نماذج من الأزياء النسائية





احذية جلدية آشورية

اما تسريح الشعر، فتشير المنحوتات ان الشعر الطويل المتدلي بحزمة خلف الرقبة كان شائعاً في الالف الثالث قبل الميلاد بالنسبة لكلا الجنسين. وقد استخدمت احياناً الأطر لتساعد على رفع الشعر الى اعلى. ومن التسريحات الاخرى جعل الشعر بجديلة او جديلتين متدليتان على الظهر. وفي العصر الاكدي تظهر التماثيل والمنحوتات ان الشعر كان يجعّد ويقسم من الوسط وتنزل حافة منه في الامام وعلى الصدغ. وكانت تسريحة النساء جعل الشعر على هيئة كعكة الى الوراء وقد تستخدم الشبكة لتثبيتها. واستخدمت النساء الاربطة والدبابيس والكلابات الى جانب الشباك ذات الاشكال المختلفة والجميلة والمصنوعة من المعادن غالباً. وفي العصور السومرية يبدو ان الرجال كانوا حليقي الرأس والوجه وتظهر التماثيل والمنحوتات البابلية والآشورية الملوك بلحى طويلة مموّجة وكثيفة وشعر كثيف ومموّج ايضاً يتدلى بانسياب على الكتفين، وربما استخدم الملوك الشعر المستعار. كما كان للكهنة وبعض القادة والجنود والاطباء والعبيد طرق خاصة لقص الشعر تميزهم عن بعضهم.[1]

ادوات الزينة والحلي:

كشفت التنقيبات الأثرية على كثير من ادوات الزينة والحلي التي استخدمت من قبل النساء والرجال في العصور المختلفة، ومنها القلائد والاساور والاقراط والخلاخل المصنوعة من الفضة او الذهب او بعض الاحجار الثمينة. كما عثر على امشاط وكلابّات ودبابيس وكعكات للشعر وكان بعضها مصنوعا من العاج او الخشب. وفي المدن الآشورية عثر على اعداد من القناني الفخارية الصغيرة التي كانت تستخدم لحفظ العطور والزيوت والمراهم المستخدمة للزينة كما عثر على مرايا وملاقط ومكاحل لحفظ معدات الزينة. وتظهر التماثيل والمنحوتات استخدام الالوان في تزيين الوجه ايضاً لاسيما اللون الاحمر. ولم يقتصر لبس الحلي على النساء بل كان الرجال ايضاً يضعون بعض الحلي على الرسغ او الذراع او غيرها.

وقد كشفت لنا التنقيبات الاخيرة في مدينة نمرود على كنوز من الحلي الذهبية التي كانت قد وضعت في المدافن الخاصة بافراد الاسرة المالكة من القرن التاسع قبل الميلاد وقد ضمَّت مختلف انواع الحلي ذات الصياغة الدقيقة جداً وتعد من اثمن ماتم الكشف عنه من هذه الحلي حتى الآن.

---

(١) اصدرت دائرة الآثار والتراث سلسلة من الكتب القيمة عن الازياء في العراق القديم صدر منها:

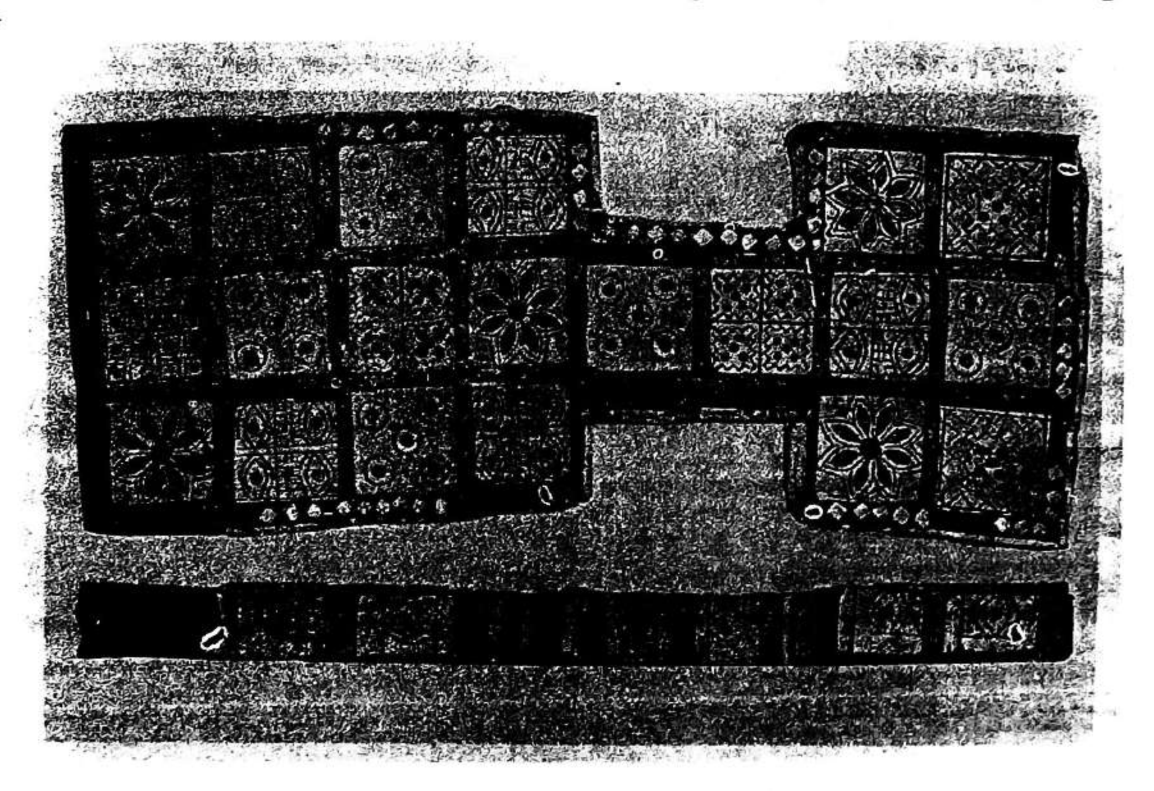
الازياء السومرية، ١٩٦٧ ، الازياء البابلية ١٩٦٨ والازياء الآشورية ١٩٧١. انظر كذلك وليد الجادر، الصناعة في موسوعة الموصل الحضارية، ج١، ص ٢١٤ – ٢١٨، والمؤلف نفسه الازياء والاثاث في حضارة العراق، ج٤، ص٣٢٣-٤٠٤.

مجالات اللهو الرياضية:

ان المعلومات المتوفرة عن مجالات اللهو والرياضة قليلة كما يصعب على الباحث ان يفصل بين ما كان القصد منه اللهو والرياضة وما كان جزءاً من طقوس دينية ، وقد يتشابك الهدفان فتكون الطقوس الدينية مجالاً للتسلية والترفيه ولاسيما ما كان يقام منها ايام الاحتفالات الدينية الرئيسة كالاحتفال بأعياد رأس السنة الجديدة في مطلع الربيع.

وقد كانت رياضة صيد الاسود والحيوانات المفترسة الاخرى من اكثر المشاهد المصورة على المنحوتات الجدارية الآشورية روعة، حيث شغل الملوك الآشوريون بهذه الرياضة بدافع ديني وعّدوا ذلك من واجبات الملك الدينية وقد يقبض على الحيوانات وتوضع في الاقفاص ثم يطلق سراحها لتمكين الملك من صيدها واظهار مقدرته في ذلك. كما مارس القوم اشكالاً مختلفة من المنازلة اليدوية كممارسات رياضية اشارت الى بعضها ملحمة جلجامش مما يشير الى ان اصولها كانت دينية، ومنها المصارعة والملاكمة. كما مارسوا الرقص على الانغام الموسيقية ربما كجزء من الطقوس الدينية ايضاً.

وكشفت لنا الحفريات الاثرية عن قطع على هيئة الواح معلّمة بالمربعات كانت تستخدم لممارسة لعبة معينة يشترك بها اثنان متضادّان على غرار النرد او الشطرنج، كما عثر على زهر يشبه تماما الزهر المستعمل الآن.



والى جانب ذلك، كانت هناك الموسيقى التي تفنّن القوم بعزفها وبصنع آلآتها الوترية والهوائية والطبلية. ولعل قيثارة اور تمثل اشهر الآلات الموسيقية التي تم الكشف عنها حتى الآن وقد اظهرت المنحوتات الجدارية انواعاً مختلفة من الآلات الموسيقية[1].

اساليب الدفن:

ترتبط اساليب الدفن ارتباطاً وثيقاً بالمعتقدات الدينية السائدة ولاسيما نظرة الانسان الى الموت وما بعد الموت. ولم تكن معتقدات العراقيين القدماء الى ذلك واضحة تماماً. مع ذلك، يبدو ان العراقيين القدماء اعتقدوا بان الموت لايؤلف نهاية مطلقة للانسان بل ان هناك صلة مابين روح الانسان وجسده تبقى حتى بعد الموت وان روح الانسان تذهب بعد الموت الى عالم الأرواح، العالم السفلي، حيث تبقى هناك الى ابد الدهر، الا ان راحة الروح واستقرارها تعتمد الى درجة كبيرة على اتباع الاساليب الصحيحة في دفن الميت وتجهيزه وتقديم القرابين له واقامة الطقوس والصلوات الدينية على روحه كما تعتمد ايضاً على الاعمال الحسنة في الدنيا وعلى ما خلّفه من اولاد. وهكذا يمكن ان نفسر اهتمام العراقيين القدماء بدفن الموتى واتبّاعهم اساليب معينة في ذلك ودفن بعض الحاجيات والحلي معهم ومعاقبة بعض المجرمين بعقوبة الموت وترك جثثهم دون دفن.

وقد دفن الموتى في العصور المبكّرة تحت ارضيات المساكن في حفر بسيطة ويبدو ان الدافع الى دفن الموتى تحت ارضية المسكن يمكن ان يفسر بانه يمثل اعتقاد الانسان ببقاء صلة الميت مع افراد اسرته اي انه ناتج عن العاطفة التي يكنّها اهل الميت تجاهه. وقد استخدمت هذه الطريقة في دفن الموتى ايضاً من قبل الملوك البابليين والآشوريين وكان الدفن في القصر الملكي يعد امتيازاً ملكياً خاصاً يتمتع به الملوك وافراد اسرهم الملكية والمقربين اليهم فقط. واعتاد الملوك الآشوريون على دفن الملوك في القصر الملكي في مدينة آشور حتى وان كان الملك قد اتخذ غيرها من المدن عاصمة له، اضافة الى ذلك، فقد استخدمت المقابر العامة داخل المدن وخارجها وقد كشف عن العديد منها في مدن العراق القديمة كما دفن بعض الملوك في اضرحة مستقلة واقيمت مزارات خاصة لمدافنهم.

---

[1] انظر تفصيل ذلك: صبحي انور رشيد، الموسيقى في بلاد اشور في موسوعة الموصل الحضارية، موصل ١٩٩١، ج١، ص ٤٦٨-٤٨٩.

وكانت القبور بصورة عامة بسيطة، عبارة عن حفرة مستطيلة في الارض توضع فيها الجثة، وهي الطريقة الاكثر شيوعاً، كما كان هناك قبوراً مشيدة باللبن او الآجر المفخور وقد تكون مسقفة بأقبية وكانت الطريقة عند دفن الميت ان تغلّف الجثة بالحصران ثم استعملت التوابيت الخشبية والتوابيت المصنوعة من الطين او الفخار واستعملت الجرار لوضع جثث الاطفال اضافة الى توابيت الحجر التي استخدمت بالدرجة الاولى من قبل الملوك ولم يكن هناك اتجاه معين او شكل معين لوضع الجثة عند الدفن، بل اختلفت الطرق في العصور المختلفة.

وكانت العادة ان يعطّر الميت ويبخّر ومن ثم توضع معه العديد من الحاجيات واللوازم والحلي والاسلحة مما يمكن تسميته بالاثاث الجنائزي كما ضم الاثاث الجنائزي الدمى الطينية. ولابد من الاشارة هنا الى الكنوز الذهبية الرائعة التي تم اكتشافها من قبل دائرة الآثار والتراث العراقية في عدد من القبور التي وجدت في قصر اشورناصربال الثاني في مدينة كلخو (نمرود). ويشير وجود الاثاث الجنائزي الى معتقدات القوم، كما سبق وان اشرنا، بان راحة الروح واستقرارها تعتمد على اساليب الدفن والطقوس الدينية المرافقة والقرابين المقدمّة والاثاث المودع في القبر. وقد حاول الملوك حماية القبور من السرقة الا انه لم يعثر حتى الان على ما كان مدفوناً في القبور الملكية في بلاد بابل وآشور باستثناء مااشير اليه اعلاه، وماتم الكشف عنه في مقبرة اور الملكية مما سبقت الاشارة اليه في مكان آخر.

ومن الطبيعي انه كان يرافق الدفن مناحات وبكاء وعويل، وقد يعلن الحداد لمدة سبعة ايام، اوثلاثة ايام، ان كان الميت من الملوك او الشخصيات المهمة في الدولة ويتوافد الناس لتقديم التعازي بهذه المناسبة. ولم يكن جثمان الملك يدفن بعد الوفاة مباشرة بل كان يمدد على سريره في قصره حيث يتجمع حوله افراد اسرته ويتجمهر الناس في الخارج ولمدة قد تصل الى ثلاثة ايام ومن ثم تبدأ مراسيم الدفن[1].

---

(١) للاطلاع على تفسير اساليب الدفن والآثاث الجنائزي والمقابر المكتشفة وكل مايتعلق بهذا الموضوع انظر: نائل حنون، عقائد مابعد الموت في حضارة وادي الرافدين القديمة، بغداد، ط٢، ١٩٨٦، ص٢٢١-٣٤٩.

مصادر منتخبة

الجادر، وليد محمود وضياء العزاوي : الملابس والحلي عند الآشوريين ، بغداد ، ١٩٧٠ .
الازياء العراقية ، مجلة الفن والتراث المصرية ، ١٩٧١ . الحرف والصناعات اليدوية في العصر الآشوري المتأخر، بغداد ، ١٩٧٢ . الازياء والآثاث ، في : حضارة العراق ، ج ٤ ، ص ٣٢٣ - ٤٠٤ . التجمعات الزراعية الاولى في : المدينة والحياة المدنية ، ج ١ ، ص ٥٩ - ١١١ الصناعة في : موسوعة الموصل الحضارية ، ج ١ .

جرجيس ، موفق : البيت العراقي القديم في عصور ماقبل التاريخ ، رسالة غير منشورة ، بغداد ، ١٩٧٦ .

حمود ، حسين ظاهر: مكانة الاولاد في المجتمع العراقي القديم ، رسالة غير منشورة ، كلية الآداب ، موصل ، ١٩٩١ .

الراوي ، فاروق : جوانب من الحياة اليومية ، في : حضارة العراق ، ج ٢ ، ص ٣٦٩ - ٣٩٢ الأوضاع الاجتماعية في : موسوعة الموصل الحضارية ، ج ١ ، ٢٦٧ - ٢٨١ .

رويح ، صالح : العبيد في العراق القديم ، بغداد ، ١٩٧٧ .

دائرة الآثار والتراث : الأزياء السومرية ١٩٦٧ الأزياء البابلية ١٩٦٨ الأزياء الآشورية ١٩٧١ .

سليمان ، عامر: القانون في العراق القديم ، موصل ، ١٩٧٧ . وفاضل عبدالواحد علي : عادات وتقاليد الشعوب القديمة ، موصل ، ١٩٧٩ ، جوانب من حضارة العراق القديم ، في : العراق في التاريخ ، بغداد ، ١٩٨٣ ، ١٨٥ - ١٩٣ ، الحياة الاجتماعية والخدمات في : المدينة والحياة المدنية ، ج ١ ، ٢٣٥ - ٢٨٢ .

الدباغ ، تقي : من القرية الى المدينة ، في المدينة والحياة المدنية ، ج ١ ، ١٥ - ٣٩ .

الهاشمي ، رضا : نظام العائلة في العهد البابلي القديم ، بغداد ، ١٩٧١ القانون والاحوال الشخصية في : حضارة العراق ، ج ٢ ، ٦٣ - ١٠٨ .

● الفصل السادس ●

القانون وتطبيق العدالة

نشأة القوانين العراقية القديمة

تعد القوانين العراقية القديمة المكتشفة بحق من اقدم القوانين المعروفة في العالم حتى الآن ، حيث يرقى تاريخ اقدمها ، وهو قانون اور– نمّو، الى اواخر الالف الثالث قبل الميلاد ، فهي بذلك قد سبقت القوانين الايرانية والحثية والمصرية واليونانية والرومانية وجميع القوانين الاخرى المعروفة في العالم. اضافة الى ذلك ، فقد تميزت بنضجها

(١) استخدم مصطلح «القوانين» و«قانون» للدلالة على الاعمال التشريعية التي اصدرها الملوك والحكام العراقيون القدماء من غير الاصلاحات والمراسيم. اعتقاداً منا بأنه ادق المصطلحات التي يمكن ان توصف بها تلك الاعمال التشريعية، ومن الباحثين من اطلق عليها مصطلح (شرائع) ومفردها (شريعة) ، والشريعة لغة «هي كل ماسنّ الله من الدين وامر به كالصوم والصلاة والحج والزكاة وسائر اعمال البر» (لسان العرب ، ابن منظور، ج ١٠ ، ص ٤٠ وما بعدها) ، فالمصطلح منصرف اذن الى الشرائع السماوية وملتصق بها واطلاقه على القوانين العراقية القديمة لايعكس طبيعة تلك القوانين الصادرة عن ملوك معينين على الرغم من ادعائهم انهم انما اصدروا تلك القوانين تنفيذاً لرغبة آلهتهم. وقد فضل البعض الآخر تسميتها بالتقنينات ، والتقنين يضم عادة مجموعة القوانين المطبقة في موضوع او مجموعة من المواضيع على وجه التحديد وهذا مالا ينطبق على القوانين العراقية القديمة. وفي مسلة حمورابي اشير الى القوانين التي اصدرها حمورابي بالعبارة : «دنّات مِشارِم شَ حَمُّرابي أكِن» بمعنى «(هذه هي) القوانين العادلة التي ثبتها حمورابي». وكلمة دنّات ، ومفردها دِنُم تعني اصلاً «قضية» او «قرار حكم» واستخدمت لتعني «قانون» او «مادة قانونية» ويماثلها بالعربية كلمة دانَ– يدينُ وديّان بمعنى قاضٍ او حاكم.

وتنظيمها ومعالجتها للكثير من جوانب الحياة التي كانت سائدة انذاك. وبسبب دلالاتها المتعددة ، فقد انكبّ الباحثون منذ اكتشاف اول هذه القوانين في مطلع القرن الحالي على دراستها وتحليلها وترجمتها واستقراء الموضوعات التي عالجتها للتعرف من خلالها على الجوانب الحياتية المختلفة لسكان العراق القدماء ، فصدرت المئات من البحوث والدراسات المتخصصة وبمختلف اللغات ، وقد زاد في تحفيز الكتبة والباحثين على دراستها ماوجدوه من اوجه شبه كبيرة بين بعض ماورد فيها من مبادئ قانونية واحكام مع ماهو معروف في اسفار العهد القديم ، وفي غيره من الكتب القديمة والقوانين التي صدرت في فترات لاحقة .

واذا كان اقدم القوانين المكتشفة يرقى بتاريخه الى اواخر الالف الثالث قبل الميلاد ، فإن ذلك لايعني ان الفترة السابقة لذلك كانت خالية من القوانين ، بل ان وجود دلائل تطبيق القانون في صورة الوثائق القانونية التي خلّفها لنا السكان وكذلك التقدم الحضاري الذي شهده الالف الثالث قبل الميلاد ، تؤكد على عمق التجربة واصالتها في العراق القديم ، وانه ليس من المستبعد ان تكشف لنا التنقيبات المستقبلية قوانين اقدم من قانون اور– نمو؛ بل ان الدلائل المتوفرة تؤكد انه لابد وان كان هناك قوانين مدونة تنظم ادارة دول المدن السومرية التي ازدهرت في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد (حدود ٢٩٠٠ – ٢٤٠٠ ق . م) تنظم وتحدد الضوابط التي كانت تحكم علاقات الافراد بعضهم بالبعض الآخر وعلاقتهم بالسلطة الحاكمة وتنظم حياتهم الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية . وعندما قامت دولة القطر الواحدة ، وهي الدولة الاكدية التي اسسها سرجون في حدود عام ٢٣٧١ ق . م . اصبح اصدار القوانين اكثر ضرورة من اجل تنظيم العلاقات بين سكان المدن والاقاليم المختلفة التي انضوت تحت لواء الدولة الجديدة بعد ان كانت كل منها خاضعة لقوانين واعراف وتقاليد وتعاليم ومراسيم ملكية خاصة بها تتعارض احياناً مع ماكان معمولاً في غيرها من المدن والأقاليم .

كما ان ظهور الاقوام الجزرية – الأكدية على مسرح الاحداث السياسية وتأسيسها للدولة الاكدية لابدّ انه أثّر في ادخال مبادئ ومثل واحكام قانونية جديدة الى حياة المجتمع الجديد الموحد الذي ضم السومريين والاكديين.

واذا كانت بعض الدلائل تشير الى احتمال وجود قوانين معروفة منذ عصر دول المدن السومرية ، فإن هناك دلائل تؤكد على ان مجتمعات المدن العراقية القديمة في عصور قبل التدوين كانت تعيش في ظل اعراف وتقاليد نظمت حياة الافراد وحددت علاقاتهم ببعضهم وكانت لها قوة القوانين احياناً تماماً كما هي الحال حتى الآن في المجتمعات البدوية والقبلية التي تعيش وفق الاعراف والتقاليد السائدة ، وان القوانين المدونة التي ظهرت فيما بعد ماهي في الواقع الا انعكاس لتلك الاعراف والتقاليد ، نظمت وبوّبت واضيف اليها وحذف منها ما يتلائم وحياة المجتمع وقت تدوين القوانين.

اهمية دراسة القوانين القديمة

تحتل دراسة القوانين القديمة اهمية خاصة بالنسبة للعصر الحديث ، فالقوانين هي في الواقع المرآة التي تعكس لنا واقع المجتمع وعلاقة افراده بعضهم ببعضهم الآخر وعلاقة كل منهم بالسلطة الحاكمة اضافة الى ماتعكسه عن نشاطات الانسان المختلفة ، لذا فإن دراسة نشوء وتطور القواعد والمبادئ القانونية هي في واقع الحال دراسة في نشوء وتطور المجتمعات ، وتشمل دراسة القانون الى جانب دراسة القوانين المدونة ، جميع الوثائق ذات العلاقة . اضافة الى ذلك ، فإن لدراسة القانون فائدة كبيرة بالنسبة لرجال القانون حيث تساعدهم على فهم نشوء وتطور القواعد القانونية عبر العصور وتعطيهم الملكة على وضع القواعد القانونية الملائمة للعصر والبيئة التي يعيشون فيها ، والافادة من تجارب السابقين في تشريع القوانين وتجاوز القواعد القانونية التي ثبت فشلها . ومن هذا المنطلق دأبت الجامعات في العالم ، بما فيها الجامعات العراقية ، على تدريس مادة تاريخ القانون ، وحيث ان القانون الروماني هو المنبع الذي اشتقت منه القوانين الاوربية ، ولاسيا القانون الفرنسي ، لذا ركّزت جميع الجامعات على تدريس تاريخ القانون الروماني فقط دون الاشارة الى القوانين العراقية القديمة التي سبقت القانون الروماني بأكثر من الف وخمسمائة سنة ، وقد اتبعت الجامعات العراقية المنهاج نفسه الى فترة قريبة ثم شعر المهتمون بتدريس تاريخ القانون في الجامعات العراقية بأهمية تدريس تاريخ القانون العراقي القديم فغيّروا المناهج الخاصة بتاريخ القانون واضافوا اليها قسماً خاصاً بتاريخ القانون في العراق القديم .

وكان للقانون وتطبيقه اهمية قصوى في نظر العراقيين القدماء انفسهم طالما كان الاعتقاد انذاك بأن مصدر القوانين هي الآلهة اوحتها الى الملوك ، ممثليها على الأرض ونوّابها في ادارة شؤون البشر، لذا كان الالتزام بتطبيقها واحترامها يعد واجباً دينياً مفروضاً على

الافراد ، كما كان في الوقت نفسه ، من واجب الملوك نشر العدل واحقاق الحق ونصرة المظلوم والاقتصاص من الظالم ، فالملك هو الراعي العادل لانه يمثل الآلهة على الأرض واذا « لم يحرص على تطبيق العدالة ، فسيغير الاله ايا قدره » اي ان مصيره وقدره _ منوط بموقفه من العدالة وحرصه على تطبيقها. [١] وهكذا تباهى وتفاخر الملوك بأنهم اصدروا القوانين العادلة تنفيذاً لرغبة الآلهة ونشروا الحق والعدالة بين الناس [٢] . ومع اعتقاد القوم بأن الآلهة هي ينبوع العدالة ومصدر القوانين ، اوحتها الى الملوك بطرقها الخاصة ، الا ان القوانين المكتشفة حتى الآن لم تكن قوانين دينية بل انها لم تعالج اية قضايا دينية ولم تتطرق الى الكهنة الا فيما له علاقة بالناحية الاقتصادية ، في حين خصصت جميع المواد القانونية لتنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية وبيان حقوق وواجبات افراد المجتمع على اختلافهم.

مصادر معلوماتنا عن القانون في العراق القديم

تعتمد دراستنا للقانون في العراق القديم بالدرجة الاولى والاساس على النصوص المسمارية ذات العلاقة. اضافة الى ذلك ، يمكن الافادة مما ورد في بعض الكتب القديمة عن بلاد بابل وآشور وعن القوانين والاعراف التي كانت سائدة فيها مثل كتاب العهد القديم وكتب اليونان والرومان. كما يمكن الافادة ايضاً في تفسير بعض الاحكام والقواعد القانونية من دراسة قوانين الاقوام الجزرية الاخرى نظراً للتشابه الكبير بينها وبين القوانين البابلية والآشورية. واخيراً فإنه بالامكان فهم بعض الاحكام والقواعد والاعراف والتقاليد العراقية القديمة من خلال دراسة مايماثلها في المجتمعات العراقية الحديثة ولاسيما المجتمعات الريفية والقبلية التي ظلت تحافظ على عاداتها وتقاليدها القديمة التي تمتد جذورها احياناً الى العصور القديمة.

وتظل النصوص المسمارية ذات العلاقة تمثل المرتبة الاولى بين مصادر معلوماتنا عن القانون في العراق القديم. وحيث انه قد تم العثور على مئات الآلاف من النصوص المسمارية والتي يمكن ان نستنبط من معظمها بعض ماله علاقة بالقانون ، الا ان النصوص الآتية هي الأكثر اهمية في دراسة القانون :

---

(١) انظر رضا الهاشمي ، القانون والاحوال الشخصية ، في : حضارة العراق ، ج ٢ ، ص ٦٤.
(٢) عامر سليمان ، القانون في العراق القديم ، ص ١٣٦.

اولاً : القوانين المدونة وتضم القوانين التي تم العثور عليها حتى الآن وجميعها ، باستثناء قانون حمورابي ، مدونة على رقم طينية تمثل نسخاً ثانية من القوانين الاصلية التي ربما كانت مدونة على مسلات من الحجر على غرار مسلة حمورابي .

ثانياً : الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية التي كان اوروانيمجينا (اوروكاجينا) قد اصدرها لاصلاح المفاسد التي عمت مدينة لجش في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد مما سيأتي تفصيله فيما بعد .

ثالثاً : المراسيم الملكية : وهي المراسيم او التعليمات التي كان يصدرها الملوك ولاسيما في العصر البابلي القديم ، بين فترة واخرى لمعالجة الاوضاع الاقتصادية الآنية . وقد تشمل المراسيم تحديد اسعار المواد الغذائية وغيرها من المواد والغاء بعض الديون المستحقة والفوائد المترتبة عليها او تأجيلها والغاء او تخفيض الضرائب . واضافة الى ذلك ، ضمت المراسيم بعض القواعد والاحكام ذات المفعول الدائم ونظراً لأهمية هذه المراسيم ، فقد ارخت بها السنون وتفاخر الملوك باصدارها ويرى بعض الباحثين ان المراسيم تمثل في الواقع القوانين الفعلية التي كان يعمل بها وان القوانين المعروفة ماهي الا مجموعة من تلك المراسيم جمعها الملوك واصدروها على هيئة قوانين وان كان هذا الرأي لايقوى على المناقشة[١] .

امكن التعرف حتى الان على مراسيم كان الملك آمي ، صدوقا (١٦٤٦–١٦٢٦ق.م) احد ملوك سلالة بابل الاولى ، قد اصدرها وتتضمن عشرون فقرة ، كما تعرف الباحثون على فقرتين فقط من المراسيم التي اصدرها الملك سمسوايلونا (١٧٤٩–١٧١٢ ق.م) احد ملوك سلالة بابل الاولى نفسها ، وقد سميت المراسيم باللغة الاكدية صِمدات شَرِّم simdāt šarrim[٢] . وقد اشار حمورابي الى انه اصدر مراسيم ملكية في سنة حكمه الثانية وارّخ بها تلك السنة ، الا اننا لم نعثر على تلك المراسيم بعد.

رابعاً: الاحكام الصادرة او القضايا السابقة : هناك مجموعة كبيرة من النصوص المسمارية تعرف بالاحكام الصادرة او القضايا الكاملة (بالاكدية دِينُم گمرُم dinum gamrum) فقد كانت العادة في المحاكم ان تدون القضايا التي تنظر فيها المحاكم على الواح من الطين تحفظ لدى موظف معين وكانت تتضمن حيثيات القضية واسماء الاطراف

(١) انظر عامر سليمان، القانون في العراق القديم، ص ١٤٩–١٥٦.

(٢) CAD, 16,p. 194 ff. Driver and Miles, The Babylonian Laws, Oxford, 1955, Vol.I, pp.17 – 23

المتخاصمة وشهادات الشهود وافادات اطراف القضية ومن ثم قرار الحكم واسماء القضاة وتاريخ اصدار الحكم. وكانت اكبر مجموعة من هذه النصوص قد اكتشفت في مدينة لجش والتي ترقى بتاريخها الى عصر اور الثالثة وتضم اكثر من ثلاثمائة وثيقة وشملت مختلف القضايا الخاصة بالاحوال الشخصية كالزواج والطلاق والارث والتبني وقضايا عامة كالسرقة والاحتجاز والاستغلال، كما عثر في موقع نوزي قرب كركوك على مجموعة من هذه الوثائق ذات اهمية كبيرة، وعثر من العصر الآشوري الوسيط والحديث على عدد من هذا النوع من الوثائق.

ان اهمية هذه الوثائق لاتقتصر على ما تحمله من قواعد قانونية مشابهة او مغايرة لما ورد في القانون بل انها تمكن الباحث من رسم صورة متكاملة عن كيفية تطبيق العدالة والاجراءات القانونية المتّبعة عند اقامة الدعوى والاستماع الى الافادات والشهود ومدى التزام القضاة بالقواعد القانونية السائدة. اضافة الى ذلك، فقد ضمت هذه الوثائق بعض القضايا التي لم تتطرق اليها القوانين المدونة والتي لابد وان كانت سائدة في المجتمع البابلي، والتي ربما كانت على شكل اعراف ويرى بعض الباحثين ان القضايا السابقة او الكاملة كانت احد المصادر المهمة للقانون اعتمد عليها المشرع عند اصداره قانون جديد.

في حين يرى آخرون ان القوانين المدونة عبارة عن تقارير ملكية موجهة الى الالهة تتضمن القضايا التي نظرتها المحاكم واتخذت بشأنها قرارات عادلة. بغية «تثبيت عدل واستقامة الملك امام الآلهة والبشر».

ومن النماذج البارزة عن القضايا الكاملة، قضية خاصة بجريمة قتل وقعت في بداية العصر البابلي القديم (بداية الالف الثاني قبل الميلاد) حوكم فيها اربعة اشخاص بتهمة قتل احد الكهنة. ولعل اروع ما في هذه القضية ان الحكم الذي اصدره مجلس مدينة نيبور حيث عقدت المحاكمة يشابه الى حد كبير الحكم الذي تصدره المحاكم في الوقت الحاضر فيما اذا عرضت القضية عليها وفيما يأتي موجز هذه القضية:

ن و ل الحلاق و أ عبد د البستاني قتلوا ك الكاهن. وبعد ان قتل ك اخبروا س ابنة ص زوجة ك ان زوجها قد قتل ولكن س ابنة ص لم تفتح فاها وغطّت القضية. عرضت قضيتهم امام الملك في ايسن وامر الملك ان تقبل المحاكمة في مجلس مدينة نيبور. وخاطب كل من ... (تسعة اشخاص) المجلس وقالوا: «الرجال الذين قتلوا رجلاً لايحق لهم ان يكونوا رجالاً احياء، اولئك الرجال الثلاثة وتلك المرأة يجب ان يقتلوا امام كرسي ك الكاهن». وخاطب كل من ش و ب المجلس وقالوا: « لعل س ابنة ص قد قتلت زوجها،

ولكن ماذا يمكن ان تفعل امرأة في (مثل هذه الحالة) حتى تقتل؟ «وفي مجلس مدينة نيبور خاطبهم هكذا: «المرأة التي لاتطيع زوجها قد تعطي معلومات الى عدوه لعله (يتمكن) من قتل زوجها ولعل العدو يخبرها بان زوجها قد قتل فلماذا اذن لايضطرها على السكوت حوله؟ انها قتلت زوجها (اكثر من غيرها) ان جريمتها اكبر من جريمتهم انهم قتلوا رجلاً. وفي نيبور نفسها دقق الموضوع وسلّم كل من ن وك الحلاق وأ عبد د البستاني وس ابنة ص زوجة ك ليقتلوا. القضية عرضت للمحاكمة في مجلس مدينة نيبور»[1].

خامساً: الرسائل، للرسائل اهمية كبيرة في دراسة القوانين العراقية القديمة الملكية منها والشخصية، وقد تم العثور على مجموعة كبيرة من الرسائل تعود الى فترات مختلفة ... من العصر البابلي القديم والعصر الاشوري الحديث. فكثير من الرسائل الملكية تضم الاوامر والتعليمات والتوجيهات الملكية التي كان يبعث بها الملك الى حكام المدن والمقاطعات بشأن قضايا معينة. ويبدو ان كثيراً من القضايا القانونية، ولاسيما القضايا المهمة والتي تتضمن قضية قتل، كان ينظر فيها من قبل الملك للبت فيها ومن ثم يرسل رسالة بمضمون حكمه وقراره بشأنها الى الموظفين المعنيين اما رسائل الموظفين الى الملك، فقد تشمل تقارير عن بعض القضايا القانونية المعروضة عليهم والطلب الى الملك بان يصدر امره بشأنها وقد تتضمن مثل هذه الرسائل موجز القضية المعروضة واقوال الشهود والاجراءات الاخرى التي اتخذها الموظف المعني بشأنها.

ومن الصعوبات التي تواجه الباحث المعاصر في دراسة الرسائل ان ترجمتها تكون صعبة عادة لعدم معرفتنا المسبقة بما قد تتضمنه الرسالة من معلومات كما ان الرسائل بصورة عامة لاتشير الا الى جانب واحد من جوانب القضية القانونية المذكورة فيها وهو الجانب الذي يمثل وجهة نظر المرسل وان احتمال الكشف عن الجانب الثاني احتمال ضعيف جداً.

ومن دراسة ماتم الكشف عنه من رسائل ملكية، يظهر لنا بان عدد الرسائل ذات العلاقة بالقضايا القانونية كان يتناسب وطبيعة سياسة الملوك في ادارة شؤون ممالكهم، فان كانت سياسة الملك سياسة مركزية حازمة يتولى الملك فيها النظر في جميع القضايا، كالسياسة التي اتبعها حمورابي او شمشي-ادد الاول، كان عدد الرسائل الملكية والرسمية من هذا النوع كبيراً، وكانت التقارير المرسلة الى الملك غاية في التفصيل والدقة. اما اذا

---

(١) Kramer. From the Tablets of Sumer Chicago, 1956, pp.52 – 55. انظر

انظر كذلك فوزي رشيد، الشرائع ص ١٧–١٨.

كانت سياسة الملوك تعتمد اللامركزية في ادارة/المملكة، فان عدد الرسائل الملكية ذات العلاقة يكون عادة قليل ولايتوقع ان تتضمن الرسائل المكتشفة الا توجيهات وارشادات عامة [1].

ويمكن القول ان من اهم مجموعات الرسائل المكتشفة هي رسائل الملك حمورابي الى حكامه وموظفيه ورسائل الملك الآشوري شمشي- ادد الاول الى ابنه ونائبه على اقليم ماري ورسائل العصر الآشوري الحديث بصورة عامة المكتشفة في نينوى ونمرود. ولاعطاء فكرة عن طبيعة هذه الرسائل نقبل ادناه ترجمة رسالة من العصر البابلي القديم كان قد ارسلها احد الاشخاص الى الملك حمورابي نفسه، ولم يذكر اسم المرسل في الرسالة، وتخص قضية نزاع نشب بين اخوين حول ملكية جارية كانا قد ورثاها عن ابيهما ومن ثم باعاها الى تاجر. واقتسما ثمنها مع بقية اخوتهما، وبعد ان تم ذلك عاد احد الاخوين فاشتراها ثانية من التاجر غير ان اخاه الثاني طالب بها واخذ الجارية لنفسه دون وجه حق. ويطلب مرسل الرسالة من سيده الملك ان ينظر في القضية ويتخذ القرار المناسب بشأنها وهو اعادة الجارية الى صاحبها الشرعي. والرسالة لاتتضمن المقدمة التي تضمنتها الرسائل عادة والتي تذكر اسم المرسل والمرسل اليه وربما كتبت المقدمة على غلاف الرسالة الذي لم يعثر عليه: تبدأ الرسالة بالقول ان:

> « إشمي- ادد بن إكمل- سين عبدك، تحدث الي كما يلي: هكذا قال: لقد بعنا انا واخوتي الى تاجر امةً من بين تركة ابي واستلمنا ثمنها وافتديت تلك الامة انا نفسي ولديَّ وثيقتها المختومة بذلك. ولمدة عشر سنوات فان تلك الامة كانت (تسكن) امامي ولم يطالب بها اخوتي. والان اخذ اخي (مخادوم) تلك الامة الى مكان (ثانٍ). هكذا قال لي. سيذهب اشمي- ادد امام سيدي فليسمع سيدي ذلك من شفتيه وينظر الى وثيقته وليصدر الامر ضد (مخادوم) حتى يعيدوا الامة له... » [2].

---

(١) تمت دراسة الرسائل الملكية والرسمية من قبل العديد من الباحثين انظر مثلاً:

A. Goetze, Fifty Old Babylonian Letters, Sumer, 14(1958) pp. 3 – 78; L. Watermann, Royal Correspondance of the Assyrian Empire, AnArbor, 1930, vol. I – III.

(٢) عامر سليمان، القانون في العراق القديم، ص ٩٧.

وتذكرنا هذه الرسالة بما جاء في المادة ١١٩ من قانون حمورابي التي تعطي الحق للشخص الذي باع امته بسبب حاجته لسداد دينه باستعادة شراء الامة من التاجر.

سادساً- الوثائق اليومية: وتضم جميع انواع العقود وايصالات التسلم والتسليم وغيرها من الوثائق ذات العلاقة بالمعاملات التجارية ومعاملات الاحوال الشخصية فالمعروف ان العراقيين القدماء لم يعترفوا بشرعية المعاملات على اختلافها ما لم تكن محررة ومشهد عليها، كما ان اي تغيير في نص الوثيقة المحررة لم يكن يعترف به اذا لم يتم بحضور شهود. وقد كان من نتائج ذلك ان تم العثور على الآف من الرقم الطينية التي تتضمن عقود ومعاملات مختلفة الى درجة ان طغت نسبة هذا النوع من الرقم المسمارية على اي نوع آخر من النصوص وقد اهتم علماء المسماريات والاقتصاد والقانون بدراستها والنفوذ من خلالها الى واقع الحياة اليومية في العراق القديم وعلى الرغم من ان هذه الوثائق لاتمثل قوانين مدونة غير انها كانت تستند دون شك على القوانين والاعراف السائدة آنذاك، لذا كانت اهميتها كبيرة لاكمال النقص الموجود لدينا في القوانين المدونة المكتشفة وكذلك في معرفة الى اي مدى كانت القوانين تطبق فعلاً في المعاملات اليومية. ومن مقارنة الوثائق ذات المواضيع المتشابهة التي عثر عليها، كعقود البيع او الايجار او الرهن او الزواج او غيرها، يظهر ان الخطوط العامة لكل نوع من الوثائق كانت متشابهة الى حد كبير. وقد تضمنت الوثائق اليومية، كما اشرنا، مختلف انواع العقود الاقتصادية وعقود ذات علاقة بالاحوال الشخصية.

كانت العادة ان يدون العقد على لوح من الطين وذلك بعد ان يتم الاتفاق الشفوي بين الاطراف المعنية، من قبل كاتب محترف غالباً لقاء اجر معين. وكان لاستخدام الطين كمادة للكتابة اهمية خاصة لضمان سلامة المعاملات ومنع التزوير والتحوير الذي يمكن ان يحدث. فما ان تتم الكتابة على الطين الطري حتى يجف الرقيم ويتصلب وتصعب عندها اية محاولة لتغيير العلامات المطبوعة عليه الا اذا اعيد الى طراوته ثانية بواسطة الماء. وتحسباً لهذا الاحتمال فقد ابتدع العراقيون طريقة فذة لحفظ الرقم الطينية من التزوير وذلك اما بفخرها او وضعها داخل غلاف رقيق من الطين ايضاً واعادة كتابة فحوى العقد على الغلاف وكان الكاتب يضع الرمل الجاف بين الغلاف والرقيم لمنع التصاقهما. فاذا جف الرقيم والغلاف وتقلصا اصبح اخراج الرقيم الاصلي مستحيلاً دون كسر الغلاف وكانت العادة ان لايكسر الغلاف الا امام القضاة اذا نشب خلاف بين المتعاقدين. ومن الجدير بالذكر ان الخبراء في الوقت الحاضر عجزوا عن معرفة مضمون الرقم الاصلية التي عثر عليها وهي داخل

الاغلفة الا بكسر الاغلفة في حين هناك اكثر من طريقة لفتح الرسائل الحديثة وقراءة فحواها ومن ثم اعادة تغليفها دون ان تترك اي اثر لذلك. وفي بعض العصور كان الكاتب يحرر نسختين من العقد المبرم او اكثر يحتفظ كل طرف بنسخة وربما وضعت نسخة من العقد في معبد المدينة.

وكانت اسماء الشهود تدون في نهاية العقد وكان بعض الشهود احيانا يحملون صفة رسمية او دينية ولعلهم كانوا يمثلون الحكومة او المعبد وكان الكاتب آخر الشهود وغالبا ما كان العقد يختم بختم الاطراف المتعاقدة او بختم احدهم فقط. وفي العصر الآشوري الحديث ومابعده كان يستعاض عن الختم بطبعة اظافر الطرف الثاني (البائع او المدين) ويذكر اسمه الى جانب تلك الطبعات، او طبعة المحبس او الخاتم او طرف ردائه تثبيتاً لرضائه واعترافه بالعقد وكانت غالبية العقود تختم بذكر التاريخ، اليوم والشهر والسنة، حسب الطريقة المتبعة في تاريخ السنين سواء اكانت حسب اهم الحوادث او باسم الملك او باسم اللمّو.

وكانت العقود تضم بصورة عامة تفاصيل موضوع العقد (ارض او عقار او رقيق او زواج او طلاق..) ثم تذكر بعد ذلك اسماء الاطراف المتعاقدة تتبعها بعض المصطلحات والعبارات الفنية القانونية الخاصة باتمام العقد كالعبارة الخاصة برضا الطرفين المتعاقدين واستلام الثمن كاملاً. ويلي ذلك الشروط الخاصة، كالشروط الجزائية والتزام الاطراف المتعاقدة بالعقد وتحديد المسؤولية في حالة الاختصام او ادعاء طرف ثالث.

وفيما يأتي نموذج لاحد العقود من العصر البابلي القديم:

وهو عقد خاص ببيع حقل، وقد دون باللغة الاكدية غير ان بعض المصطلحات الفنية المستخدمة مدونة باللغة السومرية. وقد نص العقد على ان عملية البيع قد تمت ودفع الثمن كاملاً ورضي كل طرف من الاطراف المتعاقدة وتم تسليم آلة معدنية تسمى بكانمُ رمزاً لانتقال ملكية الارض تماماً كما نفعل الان عند بيع بيت حيث يسلّم مفتاح البيت وعند بيع السيارة سويج السيارة. كما تم القسم بحياة الملك والاله للالتزام ببنود العقد. وقد تتضمن بعض العقود شروط جزائية في حالة النكول عن العقد.

> «١ إبلو (و) ١ اِيكو من الحقل في منطقة (خ)[1] بجوار
> حقل (ب). (م) اشترى من (أ). سيدفع له الثمن

---

(١) رغبة في تسهيل الترجمة واظهارها بصيغة بسيطة استعضنا عن اسماء الاشخاص بالحرف الاول من اسم كل شخص فقط

كاملاً فضة (وبذا اصبح) قلبه راضياً ومحادثاتهم كاملة.
وسلّمه البوكانُم (و) اقسم بحياة الملك بأن لايطالب احد الآخر في الايام المقبلة.
(اسماء ستة شهود آخرهم الكاتب)
(التأريخ والختم)[1]

ومن الطريف الاشارة الى ان بعض العقود من العصر الآشوري الحديث (٩١١- ٦١٢ق.م) تضمنت شروطاً جزائية قاسية جداً ويستحيل تنفيذها احياناً. وربما كانت الغاية من بعضها التهديد والتحذير والتخويف من الرجوع عن العقد كما في العقد الآتي الخاص ببيع مساحة كبيرة من الارض حيث نصت الشروط الجزائية على انه:

«ليس هناك انسحاب (او) (دعوى) (او) خصومة. وفي المستقبل كل من يضع يده على تلك الارض (و) يقيم الدعوى او خصومة..... عليه ان يضع مناً من الفضة ومنّا من الذهب في حضن الاله ننورتا في كلخو ويهدي اربعة خيول بيضاء عند قدمي الاله آشور و يقدم اربعة خيول عند قدمي الاله نرجال وسيأكل مناً من الصوف الممشط ويشرب اناء الاكانو الاعتيادي ويحرق ابنه الاكبر امام الاله سين ويحرق ابنته الكبرى امام الاله × وسينثروا له ٣ سوتو من حب الرشاد من باب المدينة الى باب آشور الداخلي وعليه ان يجمعها برأس لسانه (و) يعيد املاء السوتو وسيهدي.......»[2]

اضافة الى هذه الانواع من النصوص المسمارية التي قدّمت لنا معلومات وافية عن القانون في العراق القديم، هناك مجموعات اخرى من النصوص المسمارية ذات الفائدة في دراسة القانون العراقي القديم، كنصوص المعاهدات التي تلقي ضوءاً على اسس القانون الدولي الذي كان سائداً، وبعض ماورد في المعاجم اللغوية التي ضمت المفردات والمصطلحات والعبارات الفنية السومرية وما يقابلها بالاكدية حيث ورد فيها كثير من

---

(١) انظر عامر سليمان، القانون في العراق القديم ص ١٢٣
(٢) نفس المصدر (١٢٦ – ١٢٧).

العبارات القانونية وبعض المواد القانونية بالسومرية وما يقابلها بالاكدية، والرسائل الشخصية التي قد تتناول بعض القضايا القانونية. كما يمكن الافادة ممّا دوّن على احجار الحدود في فترة السيطرة الكشية من اقطاعيات منحها الملوك الى اشخاص معينين مكافأة لهم والتي سبقت الاشارة اليها وغيرها من النصوص التي قد تلقي ضوءاً على بعض الممارسات القانونية وبذلك يصبح لدى الباحث اعداداً هائلة من النصوص المسمارية وبعض الكتابات المتأخرة ذات العلاقة بالقانون والتي يمكن ان يستنبط منها صورة متكاملة عن القانون في العراق القديم وان المشكلة التي يواجهها الباحث الان هي كثرة النصوص المكتشفة لاقلّتها وصعوبة الالمام بجميع ماورد فيها.

النصوص القانونية

تم العثور على عدة انواع من النصوص المسمارية التي تضمنت نصوصاً قانونية منها الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية ومنها المراسيم الملكية الا ان اهمها هي نصوص القوانين التي كان قد اصدرها الملوك والحكام وفيما يأتي نبذة مختصرة عن كل من هذه النصوص.

اولاً الاصلاحات

تعد اصلاحات اوروانيمجينا (اوروكاجينا) حاكم لجش (اواسط القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد) اقدم النصوص التي تحمل بين طياتها طابعاً قانونياً وان لم تكن نصوصاً قانونية بحتة. فهي اقدم اصلاحات اجتماعية واقتصادية معروفة وقد تم العثور على ثلاث نسخ منها مدونة باللغة السومرية التي كانت سائدة انذاك وتضمنت وصفاً كاملاً للاصلاحات التي قام بها هذا الحاكم مع تفصيل مقابل للاوضاع الفاسدة التي كانت تسود البلاد قبيل اصدارها[1] وتختلف النسخ الثلاث عن بعضها اختلافات بسيطة في التفاصيل.

ويبدو من المعلومات المتوفرة عن دولة لجش ان لجش كانت تتمتع في عهد مؤسسها وملوكها وحكامها الاوائل برفاه اقتصادي وازدهار حضاري وقوة عسكرية حققت لها انتصارات عسكرية كثيرة لاسيما على جارتها اومّا. وكان من نتائج تلك الانتصارات ان

(١) حول ترجمة الاصلاحات كاملة الى العربية انظر: فوزي رشيد، الشرائع، في: العراق في موكب الحضارة، بغداد، ١٩٨٨، ج١، ص ٢٠٧- ٢٢٤

تدفقت الغنائم والاموال عليها واتسعت اراضيها الزراعية ومواردها الاقتصادية وارتفع مستوى معيشة الطبقة الحاكمة ، والى هذه الفترة يعود تاريخ المعاهدة التي ابرمت بين لجش واومّا التي تعد اقدم معاهدة دولية معروفة كما اشرنا الى ذلك في مكان آخر. وما لبث ان دبّ الضعف في لجش وتقلّصت او انقطعت وارداتها فما كان من الحكام الا ان يفرضوا الضرائب المختلفة على افراد المجتمع ويبتزوا الاموال منهم بشتى الوسائل للتعويض عن نقص الموارد الاقتصادية ولكي يحافظوا على مستواهم المعاشي الذي اعتادوا عليه في عهد قوتهم وانتصاراتهم. فدبَّ الفساد وعمت الفوضى ولم يكتف الحكام بفرض الضرائب بل استولوا على املاك المعبد واستغلوا اراضيه وحقوله واستثمروا موارده وسيطروا على ادارة شؤونه واصبح المعبد تابعاً للاسرة الحاكمة بعد ان كان المعبد مسيطراً على الحاكم وموجهاً لسياسته ، ثم تولى اوروانيمجينا الحكم وهو الذي «يخاف الآلهة ويحترم املاكها» والذي كان يعتمد على مساندة رجال الدين ، فقام باصلاحاته الجذرية واعاد للمعبد املاكه واراضيه والغى بعض الضرائب وخفض اخرى ومنع الموظفين والجباة من ابتزاز اموال الناس والتسلط عليهم ، غير ان قصر فترة حكم اوروانيمجينا حالت دون ان تؤتي هذا الاصلاحات ثمارها حيث قضي على لجش وغيرها من دول المدن وضمت جميعها تحت ادارة مركزية واحدة في عهد لوجال زاجيزي ومن ثم سرجون الأكدي.

وفيما يأتي موجز لما ورد في النسختين الاولى والثانية.

يبدأ النص بذكر الاعمال العمرانية التي قام بها اوروانيمجينا وخاصة بناء المعابد في لجش ثم يذكر النص وضعاً مؤلماً للأوضاع الفاسدة التي كانت تمر بها مدينة لجش حيث يقول: «في الأيام الماضية ، منذ ان تدفقت بذرة (الانسان) استولى الرجل المسؤول عن اصحاب القوارب على القوارب واستولى رئيس الرعاة على الحمير (و) استولى رئيس الرعاة على الاغنام (و) استولى الرجل المسؤول عن مصائد الاسماك على مصائد الاسماك......» وكان جباة وموظفو الانسي يبتزّون الاموال من الناس بشتى الوسائل ، فإذا كالوا لهم جراياتهم ، كالوها بالمكيال الصغير ، واذا جلبوا اغنامهم لجز صوفها ، كان عليهم ان يدفعوا اجوراً ورسوماً باهضة ولم يقتصر ابتزاز الاموال على عامة الناس بل تعداه الى املاك المعبد والكهنة فكانت «ثيران الآلهة تحرث حقول البصل التابعة للانسي (و) كانت حقول بصل (و) خيار الانسي تقع في احسن حقول الآلهة..» كما كان موظفو وجباة الانسي يبتزون الاموال من كهنة المعابد واذا ما اقتسموا الشعير معهم كانت قسمتهم قسمة (ضيزا) كما سلبوهم ملابس زينتهم واعتبروها من جملة الضرائب المفروضة عليهم.

وشملت الضرائب التي فرضها الانسي وزمرته مختلف نشاطات الانسان في حياته وحتى وقت مماته حيث كان يستوفى من ذوي الميت مبالغ معينة من المال وكميات كبيرة من الحنطة والخبز والشعير وغيرها. وكان عامة الناس في عوز وفاقة فكان على «الحرفيين والصناع ان يستجدوا طعامهم».

اما الانسي، فكان في يسر حيث كانت «بيوت الانسي وحقول الانسي وبيوت حريم القصر وحقول حريم (القصر) وبيوت اولاد (القصر) وحقول اولاد (القصر) مزدحمة بعضها الى جانب بعض» وكان جباة الانسي يملأون البلاد من حدود ننجرسُ الى حدود البحر».

ثم يشير النص الى المفاسد الاجتماعية الاخرى حيث كان القوي يعتدي على الضعيف ويسخره للعمل المرهق دون مقابل ولا يزوده بالطعام الا مايسد به الرمق. وكانت اعمال السخرة شائعة لاداء اعمال الانسي وموظفيه الخاصة، ثم يتابع النص القول: «هذه هي الاساليب التي كانت سائدة في الايام السابقة» ولكن «عندما منح الاله ننجرسُ، محارب الاله انليل الاول، ملوكية لجش الى اوروانيمجينا وامسكت بيده من بين الجموع» التي تؤلف سكان مدينة لجش، تمسك اوروانيمجينا بالكلمة التي قالها له ننجرسُ فمنع الرجل المسؤول عن اصحاب القوارب من الاستيلاء على القوارب وحرم رئيس الرعاة من الاستيلاء على الحمير والاغنام «... اما املاك المعبد»، فقد جعل اوروانيمجينا الاله ننجرسُ ملكاً على بيوت الانسي وحقول الانسي، وجعل الالهة باوا ملكة على بيوت حريم (القصر) وحقول حريم (القصر)... ولم يعد هناك جابي ضرائب من حدود ننجرسُ الى حدود البحر».

كما خفض الضرائب المفروضة على الناس لاسيما الرسوم التي فرضت على الدفن وخصص/جرابات دائمة لاصناف من الكهنة واصحاب الحرف وغيرهم فلم يعد هناك ضرورة لأن يستجدوا طعامهم.

ثم وضع اوروانيمجينا بعض القواعد القانونية ذات المفعول الدائم منعاً لاستغلال الضعيف فمنع المتنفذين والاغنياء من ابتياع حيوانات وبيوت تابعيهم الا اذا دفعوا السعر المناسب وكان العقد برضاء البائع، كما قام باطلاق الحريات للمواطنين الذين وقعوا تحت طائلة الديون والضرائب المتراكمة وعاهد الاله بأن لايظلم الرجل القوي اليتيم والأرملة. وفي نهاية النص ذكر لحفر قنال للمياه.

اما النسخة الثالثة ، فتختلف عن النسختين الاولى والثانية ببعض التفاصيل وتشير الى بعض الضرائب الاخرى التي كانت تستوفى على الطلاق وعلى البيع وغيرها . كما يذكر النص بعض العقوبات التي صدرت بحق السارق والمرأة التي تتزوج من رجلين وكانت العقوبة الرجم بالحجارة[1] .

ومع ان هذه الاصلاحات لاتمثل قوانين كالقوانين المعروفة لدينا من فترات اخرى الا انها تعد من الاعمال التشريعية التي حاول من خلالها اوروانيمجينا نشر العدالة والقضاء على الظلم والتعسف واطلاق الحريات ، فاهدافها تتفق واهداف المراسيم والقوانين واساليبها مشابهة الى حد بعيد ، كما يتضح ان الاصلاحات قد ضمت اجراءات فورية واستثنائية ذات طابع اقتصادي لمعالجة الاوضاع الاقتصادية المتردية واخرى ذات طابع قانوني تضمنت عقوبات السارق وغيره مما يشابه القوانين الاخرى .

ثانياً : المراسيم الملكية

تمثل المراسيم الملكية (بالاكدية صِمدات شَرِّم Ṣimdat Šarrim) نوعاً آخر من النصوص القانونية ذات الطابع التشريعي . ويقصد بهذه المراسيم تلك الأوامر والتعليمات والاجراءات التي كان يصدرها الملك في بداية حكمه او بعد ذلك بفترة وجيزة لمعالجة الأوضاع الاقتصادية المتأزمة في المملكة معالجة سريعة واستثنائية وقد تتضمن بعض القواعد القانونية ذات المفعول الدائم .[2] وقد اشير الى المراسيم الملكية في عدد من النصوص الاقتصادية والرسائل الملكية وغيرها ، وقد امكن التعرف على المراسيم التي كان قد اصدرها الملك امي – صدوقا (١٦٤٦ – ١٦٢٦ ق.م) ، احد ملوك سلالة بابل الاولى وهي مدونة على لوح من الطين كما امكن التعرف على مراسيم الملك سمسو ايلونا (١٧٤٩ – ١٧١٢ ق.م) احد ملوك السلالة نفسها وقد امدتنا هذه المراسيم بمعلومات وافية عن طبيعة المراسيم الملكية والغاية من اصدارها .

وقد تصدر المراسيم الملكية لكي تطبق في مدينة واحدة او مجموعة من المدن وهي ليست قوانين ، بل انها اوامر بالغاء بعض القوانين او تعطيلها لفترة محددة لتجاوز الازمة الاقتصادية ، ويبدو ان من الاسباب الرئيسة التي دفعت الملوك الى اصدار مثل هذه

---

(١) حول تفاصيل ذلك انظر: عامر سليمان ، القانون في العراق القديم ، ص١٤٣ – ١٤٦ .

(٢) انظر. Driver and Miles, BL.,I,pp. 17 – 19, CAD, 16, p.194 ff. كذلك ، عامر سليمان ، القانون في العراق القديم ، ص١٤٩ .

المراسيم هو شيوع الملكية الفردية في العصر البابلي القديم للأراضي الزراعية ووقوع صغار الفلاحين تحت طائلة الديون والفوائد في حالات الجفاف وقلّة المحصول وكان الملوك يعمدون لاصدار هذا النوع من المراسيم في بداية حكمهم غالباً كنوع من الاساليب لترضية السكان وكسب ودّهم ، وقد تفاخر الملوك بنشرهم العدالة واصدارهم هذا النوع من المراسيم وارخّوا السنين بها ، كما فعل حمورابي وغيره .

ثالثاً : القوانين

تبقى القوانين المدونة المكتشفة أهم التشريعات التي اصدرها العراقيون القدماء كما تظل في المركز الاول بين جميع القوانين المعروفة من حيث القدم والمنزلة . ومما يلاحظ ان اهم القوانين المكتشفة في العراق ترقى بتاريخها الى العصر البابلي القديم (حدود ٢٠٠٠- ١٦٠٠ ق.م) اوقبيل هذا العصر، وينطبق الشيء نفسه على المراسيم الملكية المعروفة لحد الآن كما ينطبق الى حد كبير على غالبية الوثائق اليومية المكتشفة ، وفيما يأتي نبذة عن القوانين المكتشفة حتى الآن مع الاشارة الى اهم الدراسات التي صدرت بخصوص كل قانون :

١ - قانون اور- نمّو (٢١١٣- ٢٠٩٦ ق.م)

يجمع الباحثون على ان قانون اور- نمّو، مؤسس سلالة اور الثالثة ، هو اقدم القوانين المكتشفة لحد الآن ، وربما ضمت بقايا المدن السومرية والاكدية على قوانين اخرى اقدم عهداً الا ان يد المنقبين لم تصلها بعد ، يؤكد ذلك الاشارات الكثيرة التي وردت في النصوص المسمارية التي تدل على اصدار القوانين كتلك التي ذكرها سرجون الاكدي. ومن المؤسف حقاً اننا لم نعثر على قانون اور- نمّو بصيغته الاصلية بل امكن الكشف عن اجزاء تالفة جزئياً من نسخة ثانية من القانون كانت قد دونت على الواح من الطين عثر على احد هذه الالواح في مدينة نفر وامكن قراءة خمس مواد قانونية مع جزء من المقدمة . وفي السنوات الاخيرة امكن التعرف على لوح آخر كشف عنه في مدينة اور نفسها وهو يحمل اجزاء جديدة من القانون وتمكن الباحثون من قراءة اثنتين وعشرين مادة قانونية مدونة عليه اضافة الى جزء آخر من المقدمة ويظن ان مادون على هذين اللوحين هو بقايا نسخة ثانية لقانون كان قد دوّن اصلاً على مسلة من الحجر ضمت اكثر من ثلاثين مادة ، وان النسخة المكتشفة ربما كانت قد دونت لاغراض تعليمية او لفائدة بعض المهتمين

بالقانون وكان قد تم استنساخها بعد عصر اور- نمّو بعدة قرون. وتكمن اهمية قانون اور- نمّو اضافة الى كونه اقدم القوانين المكتشفة، في انه يمثل اول القوانين السومرية المعروفة ايضاً لذلك تضمن بعض المبادئ القانونية التي كانت سائدة في العصر السومري المبكر والتي تختلف عن المبادئ القانونية التي عرفت في العصر البابلي القديم. وقد ساعدت هذه الحقيقة الباحثين على متابعة تطور المبادئ والقواعد القانونية.

يتألف القانون بهيئته الكاملة من مقدمة ومتن وخاتمة. أمّا المقدمة، فتتحدث عن تأريخ مدينة اور وارتفاع شأنها وكيف أن الآلهة اختارت اور- نمو وفوضته الحكم في اور. وتمجد المقدمة بالملك اور-نمو وانجازاته ولاسيما في نشر العدل وقضائه على الفوضى الاقتصادية التي كانت تعم البلاد حيث استطاع ان «يوطد العدالة في البلاد ويزيل البغضاء والظلم والعداوة» وذلك من خلال القضاء على المفاسد، وهكذا تمكن من «توطيد حرية بلاد سومر واكد» وقام بتثبيت الموازين والمكاييل ولم يعد «اليتيم يسلّم الى الرجل الغني، ولم تعد الارملة تسلم الى الرجل القوي، والرجل ذو الشيقل لم يعد يسلم الى الرجل ذي المنا». وتذكرنا هذه المقدمة بما جاء في اصلاحات اوروانيمجينا ومحاولاته القضاء على الفساد بالاسلوب نفسه

ويلي المقدمة نصوص المواد القانونية. وعلى الرغم من النقص الموجود في النص المكتشف، يمكن تصنيف المواد المتبقية حسب المواضيع التي تعالجها حيث ضمت المجموعة الاولى ماله علاقة بالاحوال الشخصية (٤- ١٢) وعالجت الثانية هروب الرقيق (١٣- ١٤). اما المجموعة الثالثة فخاصة بالاعتداء على الاشخاص (١٥- ١٩) وفي المجموعة الاخرى (٣٥- ٢٦) يعالج القانون شهادة الزور ثم تنتقل المجموعة الاخرى الى التجاوز على الاراضي (٢٧- ٢٩) ولايعرف بالضبط مضمون المواد الناقصة الواقعة قبل وبعد المواد المذكورة.

ومما تجدر ملاحظته أن قانون- اور- نمو اخذ بمبدأ التعويض في تحديد العقوبة في حين اخذت القوانين البابلية بمبدأ القصاص الى جانب التعويض. وللتعرف على طبيعة المواد القانونية نورد ترجمة بعضها: [1]

م: ٦: «اذا طلّق رجل زوّجته الاصلية، عليه أن يدفع (لها) مناً من الفضة»

---

(١) حول ترجمة القوانين الى العربية انظر: فوزي رشيد، الشرائع العراقية القديمة، ص ٢٥- ٥١ وحول تبويب المواد القانونية ومناقشة مضمونها انظر عامر سليمان، القانون، ص ١٩٢- ١٩٧.

م : ١٦ : «اذا حطّم رجل متعمداً طرف (ساق، او يد) رجل آخر بهراوة ، عليه ان يدفع مناً واحداً من الفضة».

م : ٢٥ : اذا حضر رجل شاهداً (في قضية) ونوى أن يكذب ، عليه ان يدفع خمسة عشر شيقلاً من الفضة».

م : ٢٨ : «اذا تسبب رجل في اغراق حقل مزروع يعود لرجل آخر، عليه ان يدفع (لصاحب الحقل) ٣ كور من الشعير لكل ايكو من الحقل»[1] .

٢ - قانون لبِت- عشتار (١٩٣٤ - ١٩٢٤ ق.م)

وهو ثاني القوانين العراقية القديمة من حيث القدم ، وقد أمكن التعرف عليه مدوناً على لوح كبير من الطين وجد مهشماً الى عدة قطع ويستدل من بقايا اللوح انه كان يضم في هيئته الكاملة اثنين وعشرين حقلاً من الكتابة المسمارية باللغة السومرية تضمنت النص الكامل للقانون غير ان ماتبقى من اللوح وما يمكن قراءته من النص لايتجاوز ثلث القانون الاصلي. عثر على اللوح في مدينة نفر، كما عثر على اربع كسر طينية اخرى تضم مقتبسات من القانون في الموقع نفسه ويبدو ان جميع هذه الالواح هي جزء من نسخ ثانية من القانون دونت لاغراض تعليمية بدلالة كثرة الاخطاء النحوية وسوء ترتيب المواد. اما القانون بهيئته الاصلية فكان قد دون على مسلة من الحجر، كما تشير الى ذلك الخاتمة ، وضعت في المعبد الرئيس في المدينة حيث يقول لبت- عشتار ، وهو خامس ملوك سلالة ايسن ، «ونشرت الرفاهية في بلاد سومر واكد واقمت هذه المسلة ..».

يتكون النص بشكله الحاضر من مقدمة وخاتمة تتوسطها المواد القانونية ، وقد امكن قراءة سبع وثلاثين مادة فقط ويعتقد أن القانون بصيغته الاصلية كان يضم اكثر من مائة مادة ، وتقع المواد المتبقية في النصف الثاني من القانون.

واستمراراً للتقاليد المتبعة في كتابة المقدمة ، فقد ضمت مقدمة القانون تمجيداً للآلهة السومرية واله مدينة ايسن الرئيس وكيفية اختيار الآلهة للملك لبت- عشتار- ، «الراعي الحكيم ، لنشر العدل في البلاد والقضاء على الشكاوي وعلى العداوة بقوة السلاح وجلب الرفاهية للسومريين والاكديين» فقام لبت- عشتار، ذو الصفات الرفيعة والنبيلة امتثالاً لرغبة الآلهة وتنفيذاً لارادتها بنشر العدل في البلاد ، حيث يقول : «بعد أن كانت قد فرضت العبودية ظلماً على رقاب ابناء وبنات مدينة نفر وابناء وبنات مدينة اور وابناء وبنات

(١) حول الاوزان والمكاييل انظر الفصل الخاص بالتجارة.

مدينة ايسن وابناء وبنات سومر واكد... اعطيتهم راغباً حريتهم كهدية لهم ...» ويفهم من هذه المقدمة ان الوضع كان مضطرباً في هذه الفترة وهذا ماينطبق مع مالدينا من معلومات.

اما الخاتمة فهي الاخرى شبيهة الى حد كبير بخاتمة قانون حمورابي ، فهي تبدأ ببيان انجازات لبت - عشتار في نشر العدل واحقاق الحق تنفيذاً لارادة الاله اوتو - أله الشمس عند السومريين ، واله العدل والحق ، والقضاء على البغضاء والعنف في بلاد سومر واكد وتحقيق رفاهية البلاد ، ثم تذكر الخاتمة كيف اقيمت المسلة التي دونت عليها القوانين ، وخصص الجزء الاخير من الخاتمة للدعاء الى كل من يحافظ على المسلة وقوانينها واستنزال اللعنات على كل من يحاول تخريبها او تغييرها او وضع اسمه عليها ، اي بالاسلوب نفسه الذي دونت به خاتمة قوانين حمورابي .

اما المواد القانونية فقد تضمنت عدة مجاميع ، الا ان تلف اجزاء كبيرة من اللوح لاتساعد على قراءة وفهم جميع المواد المتبقية . وقد عالجت المواد قضايا مختلفة منها ماله علاقة بالقوارب (٤ - ٥) والاراضي الزراعية (٧ - ٨) والسرقة (٩ - ١١) والرقيق (١٢ - ١٦) والاعتداء على الاشخاص (١٥ - ١٧) والضرائب والرسوم (١٨ - ١٩) والاحوال الشخصية (٢٠ - ٣٢) والاضرار التي تحدثها الحيوانات (٣٤ - ٣٧) . وفيما يأتي نموذج من هذه المواد :

٢ : ٩ : «اذا دخل رجل بستان رجل آخر وقبض عليه متلبساً بالسرقة ، فعليه ان يدفع عشرة شيقلات فضة» .

٢ : ٢٤ : «اذا ولدت له الزوجة الثانية التي تزوجها اطفالاً ، فان مهرها الذي جلبته من بيت ابيها يكون حصة اطفالها ولكن اطفال الزوجة الاولى واطفال زوجته الثانية سوف يقتسمون اموال ابيهم بالتساوي» [1]

٣ - قانون اشنونا :

ثالث القوانين المكتشفة من حيث القدم ، واقدم القوانين المدونة باللغة الاكدية ، يعود تاريخه الى فترة سابقة لقانون حمورابي بحدود ٨٠ سنة ، الا انه لايمكن تحديدها بالضبط . ينسب القانون الى مملكة اشنونا ، احدى الممالك الامورية التي سيطرت على منطقة ديالى قبل ان يتمكن حمورابي من ضمها الى مملكته . وقد تم الكشف عن اللوحين

---

(١) انظر فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ، ٦١ - ٦٢ .

اللذين دونت عليها نسخ من القانون في موقع تل حرمل (شادُپُم قديماً) القريب من بغداد الجديدة اثناء التنقيبات التي أجرتها في الموقع دائرة الاثار والتراث وذلك عامي ١٩٤٥ ، ١٩٤٧ .[1] وقد تبين بان النسخ المكتشفة كانت قد دونت لاغراض تعليمية على اغلب الظن وقد حوت على بعض الاخطاء اللغوية والاملائية. وربما كانت النسخة الاصلية للقانون قد دونت على مسلة حجرية شبيهة بمسلة حمورابي.

يضم القانون بشكله الحالي مقدمة قصيرة وستين مادة قانونية ، وربما كان يضم في صيغته الاصلية مايقرب من مائة مادة. أما المقدمة فتتألف من سبعة اسطر من العلامات المسمارية تلفت معظم اجزائها ويبدو انها تذكر تاريخ أحدى السنوات ، وقد دونت باللغة السومرية. اما المواد القانونية فقد دونت باللغة الأكدية. وقد عالجت مواد القانون قضايا مختلفة منها خاص بتسعير بعض المواد والاجور (١-١١) والسرقة (١٢-١٣) والعقود التجارية (١٥-٢٤) والاحوال الشخصية (٢٥-٣٦) وقضايا تجارية (٣٦-٤١) والايذاء (٤٢- ٤٨) والرقيق (٤٩-٥٢) واضرار الحيوانات (٥٣-٥٨) والاهمال.

ويشير تسلسل المواد الى الارتباك الموجود في تبويبها مما قد يشير الى ان النسخة المكتشفة هي نسخة لاغراض التعليم فحسب.

وفيما يأتي نماذج من هذا القانون :

م: ١٢ : «اذا قبض على اويلُم في حقل مشكينُم نهاراً فأنه يدفع عشر شيقلات فضة ، ومن قبض عليه اثناء الليل فأنه يموت ولن يحيا ».

م: ٢٧ : «اذا اخذ رجل ابنة رجل (اخر) دون موافقة ابيها وامها ولم يبرم عقداً مع ابيها وامها ، فلا (تعد) زوجته حتى ولو عاشت سنة كاملة في بيته».

م: ٤٢ : «اذا عضَّ رجلٍ انف رجل آخر وقطعه فعليه ان يدفع مناً من الفضة ، وللعين مناً واحداً ، وللسن نصف منا وللاذن نصف منا وللضرب على الذقن عشر شيقلات فضة».

٤- قانون حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م)

يعد قانون حمورابي اكمل القوانين المكتشفة وأنضجها وإن لم يكن اقدمها ، وظل هذا القانون يؤلف المحور الذي تدور عليه جميع الدراسات الخاصة بتاريخ القانون بصورة عامة ، لاسيما وأنه القانون الوحيد الذي وصلنا بصيغته الاصلية.

---

(١) انظر : طه باقر ، قانون مملكته اشنونا ، سومر (١٩٤٨) ، ٤/٢ ، ص ١٥٣ - ١٥٧ .
وكذلك A.Goetze, The Laws of Eshnunna, Sumer, 4/2 (1948), pp. 63-102.

دون القانون باللغة الاكدية على مسلة من الحجر ويضم مايقرب من ٢٨٢ مادة قانونية اضافة الى المقدمة والخاتمة ، وقد كشف عن المسلة في مدينة سوسا عاصمة عيلام عام ١٩٠١ ، حيث كانت المسلّة قد نهبت من قبل العيلاميين في العصور القديمة .

يبلغ ارتفاع المسلة المصنوعة من حجر الديوريد الاسود ٢٢٥ سم وقطرها ٦٠ سم ، وقد نقش في اعلى المسلة صورة تمثل الاله شمش وهو متربع على عرشه ويقف امامه حمورابي وقفة المتعبد وهو يستلم منه عصا وحبل القياس ، وهما من رموز السلطة والحكم . ويبدو انه كان هناك اكثر من نسخة من هذه المسلة وزعت على المدن المختلفة حيث عثر في سوسا أيضاً على كسر من حجارة مسلات اخرى تحمل اجزاء من المواد القانونية .

وبالاضافة الى النسخ الاصلية ، عثر على اجزاء من نسخ ثانية كانت قد دونت على الواح من الطين لاغراض تعليمية او للأفادة منها من قبل المعنيين بالقوانين والمحاكم مما يشير الى استمرار العمل بقوانين حمورابي لفترة من الزمن من بعد عهد حمورابي نفسه بل ان هناك من يرى ان قانون حمورابي كان يطبق في بلاد اشور ايضاً .

المسلة بحالتها الحالية مؤلفة من اربعة واربعين حقلاً من الكتابة المسمارية ، ولاسباب غير معروفة خُرّبت اسافل الاعمدة الكتابية ، وربما كان ذلك قد تم من قبل العيلاميين الذين نهبوا المسلّة .

كتبت مقدمة القانون باسلوب ادبي اقرب الى الشعر ذكر فيها حمورابي الالهة التي فوضت الامر الى الاله مردوخ ، اله مدينة بابل ، وسمّت بابل ثم دعت حمورابي لنشر العدل في البلاد والقضاء على الشر والخبيث لكي لايستعبد القويّ الضعيف ولكي ينير البلاد ثم يستعرض حمورابي القابه واعماله العسكرية والعمرانية وطاعته وتقواه وتحريره سكان المدن وجلب الرفاهية لهم .

اما الخاتمة ، فقد كتبت باسلوب اعتيادي شبيه باسلوب المواد القانونية وقد تحدثت عن القوانين ، شرعيتها ونسبتها الى حمورابي مع بيان اهدافها وكيفية الاستفادة منها والتأكيد على مراعاة ماجاء فيها وعدم الاخلال بمبادئها ومن ثم استنزال اللعنات على كل من يحاول تخريبها او نسبتها لنفسه .[1]

---

(١) حول اكتشاف المسلة ووصفها وتفاصيل مضمونها انظر : عامر سليمان ، القانون ، ٢١٩ - ٢٢٨ . وحول مضمون المواد ص٢٢٨ -٢٧٣ .

عالجت قوانين حمورابي قضايا كثيرة متنوعة الا انها لم تعالج جميع القضايا التي يفترض ان يتطرق اليها القانون ، ويمكن تقسيم المواد القانونية الى خمسة ابواب رئيسة هي :

(١) اختصت المواد ١-٥ بالتقاضي اما الباب الثاني (٦-١٢٦) فخاص بالاموال حيث تطرق الى الجرائم التي تقع على الاموال وهي السرقة وهروب الرقيق كما عالج قضايا الاراضي والعقارات والمعاملات التجارية. وعالج الباب الثالث قضايا تتعلق بالاشخاص (١٢٧-٢١٤) ، مما له علاقة بالاحوال الشخصية ، كالزواج والطلاق والتبني والأرث والمخالفات والجرائم الزوجية ، والايذاء. اما الباب الرابع ، (٢١٥-٢٧٧) ، فقد حدد اجور الاشخاص والحيوانات ومسؤولياتهم في حين عالجت المواد الاخيرة (٢٧٨-٢٨٢) قضايا بيع الرقيق. وفيما يأتي نماذج من هذه المواد :

م : ١ «اذا اتهم رجل رجلاً ورماه بتهمة القتل ولم يثبت ذلك عليه ، فان متهمه يُقتل».

م : ٢٢ «اذا سرق رجل وقبض عليه ، يقتل ذلك الرجل».

م : ٥٥ «اذا فتح رجل جدوله للسقي وكان متقاعساً فترك الماء يغمر حقل جاره فعليه ان يكيل حبوباً بقدر (غلة الحقل) المجاور له».

م : ٢٨ «اذا اخذ رجل زوجته ولم يبرم عقدها ، فليس لتلك المرأة صفة الزوجية».

م : ١٩٦ «اذا فقأ رجل عين رجلٍ آخر فعليهم ان يفقأوا عينه».

م : ٢٢٤ «اذا استأجر رجل عجلاً او حماراً وقتله اسد في الحقل فتقع مسؤوليته على صاحبه».

ومما يلاحظ ان قانون حمورابي لم يعالج جميع القضايا المهمة بل يبدو ان حمورابي انتخب القضايا التي كانت بحاجة الى تثبيت او تعديل او تحوير او تأكيد في حين تركت القضايا الاخرى بالرغم من اهميتها كتلك الخاصة بجرائم القتل العمد والخيانة العظمى واختطاف الاشخاص وبعض قواعد البيع ، وكلها قضايا مهمة لابد وانها كانت تحكمها اعراف ثابتة.

٥- القوانين الآشورية :

على الرغم من كثرة المخلفات المادية التي تركها لنا الآشوريون والتي ضمت مئات المسلات والتماثيل والنصب والمنحوتات الجدارية اضافة الى آلاف الرقم الطينية التي ضمت مختلف المواضيع ، الا ان ماكتشف من قوانين أشورية قليل ولا يتناسب واهمية

الدولة الآشورية والمركز الذي احتلته في منطقة الشرق الادنى بصورة عامة ولاسيما في العصر الآشوري الحديث (٩١١-٦١٢ ق.م). ويبدو من الصعب تفسير ذلك ومع هذا ربما كان اعتماد الآشوريين على القوانين السابقة، كقانون حمورابي، واهتمام الملوك الاشوريين بتدوين اخبار الحملات العسكرية والانجازات العمرانية التي شغلتهم عن الامور الاخرى من بين اسباب هذا النقص في القوانين الآشورية. كما يمكن ان يكون السبب ان المنقبين لم يكتشفوا النصوص القانونية بعد وربما كشفت عنها التنقيبات المقبلة، وهو امر متوقع جداً. ومما يؤيد ان الآشوريين ربما اعتمدوا القوانين البابلية التي كانت معروفة لديهم، اكتشاف استنساخ لفقرات من قانون حمورابي في مكتبة آشوربانيبال، كما يؤيد ذلك ان القواعد القانونية التي كانت متبعة لاسيما في ابرام العقود وفي القضايا التي نظرت فيها المحاكم الآشورية، يتفق وما ورد في القوانين البابلية بصورة عامة.

ومع ذلك، فقد تم التعرف على بعض الالواح الطينية التي تحمل مواداً قانونية من العصر الآشوري القديم (حدود ٢٠٠٠- ١٥٠٠ ق.م) وأخرى من العصر الآشوري الوسيط (١٥٠٠- ٩١١ ق.م). فاما الواح القوانين من العصر الآشوري القديم، فقد تم العثور عليها في قانش، احد المراكز التجارية الآشورية في أقليم كبدوكيا في آسيا الصغرى. وهي بحالة رديئة جداً تصعب معها قراءة موادها بصورة مضبوطة الا انه يبدو انها خاصة بتنظيم المحاكم واصول المرافعات فيها فيما له علاقة بالشؤون التجارية[١].

اما المجموعة الثانية من الالواح، فتضم قوانين يرقى تاريخها الى الفترة ١٤٥٠-١٢٥٠ ق.م، اي الى العصر الآشوري الوسيط ولهذا سميت بالقوانين الآشورية الوسيطة وقد عثر على هذه الالواح وهي بحالة رديئة جداً، بأستثناء اللوحين الاول والثاني، وذلك في مدينة آشور في مطلع القرن الحالي. ومن دراسة ماورد في هذه الالواح واسلوب كتابتها وشكل علاماتها يتبين انها لم تكتب من قبل شخص واحد ولا في فترة زمنية واحدة وان مارد فيها من مواد قانونية ربما كانت خاصة بمدينة آشور وما حولها فقط. اما طبيعة هذه الالواح، وهي نسخ ثانية، والغاية من استنساخها فتبقى غير معروفة لدينا، فهي ليست نسخاً من قانون رسمي كان قد صدر في بلاد آشور بل انها ليست نسخاً رسمية اصلاً وربما تمثل مجموعة من القضايا التي نظرت فيها المحاكم وأصدرت فيها أحكامها مع مقتطفات من القوانين السائدة والتعديلات والتحويرات والتفسيرات التي أضيفت اليها من قبل بعض المهتمين بالقانون وتطبيقه، كالقضاة مثلاً.

---

(١) انظر عامر سليمان، القانون في العراق القديم، ٢٧٥-٢٧٨.

عالج اللوح الاول ، وهو افضل الالواح من حيث الحفظ ، القضايا الخاصة بالنساء وهو يضم مايقرب من ستين مادة قانونية امكن قراءتها ، وان جل معلوماتنا عن القوانين الآشورية الوسيطة مستمدة من هذا اللوح ، وقد تطرق الى الجرائم التي ترتكب من قبل النساء او ضدهن واحكامها ، وقد تناولت احكام السرقة (٣-٦) والايذاء (٧-٩) والقتل العمد (١٠) والجرائم المتعلقة بالجنس (١٢-٢٠) والاحوال الشخصية (٢١-٤٦) وجرائم ممارسة السحر والاغتصاب والاغواء وغيرها. اما اللوح الثاني ، فيضم مايقرب من عشرين مادة قانونية تتعلق بالدرجة الاولى بالاراضي والعقارات وتوزيعها بين الورثة والاعتداء على املاك الغير في حين ضم اللوح الثالث احدى عشرة مادة الا انها في حالة رديئة ولا تؤلف الالواح المتبقية سوى كسر صغيرة فيها بضع مواد غير مفهومة . وفيما يلي نموذج ما مواد اللوح الاول :

م : ٣٤ : «اذا عاشر رجل أرملة من دون عقد زواج ، وعاشت في بيته لمدة سنتين ، تصبح زوجة ولايجوز طردها» .

م : ٣٧ : «اذا طلق رجل زوجته فأذا شاء أعطاها شيئاً واذا لم يشأ ، فلا يعطيها اي شيء ، ويتركها تذهب خالية اليدين» . [١]

٦- قوانين اخرى

اضافة الى هذه المجموعات الرئيسة من القوانين العراقية القديمة ، فقد تم التعرف على بعض المواد القانونية الاخرى من فترات مختلفة منها :

أ- بعض المواد القانونية من العصر البابلي القديم وجدت مدونة في المعاجم اللغوية التي ضمت المفردات والمصطلحات والعبارات والجمل السومرية ومايقابلها باللغة الاكدية ، وكان من بين تلك الجمل المترجمة عدد من المواد القانونية ذات العلاقة بحقوق والتزامات الابن المتبنى تجاه ابويه بالتبني وكذلك حقوق الزوجين كلي تجاه الآخر ومسؤولية موت العبد المستأجر، ويبلغ عدد هذه المواد اثنى عشر مادة . [٢]

ب- مواد قانونية بابلية اوكشية امكن التعرف عليها مدونة على رقيم من الطين تالف جداً ، وتضم تسع مواد فقط تخص بعض المعاملات التجارية والمحاكم . [٣]

---

(١) انظر ترجمة المواد ، فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ، ١٨٠-٢١٢ .

(٢) انظر فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ، ١٧٥-١٧٦ .

(٣) نفس المصدر، ٢١٥-٢١٦ .

جـ - مواد قانونية من العصر البابلي الحديث مدونة على رقيم طيني تضمن مايقرب من خمس عشرة مادة قانونية ذات علاقة بالاراضي والحقول والدور واخرى عن الاحوال الشخصية.[1]

د- بعض المواد القانونية التي تنسب الى الملك نبوخذ نصر الثاني (٦٠٥-٥٦٢ق.م) حيث عالجت بعض الجرائم التي يقترفها الافراد منها معاقبة المجرم الذي يساق الى المحاكم مرتين واخرى خاصة بعقوبة من يتهم آخر بالقتل دون أن يقدم الدليل القاطع على ذلك وثالثة تتعلق بحنث اليمين ورابعة خاصة بالقاضي الذي يرجع عن الحكم الذي سبق له واصدره والعقوبات القصوى على مثل هذه الحالات كلها قاسية وتصل الى قطع الرأس[2].

اهم سمات القوانين العراقية القديمة

اتصفت القوانين العراقية القديمة، ولاسيما قانون حمورابي، بعدد من السمات العامة اهمها:

١ - انها اقدم القوانين المدوّنة المعروفة حتى الان ليس في العراق فقط بل في العالم اجمع، فهي تسبق القوانين الايرانية والحثية والمصرية واليونانية وغيرها بفترات طويلة ويرقى تاريخ اقدمها، وهو قانون اور- نمو، الى اواخر الالف الثالث قبل الميلاد في حين يظن ان هناك قوانين اقدم من هذا القانون كانت قد صدرت في دول المدن السومرية في عصر فجر السلالات وفي عصر الدولة الاكدية الا اننا لم نعثر عليها بعد.

٢ - ان القوانين العراقية القديمة لم تعالج مبادئ عامة وتأتي باحكام خاصة بها بل انها عالجت قضايا معينة ووضعت لكل منها احكامها، فمثلاً ليس هناك حكم محدد لجريمة القتل العمد او جريمة السرقة او الزنا او غيرها في حين هناك مواد تفصيلية تخص قضايا معينة قد يكون فيها جريمة قتل او سرقة او زنا، وقد دفع ذلك بعض الباحثين الى القول بأن القوانين العراقية القديمة هي عبارة عن قضايا معينة كانت المحاكم قد نظرت فيها واتخذت احكاماً بشأنها ثم جمعت من قبل الملوك ونظمت وصدرت على شكل قوانين.

---

(١) نفس المصدر، ٢١٧-٢٢١، عامر سليمان، القانون في العراق القديم، ٢٩٥-٣٠١.

(٢) انظر حياة ابراهيم محمد، نبوخذ نصر الثاني، ص ٩٣-٩٤.

أنظر:

Lambert, W., Nebuchadnezzer King of Justice, Iraq, 27 (1954/6), pp. 1-9.

٣- ان جميع القوانين العراقية القديمة قوانين دنيوية عالجت النواحي الاجتماعية والاقتصادية فحسب دون ان تتطرق الى الناحية الدينية بل انها لم تتطرق الى الكهنة الا عرضاً وبما له علاقة بحياة بعض الكاهنات الاجتماعية والمالية ومع هذا، كان الاعتقاد السائد لدى العراقيين القدماء ان الالهة هي التي وجهت الملوك لاصدار مثل تلك القوانين لنشر العدل واحقاق الحق.

٤- امتازت القوانين العراقية القديمة باتباعها عدداً من المبادئ القانونية المتطورة والتي يمكن ان نجد صداها في القوانين الحالية، ومن هذه المبادئ:

أ- مبدأ التعويض:

اي تعويض المجني عليه مادياً عن اي ضرر لحقه ويتناسب التعويض مع قيمة الضرر من جهة ومركز المجني والمجنى عليه الاجتماعي اهو من فئة الاويلم ام من فئة المشكينم.

ب- مبدأ القصاص:

وهو ايقاع نفس الضرر الذي اوقعه الجاني بالمجني عليه اوكما يسمى بمبدأ العين بالعين والسن بالسن، وقد اخذ به قانون اشنونا وقانون حمورابي والقوانين الاشورية في حين لم يأخذ به قانون اورنمو ولاقانون لبت- عشتار السومريين. وكما هو معروف فان مبدأ القصاص هو من المبادئ الالهية التي اخذت بها الشرائع السماوية ويبدو ان البابليين قد اخذوا هذا المبدأ عن الشرائع السماوية التي عرفت في المنطقة، ولاسيما شريعة ابراهيم الخليل عليه السلام الذي يظن انه عاش في حدود القرن العشرين او القرن التاسع عشر قبل الميلاد، اي قبل عصر حمورابي باكثر من مائة سنة.[1] الا ان المشرعين العراقيين وبصورة خاصة حمورابي، تمادوا في تطبيق مبدأ القصاص الى حد بعيد حتى وصلوا الى درجة المغالاة والخروج عن العدالة التي توخاها هذا المبدأ.[2]

جـ- مبدأ القوة القاهرة او الحوادث الطارئة:

وفحواه ان الملتزم بعمل معين لايعفى من تنفيذ التزامه الا اذا اصبح تنفيذ ذلك الالتزام مستحيلاً بقوة قاهرة خارجة عن ارادته، فمثلاً يعفى الفلاح المقترض من التزامه في سداد

---

(١) انظر احمد سوسا، المفصل في تاريخ العرب واليهود، ص ٣٢٣.

(٢) حول ذلك انظر: عامر سليمان، العقوبة في القانون القديم، اداب الرافدين ١١ (١٩٧٩) ص ١٩٩ ومابعدها.

الدين في حالة حدوث فيضان اغرق حقله وتسبب في عدم حصوله على الغلة (قانون حمورابي ، مادة ٤٨).

د- مبدأ عدم جواز التعسف في استعمال الحق :

اي لايجوز للشخص ان يتجاوز على غيره اثناء استخدامه حقاً من حقوقه . فمثلاً يحاسب الشخص الذي يتسبب في اغراق حقل جاره اثناء ممارسته حقاً من حقوقه في اخذ الماء من الجدول الذي يمر امام حقله .

هـ- القصد الجنائي :

اي ان الجاني يحاسب استناداً الى قصده الجاني فان كان لديه قصد جنائي عند ارتكاب الجريمة كانت عقوبته شديدة اما اذا وقعت الجريمة عن غير قصد فعقوبتها مخففة كالقتل الخطأ مثلاً .

٥- ومن سمات القوانين العراقية القديمة الاخرى انها اخضعت جميع المواطنين لاحكامها والزمت الجميع بالتقيد بما جاء فيها سواء اكانوا موظفين او قضاة او رجال دين او رجال اعتياديين ، الا انها ميّزت بين الاحرار والعبيدكما انها فرقت عند تحديد بعض العقوبات والاحكام ذات العلاقة بالناحية المادية ، بين فئة الاغنياء وفئة الفقراء وبما يضمن حماية الفقراء .

٦- اتصفت القوانين العراقية القديمة بمستوى رفيع من حيث اللغـة القانونيـة المستخدمة في صياغة موادها وباسلوبها العلمي وتبويب موضوعاتها وفق قواعد واسس معينة وتوافق احكامها مع الواقع وابتعادها عن المثالية .(١)

ومع هذه السمات الا ان هناك بعض المآخذ التي تؤشر على القوانين العراقية القديمة منها :

١- ان القوانين لم تعالج العديد من القضايا المهمة في حياة الناس والتي يبدو ان المشرعين اهملوها اعتقاداً منهم بانه لم يكن من الضروري تثبيتها لانها احكام عامة وشائعة ومتبعة ولايوجد خلاف حولها في حين تطرقت القوانين وعالجت القضايا التي قد يكون هناك خلاف في تطبيقها او استوجبت بعض التعديل او الاضافة . فمثلاً ، حددت القوانين نسبة الفائدة على الاموال المقرضة بسبب تباين النسب في المدن المختلفة .

---

(١) حول تبويب وترقيم المواد القانونية انظر: عامر سليمان ، القانون في العراق القديم ، ص ١٧٩-١٨٠ .

٢- ان بعض هذه القوانين اخذت بمبدأ البينة في الامتحان في مقاضاة المتهمين ببعض الجرائم التي لايمكن اثباتها بالادلة الاعتيادية ، كالزنا وممارسة السحر الاسود. ويقضي اسلوب البينة باجتياز المتهم امتحاناً قسرياً لاثبات براءته حيث كان يرمى في النهر فاذا غرق فهو مذنب واذا خرج من النهر المقدس فانه بريئ.

٣- المغالاة في تطبيق مبدأ القصاص وتعميم المسؤولية ، فاذا ماتسبب انهيار - البيت مثلاً بقتل ابن صاحب البيت ، يقتل ابن البناء الذي بنى البيت واهمل في تقويته ، واذا ضرب شخص ابنة رجل آخر وتسبب في اجهاضها ، تضرب ابنته وتجهض وهكذا.

نظام القضاء

نستمد معلوماتنا عن نظام التقاضي في العراق القديم من عدد لابأس به من النصوص القانونية كالنصوص التي اطلقنا عليها اسم الاحكام الصادرة وبعض الرسائل الملكية والشخصية وكذلك نصوص القوانين نفسها التي اشارت في العديد من موادها الى اسلوب التقاضي وادلة الاثبات والى غير ذلك من الجوانب ذات العلاقة.

ويرى بعض الباحثين ان النظام القضائي في العراق القديم مرَّ بمرحلتين رئيسيتين ، تمثل المرحلة الاولى الفترة السابقة لعصر حمورابي كان القضاء فيها قضاء دينياً ، او كهنوتياً ، حيث كان القضاة من صنف الكهنة وكانت المقاضاة تتم في احد اجنحة المعبد. اما المرحلة الثانية ، فهي مرحلة القضاء الدنيوي وكان الانتقال اليها تدريجياً في العصر البابلي القديم وكان عصر حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م) نقطة التحول في هذا الانتقال واصبح القضاة يعينون من قبل الملك مباشرة ويعقدون محاكماتهم في القصر او في بناية خاصة بهم خارج اجنحة المعبد.[١] الا ان القول بوجود هاتين المرحلتين لايعني انه كان هناك قانون كهنوتي ثم اصبح قانوناً دنيوياً بل ان المقصود بالقضاء الديني او الكهنوتي ان المعبد كان يشرف على اجراءات التقاضي ومراسيمه وتعيين القضاة ، وربما تنفيذ العقوبة.[٢]

اما الرأي الآخر حول النظام القضائي ، فلا يرى انه كان هناك دورين او مرحلتين مستقلتين بل ان الحاكم ، او الملك ، كان القاضي الاعلى في البلاد في جميع الفترات

(1) Driver and Miles, BL, not I, pp. 440 tt.

(2) Harris, R, On the Process of Secularization under Hammurapi, JCS, 15 (1961), pp. 117 – 120.

وانه كان يسند القضاء الى موظفين او قضاة يعينهم لهذا الغرض وقد يكونوا من اية فئة من المجتمع بما فيهم الكهنة. لذلك، كان للكهنة دور في حسم الخصومات وفق الاعراف والتقاليد السائدة وان ذلك لم يكن مقصوراً على فترة زمنية محددة دون غيرها كما كان المعبد في جميع الفترات احد الاماكن التي ينظر فيها في القضايا القانونية ومحلاً لأداء القسم واجراء بعض الطقوس التي تتطلبها القضايا القانونية كالاختبار النهري (البيّنة) مثلاً.[1]

المحاكم

لم تتطرق النصوص ذات العلاقة الى درجات المحاكم التي كانت موجودة، الا انه يمكن استنباط ذلك من متابعة اسلوب التقاضي في بعض القضايا. فالنصوص المسمارية تشير الى انه كان هناك اكثر من جهة واحدة تنظر في القضايا القانونية تختلف درجاتها من حيث الصلاحيات ومن حيث طبيعة القضايا التي تنظر فيها. ومن الطبيعي ان اول جهة تنظر في الخصومات التي تقع ضمن اطار الاسرة، تتمثل برب الاسرة، وضمن اطار العشيرة تتمثل برئيس العشيرة او شيخها، وتشير بعض المواد القانونية من العصر الاشوري الوسيط الى دور رب الاسرة وحقه في معاقبة زوجته او امته او عبده او اعفائهم. اما الجهة الاخرى التي تنظر في القضايا القانونية، ومنذ فترة مبكرة، فهي المتمثلة بالمجالس او السلطات المحلية، فقد كان في كل مدينة مجلس محلي للمسنين في المدينة او الحي له واجباته في ادارة العدالة وتطبيق القانون يشاركه في ذلك رئيس البلدة، وتمثل هذه المجالس بقايا مجالس المدن التي كانت تشرف على ادارة شؤون المدينة في العصور المبكرة جداً التي سبقت الاشارة اليها عند الحديث عن الديمقراطية البدائية. الا ان النصوص المتوفرة لاتوضح لنا تماماً صلاحيات مجلس المدينة او الحي ويبدو انه لم يكن لها صلاحية النظر في القضايا الكبرى والمهمة وربما كانت مهمتها جمع المعلومات واجراء التحقيقات الاولية تمهيداً للنظر في القضايا الكبرى من قبل المحاكم الاعلى او ان تقوم المجالس بتحذير او تنبيه المخالف ومعاقبة المخالفين وفضّ بعض الخصومات البسيطة بين الافراد.

وفي الحالات التي لايتمكن مجلس المدينة ورئيس البلدة من حسم القضية، او ان احد طرفي النزاع لم يرض بالطريقة التي عالج فيها المجلس قضيته، كانت القضية تعرض على القضاة في المدينة الرئيسة القريبة او في العاصمة. وكان القضاة في المدينة يشكلون هيئة محكمة دائمية غالباً، وقد تكون برئاسة رئيس المدينة ممثلاً عن الملك وعدد من القضاة (دَيّان

---

(١) كريمر، السومريون، شيكاغو، ١٩٦٣، ترجمة فيصل الوائلي، ص ١١٥.

daiyanu بمعنى قاضٍ) ولم يكن لرئيس القضاة لقب خاص بل كان مجرد قاضٍ من بين بقية القضاة .

وكان القضاة يعينون من قبل الملك مباشرة ولم يكن يشترط فيهم مواصفات معينة ، فقد يكون القاضي تاجراً اوكاهناً او موظفاً او قائداً عسكرياً ، اي انه كان من الطبقة المتنفذة في المجتمع ، وربما كان القاضي يتقاضى اجوراً معينة على عمله[1] وقد ورد ذكر اصناف عدة من القضاة منهم قضاة المعبد ، وقضاة الدير ، وقضاة الملك ، كما ذكر قضاة مدن معينة .[2] وكان القضاة ، كما يشير الى ذلك قانون حمورابي ، يجلسون في مجلس خاص ، وقد نص قانون حمورابي على معاقبة القاضي الذي يغير قراره بغرامة مادية مع الطرد من مجلس القضاة ، كما اشار قانون حمورابي في بعض مواده الى جانب من المهام التي كانت تناط بالقاضي كالتحقيق والاستماع الى شهادات الشهود واصدار قرار الحكم وتاجيل الدعوى ودراسة القضايا .... الخ[3]

ويأتي الملك على رأس القضاة ، حيث انه كان يمثل الالهة على الارض كما تصور العراقيون القدماء وان الالهة انتخبته لتوطيد العدل والحق ، فهو اذن المرجع الاعلى والقاضي الذي لاترد عنده المظالم . اضافة الى ذلك ، فقد كان النظر في القضايا الكبرى التي تكون العقوبة فيها الاعدام ، من اختصاص الملك فقط .[4] ومن الطبيعي ان الملك كان ينظر في الكثير من القضايا ويحيل بعضها الى القضاة الملكيين ، او الى محاكم المدن او الى مجلس المدينة او الحي لاستكمال التحقيق وجمع المعلومات وبيان الرأي .

اجراءات التقاضي

يبدو انه في حالة حدوث اي اعتداء او تجاوز او خصومة لسبب ما على فرد من الافراد ، كان يلجأ اول الامر الى السلطات المحلية المتمثلة برئيس البلدة والمجلس المحلي في القرية او البلدة . وقد تثار القضية من قبل المجلس او ان الملك يحيل الى المجلس قضية معينة وكانت مهمة المجلس المحلي ورئيس البلدة التحقيق وسماع الافادات وتسوية النزاع او الخصومة او ازالة الضرر ان كان ذلك ممكناً ، وان تعذر ذلك على المجلس ، تحال القضية الى محاكم المدينة او العاصمة ، ويبدو ان الذهاب الى المحكمة كان من الامور الصعبة التي

Driver and Miles, BL, I, p. 493

(٢) كريمر ، السومريون ، ص ١١٥ .

(٣) انظر المواد : ١٣ ، ١٢٧ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٧٧ من قانون حمورابي .

(٤) قانون اشنونا ، م ٤٩ و ٥٩ ، قانون حمورابي ١٢٩ ، الاشورية الوسيطة ٤٧ .

فيه المحاكمات . وربما كان بعض القضاة الملكيين يعقدون المحاكمات في احد اجنحة القصر في حين كانت محاكمات اخرى تعقد في المعبد او الحي او المدينة .

نخلص من هذا ان نظام القضاء كان على درجة كبيرة من التقدم والنضوج وان بالامكان تلمس العديد من الاسس والمبادئ التي اعتمدها منذ اقدم العصور وظلت معتمدة في العصور التالية بدءاً من حق اقامة الدعوى ونوعية المحاكم ودرجاتها وصلاحياتها وطرق الاثبات المتبعة فيها واسلوب تثبيت الاحكام والقرارات وحماية حقوق الافراد والتي يمكن ان نجد صداها في اجراءات المحاكم حتى الوقت الحاضر. وتعكس هذه الاسس مدى اهتمام العراقيين القدماء بالقوانين وحرصهم على تطبيقها ظناً منهم انها مستوحاة من الالهة ، كما دأب الملوك على اصدار القوانين وتفاخروا بذلك كما تفاخروا بمتابعتهم تنفيذها وعدم التفريق عند التنفيذ بين الناس غنيهم وفقيرهم كبيرهم وصغيرهم . وبهذا النظام المتطور امكن حماية حقوق الافراد الى حد كبير ، نظرياً على اقل تقدير الا ان ذلك لايعني ان المجتمع العراقي القديم كان مجتمعاً مثالياً تسوده العدالة الاجتماعية المطلقة ، بل ان الصورة التي قدمناها مستقاة بالدرجة الاولى من نصوص القوانين المعروفة ومن الوثائق القانونية الاخرى ، وقد تكون صورة مثالية تختلف عما كان يجري في واقع الحياة .

العقوبة

العقوبة بمفهومها القانوني سمة من سمات المجتمعات المتطورة طالما كانت تمثل «الجزاء الذي يوقع على مرتكب الجريمة لمصلحة الهيئة الاجتماعية»[1] اي ان العقوبة وفق هذا التعريف لاتوجد اصلاً ان لم يكن هناك هيئة اجتماعية لها قوانينها واحكامها . ومن دراسة النصوص التشريعية المعروفة في العراق ، تعد اصلاحات اوروانمجينا اقدم تلك النصوص حتى الان ، وربما كان هناك نصوص اقدم ستكشف لنا عنها التنقيبات المقبلة ، وقد نصت هذه الاصلاحات على انواع معينة من العقوبات ، ثم جاءت القوانين المدونة من اواخر الالف الثالث قبل الميلاد فصاعداً وحددت عقوبة الجرائم التي يرتكبها الافراد على اختلافها .

تشير دراسة العقوبات التي نصت عليها الاصلاحات والقوانين المدونة وكذلك ماورد في النصوص ذات العلاقة ، كالقضايا الكاملة والوثائق اليومية والرسائل وغيرها ، ان العراقيين القدماء اعتمدوا مبدأين رئيسين في تحديد العقوبة الاول ، وهو الاقدم ، هو

---

(١) انظر عبدالملك جندي ، الموسوعة القضائية ، ج ٥ ، ص ٧.

كان الافراد يحاذرون من اللجوء اليها كما تشير الى ذلك بعض الرسائل. وكان على قضاة المحكمة ان يستمعوا الى افادة كل من المشتكي والمشتكى عليه ويدققوا في اوليات القضية ويبعثوا بطلب كل من له علاقة بالسلطة المحلية للمثول امامهم، كما كان القضاة يطلبون من الاطراف المعنية تقديم الشهود والاثباتات والمستمسكات المحررة ان وجدت وكانت ادلة الاثبات تنحصر في خمس وسائل:

١ – الاقرار او الاعتراف.
٢ – المستمسكات المحررة.
٣ – شهادات الشهود.
٤ – اداء القسم.
٥ – البينة في الامتحان او الاختبار النهري.

وكان للقضاة ان يعتمدوا على بعض او جميع هذه الادلة لاثبات التهمة او نفيها عن المتهم. وكانت بعض اجراءات المحاكم تجرى في المعبد او قريباً منه كالقسم والاختبار النهري.

وبعد ان ينظر القضاة في القضية ويستمعوا الى افادات الاطراف المتخاصمة وشهادات الشهود ويدققوا في الوثائق المقدمة ويؤدي احد اوكلا الطرفين اليمين، وقد يجتاز احدهما الاختبار النهري، يصدروا قرارهم في القضية مستندين على الاعراف السائدة والقوانين النافذة. وكان القرار يثبت على رقيم طيني يختم غالباً ويؤرخ وقد اشرنا الى هذا النوع من الرقم في القضايا الكاملة. وكانت وثائق القضايا الكاملة، تتضمن اضافة الى قرار الحكم، اسماء الاطراف واسماء الشهود وحيثيات القضية واسم القاضي.

وكان يعاون القضاة في ادارة وتطبيق العدالة عدد من الموظفين والعاملين وردت اسماء وظائف بعضهم في وثائق «القضايا الكاملة»، فقد ورد ذكر جندي (ريدُم rēdum) المنطقة او الحي وجندي القضاة ومنادي القضاة والحلاّق والكاتب وحافظ الرقم.

كما ذكر في نصوص من عصر اور الثالثة اسم كاتب المحكمة او مأمور التنفيذ اما مكان عقد المحاكمات، فقد ذكر مصطلح دينُم الذي يدل ايضاً على القضية القانونية، على انه المكان الذي كان يجلس فيه القضاة للنظر في القضايا المعروضة عليهم. وفي نصوص من العصر البابلي الحديث ورد ذكر «بيت القضاء» او «دار القضاء» كما ورد ذكر «دار القضاء الملكية» و«دار قضاء البلاد» كما اشير الى «بيت القضاة» وكلها يعني المكان الذي كانت تعقد

فيه المحاكمات . وربما كان بعض القضاة الملكيين يعقدون المحاكمات في احد اجنحة القصر في حين كانت محاكمات اخرى تعقد في المعبد او الحي او المدينة .

نخلص من هذا ان نظام القضاء كان على درجة كبيرة من التقدم والنضوج وان بالامكان تلمس العديد من الاسس والمبادئ التي اعتمدها منذ اقدم العصور وظلت معتمدة في العصور التالية بدءاً من حق اقامة الدعوى ونوعية المحاكم ودرجاتها وصلاحياتها وطرق الاثبات المتبعة فيها واسلوب تثبيت الاحكام والقرارات وحماية حقوق الافراد والتي يمكن ان نجد صداها في اجراءات المحاكم حتى الوقت الحاضر. وتعكس هذه الاسس مدى اهتمام العراقيين القدماء بالقوانين وحرصهم على تطبيقها ظناً منهم انها مستوحاة من الالهة ، كما دأب الملوك على اصدار القوانين وتفاخروا بذلك كما تفاخروا بمتابعتهم تنفيذها وعدم التفريق عند التنفيذ بين الناس غنيهم وفقيرهم كبيرهم وصغيرهم . وبهذا النظام المتطور امكن حماية حقوق الافراد الى حد كبير ، نظرياً على اقل تقدير الا ان ذلك لايعني ان المجتمع العراقي القديم كان مجتمعاً مثالياً تسوده العدالة الاجتماعية المطلقة ، بل ان الصورة التي قدمناها مستقاة بالدرجة الاولى من نصوص القوانين المعروفة ومن الوثائق القانونية الاخرى ، وقد تكون صورة مثالية تختلف عما كان يجري في واقع الحياة .

العقوبة

العقوبة بمفهومها القانوني سمة من سمات المجتمعات المتطورة طالما كانت تمثل « الجزاء الذي يوقع على مرتكب الجريمة لمصلحة الهيئة الاجتماعية »[1] اي ان العقوبة وفق هذا التعريف لاتوجد اصلاً ان لم يكن هناك هيئة اجتماعية لها قوانينها واحكامها . ومن دراسة النصوص التشريعية المعروفة في العراق ، تعد اصلاحات اوروانمجينا اقدم تلك النصوص حتى الان ، وربما كان هناك نصوص اقدم ستكشف لنا عنها التنقيبات المقبلة ، وقد نصت هذه الاصلاحات على انواع معينة من العقوبات ، ثم جاءت القوانين المدونة من اواخر الالف الثالث قبل الميلاد فصاعداً وحددت عقوبة الجرائم التي يرتكبها الافراد على اختلافها .

تشير دراسة العقوبات التي نصت عليها الاصلاحات والقوانين المدونة وكذلك ماورد في النصوص ذات العلاقة ، كالقضايا الكاملة والوثائق اليومية والرسائل وغيرها ، ان العراقيين القدماء اعتمدوا مبدأين رئيسين في تحديد العقوبة الاول ، وهو الاقدم ، هو

---

(١) انظر عبدالملك جندي ، الموسوعة القضائية ، ج ٥ ، ص ٧ .

مبدأ التعويض ، اي تعويض المجني عليه او المتضرر مادياً عما وقع عليه من ضرر وقد يكون التعويض بضعف كمية الضرر او اكثر كعقوبة السرقة مثلاً . اما المبدأ الثاني فهو مبدأ القصاص ، اي ايقاع نفس الضرر الذي وقع على المجني عليه على شخص الجاني . وكان التطور، في رأينا ، من مبدأ التعويض الى مبدأ القصاص،[1] خلافاً لما يراه معظم الباحثين بان مبدأ القصاص هو مبدأ غير انساني ومتأخر. وقد اعتمد قانون اور- نمو وقانون لبّت - عشتار السومريين مبدأ التعويض في حين اتبع قانون اشنونا من العصر البابلي القديم كلا المبدأين ، وزاد عدد المواد التي اعتمدت مبدأ القصاص في قانون حمورابي والقوانين الاشورية الوسيطة حتى طغت على العقوبة المفروضة في معظم المواد القانونية .

وتحديد العقوبة بالتعويض يعني التعويض المادي ، اي بكمية من الحبوب او الفضة بما يتناسب وجسامة الضرر. اما القصاص فيعني معاقبة المجرم بالقتل او بايقاع المثلة ، اي قطع او بتر عضو او اكثر من اعضاء الجسم بما يتناسب والجريمة التي اوقعها المجرم بالمجني عليه . وفي معظم المواد التي حددت العقوبة بالقتل لم تذكر طريقة القتل او من يقوم بتنفيذ العقوبة ويظن ان هذه المواد تعني القتل بالسيف وان السلطة الحاكمة كانت تقوم بالتنفيذ . وبعض المواد الاخرى حددت اسلوب القتل في جرائم معينة شنيعة وذلك بالاغراق بالماء او الحرق بالنار او الخازوق مع عقوبات اضافية كعدم دفن الجثة . واشترطت بعض المواد الاشورية الوسيطة حضور الكاهن عند تنفيذ العقوبة بحق المجرم .

ويبدو لنا ان هذه العقوبات القاسية لم تكن تنفذ حرفياً بل كانت تمثل الحد الاقصى من العقوبة وحق المجني عليه بتنفيذها الا انه كان بالامكان الاستعاضة عنها بالتعويض ، وهذا ماتؤكده القوانين الاشورية الوسيطة التي تركت الخيار للمجني عليه لاختيار عقوبة المجرم من بين اكثر من عقوبة واحدة .

ولم تكن عقوبة تقييد الحرية ، اي السجن مستخدمة وان كانت معروفة حيث كانت تستخدم لحجز المتهمين فترة التحقيق ولحين صدور الحكم ، وذلك لكلفتها الباهضة وعدم فائدتها في المجتمعات القديمة التي لم ترَ في السجن اصلاحاً للمجرم . وفي القوانين الاشورية الوسيطة شاعت عقوبة الجلد بالسوط والعمل لدى القصر الملكي لفترة محددة في حين اشارت بعض الوثائق اليومية الى بعض العقوبات الجزائية التي يستحيل تنفيذها كما سبقت الاشارة الى ذلك .

---

(١) انظر عامر سليمان ، العقوبة في القانون العراقي القديم ، التطور التاريخي ، اداب الرافدين ، ١١ ١٩٧٩ ص ١٨٥ - ٢١٠ .

ومع قسوة العقوبات التي فرضتها القوانين العراقية القديمة الا انها لم تعترف بتعذيب المتهمين والتمثيل بالمذنبين وهم احياء ومن ثم قتلهم بطرق وحشية بربرية كما عرفت ذلك القوانين الاوربية في القرون الوسطى ، وان القسوة في تحديد العقوبة كانت تهدف الى ردع المجرمين وجعلهم عبرة لغيرهم لمنع وقوع الجريمة ولم تكن الغاية منها التلذذ بمعاقبتهم.[١]

(١) انظر تفصيل ذلك ، عامر سليمان ، العقوبة في القانون العراقي القديم ، ص ٢٠٩-٢١٠.

اسماعيل، بهيجة خليل، مسلة حمورابي، بغداد، ١٩٨٠.
الامين، محمود، قوانين حمورابي، جمعية كلية الآداب، ٣، ١٩٦١.
باقر، طه، شرائع العراق القديم، سومر، ٣ (١٩٤٧)، ص ١٧١-١٩٢.
ـــــ ، قانون لبّت- عشتار، سومر، ٤(١٩٤٨) ، ص ٤-١٤.
ـــــ ، قانون مملكة اشنونا المكتشف في تل حرمل، سومر ٤(١٩٤٨) - ص١٥٣-١٧٣.
الراوي ،فاروق، الاعتداء والايذاء، سومر ، ٣٨(١٩٨٢).
رشيد فوزي، الشرائع العراقية القديمة، بغداد ١٩٨٧ (طبعة ثانية).
ـــــ، الشرائع ، في : العراق في موكب الحضارة، ج١ ، ص ٢٠٣-٢٧١.
سليمان عامر، القانون في العراق القديم، موصل، ١٩٧٧.
ـــــ ،العقوبة في القانون العراقي القديم، آداب الرافدين، ١١(١٩٧٩)، ١٨٥-٢١٠.
ـــــ ، السرقة في القانون العراقي القديم، آداب المستنصرية، ٨(١٩٨٤)، ٤٧٣-٥٠٢.
ـــــ ، العلاقات السياسية الخارجية، في : حضارة العراق، بغداد، ١٩٨٥، ج٢، ص ١٠٩-١٥٢.
العبودي عباس: شريعة حمورابي، موصل، ١٩٩٠.
الناهي ، صلاح الدين: تعليقات على قوانين العراق القديم قبيل ظهور شريعة حمورابي، سومر ٥(١٩٤٩)، ص ٣٧-٤٨.
الهاشمي رضا: القانون والاحوال الشخصية في: حضارة العراق، ج٢، ص٦٣-١٠٨.
Driver, G.R., and Miles, J., C, The Assyrian Laws, Oxford 1935, The Babylonian Laws, Oxford, 1955 (two vols).
Finkelstein, J.J., The Laws of Ur-Nammu, JCS, 21 (1968), pp. 66-82.
The Edikt of Ammisaduqa, RA, 63 (1969), pp. 189-190.
Goetze, A., The Laws of Eshnunna AASOR, 31 (1956).

الفصل السابع

الحياة الاقتصادية

ان لطبيعة ارض المنطقة الجغرافية ومناخها وموقعها وتوفر المواد الاولية فيها اكبر الأثر في حياة السكان الاقتصادية وتوجههم الوجهة الأكثر ملائمة وانتاجاً. وفي ارض الرافدين تتوفر مساحات واسعة من الأراضي الزراعية الخصبة، ولاسيما السهول الفيضية في القسم الجنوبي الصالحة للزراعة، كما ان معدل سقوط الامطار في القسم الشمالي كان كافياً لنمو النباتات على اختلافها في حين وفّرت مياه دجلة والفرات المياه اللازمة لارواء اراضي القسم الجنوبي من العراق. الى جانب ذلك، فلقد كان المناخ، ولم يزل، ملائماً لزراعة انواع كثيرة من المحاصيل الحقلية والاشجار. وهكذا كانت الظروف كلها ملائمة للزراعة ومحفّزة للانسان لبذل الجهود المنظمة لضمان الانتاج الوفير، وهذا مادفع بالعراقيين القدماء لأن يكونوا السبّاقين في الاهتداء الى الزراعة في القسم الشمالي من العراق. كما عُدت سهولهم الفيضية مضرب الامثال في وفرة الانتاج، فكانت الزراعة من اولى الدعائم التي قامت عليها حياتهم الاقتصادية.

كما كانت الظروف الطبيعية والمناخية ملائمة لمعيشة انواع كثيرة من الحيوانات البرية التي اعتمد على صيدها الانسان في حياته ومن ثم بدأ يسعى الى تدجينها والاستفادة من لحومها ومنتجاتها المختلفة.

من جانب آخر، فأرض العراق تفتقر الى المواد الخام الاساسية كالمعادن والاخشاب والحجر مما دفع بالسكان الاوائل الى توفير هذه المواد من مصادرها الاصلية في جبال الارز وجبال الفضة في بلاد الشام وآسيا الصغرى ومن ايران وبلدان ماوراء الخليج العربي، فكان ان نشطت التجارة الخارجية منذ فترة مبكرة جداً. كما كان لموقع العراق التجاري في المنطقة التي تصل بين بلدان الشرق الواقعة فيما وراء الخليج وبلدان الغرب ومرور طرق المواصلات من خلال بلاد بابل وآشور اثره في تنشيط الحركة التجارية.

اما الحرف والصناعات اليدوية ، وهي كذلك من الاسس التي قامت عليها الحياة الاقتصادية، فلم تكن باهمية الزراعة او التجارة في حياة السكان لاسيما وان عدم توفّر المواد الاولية وضرورة توفيرها من بلدان خارجية قد ثبّط العزائم في التوجه نحو الصناعة ، ومع ذلك احتلت الصناعة مكانة مهمة في الحياة الاقتصادية لاسيما الصناعة المعتمدة على المواد الاولية المتوفرة في العراق كالمنتجات الحيوانية والنباتية.

وهكذا كان لطبيعة ارض العراق وموقعه ومناخه اثر كبير في توجيه السكان وتحفيزهم على امتهان الزراعة ومن ثم التجارة وتخصص بعضهم بالصناعة.

واذا تجاوزنا عصور ماقبل التاريخ التي شهدت نشاطات الانسان الاولى في الزراعة والتدجين وفي التجارة والصناعة ، مما سنتحدث عنه فيما بعد ، والتي نستمد معلوماتنا عنها من المخلفات المادية بالدرجة الاولى ، فأن معلوماتنا عن الحياة الاقتصادية في العصور التاريخية تعتمد اساساً على النصوص المسمارية ، وهي كثيرة جداً الى درجة يصعب على الباحث الالمام بجميع ماورد فيها بيسر وسهولة . وتشير بعض النصوص المكتشفة الى مدى اهتمام الحكام والملوك بتنشيط الحياة الاقتصادية وقيامهم بالاصلاحات الجذرية لمعالجة الأزمات الاقتصادية او اصدار التعليمات والمراسيم من اجل تحقيق ذلك كما انهم اصدروا القوانين اللازمة لتنظيم وضبط مختلف النشاطات الاقتصادية . وقد سبق وان اشرنا الى الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية التي اصدرها اوروانيمجينا (اوروكاجينا) في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد والتي حاول من خلالها اصلاح المفاسد الاجتماعية والاقتصادية التي عمّت البلاد . وقد حذا حذوه عدد من ملوك سلالة بابل الاولى الذين كانوا يصدرون المراسيم الملكية في بداية حكمهم لمعالجة الازمات الاقتصادية ايضاً . اما القوانين المدونة ، فقد خصصت قسماً كبيراً من موادها لمعالجة الحياة الاقتصادية بمختلف جوانبها كما سنشير الى ذلك . والى جانب النصوص الملكية والرسمية ، فقد تم الكشف عن عشرات الالوف من النصوص المسمارية ذات العلاقة الى درجة يمكن القول ان اكثر من ٩٠٪ من النصوص المسمارية المكتشفة قاطبة ذات علاقة بالحياة الاقتصادية.

وفيما يأتي موجز لنشأة وتطور الدعائم الرئيسة التي قامت عليها الحياة الاقتصادية في العراق القديم مسلسلة حسب اهميتها.

اولاً : الزراعة

البدايات الاولى للزراعة وتطورها عبر العصور

عاش الانسان القديم القسم الاعظم من حياته على الأرض معتمداً على الصيد وجمع القوت من النباتات والأشجار البرية وذلك في العصر الذي سمّاه الباحثون بالعصر الحجري القديم والذي انتهى بحدود الالف العاشر قبل الميلاد. وفي العصر الحجري المتوسط الذي اعقب ذلك، بدأ الانتقال التدريجي في حياة الانسان من الصيد وجمع القوت الى الاستزراع والرعي ومن ثم انتاج القوت. ففي هذا العصر، اعتدل المناخ وانتقل الانسان في عيشه من الكهوف والمغاور في المناطق الجبلية الى مواقع مكشوفة على شواطئ الانهار ومصبّاتها وعند العيون والينابيع وفي السهول حيث يتوفر الماء. وتشير الآثار المكتشفة الى ان الانسان استخدم في هذا العصر بعض الآلات الزراعية البسيطة كالمناجل والمطاحن والهواوين والمدقّات مما يشير الى احتمال اهتدائه الى الزراعة بطريقة ما او انه استخدم تلك الآلات لحصد وطحن ودق الحبوب البريّة التي كان يجمعها ويستخدمها لغذائه.

تؤكد الآثار المكتشفة الى ان هذا الانتقال التدريجي في حياة الانسان باتجاه انتاج القوت قد حدث اول مرّة في العالم في منطقة الشرق الأدنى، في سوريا وفلسطين ولبنان والعراق. وفي القسم الشمالي من العراق وجدت آثار هذه المرحلة الانتقالية في عدة اماكن كهفية ومكشوفة، وهو امر متوقع وطبيعي نظراً لتوفر المياه وملاءمة المناخ وتوفر النباتات والحيوانات البرية والانسان النشيط، [1] وهي العناصر الاساسية اللازمة للزراعة.

ومنذ بداية العصر الحجري الحديث في الألف الثامن قبل الميلاد، اكتمل الانتقال من حياة الصيد والجمع الى حياة الزراعة والانتاج، وعدّ الباحثون اهتداء الانسان الى الزراعة والتدجين في هذا العصر ثورة الانسان الاقتصادية الاولى التي تضاهي، من حيث اهميتها وتأثيرها في حياة الانسان وتغييرها تغييراً جذرياً لنمط تلك الحياة، الثورة الصناعية في اوربا. ومن الطبيعي فقد كانت الزراعة في بداياتها محدودة حيث كان الانسان يزرع قطعة صغيرة من الأرض يكفي انتاجها لسد حاجته الذاتية، اي ان الزراعة كانت للاكتفاء الذاتي فقط. وربما كانت الزراعة في بداياتها من شأن النساء بالدرجة الاولى بينما اهتم الرجال بالصيد والتدجين.

---

(١) انظر تقي الدبّاغ، الثورة الزراعية والقرى الاولى، في: حضارة العراق: ج ١، ص ١١٢ - ١١٣.

كما كانت الزراعة حقلية ، اي خالية من البستنة وغرس الاشجار المثمرة التي تحتاج عدة سنوات حتى تعطي ثمارها ، وكان من اولى الحبوب التي زرعها الانسان القمح والشعير اضافة الى الحبوب الاخرى. كما كانت الزراعة ديمية تعتمد على مياه الامطار لذا اقتصرت على القسم الشمالي والغربي من العراق حيث معدل سقوط الامطار كان كافياً لانبات الحبوب. وكانت زراعة بدائية استخدمت فيها آلات زراعية بدائية كالعصا الحافرة الطويلة ، وفي المناطق الرخوة كانت الأرض تحرث بجاروف خشبي يقطع من غصن متشعب الفروع يجرّه رجل بيده او بحبل ثم ابتكر الانسان بعد ذلك المحراث الخشبي الذي كان الانسان يجره في بداية الامر ثم استخدم الثور والحمار لجرّه ، كما استخدمت الفؤوس والمناجل وغيرها من الآلات الزراعية. كما كانت الزراعة في بداياتها شبه متنقلة حيث كان الانسان يزرع الارض لبضع سنوات الى ان تفقد خصوبتها ويقل انتاجها فيضطر الى تركها الى ارض اخرى حيث لم يكن يعرف طريقة تسميد الأرض او تركها بوراً لمدة سنة لكي تستعيد خصوبتها ومن ثم يستأنف زراعتها في السنة التالية ولم تعرف هذه الطريقة الا في العصور المتأخرة نسبياً ولازالت متبعة الى يومنا هذا.

وفي العصر الحجري المعدني ، بدأ الاستيطان في القسم الجنوبي من العراق بعد ان غدت اراضيه صالحة للاستيطان والزراعة وكان معظمها قبل ذلك مغموراً بالمياه. ونظراً لقلّة سقوط الامطار وعدم كفايتها للزراعة ، فقد اضطر الانسان الى ابتكار طرق جديدة لري الأراضي الزراعية اصطناعياً وذلك بشق الجداول والقنوات وايصال مياة الانهار الى الاراضي المحيطة بها ، وقد ساعد في ذلك طبيعة السهول الفيضية وانخفاضها عن مستوى مياه الانهار مما سهّل عملية ارواء الأراضي المحيطة سيحاً. وقد رافق ذلك تطور عام في مختلف مجالات الحياة وتبلور ونضوج الحضارة بصورة عامة وكان من جملة التطورات التي حدثت في هذا العصر تطور الزراعة واساليب الري ، فزاد الانتاج الزراعي ولم يعد للاكتفاء الذاتي بل اصبح هناك فائض في الانتاج كما اصبحت الزراعة تعتمد على الارواء الاصطناعي وتعلّم الانسان طريقة ترك الأرض بوراً لمدة سنة واستخدم في الزراعة آلات زراعية متطورة نسبياً استخدم المعادن في صناعة بعضها ولاسيما سكين المحراث والمنجل والفأس وغيرها.

وظلت الزراعة في العصور التاريخية التالية تحتل مكان الصدارة في حياة المجتمع الاقتصادية ، بل كانت حرفة غالبية السكان ، وكانت جودتها ووفرة انتاجها تتوقف على مدى الاهتمام بمشاريع الري ، لذا تفاخر الملوك والحكام بقيامهم ببعض مشاريع الري مما يشير الى اهمية ذلك بالنسبة لحياة المجتمع ، كما دأب الحكام والملوك على اصدار القوانين والمراسيم التي عالجت شؤون الزراعة والعلاقة الزراعية وملكية الأرض وحق الارواء وغير ذلك. ورافق ذلك تطور ملحوظ في الآلات الزراعية المستخدمة وان ظلت محافظة على شكلها العام ، كما شاعت البستنة وغرس الاشجار ونظمت القوانين علاقة البستاني بصاحب الارض.

الأراضي الزراعية وطرق اروائها

تتوفر في العراق مساحات واسعة جداً من الأراضي الصالحة للزراعة في قسمي العراق الشمالي والجنوبي ، اي في كل من بلاد بابل وآشور وان اختلفت طبيعة الأراضي في كل من هذين القسمين. فأراضي بلاد آشور تقع في منطقة متموجة او بين الجبال والوديان وبعضها قريب من وديان الأنهار. وتعتمد زراعة اراضي بلاد آشور بالدرجة الاولى على مياه الامطار التي تسقط بمعدلات مناسبة ، ومع ذلك ، قام بعض الملوك بتنفيذ عدد من مشاريع الري لارواء الأراضي الزراعية الخصبة بالقرب من المدن الرئيسة ، كالأراضي المحيطة بمدينتي نينوى ونمرود . ومن الملاحظ انه يصعب ارواء اراضي بلاد آشور القريبة من وديان الانهار سيحاً ، اي بواسطة فتح القنوات والجداول من النهر الى الأراضي المجاورة وذلك لارتفاع الأراضي بصورة عامة عن مستوى مياه الانهار وصعوبة رفع مناسيب المياه مما دفع بعض الملوك الى جلب المياه من الأراضي المرتفعة البعيدة الى الاراضي المنخفضة ، كما فعل آشور ناصربال الثاني في حفره قناة تمتد من نهر الخازر الى مدينة كلخو (نمرود) وكما فعل سنحاريب عندما جلب المياه الى نينوى عبر قناة من نهر الگومل الى نينوى.

اما في بلاد بابل ، فأراضيها الزراعية الفسيحة تتمثل بالسهول الفيضية المنبسطة الواقعة بين وحول النهرين دجلة والفرات ، وهي ذات خصوبة متناهية نظراً لتجدّدها سنوياً من خلال ماترسّبه عليها مياه فيضانات النهرين دجلة والفرات السنوية من مواد غرينية خصبة ، الا ان معدل سقوط الامطار في بلاد بابل لايكفي للزراعة مما اضطر الانسان ومنذ ان استقر في هذا الجزء من العراق في الالف الخامس قبل الميلاد ، الى

القيام بمشاريع الري لارواء الأراضي الزراعية اصطناعياً من خلال فتح القنوات والجداول وحفر الانهار حتى غطّت بلاد بابل شبكة مزدحمة من تلك القنوات والجداول ، وقد كان لطبيعة ارض بلاد بابل اثرها في تيسير مهمة ارواء الأراضي الزراعية نظراً لارتفاع مناسيب المياه عن مستوى الأرض المحيطة وامكانية ري الأراضي سيحاً ، كما افاد العراقيون القدماء من اختلاف مستويات مناسيب المياه في كل من نهري دجلة والفرات في المناطق المختلفة فشقّوا القنوات والجداول من نهر الفرات باتجاه نهر دجلة شرقاً لارواء الأراضي الواقعة بين النهرين ، او بالعكس ، تبعاً لطبيعة الأرض ومستوى ارتفاعها بالنسبة لمنسوب مياه النهر.

والى جانب ضرورة ارواء اراضي بلاد بابل اصطناعياً بواسطة مشاريع الري ، فإن الأراضي الزراعية معرّضة لاخطار الفيضانات السنوية المدمّرة ان لم تتخذ الاحتياطات اللازمة لدرءها باقامة السدود الضخمة وكري الانهار وتنظيفها استعداداً لمياه الفيضانات. وكانت اعمال الري هذه واقامة السدود وما تحتاجه من جهود مكثّفة وتعاون بين الجماعات المختلفة المستفيدة من الأرض عاملاً رئيساً من عوامل نشوء اولى الادارات المركزية التي تبلورت فيما بعد بشكل حكومات ودول صغيرة التفّت كل واحدة منها حول مدينة رئيسة من المدن كما سبق وأن اشرنا الى ذلك فيما تقدم. وكان من اسباب الصراع والتنافس بين تلك الدول هو الرغبة في السيطرة على المزيد من الأراضي الزراعية ومصادر المياه.

وكان على الملوك والحكام ان يعملوا جاهدين على تنفيذ مشاريع الري ومن ثم ادامتها سنوياً بتنظيف وتطهير الانهار والجداول وتقوية السدود والا انقلبت فوائدها الى اضرار بالغة ، وكان اهمال العمل في مشاريع الري من الاسباب غير المباشرة التي ادّت الى انهيار ممالك مهمة ، كسلالة اور الثالثة التي حلّت بها الازمة الاقتصادية نتيجة لقلة الغلال.

وتؤكد الدراسات التي اجريت على ارض بلاد بابل ان المنطقة كانت تشقّها شبكة واسعة من الانهار والجداول والقنوات الكبيرة والصغيرة لازالت آثار بعضها ظاهرة للعيان حتى الوقت الحاضر، وعلى شواطئ الانهار والجداول قامت القرى والمدن. وقد ظل بعض تلك الانهار والجداول مستخدماً لقرون عديدة بل ان بعضها كان يستخدم حتى العصور العربية الاسلامية كنهر النهروان والنهر المعروف حالياً بالدجيل ، وكلاهما يتفرع من دجلة ، كما شقّت انهار كبيرة من الفرات الى دجلة كان احدها يخرج من الفرات ويتصل بدجلة فوق مدينة بغداد وقد عرف في العصر العباسي بنهر عيسى. وقد ذكر الكتّاب اليونان نهراً

باسم پالوكّات ، وهو اسم الفلّوجة القديم ، الذي كان يتفرع من الفرات عند الفلوجة ويسير بمحاذاة الجانب الغربي من النهر جنوباً حتى ينتهي بالبحر ، اي ان طوله كان يبلغ حوالي ٩٠٠ كيلومتر ويظن ان واديه يتمثل الآن بكري سعدة.[١]

ولضبط وتنظيم طرق الافادة من المياه لري الحقول والبساتين ، خصصت القوانين ، وبصورة خاصة قانون حمورابي ، عدداً من موادّها لتنظيم ذلك وتحديد مسؤولية الفلاح في حالة اهماله تقوية السداد مما قد يؤدي الى اغراق الحقول :

«اذا تقاعس رجل في تقوية سد حقله ولم يقوِّ سده ، وحدثت كسرة في سده ، فترك الماء يخرب الأرض المزروعة (المجاورة) ، فعلى الرجل الذي حدثت الكسرة في سده ان يعوض الحبوب التي سبب تلفها»[٢].

الخصوبة والملوحة

تمتاز ارض العراق بصورة عامة بخصوبتها الا انها تختلف في تكوينها ونسبة خصوبتها وملوحتها في كل من بلاد بابل وآشور.

ففي القسم الشمالي من العراق ، اي في بلاد آشور ، تكوّنت التربة نتيجة تكسر القشرة الأرضية وتفتتها عبر العصور الجيولوجية ، وهي تربة كلسية خصبة. ونظراً لكثرة سقوط الامطار فيها وانحدار اراضيها ، فإن نسبة الملوحة فيها قليلة حيث تعمل الامطار على اذابة الاملاح وجرفها سنوياً.

اما في بلاد بابل ، فإن الأراضي الزراعية فيها هي اراضي رسوبية اي انها تكونت نتيجة ترسبات المواد الغرينية التي جلبها النهران دجلة والفرات وروافدهما على مر العصور ، فهي لذلك متناهية الخصوبة ، كما ان خصوبتها تتجدد سنوياً بما ترسبه مياه الانهار نفسها من مواد غرينية خلال فترة الفيضانات ، وهذا ماتعكسه لنا بعض كتابات الكتاب

---

(١) انظر احمد سوسة ، فيضانات بغداد في التاريخ ، بغداد ، ١٩٦٣.

(٢) انظر فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ، ص١٢٨ المادة ٥٣ من قانون حمورابي. انظر كذلك المواد ٥٤ و ٥٥ و ٥٦.

الكلاسيكيين الذين وصفوا ارض الرافدين بارض الدردار، اي ارض الذهب والخير، وبالغوا في نسبة انتاجها من الحبوب وذكروا بأنها تصل الى مائتين او ثلاثمائة ضعف في حين سمّاها الكتّاب العرب بأرض السواد، اشارة الى لون تربتها الداكن نتيجة كثرة زرعها وخضرتها.

والى جانب هذه الخصوبة، فقد كانت زيادة نسبة الاملاح في تربة بلاد بابل الرسوبية من الآفات الزراعية الشائعة والخطيرة والتي كانت تهدّد السكان الى درجة انهم ظنوا بانها تعبير عن غضب الالهة عليهم فكتبوا الادعية واقاموا الصلوات وتوسلوا بالآلهة لتخليصهم من الملوحة الزائدة التي قد تحيلّ ارضهم الى خراب. ويبدو انهم لم يتبعوا أساليب بزل التربة وغسلها وتخليصها من الاملاح الزائدة بل ان اساليب الري التي أستخدمت زادت من نسبة الملوحة، فحرارة الشمس المرتفعة في معظم أيام السنة ساعدت على تبخر نسبة كبيرة من مياه الارواء تاركة وراءها الأملاح الكثيرة التي كانت قد اذابتها المياه وحملته من الاراضي التي مرت فيها ولاسيما في اوقات الفيضانات، كما أن المياه الجوفية هي الأخرى تدفع بالاملاح باستمرار الى اعلى، وتشير الدراسات العلمية الى ان النسبة متى زادت عن ٢٪ اصبحت الارض غير صالحة لأية زراعة، حتى زراعة اشجار النخيل التي تتحمل نسبة عالية من الملوحة، واذا كانت النسبة بحدود ١٪، فأن الارض تصلح لزراعة الشعير الا انها لاتصلح لزراعة القمح الذي يحتاج الى نسبة لاتزيد عن ٠,٥٪.

وكان من نتائج زيادة الملوحة في الاراضي الزراعية المحيطة ببعض القرى والمدن، أن هجرت تلك القرى والمدن وتركت اراضيها الزراعية وانتقل السكان الى مناطق أخرى، وقد تفسّر هذه الظاهرة أسباب انتقال المراكز الحضارية من المدن الواقعة في أقصى الجنوب والتي كانت مزدهرة في عصر فجر السلالات الى أواسط العراق في العصور التالية ومن ثم الى القسم الشمالي.

ملكية الاراضي الزراعية

كانت الارض الزراعية في المراحل الاولى من اهتداء الانسان للزراعة ملكاً لمن يقوم بزراعتها ومتى مانفذت خصوبتها، تركت وانتقل الانسان الى ارض اخرى مجاورة وهكذا. وبعد ان نشأت أولى القرى والمستوطنات الزراعية تبلورت فكرة الملكية وأصبح للأنسان مايمكن ان يكون ملكاً له، كالآلات الزراعية والبيوت المشيدة وما فيها من الآت وأدوات

مصنوعة من الحجر أو الفخار أو غيرها ولابد وأن تبع استقراره في السكن ان استقرت زراعته ايضاً في ارض محدودة غدت بالتدريج ملكاً مشاعاً له ولافراد اسرته. وتوضحت ملكية الارض في القسم الجنوبي من العراق لارتباط الارض بمياه الارواء وقربها او بعدها عن مصادر المياه.

ومنذ بداية عصر فجر السلالات في حدود بداية الآلف الثالث قبل الميلاد، ونظراً لسيطرة المعبد وكهنته على اقتصاد المدينة ومجمل نشاطاتها الاخرى، فقد أنتقلت ملكية الأراضي الزراعية الى المعبد. ويرى الباحثون الاوربيون ان سيطرة المعبد على جميع الاراضي وتملكه لها جاء نتيجة طبيعية لمعتقدات القوم الدينية حيث كان الاعتقاد السائد ان المدينة وما فيها ومن فيها كانت كلها ملكاً للآلهة التي خلقت البشر لخدمتها وأدارة شؤون أملاكها والتي فوّضت الحاكم وكهنة المعبد بهذه المهمة. لذلك، فقد كانت جميع اراضي المدينة ملكاً للمعبد كما كان جميع افراد المجتمع، وفق هذا المنظور، تابعين للمعبد ويعملون في اراضيه وقد ظلت الحالة على هذا النمط حتى قيام الدولة الأكدية. ونظراً لسعة أراضي المعبد وتنّوعها، فقد كانت على ثلاثة أنواع أشارت اليها النصوص المسمارية، يمثل النوع الاول منها الاراضي التي كانت تقطع الى الافراد مقابل خدمات معينة يقدمونها للمعبد، اي اشبه بمكافأة لهم على خدماتهم. وكان يحق لهؤلاء استغلال الارض وزراعتها الا انه لم يكن لهم الحق في بيعها او التصرف بها. اما النوع الثاني من اراضي المعبد فكان يؤجر الى الفلاحين مقابل أجرة مقطوعة او نسبة محددة من الانتاج، لذا كانت المحاصيل الحقلية تنهال على عنابر المعبد سنوياً. أما النوع الثالث والأخير، فيضم الاراضي المستغّلة بشكل مباشر من العاملين في المعبد لسدّ حاجات المعبد من المحاصيل الحقلية وغيرها. وفي جميع الاحوال لم يكن يسمح ببيع اراضي المعبد او التصّرف بها. وقد ظلت هذه الصورة عن ملكية الاراضي الزراعية في عصر فجر السلالات هي الشائعة والمقبولة بين الباحثين الى ان اعترضهابعض الباحثين في الخمسينيات من هذا القرن وقالوا انه مع الاعتراف بان المعبد كان يملك جزءاً كبيراً من الاراضي الزراعية الواقعة ضمن حدود المدينة، الا انه لم يكن المالك الوحيد لتلك الاراضي بل ان جزءاً كبيراً من الاراضي، ولاسيما الاراضي التي كانت تسقى بالواسطة، كانت ملكاً لجماعات صغيرة وكبيرة ملكية جماعية، اي استمراراً لما كان شائعاً في عصور ماقبل التاريخ، ويتبع ذلك ان نسبة كبيرة من سكان المدينة كانت تعمل خارج نطاق المعبد. وبمرور الوقت انبثق عن نظام الملكية الجماعية نظام الملكية الفردية وذلك من خلال قيام بعض المتنفذين والزعماء في الجماعة الواحدة بالسيطرة على اراضي الجماعة تدريجياً وابتياع حصص غيرهم او الاستحواذ عليها بطريقة من الطرق،

وهكذا نشأ نظام الملكية الفردية الذي تبلور وانتشر في العصر البابلي القديم. ويبدو ان النظرية الثانية والتي تفسر لنا كيفية نشوء نظام الملكية الفردية ، قد لاقت قبولاً حسناً من قبل معظم الباحثين في الوقت الحاضر وغدت النظرية المعّول عليها الآن[1] .

وهكذا شاع نظام الملكية الفردية في العصر البابلي القديم (حدود ٢٠٠٠ – ١٦٠٠ ق . م) واصبح بامكان اي فرد ان يمتلك مساحة من الارض الزراعية يقوم بزراعتها بنفسه او يؤجرها الى الغير كما كان يحق لأي فرد ان يتصرف بأرضه الزراعية المملوكة من قبله كيفما شاء. ومن جهة اخرى ، انتقلت ملكية الجزء الاكبر من اراضي المعبد الى القصر الملكي بعد ان سيطر القصر على شؤون الدولة ولم يعد للمعبد ذلك المركز الذي كان يتمتع به في عصر فجر السلالات. وغدت اراضي القصر هي الاخرى على ثلاثة انواع رئيسة ، وهي الاراضي المقطعة والاراضي المؤجرة والاراضي الخاصة التي كانت تستغل لسد حاجات القصر. وزادت مساحة اراضي القصر بانواعها الثلاثة زيادة كبيرة وسريعة باتساع حدود الدولة وهيمنتها على اراضي جديدة حتى غدت الدولة تمثل المالك الاول والرئيس للاراضي. وقد اتبع حمورابي سياسة اقطاع الاراضي الى الافراد مقابل مايقدمونه من خدمات الى الدولة والذي شمل توزيع الاراضي على افراد القوات المسلحة والافراد الاعتياديين ، وظل هذا النظام شائعاً وناجحاً لقرون عديدة من بعد حمورابي وقد اشار في قانونه الى ذلك النظام في عدد من المواد منها :

«لايجوز لجندي او قناص او مزارع ان يكتب لزوجته او ابنته (اي جزء) من الحقل او البستان او البيت المقطع له او يعطيه مقابل التزاماته»[2]

ومن دراسة الاوضاع الاقتصادية في بلاد بابل في العصر البابلي القديم يظهر لنا انه كان من نتائج شيوع الملكيات الفردية الصغيرة ان اعتمد صغار الفلاحين على ملكياتهم الصغيرة من الارض ، وفي حالة الجفاف او اصابة المحاصيل الزراعية باية آفة ، تعرّض اولئك الفلاحون الى الفقر والفاقة واضطروا الى اقتراض الاموال من المرابين بفوائد فاحشة ، فزادت ديونهم ودفعت بهم احياناً الى بيع الارض والبيت وربما الزوجة والاولاد ، مما اضطر بعض الملوك الى معالجة مثل هذه الاوضاع باصدار المراسيم الملكية ، كما سبقت الاشارة ، لاطفاء الديون والغاء الفوائد وتاجيل الضرائب المستحقة.

---

(١) حول تفصيل ذلك انظر .Amer Sulaiman, A Study of Land Tenure, pp. 40 — 83

(٢) قانون حمورابي ، المادة ٣٨. انظر كذلك المواد ٢٧ –٣٢ ، ٣٦ –٣٧ ، ٤٠ –٤١.

ومع ذلك ، ظل نظام المُلكية الخاصة ، او الفردية ، شائعاً عبر العصور كما ظل القصر يمتلك الجزء الاكبر من الاراضي ويقوم بتأجيرها واقطاعها الى الافراد ، وفي فترة السيطرة الكشّية كان الملوك يقطعون مساحات واسعة من الاراضي الى بعض الافراد لقاء خدماتهم الجليلة تجاه القصر.

وكان انتقال ملكية الارض او التصرف بها عن طريق الرهن او الايجار لايتم ويصبح قانونياً اذا لم يكن مثبتاً في وثيقة محررة ومشهد عليها. وقد تم العثور على مئات العقود الخاصة بالاراضي على اختلافها وفيما يأتي نموذج من هذه العقود :

عقد بيع من العهد البابلي القديم خاص بحقل تعود ملكيته الى احد الاشخاص ويباع الى شخص آخر، ويظهر ان الاجراءات التي كانت تتم لاكمال العقد كانت تتضمن دفع الثمن كاملاً ورضاء الاطراف المتعاقدة وتسليم البائع آلة معدنية تسمى "بوكانّوم" ، رمزاً لانتقال الملكية ثم القسم بحياة الملك والآلهة للالتزام بمضمون العقد بينما تضمنت عقود اخرى من العصر نفسه شروطاً جزائية مختلفة اغلبها خاص بدفع كميات معينة من الفضة او الذهب الى المشتري في حالة نكول البائع وفيما يأتي الترجمة الحرفية لهذا العقد :

« ا إيلُ وا ايكو من الحقل في منطقة (خ) بجوار (حقل ب) ، (م) اشترى من (أ) ، سيدفع له الثمن كاملاً فضة (وبذا اصبح) قلبه راضياً ومحادثاتهم كاملة وسلّمه البوكانّوم واقسم بحياة الملك بان لايطالب أحد الآخر في الايام المقبلة.

اسماء ستة شهود آخرهم الكاتب [1].

كما اشارت القوانين الى ضرورة تسجيل الاراضي وبينت احكام بيعها ورهنها او ايجارها . ويبدو ان اجراءات البيع كانت غاية في التفصيل كما تشير الى ذلك احدى مواد القوانين الآشورية الوسيطة التي ذكرت لنا تفصيل تلك الاجراءات وعلى النحو الأتي :

« سيحصل بالشراء ، قبل أن يحصل على الحقل والبيت عن طريق الشراء ، عليه ان يجعل المنادي يعلن في مدينة آشور (اذا كان العقار هناك) ثلاث مرّات خلال شهر واحد كامل او يجعله يعلن ثلاث مّرات في المدينة (التي يقع فيها الحقل والبيت الذي ينوي الحصول عليه قائلاً : « انني على وشك الحصول على حقل وبيت فلان ابن فلان ، ضمن حدود هذه المدينة ، عن طريق الشراء ،

---

(١) انظر: عامر سليمان ، القانون في العراق القديم ، ص١٢٣.

فليتقدّم اولئك الذين لهم حق بالتملك ويقدّموا وثائقهم ويعرضوها امام المسّجل ، ويعرضوا ادعاءهم ويظهروا حقهم ويأخذوا العقار. اولئك الذين قدّموا وثائقهم في خلال هذا الشهر الكامل ، حيث لايزال هناك وقت دون ان ينسوا ، وعرضوها امام المسّجل ، حقوق ذلك الشخص مضمونة الى حدود حقله وسيأخذه. وبعد ان يعلن المنادي في مدينة آشور، يجتمع احد الوزراء الذي يقف امام الملك وكاتب المدينة والمنادي ومسجّل الملك ، في حالة مدينة اخرى حيث ينوي الحصول على حقل وبيت ، يجتمع رئيس المدينة وثلاثة من مسنّي المدينة ويجعلون المنادي يعلن وسيكتبون رقيمهم ويسلموها اليهم قائلين: «اعلن المنادي خلال هذا الشهر ثلاث مرات ومن لم يقدّم وثيقة خلال هذا الشهر الكامل ويعرضها امام المسّجل يخسر حقه في الحقل والبيت ، وهي خالصة لمن جعل المنادي يعلن.....»[1]

الالات الزراعية

من البديهي ان الالات الزراعية في العصر الحجري الحديث كانت بدائية وبسيطة جداً ومصنوعة غالباً من الحجر او العظم. وربما كانت العصا الحافرة والفأس الحجري والمحراث المتمثل بغصن شجرة متفرع من اولى الالات الزراعية الى جانب المعازق والمناجل والمجارش والمطاحن ، وكانت كلّها تصنع من الحجر واحياناً من العظم ، او ذات مقابض خشبية. وكانت هذه الالات صالحة لحرث وزراعة اراضي ذات مساحات صغيرة ، ولاسيما بالنسبة للمحراث الذي كان يسحب باليد او بواسطة حبل ، وبمرور الوقت تطورت تلك الالات وغدا المحراث الخشبي اكثر تطوراً وشبيهاً الى حد كبير بالمحراث اليدوي المستخدم في بعض القرى الى الوقت الحاضر بل يفوقها احياناً لانه يضم قمعاً خاصاً في نهايته لوضع البذور فيه وبذرها اثناء عملية الحراثة. واستخدمت المعادن لصنع سكين المحراث والمنجل والفأس. ومن دراسة الالات الزراعية المكتشفة او المصورة اشكالها على

---

(١) انظر ترجمة المادة: فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ، ص ٢٠٢-٢٠٣.



محراث خشبي ذو قمع – من ختم اسطواني

الاختام الاسطوانية والمنحوتات الاخرى ، يتبين بانها لم تكن تختلف كثيراً عن الالات المستخدمة الى وقت قريب في القرى والارياف العراقية ، اي قبل ان تدخل المكننة الحديثة في مجال الزراعة ، بالنسبة للمناجل والمحاريث والمذراة ومايسمى بالجرجر، المستخدم لدرس السنابل وغيرها .

المحاصيل الزراعية

تشير جميع الدراسات الى ان مناخ العراق منذ عشرة الاف سنة وحتى الان لم يطرأ عليه تغيير جوهري ، لذا لم تختلف النباتات الطبيعية والمزروعة من قبل الانسان اختلافاً كبيراً . وتؤكد ذلك النصوص المسمارية وبعض اثار الحبوب المتفحّمة التي وجدت في المواقع العراقية القديمة وكذلك المشاهد المصوّرة على المنحوتات والاختام . وكان الشعير والقمح في مقدمة الحبوب التي دجّنها الانسان وزرعها الى جانب الدخن والعدس والباقلاء والسمسم والاذرة وغيرها . وفي فترة تالية بدأ بغرس الاشجار في البساتين وقد افاد من الاشجار الطبيعية الموجودة في المنطقة الجبلية على وجه الخصوص والتي شملت معظم الاشجار المثمرة باستثناء الحمضيات بل ان اسماء بعض تلك الاشجار ظلت شائعة في الاستخدام منذ العصور السومرية والبابلية والآشورية وحتى الآن ، مثل الخوخ والرمان والاجاص والتين.[1] اما اشجار النخيل ، فقد كانت ذات اهمية اقتصادية خاصة وقد عرفت زراعتها

(١) انظر: طه باقر، من تراثنا اللغوي القديم ، بغداد ، ١٩٨١ .

وطرق تكثيرها وتلقيحها منذ اقدم العصور التاريخية ، واستفاد العراقيون القدماء من النخيل فائدة جمّة الى درجة ان بعضهم قال بان في النخلة ٣٦٥ فائدة ، وهي اشارة الى فائدتها على مدار ايام السنة .

وتشير المنحوتات الآشورية الى ان النخيل كان معروفاً في بلاد آشور، الا ان الدراسات الاخرى لاتؤكد ذلك وربما صورت اشجار النخيل على المنحوتات باسلوب رمزي او للاشارة الى هيمنة الآشوريين على بلاد بابل . ومن الطريف ذكره ان الاشوريين جلبوا في عهد سنحاريب شجيرات القطن وزرعوها في حقول نينوى واطلقوا عليها اسم «اشجار الصوف» كما تباهى سنحاريب بانه جلب جميع انواع الاشجار والنباتات التي كانت موجودة في البلدان والاقاليم التي وصلتها جيوشه وزرعها في حدائق غناء في مدينة نينوى . ولم يكن سنحاريب هو الملك الوحيد الذي اهتم بالحدائق بل ورد ذكر حدائق ملكية كثيرة ولاسيما في بلاد بابل وربما نالت الجنائن المعلقة شهرة لاتستحقها الا انها تشير الى مدى الاهتمام بزراعة الاشجار والنباتات .

وقد خصصت القوانين البابلية عدداً من موادّها لتنظيم العلاقة بين صاحب الارض والبستاني المسؤول عن زراعة الاشجار، ومعظمها من النخيل ، حيث ذكرت احدى المواد :

> «اذا اعطى رجل حقلاً لبستاني ليحوّله الى بستان ، وزرع البستاني البستان ، فعليه ان ينمّي (اشجار) البستان لمدة اربع سنوات وفي السنة الخامسة يقوم صاحب البستان باقتسام (محصول البستان) بالتساوي ، ولصاحب البستان ان يختار (بنفسه) نصيبه» . [1]

كما اكدّت احدى المواد على مدى اهتمام المشرع بالاشجار ورعايتها ومنع اتلافها وذلك عندما عاقبت كل من يقوم بقطع شجرة عقوبة قاسية .

> «اذا قطع رجل شجرة من بستان رجل (آخر) من دون موافقة صاحب البستان ، فعليه ان يدفع نصف منا فضة» . (قانون حمورابي ، المادة ٥٩) .

---

(١) قانون حمورابي ، المادة ٦٠ انظر كذلك المواد ٦١-٦٥ .

واضافة الى ذلك ، زرع العراقيون القدماء انواعاً مختلفة من الخضراوات ، كالبصل والثوم والفجل والخيار والخس والقرع وغيرها من الخضراوات التي وردت في النصوص المسمارية بتسميات مضاهية الى تسمياتها العربية الحالية مما يشير الى استمرار زراعتها من اقدم العصور وحتى الان .[1]

العلاقة الزراعية

لم يكن جميع الفلاحين يمتلكون اراضٍ زراعية بل كان بعضهم يعمل باجرة يومية لدى الغير، لذا نجد قانون حمورابي يخصص عدداً من مواده لتحديد اجور الزراع والفلاحين واجرة الالات والادوات الزراعية كالمحراث والعربة والحيوانات التي تجرهما. وتؤكد النصوص الاقتصادية المكتشفة ان عدداً كبيراً من الفلاحين والحاصدين والعاملين في الزراعة على اختلاف اعمالهم كانوا يتقاضون اجوراً يومية او شهرية مقدرة بالحبوب او الفضة. كما كان بعض صغار الفلاحين يستأجرون مساحة صغيرة من الاراضي الزراعية مملوكة من قبل غيرهم ويقومون بزراعتها. وكانت العادة ان تؤجر الارض الى الفلاّح لمدة سنة كاملة مقابل اجرة مقطوعة تدفع عند الحصاد وتعتمد كميتها على مساحة الأرض فتحدد بالنسبة لكل كور من الأرض ، والكور وحدة مساحة تستخدم للاراضي الزراعية ، او ان يستأجر الفلاح الارض مقابل نسبة معينة من الغّلة الناتجة ، وهي الطريقة التي كانت ولازالت شائعة في العراق. وكانت حصة الفلاح من الغلّة تختلف من عصر الى آخر وتعتمد على نوعية الارض وطريقة اروائها الا انها استقرت في العصر البابلي القديم ، كما تشير الى ذلك القوانين وتؤكدها الوثائق والعقود الاقتصادية ذات العلاقة ، على تقسيم الغلّة إما مناصفة بين الفلاح وصاحب الارض ، اذا كان صاحب الارض قد قدّم البذور وغيرها من مستلزمات الزراعة ، او ان يأخذ الفلاح ثلثي الغّلة في حين يأخذ صاحب الارض الثلث المتبقي فقط كما يفهم ذلك من المادة القانونية الآتية :

« فاذا لم يأخذ (صاحب الحقل) حصة حقله ولكنه أجّره لنصف (المحصول) او لثلثه ، فعلىٰ الفلاح وصاحب الحقل ان يقتسما بحسب ناتج المحصول »[2]

---

(١) انظر طه باقر، من تراثنا اللغوي القديم ، بغداد ، ١٩٨١ .

(٢) قانون حمورابي ، المادة ٤٦ ، انظر كذلك المواد ٤٢–٤٨ .

اما اذا كانت الارض خراباً وكان على الفلاح استصلاحها ، فكانت العادة ان تؤجر لمدة ثلاث سنوات يدفع خلال ذلك الفلاح اجرة زهيدة مقطوعة ريثما يتم استصلاح الارض ، وفي السنة الرابعة يدفع الاجرة كاملة سواء كان الاتفاق على دفع حصة معينة من المحصول ام كان على اساس دفع اجرة سنوية مقطوعة.

وقد خصص حمورابي خمس وعشرون مادة قانونية لتنظيم العلاقة الزراعية وتحديد مسؤوليات كل طرف كما عالج التجاوزات التي قد تقع على الحقول والبساتين. ونظمت القوانين ايضاً اسلوب ارواء الاراضي من الجداول او الانهار او الابار ومسؤولية جميع الفلاحين المستفيدين من مصدر الماء بالعمل على أدامته وصيانته أو تنظيفه والا تعرضوا للعقوبة التي نصت عليها القوانين[1] ، وفصّلت احدى المواد القانونية المذكورة في القوانين الآشورية الوسيطة ذلك حيث نصت :

> «إذا كان في الآبار ماء يمكن جلبه لسقي الارض ويكفي لزراعتها ، فعلى أصحاب الحقول (المعتمدة على هذه الآبار) أن يساعد بعضهم البعض وعلى كل منهم ان ينجز العمل (الخاص بمجرى الماء) ضمن مساحة حقله ، وله (بعد ذلك) أن يسقي حقله ، واذا لم يكن بينهم اتفاق (على تنظيف مجرى الماء كل للمسافة المتعلقة بحقله) فيمكنهم ان يطلبوا من القضاة عمل الاتفاق ، فيقوم القضاة بتثبيت (الاتفاق) في عقد (خاص) وعندها يستطيع (كل من هو ضمن الاتفاق) اخذ المياه الكافية لنفسه ويسقي بها حقله ولا يجوز (لمن هو ليس ضمن الاتفاق) ان يسقي (حقله)»[2].

اما بالنسبة للأعمال الزراعية الفعلية التي كان على الفلاح القيام بها ، فيبدو انها لم تكن تختلف عن الأعمال التي يقوم بها الفلاح في الوقت الحاضر والتي شملت الفلاحة ، اي الحراثة ، وإعداد الارض للزراعة وعزقها ومن ثم بذر البذور ومراقبة الزرع حتى ينمو وحصده عندما ينضج. وقد قدّم لنا احد الكتبة السومريين شرحاً وافياً للاعمال الواجب القيام بها

---

(١) انظر قانون حمورابي ، المواد ٤٢-٦٥ ، قانون اور-نمّو : المواد ٢٧-٢٩ وقانون لبِت- عشتار ، المواد ٧-٨ ، القوانين الآشورية الوسيطة ، لوح٢ المادتان : ١٧ و١٨.

(٢) انظر فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ، ص٢٠٥ ، القوانين الآشورية ، المادة ١٧ لوح/٢.

عند الزراعة وبين لنا الاوقات المناسبة لكل عمل وذلك على شكل نصائح ووصايا قدّمها أب لابنه وادّعى الكاتب بان تلك النصائح ليست من ذاته بل أنها من توجيهات الالهة المسؤولة عن الزراعة ، وقد عرفت الوثيقة التي ضمت ذلك عند الباحثين باسم « تقويم الفلاّح ». وتضم الوثيقة بهيئتها الحالية اكثر من مائة سطر من الكتابة المسمارية السومرية وتبدأ بعبارة :

« في الازمان القديمة ، زوّد الفلاح أبنه بهذه الأرشادات » ومما قاله الاب لابنه :

« راقب من يبذر بذور الشعير بحيث يجعل البذور تتخلّل (الحرث) بعمق اصبعين بوجه منتظم » ثم يقول :

« اذا ماانتهيت من حرث الخطوط المستقيمة فاحرث بعدئذ خطوطاً مائلة ، واذا اتممت حرث هذه الخطوط المائلة فاحرث خطوطاً مستقيمة ... وفي اليوم الذي تشق فيه البذور الارض يلزم الفلاح ان يقدم الصلاة للالهة ... الخاصة بجرذان الحقل وحشراته وديدانه لئلا تضر الحشرات الغلّة النامية كما عليه ان يخيف الطيور. ومتى نما الشعير نمواً كافياً بحيث يملأ خطوط الحرث فيجب على الفلاح ان يرويه. واذا تكاثف الزرع في نموّه وملأ الحقل وصار بهيئة الحصير في وسط السفينة ، فعليه ان يسقيه مرة اخرى ومرة ثالثة يلزم ان تسقي الغلّة " الملكية " وان لاحظ الفلاح احمراراً في الزرع المسقي فأن ذلك امارة على وجود الآفة الزراعية المخيفة التي وردت بأسم سَمَانا المهلكة للزرع والغَلة. واذا تحسن حال الزرع فعليه ان يرويه مرة رابعة وبذلك يضمن الحصول على زيادة في الأنتاج.

واذا حان موعد الحصاد ، فيلزم الفلاح ان لا ينتظر حتى ينحني الشعير ويميل من جراء ثقله ، بل ينبغي قطعه وهو في ابان قوته »[١].

---

(١) عن ترجمة كريمر، من الواح سومر، شيكاغو، ١٩٥٠ ، ترجمة طه باقر، ص١٣٧ - ١٤٢.

ثانياً: التدجين

كانت الظروف الطبيعية والمناخية في القسم الشمالي من العراق خلال العصر الحجري القديم ملائمة لعيش انواع كثيرة من الحيوانات البرية والمتوحشة، وكان من بينها حيوانات كبيرة انقرضت تدريجياً بعد ان اعتدل المناخ ومال الى الدفء والجفاف النسبي وذلك منذ بداية العصر الحجري المتوسط. كما بدأت حياة الانسان تتغير تدريجياً باتجاه انتاج القوت عن طريق الزراعة وتربية الحيوان وتكييفها للعيش في المراعي. ومن الصعب على الباحث ان يتابع المراحل الاولى التي بدأ فيها الانسان بتدجين الحيوان. كما يصعب عليه تتبع مراحل الزراعة الاولى. والزراعة وتربية الحيوان حرفتان متلازمتان ويصعب معرفة ايهما سبقت الاخرى ويبدو انهما كانتا متلازمتين منذ البداية[1].

واستغرقت عملية تدجين الحيوانات وقتاً طويلاً، وكان عدد انواع الحيوانات التي دجّنها الانسان قليل نسبياً، وظلت الحيوانات الاليفة تمثل نسبة قليلة من انواع الحيوانات، ويبدو ان الحيوانات التي دجّنها الانسان كانت بالدرجة الاولى تلك الحيوانات التي اعتادت العيش في قطعان كبيرة وكانت قادرة على التناسل والتكاثر وهي في الاسر، اي في المرعى.

وتشير الدلائل المتيسرة الى ان الحيوانات التي دجنت كانت في الاصل الحيوانات التي اعتاد الانسان صيدها، وربما احتفظ بصغار الحيوانات اما للمتعة، او للاستفادة من لحومها فيما بعد، وقد شملت تلك الحيوانات الاغنام والابقار والتيوس والخنازير البرية. وبمرور الوقت، تروضت صغار تلك الحيوانات والفت العيش الى جانب الانسان وشعر الانسان بعد فترة من الزمن بفائدتها الاقتصادية فزاد من اهتمامه بها ومحافظته عليها، وبدأ تكاثر الحيوانات المدجنة في المراعي وبدأ الانسان يستفيد اقتصادياً من تلك الحيوانات حيث استفاد من لحومها وجلودها واصوافها وشعرها ووبرها ولبنها اضافة الى ما قدّمته تلك الحيوانات من خدمات للانسان في الجر والنقل والركوب. وقد تم العثور على بقايا اربعة انواع من الحيوانات ذات المنفعة الاقتصادية في اقطار الشرق الادنى، ومنها القسم الشمالي من العراق، وهي الماعز والضأن والماشية والخنازير.

وكانت الكلاب من اولى الحيوانات التي ألفها الانسان وذلك منذ العصر الحجري المتوسط وقد كانت فائدتها في الصيد كبيرة. ومنذ العصر الحجري الحديث بدأ بتدجين الماعز والاغنام وكانت الخنازير تعيش في منطقة الاهوار والمستنقعات، لذا تأخر تدجينها الى

---

(١) انظر تقي الدباغ، الزراعة والتحضر، في: العراق في موكب الحضارة، ج١، ١٩٨٨، ص٣٠.

الالف السادس قبل الميلاد. ثم تبع ذلك تدجين الماشية، الثيران والابقار. ونظراً لأهمية هذه الحيوانات القصوى في الحياة الاقتصادية ولاسيما الحيوانات التي استخدمت للحرث والزراعة وجر العربة والمحراث، فقد حددت اجورها القوانين ونصت على اجور معالجتها ورعايتها:

«اذا استأجر رجل ثوراً لمدة سنة، فإجرة الثور في نهاية (السنة) أربعة كور من الحبوب». (قانون حمورابي، المادة ٢٤٢)

اما اذا مات الثور اثناء تلك المدة نتيجة معاملته معاملة سيئة واهماله فعلى المستأجر تعويض صاحب الثور:

«اذا استاجر رجل ثوراً واماته بسبب الاهمال او الضرب، فعليه ان يدفع ثوراً مثل الثور (الذي استأجره) لصاحب الثور.» (المادة ٢٤٢).

اما اذا كان سبب موت الثور او الحمار المستأجر غير ناتج عن اهمال او تقصير، عندها لايعوض صاحبه بشيء.[1]

وفي عدد آخر من المواد القانونية، حددت اجرة البيطار الذي يعالج الحيوان المريض مما يشير الى اهمية هذه الحيوانات الاقتصادية واهتمام القوم بشفائها من المرض:

«اذا عالج طبيب ثور او حمار (اي بيطار) جرحاً كبيراً (اي اجري عملية) لثور او حمار فشفاه، فعلى صاحب الثور او الحمار ان يدفع للطبيب سدس الفضة اجرة له.» (قانون حمورابي، المادة ٢٢٤)، كما نظمت القوانين اسلوب رعي الاغنام والماشية وحددت اجور الراعي ومسؤولياته تجاه صاحب الاغنام والابقار:

«اذا اعطيت لراع بقر او غنم لرعيها، واستلم اجرته الكاملة وكان راضياً. فأذا انقص عدد البقر او انقص عدد الغنم وأدى (ذلك) الى نقصان معدل الولادة، فعليه ان يعوّض النقص الحاصل في الولادة ويدفع الضريبة بحسب شروط العقد»[2]

---

(١) قانون حمورابي المادة ٢٤٤، انظر كذلك المواد: ٢٤١، ٢٤٣، ٢٤٦، ٢٤٧ - ٢٥٢، ٢٦٨-٢٧١.

(٢) قانون حمورابي، المادة ٢٦٤. انظر كذلك المواد ٢٥٣-٢٥٦ و ٢٥٨، ٢٦١، المواد: ٢٦٣-٢٦٧. فوزي رشيد، الشرائع العراقية القديمة، ص١٦٣.

وتابع الانسان تدجين الحيوانات الاخرى التي افاد منها لاغراض شتى اضافة الى منتجاتها الاقتصادية ، فاستخدم الاخدر في حدود ٣٠٠٠ ق.م. لجر العربات والحصان الذي ادخله الكشيون في اواسط الالف الثاني قبل الميلاد واستخدموه بشكل واسع للنقل

وجر العربات الحربية ، كما دجّن الجمل ذي السنام وذي السنامين واستخدمه لحمل الاثقال كما تشير الى ذلك بعض النقوش والمنحوتات ، كما دجن الحمار والحمار الوحشي الذي ربما استخدمت لحومه للآكل. كما ورد ذكر البغل لاول مرة في عهد الدولة الاكدية وكان الجاموس يعيش في المستنقعات والاهوار. اما الدجاج ، فيظهر انه دجّن لاغراض دينية في البداية وقد ذكر في النصوص لاول مرة في القرن الخامس قبل الميلاد وربما جلب الى العراق من الهند.

اما الحيوانات الوحشية التي عاشت في بلاد بابل وآشور فكان اهمها الفيلة والأسود والغزال الاحمر ، الذي انقرض الان ، والماعز الجبلي والذئاب والثعالب والضباع والخنازير البرّية.

والى جانب هذه الحيوانات التي دجّنها الانسان واعتمد على منتجاتها المختلفة في حياته الجديدة ، افاد الانسان من الطيور الكثيرة والاسماك المتوفرة بكثرة في الانهار والاهوار.

ثالثاً : التجارة

نشأة التجارة وعوامل نشاطها

شهد القسم الشمالي من العراق الذي عرف فيما بعد ببلاد آشور ، اول ثورة اقتصادية قام بها الانسان وذلك بانتقاله من حياة جمع القوت الى حياة انتاج القوت عن طريق الزراعة وتدجين الحيوان ، وكان ذلك في العصر الحجري الحديث كما سبق وأن اشرنا. وكانت بدايات الزراعة والتدجين بسيطة ومحدودة وللاكتفاء الذاتي فحسب ، ثم أتسعت تدريجياً مساحات الاراضي المزروعة وتنوعت المحاصيل وتطورت أساليب الزراعة والآلات المستخدمة للقيام بها فزاد الانتاج وفاض عن الحاجة الذاتية مما دفع البعض الى مقايضة الفائض في انتاج غلّة معينة بغيرها مما فاض عند الاخرين ، ونتج عن ذلك بمرور الوقت ماعرف بالتخصص في العمل ، حيث اهتم بعض الأفراد بزراعة الحبوب وانتاج كميات كبيرة تزيد عن حاجتهم الذاتية في حين انكب آخرون لصناعة الآلات والأدوات الزراعية والمنزلية وتخصصت جماعة ثالثة بصناعة الفخار ورابعة ببناء البيوت وهكذا ، وكان بديهياً ان

يتبادل الافراد السلع والمواد المنتجة كل مع الآخر لسد حاجاتهم الاساسية من المواد ، وكان هذا التبادل ، او المقايضة ، بداية التعامل التجاري الذي اصبح الاساس الذي قامت عليه التجارة بصورة عامة في العصور المبكرة . ومنذ بداية العصور التاريخية ، او قبيل ذلك ، يبدو أنه تم التعارف بين السكان على اتخاذ مواد معينة من المنتجات واسطة لتقييم الاثمان وتحديد الاجور لتيسير التعامل التجاري ، فكان ان استخدمت الحبوب اولاً وتبعها استخدام المعادن . كما تبلورت بمرور الوقت العادات والتقاليد التي كانت تحكم التعامل التجاري وغدت الاساس الذي نظمت بموجبه وشرّعت القوانين في العصور التالية .

والى جانب ذلك ، فقد ساهمت طبيعة ارض العراق وموقعها في تنشيط التجارة ، وبصورة خاصة التجارة الخارجية . فالمعروف ان ارض العراق ، وعلى وجه الخصوص السهل الرسوبي في الجنوب ، تفتقر الى المواد الاولية الاساسية لنمو وتطور اية حضارة كالمعادن على اختلافها والاخشاب الجيدة والحجارة والتي تدخل في صناعة مختلف الآلات والأدوات الزراعية والمنزلية والحلي وغيرها . لذا كان لزاماً على العراقيين القدماء توفير هذه المواد من مناشئها الخارجية كما كان عليهم في الوقت نفسه توفير سلع ومنتجات اخرى بديلة لاطفاء قيمتها ، فكانت صناعة النسيج والملابس والجلود والزيوت والخمور وغيرها من المواد البديلة التي تمت مقايضتها مع المعادن والاحجار والاخشاب .

كما كان لموقع العراق بين الخليج العربي وساحل البحر الابيض المتوسط اثره في تنشيط التجارة وتبادل السلع بين الشرق والغرب مروراً ببلاد بابل وآشور . وزاد في نشاط التجارة توفر وسائط النقل النهرية الرخيصة الى جانب الوسائط البرية وبصورة خاصة بالنسبة لنقل المواد الكبيرة الحجم والرخيصة الثمن ، كالاحجار والاخشاب او الشعير . وهكذا تضافرت مجموعة من العوامل على تشجيع العمل التجاري في الداخل او مع البلدان والاقاليم الخارجية وتنشيطه وتطويره ، وغدت التجارة من الدعامات الاساسية التي اعتمدت عليها الحياة الاقتصادية في العراق القديم بل ان بعض الباحثين اطلق على مجتمع بلاد بابل في الالف الثاني قبل الميلاد تسمية "مجتمع التجار" ، نظراً لنشاط التجارة وازدهارها وتزايد اهميتها .

التجارة الخارجية (1)

كان للتجارة الخارجية اثر كبير ليس في الحياة الاقتصادية فحسب بل وكذلك في انتقال الوافر من العناصر والمظاهر الحضارية العراقية القديمة الى البلدان والمناطق التي اتصل بها العراقيون القدماء عن طريق التجارة ، كما لابد وان تأثر العراقيون القدماء بدورهم بما كان لدى الاقوام الاخرى التي اتصلوا بها من مظاهر حضارية مختلفة.

ويمكن الاستدلال على وجود علاقات تجارية مع البلدان والأقاليم الاخرى من العثور على اثار مصنوعة من مواد غير متوفرة في العراق كحجر الاوبسيدين والمعادن على اختلافها وبعض الاحجار الاخرى. ولقد اكدت التنقيبات الأثرية وجود مثل هذه المواد في عدد من المواقع القديمة منذ العصر الحجري الحديث والعصر الحجري المعدني وكلما تقدمنا بالزمن نحو العصور التاريخية كلما زاد التعامل التجاري مع البلدان الاخرى وزادت انواع المواد المستوردة. والى جانب الشواهد المادية التي تؤكد قدم العلاقات التجارية مع عدد من البلدان المحيطة بالعراق ، هنالك التأثيرات الحضارية التي افرزتها تلك العلاقات في حضارة البلدان التي اتصل بها العراقيون.

ولتيسير الاتصال بالبلدان الخارجية ، كان لابد من توفير وسائط نقل جيدة ومناسبة وتأمين طرق تجارية امينة. وقد توفرت وسائط نقل برية واخرى نهرية مناسبة لنقل البضائع والسلع المستوردة والمصدرة. وكانت وسائط النقل المائية انسب الوسائط واكثرها ملاءمة لنقل المواد ذات الاحجام الكبيرة وقد استخدمت للنقل في انهار العراق ، ولاسيما نهر الفرات ، كما استخدمت في الخليج العربي ، الا ان من سلبياتها صعوبة النقل بواسطتها باتجاه تيار الماء المعاكس. (2)

وقد طوّر العراقيون القدماء وسائل النقل النهرية منذ فترة مبكرة ، فاستخدموا القارب الشراعي وسفن نقل البضائع ، لنقل الحبوب والفواكه والتمور ، باحجامها المختلفة ، كما استخدموا الاكلاك والعوّامات والقُفف وكلها وسائط نقل لاتزال تستخدم في العراق حتى الوقت الحاضر. وقد اشار قانون حمورابي الى اجور السفن وحدد كميتها نسبة الى سعتها وحمولتها كما نص على مسؤولية اصحابها في المحافظة على البضائع التي تنقلها وحدد اجور بنائها ومن هذه المواد :

---

(1) انظر تفصيل ذلك

Leemans, H.E. Fareign Trade in the Old Babylonian Period, Leiden, 1960.

رضا الهاشمي ، التجارة ، في حضارة العراق ، ج٢ ، ص ١٩٨ - ٢١٣.

(2) رضا الهاشمي ، الملاحة النهرية في العراق القديم ، سومر ، ٣٧ (١٩٨١).

«اذا أستأجر رجل سفينة ، فإنَّ اجرتها في اليوم ثلاث حبات من الفضة»

«اذا أستأجر رجل سفينة ، من (حجم) ستين كور، فعليه ان يدفع في اليوم سدس الشيقل من الفضة إجرة لها».

«اذا أعطى رجل سفينة لملاح بالأجرة ، وكان الملاح مهملاً فاغرق او فقد السفينة ، فعليه ان يعوض سفينة لصاحب السفينة».

«اذا استأجر رجل ملاحاً وسفينة وحملها شعيراً وصوفاً وزيتاً وتمراً او حملاً من اي حاجة اخرى ، وكان الملاح مهملاً واغرق السفينة وسبب فقدان ما كان عليها ، فعلى الملاح ان يعوّض السفينة التي أغرقها والأشياء التي كانت في داخلها والتي تسبب في فقدانها». [1]

أما وسائل النقل البرية ، فكانت قوافل الحيوانات وكان في مقدمة الحيوانات التي أستخدمت للنقل الحمير والبغال ولم تستخدم الخيول الا منذ أواسط الألف الثاني قبل الميلاد وبشكل محدود ايضاً وقلما أستخدمت الجمال التي عرفت منذ بداية الألف الاول قبل الميلاد وذلك من خلال الاتصال بالجزيرة العربية.

أما بالنسبة لعربات النقل ، فعلى الرغم من ان العراقيين القدماء كانوا قد ابتكروا أستخدام العجلة منذ الألف الرابع قبل الميلاد ، الا ان العربات لم تستخدم لنقل البضائع الا بشكل محدود جداً ، وكانت العربات في العصور المبكرة تجرّها الثيران. ويبدو ان قلة استخدام العربات كان ناتجاً عن صعوبة توفير الطرق الملائمة سواء في المنطقة الشمالية حيث المناطق الجبلية الوعرة او في القسم الجنوبي من العراق حيث تغطي المنطقة شبكة من القنوات والجداول والاهوار والمستنقعات.

وكانت القوافل البرية تسير في طرق محددة وتمر بعدد من المحطات التي نشأت على الطرق التجارية ، وكان على الدولة التي تمر بها الطرق التجارية حماية القوافل التجارية مقابل ماتدفعه من ضرائب ، كما كانت الاحلاف والمعاهدات التي تعقد بين الممالك غالباً ماتتضمن بنوداً خاصة بتعهد الدول وضمانها امن وسلامة الطرق والقوافل التي تمر باراضيها.

---

(١) قانون حمورابي ، المواد : ٢٧٥ – ٢٧٧ ، ٢٣٦ – ٢٣٧ ، وكذلك لمواد ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ – ٢٤٠ ، ٢٧٦.

ومع ذلك، كثيراً ما كانت القو... تتعرض للنهب والسرقة من قبل قطاع الطرق. وكان على الملوك والحكام ان يقوموا بحملات عسكرية متكررة من اجل ضمان امن وسلامة طرق المواصلات التجارية في حين اقيمت القلاع والحصون والمحطات التجارية على الطرق للغاية نفسها وزودت معظم المدن الواقعة على الطرق التجارية بوحدات عسكرية صغيرة لحماية الطريق كما اقيمت في تلك المدن اماكن الراحة اللازمة للقوافل التجارية على هيئة خانات.

تاجر العراقيون القدماء مع بلدان كثيرة قريبة وبعيدة لتوفير المواد الخام التي يفتقر اليها العراق وتصدير ماهو متوفر من مواد ومصنوعات في العراق الى الاقطار الخارجية. واحتل الخليج العربي مكان الصدارة من حيث قدم العلاقات التجارية مع البلدان الواقعة عليه او فيما وراءه، وهذا ما أكدته التأثيرات الحضارية العراقية التي اظهرتها التنقيبات الاثرية التي اجريت في عدد من المراكز الحضارية الخليجية القديمة. كما اشارت النصوص المسمارية الى الدور الكبير الذي لعبته بعض مراكز الخليج العربي في تجارة العراق ووردت الاشارة منذ أواسط الألف الثالث قبل الميلاد الى دلمون، المتمثلة حالياً بالبحرين، وماجان المتمثلة بسو...ل عمان، وميلوخا التي يظن بانها تشير الى وادي السند. وكانت بعض المراكز، مثل دلمون، تقوم بدور الوسيط بين العراق وبلدان اخرى واقعة فيما وراء الخليج العربي. وقد نشطت تجارة السومريين والأكديين مع هذه البلدان في العصور الاولى وانكمشت فيما بعد ولاسيما عندما سيطر الكشيون على بلاد بابل.

وتأتي بلاد الشام في المرتبة الثانية من حيث الاهمية بالنسبة للتجارة الخارجية وقد ورد ذكر جبالها الغنية بالمواد الخام في اقدم النصوص المسمارية فذكرت جبال الارز (امانوس) وجبال الفضة (طوروس) مما يعكس اهمية هذه المناطق بالنسبة للمواد الخام التي سميت بأسمها. واستمرت التجارة مع بلاد الشام طوال العصور العراقية القديمة ولأهمية بلاد الشام التجارية ولتوفر المواد الخام فيها وأهمية الموانىء البحرية التي تصل بين الشرق والغرب، فقد قام الملوك الآشوريون بحملات عسكرية متتابعة للسيطرة عليها لضمان أمن وسلامة قوافلهم التجارية وتأمين وصول المواد الخام الى بلاد آشور واحتدم الصراع بين مصر من جهة ومملكة الحيثيين من جهة ثانية للاسباب نفسها، كما كان من أسباب الصراع الآشوري– المصري هو الرغبة في السيطرة على مصادر المواد الخام والتحكم في تجارتها.

واحتلت آسيا الصغرى مكانة مهمة في تجارة العراقيين القدماء وربما ترجع العلاقات التجارية معها الى عصور ماقبل التاريخ حيث جلبت منها بعض انواع الحجر،

كالاوبسيدين الذي تعد ارمينيا اقرب منطقة يتوفر فيها ، كما جلبت المعادن ، وخاصة النحاس والفضة ، منها . وفي مطلع الألف الثاني قبل الميلاد ، أقام الآشوريون لهم عدداً من المراكز التجارية في شرقي آسيا الصغرى في الأقليم الذي عرف بكبدوكيا كما سبق ان اشرنا الى ذلك عند الحديث عن العصر الآشوري القديم . فلقد تم الكشف في احد هذه المراكز عن اكثر من اربعة عشر الف رقيم طيني مدونة جميعها بالخط المسماري واللغة الاكدية تبين بأنها ذات علاقة بالمعاملات التجارية التي قام بها التجار الآشوريون الذين استقروا في هذه المراكز مع سكان الأقليم المحليين . ويبدو انه كان هناك ما لايقل عن تسعة مراكز تجارية آشورية اخرى الى جانب مركز قانش التجاري الذي تم الكشف عنه ، وهو المركز الذي وجدت فيه الرقم الطينية آنفة الذكر ، حيث ورد ذكر هذه المراكز التجارية في النصوص المسمارية الا انه لم يكشف عنها بعد كما اشير الى عدد من المحطات التجارية الصغيرة على طول الطريق المؤدية الى اقليم كبدوكيا . وكان كل مركز تجاري آشوري يسمى كارُم kārum وكان اشبه مايكون بغرفة التجارة في الوقت الحاضر حيث كان له مجلس يشرف على شؤونه وشؤون التجار القاطنين فيه وحل مشاكلهم وفق الاعراف والتقاليد الآشورية السائدة . وتشير دراسة الرقم الطينية المكتشفة في قانش الى التنظيم الدقيق الذي كان عليه الكارُم في أدارة التجارة وايصال البضائع من والى المراكز التجارية بطرق مواصلات محددة ووسائط نقل برّية قوامها عدد كبير من الحيوانات ، ولاسيما الحمير . وكان هناك نظام دقيق لتحديد الاسعار وحساب الارباح والخسائر وتنظيم الشركات وتسلم واستلام البضائع ودفع الضرائب والرسوم والى غير ذلك من المعاملات التجارية ذات العلاقة . وكان التجار الآشوريون يصدرون الى آسيا الصغرى المنسوجات والقصدير ويستوردون الفضة والذهب وغيرها من المواد الثمينة .

ويبدو ان هذا الاسلوب من العلاقات التجارية مع أقاليم آسيا الصغرى الجنوبية الشرقية كان معروفاً منذ العصر الأكدي حيث ان هناك نص مسماري يتحدث عن حملة عسكرية قام بها الملك سرجون الأكدي (٢٣٧١ - ٢٣١٧ ق.م) على آسيا الصغرى لنجدة جماعة من التجار الاكديين الذين استنجدوا به ضد ظلم احد الحكام المحليين وان كان النص المسماري قد دوّن في اواسط الألف الثاني قبل الميلاد . ويشير هذا النص الى احتمال وجود مراكز تجارية أكدية ، على غرار ما نعرفه من مراكز تجارية آشورية ، وذلك منذ القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد .

أما بالنسبة للعلاقات التجارية مع بلاد عيلام في القسم الجنوبي الغربي من ايران ، فأنها ترقى الى اقدم العصور التاريخية كما يستفاد من بعض النصوص المسمارية المتأخرة . فقد

اشارت القصيدة السومرية المعروفة بأسم قصيدة اينمركار وسيّد ارّاتا الى هذه العلاقة وإن كانت قد اخذت شكل المفاوضات السياسية من اجل الحصول على كميات من الذهب والفضة واللازورد. كما ان هناك اشارات حول جلب القصدير والذهب من ايران كانت عيلام تقوم بدور الوسيط في ذلك. كما قامت علاقات تجارية بين العراقيين القدماء مع بعض مناطق شبه الجزيرة العربية ولاسيما في العصر البابلي الحديث (٦٢٦- ٥٣٩ ق.م). وقد حاول نبونائيد آخر ملوك بابل ايجاد طرق تجارية جديدة في شبه الجزيرة العربية بعد ان انقطعت طرق تجارته القديمة المارة ببلاد عيلام وايران وسوريا، فقام بحملة عسكرية سيطر خلالها على عدد من المدن والواحات الواقعة في شمال شبه الجزيرة العربية كان من بينها واحة تيماء.

وهكذا كان العراقيون القدماء رواداً في التجارة الخارجية كما كانوا روّاداً في الكثير من النشاطات الاخرى وقد وفّروا من خلال تجارتهم هذه المواد الخام الضرورية للصناعة في حين صدّروا المواد المصنّعة، ولاسيما المنسوجات والاختام والحلي والاواني والأدوات المعدنية اضافة الى المواد الغذائية.

التجارة الداخلية

يقصد بالتجارة الداخلية جميع المعاملات التجارية التي تتم بين افراد المجتمع من اجل تبادل السلع والحاجات وسد حاجة الافراد والجماعات منها. وقد اشرنا في مقدمة هذا الفصل الى ان البدايات الاولى للتجارة الداخلية تزامنت مع بدايات التخصص في العمل وانتاج مايفيض عن الحاجة الذاتية للفرد او الاسرة من هذه المادة او الغلّة او تلك مما يضطره الى مبادلة الفائض مع مادة او غلّة اخرى فائضة عن حاجة الآخرين، وقد حدث ذلك على اغلب الظن منذ الالف السادس قبل الميلاد، اي منذ بداية العصر الحجري المعدني. ثمّ مالبث ان نشطت التجارة الداخلية وتنوعت البضائع والمنتجات النباتية والحيوانية التي تبادلها افراد المجتمع عن طريق المقايضة وازدادت المعاملات التجارية وكان لابد من ظهور وتبلور نظم وتقاليد سار عليها المجتمع تضبط وتنظم المعاملات التجارية المختلفة وكانت اساساً للنشاط التجاري الذي ازدهر بشكل خاص في الألف الثاني قبل الميلاد. وفيما يأتي نبذة عن بعض تلك النظم والتقاليد:

١ - وسيلة التعامل التجاري

يقصد بذلك اسلوب تبادل السلع والبضائع. فكما اشرنا سابقاً، اتبع العراقيون القدماء في المرحلة الاولى من تعاملهم التجاري مع بعضهم اسلوب مقايضة المنتجات والبضائع بعضها بالبعض الآخر، الا ان تنوع المنتجات النباتية والحيوانية، وتعدد المصنوعات اليدوية جعل من غير الممكن تحديد قيمة جميع تلك السلع والبضائع والمنتجات بعضها بالنسبة للبعض الآخر ليكون ذلك اساساً للمقايضة حيث استوجب هذا الاسلوب من المقايضة ان يعرف المرء قيمة كل مادة من المواد والسلع بالنسبة الى المواد المتيسرة لديه سواء كانت غلال زراعية ام منتجات حيوانية ام صناعات يدوية لذا كان على القوم ايجاد وسيلة ماتيسر اسلوب التعامل فكان ان اتخذت الحبوب سلعة وسيطة تكون اساساً لتقييم جميع السلع الاخرى ومن ثم مبادلتها على هذا الأساس. ونظراً لوفرة الشعير وتعدّد فوائده واستخداماته فقد احتل المكان الاول بين الحبوب الاخرى لتقييم الاثمان، كما استخدم ايضاً لتحديد اجور الخدمات والحيوانات، وظل كذلك الى مدة طويلة. وقد نصّت القوانين السومرية والبابلية على ذلك في العديد من موادها ذات العلاقة:

ففي قانون اشنونا، حددت اسعار الزيوت المستخدمة بالنسبة للشعير في المادة الثانية:
«١ قا من زيت السمسم من نوع نسخاتم (سعره حبا) ٣ سوت من الشعير.
١ قا من شحم الخنزير من نوع نسخاتم (سعره حبا) ٣ سوت و ٥ قا من الشعير.
١ قا من زيت النهر من نوع نسخاتم (سعره حبا) ٨ قا من الشعير»
كما حددت اجور الاشخاص والعربات والحيوانات بالشعير ايضاً:

«اجرة قارب (ذي سعة) ٦٠ كور تساوي ٢ قا واجرة سائقه تساوي ١ سوت (شعير) وعليه ان يسوق القارب طول اليوم» المادة (٤) واستخدم الشعير لتحديد اجور الحيوانات وغيرها في قانون حمورابي ايضاً:
«اذا استأجر رجل ثوراً لمدة سنة فأجرة الثور في نهاية (السنة) اربعة كور من الحبوب» (المادة ٢٤٣).

غير ان الحبوب بصورة عامة لاتمنح المرونة اللازمة للتعامل التجاري، فصعوبة حمل كميات كبيرة منها من اجل ابتياع بعض المواد وصعوبة حفظها واحتمالات تلفها وتذبذب اسعارها كل ذلك كان من الاسباب التي دفعت الى ايجاد مادة اخرى تكون واسطة للتعامل. وكانت المعادن افضل المواد وخاصة الذهب والفضة ومن ثم النحاس والرصاص والحديد والبرونز، فهي غالية الثمن ويمكن ان يتم ابتياع مواد كثيرة بقطعة صغيرة، وهي

قابلة للتجزئة ببساطة ومن ثم قابلة للتجميع ثانية دون ان تفقد من وزنها او تتغير نوعيتها او تقل قيمتها ، اضافة الى ثبات سعر المعادن نسبياً وامكانية حفظها دون احتمال تلفها . وقد احتلت الفضة المكان الأول بين المعادن الاخرى في هذا المجال واستخدمتها القوانين لتحديد الاجور والخدمات والاثمان الى جانب الشعير واخذت بها معظم العقود التجارية . الا ان استخدام المعادن واسطة للتعامل لم يبطل استخدام الحنطة والشعير للغاية نفسها بل انها قلصت من استخدامها الى حد بعيد . ففي قانون اشنونا اشارة واضحة لذلك وكذلك في قانون حمورابي .

«اجرة عربة وثيرانها وسائقها تساوي ١ پي و ٤ سوت من الشعير ، واذا (كان الدفع) بالفضة فالاجرة تساوي ثلث شيقل . و [على السائق) ان يسوقها طول اليوم» (قانون اشنونا ، المادة ٣) .

«اذا اجرى طبيب عملية لرجل بسكين العمليات وانقذ حياة الرجل ، وفتح محجر عين رجل بسكين العمليات وانقذ عين الرجل ، فعليه (اي الطبيب) ان يستلم عشرة شيقلات من الفضة» (حمورابي : ٢١٥) . وتيسيراً لاستخدام الفضة في التعامل التجاري ، فقد تم صب الفضة على هيئة قضبان او اسلاك او حلقات او اقراص دوّن على بعضها وزنها بالشيقل ، وهو وحدة الوزن التي كانت شائعة انذاك ، وكان يحق للبائع ان يزن قطعة الفضة المدفوعة له طالما لم تكن القطعة صادرة عن الدولة ولم تكن مختومة بختم رسمي يؤيد وزنها وقيمتها ويضمنها . وربما صبَّ الآشوريون اقراص دائرية من الفضة ووضعوا عليها بعض رموز الآلهة وحدّدوا وزنها ، كما اشار الى ذلك سنحاريب (٧٠٤ - ٦٨١ ق.م) ، ويؤشر ذلك بداية استخدام النقود ، الا ان مملكة ليديا في آسيا الصغرى اخذت هذه الفكرة المتطورة في التعامل التجاري واصدرت قطعاً فضية ذات اوزان محددة وعليها دمغة تحمل رمز الملك والدولة وذلك في حدود عام ٧٠٠ ق.م . وعدَّ ذلك بداية استخدام النقود الفعلية . ومن ثم شاع استخدام النقود المعدنية واخذه الفرس الاخمينيون واليونان وغيرهم . (١)

٢ - الاسواق

ان اكثر مايظهر فيه النشاط التجاري هي الاسواق حيث يمارس الناس عمليات البيع والشراء وتحدد الاسعار استناداً الى العرض والطلب ويجتمع الباعة والتجار والحرفيون يعرضون بضائعهم ومنتجاتهم للبيع ، وبعبارة اخرى ان السوق كان بؤرة النشاط

(١) انظر عامر سليمان ، النظم المالية والاقتصادية ، في : العراق في موكب الحضارة ، ج ١ ، ص ٣٦٩ - ٣٧٤ .

الاقتصادي في المدينة . ومع ذلك ، هناك من الباحثين الاوربيين من يرى بأنه لم يكن لدى البابليين اسواق حيث تجري فيها المعاملات التجارية وتحدد الاسعار بناء على العرض والطلب. ويناقش بولاني[1] ، وهو الباحث الذي قدّم هذا الرأي ، ذلك معتمداً على مضاهاة الاقتصاد البابلي بالاقتصاد الفارسي في العصر الاخميني حيث لم يعتد الفرس ، كما يذكر ذلك هيرودوتس ، على ممارسة اعمالهم التجارية في الاسواق. ومن الواضح ان بولاني في رأيه الغريب هذا قد اغفل تماماً الاختلافات الجوهرية بين التكوين الاجتماعي والاقتصادي للفرس الذين كانوا لايزالون في القرن الثامن قبل الميلاد عبارة عن قبائل رحل غير متحضرة في حين كان للبابليين انذاك تراث حضاري فخم يمتد بجذوره الى اكثر من الفي سنة . كما يشير بولاني الى انه لم يكن في المدن العراقية القديمة ساحات واسعة مفتوحة تصلح لأن تكون اماكن للاسواق في حين كشفت التنقيبات الأثرية عن ساحات واسعة داخل المدن ، ولاسيما المدن الآشورية ، كانت تكفي لاقامة مهرجانات نصر عامة[2] ، كما كانت الساحات الواسعة المحيطة ببوابات المدن تستخدم هي الاخرى لتجمع الباعة والتجار وعرض بضائعهم ، كما هي العادة في معظم المدن الشرقية والغربية وحتى الآن ، وقد اشارت بعض النصوص المسمارية الى ذلك حيث ذكرت ان بعض الاتفاقات كانت تبرم عند مداخل المدن ، كما ان اسم احدى بوابات سور نينوى يعني (بوابة التسلم عند الشراء) ، كما انه ليس من الضروري ان تكون الاسواق في ساحات مكشوفة بل ربما كانت الاسواق المفتوحة هي اسواق موسمية او وقتية تعقد في ايام معيّنة من الاسبوع او الشهر او السنة ، اما الاسواق الدائمية فربما كانت تتألف من عدد من المحلاّت التجارية ، او الدكاكين او العنابر التي كانت تشيد داخل المناطق السكنية ولا تختلف عن ابنية البيوت في شيء لذلك يصعب على المنقب تمييزها والتعرّف عليها ، وان مايؤكد وجود مثل هذه الدكاكين اننا عثرنا على العديد من عقود الايجار الخاصة بهذا النوع من العقارات .[3]

ولابد أنه كان يعمل في السوق ، الى جانب الباعة والتجّار والزبائن ، عدد من الأشخاص المساعدين على اكمال عمليات البيع ، كالكاتب الذي كان يقوم بتحرير العقد الخاص بالصفقات التجارية الكبيرة او المتضمنة بيع عقار او رقيق والحمّال الذي كان يحمل على ظهرة البضائع من والى السوق والوزّان المسؤول عن وزن او كيل المواد المباعة

---

(١) انظر ساكز، عظمة بابل ، ص٣٢٥.

(٢) نفس المصدر، ص٣٢٦.

(٣) عامر سليمان ، النظم المالية ، ٣٨٧ - ٣٨٨.

لقاء اجرة معينة ، والدلاّل ، او السمسار الذي كان يقوم بدور الوسيط للتوفيق بين البائع والمشتري ، وغيرهم من الأشخاص المساعدين الذين مازلنا نجدهم في الاسواق العراقية الشعبية .

٣- التاجر

كان التاجر تمكارُ tamkāru، محور النشاط التجاري في المدينة ويظن ان كلمة تاجر العربية ترجع باصولها الى الكلمة العراقية القديمة . وكان يتمتع بمركز اقتصادي واجتماعي مرموق وكانت له اعمال متنوعة . فاضافة الى قيامه بعملية بيع المواد والسلع التي يحصل عليها من الداخل والخارج ، ويبيعها بالجملة والمفرد ، فقد كان يقوم بدور المموّل لغيره من الباعة لقاء ربح معين او نسبة معينة من الربح :

«اذا اعطى رجل رجلاً آخر نقوداً (لعمل) مشترك ، فعليها ان يقتسما بالتساوي الربح او الخسارة امام الاله» (قانون حمورابي ، المادة س).

وقد يتفق مع بيّاع متجول للقيام بالمتاجرة لقاء مايدفعه له من اجرة يومية مقطوعة كما يفهم من المادة الآتية :

«اذا اعطى تاجر نقوداً لبياع متجول وارسله في رحلة (تجارية) والبياع المتجول قد تاجر بالفضة التي استودعت لديه ، فإذا واجه ربحاً اينما ذهب فعليه ان يحسب الزيادة في الفضة التي استلمها بعد ان يحسبوا الايام (التي قضاها في السفر) وعليه ان يدفعها لتاجره» (قانون حمورابي ، المادة ع).

كما كان التاجر يقوم باقراض الناس اموالاً لقاء فائدة معينة ، وقد تكون نسبة الفائدة عالية جداً لذلك حاول المشرّعون تحديدها بما لايزيد عن ٣٣٪ ان كان القرض حبوباً و٢٠٪ ان كان القرض فضة ومنع التاجر من التلاعب بالموازين والمكاييل المستخدمة عند تسليم واستلام الحبوب او الفضة التي اقرضها :

«اذا اقرض تاجر حبوباً او فضة بفائض ، وعندما اقرضها بفائض دفع الفضة بوزن خفيف والحبوب بمكيال صغير ، ولكن عندما استردّها ، اخذ الفضة بوزن ثقيل والحبوب بمكيال واسع ، فإن ذلك التاجر سوف يخسر كل ماأقرضه» (قانون حمورابي ، المادة ك).[1]

(١) انظر كذلك المواد ح وط وي ول وم وس وع و ١٠١ - ١٠٧ (حسب ترقيم فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ، ص ١٣٣ - ١٣٦).

اضافة الى ذلك ، كان التاجر يقوم بدور الوكيل او الأمين للدولة في بعض الصفقات التجارية خاصة عند استيراد بعض المواد من خارج البلاد وذلك لقاء اجور او جرايات معينة اضافة الى منحه احياناً قطعة من الأراضي الملكية واعفائه من اداء الخدمة المفروضة عليها والسماح له ببيعها كما اشار الى ذلك قانون حمورابي في مادته الاربعين حيث نصت على انه :

« اذا باعت كاهنة من الدرجة العليا او تاجر او غريب حقله وبستانه وبيته لقاء فضة ، للمشتري (الحق) في ان يمارس حقوقه الاقطاعية في الحقل والبستان والبيت الذي اشتراه » .

وتشير المادة الى ان التاجر كان يحصل احياناً على ارض ملكية وله ان يبيعها خلافاً لافراد القوات المسلّحة الذين لم يكن يسمح لهم بيع الأراضي الملكية الممنوحة لهم (حمورابي المواد ٣٦ – ٣٨) .

ويبدو ان مركز التاجر كان قد ارتفع كثيراً في العصر البابلي القديم نتيجة التحولات الاقتصادية الجذرية التي حدثت في هذا العصر وشاعت خلاله الملكية الفردية ونشط الافراد في مجال التجارة والصناعة والزراعة بعد ان كان المعبد يهيمن على جميع النشاطات الاقتصادية في دول المدن السومرية ، ولقد اشار قانون حمورابي ومئات النصوص المسمارية الاخرى الى نشاطات التاجر ووضع الضوابط اللازمة لتحديدها ولاسيما فيما يتعلق بالشركة التي يقيمها مع غيره او بالنسبة للقروض التي يقرضها لقاء فائدة . وكان التجار ، كما يبدو ، يؤلفون فيما بينهم مايشبه النقابة او الصنف ، كما يسمى حالياً ، حيث ورد ذكر « رئيس التجار » الذي ربما كان يمثل التجار امام السلطة اضافة الى قيامه بابداء المشورة والرأي لغيره من التجار وحلّه الخصومات التي قد تنشب بينهم تماماً كما يفعل « شيخ الصنف » الى وقت قريب في المدن العراقية ذات الاسواق الكبيرة .[1]

٤ – الأوزان والمكاييل والمقاييس

من المؤكد ان الاهتمام بالاوزان والمكاييل والمقاييس ومراقبة دقّتها وثباتها ومحاسبة المتلاعبين بها يعكس تطور الانظمة الاقتصادية ويشير الى النشاط التجاري ، وهذا ماعكسته القوانين العراقية القديمة وتفاخر به الملوك والحكام الذين إدّعوا بأنهم قاموا بتثبيت

---

(١) حول مركز التاجر ونشاطاته انظر :
Leemans, W.F., The Old Babylonian Merchant, Leiden, 1950.
عامر سليمان ، النظم المالية ، ص ٣٩٣ .

الموازين والمكاييل ومنعوا التلاعب بها ، كما جاء ذلك على لسان اور- نمّو مؤسس سلالة اور الثالثة واقدم مشرع معروف حتى الآن حيث ذكر في مقدمة قوانينه :

«في ذلك الوقت... لاوما ومرد وكازالّو[1] ... ثبّت السبعة ... اقرَّ السيلا البرونزي وثبّت وزن المنا وثبّت وزن الشيقل الحجري والفضي بالنسبة الى المنا».

ويبدو انه كان هناك في عصر فجر السلالات ، كما تشير الى ذلك الوثائق الاقتصادية ، انظمة متباينة للموازين والمكاييل والمقاييس اختصت كل دولة اوكل مدينة من المدن بنظام معين وعندما توحّدت تلك الدول في دولة مركزية واحدة في عهد سرجون الأكدي ومن ثم في عصر سلالة اور الثالثة وعصر حمورابي ، كان الاتجاه العام نحو استخدام نظام موحد هو الاكثر شيوعاً بين الانظمة المعروفة وظل ذلك النظام شائعاً في الاستخدام حتى اواخر الالف الاول قبل الميلاد . وظاهرة تعدد انظمة الموازين والمقاييس في البلد الواحد او المدينة الواحدة ليست بالغريبة علينا حيث كان هناك في العراق حتى نهاية النصف الأول من القرن الحالي انظمة متعددة في الشمال والجنوب والعاصمة بل كان هناك اكثر من نظام واحد في المدينة الواحدة فاستخدم النظام التركي - الحقة والأوقية - الى جانب النظام المحلي- الحقة ايضاً ولكن ذات وزن مختلف- ثم كان النظام الانكليزي- الباوند والاونس- والنظام الفرنسي- الكيلوغرام- والى جانب ذلك هناك في كل منطقة اوزان محلية متعارف عليها وما يقال عن الموازين ينطبق على المكاييل بل كان لكل قرية مكيالها الخاص الذي يختلف تماماً عن مكيال القرية المجاورة الى ان فرض استخدام الموازين والمكاييل الرسمية التي اقرّتها الدولة وطلبت العمل بها والمعتمدة اساساً على النظام العشري- الفرنسي[2] - ولازلنا نعمل بهذا النظام وان كان هناك من ظل يستخدم الانظمة القديمة في مجالات معينة.

وكان الشيقل يمثل وحدة الوزن الأساسية وقد استخدم منذ العصور المبكرة وظل بالاستخدام طوال العصور العراقية القديمة حيث اقتبسه منهم اليهود عندما كانوا اسرى في بلاد بابل وذلك في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد وان الادعاء بانه ، اي الشيقل ، وحدة عملة يهودية قديمة ادعاء باطل طالما تثبت الوثائق والقوانين السومرية استخدامه منذ أوائل الالف الثالث قبل الميلاد وانه كان وحدة وزن ولم يكن وحدة عملة او نقود ، كما اشرنا الى ذلك سابقاً ، وان اليهود الذين جاؤا بعد ذلك بأكثر من الفي سنة ،

---

(١) وهي ثلاث مدن سومرية معروفة .

(٢) حول اصل هذا النظام وجذوره الاولى في العراق القديم انظر المبحث الخاص بالعلوم البحتة- الرياضيات.

اقتبسوا الشيقل واستخدموه من بعد ذلك . وكان للشيقل اجزاء اصغرها الحبة أُطّيتُ uttetu ، اي قَمحة ،كما كان له مضاعفات وكما في الجدول الآتي الذي يبن اجزاء ومضاعفات الشيقل وما يقابل ذلك في اوزاننا الحالية :

الاسم	بالاكدية	المعنى	بِلتُ	منا	شيقل	حبّة	مايقابل ذلك
بلِتُ	biltu	وزنة	١	٦٠	٣٦٠٠	٦٤٨٠٠٠	٣٠,٣ كغم
مَنو	manu	مَنا		١	٦٠	٧٨٠٠	٥٠٥ غم
شِقلُ	šiqlu	شيقل			١	١٨٠	٨,٤ غم
شيءُ (أُطّيتُ) (Uttetu)	šeu	حبة				١	٤٦,٧٥ مغم

وهناك الشيقل الصغير الذي يساوي ثلاث حبّات فقط والمنا الصغير الذي كان يساوي عشرين شيقلاً ، اي ما يعادل ثلث المنا الاعتيادي.[١]

اما بالنسبة للمكاييل ، فكانت الوحدة الاساسية هي الكور kur وقد خضع الكور لتغييرات كثيرة عبر العصور السومرية والبابلية وكان من اجزائه الپي pi والسوتُ sutu و القا qa والشيقل šiqlu والحبّة šeu ، وكما في الجدول الآتي :

الاسم	بالاكدية	المعنى	كور	پي	سوت	قا	شيقل	حبة	مايعادل ذلك
كُرُّ	Kurru	كور	١	٥	٣٠	٣٠٠			٢٥٢,٦ لتر
پي	PI`	پي		١	٦	٦٠			٥٠,٥ لتر
سوتُ	sutu	سوت			١	١٠			٨,٤ لتر
قا	qa	قا				١	٦٠		٠,٨٤ لتر
شِقلُ	šiqlu	شيقل					١	١٨٠	٪١٤ لتر
شيءُ	šeu	حبة[٢]						١	٪١٤ لتر

—

١٨٠

---

(١) انظر فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ، ص ٤٠ .

(٢) انظر: فوزي رشيد ، المصدر السابق ، ص ٣٨ .

ولضمان الحقوق في التعامل اليومي وعدم السماح للتلاعب باستخدام اوزان او مكاييل مختلفة ، فقد ذكرت العقود المبرمة غالباً شرطا ان يكون الوزن او الكيل وفق مقياس معين ، كأن يكون مكيال معبد الاله شمش مثلاً . ومع ذلك كانت هناك محاولات للغش والاحتيال باستخدام اوزان او مكاييل ناقصة في البيع وغيرها عند التسلّم ، وهذا ما اشارت اليه بعض الامثال الشعبية :

«التسليم بالمقياس الصغير والتسلم بالمقياس الكبير، التسليم بالشيقل الصغير والتسلم بالشيقل الكبير، التسليم بالمنا الصغير والتسلم بالمنا الكبير.

كما الحت الى ذلك المادة ٤٠ من قانون حمورابي التي سبق ذكرها والخاصة بتسليم وتسلم القرض : .

واستخدم العراقيون القدماء قطعاً من الحجر معينة الوزن ونحتوها على هيئة وزة جميلة او اسد وربما كان ذلك يتم تحت اشراف حكومي ودوّنوا عليها الوزن واحيانا اسم الملك الذي صنعت في عهده .

اما بالنسبة الى الميزان ، فلم يعثر حتى الان على نموذج لميزان حيث كان الميزان يصنع عادة من مواد سريعة التلف كالخشب والحصير والجلد الا انه يمكن التعرف على شكل الميزان من مشهد نقش على احدى المنحوتات الآشورية تبيّن بانه لم يكن يختلف عن الموازين التي كانت مستخدمة في العراق الى وقت قريب ولاتزال تستخدم في القرى والارياف والمؤلفة من كفتين محمولتين بحبال تنتهي كل منها باحدى نهايتي قضيب من الخشب يتوسطه مقبض او حلقة .

(٥) الوثائق الاقتصادية

اشرنا عند الحديث عن مصادر معلوماتنا عن القوانين العراقية القديمة انه تم العثور على آلاف من الوثائق اليومية التي ضمت مختلف انواع العقود الاقتصادية والعقود الخاصة بالاحوال الشخصية وغيرها ، كما ذكرنا ان غالبية الوثائق المكتشفة هي في الواقع وثائق اقتصادية ضمت عقوداً وايصالات وسجلات وغيرها مما له علاقة بالنشاط الاقتصادي ، ويعزى سبب كثرة هذه الوثائق الى حقيقة ان العراقيين القدماء لم يعترفوا بشرعية المعاملات على اختلافها واشكالها الا اذا كانت مدونة ومشهد عليها بعدد من الشهود ومختومة بختم البائع او الكاتب ، وهذا ما نصّت عليه القوانين واكدته الوثائق نفسها .

وتعد الوثائق الاقتصادية ذات اهمية كبيرة في دراسة الواقع الاقتصادي في العراق القديم حيث يمكن التعرف من خلالها على الانظمة التي كانت سائدة فعلاً كما انها تعكس لنا بوضوح اسلوب تطبيق الاعراف والقوانين السائدة. بعيداً عن نظرة القوانين المثالية. ويظهر من دراسة هذه الوثائق ان الخطوط الرئيسة لكل نوع من انواع الوثائق كانت متشابهة الى حد كبير على الرغم من الاختلافات التفصيلية بالنسبة للزمان والمكان مما يشير الى استمرار العمل بالانظمة والاعراف والقوانين الاقتصادية لعصور طويلة دون ان يحدث عليها تغييرات جذرية، مع الاعتراف بوجود خصوصية لكل عصر من العصور ولكل منطقة. وفيما يأتي نموذج لعقد قرض من العصر البابلي القديم وقد سبق أن اشرنا الى نموذج عقد بيع:

«١ / ٣ مناً من الفضة، سيضيف اليها فائدة بنسبة ٦٠
حبة لكل شيقل، استلم فلان من فلان وعليه ان يعيد
الفضة ودينه السابق وقت الحصاد
اسماء اربعة شهود
السنة التي بنى فيها امّي دوشر سور مدينة بشكي»[١]

(٦) تحديد الاسعار

من الطبيعي ان اسعار البضائع والسلع المختلفة كانت تتغير من وقت لآخر، كما كانت تختلف في العصر الواحد من مكان الى آخر تبعاً للعرض والطلب. وقد ترتفع الاسعار ارتفاعاً فاحشاً في وقت الازمات الاقتصادية وزيادة الطلب على السلع وقلّة العرض بسبب الحروب اوالجفاف او غيرها من الظروف التي كانت تسبب الازمات الاقتصادية وتعصف بالاسواق. كما كانت اسعار البضائع المستوردة، كالاخشاب والمعادن، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحملات الملك العسكرية ونتائجها، فاذا تدفقت الغنائم وتم تأمين امن وسلامة الطرق التجارية انخفضت الاسعار، وبالعكس. ولقد حاول المشرعون عبر العصور تحديد اسعار المواد الرئيسة والضرورية في حياة الانسان، ولاسيما المواد الغذائية، واصدروا تعريفات بذلك، كالتي نجدها في المادة الاولى والثانية من قانون اشنونا، وربما نجحوا في ذلك الى درجة ما، الا ان تأكيد الملوك والحكام على قيامهم بتخفيض الاسعار وتثبيتها يؤكد انها

(١) انظر عامر سليمان، القانون في العراق القديم، ص ١٢٤.

كانت مرتفعة وغير مسيطر عليها مما اضطر الملوك الى اصدار التعليمات والقوانين بشأن ذلك.[1]

وتشير المعلومات المتوفرة الى ان الاسعار ارتفعت ارتفاعاً فاحشاً في عصور معينة ونتيجة ازمات اقتصادية حادة كالتي حدثت في اواخر عصر سلالة اور الثالثة وادّت الى انهيار السلالة في حدود ٢٠٠٠ ق. م، وكالازمة التي حلّت ببلاد بابل في اواخر العصر البابلي الحديث في عهد نبونائيد في حدود ٥٤٠ ق. م. وادّت الى نهاية السلالة الكلدية، لذا تفاخر ملوك آخرون بأن عهودهم تمتعت بالرفاهية واعتدال الاسعار وكأنها اشارة الى استقرار الاوضاع الداخلية.[2]

«كور شعير واحد (سعره) شيقل واحد من الفضة
٣ قا زيت نقي (سعرها) شيقل واحد من الفضة
١ سوت و ٢ قا من زيت السمسم (سعره) شيقل واحد من الفضة.
١ سوت و ٥ قا من شحم الخنزير (سعرها) شيقل واحد من الفضة.
٤ سوت من زيت النهر (سعرها) شيقل واحد من الفضة.
٦ مناً من الصوف (سعرها) شيقل واحد من الفضة.
٢ كور من ملح الطعام (سعرها) شيقل واحد من الفضة.
١ كور من حب الهال (= هيل) (سعره) شيقل واحد من الفضة.
٣ مناً من النحاس (سعرها) شيقل واحد من الفضة.
٢ مناً من النحاس المصفى (سعره) شيقل واحد من الفضة»
(قانون اشنونا، المادة الاولى).

رابعا: الحرف والصناعات اليدوية

يميز الانسان عن غيره من الحيوانات بانه صانع الآلة، اشارة الى قابليته على صنع الآلات والادوات التي يحتاجها مستخدما في ذلك قدرته على التفكير وقابلية يديه على الصنع. لذا فان اقدم الآلات التي صنعها الانسان، وهي الآلات الحجرية البسيطة، ترتبط مع وجوده. لقد عاش انسان العصر الحجري، القديم والوسيط، عشرات الالوف

(١) انظر كذلك قانون حمورابي والقوانين البابلية القديمة الاخرى التي حددت اجرة الاشخاص والصناع والحيوانات والعربات والقوارب والسفن اضافة الى اجرة العمال الزراعيين واصحاب الحرف في العديد من موادها.

(٢) انظر عامر سليمان، النظم المالية والاقتصادية، ص ٣٩٣ - ٣٩٦.

من السنين في القسم الشمالي والغربي من العراق معتمدا في عيشه على الصيد وجمع القوت ومن الطبيعي انه احتاج الى صنع انواع مختلفة من الآلات الحجرية لصيد الحيوانات وسلخها وتقطيعها، كما احتاج الى الآت اخرى لجمع الثمار والحبوب وتقطيع الاشجار واستخدامها لفائدته. وكانت معظم الآلات التي استخدمها مصنوعة من الحجارة او العظم او الخشب ونظرا لسرعة تلف كثير منها، فقد ظلت الادوات الحجرية وبعض الادوات المصنوعة من العظم فقط ولنا ان نتصور شكل ونوعية الآلات الاخرى التي كانت تصنع من الخشب والعظم وغيرها من المواد سريعة التلف.

واضافة الى صنع هذه الآلات، فلابد وان عرف انسان العصور الحجرية طريقة صنع الاغذية وعمل بعض انواع الالبسة البسيطة من جلود الحيوانات وخياطتها بواسطة ابر من العظم وربما غزل الصوف وعمل بعض المنسوجات الخشنة من الغزل وصنع بعض الادوات التي استخدمها في حياته اليومية لحفظ المياه والمواد الغذائية وغيرها وقد تميز العصر الحجري الوسيط بدقة الآلات والادوات الحجرية التي صنعها الانسان.

ومع استقرار الانسان واهتدائه الى الزراعة وتدجين الحيوان وبداية انتاجه للقوت الذي تبلور في حدود الالف الثامن قبل الميلاد، اي في العصر الحجري الحديث، بدأ الانسان يصنع اشياء كثيرة، فالى جانب استمراره بصنع الآلات والادوات الحجرية وتلك المصنوعة من العظم او الخشب القديمة، استقر في بيوت بسيطة مبنية بالحجر والطين والخشب وجهزها بالعديد من الادوات المنزلية اللازمة للطبخ والتدفئة كما تطور في نسج الصوف والشعر وصنع المواد الغذائية التي يمكن ان تستخلص من النباتات والحيوانات التي دجّنها، وابتدع صناعة الفخار، وفي العصر الحجري المعدني، تطورت الصناعات التي عرفها الانسان واضيف اليها عنصر جديد كمادة اولية هي المعادن، فتنوعت الصناعات اليدوية وشملت اضافة الى ماسبق صناعة الاختام والمنحوتات والتماثيل والحلي والاسلحة وتفنن انسان هذا العصر بصناعة الفخار وتلوينه وزخرفته وبحياكة الملابس وصناعة الآلات الزراعية وغيرها. وكلما تقدمنا بالزمن نحو العصور التاريخية كلما تطورت الصناعات اليدوية التي مارسها الانسان وتنوعت اشكال المصنوعات ومع ذلك ظلت الصناعة في العراق القديم بصورة عامة محدودة نسبيا ولم ينل العراقيون القدماء شهرة واسعة بصناعاتهم كما اشتهروا بالزراعة والتجارة ويعزى سبب ذلك بالدرجة الاولى الى افتقارهم الى المواد الخام الاساسية لتطور الصناعة كالاحجار والاخشاب الجيدة والمعادن على اختلافها، حيث ان توفر مثل هذه المواد يحفز الانسان ويدفعه الى صنع ما يحتاجه من الآت وادوات. وكان على العراقيين القدماء ان يجلبوا المواد الخام من مناشئها ويعملوا على الاستفادة منها الى اقصى

حد لصنع ما يحتاجونه من ادوات والآت وحاجيات، كما ركزّوا اهتمامهم على صناعة المواد المعتمدة على ما هو متوفر لديهم من مواد اولية، كالمنتجات النباتية والحيوانية، وصناعة البناء وغيرها. وبصورة عامة كانت الصناعات التي مارسها العراقيون القدماء صناعات يدوية بسيطة الا انها تحتاج الى مهارة واتقان وضمت جميع ما كان يحتاجه الانسان من مصنوعات او مواد مصنّعة حيث لم يعتد العراقيون القدماء على جلب مواد مصنّعة من البلدان الاخرى بل كان جلّ ما جلبوه من البلدان الاخرى يمثل المواد الاولية الخام الضرورية للصناعات المختلفة في حين كانوا يصدرون المواد المصنّعة كالمنسوجات المزركشة والخمور الجيدة والزيوت وغيرها.

وكان تعلم الحرفة او الصناعة يستغرق فترة طويلة من التدريب تتناسب ونوعية الصناعة التي يروم الفرد تعلّمها، فالنجارة والحدادة والصياغة مثلاً، تحتاج الى فترة اطول من غيرها من الصناعات اليدوية. وكان تدريب الصبيان على الحرفة يتم داخل الاسرة الواحدة حيث يقوم رب الاسرة، وهو صاحب الحرفة، بتدريب ابنائه ومن هم بحكمهم، على صنعته، واذا لم يكن لديه ابناء يتعلمون الحرفة عنه قد يلجأ الى تبني ولد او اكثر بهدف تربيته وتدريبه على الحرفة، ، وهذا ما اشارت اليه مواد قانون حمورابي « اذا اخذ حرفي ولداً ليربيه (اي ليتبناه)، وعلمه عمل يده (اي حرفته) فلا يطالب به» (قانون حمورابي، المادة ١٨٨) «فاذا لم يعلمه عمل يده، (يحق) لذلك الولد المتبنى الرجوع الى بيت ابيه» (قانون حمورابي المادة ١٨٩). وهكذا ظلت الحرف المهمة والتي تحتاج الى مهارة خاصة مقصورة على اسر معينة حيث يدرب الاباء ابنائهم واخوانهم فقط ولايسمحوا لشخص غريب ان يتعلم حرفتهم، وهي طريقة كانت شائعة الى وقت قريب حيث كان صاحب الحرفة يدرب عددا من الصبيان من ذوي القربى غالباً على حرفته ويستخدمهم طوال فترة تدريبهم للقيام باعمال معينة دون ان يدفع لهم سوى اجور زهيدة. وقد وصلت باصحاب بعض الحرف ان عّدوا الحرفة سرا من الاسرار لايسمح لغير ابناء اصحاب/الحرفة الاطلاع عليها، وعندما كانوا يكتبون بعض الوصفات الخاصة باسلوب صناعة مادة كيمياوية مثلا، كالصابون، او طريقة صنع الخمر او غيره، كانوا يدونونها باسلوب غامض لكي لايطلع عليها اي شخص غريب.

وكانت المعابد في عصر فجر السلالات تحتضن اعدادا كبيرة من اصحاب الحرف والصناعات اليدوية، وكان في كل معبد عدد من المشاغل لانتاج الفائض من الصناعات اليدوية لاستخدامها وبيع مايفيض منها، وقد وردتنا نصوص كثيرة خاصة بالجرايات التي

كانت توزع على الرجال والنساء العاملين في المعبد، وكان من بينهم اعداد من الرقيق. وفي عصر اور الثالثة (٢١١٣-٢٠٠٦ ق.م) ورد ذكر مشغل الصائغ ومشغل النجار والنحات والخياط وصانع الجلود والحداد والجواهري من جملة المشاغل التي كانت مرتبطة بالمعبد، وكان لكل مشغل مراقب مرتبط بالمعبد ايضا. وفي العصر البابلي القديم وبعد ان تقلّص نفوذ المعبد ونشاطه ولم يعد المهيمن على الحياة الاقتصادية في المدينة، نشط الافراد في مجال الصناعة كما نشطوا في مجال الزراعة والتجارة، وغدت الحرف والصناعات اليدوية بايدي اسر وافراد معينين وربما سميت تلك الاسر باسم الحرفة التي اختصوا بها، قياسا على ما هو معروف لدينا الان حيث تسمى كثير من الاسر باسم الحرفة التي امتهنها رب الاسرة او ابوه اوجده كبيت الصائغ والحداد والنجار و...الخ، وانتظم ابناء كل حرفة او صنعة تحت تنظيم يشبه النقابة حيث كانوا يمثلون تلك الحرفة او الصنعة في المدينة وكان يرأسهم ابرز شخص فيهم من حيث القابلية والمهارة والامكانية والسن، فكان يحتكم اليه اذا ما حدث اي خلاف بينهم وربما كان يمثل ابناء الحرفة الواحدة امام السلطة وكان يسمى رئيس النجارين، او رئيس الصاغة وهكذا اي تماما كما كانت عليه الحال الى وقت قريب بالنسبة لاصحاب الحرف اليدوية في المدن العراقية الرئيسة حيث يسمى رئيس (الصنف) او (الحرفة) (شيخ الصنف، او رئيس صنف الحدادين) او غيره.

ولاتوجد لدينا معلومات واضحة عن اماكن عمل اصحاب الحرف والصناعات اليدوية وهل كانوا يمارسون الحرفة في البيت ام في محلات خاصة موزعة بين الاحياء السكنية ام انه كان هناك اسواق متخصصة لكل حرفة سوق كما كانت عليه الحال الى وقت قريب في اسواق الموصل وبغداد وغيرهما من المدن العراقية الرئيسة. ولكن يبدو ان غالبية اصحاب الحرف والصناعات اليدوية كانوا يمارسون اعمالهم في بيوتهم او قريبا منها لكي يمكن ان يساعدهم اولادهم الصغار وعبيدهم واماثهم وربما زوجاتهم وبناتهم وبصورة خاصة في بعض الصناعات التي اشتهرت بها النساء كصناعة النسيج مثلا.

والحديث عن الحرف والصناعات اليدوية في العراق القديم يشمل صناعات كثيرة ومتنوعة بعضها لايدخل اصلا تحت صنف الصناعات اليدوية في الوقت الحاضر بل اصبح يعد من جملة الفنون كصناعة التماثيل والمنحوتات حيث كان النحاتون يمارسون عملهم تلبية لطلبات القصر والمعبد بالدرجة الاولى ومن بعدهم الطبقة الارستقراطية من المتنفذين ويتبعون اساليب وتقاليد موحّدة تميزت بها كل فترة من الفترات ولم يكن الهدف من النحت ابراز الناحية الفنية، لذا خلت جميع القطع الفنية التي تم اكتشافها من اسم من قام بتنفيذها، اي انهم كانوا اشبه بالنقارّين في الوقت الحاضر.

وقد اشار قانون حمورابي الى اجور عدد من الحرفيين وان كانت المادة غير واضحة تماما فانها تعطي فكرة عن اصناف الحرفيين ومبلغ اجورهم،فقد نصت المادة ٢٧٤ على انه:

«اذا اراد رجل استئجار صانع ، فعليه ان يدفع (له) في اليوم الواحد خمس حبات من الفضة اجرة [..] وخمس حبات من الفضة اجرة [...] ... [وخمس حبات] من الفضة اجرة للخياط و[خمس حبات] من الفضة [اجرة] للنقار و [خمس حبات] من الفضة [اجرة] للجواهري و [خمس حبات] من الفضة [اجرة] للحداد و [خمس] حبات من الفضة [اجرة] للنجار وخمس حبات من الفضة اجرة للدباغ وخمس حبات من الفضة اجرة لحائك الحصران و [خمس حبات] من الفضة اجرة للبناء».

واذا تجاوزنا صناعة الادوات الحجرية اليدوية التي عرفت في عصور ما قبل التاريخ، مما المحنا اليه في مقدمة هذا الحديث، فاننا نجد انواعا كثيرة من الصناعات التي اشتهرت في العصور التاريخية. منها صناعة الادوات والآلات الزراعية وصناعة النسيج والحياكة وصناعة المواد الغذائية الاساسية، كالطبخ وصناعة الالبان وصناعة الخمور والزيوت والعصير والخل وصناعة الفخار وصناعة الاختام الاسطوانية والمنبسطة وصناعة التماثيل والمنحوتات والمسلات. وعندما انتشر استخدام المعادن في العراق وجميعها كان يستورد من اسيا الصغرى وايران وغيرها، فقد ازدهرت صناعة الحلي الجميلة وكما تؤيد ذلك الحلي المكتشفة في مقبرة اور الملكية وفي القبور الاشورية في نمرود، وصناعة الاسلحة والآلات والادوات المنزلية. كما تفنن العراقيون القدماء بعمل السبائك المعدنية فخلطوا النحاس بالقصدير وانتجوا البرونز، وخلطوا بعض المعادن الرخيصة بهدف انتاج معادن جديدة ثمينة عن طريق التمويه، كما تفننوا في صناعة الاثاث المصنوعة من الخشب. ومن الصناعات الاخرى التي انتشرت في العراق صناعة الاصباغ وصناعة الجلود وعرف العراقيون بعض الصناعات المعقدة والتي تحتاج الى تفاعلات كيمياوية معينة كصناعة الصابون [1] . ويمكن ان يضاف الى هذه الصناعات صناعة الادوية والعقاقير الطبية التي استخدمت مواد نباتية

---

(١) انظر تفصيل ذلك: مارتن ليفي، الكيماء والتكنولوجيا الكيميائية في وادي الرافدين، ترجمة محمود فياض المياحي واخرون، بغداد، ١٩٨٠.

وحيوانية واخرى معدنية. وقد امدتنا النصوص المسمارية من جهة والمنحوتات الكثيرة من جهة اخرى بمعلومات وافية عن مختلف الصناعات التي عرفت في العراق القديم، ولاسيما في العصر الاشوري الحديث حيث صورت لنا المنحوتات الجدارية التي كانت تغلف جدران قاعات القصور بمشاهد مختلفة عن حياة الملك وحاشيته وعن الحروب والمعارك وعن المعبد وطقوسه الدينية والى غير ذلك من المشاهد التي تعكس لنا مختلف انواع المواد المصنّعة [1].

مصادر منتخبة

الاحمد، سامي سعيد: المستعمرة الآشورية في آسيا الصغرى، سومر، ٣٣ (١٩٧٧) ص ٧٠ - ٩٦. الزراعة والري، في: حضارة العراق، بغداد، ١٩٨٥، ج ٢، ص ١٥٣ - ١٩٤: الزراعة في العصور التاريخية، في موسوعة الموصل الحضارية، ج ١، ١٩٩١، ص ١٧٠ - ١٨٥: التجارة في: موسوعة الموصل الحضارية، ج ١، ص ١٨٥ - ٢٠٤.

الجادر، وليد محمود: صناعة الجلود في وادي الرافدين، سومر، ٢٧ (١٩٧١) ص ٣٠٥ - ٣١٩ ٢٨ (١٩٧٢) ص ٢٣٣ - ٢٣٩: الحرف والصناعات اليدوية عند الآشوريين، بغداد، ١٩٧٢. صناعة التعدين في: حضارة العراق، ج ٢، ٢٣٩ - ٢٦٨: العجلة وصناعة المعادن، في: العراق في موكب الحضارة، بغداد، ١٩٨٨، ج ١، ٧٩ - ١٣٨: التجمعات الزراعية الاولى في: المدينة والحياة المدنية، بغداد، ١٩٨٨، ص ٥٩ - ١١١: الصناعة في: موسوعة الموصل الحضارية، ج ١، ص ٢٠٢ - ٢٢٩.

---

(١) انظر: هنري هودجز، التقنية في العالم القديم، ترجمة رندة قاقيش، عمان.

الدباغ ، تقي : الثورة الزراعية والقرى الاولى في : حضارة العراق ، ج ١ ، ١١١ – ١٤٤ : الزراعة والتحضر في العراق في موكب الحضارة ، ج ١ ، ٢٧ – ٧٨ : الزراعة في عصور قبل التاريخ ، في : موسوعة الموصل الحضارية ، ج ١ ، ١٥٩ – ١٧٠ .

الراوي ، فاروق : اقتصاد المدينة العراقية القديمة ، في : المدينة والحياة المدنية ، ج ١ ، ٢٨٣ – ٣٢٢ .

سليمان ، عامر: جوانب من حضارة العراق القديم في : العراق في التاريخ ، بغداد ، ١٩٨٣ ، ١٩٣ – ٢٠٢ : النظم المالية والاقتصادية في : العراق في موكب الحضارة ، ج ١ ، ٣٤٩ – ٤١٤ .

سفر ، فؤاد : اعمال الارواء التي قام بها سنحاريب ، سومر ، ٣ (١٩٤٧) ، ٧٧ – ٨٦ .

سوسة ، احمد : تاريخ حضارة وادي الرافدين ، ج ١ و ج ٢ ، بغداد ، ١٩٨٩ .

الشيخ ، عادل عبدالله ، بدء الزراعة واول القرى في العراق ، رسالة ماجستير غير منشورة ، بغداد ، ١٩٨٥ .

العاني ، عماد طارق : الصناعات الحجرية في العراق حتى نهاية العصر الحجري الحديث ، رسالة غير منشورة ، بغداد ١٩٨٦ .

مجيد ، سهيلة : صناعة الاغذية في العراق القديم ، رسالة ماجستير غير منشورة ، موصل ١٩٩٢ .

الهاشمي ، رضا : النشاط التجاري القديم في الخليج العربي ، المؤرخ العربي ، بغداد ، ١٢ (١٩٨٠) : علاقات العراق التجارية بالخليج العربي ، مجلة كلية الآداب ، البصرة ، ١٩٧٣ : الملاحة النهرية في العراق القديم ، سومر ٣٧ (١٩٨١) ٢١٧ – ٢٢٧ : التجارة في حضارة العراق ، ج ٢ ، ١٩٥ – ٢٣٨ .

الفصل الثامن

المعارف اللغوية والتعليم

اللغة

تعد اللغة اهم وسيلة من وسائل التعبير الانساني الارادية ، وقد لازمت الانسان منذ ان خلق ، وكان لكل مجموعة من البشر لغة يتفاهمون بها مهما كان مستوى تلك المجموعة الحضاري ،[1] غير اننا لانعرف شيئاً عن اللغات القديمة التي استخدمها الانسان عبر العصور الطويلة التي عاشها من قبل ان يبتدع الكتابة وسيلة تدوين اللغة وحفظها.

وفي فصل سابق في الجزء الأول من هذا الكتاب فصّلنا الحديث عن لغة العراقيين القدماء وطريقة تدوينها التي تم ابتكارها في بلاد سومر واكد واشرنا الى ان اللغة السومرية كانت اول لغة انسانية وجدت طريقها الى التدوين في اواخر الالف الرابع قبل الميلاد. وكانت اللغة السومرية لغة منفردة لاتشبه غيرها من اللغات المعروفة لدينا كما انها لاتنتمي الى اي من العائلات اللغوية المعروفة وربما كانت ذات علاقة بعائلة لغوية سابقة انقرضت جميع فروعها من قبل ان تبتكر طريقة التدوين لحفظها ولم يبق من تلك العائلة الا اللغة السومرية التي حالفها الحظ وعاشت الى ان تبتدع الكتابة وتدوّن بواسطتها وتحفظ للاجيال التالية حتى وصلت الينا.[2] وكانت اللغة السومرية لغة تخاطب وتدوين خلال عصر فجر السلالات (حدود ٢٩٠٠ – ٢٤٠٠ ق.م) ، ثم استخدمت اللغة الاكدية ، لغة الاقوام الجزرية الاصل التي سيطرت على الاوضاع السياسية في بلاد سومر واكد وأسست الدولة الاكدية (٢٣٧١ – ٢٢٣٠ ق.م) ، وغدت اللغة الاكدية لغة رسمية ولغة تخاطب وتدوين الى جانب اللغة السومرية التي ظلت بالاستخدام على مختلف المستويات وفي شتى الشؤون. وهكذا كان هناك ازدواجية لغوية طوال النصف الثاني من الألف الثالث

---

(١) حول نشأة اللغة والنظريات التي قيلت بشأنها انظر علي عبدالواحد وافي ، علم اللغة ، ط ٥ ، القاهرة ، ١٩٦٢.

(٢) حول تاريخ اللغة السومرية وقواعدها انظر فوزي رشيد ، قواعد اللغة السومرية ، بغداد ١٩٧٢.

قبل الميلاد ، ثم ازداد تدريجياً استخدام اللغة الاكدية ، بلهجتيها الرئيستين البابلية والآشورية ، إثر زيادة تدفق اقوام جزرية جديدة ، عرفت فيما بعد بالاقوام البابلية والآشورية ، وذلك على حساب تقلّص استخدام اللغة السومرية حتى بطل استخدام السومرية لغة تخاطب وتدوين بصورة عامة الا انها ظلّت تستخدم لتدوين بعض النصوص العلمية والدينية كما ظل الكتبة يعكفون على استنساخ النصوص السومرية المهمة حتى بعد مرور قرون عدة على بطلان استخدامها لغة تخاطب وتدوين ، ومن جهة اخرى ، غدت اللغة الاكدية بلهجاتها البابلية والآشورية ، لغة التخاطب والتدوين طوال الألفين الثاني والأول قبل الميلاد ، ولم يبطل استخدامها الا بعد ان شاع استخدام اللغة الآرامية في النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد.(١)

وكان للازدواج اللغوي الذي شهدته بلاد بابل منذ العصر الاكدي فصاعداً اثره الكبير في تأثير كل من هاتين اللغتين بالاخرى. ولم يقتصر هذا التأثير على دخول المفردات اللغوية السومرية الى اللغة الاكدية او العكس بل تعدّاه الى التأثير في الاساليب اللغوية بل وحتى القواعد ، وربما كان من اوضح مظاهر تأثير اللغة السومرية على قواعد اللغة الاكدية استخدام الفعل في نهاية الجملة بدلاً من بدايتها على غرار ماهو شائع في اللغة السومرية في حين نجد ان جميع افراد عائلة اللغات الجزرية التي تنتمي اليها اللغة الاكدية ، ومنها اللغة العربية ، تستخدم الفعل عادة في بداية الجملة. كما اثّر الازدواج اللغوي على النتاج الادبي ايضاً. فبعد ان حلّ الاكديون والآموريون من بابليين وآشوريين في وادي الرافدين وجدوا نتاجاً ادبياً غزيراً وراسخاً كان السومريون قد دوّنوه على رقم الطين بكتاباتهم المسمارية. وكان من نتائج الانصهار الثقافي بين السومريين والاكديين ان قام الكتبة بنقل غالبية النتاج الادبي السومري ولاسيما ماله علاقة بالمعتقدات الدينية ، الى اللغة الاكدية واجريت خلال عملية الترجمة والنقل الى الاكدية بعض التعديلات والتحويرات واضيفت وحذفت فقرات معينة كل ذلك بما ينسجم وافكار ومعتقدات ومفاهيم الاقوام الاكدية والبابلية والآشورية ، كما عدّلت بعض القصص الدينية وغيّرت شخوصها بما يتفق وارتفاع شأن البابليين او الآشوريين وكما كان شائعاً في العراق القديم وفق مبدأ التفضيل او التفريد في المعتقدات الدينية. كما تأثر البابليون بالأساليب السومرية اللغوية والأدبية واستخدموا كثيراً من المصطلحات السومرية ضمن كتاباتهم الاكدية لذا كان على الباحث ان هو اراد فهم الأدب العراقي القديم ان يكون ملماً باللغتين السومرية والأكدية ومطّلعاً على مادون بكلتا اللغتين من نصوص متماثلة ليمكن بعد ذلك عقد

(١) حول تاريخ اللغة الأكدية وانتشارها انظر: عامر سليمان ، اللغة الاكدية ، ص٣٧ – ٦٢.

المقارنات واستخلاص التغييرات التي طرأت على النتاج الأدبي. وما يقال عن النصوص الأدبية ينطبق على غيرها من النصوص.

ويقدم لنا النتاج الأدبي العراقي القديم الذي دونت نصوصه في العصر البابلي القديم وما بعد ذلك نموذجاً رائعاً للانصهار الثقافي الذي شهدته بلاد سومر واكد حيث اختلطت الاساليب والافكار والمفاهيم والمعتقدات السومرية الاصل مع مثيلاتها الاكدية ونتج عن ذلك نتاج جديد تصعب نسبته الى السومريين او الى الاكديين او الى البابليين بل انه نتاج جمع بين عناصر سومرية واكدية وبابلية وطبع بطابع خاص مميز هو طابع الحضارة العراقية القديمة ، بل كان النتاج الادبي واستخدام اللغة الاكدية بلهجاتها البابلية والآشورية لعصور طويلة وفي جميع انحاء العراق من عوامل وحدة ارض الرافدين الرئيسة ووحدة ثقافتهم.

المعاجم اللغوية

كما كان من نتائج ازدواجية اللغة منذ العصر الاكدي فصاعداً وعدم اتقان الكتبة كلتا اللغتين السومرية والأكدية في آن واحد ان وجد الكتبة المتمرسون انه من الضروري تنظيم قوائم او جداول تضم المفردات السومرية المهمة المتداولة الاستخدام في العقود والوثائق وبيان معانيها باللغة الاكدية لكي يفهم الكاتب الاكدي معاني تلك المفردات والمصطلحات ويتمكن في الوقت نفسه من الاستعاضة عنها بما يقابلها في اللغة الاكدية. ومما يلاحظ ان الوثائق اليومية التي دونت خلال العصر البابلي القديم (حدود ٢٠٠٠–١٦٠٠ ق.م) باللغة الاكدية جاءت مليئة بالمفردات والمصطلحات الفنية السومرية التي استخدمت ضمن النصوص الاكدية في حين ان هناك وثائق اخرى من الفترة نفسها تظهر محاولات الكتبة الاستعاضة عن المفردات السومرية الشائعة بما يقابلها باللغة الاكدية. وقد نظم الكتبة قوائم المفردات اللغوية هذه بما يشبه المعاجم اللغوية فدونوها على رقم طينية في حقلين متقابلين ضم الحقل الاول منها المفردات والمصطلحات السومرية في حين ضم الحقل الثاني معانيها باللغة الاكدية ، فكانت هذه القوائم اقدم ماعرف من محاولات الانسان في تنظيم وتأليف المعاجم اللغوية. وقد تم الكشف عن عدد من هذه القوائم ، او المعاجم ، عرفت كل مجموعة/منها بأول جملة او عبارة فيها ، وفق الطريقة العراقية القديمة في تعريف النصوص المهمة بالعبارة الاولى فيها ، فهناك مجموعة آنا إتشُ ana ittišu اي (حين الطلب) ومجموعة ثانية تعرف بكلمة خَرَّ حُبُلُّ Harra = ḫubullu وغيرهما. وتمثل بعض

النصوص المعجمية المكتشفة نصوصاً استنسخت في العصر الآشوري الحديث الا ان اصولها ترقى كما يظن الى العصر البابلي القديم. فالمعروف ان الكتبة في العصر الآشوري الحديث (٩١١- ٦١٢ ق.م) عكفوا على استنساخ النصوص القديمة المهمة تنفيذاً لرغبة ملوكهم، ولاسيما في عهد الملك آشوربانيبال (٦٦٩- ٦٢٦ ق.م) لحفظها في مكتباتهم الملكية وربما للاستعانة بها عند قراءة النصوص القديمة التي تضم مفردات سومرية او المدونة اصلاً باللغة السومرية التي كان قد بطل استخدامها لغة تدوين ومخاطبة منذ قرون عديدة.(١)

والى جانب المعاجم اللغوية، نظم الكتبة قوائم وجداول كثيرة تتضمن اسماء الاشياء والمواد والمخلوقات مصنّفة حسب ماهيتها وذلك لمساعدة المبتدئين على معرفة وحفظ تلك الاسماء، فكان هناك جداول تضم اسماء اعضاء جسم الانسان والى جانب اسم كل عضو من الاعضاء الفعل الاكدي المستخدم للاشارة الى الفعل الذي يقوم به ذلك العضو، وقوائم تضم اسماء الاشجار والنباتات المهمة واخرى باسماء الحيوانات الاليفة او المفترسة وفق تصنيفهم الخاص وثالثة باسماء اهم قطع الأثاث ورابعة باسماء المواد المصنوعة من المعدن واخرى باسماء الالبسة وهكذا.(٢)

ومن النصوص الاخرى المكتشفة التي تشير الى اهتمام العراقيين القدماء بدراسة اللغة وضبط نحوها وصرفها ماعرف بالنصوص المدرسية وهي نصوص كثيرة وموزعة على مختلف العصور وتضم عبارات ومقتبسات لغوية كان قد دونها المعلمون في اعلى الرقيم وطلبوا من المتعلمين اعادة استنساخها لمرات عديدة بهدف تعلّمها، اضافة الى ذلك هناك نصوص مدرسية اخرى تمثل استنساخ لنصوص طويلة معروفة كالقصص والاساطير والقوانين تمَّ استنساخها من قبل المتعلمين فجاءت مليئة بالاخطاء الاملائية والنحوية.

وعلى الرغم من ان العراقيين القدماء لم يهتموا كثيراً بتدوين قواعد لغتهم ويثبتوا ضوابط تلك القواعد شأنهم في ذلك شأن جميع الاقوام الجزرية الاخرى باستثناء العرب الذين بادروا الى تثبيت قواعد اللغة العربية، الا ان تحليل ودراسة النصوص المسمارية المكتشفة المدونة باللغة السومرية او اللغة الاكدية يؤكد انهم حافظوا على قواعد لغتهم عند الكتابة محافظة دقيقة ولاسيما في الفترات المبكرة من تاريخهم القديم. ففي العصر البابلي

---

(١) حول هذه المعاجم انظر: عامر سليمان، القانون في العراق القديم، ص ١١٥- ١١٦. Landsberger, B., MSL, I–IX; Driver and Miles, The Babylonian Laws, Oxford, 1955, Nol.I, pp.25–26,308–313.

(٢) انظر تفصيل ذلك في المصدر المذكور أعلاه.

القديم كانت محافظة الكتبة على قواعد اللغة الاكدية كبيراً الى درجة ان قانون حمورابي ذي النص الطويل جاء خالياً تقريباً من الاخطاء النحوية ومحافظاً على حركات الاعراب والتميم واسلوب اشتقاق واستخدام الاسماء والافعال وغيرها ، كل ذلك يشير الى ان القوم كانوا يحفظون قواعد اللغة ويحرصون على مراعاتها عند كتابة النصوص المهمة ويتناقلونها من جيل الى جيل شفاهاً تماماً كما كانت عليه الحال عند العرب في العصر الجاهلي الذين اشتهروا بتذوقهم الرفيع للغة ومحافظتهم على نحوها وصرفها في شعرهم ونثرهم الا انهم لم يدونوا تلك القواعد الا في فترة تالية.

ومع ذلك ، فقد تم العثور على عدد قليل من النصوص المسمارية الاكدية تضم جداول بتصريف الافعال مع الضمائر المتصلة ربما دونت لغايات تعليمية بحتة.[1]

الكتابة والتعليم

سبق وان تحدثنا في فصل سابق عن ابتداع الكتابة وكيف كان العراقيون القدماء هم اول من ابتدع وسيلة التدوين ، اي الكتابة ، وكسروا بواسطتها ومن خلال تدوين مايجول بخاطرهم من افكار وتثبيت مالديهم من علوم ومعارف توصلوا اليها من خلال ممارساتهم التطبيقية ، طوق الزمان والمكان. فكانت الكتابة اشبه بالقارب الذي انتقلت بوساطته جميع تلك العلوم والمعارف الى الاجيال التالية والى اماكن اخرى غير بلاد سومر واكد. كما بيّنا كيف ان الكتابة التي ابتدعها العراقيون القدماء والتي عرفت من قبل الباحثين المحدثين بالكتابة المسمارية لم تبتدع في سنة محددة بشكل كامل بل يظن ان اقدم محاولات الانسان في الكتابة في حدود ٣٥٠٠ ق.م ، حيث يرقى تاريخ اقدم الالواح الطينية التي تحمل علامات صورية استخدمت لنقل الافكار الى الغير الى هذا التاريخ ، وقد مرّت تلك المحاولات بمراحل عدة الى ان تبلورت فكرة الكتابة واختزلت اشكال واعداد العلامات الصورية. ففي المراحل الاولى استخدم الانسان اعداداً كبيرة من العلامات التي رسمها لتعبر عن الاشياء المراد التعبير عنها وكانت عبارة عن رسوم تفصيلية لتلك الاشياء المادية فقط وربما وضعت بعض الأرقام امامها للدلالة على عددها. ثم كانت المرحلة الثانية ، وهي المرحلة الرمزية في الكتابة ، التي استخدمت فيها العلامة الصورية الواحدة للدلالة على اكثر من معنى والرمز بها الى كل الافعال ذات العلاقة بالشيء المادي ، وكان عدد العلامات واشكالها قد اختزل كثيراً اما المرحلة الثالثة والاخيرة التي مرّت بها الكتابة

(١) انظر: فاروق الراوي ، المعارف والعلوم البحتة العراقية القديمة في : العراق في موكب الحضارة ، ج١ ، ص٢٧٨ – ٢٨٠.

فتسمى عادة بالمرحلة الصوتية او المقطعية التي استخدمت قيم العلامات الصورية الصوتية لتكوين كلمات جديدة بواسطتها لاعلاقة لها بمعاني تلك العلامات الصورية او الرمزية. اي ان الطريقة الصوتية في الكتابة شبيهة جداً بالكتابة الابجدية التي نستخدمها الى الآن، الا ان العلامة الواحدة كانت تدل على مقطع صوتي مؤلف من حرف صامت وحرف علة او اكثر في حين ان الحرف الابجدي يدل على حرف صامت او حرف علّة فقط.

وقد كان ابتداع الكتابة المسمارية لتدوين اللغة السومرية، لذا جاءت علاماتها متفقة ومنسجمة مع اصوات اللغة السومرية وجذور كلماتها واسلوب صياغة جملها. وعندما شاع استخدام اللغة الاكدية، وهي لغة جزرية لاعلاقة لها باللغة السومرية بل انها تختلف عنها تمام الاختلاف كاختلاف اللغة العربية عن اللغة التركية مثلاً، استخدمت الكتابة المسمارية نفسها لتدوين اللغة الاكدية، وكان على الكتبة الاكديين ان يحاولوا تغيير وتحوير بعض العلامات المسمارية ويبتدعوا علامات اخرى جديدة لكي يتمكنوا من كتابة اللغة الاكدية تماماً كما فعل كل من كتب لغته غير العربية، كاللغة التركية والفارسية والكردية، بالخط العربي.

وقد استخدم العراقيون القدماء الالواح الطينية للكتابة عليها وكانوا في الأزمنة المبكّرة من تاريخ ابتداع الكتابة يرسمون العلامات الصورية رسماً على لوح الطين من خلال تحريك القلم المدبب الرأس على الطين الطري، ثم كان اسلوب طبع العلامة على الطين بواسطة ضغط نهاية القلم ذي المقطع المثلث او المربع او المستطيل بشكل مائل على الطين الطري فتكون النتيجة علامات مؤلفة من خطوط مستقيمة ينتهي كل خط منها بمثلث صغير هو طبعة زاوية مقطع القلم، وكل خط من هذه الخطوط يشبه المسمار او الوتد ومن هنا جاءت تسمية الكتابة بالمسمارية.

وكان لاستخدام الطين ايجابيات كثيرة اهمها انه لايبلى ويقاوم الحرارة والبرودة والحرائق والامطار ويبقى لآلاف السنين دون ان تتأثر الواح الطين خاصة المحروقة منها، الا ان تلك الالواح كانت معرّضة للتكسر والتحطم بسرعة كما كانت ثقيلة الوزن ويصعب إستخدام الواح كبيرة منها فجاءت الكتابات مختزلة جداً. وقد استخدمت الواح من الطين ذات اشكال واحجام مختلفة وكان منها الالواح المربعة والمستطيلة والمثلثة والقرصية والهرمية والمنشورية والمكعبة والتي على هيئة عضو من اعضاء الانسان او الحيوان وو... الخ. والى جانب الواح الطين، دونت بعض النصوص على الحجر بواسطة النقش والحفر كما دون بعضها الآخر، وان كان ذلك نادر جداً، على المعدن اوعلى العاج وربما استخدمت مواد

اخرى سريعة التلف. وكان الكاتب يبدأ بكتابة النص على اللوح من اليسار الى اليمين، وربما كان يكتب من الاعلى الى الاسفل في العصور المبكّرة جداً من ابتداع الكتابة، وطريقة الكتابة من اليسار الى اليمين تخالف جميع الكتابات المستخدمة لتدوين اللغات الجزرية والتي تبدأ عادة من اليمين الى اليسار، كالكتابة العربية والآرامية والحبشية وغيرها.

وقد خلّف لنا العراقيون القدماء مئات الآلاف من النصوص المسمارية المدونة على الواح الطين والحجر وغيرهما من المواد وجدت مطمورة تحت التلول الاثرية. وعندما تم اكتشافها في القرن الماضي عكف الباحثون الغربيون على دراستها وفك رموزها الى ان تم لهم ذلك في اواسط القرن الماضي مستعينين في ذلك ببعض النصوص ثنائية وثلاثية اللغة والكتابة، كتلك المدونة على سطح جبل في ايران والتي عرفت بنقش بهستون، وترجمت كثير من النصوص المسمارية الى اللغات الحديثة وقليل منها ترجم الى اللغة العربية طالما كان الاوربيون هم اول من بدأ بدراسة النصوص المسمارية وحل رموزها وترجمة مضامينها ونقلها الى لغاتهم الاوربية.[1]

تعليم الكتابة

كان فن الكتابة يعد من الفنون الرفيعة التي يصعب اتقانها بسهولة وذلك لطبيعة الكتابة المسمارية المعقدة وكثرة علاماتها وتعدد معانيها وقيمها الصوتية واستخدام علامات اضافية لتوضيح معاني والفاظ الكلمات المدونة، كالعلامات الدالة والنهايات الصوتية. وكان لازدواجية اللغة في الالف الثالث قبل الميلاد اثره في زيادة صعوبة تعلم واتقان الكتابة حيث استوجب ذلك اتقان الكاتب او المتعلم او المامه بكلتا اللغتين ان هو اراد اتقان الكتابة، لذا، عدّ العراقيون القدماء فن الكتابة طلسماً غامضاً لايعرف اسراره الا من تدرّب على الكتابة لسنوات طويلة، وكان من نتائج ذلك ان احتل الكاتب مكانة مرموقة ومركزاً اجتماعياً رفيعاً.

وازاء صعوبة تعلم الكتابة، ظهرت الحاجة منذ وقت مبكر جداً الى وجود مدارس او مؤسسات تعليمية تقوم بتعليم وتدريب الفتيان على الكتابة والقراءة والعلوم الاساسية الاخرى. ومع ان الشائع لدى الكثير منا بأن اول نشأة المدارس كان في عهد الملك البابلي

---

(١) حول بداية الكتابة المسمارية ومراحلها وقراءة نصوصها وكل ماله علاقة بها انظر: عامر سليمان، اللغة الاكدية، ص٩٧ - ١٦٢.

حمورابي (١٧٩٢ – ١٧٥٠ ق.م) الا ان المكتشفات الاثرية ابانت ، ان تعليم الكتابة كان قد بدأ منذ ان ابتدعت الكتابة ، اي قبل عهد حمورابي بأكثر من الف سنة يؤيد ذلك انه تم العثور على مئات من الالواح الطينية التي سميناها بالالواح المدرسية من عهود تسبق عهد حمورابي ، الا ان المجموعة الرئيسة والمهمة من الالواح المدرسية ترقى بتاريخها الى العصر الذي عاش فيه حمورابي ، وربما كان نسبة نشوء المدارس الى عهده لهذا السبب بالذات.

المدرسة

ومع اهمية المدارس ووجودها منذ العصور الاولى ، الا اننا لم نعثر على بقاياها في المدن العراقية القديمة ربما لأن ابنية المدارس لم تكن ذات مواصفات معينة يسهل تمييزها عن غيرها من الأبنية بل يمكن الاستدلال على استخدام بناية ما ، بيتاً كانت او معبداً ، من وجود نصوص مدرسية فيها. وقد ظن المنقبون انهم اكتشفوا بقايا مدرسة في كل من نفر وسپار واور وماري وغيرها من المدن مستدلّين على ذلك من بقايا الواح الطين وربما من وجود بعض المصاطب التي اعتقدوا بأنها مصاطب لجلوس التلاميذ. [١]

وربما كانت المدارس الاولى ملحقة بأبنية المعابد لاسيما وان الكهنة كانوا اول من تعلّم وعلّم الكتابة والقراءة.

وكانت المدرسة تعرف باللغة الاكدية باسم «بيت الالواح» بيت طُپّاتِ، وهي ترجمة حرفية للمصطلح السومري e.dub.ba.

وتشير النصوص المدرسية المكتشفة الى ان المدارس او مؤسسات التعليم كانت على نوعين من حيث مستوى التعليم ومستوى الطلبة ، فأما النوع الأول فهو النوع الاعتيادي الذي كان يتعلم فيه التلميذ القراءة والكتابة ، وربما الحساب ، وهو مايشير اليه المصطلح آنف الذكر. اما النوع الثاني فكان يضم المدارس التي تعلّم العلوم على اختلافها كالرياضيات والفلك والطب والسحر واللغة وغيرها. ويبدو ان المدرسة من هذا النوع كانت تسمى «بيت الحكمة» بيت مُمِّ بالاكدية وكانت بمثابة المدارس او المعاهد العالية وكان الالتحاق بها يقال عنه (الدخول في بيت الحكمة) ، «وكان الرجال الحكماء الذين يسكنون في بيت الحكمة يحرسون الأسرار» [٢]

---

(١) انظر مثلاً كريمر، السومريون ، ص٢٣٨.

(٢) انظر Driver and Miles, The Babylonian Laws, I, P.73.

وكان التعليم في العراق القديم مقصوراً على اولاد الطبقة الغنية والمتنفذة في المجتمع نظراً لطول فترة التعليم وما يتبع ذلك من تكاليف ، وقد اشار احد النصوص الى المدة اللازمة للتعليم بأنها تبدأ من (الطفولة الى الرجولة) وربما كان في ذلك شيء من المبالغة ولكنه مع ذلك يعطي فكرة عن طول فترة التعليم ، وفضلاً عن ذلك كان على التلميذ ان يقضي معظم يومه في المدرسة .

وكان المعلم والمتعلم يتمتعان بمركز مرموق في المجتمع كما يفهم من بعض المعتقدات الدينية التي اعطت للكتابة والكاتب مكان الصدارة وخصصت للكتابة آلهة معينة . وتشير النصوص المسمارية ان التعليم لم يكن مقصوراً على الذكور بل كان من الممكن للاناث ان يتعلمن ويصبحن كاتبات ففضلاً عما يستدل عليه من وجود آلهة معينة للكتابة من الاناث والتي وصفت بأنها (كاتبة الجميع) او (الكاتبة العظيمة للسماء) فقد وصفت احدى النساء من العصر البابلي القديم بأنها كاتبة كما اشارت رسالتان من العصر الآشوري الى وثيقة كتبتها امرأة ، الا ان عدد الاناث من المتعلمات والكاتبات كان محدوداً جداً ، بل ان عدد الكتبة والمتعلمين بصورة عامة كان محدوداً في المجتمع قياساً الى عدد السكان ، ومع ذلك ، امكن التعرف على اسماء الآلاف من الكتبة ولاسيما من العصر البابلي القديم الذين دونوا اسماءهم في نهاية الوثائق التي تم تحريرها من قبلهم .

وبديهي كان هناك اصناف عدّة من الكتبة يختلفون من حيث المستوى الاجتماعي نسبة الى طبيعة عملهم ومكانه ، فهناك كتبة مبتدأون وكتبة متقدمون وهناك رئيس الكتبة ، وكتبة خاصون بالاسرة الحاكمة ويعملون في القصر الملكي وآخرين يعملون في المعابد او الوظائف العامة او في السوق ولدى التجار. وقد تفاخر الملك الآشوري آشوربانيبال (٦٦٩- ٦٢٦ ق.م) بأنه : «درس حكمة نبو واستوعب فن الكتابة باكمله وكذلك معارف المتخصصين جميعهم ، وتعلم الرماية وركوب الخيل وقيادة العربات ومسك اللجام» وفي نص آخر يذكر «لقد قرأت نصوصاً معقدة حيث كانت النسخة السومرية غامضة والنسخة الاكدية صعبة الفهم ، وبحثت في الكتابات على الاحجار التي ترقى بتاريخها الى ماقبل الطوفان»[1] .

---

(١) انظر .Driver and Miles, The Babylonian Laws, P. 65

انه من حسن حظ الباحثين المحدثين أن تم العثور على عدد لابأس به من النصوص المسمارية ذات العلاقة بالتعليم واساليبه دوّنها كتبة كانوا يعدّون انفسهم معلمين في المدرسة . وقد امدتنا مثل هذه النصوص بمعلومات وافية عن اسلوب ادارة المدرسة والحياة الدراسية ومناهجها ووسائل التعليم واساليبه . ومن ابرز هذه النصوص مايمكن ان نضع لها العناوين الآتية : (ايام الدراسة) و (المشاكسون في المدرسة) و (الكاتب وابنه الضال) و (حوار بين اجولا والكاتب) . [1] وتشير مضامين هذه النصوص الى انه كان يدير المدرسة (الاستاذ) او (الخبير) أمّيَ ummia ، وكان يلقب ايضاً بابي المدرسة في حين سمي التلميذ (ابن المدرسة) ، واذا ماتخرج عرف بأنه (ابن المدرسة في الايام الماضية) . وكان الاستاذ المساعد يسمى (الأخ الكبير) وكان من جملة واجباته كتابة الالواح الجديدة المعدّة للطلبة بغية استنساخها وفحص نسخ الطلبة والاستماع اليهم وهم يستظهرون واجباتهم اليومية . وكان يشرف على تدريس الطلبة عدد من المدرسين متخصصين في المواضيع المختلفة فكان هناك (المشرف على الرسم) و (المشرف على اللغة السومرية) و(المشرف على اللغة الاكدية) وغيرهم ، كما كان هناك مراقبون ومشرفون على حضور الطلبة وانتظام دوامهم . ولا تشير النصوص الى الاجور التي كان يتقاضاها المعلمون والمدير ، الا انه يبدو انها كانت قليلة ولا تتناسب وجهودهم في تعليم التلاميذ مما دفع بعض اولياء امور التلاميذ الى تقديم الهدايا الى المعلمين بغية تحسين اسلوب معاملة ابنائهم ، كما يشير الى ذلك النص الذي وصف بأنه يتحدث عن ايام المدرسة والذي يذكر فيه بعض ما كان يلاقيه الطلبة اثناء دراستهم من صعوبات . فقد بدأ النص بسؤال موجه الى طالب المدرسة نفسه قائلاً :

«ايها الطالب ، الى اين كنت تذهب منذ ايامك المبكرة؟ فيجيب الطالب بقوله «كنت اذهب الى المدرسة» ثم يسأل الكاتب : «ماذا كنت تفعل في المدرسة؟» ويعقب ذلك جواب الطالب بما يأتي :

«كنت استظهر لوحي ، وآكل طعام غذائي واهيّ لوحي الجديد لاكتبه واكمله ، ثم يعينون لي درسي الشفهي . وفي العصر يخصصون لي درسي المكتوب . وعندما تنصرف المدرسة اعود الى بيتي فادخل الدار ، واجد ابي جالساً هناك فاطلع ابي على درسي المكتوب ثم استظهر له لوحي . فيسرُّ ابي لذلك... وعندما استيقظ في الصباح الباكر

---

(١) كريمر ، السومريون ، صفحة ٣٣٩ .

اواجه امّي واقول لها : اعطيني طعام غذائي لأنني اريد الذهاب الى المدرسة فتزودني امي برغيفين وعندئذ اسرع بالمسير الى المدرسة . وفي المدرسة قال لي المراقب : (لم انت متأخر؟) ثم دخلت وانا وجل خافق القلب في حضرة مدرسي ، وحييته باحترام».

ولكن سواء قدَّم ذلك التلميذ تحيته ام لم يقدمها فإن يومه ذاك في المدرسة كان يوماً عصيباً . فقد تلقى الضرب بالعصا من اكثر من شخص واحد من اعضاء هيئة التدريس من اجل ماارتكبه من هفوات كالتكلم والقيام في الصف والخروج من باب المدرسة ، والانكى من كل ذلك قول المعلم له : «ان خط يدك في الاستنساخ رديْ غير مرضٍ» ، وضربه بالعصا من اجل ذلك. وهنا نفد صبر الصبي لأنه فوق مايحتمل ، فاشار على ابيه ناصحاً اياه بأن خير مايفعله في هذا الشأن ان يدعو المدرس الى بيته ويسترضيه ببعض الهدايا..... «لقد استمع الأب الى نصيحة ابنه التلميذ وجاء المدرس من المدرسة ، وبعد ان دخل البيت اجلسه في اشرف مكان ، وقام التلميذ على خدمته ، واخذ يستعيد امام ابيه كل ماتعلمه من فن كتابة الالواح ثم ... قدّم الأب للمدرس الهدايا ... وطابت نفس المعلم من هذا الاكرام وحسن الضيافة فأخذ يطمئن ذلك الناشيء الطامح بتعلم الكتابة .... »[1]

ويشير هذا النص كذلك الى بعض اساليب التعليم التي كانت متبعة في المدارس حيث يذكر ان الدوام في المدرسة يبدأ منذ الصباح الباكر ويستمر حتى نهاية النهار، وكان على التلاميذ الالتزام بأوقات الدوام والا تعرضوا للعقوبة بالعصا ، تماماً كما هو الاسلوب المتبع حتى الآن في مدارسنا الابتدائية .

وكان يوم التلميذ يبدأ بدراسة اللوح الذي اعدّه في اليوم السابق ، ومن ثم يقوم الأخ الكبير باعداد لوح جديد له بغية تعلمه واستنساخه كما كان يقوم بفحص استنساخ التلميذ. وكان التعليم يبدأ بالقراءة (الاستماع الى اللوح) ويعقب ذلك الاستنساخ واخيراً الكتابة .

ويبدو انه كان للاستظهار، كما له حتى يومنا هذا ، دور كبير في سير دراسة التلميذ وسرعة تعلّمه ، ولابد ان يكون للأخ الكبير وللمدربين المساعدين دورهم في توجيه التلميذ وتفسير معاني الكلمات والمصطلحات والعبارات شفوياً وتدريبهم على اسلوب القراءة والكتابة بشكل عملي الا انه لاسبيل الى معرفة طبيعة واسلوب ذلك بشكل دقيق .

(١) انظر كامل ترجمة النص في كريمر، من الواح سومر، ص٥٦ — ٥٩.

ومن الطبيعي انه كان على التلميذ ان يحفظ اعداداً كبيرة من العلامات المسمارية ومن العبارات والجمل والمصطلحات الفنية والقانونية لكي يصبح كاتباً مقتدراً وذلك لأن الكتابة المسمارية هي كتابة مقطعية وليست ابجدية فضلاً عن انها استخدمت العلامات الرمزية بكثرة. وكان من الصعوبات الكثيرة التي يواجهها التلاميذ هي ازدواجية اللغة حيث كان على التلميذ ان يتقن كلا من اللغة السومرية واللغة الاكدية. وكان المعلمون يهيئون لتلاميذهم قوائم بالعلامات المسمارية مسلسلة حسب بساطتها لتعلم البسيط منها اولاً ومن ثم يتدرجون معهم في تعليمهم العلامات الأكثر صعوبة وتعقيداً، ثم يتدرب التلاميذ بعد ذلك على العبارات والجمل الفنية بالاسلوب نفسه وقد تم العثور على اعداد كبيرة من النصوص المدرسية التي تضمنت مثل هذه العلامات والعبارات والجمل، وكان ان قام المعلمون بتصنيف المفردات اللغوية الى مجموعات استناداً الى شكل كتابتها او معانيها، وكان على الطلبة ان يحفظوا تلك المجاميع عن ظهر قلب ويتدربوا على استنساخها. كما كان الطلبة يتدربون على استنساخ التآليف الادبية المهمة وترجمتها واستنساخها وظلت معرفتهم باللغتين السومرية والاكدية ضرورية حتى بعد زوال استخدام اللغة السومرية لغة تدوين ومخاطبة.[١]

من جانب آخر، اهتم الحكام والملوك والكهنة بجمع النصوص المسمارية والتآليف الدينية والأدبية وتنظيم المكتبات. وقد تم الكشف عن عدد من المكتبات القديمة المهمة كان اهمها واشهرها مكتبة آشوربانيبال التي ضمت اكثر من عشرين الف رقيم طيني ذات مضامين متنوعة. وقد عثر على مكتبات ملكية في كل من بابل ونفر والوركاء وكيش وكلخو وغيرها. ويبدو انه كان هناك مسؤول عن حفظ الرقم الطينية في المكتبة وان الرقم كانت تحفظ بمجاميع صغيرة في سلال من القصب او صناديق من الخشب او جرار من الفخار. وقد يوضع الى جانب كل مجموعة بطاقة صغيرة تحمل تعريف بالمجموعة ومضمونها.[٢]

اما مضامين النصوص المسمارية المكتشفة فغاية في التنويع فقد ضمت مختلف العلوم والمعارف كالطب والفلك والرياضيات والسحر والتآليف الادبية والدينية والنصوص التاريخية وذات العلاقة بالجغرافية وغيرها من العلوم البحتة والعلوم الانسانية.[٣]

---

(١) انظر تفصيل ذلك: عامر سليمان، اللغة الاكدية، ١٦٩ – ١٧٢.

(٢) انظر بهيجة خليل اسماعيل، الكتابة في حضارة العراق، ج١، ص٢٦١ وما بعدها.

(٣) انظر اوبنهايم، بلاد مابين النهرين، شيكاغو، ١٩٦٤، ترجمة سعدي فيضي، ص٢١ – ٢٢.

الأدب

ضمت النصوص المسمارية المكتشفة في مدن العراق القديمة المختلفة وبعض المدن الواقعة في البلدان المجاورة عدداً من النصوص الأدبية ذات الأهمية ، الا ان عدد مايمكن ان نسميه بالنصوص الأدبية لايتجاوز الخمسة الاف في حين يناهز عدد النصوص المكتشفة الكلي قرابة المليون نص. ومع ذلك ، فقد طرق العراقيون القدماء مختلف ضروب الادب بل لم يتركوا ضرباً من ضروبه الا وكتبوا عنه ، وقد جاءتنا النصوص الادبية مدّونة باحدى اللغتين الرئيستين وهما اللغة السومرية واللغة الأكدية على الواح من الطين. وقد ضمت هذه النصوص اساطير خاصة بخلق الكون والانسان والظواهر الطبيعية واساطير ذات علاقة بالموت وعالم الارواح وملاحم البطولة وتآليف لها طابع الحكمة كالامثال والنصائح والمناظرات الفلسفية التي تدور حول العدالة الالهية وبعض المفاهيم والقيم الاجتماعية كما كتبوا التراتيل والادعية والصلوات باسلوب ادبي رفيع ودونوا بعض القصص ذات الطابع الساخر وهناك مجموعة من قصص الغزل والفكاهة واخرى في رثاء مدن معينة حلت بها الكوارث مثل اور واكد والى غير ذلك من مجالات الادب المعروفة التي يصعب حصرها هنا. (١)

وتتفاوت النتاجات الادبية في الطول فاحياناً تتألف من عدة مئات من الاسطر او الابيات مدونة على رقيم كبير او سلسلة من الرقم واحياناً اخرى تتالف من اسطر قليلة لاتتجاوز العشرين سطراً. وقد كتب الادب العراقي القديم بصورة عامة إمّا شعراً او نثراً. فأما الشعر، فكان يلتزم بالوزن دون القافية شأنه في ذلك شأن الشعر اليوناني واللاتيني ، وكان الوزن يقوم على اساس تجزئة الكلمات الى مقاطع طويلة وقصيرة ، ثم تجمع لتكون مايقابل التفعيلات في الشعر العربي ومن هذه يتكون شطرا البيت الشعري ، الصدر والعجز ، وكان الكاتب يترك فراغاً بين الصدر والعجز عند الكتابة وقد لايكفي البيت الواحد لاكمال المعنى وعندئذ يصار الى وحدات شعرية اكبر تتألف كل منها من بيتين او اربعة ابيات (رباعيا) او اكثر. (٢)

---

(١) انظر طه باقر، مقدمة في ادب العراق القديم بغداد ، ١٩٧٦ ، ص٦٩-٧٠

(٢) انظر فاضل عبدالواحد ، الادب ، في حضارة العراق ، ج١ ، ص

طه باقر، مقدمة في اذب العراق القديم ، ٥٤-٥٦.

ومما يلاحظ ان الشعر البابلي ، وهو الشعر الذي نعرف عنه اكثر من غيره في العراق القديم ، يشارك الشعر عند الاقوام الاخرى في انه يختار الألفاظ الشعرية المعبّرة.

ان دراسة النصوص الأدبية التي وصلت الينا ، ولاسيما من العصر البابلي القديم ، تشير الى ان الأدب العراقي القديم اتصف ببعض الخصائص الرئيسة منها :

١- قدم ادب وادي الرافدين :

يعد ادب وادي الرافدين اقدم ماوصلنا من النتاج الأدبي للانسان ، ويرقى تاريخ اقدم النصوص الأدبية المكتشفة الى اواسط الالف الثالث قبل الميلاد ، حدود ٢٤٠٠ ق . م .[1] ولابد وان النتاجات الأدبية التي وصلتنا مدونة كان قد تم تأليفها في ازمان اقدم من عهد تدوينها وقد تناقلتها الاجيال المتعاقبة بالرواية الشفهية حتى وجدت طريقها الى التدوين. ان مقارنة بسيطة بين تاريخ النتاج الأدبي العراقي القديم مع النتاجات الأدبية في البلدان الاخرى يُبيِّن بوضوح قدم ادب وادي الرافدين ، ففي مصر ، لم يصلنا شيء من ادبها في عصر الاهرامات في الألف الثالث قبل الميلاد ، ويرقى تاريخ الادب الكنعاني في بلاد الشام الى اواسط الألف الثاني قبل الميلاد في حين لايتجاوز تاريخ الادب اليوناني القديم القرن الثامن او السابع قبل الميلاد على اكثر تقدير وينطبق الشيء نفسه على ادب ايران والهند وغيرهما من البلدان.

٢- محافظة ادب وادي الرافدين على صيغته الاصلية :

حافظ ادب وادي الرافدين على صيغته الاصلية كما دون قبل اكثر من اربعة آلاف سنة على رقم الطين التي ظلت محفوظة تحت الاتربة والانقاض الى ان آن لها ان تكشف ثانية وتترجم الى اللغات الحديثة ، لذا لم تتعرض ، كما تعرضت آداب الشعوب الاخرى ، الى التحوير او الحذف او الاضافة على يد النّساخ وجامعي النصوص الأدبية ، وحتى في حالة عثورنا على نسخ من النصوص الأدبية الاصلية فإن الملاحظ ان النّساخ البابليين والآشوريين الذين قاموا باستنساخ النصوص المهمة القديمة بالنسبة لهم كانوا اشدّ مايكونون حرصاً على الاستنساخ بدقة والمحافظة على النص الاصلي وغالباً ما ذيّل الناسخ نسخته بعبارة (كتب ودقق وفق النسخة الاصلية) ومن ثم يذكر اسمه وتاريخ الاستنساخ. وقد يشير الناسخ الى نقص في النص الأصلي او تلف بعض العلامات او انها غير مفهومة زيادة في الدقة والحرص على النص الاصلي.

---

(١) فاضل عبدالواحد ، الادب ، ص ٣٢٠ حيث يشير الى اسطورة خاصة بالآله إنليل والآلهة ننخرساك التي جاءتنا مدونة بالسومرية على اسطوانة من الطين.

٣- يعد الأدب العراقي القديم مرآة صادقة تعكس لنا اسس الحضارة العراقية القديمة واتجاهاتها وعقائدها واحوال المجتمعات، كما انه يصور لنا باسلوب ادبي رفيع احوال البيئة القديمة والطبيعة التي نمت فيها الحضارة العراقية وبذلك يمكن من خلال دراسة ماورد في النصوص الأدبية الوقوف على كثير من الجوانب الحضارية القديمة كالعادات والتقاليد والمعتقدات وغيرها.

٤- الطابع الاسطوري الشعري الذي غلب على مختلف النصوص الأدبية التي وصلنا معظمها بصيغة قصص وملاحم واساطير لاتستند على النقد والاستنتاج المنطقي والتأمل في الاشياء والنظر اليها نظرة موضوعية على الرغم من ان تلك القصص والاساطير عالجت قضايا فلسفية مهمة. كما ان العراقيين القدماء انفسهم لم ينظروا الى مادونوه من قصص واساطير خيالية على انها متعة ادبية فنية حسب بل انهم عدّوا ماجاء فيها من آراء وتفسيرات هي حقائق ثابتة تفسر الوجود والاشياء.

٥- لقد ترك الأدب العراقي القديم اثراً واضحاً في آداب الامم الاخرى القديمة ويمكن الاستدلال على ذلك من عقد دراسة مقارنة بين النتاج الأدبي العراقي القديم ونتاجات الامم الاخرى حيث تشير مثل هذه الدراسة الى ان كثيراً من التآليف والافكار الأدبية العراقية القديمة كانت قد انتشرت الى بلدان اخرى مثل سوريا وفلسطين وبلاد الحثيين ووادي النيل وبلاد اليونان، ومن الملاحم التي انتشرت بشكل واسع ملحمة جلجامش وقصة ادبا وقصة فقير نفر وحادثة الطوفان وغيرها.

٦- يلاحظ في النصوص الأدبية العراقية القديمة بصورة عامة انها تميزت بالمقومات الاساسية التي تميزت بها الآداب العالمية المشهورة والتي جاءت بعدها بفترات طويلة سواء اكان ذلك من ناحية الاسلوب وطرق التعبير ام من ناحية الموضوع والمحتوى والصور الفنية المثيرة والاصالة والجرأة واهمية الموضوعات التي تناولها[1]. كما يلاحظ في النصوص الأدبية انها اعتمدت اسلوب التكرار والاعادة احياناً خاصة عند رواية خبر على لسان رسول الى واحد او اكثر من شخوص الاسطورة.[2]

٧- ومما يلاحظ في النصوص الأدبية العراقية القديمة شعراً كانت ام نثراً، قصة او اسطورة او ملحمة، انه ينذر ذكر اسماء مؤلفيها من الأدباء والشعراء، وان ماورد من اسماء في بعض النصوص الأدبية التي وصلتنا هي في الواقع اسماء النّساخ او جامعي الملحمة او الاسطورة، وقد يكون بعضهم، ولاسيما في حالة النسخ الأدبية

---

(١) طه باقر، مقدمة في الأدب ص٣٤.

(٢) فاضل عبدالواحد، الأدب ص٣٢٤.

القديمة ، مؤلفي تلك النصوص او منقحيها وجامعيها في اشكالها النهائية ويمكن تفسير ذلك على ان معظم النتاج الأدبي الذي وصلنا من العراق القديم يمثل تراثاً قومياً شاركت في انتاجه عدة اجيال من الشعراء والمنشدين والقصاصين ولم ينفرد في انتاجه اديب او شاعر واحد ، شأنه في ذلك شأن الملاحم والقصص الشعبية عند مختلف الشعوب مثل الف ليلة وليلة والاوديسّا والألياذة .[١]

أصناف النصوص الأدبية ونماذج منتخبة منها :

الملاحم

تؤلف ملاحم البطولة موضوعاً بارزاً في أدب العراق القديم ، وتعد النماذج المكتشفة منها روائع الادب العالمي ، وبصورة خاصة ملحمة جلجامش التي تعد اقدم نموذج لأدب الملاحم عرف حتى الآن . ومما يلاحظ في الملاحم انها دونت باسلوب شعري اسطوري الا ان ابطالها وشخوصها كانوا من البشر بالدرجة الاولى ، ومنهم شخصيات تاريخية معروفة ، كشخصية جلجامش نفسه . وجاءت بعض نماذج هذا الصنف من الأدب على هيئة قصص تحكي احداثاً تاريخية باسلوب روائي كقصة اينمركار ، حاكم الوركاء مع حاكم ارّاتا ، وقصة سرجون الأكدي ومولده وقصة نرام - سين ، وفيما يأتي نبذة عن اهم نموذج من الملاحم العراقية القديمة ، وهي ملحمة جلجامش .

احتلت ملحمة جلجامش منذ ان تعرّف عليها الباحثون وحتى الآن شهرة عالمية واسعة جداً وعدت بين شوامخ الأدب العالمي ، وهي اقدم نوع من ادب الملاحم البطولية في تاريخ جميع الحضارات ، كما انها اطول واكمل ملحمة معروفة من الحضارات القديمة . ومع ان النسخ التي وصلتنا عن هذه الملحمة ترقى بتاريخها الى الألف الثاني قبل الميلاد ، الا انها ترجع باحداثها وتأليفها الى عهود قديمة ، وظلت ملحمة جلجامش تحتفظ بجاذبيتها الانسانية لعصور طويلة لأن القضايا التي عالجتها هي قضايا انسانية عامة لاتزال تشغل بال الانسان وتفكيره وتؤثر في حياته العقلية والعاطفية ، وفي مقدمة تلك القضايا لغز الحياة والموت ومابعد الموت والخلود وصراع الانسان للتخلص من حتمية الموت الذي قدّر عليه وفشله في جميع محاولاته الحصول على الخلود . ومع ان الملحمة انتهت نهاية محزنة خيبت

---

(١) انظر طه باقر، ملحمة جلجامش بغداد ، ١٩٨٠ ص٢٣ و ٢٥ . وقد ذكر اسماء المؤلفين التي وردت في النصوص المسمارية الأدبية وعددها قليل وهم اربعة فقط .

آمال جلجامش الا انها من جهة اخرى قدمت البديل عن الخلود الذي لم يحصل عليه الانسان، وهو ان الانسان يخلد باعماله ومنجزاته فيبقى ذكره خالداً ما بقي الدهر.

ذاع صيت ملحمة جلجامش في معظم انحاء الشرق الأدنى القديم وترجمت الملحمة الى العديد من اللغات الاخرى كالحثية والخورية، واثرت في ادب الشعوب بصورة عامة من الذين احتكوا بالعراقيين القدماء.

عثر على الرقم الاثني عشر التي تحمل نص الملحمة في مكتبة آشوربانيبال في نينوى، كما عثر في مدن اخرى على اجزاء من الملحمة. ويرقى تاريخ استنساخ الرقم المكتشفة الى القرن السابع قبل الميلاد، وقد تضمنت الرقم العشر الاولى اعمال جلجامش وصديقه انكيدو ومغامراتهما وموت انكيدو في حين يحكي لنا الرقيم الحادي عشر قصة الطوفان، اما اللوح الأخير فيصف عالم مابعد الموت كما شاهده انكيدو. وقد عرفت الملحمة بأول عبارة وردت فيها وهي عبارة «هو الذي رأى كل شيء».

ترجمت الملحمة منذ اكتشافها الى الآن الى معظم اللغات الحديثة وظهرت حولها دراسات عديدة تناولت مختلف جوانبها اللغوية والأدبية والفلسفية وظهرت لها اكثر من ترجمة الى اللغة العربية كان افضلها ترجمة استاذنا المرحوم طه باقر.[١]

ومما يذكر ان جلجامش، بطل الملحمة، ورد ذكره في النصوص المسمارية انه كان شخصية تاريخية حيث كان سادس ملوك سلالة الوركاء الاولى وحكم حسبما تذكر جداول الملوك السومريين في حدود ٢٦٥٠ ق. م. وانه كان ملكاً عظيماً وبطلاً شجاعاً بحيث صار رمزاً للقوة والاقدام والمغامرة والبطولة. والمعروف ايضاً ان هناك مالايقل عن اربع قصص سومرية تدور حول جلجامش ومآثره كانت المصدر الذي استمدت منه الملحمة اضافة الى قصة الطوفان، ومن ثم صيغت الملحمة باللغة الأكدية باسلوب شعري رائع. وفيما يأتي نقتبس الاسطر الاولى من الملحمة :-

«هو الذي رأى كل شيء فغنّي بذكره يابلادي
وهو الذي عرف جميع الأشياء وافاد من عبرها
وهو الحكيم العارف بكل شيء
لقد ابصر الاسرار وكشف عن الخفايا المكتومة
وجاء بانباء ماقبل الطوفان».[٢]

---

(١) انظر: طه باقر، ملحمة جلجامش، انظر كذلك، طه باقر، مقدمة في الأدب، ص١٠٠ - ١٣٠.
(٢) طه باقر، ملحمة جلجامش، ص٧٣.

اساطير الخليقة

تعد اساطير الخليقة التي وصلتنا من العراق القديم من اقدم الاساطير المدونة المعروفة حتى الآن. والاساطير كما هو معروف هي مجرد نتاج الخيال وشخوصها وابطالها من الالهة، وقد حاول العراقيون القدماء تصور بداية خلق الكون واصل الاشياء وخلق الانسان ووضعوا لذلك قصصاً خيالية جاءت على هيئة اساطير دونت باسلوب شعري. وقد وصلتنا اساطير مدونة باللغة السومرية واخرى جاءتنا مدونة باللغة الاكدية، الا ان اقدم الاساطير التي وصلتنا لايتعدى تاريخها الالف الثاني قبل الميلاد. والملاحظ ان النصوص المدونة باللغة السومرية قصيرة وناقصة في حين كانت النصوص المدونة باللغة الاكدية، وهي من العصر البابلي القديم (حدود ٢٠٠٠–١٦٠٠ ق.م) اكثر تفصيلاً وفي حالة حفظ جيدة.

تعد قصة او اسطورة الخليقة البابلية المعروفة باول عبارة منها وهي (حينما في العلى) (وبالاكدية انمّا إيلش enumma eliš) اشهر اساطير الخليقة المكتشفة واكملها، وقد امكن التعرّف عليها مدونة باسلوب شعري على سبعة رقم طينية ضمت زهاء الف بيت من الشعر، وتم العثور على نسخة منها في مكتبة اشور بانيبال في نينوى كما عثر على نسخ اخرى في مدن عراقية اخرى. ويظن ان القصيدة كانت تغنى على الحان الموسيقى خلال احتفالات اعياد رأس السنة (عيد اكيتو) وربما مثّلت بعض مشاهدها على هيئة مسرحية.[1]

وفيما يأتي الاسطر الاولى من هذه الاسطورة تبين الاسلوب الشعري الذي دونت به:

حينما في العلى لم ينبأ عن السماء (لم تُسُمَّ باسم)
وفي الدنى (الاسفل) لم تذكر الارض باسم
وحين كانت مياه «أبسو» الموجود الاول، والدهم والام
«تيامة» والدة جميعهم، واحدة مختلطة.....
جاء الى الوجود «لخمو» و «لخامو» ودعيا
باسميها»[2]

ومن دراسة وتحليل ماورد في اسطورة الخليقة يتبين لنا بانها تعكس جوانب عديدة من معتقدات القوم سواء تلك الخاصة باصل الوجود وخلق الالهة والانسان ام غيرها، كما انها تفصح عن اهم خصائص المعتقدات الدينية العراقية القديمة، ومنها صفة التشبيه وصفة

(١) طه باقر، مقدمة في الادب ٧٢.

(٢) المصدر نفسه صفحة ٧٤.

التفضيل كما سبق واشرنا في موضع آخر. فاما بالنسبة الى صفة التشبيه، اي تشبيه الالهة بالبشر في جميع صفاتها المادية والروحية، وسلوكها وحياتها السياسية والاجتماعية بل وحتى عواطفها، فقد جاء وصف مجمع الالهة في اسطورة الخليقة وكأنه مجتمع البشر، حيث صور الكون على هيئة دولة يحكم فيها الالهة حكماً يعتمد على الشورى وكانت القرارات المهمة تتخذ في مجالس شورى عن طريق الاقتراع، وكان يشارك في المناقشة والاقتراع الآلهات ايضاً، ومن ثم يصدر القرار. وكان من بين الالهة من لهم نفوذ اكبر وسيطرة اقوى، وبعبارة اخرى، ان النظام الذي تصوره العراقيون القدماء بانه كان يحكم مجمع الالهة كان نظاماً ديمقراطياً. واستناداً الى مبدأ التشبيه، فان ذلك يعكس النظام الذي كان سائداً في دولة المدينة ثم نسب الى الالهة التي شبهت بالبشر في جميع صفاتها.

اما صفة التفضيل، اي تفضيل اله معين على غيره من الآلهة نتيجة تطورات سياسية معينة، فانها تظهر بوضوح من مقارنة اساطير الخليقة مع بعضها. ففي الاساطير السومرية نجد بطل الآلهة هو الاله إنليل في حين حوّرت القصة البابلية ذلك وجعلت الاله مردوخ، اله مدينة بابل القومي بطلاً للآلهة ومنتخباً من قبلها وذلك تبعاً للتطورات السياسية التي حدثت ورفعت من شأن مدينة بابل ومن ثم رفعت من شأن اله مدينة بابل ايضاً. اما القصة الاشورية، فقد رفعت من شأن الاله اشور وجعلت منه بطلاً للآلهة بدلاً من مردوخ.

من جانب آخر، تعكس اسطورة الخليقة العنف والصراع اللذان رافقا عملية الخلق والتكوين عنف الطبيعية العراقية القديمة وصراع الانسان المستمر معها للسيطرة عليها وصراعه مع اخيه الانسان وتحديه له وللطبيعة.

اما بالنسبة لخلق الانسان، فان القصة تشير الى ان خلق الانسان لم يكن غاية في حد ذاتها او نتيجة مكملة لبقية مراحل الخلق وانما خلقت الآلهة الانسان بعد ان اصابها التعب من جراء العمل على الارض فارادت ان تخلق بديلاً عنها يقوم بفلاحة وحراثة الارض ويوفر لها الطعام والشراب اللازمين ويبني لها بيوتاً لاستراحتها، لذا فان الانسان خلق من اجل خدمة الآلهة وان الملك هو ممثل الآلهة على الارض للاشراف على ذلك.[1]

---

(١) حول قصص الخليقة وترجماتها وخصائصها وتفسيراتها انظر:

طه باقر، مقدمة في الادب، صفحة ٧١-٩٦.

طه باقر، الخليقة واصل الوجود، سومر ٥ (١٩٤٩)، ١-٣٦، ١٧٥-٢١٤ والمصادر الاجنبية التي يشير اليها.

فاضل عبدالواحد، من الواح سومر الى التوراة، بغداد، ١٩٨٩، صفحة ٢٤٥-٢٥٣.

ادب الحكمة

ومن ضروب الادب الاخرى التي طرقها العراقيون القدماء مايوصف بادب الحكمة wisdom literature . ويتضمن ادب الحكمة بدوره عدة انواع فهناك الحكم والامثال والوصايا وموضوع الخير والشر وماصطلح على تسميته بالعدل الالهي . ومما يلاحظ ان النصوص التي تم التعرف عليها الان تؤكد المستوى الرفيع الذي وصله ادب الحكمة عند العراقيين القدماء الى درجة يمكن مقارنته مع الاداب العالمية المعروفة . وفيما يأتي نماذج منتخبة من بعض هذه الانواع .

١ – الامثال

تعد الامثال من اكثر اصناف ادب الحكمة شيوعاً في اللغة السومرية ، والامثال كما هو معروف ، تعكس لنا واقع الحياة الاجتماعية وتعبّر عما يجول بخاطر الناس وقد جاءت بعض الامثال باللغة السومرية والى جانبها ترجمتها باللغة الاكدية والامثال من صنف النصوص التي قد يصعب فهم معناها بشكل دقيق حيث ان معناها يرتبط غالباً بحوادث معينة او حالات خاصة لانعرف عنها شيئاً ، وهذا شأن الامثال في جميع اللغات قديمها وحديثها . وفيما يأتي بعض الامثال التي كانت شائعة .[1]

١ – تملّق شاباً يعطيك ماتريد .
٢ – ارم كسرة للكلب يهز لك ذيله .
٣– الفقراء هم الصامتون في بلاد سومر .
٤ – المال مثل الطير لايعرف موطناً ثابتاً .
٥– لاكسب بدون تعب .
٦– اذا اسأت الى صديقك فما عساك ان تفعل مع عدوك ؟
٧– الناس بلا ملك مثل قطيع الغنم بلا راع .
٨– فن الكتابة ابو العلماء وام الخطباء .
٩– الزوجة المبذرة في البيت اشد ضرراً من جميع الشياطين .
١٠ – اذا أحسَّ بقرب اجله قال لآكل كل ماعندي ، واذا تعافى قال لاقتصد .[2]

---

(١) انظر ساكز، عظمة بابل ، ٤٨٣–٤٨٤ .

(٢) انظر طه باقر، مقدمة في الادب ، ص ١٥٨–١٦٠ .

٢ - النصائح والحكم

تتألف النصائح والحكم عادة من سلسلة من الجمل المفيدة تحمل النصح حول السلوك الخلقي وتقدم النصيحة من الاب الى ابنه ، او من الحكيم الى غيره ، وهي تشابه الامثال الا انها تختلف عنها بالشكل . ان عدد ماوصلنا من النصائح قليل وجلّها جاء باللغة السومرية ومنها :

اطع كلام امك كأنه امر الهي
لاتدع الغضب يظهر على وجهك في اثناء الخصام
اذا نشب الخصام كالنار، تأكد انك تعرف كيف تطفيء (اللهيب) .....
اذا قال لك احد كلاماً عدائياً فلا ترد عليه بالمثل ، فذلك (له نتائج) وخيمة
لاترتكب جريمة فلا يقلقك خوف الاله
لاتتحدث بالشر، فلا يدخل الحزن قلبك[١]

ومن النصائح والحكم المشهورة ماجاءنا مدوناً باللغة الارامية وهي منسوبة الى الحكيم احيقار، [٢] وهو حكيم اشوري يفترض انه عاش في العصر الاشوري الحديث في عهد الملك سنحاريب (٧٠٤-٦٨١ ق.م) ، وقد اراد ان يعدَّ ابن اخته ليكون حكيماً مثله وحاملاً لختم الملك فوضع له هذه النصائح ومما قاله له :

يابني لاتقف حيث الخصومة ، فان الخصام ينتج القتل[٣]
ان اللذات ستقطع عنقه[٤]
يابني ، صديق قريب خير (لك) من اخ بعيد[٥]
يابني ، لاتحرم ابنك من الضرب ، لان الضرب للولد كالسماد للبستان وكاللجام للبهائم وكالقيد في رجل الحمار[٦]

---

(١) انظر ساكز، عظمة بابل، ص ٤٩٧ .

(٢) حول ذلك انظر: بولس بهنام ، احيقار الحكيم ، بغداد ، ١٩٧٦ .

(٣) Ginsberg, H.L., The Words of Ahiqar, ANET, p. 427. بهنام ، المصدر السابق ، ٥٥/١٤٢

(٤) المصدر نفسه ، ص ٦١ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٦ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٣٨ - ١٣٩ .

٣- العدل الالهي

هناك بعض النصوص الادبية التي تناقش موضوع العدل الالهي وماهو خير في نظر الالهة وماهو شر، وقد وردتنا قصيدتان من هذا الصنف من الادب البابلي تبرز كل منها ماحلّ بالعبد الصالح المطيع للالهة والمنفذ لرغباتها من محن وويلات وقد دأب الباحثون على تسمية القصيدة الاولى باسم (التقي المعذب) او (ايوب البابلي) لشبه القصة بقصة النبي ايوب، وتخلص هذه القصة الادبية الى القول ان مايحل بالعبد الصالح من ويلات انما هو امتحان وبلوى الهية للكشف عن مدى قوة عقيدة العبد وايمانه ورضوخه لقضاء الآلهة في حين تنطوي القصة الثانية على التشكك والسخرية من قيم الحياة الانسانية وفي اقدار الالهة.

ويظن ان بطل قصة (التقي المعذب) كان احد الوجهاء البابليين، ويشير اسلوب كتابتها ولغتها الى انها كانت قد دونت في اواسط الالف الثاني قبل الميلاد ويبلغ عدد ابيات القصيدة ٥٠٠ بيت شعر وكانت قد دونت اصلاً على اربعة رقم طينية. والقصيدة عبارة عن مناجاة فردية لشخص متعبد نزلت به، على الرغم من تعبده، الويلات والكوارث حيث يقول هذا التقي:

«لم اعرف في حياتي سوى العمل الصالح والعبادة، وشغلت افكاري بالتضرع الى الآلهة والتضحية والتقرب اليها، وكانت اوقات عبادة الآلهة سروراً لقلبي، والايام التي اسير فيها في مواكب الآلهة مكسبي ونصري في الحياة، ويبعث تمجيد الملك المسّرة لقلبي، والموسيقى التي تعزف له مثار غبطتي وسروري. والزمت اهلي واتباعي مراعاة شعائر الالهة وعبادتها، وعلمت الجند طاعة القصر،.......»

ولكن رغم صلاحه وتقواه نزلت بساحته المصائب والنكبات، فقد تخلت عنه الآلهة وغضب عليه الملك وتآمرت عليه الحاشية واصبح وحيداً منبوذاً، وفتكت به الامراض:

«لقد تمكن مرض «آنو» من جسمي وغطاه كالرداء، اذناي مفتوحتان ولكنها لاتسمعان، واصاب جسمي

الضعف والوهن ، واصبح السوط المسلط علي يرعبني ويعذبني ، وصار معذبي يطاردني في النهار ويسلبني الراحة في الليل. لقد خذلني الاله ولم يتقدم اله لعوني ولم تعطف علي الهتي فتخلصني من مصائبي. حسبني الجميع انني ميت كأن القبر مفتوح امامي فنهبوا اموالي ، فرح بي حسّادي وشمت بي اعدائي ولم يستطع السحرة والمعوذون مساعدتي .... ».

وقد حار العبد الصالح في تفسير وضعه وما اصابه من نكبات على الرغم من تعبده وصلاحه ، وقد قدّمت القصيدة لذلك حلين اثنين او تفسيرين ، فاما الاول فيمكن ان نسميه الحل العقلي في حين انطوى الثاني على العاطفة. فالحل العقلي يدور على تعذر تطبيق مقاييس القيم البشرية على اعمال الآلهة وتصرفاتها ، لان الانسان ضئيل قصير النظر لايستطيع ان يدرك حكمة الآلهة من وراء اعمالها ، فالانسان مخلوق ضعيف وهو ابن ساعته :

« فان من ولد امس قد يموت اليوم ويغمره الظلام في لحظة قصيرة وقد يكون الفرد في لحظة اخرى فرحاً يغني ، ولكنه سرعان ماينذب ويبكي. وبين الصباح والمساء تتغير حال الانسان ومزاجه. والبشر حين يجوعون يصبحون مثل جثث الموتى ، وحين يمتلئون شبعاً ينافسون الهتهم. اذا واتتهم الايام تعالوا كانهم يريدون الصعود الى السماء ، واذا نزلت بهم نازلة هبطوا الى درك العالم الاسفل ».

اما الحل الثاني الذي يقدمه مؤلف القصيدة لما حلّ بالعبد الصالح ، ففحواه ان العذاب الذي يصيب العبد الصالح لايظل ملازماً له الى الابد ، بل انه امتحان له من الآلهة لاختبار صبره وتعلقه بالآلهة والالتزام باحكامها وقبول اقدارها ، وهكذا كانت خاتمة بطل قصتنا من بعد ماعاناه من نكبات وامراض ، فانه صبر واحتمل فتقرر اعادته الى حالته السابقة من الصحة والثروة والجاه. لقد رأى ثلاثة احلام ظهر له في احدها شاب جميل ، ولانخرام النص لايعلم ماذا اراد الشاب ان يبلغه. وفي الحلم الثاني رأى كذلك شاباً جميلاً اجرى له التعاويذ والرقى لطرد الشر وانهاء عذابه ، وظهر من بعدها كاهن

معوذ يحمل لوحاً من الاله نقش بامره لتخليصه من محنته واعادة الصفاء والرخاء. وتنتهي القصيدة في ازجاء المديح والتمجيد للآله». [1]

اما القصيدة البابلية الثانية التي تعالج العدل الالهي ايضاً، فيمكن تسميتها ب «حوار بين صديقين»، ويرقى تاريخ تدوينها على اغلب الظن الى مطلع الالف الاول قبل الميلاد وقد وجدت معظم نسخها في مكتبة الملك الاشوري اشوربانيبال، وهي عبارة على حوار بين شخص معذب متشكك وبين صديقه. يتألف النص في اصله من ٢٧ قطعة او مجموعة من الابيات مما يسمى بالدور او الموشح لم يبق منها بحالة سليمة سوى ١٩ قطعة. وكل دور من ادوارها يضم احد عشر سطراً او بيتاً من الشعر، وقد نظمت ابيات الشعر بحيث اذا اخذ المقطع الاول من كل بيت من ابياتها وجمعت الى بعضها البعض تكون منها اسم ناظم القصيدة وشيء من الدعاء الى الملك والاله. وتدور القصيدة حول التشكك والسخرية من جانب العبد المعذب الذي يصل به الحال الى درجة التجديف والكفر ومما ورد في هذه القصيدة:

المعذب: اين الناصح الذي اشكو اليه ما اقاسيه من عذاب. اراني قد انتهى امري وتسلط علي الشقاء. فحين كنت مازال طفلاً اختطف القدر ابي وذهبت امي الى «ارض اللاعودة منها» وتركني ابي وامي ولا من يعيلني ويرعاني.

الصديق: ماقلته ياصديقي الموقر يبعث الحزن. اراك ياصديقي الحبيب قد وجّهت فكرك الى الشر والبؤس، وبدأ فهمك كفهم العاجز وبدلت بشاشة وجهك عبوساً. ان الموت قدّر على آبائنا وعلينا. وكما قيل منذ القدم «يعبر الجميع نهر خبر» [2]. وان من استجار بالهة وجد الحماية والطمأنينة. وينال المتواضع الذي يخشى الآلهة الجاه والمال الوفير.

المعذب: فكرك، ياصديقي، منبع لايدرك عمقه، انه البحر المتلاطم الذي لاينضب ودعني اسألك، فاصغ الى ماأقول وتدّبر كلماتي: لقد خذلني التوفيق، وذهبت عني الراحة والطمأنينة. وهنت قواي، وفقدت النعيم والخير، وأظلم وجهي من كثرة بكائي وشكاتي. تضاءلت غلال حقلي، فكيف سأنال السعادة؟

الصديق: تجازي الآلهة الاتقياء الصالحين في نهاية المطاف...

(١): نهر (خبر) اسم نهر عالم الاموات

(٢) حول تفاصيل هذه القصيدة انظر: طه باقر، مقدمة في الادب، ص ١٤٧ - ١٥٠. والمصادر الاجنبية التي ذكرها.

المعذب : دعني اسالك سؤالاً : هل يقدم السبع المفترس الذي يلتهم احسن اللحم قرابين الى الالهة؟ والغني الذي كدّس الاموال هل قدم للالهة الذهب؟ وانا هل انقطعت عن تقديم الصلوات والقرابين الى الهي .

الصديق : اعرف أنك ثابت كالأرض ، وتعلم ان طرق الآلهة وقصدها عسيرة الادراك ، فأن الاسد الذي ضربته مثلاً تنتظره الحفرة التي ستصطاده والغني الذي كدّس الاموال من ادراك انه لن يموت حرقا على يد الملك قبل الاوان؟ فهل تشتهي ان تسير في هذه الطريق؟ كلا فاجدر بك ان تسعى وراء الجزاء الدائم الذي يعدك به آلهك .

المعذب : مااشبه فكرك بالريح الشمالية . انه نسيم عليل للناس . فيا اعز صديق ، دعني اقول لك كلمة واحدة : كثيرون هم الذي لايلتزمون بعبادة الآلهة ولكنهم ساروا في طريق الفلاح ، في حين ان العابدين الاتقياء فقراء معدومون وانا في ايام شبابي كنت اسير وفق ارادة الآلهة ، وتعلقت بالهتي في التضرع والصلاة . ولكني كنت انوء بجر النير في عمل سخرة لانفع منه . لقد كتب عليَّ الهي الفقر بدل الغنى . فالمقعد خير مني والبليد سبقني ، وعلا شأن اللئيم ، اما انا فنزلت الى احط درك .

الصديق : ياصديقي العارف المستقيم ارى ان افكارك قد اعوجت وفسدت ، ونبذت الاستقامة ، وصرت تكفر في خطط الهك وطرقه . بل انك في سّرك صرت لاتتقبل اقدار الآلهة المقدسة . ان خطط الآلهة المحكمة مثل اعماق السماء لايدرك كنهها .

المعذب : يستمر في التمادي بشكوكه حتى يبلغ فيها درجة الكفر فيقول من بين ما يقول : «لن انصاع لاوامر الآلهة ، وسوف ادوس بقدمي على شعائرها وساهرب الى اماكن بعيدة واشحذ من بيت الى بيت ...» .

وهكذا يستمر هذا الحوار الطريف بين المعذب المتشكك وبين صديقة المتدين الذي حاول عبثاً تبرير العدل الآلهي له . (١)

---

(١) حول ترجمة هذه القصيدة انظر طه باقر ، مقدمة في الادب ص ١٥٠–١٥٣ . انظر كذلك حول هذا الصنف من الادب : Lambert, W.G., Babylonian Wisdom Literature, London, 1960

كذلك فاضل عبدالواحد ، الادب في حضارة العراق ، ج١ ، ص ٣٧٣–٣٨٩ .

ومن القصائد البابلية الاخرى التي تدور حول مواضيع مشابهة ماعرف لدى البابلين باسم «الحوار بين سيد وعبد»، وهي ايضاً من صنف ادب السخرية والتشكك او التشاؤم.[1]

٤ – ادب المناظرة والمفاخرة

من ضروب الادب الاخرى التي وصلتنا مدونة باللغة السومرية او الاكدية مايمكن تسميته بانه «ادب مناظرة» او «ادب مفاخرة». ويعني المصطلح السومري المستخدم للدلالة على هذا الصنف من الادب «حوار مابين رجلين»او «مناظرة بين متكلمين» وتتضمن النماذج المكتشفة من هذا الصنف من الادب مناظرات بين متفاخرين اثنين او متضادين، يعرض كل منها فضائله ومنافعه ومفنداً اقوال منافسه ومعرضاً بنقائصه وقد وردتنا حتى الان عدة مناظرات من هذا النوع منها سومرية ومنها اكدية، ومن المناظرات السومرية المناظرة بين الصيف والشتاء ومابين الراعي والفلاح ومابين الطير والسمك ومابين المحراث والفأس ومابين الفضة والبرونز. اما المناظرات المدونة باللغة الاكدية فمنها المناظرة مابين النخلة وشجرة الاثل ومابين الشعير والقمح ومابين الثور والحصان ومابين النسر والحية ومابين الكلب والذئب وغيرها.

وربما كانت مثل هذه التآليف قد نشأت من اجل تلاوتها في البلاط الملكي وتسلية الملك وافراد اسرته وقت الاحتفالات والاعياد، وربما قام الملك بدور الاله الحكم الذي كان يحتكم اليه المتناظرون. وبصورة عامة، فان كل مناظرة تبدأ بمقدمة اسطورية عن اصل الموضوع المتنازع عليه، وتقديم المتناظرين في بيان مكانة كل منها واهميته في نظام الكون والاشياء، ثم موضوع المفاخرة بعرض اقوال كل من المتناظرين وجواب احدهما للآخر، اذ يبين كل منها فضائله ومنافعه للناس مفنداً اقوال منافسة. وتنتهي المناظرة عادة بذهاب المتخاصمين الى احد الآلهة للاحتكام اليه حيث يستمع الى ادعاء كل منها ويصدر حكمه في صالح احدهما، وهو حكم نهائي يتقبله المتناظران عن طيب خاطر، فتتم المصالحة مابينها واعادة الصفاء اليها.[2]

وفيما يأتي مقتطفات من المناظرة مابين الصيف والشتاء. فبعد المقدمة الاسطورية عن خلق الصيف والشتاء واسم كل منها واعمال ووظائف كل منها وواجباته ووصفها بالاخوين،

(١) طه باقر، مقدمة في الادب، ص ١٥٣–١٥٧.

(٢) طه باقر، مقدمة في الادب، ص ١٦٤–١٦٥.

دبّت الغيرة بينهما والتحاسد وصار كل منهما يتجنب الآخر وكأنه عدو له. ولما نفذ صبر الشتاء، بادل اخاه الصيف العداء وصار يفاخره ويعدد ميزاته عليه مثل قوله:

«عندما يرتدي الملك ابي–سين حلته الاحتفالية وجبّته الملكية ليقوم بشعائر الآلهة... وتعزف القيثارة في بيت الحياة... فأنا الذي يهيّئ لهذه الاحتفالات الزبد والدهن» فيجيبه الصيف: «ياأخي الشتاء، في زمنك تتجمع الغيوم الدكناء، وتصطك اسنان الناس وهم في داخل منازلهم في المدن، ولا يجرؤ احدهم ان يخرج الى الطريق حتى في منتصف النهار». واخيراً يحتكم المتخاصمان الى الاله انليل ويعرض عليه كل منهما مزاياه ومنافعه، فيصدر حكمه على الوجه الآتي:

«اجاب انليل الصيف والشتاء قائلاً: يسيطر الشتاء على المياه التي تجلب الحياة الى الارض، وهو فلاح الآلهة الذي يكدس الغلال. فيابنيَّ الصيف كيف تقرن نفسك باخيك الشتاء!»..

وهكذا يحكم انليل للشتاء ويتقبل المتناظران حكومته ويتصالحان ويتصافيان ويخضع الصيف للشتاء ويقدم له الهدايا.

ومن المناظرات البابلية المناظرة او المفاخرة بين النخلة وشجرة الاثل، وتبدأ المناظرة كالعادة بمقدمة اسطورية قصيرة عن الظروف التي نشأت فيها المنافسة بين الشجرتين، وخلاصتها ان الملك غرس النخلة ومعها شجرة الاثل في قصره. ولما ان نمت الشجرتان اقيمت مرة وليمة في ظل شجرة الاثل، واذ ذاك بدأت المفاخرة مابين الشجرتين، وكان مما جاء فيها ان النخلة قالت لشجرة الاثل: «ياشجرة الاثل انت من الاشجار التي لانفع منها. فما فائدة اعضائك؟ انها خشب لايثمر. وها هو البستاني يجزل الثناء عليّ، فان فيَّ الخير والنفع للعبد والسيد على السواء» فاجابتها شجرة الاثل معيّرة اياها بعدم صلاح خشبها:

«تاملي في اثاث القصر، وعددي الاخشاب التي اخذت مني لصنعها، فالملك يتناول طعامه من على منضدتي، وتشرب الملكة من الكأس المصنوعة من خشبي».

ومما يؤسف له ان القسم الاخير من المناظرة وهو الاحتكام الى احد الآلهة مخروم. ويبدو ان النخلة قد ربحت المناظرة لانها نالت مكانة كبيرة في مآثر حضارة وادي الرافدين. وفي حياة القوم الاقتصادية.[1]

---

(١) انظر: طه باقر، مقدمة في الأدب، ص ١٦٥–١٦٦.

٥- أدب السخرية والهزل

عرف العراقيون القدماء ادب السخرية والهزل، الا ان طبيعة هذا الادب واستخدام مؤلفيه التعبيرات اللغوية الدقيقة والتي تنطوي عليها الفكاهة والسخرية عادة حالت دون تعرفنا على الكثير من نصوصه، ومع ذلك امكن تشخيص عدد محدد من النصوص الادبية التي يمكن عدها من هذا الصنف من اصناف ادب العراق القديم. ودراسة هذا العدد المحدود من النصوص يشير الى شبهها الكبير بقصص كليلة ودمنة والف ليلة وليلة وغيرها ومن نماذج هذا الصنف من الادب:

- وقفت مرة بعوضة على ظهر فيل وهو يمشي فقالت له: «هل اثقلت عليك ياأخي؟ فان كنت فعلت ذلك فانني سانزل عند بلوغنا مورد الماء». فاجابها الفيل: «من انت؟ لم احس انك كنت فوق ظهري ولن اعرف عندما ستنزلين».
- بال ثعلب مرة في البحر، فنظر الى البحر وقال متعجباً متباهياً «اكلُّ هذا البحر من بولي؟».
- ابصر احد الكهنة اسداً في البادية وهو في طريق عودته الى المدينة فملكة الرعب والهلع، ولما نجا من الاسد وبلغ المدينة رأى عند بابها تمثال اسد رابض فهجم عليه ولطمه على وجهه قائلا: ماذا كان يفعل اخوك في البادية؟».
- اسرَّ الحصان في اذن انثى الحمار وهو يقول: عساك ان تلدي مهراً عَداء مثلي، فلا تجعليه كالحمار الذي ينوء بحمل الاثقال».

الا ان اكثر النصوص الادبية ذات الطابع الهزلي شهرة هو ماعرف بقصة فقير نفر، وهي اطول قصة هزلية معروفة حيث ضمت ١٦٠ بيتا من الشعر وملخص القصة ان احد فقراء مدينة نفر، وهو جميل -ننورتا، كان فقيراً الى درجة انه باع كل ماعنده واشترى عنزة ليذبحها ويأكل لحمها، ولكنه عدل عن ذلك واعتزم تقديمها هدية الى الحاكم علّه يحصل على جائزة منه. وهكذا دخل على الحاكم مسروراً وهو يمسك برقبة عنزته بيده اليسرى وحيّاه باليمنى ودعا له بالخير وقدّم له العنزة. ولكن يالخيبة فقير نفر اذ فاجأه الحاكم بالنهر والغضب وقال له «اتجرؤ ياهذا ان تقدم لي رشوة!» وعبثاً حاول الفقير شرح بؤس حاله للحاكم الذي اكتفى بطرده متهكما بان نصيبه من العنزة عظاما وسقاه جعة رديئة، وطرد من قصر الحاكم، فقال وهو خارج من البوابة للبواب: «قل لسيدك مقابل مافعلته لي سأوفيك ثلاث مرات». ولما بلغ الحاكم قول جميل- ننورتا ظل يضحك طوال نهاره. اما جميل -ننورتا فانه قصد من بعد ذلك قصر الملك، ولما مثل امامه حياه وقال: «ياسيدي،

بامصدر قوة الرعية ويامن تمجده الملائكة الحارسة، استعطفك ان تأمر بان يعطوني عربة واحدة وأذن لي ان افعل ما اتمنى طوال يوم واحد، وسادفع مناً واحداً من الذهب مقابل ذلك». وبدون ان يسأله الملك عن امنيته وعن الاجرة مقدماً امر بتجهيزه بالعربة من الصنف الذي يستعمله الوجهاء والامراء كما امر له بكسوة فاخرة. وركب جميل ننورتا في العربة وقصد حاكم نفر وخرج هذا الحاكم بنفسه يستقبله ويرحب به وسأله عن هويته فاجابه ان الملك سيده ارسله اليه وانه جلب معه ذهباً الى المعبد فاكرمه الحاكم وذبح له ذبيحة غالية. وبعد الانتهاء من الطعام تعب الحاكم من السهر، ولكن جميل- ننورتا ظل يحادثه ولما غلبه النعاس قام في سكون الليل ومزق ثيابه وفتح الصندوق وصرخ بالحاكم ان يستيقظ فقد وجد الصندوق مفتوحاً وسرق الذهب منه، واتبع قوله بان هجم على الحاكم يكيل له الضربات فاستعطفه الحاكم الا يقضي عليه، وعوّضه عن الذهب الذي ادعى انه سرق مرتين، واعطاه بدلاً من ثيابه الممزقة كسوة فاخرة. وعندما خرج من باب القصر قال للبواب: «قل لسيدك انني استوفيت منه حقي دفعة واحدة، وبقي لي عنده قسطان» ولما بلغ الحاكم ذلك ظل يضحك طوال النهار.

ثم تزيا جميل -ننورتا بزي طبيب وحلق شعر رأسه واصطحب معه عدة الاطباء الخاصة وقصد قصر الحاكم واخبر البواب انه طبيب ماهر من مدينة ايسن، وانه متمرس بشفاء جميع الامراض، لما احضر جميل- ننورتا امام الحاكم كشف له هذا عن الكدمات في جسمه فقال له الطبيب الدعي انه لايستطيع ان يطبّبه الا في مكان منعزل مظلم. وهكذا انفرد به في غرفة مظلمة واوثقه وربطه من خمسة اوتاد ثبتها في الارض، وانهال عليه بالضرب المبرح، ثم تركه وخرج من باب القصر وقال للبواب: «ليبارك الله سيدك قل له انني استوفيت من ديني قسطين وبقي لي عنده قسط واحد».

على ان جميل ننورتا خاف في المرة الثالثة ان يظهر بنفسه فاستأجر رجلاً واوصاه ان يقصد باب الحاكم وينادي باعلى صوته: « انا صاحب العنزة الذي طرد من باب الحاكم». اما جميل -نننورتا فانه اختبأ تحت قنطرة، ولما سمع الحاكم صراخ الرجل خرج ومعه جميع اتباعه وحتى نساء قصره يطاردون الرجل وتخلف الحاكم عن المطاردين بسبب آلآم جسمه، وعندئذ فاجأه جميل- ننورتا من مخبأه تحت القنطرة وانقض عليه بالضرب المبرح وقال له«لقد استوفيت منك حقي ثلاث مرات» ونقل الحاكم مغشياً عليه وهو بين الموت والحياة. وتنتهي القصة بالتذييل الآتي وفيه اسم كاتب القصة وتاريخها: «اكتب ودقق

وفق النسخة الاصلية بخط نبو – رخنو – اوصر الناسخ المساعد وعضو مجمع بنو – اخا
–ادن، امين القصر..في ٢١ آذار، لمّو حاكم مدينة تل –بارسب»[1].

وواضح من هذه القصة شبهها الكبير بقصة وردت في الف ليلة وليلة مما يشير الى ان الاجيال ربما تناقلت مثل هذه القصص فكتبت في اوقات مختلفة حيث تتطابق احياناً مع ما هو معروف من هذا النوع من القصص.

٦– أدب الغزل

تقتصر معلوماتنا عن ادب الغزل بما وردنا من نصوص ذات علاقة بالزواج المقدس، وهو الزواج الذي كانت تتم طقوسه ومراسيمه الدينية سنوياً في اعياد رأس السنة حيث كان يمثل زواج الأله تموز بالالهة عشتار بهدف زيادة خصوبة البلاد وبركتها وكان يمثل الاله تموز الملك نفسه او احد كبار الكهنة في حين كانت الكاهنة العليا او احدى الكاهنات تتقمص شخصية الآلهة. وقد وردتنا نصوص بالاكدية تذكر التراتيم والاغاني التي كانت ترددها العروس مظهرة حبّها وهيامها وشوقها للعريس منها:

«ايها العريس الذي يعشقه قلبي ويهواه
ما الذ وصالك، فهو حلو كالشهد
دعني اقبلك ياعريس، فقبلاتي احلى من الشهد».

اضافة الى ذلك، وردتنا قصائد عدة غزلية تتعلق بالزواج المقدس واخرى خاصة بالغزل بالملك شو–سين او غيره من الملوك وهي ايضا ذات علاقة بالزواج المقدس.

٧– ادب الصلوات والتراتيل والادعية

وهو صنف آخر من اصناف النصوص الادبية والتي تم العثور على نماذج كثيرة منها. وتعد بعض الادعية والصلوات من اروع ما وصلنا من النتاج الادبي الشعري وتبدأ الصلوات بالابتهال الى احد الآلهة وتمجيده ومن ثم تذكر توسلات المصلّي وشكواه واخيراً يذكر المديح والثناء للآلهة. وبعض التراتيل الدينية من هذا النوع تتضمن اكثر من ٢٠٠ بيت من الشعر. والى جانب الصلوات والتراتيل والادعية هناك نصوص الرقى والتعاويذ التي كانت تنظم لطرد الارواح الشريرة المؤذية، والشياطين التي كانت في ظنهم تسبب الأمراض كما كان يقصد منها ايضا ابطال اثر السحر والسحرة.

(١) طه باقر، مقدمة في الادب ص ١٨٢–١٨٦.

أدب الرثاء

عرف العراقيون القدماء ايضا ادب الرثاء الا انه كان مقصوراً، حسبما لدينا من معلومات، على رثاء المدن والسلالات الحاكمة وانهيارها مثل رثاء تدمير مدينة اور في نهاية عصر سلالة اور الثالثة (حدود ٢٠٠٦ ق.م) ورثاء بلاد سومر واكد على ايدي العيلاميين وهي مؤلفة من اكثر من ٥٠٠ بيت شعر خصصت لرثاء بلاد سومر واكد. وهناك قصيدة ثالثة سميت بلعنة اكد، وهي الاخرى باللغة السومرية ترثي نهاية مدينة اكد وتدميرها على ايدي الاقوام الكوتية. وقد نسب كاتب القصيدة تدمير المدينة على ايدي البرابرة الكوتيين الى غضب الآلهة على الملك الاكدي نرام- سين بسبب تحديه للاله انليل وتدميره مدينة نفر ونهبه معبدها وانتهاكه حرماتها فسلّطت عليه الآلهة هذه الاقوام الهمجية التي قضت عليه وعلى مملكته.

اضافة الى هذه الاصناف من الادب العراقي القديم، هناك نصوص اخرى كثيرة جاءت باسلوب ادبي رفيع وان كانت مواضيعها مختلفة، كالنصوص الملكية مثلاً والقوانين التي جاءت بعضها، مثل مقدمة وخاتمة قانون حمورابي، باسلوب ادبي رفيع اقرب الى الشعر، وغيرها من النصوص[1].

(١) لقد اعتمدنا كتاب الاستاذ طه باقر عن الادب في العراق القديم في تقديم ملخص كل صنف من اصناف الادب وللمزيد يراجع الكتاب نفسه.

مصادر منتخبة

الاحمد، سامي سعيد: اللغات الجزرية، بغداد، ١٩٨١.

الاعظمي، خالد: صوت العين وكتابته في اللغة البابلية – الآشورية، سومر، ١٩ (١٩٦٣)، ١٧١ – ١٩٢.

باقر، طه: مقدمة في ادب العراق القديم، بغداد، ١٩٧٦ : ملحمة جلجامش وقصص اخرى، بغداد، ١٩٨٠ : من تراثنا اللغوي القديم، بغداد، ١٩٨٠.

بهنام، بولص: احيقار الحكيم، بغداد، ١٩٧٦.

حجازي، محمود: علم اللغة العربية، الكويت، ١٩٧٣.

دوبلهوفر، ارنست: رموز ومعجزات، بريطانيا، ١٩٥٧ ترجمة عماد حاتم.

رشيد، فوزي: قواعد اللغة السومرية، بغداد، ١٩٧٢.

سليمان، عامر: الكتابة المسمارية والحرف العربي، موصل ١٩٨٢ : التراث اللغوي، في: حضارة العراق، ج ١، بغداد، ١٩٨٥، ص ٢٧٣ – ٣١٨ : اللغة والكتابة في موسوعة الموصل الحضارية، ج ١، ١٩٩١، ٣٣٧ – ٣٧٣ : اللغة الاكدية، موصل، ١٩٩١.

علي، فاضل عبدالواحد: من ادب الفكاهة والهزل، سومر، ٢٦ (١٩٧٠)، ص ٨٧ – ١٠٠ الخط المسماري واللغة الاكدية، مجلة كلية الآداب، ٣٢ (١٩٨٢) ص ١٨٢ – ٢٠٤ الأدب في: حضارة العراق، ج ٢، ص ٣١٩ – ٣٨٦. الكتابة واللغة والأدب، في: العراق في موكب الحضارة، ج ١، ١٧٩ – ٢٠١.

الفؤادي، عبدالهادي: دور الثقافة في العراق القديم، بغداد، ١٩٦١، رسالة غير منشورة، بحث في الامثال العراقية، سومر ٢٩ (١٩٧٣) ٨٣ – ١٠٦ ٣٠ (١٩٧٤) ٢٧ – ٤٦.

لوكاس، كرستوفر: حضارة الرقم الطينية وسياسة التربية والتعليم في العراق القديم، ترجمة يوسف عبدالمسيح ثروة، بغداد، ١٩٨٠.

النجار، عبدالحليم: دراسة مقارنة بين الاكدية والعربية، مجلة كلية الآداب، ١ (١٩٥٩)، بغداد، ٨٠ – ٩٩.

وافي، علي عبدالواحد: فقه اللغة وعلم اللغة، ط ٥، القاهرة، ١٩٦٢.

الفصل التاسع

العلوم والمعارف

تمثل علوم الانسان ومعارفه حصيلة ماتوصل اليه عبر العصور المتتالية من ممارسات وتطبيقات عملية وما حمله من افكار في مختلف مجالات الحياة ونشاطاتها من خلال تجاربه الكثيرة ومحاولاته المتعددة لتطوير تلك الممارسات والتطبيقات. ومن المؤكد ان بدايات تجارب الانسان ونشاطاته للتغلب على البيئة التي عاش فيها تمتد بجذورها الى ابعد العصور القديمة، فقد خلق الانسان وهو محاط بالمخاطر والتحديات التي هددت حياته فكان عليه ان يعمل جاهدا ويحاول ان يدرأ عنه الاخطار ويواجه التحديات من اجل السيطرة على البيئة وتسخيرها لخدمته. وارض الرافدين، وبصورة خاصة القسم الجنوبي منها، اتسمت بقسوة طبيعتها وجسامة تحدياتها وتنوع اخطارها فكان صراع الانسان معها عنيفا وتفاعله مع الطبيعة ومواجهته تحدياتها واخطارها قويا، وقد نتج عن كل ذلك علوم ومعارف كثيرة كانت الاساس الذي قامت عليه حضارة الانسان الاصيلة التي نشأت ونمت وتبلورت في هذا الجزء من العراق قبل غيره، وفي هذا القطر قبل غيره من الاقطار.

وقد اعتمد الانسان في عصور ما قبل التاريخ التي عاش فيها القسم الاعظم من حياته على الارض على تجارب سلفه المباشر وافاد مما انتقل اليه من معارف وتجارب تمثلت بممارساته الفعلية وتطبيقاته العملية، وعمل على تطويرها وتهذيبها وتقويمها. ومنذ ان ابتكر الانسان الكتابة وبدأ يدون حصيلة تجاربه على هيئة ممارسات وتطبيقات عملية، ازدادت سرعة تطور تلك الممارسات وغدت فائدة الانسان من تجارب من سبقه كبيرة بفضل ما وصل اليه منها مدونا والتي قد تعود الى اجيال عديدة قبله. وبتراكم الخبرات والممارسات، تبلورت معارف الانسان ووضعت اسس العلوم وكانت حقاً الاسس التي قامت عليها معارف وعلوم بقية الامم.

وفي الفصول السابقة استعرضنا بعض جوانب معارف الانسان في الزراعة والتجارة وفي الصناعة والادارة والسياسة وفي تنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية وتطرقنا الى افكاره ومعتقداته ومعارفه اللغوية وغيرها، ومع ذلك، هناك المزيد من العلوم والمعارف الاخرى التي تبلورت ونضجت عند العراقيين القدماء في العصور التاريخية سنحاول الاشارة اليها بشكل موجز في هذا الفصل.

تدوين التاريخ

تحدثنا في احد فصول الجزء الاول من هذا الكتاب وبشيء من التفصيل عن تدوين التاريخ عند العراقيين القدماء وما كان لديهم من حس تاريخي وبينا ان مدوناتهم التاريخية التي يرقى بعضها الى أواسط الالف الثالث قبل الميلاد، اي الى تاريخ يسبق كتابات هيرودوتس الشهير بما يقرب من آلفي سنة، تعد اقدم المدونات التاريخية المعروفة حتى الان. ومن المؤكد ان العراقيين القدماء كانوا يتناقلون الاخبار والحوادث شفاها من قبل ان يبتدعوا الكتابة في اواسط الالف الرابع قبل الميلاد، وهكذا انتقلت كثير من القصص والاساطير والملاحم التي تغنى بها الناس وبابطالها ومجّدوا فيها اولئك الابطال الى درجة وصل بعضهم الى درجة التأليه. ثم كانت الكتابة وكان استخدامها لتدوين الاخبار والاحداث وذلك منذ الالف الثالث قبل الميلاد، اي بعد ان شاع استخدامها فدونت القصص والاساطير الدينية بما فيها من مبالغات وخيال، كما ابتدع القوم طرقا اخرى لتخليد اعمال ملوكهم وابطالهم ومآثرهم وذلك من خلال تدوين النصوص التذكارية التي كانت توضع في اسس الابنية او نحت النصب والتماثيل تخليدا للانتصارات وتدوين اخبار تلك الانتصارات عليها او تسمية السنة بأهم الحوادث وغيرها من المدونات التاريخية التي تؤكد بانه كان لدى العراقيين القدماء حس تاريخي وان كانت لاتنطبق على مدوناتهم التاريخية قواعد التدوين التاريخي المتعارف عليها الان. وكان للحكام والملوك والكهنة دور كبير في المدونات التاريخية حيث ان معظم ان لم يكن جميع مالدينا من مدونات تاريخية كان قد دون تنفيذا لرغبات الحكام او الملوك او من قبل الكهنة انفسهم لغايات دينية او اعلامية، لذا جاءت النصوص الملكية بصورة عامة مليئة بالمبالغات وتضخيم الانتصارات والانجازات التي حققها الملوك في حين كانت غفل من اي خسارة او انكسار واجهها الملك في حياته مهما كانت طويلة ومزدحمة بالاحداث.

وتعد جداول الملوك السومريين والبابليين والآشوريين من اهم واقدم المدونات التاريخية وتليها بعض النصوص التاريخية التي جاءتنا من الالف الثالث قبل الميلاد، مثل نص الملك انتمينا الذي يتحدث عن العلاقات العدائية بين مدينة لجش ومدينة اوما ويذكر المعاهدة التي عقدت بينهما، الى جانب تقاويم السنين التي كانت تؤرخ اهم الاحداث بشكل غير مباشر حيث كانت الغاية منها تسمية السنين وليس تاريخ الاحداث كما كان للكتابات الملكية والتذكارية ولوثيقة التاريخ التعاصري وغيرها من المدونات التاريخية التي شرحناها بالتفصيل في الجزء الاول من هذا الكتاب، اهميتها في دراسة تاريخ العراق القديم على الرغم مما فيها من سلبيات ومايكتنفها من غموض ويحيط بها من مبالغات، ويبقى على المؤرخ الحديث ان يستنبط منها المعلومات الصحيحة بعد ان يخضعها للنقد والتحليل ويقارن ما ورد فيها مع مالدينا من معلومات تاريخية مستمدة من مصادر اخرى لاسيما الآثار المادية [1].

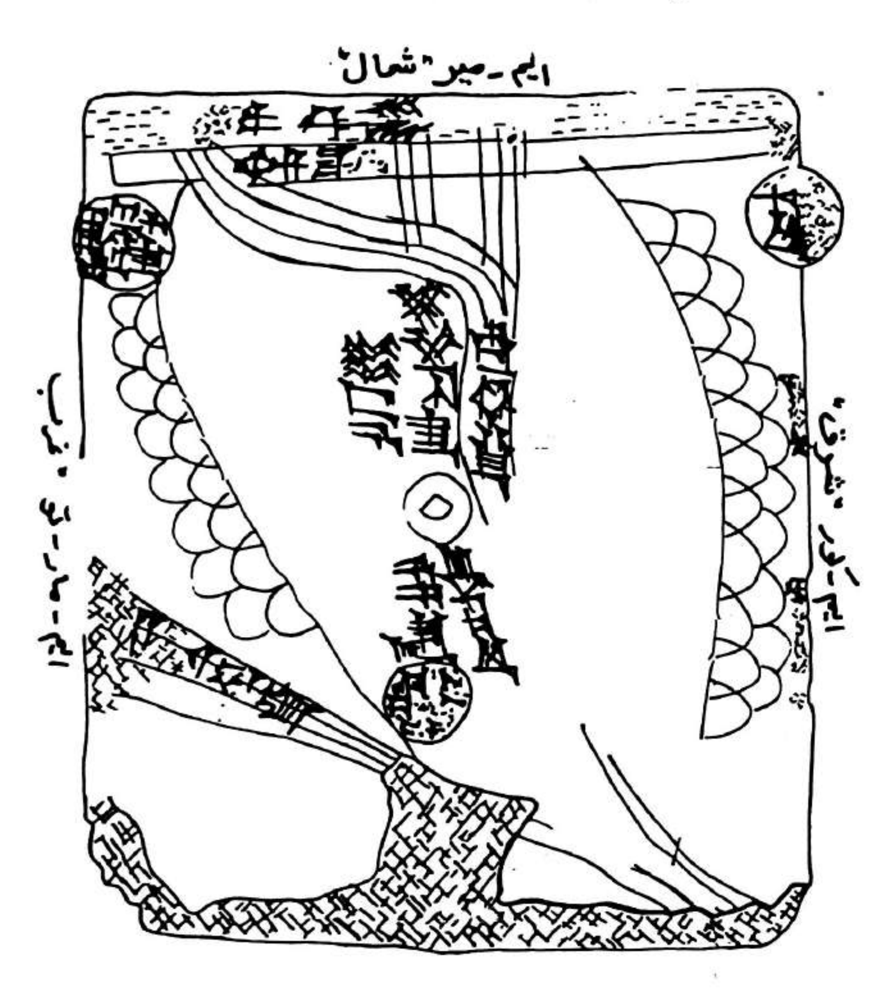
الجغرافية

تؤكد النصوص المسمارية المكتشفة ان العراقيين القدماء اهتموا بتدوين بعض معارفهم الجغرافية ولكن باسلوبهم الخاص، فرسموا خرائط للمدن والاراضي، وحددوا الابعاد والاتجاهات الاربعة وثبتوا اسماء المدن والبحار والانهار والى غير ذلك من المعلومات التي تقع ضمن حقل الجغرافية. ومما تجدر الاشارة اليه هنا ان المعلومات الجغرافية تعد معلومات اكثر صدقا ودقة من غيرها من المعلومات التي ذكرت في النصوص حيث انها لاتتحمل المبالغة او الخيال الا بقدر محدود جداً وانها تعكس تصور العراقيين القدماء آنذاك حول مواقع المدن ومراكزها بالنسبة لبعضها البعض وبالنسبة الى الانهار والبحار والجبال وتثبت المسافات وبعض الحقائق الاخرى ذات العلاقة ولم تكن تهدف باي حال من الاحوال الى الاعلام.

وقد وردتنا نصوص مسمارية ضمّت اسماء الانهار والبحار والجبال والصحاري والاهوار وغيرها من التضاريس التي ميزت بلاد بابل وآشور والبلدان الاخرى التي كانت على صلة بالدول والممالك التي قامت في العراق سواء عن طريق الحرب او السلم. ولم يكتف الكتبة القدماء بذلك بل نجدهم احياناً قد رسموا الخرائط ونحتوا المشاهد لتوضيح التضاريس وبيان مواقعها. ومن الخرائط التي صورت لنا التضاريس خارطة منقوشة على لوح طيني عثر

(١) راجع الفصل الثاني من الجزء الاول من هذا الكتاب حول تفصيل ذلك.

عليها في نوزي قرب كركوك الحالية تظهر عليها الجبال والانهار والطرق الرئيسة وبعض المدن واسوارها ، كما حددت عليها الاتجاهات الاربعة :



خارطة رقم (١) حضارة العراق

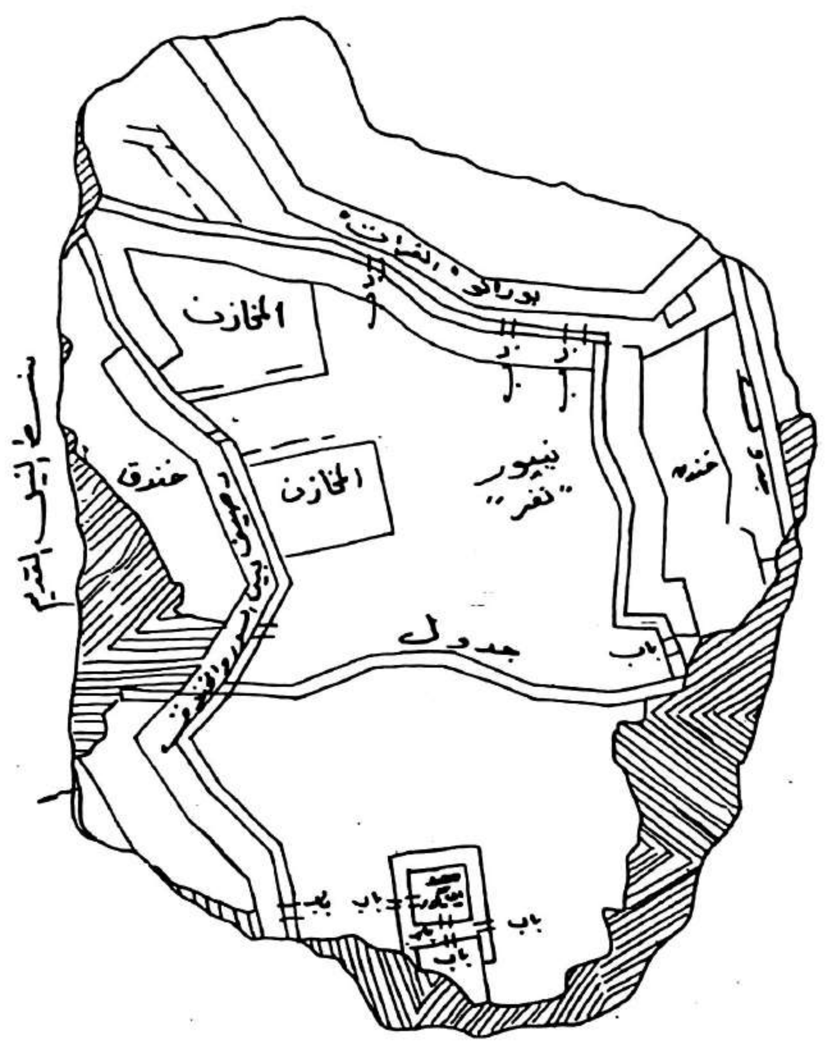
كما صورت مشاهد الجبال والانهار والبحار ايضا على المسلات التذكارية ، مثل مسلة نرام- سين والمنحوتات الجدارية التي كانت تغلف جدران القصور الآشورية وتحمل مشاهد من المعارك العسكرية التي خاضها الجيش الآشوري في مختلف المناطق الجبلية والسهلية.

كما دوّن لنا القدماء قوائم باسماء المدن والقرى التي تقع على الطرق المائية او البرية الموصلة بين مدينتين معينتين، والمسافة التي تفصل بين مدينة واخرى مقدرة بالساعات البابلية ، اي بالبيرو، والبيرو ساعة زمنية تساوي ضعف ساعتنا الحالية. وتوضح ذلك النصوص التي دونت فيها فتوحات الملوك البارزين وحملاتهم العسكرية مثل سرجون الاكدي. وقد ذكرت في اخبار حملاته العسكرية اسماء البلدان والاقاليم والمدن التي وصلها الجيش الاكدي والطرق التي سلكها للوصول اليها والمدن التي مر بها في طريقه اليها. كما ذكرت المسافات التي تفصل بين مدينة واخرى مقدّرة بالبيرو.

وقد تصور البابليون ان بابل وآشور تقع في مركز العالم القديم الذي تصوروه على هيئة دائرة تحيط ببلاد بابل وآشور وتحيط بها الجبال من الشمال والاهوار من الجنوب، كما رسمت اشارات تدل على الطرق والجزر المحيطة بالدائرة وكما هو موضح في الخارطة.



وبخصوص تخطيط المدن، فلقد اهتم العراقيون القدماء ببناء المدن منذ عصور ماقبل التاريخ، وقد تم العثور على خرائط خاصة ببعض المدن ترقى بتاريخها الى العصر البابلي القديم منها خارطة الجزء الشرقي من مدينة نفر القديمة، وتعد من اقدم واروع الخرائط المكتشفة وهي محفوظة الان في متحـــف جامعة ينا في المانيا. ويظهر على الخارطة اسم مدينة نفر واسم نهر الفرات واسماء القنوات والجداول التي تمر بها اضافة الى بعض المعالم الرئيسة فيها مثل معبد اي- كور والمخازن والسور والبوابات والخنادق المحيطة بالسور وغيرها وكما هو موضح في الخارطة.



اما بالنسبة للمعلومات الخاصة بالمناخ والمواسم وغيرها، فقد اشير اليها وبشكل عرضي في بعض النصوص الخاصة بالزراعة والفلاحة ولاسيما النص الذي عرف بتقويم الفلاح الذي يتحدث عن مواعيد الزراعة والفلاحة والحصاد ومواسمها وجاء على شكل نصائح يقدمها اب الى ابنه.

الرياضيات

لم يقتصر نتاج العراقيين القدماء الفكري على العلوم الانسانية، كاللغة والادب والجغرافية والتاريخ وغيرها من العلوم الانسانية بل تعدّاه الى العلوم الصرفة، او البحتة، كالرياضيات والفلك. ومع ان الرياضيات هي من العلوم الصرفة المجرّدة الا انها كانت في بداياتها من المعارف التجريبية او التطبيقية استوجبتها التطورات الحضارية ذات العلاقة بمشاريع الري وبناء السدود وبالاراضي وضبط مساحاتها وبالزراعة وضبط مواسمها والى غير ذلك من الجوانب الاقتصادية، فكان ان خطت الرياضيات خطوات سريعة وواسعة نحو الابداع، فتم اكتشاف مجموعة من الحقائق العلمية المجردة التي غدت اساساً لعلم الرياضيات فيما بعد.

ظلت معلوماتنا عن مدى ماقطعه العراقيون القدماء في مجال الرياضيات محدودة جداً حتى نهاية العشرينيّات من هذا القرن على الرغم من كثرة ما اكتشف من نصوص مسمارية. فالمعروف ان النصوص الرياضية تميزت بصعوبة قراءتها البالغة والتعرف على دلالات العلامات المسمارية المستخدمة فيها وضرورة معرفة القارئ التفصيلية بعلم الرياضيات الى جانب قلّة عدد النصوص الرياضية المكتشفة من التي امكن التعرف عليها حتى الان والتي لايتجاوز عددها باي حال من الاحوال خمسمائة نص مسماري. ومنذ عام ١٩٣٠ بدأت معرفتنا بالرياضيات البابلية تزداد تدريجيا وباطراد بفضل جهود عدد من الباحثين الذين اهتموا بهذا النوع من النصوص بل واختصوا بدراستها وتحليلها والتعرف على مضامينها لاسيا وقد كان لهم معرفة مسبّقة بعلم الرياضيات[1]. وكان من نتائج جهود اولئك الباحثين ومن جاء بعدهم واكمل دراستهم ان اصبح من المؤكد الان ان كثيراً من المنجزات والنظريات الرياضية التي كانت تنسب خطأً وحتى وقت قريب الى الاغريق او غيرهم، تمتد بجذورها واصولها الاولى الى ما كان معروفاً من تطبيقات وممارسات عملية في بلاد بابل منذ مطلع الالف الثاني قبل الميلاد، اي منذ بداية العصر البابلي القديم، ومن ذلك علم الجبر نفسه الذي نسب ابتكاره الى احد العلماء الاغريق من القرن الثالث الميلادي في حين تبين بان اصوله ترجع الى العصر البابلي القديم (٢٠٠٠-١٦٠٠ ق.م) حيث كان البابليون قد اكتشفوا مبادئ واسساً مهمة في هذا الحقل واهتموا به الى درجة انهم حلّوا بعض القضايا الهندسية باستخدام خصائص الاشكال بطرق جبرية ويعد ذلك من اقدم المحاولات في الجمع مابين الشكل، اي الهندسة، والعدد، اي الجبر، وهذا ما يميز الرياضيات الحديثة. ومايقال عن الجبر ينطبق على بعض النظريات الهندسية التي كانت تنسب الى العلماء الاغريق، مثل نظرية فيثاغورس الخاصة بمساحة المثلثات المقامة على ضلعي ووتر المثلث والعلاقة بينها والمعروفة باسم فيثاغورس من القرن السادس قبل الميلاد حيث اتضح ان احد الرقم الطينية المكتشفة في تل حرمل القريب من مدينة بغداد والذي ترقى اثاره الى العصر البابلي القديم يحمل قضية مشابهة تدل على معرفة البابليين بها.

وكان الباحثون يظنون ان الرياضيات ازدهرت في العراق القديم في عصرين رئيسين هما العصر البابلي القديم (حدود ٢٠٠٠-١٦٠٠ق.م) ومدة السيطرة السلوقية على بلاد

(١) كان من اول الباحثين الاوربيين الذين اولوا اهتماما خاصاً بالنصوص الرياضية الباحث الفرنسي Thureau-Dangin ثم تبعه الباحث الالماني Neugbauer والباحثين الانكليز Sachs و Bruins و Saggs واخيرا الباحث السويدي Friberg كما اسهم استاذنا المرحوم طه باقر مساهمة جادة في هذا المجال خاصة بعد ان اكتشف الرقيم الخاص بالنظرية المنسوبة الى فيثاغورس عام ١٩٤٨ ويساهم حاليا د. فاروق الراوي من جامعة بغداد بهذا المجال.

بابل وآشور (٣١١-١٢٩ ق.م) وذلك لان النصوص الرياضية المكتشفة تعود الى هذين العصرين فقط، الا ان احد الباحثين السويد بين مؤخرا ان معارف العراقيين القدماء في مجال الرياضيات تمتد لتشمل كل الالف الثالث قبل الميلاد اي من بداية عصر فجر السلالات مروراً بالعصر الاكدي وحتى نهاية سلالة اور الثالثة حيث كانت تلك المعارف الاساس الذي بنيت عليه رياضيات العصر البابلي القديم، كما كشف عن نصوص رياضية من العصر الآشوري الحديث (٩١١-٦١٢ ق.م) والعصر البابلي الحديث (٦٢٦-٥٣٩ ق.م) التي تسبق بالطبع مدة السيطرة السلوقية.[1]

العدد

يبدو من المؤكد ان العراقيين القدماء كانوا قد اهتدوا الى فكرة العدد من قبل ان يبتكروا طريقة لتدوين الأرقام. وكانت فكرة تجريد العدد عن المعدود، اي تصور الاعداد بمعزل عن الشيء المادي المعدود، هي اول خطوة في نشوء الرياضيات، اي انهم تصوروا العدد «١٠» مثلاً مجرداً ويغض النظر عما اذا كان المقصود عشرة رجال او عشرة اولاد او غير ذلك. ثم اعقب ذلك ابتكار الكتابة وتدوين الأرقام فنشأ الحساب، وتشير الالواح الطينية الاولى التي تحمل علامات كتابية الى ان الهدف الأساس من ابتكار الكتابة كان لحفظ سجلات بواردات واملاك المعبد ومنتجاته، لذلك جاءت اقدم الالواح المدونة وهي تحمل رموزاً للأرقام الى جانب رسوم الأشياء المادية المراد التعبير عنها وذلك لبيان اعداد تلك الاشياء او الحيوانات التي دخلت الى او خرجت من المعبد. وكانت رموز الارقام في بداياتها بسيطة جداً ومنطقية في الوقت نفسه فطبعة نهاية القلم الخشبي او المصنوع من القصب على الطين على شكل دائرة او شكل بيضوي مرة واحدة يعني الرقم واحد، واذا طبعت طبعتان، كان المقصود اثنان وهكذا. اما الرقم عشرة، فكانت الطبعة اكبر حجماً. ومنذ فترة مبكرة ايضاً استعيض عن الطبعات الدائرية او البيضوية بطبعة قلم ذي مقطع مثلث او مستطيل والتي تظهر عادة على شكل خط افقي او عمودي ينتهي بما يشبه المثلث، اي ان الطبعة كانت على هيئة المسمار او الوتد. فاستخدمت كل طبعة عمودية، اي كل مسمار عمودي، للدلالة على الآحاد من الأرقام على النحو الآتي:

(١) انظر فاروق الراوي، العلوم والمعارف، في حضارة العراق، ج٢، ص٢٩٦ - ٢٩٧ الذي يشير الى العالم السويدي فرايبرك Friberg وجهوده في مجال الكشف عن النصوص الرياضية السومرية.

اما بالنسبة للرقم عشرة ، فكان يعبر عنه بطبعة زاوية القلم نحو:

١٠ =   ٢٠ =   ٣٠ =   ٤٠ =   ٥٠ =

واذا اريد التعبير عن رقم مؤلف من آحاد وعشرات وضعت الآحاد الى اليمين والعشرات الى اليسار نحو:

١٢ =   ٢٣ =   ٥٤ =

الا ان الصعوبة والتعقيد يبدآن عند الرقم ٦٠ . فكما هو معروف ان العراقيين القدماء ومنذ العصر السومري المبكر استخدموا نظامين للعد هما النظام العشري والنظام الستيني ، ولايعرف على وجه الدقة ايها سبق الآخر الا ان المعروف ان النظام الستيني استخدم بالدرجة الاولى في الرياضيات والفلك وفي حساب الوقت والموازين والمكاييل . وفحوى النظام العشري اعتماد الرقم عشرة ومضاعفاته اساساً للعد ، وهو النظام نفسه الذي لازال بالاستخدام حتى الآن ويسمى خطأً بالنظام الفرنسي ، وربما كانت نشأة هذا النظام الاولى من استخدام الانسان القديم لأصابع يده العشرة في العد . اما النظام الستيني فقد اعتمد الرقم ٦٠ اساساً واستخدمت مضاعفات واجزاء الستين ، ولا زلنا نستخدم هذا النظام في مجالات محددة كتقسيم الدائرة وحساب الدقائق والثواني ، ويمتاز النظام الستيني بفوائد عملية ومرونة عددية حيث يقبل التحليل الى عوامل كثيرة (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٣٠ ، ٦٠) وبذلك يمكن بواسطته كتابة اجزاء الوحدة الاساسية ، وهي ستين ، بارقام صحيحة ، فإذا اراد الكاتب ان يعبّر عن نصف الوحدة كتب ٣٠ وعن ربع الوحدة كتب ١٥ وعن ثلثها كتب ٢٠ وهكذا في حين لايمكن عمل الشيء نفسه بالنسبة الى العشرة . فالرقم ٦٠ اذن ، وفق النظام الستيني ، هو الوحدة الأساسية في النظام ، لذا كان يعبّر عنها بالعلامة نفسها المستخدمة للدلالة على الواحد ، وهو رقم صحيح وكامل ، وان الاختلاف قد يكون بحجم الرقم او بموقعه في الكتابة . والطريف ان العراقيين القدماء قد جمعوا بين النظامين العشري والستيني واستخدموهما جنباً الى جنب في معظم كتاباتهم . وللتعبير عن الرقم ٦٠ كان يكتب مسمار واحد فقط ، واذا اريد التعبير عن ارقام اعلى كتبت على النحو الآتي :

٦٠ =   ٨٠ = ٢٠ + ٦٠   ٩٣ = ٣ + ٣٠ + ٦٠

واستناداً الى هذا الاسلوب في الكتابة ، كانت المائة تكتب اي ٦٠+ ٤٠=
١٠٠ ، وكانت تكتب كذلك غالباً كما كان بالامكان كتابة الرقم ١٠٠ بعلامة خاصة هي
وتلفظ مي ، وهي كلمة مرادفة للكلمة العربية مائة ، وعلى النحو الآتي :
١ مي+ ٢٠+ ٣= ١٢٣=

اما الرقم ١٠٠٠ ، فحسب النظام العشري كان يكتب ١٠× ١٠٠= ١٠٠٠ الممثلة
بالعلامة والمؤلفة من و ، في حين كان يمثل مربع الرقم ٦٠
اي ٣٦٠٠ بالعلامة

المرتبة العددية

يقصد بالمرتبة العددية Place Value ان قيمة الرقم في مجموعة من الارقام تتوقف على موقعه او مرتبته من تلك الأرقام ، ففي النظام العشري تتوقف قيمة الرقم على مرتبته اهو في مرتبة الآحاد ام العشرات ام المئات ام... الخ وتتضاعف قيمة الرقم عشر مرات كلما انتقل من مرتبة الى اخرى باتجاه اليسار، فالرقم ثلاثة ٣ ، قد يكتب ليعني ثلاثة فقط ، وقد يكتب ليعني ثلاثون او ثلاثماية او ثلاثة آلاف وهكذا من مضاعفات الرقم حسب النظام العشري وذلك استناداً الى موقعه في الرقم الكلي نحو: ٣٣٣٣٣. فهذه الأرقام وان كانت متشابهة الا ان كلاً منها يعني رقم يختلف كثيراً عن الرقم الآخر الواقع الى يمينه او الى يساره. وما يقال عن النظام العشري ينطبق على النظام الستيني ايضاً حيث قد تعني العلامة التي تدل على الستين، وهي ، ستون فقط وقد تعني ٣٦٠ او ٣٦٠٠ او اي من مضاعفات الستين المضروبة بنفسها او بعشرة اضعاف.

وحيث ان العراقيين القدماء لم يعرفوا اسلوب التعبير عن المرتبة الخالية ، اي الصفر، الا في فترة متأخرة نسبياً ، فقد اعتمدوا في التمييز بين مرتبة واخرى على حجم الرقم احياناً ، فإذا كتب الرقم بحجم صغير فإن ذلك يعني ان المقصود من هذا الرقم هو ١ ، واذا كان الحجم كبيراً ، عنى ذلك الرقم ٦٠ وكان ذلك في العصور المبكّرة فقط ويصعب تطبيقه على كل الأرقام ، لذا فقد عمد الكتبة الى وضع الأرقام متباعدة عن بعضها اشارة الى مرتبة كل رقم منها مثلاً يعني ٦٠× ٦٠+ ٥٠+ ٤= ٣٦٥٤. اما اذا كتب الرقم بهذه الصورة فإنه يعني ٦٠× ٦٠+ ٥٠× ٦٠+ ٤=
٦٦٠٤ . وقد استخدمت هذه الطريقة في التمييز بين مرتبة الاعداد في النصوص الرياضية

بالدرجة الاولى في حين استخدمت النصوص الاقتصادية الاعتيادية الأرقام المبسطة ، فالرقم ١٣٥ يكتب عادة [cuneiform] اي ١٠٠ + ٣٠+٥= ١٣٥

٨٣ : [cuneiform] اي ٦٠ + ٢٠ + ٣ = ٨٣

وفي مدة السيطرة السلوقية ، ابتكر العراقيون القدماء اسلوب استخدام الصفر لبيان المرتبة الخالية من الأرقام وتحديد موقع الرقم ، وقد استخدمت علامة مسمارية خاصة لذلك كانت تستعمل بالدرجة الاولى في وسط الاعداد وليس في آخرها وهي العلامة [cuneiform] او [cuneiform]. وانتقلت فكرة نظام العدد هذا الى اليونان الذين احدثوا فيه بعض التطوير ومنهم انتقلت الفكرة الى الهند ثم عادت الينا ثانية عن طريقهم حيث استخدمها العرب المسلمون ومنهم انتقلت الى بلاد الغرب ، الى اوربا ، مع بقية الأرقام التي كان يستخدمها العرب ، وظلت الأرقام العربية تحتفظ بنسبها حتى الآن في اللغات الاوربية حيث ظلت تسمى بالارقام العربية Arabic Numerals ، كما سمي الصفر Zero ، وهي كلمة محرفة عن كلمة صفر.

العمليات الحسابية

من البديهي ان العراقيين القدماء عرفوا العمليات الحسابية الأربعة الأساسية: الجمع والطرح والضرب والقسمة . وقد عبّروا احياناً عن عملية الجمع بوضع حرف الجر ana بين الرقمين اما عملية الطرح فقد استخدموا الكلمة السومرية LAL حيث وضعوها بين الرقمين الأول ، وهو الرقم المطروح منه ، والثاني ، الرقم المطروح ، وقد تكتب الأرقام دون الاشارة بواسطة هاتين الكلمتين اللتان تدلان على الجمع او الطرح تماماً كما نفعل الآن حيث قلّما نشير الى ذلك . واستخدمت الكلمة السومرية a – rá للدلالة على الضرب حيث كانت توضع عادة بين الرقمين. اما عملية القسمة ، فإنهم كانوا يجرونها بطريقة طريفة حيث اذا ارادوا ان يقسموا العدد على ١٥ ضربوا ذلك العدد في $\frac{١}{١٥}$ وغالباً ما كانوا يحصلون على قيمة معكوس الاعداد من جداول معدة لهذا الغرض.

ومن الكلمات الحسابية المهمة المستخدمة كلمة ŠU.NIGIN اي المجموع العام للاعداد كما وردت مصطلحات رياضية اخرى منها IB.SI بمعنى الجذر التربيعي و BA.SI اي الجذر التكعيبي[١] .

---

(١) انظر فاروق الراوي ، العلوم والمعارف ، ص٣٠١ – ٣٠٢.

انواع النصوص الرياضية

يمكن تصنيف النصوص الرياضية المكتشفة الى صنفين رئيسين هما :

أ- الجداول الرياضية ، حيث امكن التعرف على نصوص ضمت مختلف انواع الجداول الرياضية ، ومنها جداول الضرب المطولة وجداول معكوس الاعداد الصحيحة [1] وجداول مربعات الاعداد ومكعباتها وجداول فسّرت بأنها جداول لوغاريتمات بعض الاعداد واخرى على انها اعداد فيثاغورية ، وجداول بجذور الاعداد التربيعية والتكعيبية اضافة الى جداول مفصلة بالأوزان والمكاييل والمقاييس ومساحات المربعات والمستطيلات . ويبدو ان هذه الجداول كانت تستخدم من قبل الكتبة لتعاونهم في اجراء حساباتهم اليومية كما كان بعضها يستخدم لتدريب الطلبة والمتعلمين ، وبصورة عامة ، فإن الجداول الرياضية ترقى بتاريخها الى عهود اقدم من النصوص الرياضية الاخرى .

ب- اما الصنف الثاني من النصوص الرياضية ، فيضم انواعاً مختلفة من المسائل الرياضية الجبرية والهندسية . في المسائل الجبرية عرف العراقيون القدماء حل المعادلات الاسّية والخطية والآنية من الدرجة الاولى المحتوية على مجهول واحد او عدة مجاهيل ، ومعادلات اخرى من الدرجة الثانية والثالثة وغيرها من المعادلات ، وقد حلّت المعادلات بطرق جبرية او حسابية . ومن الجدير بالاشارة انهم لم يحلّوا مسائلهم الجبرية باستخدام الرموز والاشارات ، كما نفعل حالياً ، بل انهم ربطوا ذلك بممارسات عملية ذات علاقة بحياتهم اليومية فاقرنوا المسائل الرياضية بحفر قناة او بناء سور وعدد مايحتاجه من آجر او مساحة حقل وتقسيمه الى اشكال مختلفة او الأرباح الناتجة عن رأس المال والى غير ذلك من الامور العملية .

اما في مجال الهندسة ، فتشير الالواح المكتشفة الى انهم كانوا على معرفة بطرق ايجاد مساحة المربعات والمستطيلات وشبه المنحرف والمثلثات كافة القائمة الزوايا والمتساوية الاضلاع والمتساوية الساقين وما تفرع عن ذلك من معرفتهم بالنظرية المنسوبة الى فيثاغورس . وقد عرفوا خواص الدائرة وعرفوا محيطها وعلاقته بالقطر ثم مساحة الدائرة واكتفوا من العلاقة بين المحيط والقطر بعدد تقريبي هو ٣ .

---

(١) معكوس العدد هو الرقم الذي اذا ضرب به العدد نتج عنه الوحدة العددية ، وحسب النظام الستيني معكوس العدد هو الرقم الذي اذا ضرب به العدد نتج عنه ستين لأن الستين هو الوحدة العددية الاساسية لهذا النظام .

كما عرفوا من الدائرة قطعة الدائرة ومساحتها بعد معرفة قوسها ووترها كما وضعوا بعض القضايا في علاقة بعض الاشكال الهندسية المرسومة داخل الدائرة وخارجها واستطاعوا ايضاً قياس حجوم العديد من المجسمات كالاسطوانة والمخروط والمخروط المقطوع والهرم الرباعي والمقطوع وغيرها.[1]

الفلك

يقصد بالفلك Astronomy ، علم رصد الاجرام السماوية ومعرفة حركتها ودورانها ، وقد سمّاه العرب (علم الهيئة) او (علم النجوم). وهو علم يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعلم الرياضيات. وكان البعض يظن ان علم الفلك نشأ عن التنجيم Astrology ، في حين اثبتت الدراسات الحديثة عكس ذلك. فالفلك علم هدفه معرفة الفصول والمواسم وضبط الوقت من خلال رصد النجوم والكواكب وتثبيت اوقات ظهورها او اختفائها ، اما التنجيم فهو وان اهتم برصد النجوم ومعرفة حركتها الا انه لايقوم على اساس علمي بل انه يهدف الى ايجاد علاقة وهمية بين حركة النجوم والكواكب وبين مصائر البشر والبلاد ، تلك العلاقة التي قال بها الكهنة الاقدمون وصدّقها الناس واحتلت حيزاً مهماً من حياتهم وتطلعاتهم الى المستقبل. وظل هذا الوهم الكبير يسيطر على عقول الناس الى الوقت الحاضر حيث نجد الكثير منهم وعلى اختلاف مستوياتهم الثقافية وفي جميع انحاء العالم ، شرقاً وغرباً ، يظنون خطأ ان هناك علاقة مابين حركة الاجرام السماوية ومستقبل ومصير الانسان وطالعه وما ربط تاريخ ولادة الانسان باحد الابراج الاثني عشر التي ابتدعها اصلاً البابليون ، والتنبؤ بطالع الانسان ، كما تبين لنا ذلك الصحف والمجلات في حقلها الخاص بذلك ، الا مثل على ذلك. ومن الواضح ان المنجمين من الكهنة وغيرهم افادوا من علم الفلك واستغلوا الارصاد الفلكية ووظفوها باسلوبهم الخاص لقراءة طالع الانسان والبلاد.

ولقد ظلت معلوماتنا عن معرفة العراقيين القدماء بالفلك محدودة جداً الى ان تمكن الباحثون من فك رموز النصوص الرياضية في اواخر العشرينيات من هذا القرن ومن ثم تعرفوا على النصوص الفلكية التي تميزت بتعقيدها وصعوبة قراءتها وارتباطها الوثيق بالنصوص الرياضية.

---

(١) انظر تفصيل ذلك :
طه باقر، المقدمة ، ط ٢ ، ١٩٥٥ ، ٣٣١ - ٣٥٦.
ساكز، عظمة بابل ، ٥١٥ - ٥٢٢.
فاروق الراوي ، العلوم والمعارف ، ٢٩٢ - ٣١٤.

ومع ان اقدم النصوص الفلكية المعروفة الآن ترقى بتاريخها الى بداية العصر البابلي القديم ، اي الى مطلع الالف الثاني قبل الميلاد ، الا ان جميع الدلائل تشير الى معرفة العراقيين القدماء بالفلك منذ العصور السومرية المبكرة ، وهذا مايمكن استنتاجه من بعض ماورد في القصص والاساطير الدينية مثل قصة الخليقة التي تمتد باصولها وجذورها الى تلك العصور المبكرة حيث ورد فيها اشارات واضحة الى النجوم والكواكب ومواقعها والى الابراج وغيرها ، كما في الأسطر الآتية المقتبسة منها :

«في العلى عندما لم يكن للسماء اسم بعد...
وفي الاسفل عندما لم يكن للأرض اسم بعد...
....
صنع مردوخ منازل للآلهة
خلق الابراج ، ثبتها في اماكنها ،
حدد الأزمنة ، جعل السنة فصولاً ،
ولكل شهر من الاشهر الاثني عشر ثلاثة ابراج (المجموع ٣٦)
حدد الايام بابراجها
ثبت برج نيبرو (المشتري ، كوكب مردوخ)
فلا يجهل نجم عمله ولا برج وظيفته ،
في الوسط ، ثبت السمت
والى الشرق والغرب فتح بوابة (انليل وايا)
وسلّط القمر على الليل
وجعله زينة في الليل ،
به يعرف الناس موعد الايام ،
في بدء الشهر يطل القمر ،
يحدد الاسبوع
وبعد اسبوعين وفي نصف الشهر
يواجه الشمس ، يكون بدراً
ينحسر ضوء الشمس عن وجهه- يصفر
يدركه المحاق ، يعود ثانية الى الأرض.[1]

---

(١) انظر فاروق الراوي ، العلوم والمعارف ، ص٣١٥.

الى جانب ذلك ، فإن معظم اسماء النجوم والكواكب واسماء الابراج السماوية هي اسماء سومرية دلالة على قدم استخدامها ، كما ان نصوص العرافة الاكدية من العصر الاكدي اعتمدت وبشكل واضح على الارصادات الفلكية ، الا ان العصر البابلي القديم شهد شيوع الارصاد الفلكية المنظمة وتطورت هذه المعارف في مدة السيطرة الكشية على بلاد بابل ووصلت الى درجة من الرقي كبيرة في زمن الامبراطورية الآشورية الحديثة ، ووصلت الى قمة التطور والنضوج في العصر البابلي الحديث (٦٢٦- ٥٣٩ ق.م) والبابلي المتأخر ، اى مدة السيطرة السلوقية.

وقد اعتمد الفلكيون البابليون في ارصاداتهم الفلكية على معارفهم المتقدمة في الرياضيات ، ودرسوا الظواهر الفلكية ونظموا حساباتهم على اسس دقيقة بحيث يمكن القول انهم عرفوا الفلك الرياضي لاول مرة ، وكان من نتائج ذلك انهم استطاعوا ضبط مواعيد حدوث بعض الظواهر الفلكية كالخسوف والكسوف كما استطاعوا ضبط التقويم السنوي واطوال الفصول والليل والنهار بحسب الفصول المختلفة ونظموا الجداول الفلكية وربما استفادوا من الزقورات المرتفعة التي كانت تؤلف جزءاً مهماً من المعبد ، كاماكن مناسبة لرصد النجوم والكواكب ، وقد اشارت بعض النصوص الىٰ مراكز الرصد الرئيسة في بلاد بابل وآشور وكان منها اربيل والوركاء وبابل وسيار.

وبعد أن احتك اليونان ببلاد بابل وآشور واطّلعوا على منجزات العراقيين القدماء في مختلف المجالات ، ولاسيما في مجال الفلك ، إنتقلت كثير من معارف الفلكيين البابليين اليهم وخاصة في مدة السيطرة السلوقية- اليونانية على بلاد بابل (٣٣١- ١٢٦ ق.م). وقد أشار الفلكيون اليونان الى عدد من الفلكيين البابليين في مؤلفاتهم الاغريقية بل انهم سمّوا علم الفلك باسم العلم الكلدي Chaldean science اشارة واضحة الى مدى التقدم الذي كان قد احرزه البابليون في عصرهم الكلدي الاخير في علم الفك ومدى اعتماد اليونان عليهم. وما اتباع النظام الستيني في الحسابات الفلكية ومبدأ الابراج الاثني عشر البابلية الاصل الا امثلة على اقتباس اليونان لكثير من المعارف والمنجزات البابلية.

النصوص الفلكية

تعد النصوص الفلكية المكتشفة على الرغم من قلة عددها ذات اهمية كبيرة لانها تفصح لنا عن الانجازات التي توصل اليها الفلكيون البابليون ، ويمكن تصنيف النصوص المكتشفة على النحو الآتي :

١- نصوص الأرصاد

تعد نصوص ارصاد كوكب الزهرة من اقدم ما وصلنا من نصوص الارصاد حيث تعود بتاريخها الى العصر البابلي القديم ، وهي عبارة عن سلسلة ارصاد كوكب الزهرة عند ظهورها وقت غروب الشمس وشروقها وطول مدة اختفائها ، وبواسطة هذه الارصاد تمكن البابليون من معرفة دورة ظهور كوكب الزهرة مما افاد الباحثين في الوقت الحاضر على تحديد وضبط التواريخ الخاصة بالملوك والحكام في الالف الثاني قبل الميلاد الى حد كبير- الا ان تكرر ظهور واختفاء كوكب الزهرة كان عقبة في سبيل ذلك .

٢- النصوص الاسطرلابية -

وهي مجموعة نصوص فلكيَّة مايزال الغموض يكتنفها حيث لم يتوصل الباحثون بعد الى معرفة كنهها والغاية الحقيقية من تدوينها ، وهي عبارة عن خوارط فلكية تتضمن كل منها دوائر ثلاثة متداخلة ومقسمة الى ٣٦ قسماً وكل قسم من تلك الاقسام يحتوي على ارقام يرتبط الواحد منها بالآخر من الناحية الحسابية . وربما كانت هذه النصوص ترتبط باصل دائرة البروج .

٣- النصوص الخاصة بطرق (دروب) الكواكب

وتعرف السلسلة التي ضمّت هذه الطرق او الدروب بعبارة **mul APIN** ، وقد ثبت فيها ثلاثة طرق لكل كوكب او جرم سماوي ، وهي تصف باقتضاب الاجرام السماوية .

٤- نصوص رصد الخسوف والكسوف

يتفق الباحثون ان هذه النصوص تخص ارصادات لايتجاوز تاريخها اواسط القرن الثامن قبل الميلاد ، فهي تمتد من حدود ٧٤٨ ق.م وحتى ٣٠٧ ق.م ، وهي عبارة عن تقاويم فلكية ومما جاء فيها ، مثلا :

> «اذا خسف القمر في اليوم الرابع عشر من شهر تموز ، فهو نذير للملك الكوتي : سوف يسقط الكوتيون بالمعركة وتتحرر البلاد» .

٥- النصوص الخاصة بكبس السنوات

فقد حاول البابليون منذ العصور الاولى التوفيق بين السنة الشمسية التي تعتمد عليها الاحتفالات الدينية والمواسم الخاصة بالزراعة والتي يبلغ عدد ايامها ١/٤ ٣٦٥ يوماً، والسنة القمرية وعدد ايامها ٣٥٤ يوماً وذلك بكبس شهر اضافي الى السنة كل ثلاث سنوات تقريباً وقد توصلوا الى معادلة مفادها ان كل ٢٣٥ شهراً قمرياً تساوي ١٩ سنة شمسية فاضافوا سبعة شهور كبيسة تتكرّر كل ١٩ سنة، حيث يكبس الشهر الاول منها في منتصف السنة الاولى وتكبس السنة الاخرى في نهاية السنوات المحددة لها كما سبق واشرنا الى ذلك في حديثنا عن التقويم.[١]

والى جانب هذه الاصناف من النصوص الفلكية هناك صنفان آخران استخدما بالدرجة الاولى لاغراض التنجيم هي:

أ- نصوص التنجيم لاغراض الفأل، ويرقى تاريخ معظمها الى مدة السيطرة الكشية على بلاد بابل وقد رتبت على شكل مسلسلات كان اشهرها مسلسلة إنُما آنو إنليل enuma Anu Enlil، اي «عندما كان آنو انليل» ومنها المثال الآتي:

> «اذا وقع خسوف في اليوم الرابع عشر من شهر سيفان، وكان القمر معتماً عند الجانب الشرقي من فوق، ومنيراً عند الجانب الغربي من اسفل، وهبّت ريح شمالية في ليلة الرصد الاولى ولكنها خفّت عند منتصف ليلة المراقبة فسيحدّد القمر ذو العتمة على الجانب الشرقي من فوق وذو النور على الجانب الغربي من تحت... مصير مدينة اور وملكها... فيواجه ملك اور المجاعة وسيكون عدد الموتى كبيراً، اما ملك اور فسيثور عليه ابنه، ولكن ذلك الابن الذي سبب الثورة ضد ابيه، سيقبض عليه شمش وسيموت لكونه عاقًا لابيه، وسيتولى ابن آخر للملك، ومن غير المطالبين بالملكية- عرش (اور)»[٢].

---

(١) انظر الفصل الثاني من الجزء الاول من الكتاب وانظر كذلك ساكز، عظمة بابل، ص ٥٢٤- ٥٢٦.

(٢) انظر ساكز، عظمة بابل، ٥٢٤- ٥٢٥، فاروق الراوي، العلوم والمعارف، ٣١٧.

٢- نصوص التنجيم والتنبؤ: وتشير الى ان الكهنة المختصين بقراءة الطالع كانوا يستخدمون الارصاد الفلكية او الجداول الرياضية ذات الاغراض الفلكية للتنبؤ بالمستقبل القريب للملك او البلاد وخاصة فيما يتعلق بامور الحصاد او الفيضان او الغزو او المجاعة ..الخ وكما في المثال الآتي :

«اذا حلّت الشمس موقع القمر، فأن ملك البلاد سيثبت على العرش. واذا حلّت الشمس فوق او تحت موقع القمر، فأن اسس العرش ستكون متينة وآمنة وسيكون الملك عادلاً ، واذا كانت الشمس والقمر غير مرئيتين فسيتحلى الملك بالحكمة الواسعة.»

معارف العراقيين القدماء في مجال الفلك

كانت انجازات ومعارف العراقيين القدماء في مجال الفلك كثيرة ، فاضافة الى ان ارصاداتهم الفلكية كانت اطول الارصادات الفلكية القديمة وانهم استخدموا الرياضيات في حساب دورات الاجرام السماوية ، فيظن انهم اول من اوجد النظرية الكوكبية او القمرية التي مكنتهم من تحديد زمن ظهور القمر (الهلال) في اول كل شهر، كما انهم اول من قسّم السنة الى فصول وكانوا على علم بالاعتدال الربيعي ، وقسمّوا السنة الى ١٢ شهراً وكبسوا شهراً اضافياً ، كما الحنا كل ثلاث سنوات تقريباً .

وكان من جملة معارفهم أن الشمس هي مركز الكون والاجرام السماوية الاخرى كما توصلوا الى ابتداع البروج الاثني عشر Zodiac التي ماتزال تحمل اسماء الحيوانات نفسها التي اطلقها العراقيون القدماء عليها فقد تصوروا ان السماء على هيئة قبة قسمّوها الى اثني عشر قسماً وخصّوا كلّ قسم لشهر من الاشهر وراقبوا حركة النجوم في هذه الاقسام واطلقوا على كل قسم اسم معيّن وهكذا تمكنوا من تسجيل ملاحظاتهم عن حركة النجوم والكواكب .

ويؤكد بعض العلماء ان العراقيين كانوا على بينة من القطب المغناطيسي. وكان على شكل نصف كرة مقعرة ، وكرة صغيرة ثانية معلقة في وسطها تعكس ظلاً من الداخل ، حيث مكنت حركة هذا الظل الراصد العراقي القديم من تتبع حركة الشمس وبالتالي امكانية تحديد الانقلاب الصيفي والشتوي. وقد اخذ اليونان هذه الطريقة وطوّروها. كما انهم ادركوا ان هناك علاقة مابين المدّ والجزر وبين القمر.

ومع ان العراقيين القدماء لم يستخدموا أياً من اجهزة الرصد المعروفة حالياً الا انهم ربما استخدموا بعض العدسات من حجرالكرستال كما استخدموا الساعة المائية والساعة الشمسية (اي المزولة) لقياس الوقت. وكان مما ساعدهم على تحقيق هذا الانجاز الكبير في علم الفلك هو التقدم الكبير الذي كانوا قد حققوه في مجال الرياضيات الى جانب ذلك كان جو العراق وسماؤه الصافية في معظم ايام السنة وبصورة خاصة في بلاد بابل ذات اثر كبير في دقة ارصاداتهم الفلكية. واخيراً فقد كان الاعتقاد بأن رصد الظواهر الطبيعية والكواكب عملٌ ديني فيه ثواب من الالهة، يستدل على ذلك من انهم كانوا يذيلون الرقم الخاصة بالارصاد بالعبارات الآتية عادة: ان الراصد «كتب الرقيم او استنسخه من اجل عُمر مديد ومن اجل حفظ ذريته من كل سوء ومن اجل ثباته متعافياً متشافياً».[1]

الكيمياء

إن دراسة وتحليل ماتم الكشف عنه من آثار مادية في المواقع العراقية من عصور ماقبل التأريخ، تؤكد معرفة العراقيين القدماء ببعض الصناعات الكيميائية منذ الالف السادس قبل الميلاد وربما قبل ذلك التأريخ، فعملية صناعة الفخار وطليه بالالوان هي عملية صناعية تقنية وكيميائية في ذات الوقت اذ انها تقوم على معرفة عالية بصناعة الافران ورفع درجة الحرارة ومعرفة جيدة بنوعية التربة وبطريقة استخراج الالوان من المواد المختلفة لاستخدامها في الطلاء الملّون.[2] وما يستنتج من صناعة الفخار يستنتج كذلك من العمليات ذات العلاقة بالمعادن، كاذابة وصب وسبك بعض المعادن ومزجها لتكوين معادن مركبة او مزيجة كالبرونز، والتي بدأت هي الاخرى منذ الالف السادس قبل الميلاد، وكذلك من صناعة الزجاج والترجيج وغيرها من الصناعات الكيميائية. الا ان معارف العراقيين القدماء في حقل الكيمياء وغيرها من العلوم ظلت ضمن دائرة الممارسات والاساليب التقنية ولم تأخذ الصيغ النظرية الا في الازمنة المتأخرة. وكانت تلك المعارف تنتقل من جيل الى جيل عن طريق التدريب والتعليم وتركت لنا آثاراً مادية يمكن التعرف من خلالها على مدى ماوصل اليه الانسان في عصور ما قبل التأريخ من تقدم في هذا المجال، وعندما ابتكرت الكتابة وسيلة للتدوين وانتشر استخدامها، بدأ بعض الكتبة

---

(١) حول تفصيل ذلك انظر ساكر، عظمة بابل، ص ٥٢٤ – ٥٢٦، فاروق الراوي، العلوم والمعارف، ص ٣١٦ – ٣٢٤.

(٢) انظر: مارتن ليفي، الكيمياء والتكنولوجيا الكيميائية في وادي الرافدين، ١٩٥٩، ترجمة محمود قباض وآخرون، بغداد، ١٩٨٠، ص ١٠.

والصناع الماهرين بتدوين تلك المعارف الا انهم كانوا يعدّونها من الاسرار التي لايجوز الاطلاع عليها من قبل الاشخاص الاعتياديين فقد ورد في احد النصوص :

«دع الملقّن (للصنعة) يريها للملقّن ولا يراها غير الملقّن ،
انها تخص الاشياء المحرمة للآلهة العظام» .[1]

وزيادة في الحيطة والحذر، فقد استخدمت احياناً أساليب غامضة ومبهمة عند تدوين تلك المهارات لايفهمها الا ذوو العلاقة ، وربما كانت هذه الطريقة في التدوين من اسباب تأخر قراءة النصوص المسمارية ذات العلاقة الى العقد الثاني من القرن الحالي. ومن الامثلة الطريفة على ذلك نص يعود الى القرن السادس عشر قبل الميلاد خاص بعمل الزجاج. فقد حاول الباحثون جاهدين فهم وقراءة النص دون جدوى ثم تبين لهم بانه مدون باسلوب خاص غامض اقرب الى اسلوب الكتابة بالشفرة فقد حاول الكاتب ايهام القارئ وارباكه بحيث لايتمكن من قراءة النص الا من كان على معرفة مسبّقة باسلوب الكتابة التي كان المختصون بهذه الصناعة ، كما يبدو ، متفقون عليها. فقد اضاف الكاتب الى الكلمات المستخدمة للدلالة على بعض المواد التي تدخل في الصناعة مقاطع صوتية جديدة لا علاقة لها بتلك الكلمات فبدت وكأنها كلمات غريبة لامعنى لها ، وهي الطريقة نفسها المستخدمة عندنا الان ، وخاصة في الرسائل العسكرية ، باسلوب الشفرة. فبدلاً من ان يكتب الكاتب البابلي الكلمة أَبنُ abnu التي تعني «حجر» ، مثلاً والمؤلفة من مقاطع صوتية ثلاثة وهي a-ba-an (في حالة الاضافة) ، فإنه كتب مقاطع اخرى تحمل حروفاً اضافية وهي ḫa-bar-an وكان على القارىء المختص ان يعرف ان المقصود من هذه المقاطع هو الكلمة التي تعني «حجر» وليس غيرها وهكذا بقية الكلمات والتسميات المستخدمة في النص.[2]

الآلات والادوات الكيميائية

اظهرت التنقيبات الاثرية عدداً من الالات والادوات والاجهزة التي كانت تستخدم لبعض الصناعات والممارسات الكيميائية . فقد عثر على اعداد كبيرة من المدقات والهاونات والمطاحن المصنوعة من الحجر الصلب غالباً، وكانت تستخدم لدق وسحق وطحن البذور- والنباتات والاحجار وغيرها من المواد المستخدمة لتحضير الادوية والاصباغ ،

---

(١) فاروق الراوي ، العلوم والمعارف ، ص ٣٤١ .

(٢) انظر ساكز، عظمة بابل ، ص ٥٤١ .

وهي لاتختلف كثيراً عن مثيلاتها المستخدمة الى الوقت الحاضر في البيوت الريفية والحديثة وان اخذت اشكالاً جديدة اكثر اناقة وصنعت من مواد حديثة الى درجة تبدو وكأنها من مبتكرات العصر الحديث.

كما تم الكشف عن اعداد كبيرة من الاواني والاوعية الفخارية. فالمعروف ان صناعة الفخار بدأت منذ الالف السابع قبل الميلاد وتطورت خلال العصور التالية الى ان غدا فخار العصر الحجري المعدني على درجة كبيرة من الدقة والاتقان والزخرفة والتلوين بل سمي العصر باكمله باسم عصر الفخار الملوّن كما سبقت الاشارة. وقد استخدم الفخار الى جانب الاوعية المصنوعة من الحجر وفي النصف الثاني من العصر الحجري المعدني، بدأت صناعة بعض الاواني من المعدن. وقد كشفت لنا التنقيبات الأثرية عن العديد من اشكال الآنية التي استخدمت في الممارسات الكيميائية كالدوارق والجرار ذات الاحجام والاشكال المختلفة والتي استخدم بعضها للتسخين وللتخزين. كما وجدت اشكال مختلفة من اواني الترشيح والتصفية وعثر على آنية تؤكد ان العراقيين القدماء عرفوا عمليات الاستخلاص والتصعيد والتقطير، ومن الاواني الاخرى التي تم اكتشافها اوان استخدمت لقياس الحجوم، اي مكاييل، عبارة عن دوارق صغيرة وكبيرة كما عثر المنقبون على نماذج من البواتق الفخارية والنحاسية.

ومن الأدوات الاخرى التي استخدمت في الصناعات الكيميائية قوالب فخارية واحياناً حجرية وآلات وادوات معدنية مختلفة. ويرى الباحثون ان العراقيين القدماء استخدموا الشمع لصنع التماثيل الخاصة بالآلهة ومن ثم كانوا يغلفون النموذج المصنوع بالطين. ثم يتم فخره حيث ينصهر الشمع ويبقى النموذج الفخاري وبعدها يتم صب المعدن في النموذج.[1]

ومن الطبيعي ان معظم الصناعات الكيميائية كانت بحاجة الى حرارة مرتفعة لصهر المعادن او فخر الطين او تسخين المواد المراد استخدامها لصناعة ما. وقد استخدم القوم انواعاً كثيرة من الاشجار والحشائش والاعشاب وقوداً لرفع درجات الحرارة. وقد صنعوا الافران والمواقد. فاستخدم الكانون، وبالأكدية كِنونُ Kinūnu، اي الموقد البسيط والذي مايزال يستخدمه بعض البدو، وعثر على نماذج كثيرة منه في المواقع المختلفة. كما استخدموا التنور، بالاكدية تِنورُ tinūru الذي وجدت بقاياه في معظم ان لم نقل جميع المواقع الاثرية ومن عصور ماقبل التاريخ والعصور التاريخية وباعداد كبيرة. كما استخدمت

---

(١) فاروق الراوي، العلوم والمعارف، ص ٣٤٤.

انواع مختلفة من المواقد المتنقلة التي جاءت على شكل مخروطي ناقص او اسطواني وغالباً ماكانت تعمل من طابقين وتتخلل جدرانها الثقوب او الفتحات للتهوية ، وهناك فتحة كبيرة نسبياً عند القاعدة لادخال الوقود، او الافران الكبيرة الثابتة وربما لم تكن تختلف عن الكورة في الوقت الحاضر وكانت تسمى بالأكدية كورُ Kūru .

العمليات الكيميائية

تشير النصوص المسمارية والآثار المادية المكتشفة الى ان العراقيين القدماء عرفوا العديد من العمليات الكيميائية من خلال ممارساتهم الفنية والتقنية في عمل الفخار وتلوينه واذابة وصب المعادن ومزجها مع بعضها للحصول على معادن جديدة اقوى كالبرونز والالكترون وحاولوا تلوين بعض الاحجار لمحاكاة الاحجار الثمينة المستوردة فلونوا حجر الصوان بواسطة بعض المعادن او اكاسيدها وبخاصة السلكات كما انهم عاملوا بعض الاحجار بالنار لزيادة بريقها وتمكنوا من صناعة الزجاج واستخدموا الترجيج والتمويه ، حيث حاولوا تمويه بعض الاحجار الرخيصة وجعلها شبيهة باللازورد مثلاً الى درجة انهم ارسلوا بعضها هدايا الى الحكام والملوك على انها احجار ثمينة ، كما قاموا بكربنة الحديد واستخدموه لصناعة الاسلحة المختلفة وعرفوا فن تمويه الزجاج بالذهب مما يشير الى معرفتهم ببعض الحوامض اللازمة لذلك. ويرى كامبل تومسون بأن العراقيين القدماء ابتكروا الثقاب من الكبريت واستخرجوا المركبات العديدة مثل ملح الامونيا والزئبق والرصاص الأبيض وغيره. وقد استغلوا بعض تلك المركبات في صناعة الأدوية. وكانت هذه الممارسات بحاجة الى اجهزة خاصة للقيام بها ، لذا فإنهم ابتكروا جهاز التقطير، الذي ورد ذكره في وصفات خاصة لصناعة العطور، وجهاز التقطير عبارة عن وعاء مخروطي الشكل ذو حافتين الاولى داخلية اقيمت بشكل مستقيم مع البدن وترتفع نحو الأعلى بمستوى الحافة الخارجية. اما الحافة الثانية فبرزت نحو الخارج عن سطح البدن من الخارج مكونة قناة بينها وبين الحافة الداخلية الاولى. وكانت عملية التقطير تتم بتكرار عملية غلي المحلول او الماء وامتصاص مايتكثف من بخار في اعلى الوعاء بواسطة قطعة قماش بين الحين والآخر، كما استخدموا جهاز الاستخلاص المستخدم لاستخلاص مادة معينة بواسطة جهاز التقطير نفسه ، وجهاز التصعيد (التسامي) ، وهو جهاز شبيه بجهاز التقطير ويستخدم لتصعيد المادة ، او تساميها ، حيث تسخن داخل الوعاء وتكثف الابخرة المتصاعدة عند ملامستها لسطح

الغطاء البارد وتتجمع داخل قناة خاصة. ثم تجمع السوائل المقطرة من القناة بواسطة ملاعق خاصة ، ويبرد الغطاء بين الحين والآخر.[1]

الصناعات الكيميائية

تدخل الممارسات الكيميائية في صناعة العديد من المواد ولاسيما المواد الغذائية. ومن هذه الصناعات :

١- الصناعات الغذائية مثل صناعة الالبان ، الجبن والخاثر والقيمر والقشطة والزبدة ، وحفظ اللحوم اما بواسطة التمليح او التقديد ، اي التجفيف بالشمس ، وصناعة المشروبات الكحولية ، كالنبيذ والجعة ، والخفيفة ، كالخل وعصير الفواكه والخضراوات ، وكذلك تجفيف وحفظ الخضراوات والفواكه.

٢- الدباغة وصناعة الجلود حيث عالج العراقيون القدماء جلود الحيوانات بعد سلخها وحفظها وتعطينها ، او ازالة الشعر او الصوف منها ، وبشرها بضربها ودباغتها ومن ثم صبغها وتلوينها وصناعة الاحذية والاحزمة واللوازم الاخرى منها. وقد استخدمت لمعالجة الجلود مواد كثيرة كالاملاح والزيوت والعفص وقشور الرمان والسمّاق وغيرها من المواد المستخدمة حتى الوقت الحاضر للدباغة.

٣- صناعة الزيوت والشمع ، ويضم ذلك صناعة الزيوت الحيوانية والنباتية كزيت السمسم وزيت الخروع وزيت الزيتون وغيرها كثير. وكان للزيوت على اختلافها اهمية كبيرة في الحياة العامة والخاصة واستخدمت في مجالات كثيرة طقوسية اضافة الى استخدامها كمادة اساسية لصناعة واعداد الاغذية ، كما استخدمت للانارة.

٤- صناعة النسيج وصبغ المنسوجات بالالوان ، وقد احتاجت صناعة النسيج الى عدد من العمليات الخاصة بتنظيف الصوف او الغزل ثم قصره وصبغه وتثبيت الاصباغ عليه ومن ثم غزله ونسجه او حياكته ، وقد استخدمت في ذلك طرق معينة استخدمت خلالها مواد كثيرة كالمواد الدباغية واخرى خاصة بالالوان.

٥- صناعة الصابون ، فقد صنع العراقيون القدماء الصابون من الطين خاوة واصباغ الاشجار وهناك من يرى بأنهم صنعوا الصابون من الزيوت النباتية والقلويات المعالجة باضافة الكبريت او المواد الصمغية.[2]

---

(١) انظر تفصيل ذلك ، فاروق الراوي ، العلوم والمعارف ، ص٣٤٦- ٣٤٧.

(٢) حول تفصيل ذلك انظر : مارتن ليفي ، الكيمياء والتكنولوجيا ، وكذلك فاروق الراوي العلوم والمعارف ، ٣٤٧- ٣٥٤.

الطب

أَلِمَ الانسان وتوجّع منذ ان خلق ووجد على الأرض ، وحاول جاهداً ان يشفي مرضاه ويخفف من آلامهم بشتى الطرق وتوسّل الى كل من ظن بأنه قادر على تحقيق ذلك ، واستخدم النباتات والاعشاب والمواد الحيوانية والمعدنية وغيرها التي تبين له من خلال ممارساته وتجاربه بأنها نافعة في شفاء المرضى او تقليل آلامهم. وظل كذلك دهوراً وعصوراً طويلة ، ولابد وان توصل خلال ذلك الى بعض النتائج الناجحة والمفيدة سواء تلك الخاصة باسلوب علاج المرض او بنوعية المواد المستخدمة للعلاج ، ولاسيما الاعشاب ، التي كان يستخدمها او يتناولها لذلك ، الا ان معلوماتنا عن تلك النتائج والممارسات قليلة جداً طالما لم تكن الكتابة معروفة آنذاك لتدون لنا التفاصيل وكان جل اعتمادنا بالنسبة لعصور ماقبل التاريخ على ماخلّفه الانسان من آلات وادوات يظن انها استخدمت للعلاج ، ولاسيما السكاكين والمباضع التي استخدمت في العمليات الجراحية ، والقناني والدوارق الفخارية والهواوين والمطاحن التي استخدم بعضها لاعداد العقاقير الطبية ، اضافة الى مايمكن التعرف عليه من ممارسات طبية اجريت على الانسان وتركت آثارها على هياكله العظمية ، كالعمليات الجراحية وتجبير العظام وغيرها. ومنذ العصور التاريخية وشيوع استخدام الكتابة ، تزداد معلوماتنا عن الطب وممارساته في العصور القديمة حيث زودتنا التنقيبات الاثرية بعدد كبير من النصوص ذات العلاقة التي قدّمت لنا صورة مفصلة عن ذلك ، وتزداد هذه المعلومات تدريجياً حتى تصبح غاية في التفصيل من الألف الأول قبل الميلاد.

الاطباء

تؤكد جميع النصوص المسمارية المكتشفة وجود الاطباء في العراق القديم منذ عصر فجر السلالات على اقل تقدير خلافاً لما ادعاه هيرودوتس ، المؤرخ الاغريقي ، عندما قال بأنه لم يكن هناك اطباء في بلاد بابل عندما زارها في القرن الخامس قبل الميلاد حيث كتب عن البابليين :

> «انهم كانوا يخرجون جميع مرضاهم الى الشارع حيث لم يكن لديهم اطباء نظاميين وكان الناس الذين يمرون يقدمون النصيحة الى الرجل المريض ، اما مما وجدوه شخصياً بأنه يشفي مثل هذه

الشكوى او مما عرفوه من الغير بأنه قد اشفاهم ولم يكن يسمح لاحد أن يمر من جانب المريض دون ان يسأله عما يؤلمه». [١]

ويبدو ان هيرورتس قد توهّم ذلك مما شاهده اوسمعه من الناس الذين اختلط معهم او احتك بهم، ولم يتعرف على طبيعة العراقيين واسلوب حياتهم وطبيعة العلاقات الاجتماعية التي كانت تربط بعضهم بالبعض الآخر، فقفز الى استنتاج خاطئ. وقياساً على ماهو معروف حتى الآن في القرى والأرياف والمدن العراقية، فإنه اذا مااصيب شخص بمرض من الأمراض، عاده اصدقاؤه واقرباؤه وجيرانه وقدّموا له النصيحة وذكروا له حالات مشابهة لمرضه تعرضوا لها هم انفسهم او احد معارفهم وذكروا له ماتم اخذه من علاج ناجح علّه يعمل الشيء نفسه بأخذ ذلك العلاج المجرّب. وطبيعي ان مثل هذه الحالات التي تفرضها حياة القوم الاجتماعية ورغبة كل فرد بمساعدة المريض والتخفيف من آلامه ورفع معنوياته لاتعني بأية حال بأن العراق اليوم يخلو من الاطباء والمستشفيات مما يدفع الناس الى اعطاء النصيحة. اما الجلوس في الطرقات والتحدث الى المّارة، فهي الاخرى عادة كانت وما تزال شائعة في العراق، ولاسيما في بلاد بابل، حيث حرارة الجو وضيق البيوت وخلّوها من الحدائق تدفع الناس الى الجلوس خارج بيوتهم حيث يلتقون ويجلسون في حلقات يتسامرون ويتحدثون، واذا كان بينهم مريض، إنبرى كل من الجالسين وربما المارّين باعطاء النصيحة والمشورة، وقد يمضوا الليل بكامله خارج بناء البيت طلباً للهواء النقي.

وسواء اكان هناك اطباء محترفين ام لا، فقد نسب العراقيون القدماء اسباب المرض الذي ينتاب الانسان الى غضب الآلهة على الفرد وتسليطها العفاريت والارواح الشريرة عليه ان هو خرج عن طاعتها وأثم بحقها ولم يقم بالالتزامات المفروضة عليه تجاهها. كما نسبوا احياناً المرض الى فعل السحر الاسود الذي حرّمته القوانين وعاقبت بقسوة كل من تثبت ممارسته له في حين يفهم من بعض النصوص ان بعض الناس عرفوا تأثير البيئة على الانسان واحتمال اصابته بالمرض نتيجة التعرض الى المياه والاطعمة الوسخة كما عرفوا ايضاً العدوى واحتمال انتقال المرض من شخص الى آخر وعبّروا عن ذلك بأن الروح الشريرة كانت تنتقل من المريض الى السليم. [٢]

---

(١) حول تفصيل اسباب المرض عند العراقيين القدماء انظر عبدالرحمن يونس عبدالرحمن، الطب في العراق القديم، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى كلية الآداب/ جامعة الموصل، ١٩٨٩، ص١٠٤ - ١١٩.

(٢) بوتيرو، الديانة عند العراقيين القدماء، ترجمة وليد الجادر والبيرابونا، بغداد، ١٩٨٢، ص١٦٠ - ١٦١.

واذا كان الاعتقاد السائد والاعم عند العراقيين القدماء بأن سبب المرض هو غضب الآلهة وتسليطها العفاريت والارواح الشريرة على الفرد ، فلا غرابة ان كان تخليص المريض منها يعتمد اساساً على كيفية طرد تلك الارواح من جسم المريض وفي الوقت نفسه التقرب الى الآلهة والتوسّل اليها بمختلف الوسائل والطقوس وتقديم القرابين.

الطب الكهنوتي

وقد استعان الناس من اجل تحقيق ذلك بعدد من الكهنة الذين اختصوا بطرد الارواح الشريرة من جسم المريض وابتدعوا طرقاً معينة لذلك لايعرفها غيرهم ، وكان الكاهن من هذا الصنف يعرف اَشِيبُ ašipu ، اي (العزّام او المعوِّذ) او (طارد الارواح الشريرة) . وكان الاشِيبُ يقوم بطقوس ومراسيم كثيرة ومعقدة تختلف باختلاف المرض واختلاف امراضهم ويستخدم التعاويذ والرقى والاحجبة والتمائم التي كان بعضها يعلّق حول عنق المريض وفق طقوس معينة من اجل طرد الارواح الشريرة . كما كان الآشيبُ احياناً يلجأ الى عمل بديل عن الارواح الشريرة التي هي من اشباح الموتى ، فيصنع الدمى والتماثيل الشبيهة بها ويجري عليها طقوس معينة بهدف ابعادها وايقاع الهزيمة بها وتخليص المريض منها ، كما في المثال الآتي الذي يوضح هذا الاسلوب من المعالجة :

«اذا ظهر شبح ميت على شخص عرفه او لم يعرفه ، فلأجل ابعاد ظهور هذا الشبح تصنع دمية تشبه وتمثل هذا الميت ، يجب وضعها فوق فراش المريض في اليوم الثالث عند الظهيرة يجب كنس الأرض من امام الاله شمش ورشّها بالماء النقي ويوضع مذبح صغير وفوق المذبح توضع كمية من التمر وتنثر كمية من الطحين ثم تشعل مبخرة فيها عصير شجرة السرو وتسكب جعة من النوع الجيد وبعد ذلك تلقّن الدمية بالتعابير الآتية : شمش انت دليل هذا الميت في العالم السفلي والعالم العلوي فامنحني (حلاً لحالتي) انه مرعب ، قبيح المنظر، جاسوس ، بغيض ومخيف ليلاً ، انني انحني واتضرع واطلب جعله مكاني ، بحياة شمش ليبعد عني ، وتكرر هذه االصيغة ثلاث مرات ثم تكفن الدمية وتدفن....»

كما كان الآشيبُ يقدم الاضاحي والهدايا من مختلف الانواع لتخليص المريض من الارواح الشريرة واغرائها بتلك الهدايا . ولم يكن الاشيبُ في تشخيصه للمرض يعتمد على ملاحظات سريرية بل انه اعتمد على بعض الملاحظات العابرة التي قد يصادفها وهو في طريقه لزيارة المريض في بيته او اثناء خروجه من المعبد كما في الامثلة الآتية المقتبسة من نصوص التشخيص الخاصة بالاشيبُ :

«اذا رأى الاشيبُ في الطريق كلباً اسود او خنزيراً اسود فإن المريض سيموت».

اذا كان في بيت المريض زائر ومرَّ نسر في السماء باتجاه يمينه
فأن هذا المريض سيشفىٰ»[1]

كما كان الاشيبُ يعتمد احياناً على الاعراض الظاهرة على جسم المريض لتشخيص المرض وتحديد اسبابه :

«اذا كانت عظام رجليه وكاحليه تؤلمه والالم لايزول اويهمد
حتى قبل (مداواة) الاشيبُ فمعنى ذلك ان عفريتاً قد
مسكه»[2]

وقد يستخدم الاشيبُ الادوية لطرد الارواح الشريرة حيث ذكر احد النصوص :

«هذه ٢٥ عقاراً تستخدم لعمل مرهم ضد مسكة
العفريت ... وهي سر الاشيبوتُ».

ومن اصناف الكهنة الآخرين الذين تنبأوا بمصير المرض ، كاهن البارو bāru اي العّراف ، الذي ربط بين مصير الانسان وحركة النجوم والاجرام السماوية او قراءة طالع الانسان بواسطة فحص اكباد الحيوانات المقدمة اضحيات للآلهة حيث كانت الآلهة ، حسب اعتقادهم ، تكتب قرارها ورغبتها على كبد الحيوان المضحى ، كما استخدم البارو اساليب وطرق اخرى لمعرفة طالع ومستقبل المريض ، كاستخدام الزيت والماء والدخان وغيرها .

الطب العملي

ومنذ بداية العصور التأريخية ونضوج الحضارة العراقية القديمة ، تؤكد النصوص المسمارية وجود ممارسات طبية موضوعية تختلف تماماً عن الممارسات الكهنوتية التي كان الاشيبُ والبارو يقومان بها ، وكانت هذه الممارسات تعتمد على ملاحظة المريض ومراقبة اعراض المرض عليه وتشخيصه ووصف الدواء له ، وكان يقوم بمثل هذه الممارسات الموضوعية ، او العملية ، محترف عرف باسم اسو ، اي الطبيب وسميت الممارسات الطبية التي كان يقوم بها باسم اسوتو asūtu ، اي «الطب العملي» في حين كانت ممارسات الاشيبُ تعرف باسم اشيبوتو āšiputu وقد ظل كل من الاشيبُ والاسو يعملان في معالجة المرضىٰ عبر العصور جنباً الى جنب وقد يعالج المريض الواحد من قبل الاشيبُ والاسو في آن واحد ، الا ان

(١) عبداللطيف البدري ، التشخيص والانذار، ص ٩ ، ١٣.

(٢) عبدالرحمن يونس ، الطب في العراق القديم ، ص ٢٥.

النصوص المسمارية تشير الى ارتفاع شأن الاسو على مر العصور يقابل ذلك تضاؤل مركز الآشيبُ مما يشير الى زيادة الاعتقاد بالعلاج الموضوعي المعتمد على اخذ الدواء واجراء العمليات وظلت الحال كذلك في جميع العصور وحتى الوقت الحاضر حيث لازلنا نعتمد احياناً على الطب النفساني ومعالجة المعزم الى جانب اعتمادنا على الطب العملي. ومع كثرة النصوص المسمارية التي تتعلق باعمال الاسو، سواء نصوص خاصة بالوصفات الطبية التي كان يصفها او نصوص قانونية خاصة باجور العمليات التي كان يجريها على المرضى، فان تلك النصوص لاتتحدث عن طريقة تعلم مهنة الطب والممارسات الطبية، ويبدو ان ذلك كان يعتمد بالدرجة الاولى على التدريب العملي والتعليم الشفوي لذا قلّما دوّن الاطباء أو العارفون بمهنة الطب ملاحظاتهم الا في حالات الرغبة في استذكار الحالات الكثيرة للمرض ونوعية الدواء الذي كان يعطي للمريض، بل كانت مهنة الطب كغيرها من المهن التي تعتمد على التدريب والممارسة العملية، سراً من الاسرار يحتفظ بها المهتمون بها ولايسمحوا لاي شخص غريب الاطلاع عليها. ومع ذلك، يبدو انه كان هناك بعض النصوص الطبية التي كان على المتعلم ان يحفظها وقد يستغرق تعلمه تلك النصوص سنوات طويلة. ويبدو ايضاً انه كانت هناك مدارس معينة تُعلِّم مهنة الطب اشتهرت في العراق القديم، مثل مدرسة نفر ومدرسة ايسن ذات الشهرة الواسعة الى درجة ان حد الاطباء تفاخر قائلاً «انا طبيب بارع من ايسن اعرف كل الامراض». كما اشتهرت كل من بورسيبا والوركاء بوجود مدارس للطب فيها. ولم تكن للاطباء عيادات خاصة حيث يجلسون فيها لاستقبال المرضى كما لم يكن هناك مستشفيات عامة بل كان الطبيب هو الذي يراجع مريضه لاسيما ان كان من الاسرة الحاكمة او من افراد الطبقة الحاكمة والمتنفذة لقاء اجور سخية كان يغدقها عليه ذوي المريض، وربما كانت هناك اماكن خاصة في القصر حيث يعالج فيها المرضى اشبه بالمستشفيات حيث ورد في احد النصوص ان مغنيّات القصر المرضى كن يسكنّ في جناح معين.

وكان الطبيب يرتدي زياً خاصاً به وكان، كما تشير الى ذلك قصة فقير نفر التي سبق ذكرها في فصل آخر، حليق الرأس – وكان يحمل حقيبة مليئة بالاعشاب والعقاقير الطبية والضمادات والآت وادوات خاصة بالتضميد وربما الجراحة، وقد اشارت قوانين حمورابي الى الطبيب الجرّاح باكثر من مادة قانونية وحددت اجور العمليات الكبرى التي كان يقوم بها سواء اكان المريض حراً او عبداً او فقيراً، حيث حدد لكل فئة من الناس اجوراً معينة وفي الوقت نفسه عاقبت الطبيب الجراحَ ان هو قصّر في واجبه واهمل وتسبب في موت المريض او اتلاف احد اعضائه، كما في المادة الآتية :

اذا اجرى جراح عملية لاويلم بآلة برونزية مخصصة لهذا الغرض وانقذ حياته ، وقام بفتح محجر عين الرجل بنفس الآلة وانقذها فانه يستلم عشرة شيقلات من الفضة» (المادة ٢١٥).

في حين كانت الاجرة خمسة شيقلات إن كان المريض مشكينم وشيقلان فقط ان كان عبداً. اما اذا اهمل الجراح وقصّر وتسبب في اتلاف عين الرجل، عندها تقطع يده. وهكذا حددت الاجور والعقوبات في حالة الاهمال بالنسبة للفئات المختلفة من المرضى وبالنسبة الى نوع العملية او تجبير الكسور. كما اشارت القوانين ايضاً الى البيطار واجوره في عدد من المواد.[1] وتظهر الاجور التي كان يتقاضاها الطبيب مقارنة مع الاجور التي كان يتقاضاها غيره من الحرفيين، الى ارتفاع واضح ينمُّ عن مركز الطبيب الاجتماعي والاقتصادي ومكانتهم المتميزة بين افراد المجتمع لاسيما اذا كانوا من العاملين في القصر الملكي او المعبد. وقد اشارت بعض النصوص المسمارية الى رئيس الاطباء مما يشير الى ان الاطباء كانوا يؤلفون مايشبه النقابة او الصنف شأنهم في ذلك شأن اصحاب الحرف والمهن الاخرى كالصاغة والنجارين والتجار وغيرهم وربما كانت لهم مراتب او مراكز علمية خاصة يعرفون بها فيما بينهم او انهم كانوا ينتظمون وفقاً لتخصصاتهم، حيث ورد في النصوص المسمارية ذكر اطباء متخصصين بامراض العيون واطباء جراحين وبياطرة وغيرهم.

النصوص الطبية

تم الكشف عن عدد لابأس به من النصوص المسمارية ذات العلاقة بالممارسات الطبية في العراق القديم التي دون بعضها من اجل الاستفادة منها في تدريب وتعليم المبتدئين او من اجل استذكار الحالات المرضية المختلفة وكان لغيرها اهداف اخرى، كالقوانين التي حددت الاجور والعقوبات والمسؤوليات. ويمكن تصنيف النصوص المكتشفة الى الانواع الآتية:

(١) انظر قانون حمورابي المواد: ٢١٦ – ٢٢٣، ٢٢٤ – ٢٢٥.

١ – الوصفات الطبية

وهي اقدم النصوص الطبية المكتشفة ويرقى تاريخها الى عصر سلالة اور الثالثة ، ومع قدم هذه النصوص الا انها تطرقت الى وصفات عملية موضوعية لاذكر للمعزم او العّراف فيها ومما ورد في هذه النصوص نقتبس الآتي :

بعد سحق جذور النباتات (المنصوص عليها) مع القير المجفف الذي يؤخذ من النهر، ومزجه بالجعّة ، يدعك المكان المصاب بالزيت ويوضع (الدواء) على شكل كمادة».

بعد سحق بذور النباتات (المنصوص عليها) تمزج مع الجعة ، ومن ثم يشربها المريض» ويستنتج الباحثون من هذه الوصفات ان العراقيين القدماء استخدموا الادوية المختلفة بطرق مختلفة فمنها الكمادات واخرى بواسطة الدعك بالزيت وثالثة اخذت على شكل جرعات او حقن. والى جانب الوصفات الطبية من عصر اور الثالثة (٢١١٣– ٢٠٠٦ ق.م) ، فقد وصلتنا نصوص خاصة بالوصفات ايضاً من مكتبة آشور بانيبال وبعض المدن الاشورية والحثية من عصور مختلفة ذكرت انواعاً متعددة من النباتات والاشجار وغيرها استخدمت لاعداد الادوية. ومن الوصفات الطبية الطريفة توجيه المريض عدم اكل اكلات معينة :

«على الذين عندهم مرض في اعينهم عدم اكل الكراث او الكزبرة ، وعلى الذين يشكون الما في اذانهم عدم تناول الباقلاء...».

٢ – نصوص التشخيص والانذار

من النصوص المهمة ذات العلاقة بالممارسات الطبية الكهنوتية التي كان يقوم بها الاشيپُ والبارو نصوص عثر عليها في نينوىٰ في مكتبة آشور بانيبال وعلى بعض منها في مدينة بوغازكوي الحثية تتضمن اربعين فصلاً خاصة بتشخيص المرض والتنبوّ بما سيحل

بالمريض ويمكن تقسيمها الى خمسة اقسام فالقسم الاول والثاني منها عبارة عن نصوص فأل خاصة بالاشيبُ عندما يزور مريضه ومما جاء فيها:

«اذا رأى المعزم كلباً اسود او خنزيراً اسود، فسيموت المريض
اذا رأى المعزم خنزيراً ابيض، فسيعيش المريض
اذا سقطت افعى على فراش المريض، فسيشفى ذلك الرجل المريض
اذا سقطت عقرب على مريض فانه سيموت في اليوم العاشر...»

ومما جاء في وصف اعراض المرض وتشخيصه:

«اذا صرخ رجل مريض بغير انقطاع: جمجمتي، جمجمتي، فأنها يد الاله
واذا ما اشتد الالم في الجهة اليمنى، فانها يد الاله ادد
واذا ما غطت جسمه البثور الحمراء من رأسه حتى قدميه، وكان جسمه ابيض
فلقد اصيب عند جماعه بامرأة، يد الاله سين
اذا كان حاجباه ابيضين ولسانه ابيض، فان مرضه سيطول لكنه سيشفى».

ودون القسم الثالث من هذه السلسلة من النصوص على عشرة رقم طينية صنفت فيها الامراض حسب تطورها من اليوم الاول وحتى اليوم الخامس عشر احياناً وعلى النحو الآتي:

«اذا استمر المرض اربعة ايام وبقي المريض يضع يده على بطنه (من شدة الالم) وكان وجهه مصفراً فانه سيموت».
«اذا بعد اربعة او خمسة ايام ظل يعرق فسيخف المرض
اذا كان مريضاً لخمسة ايام وكان جلده مصفراً وعيناه محمرتين فانه سيموت...
اذا كان مريضاً لخمسة او عشرة ايام....

ويتضمن القسم الرابع حالات الهذيان واختلال العقل والصرع في حين كتب القسم الاخير، وهو القسم الخامس على ست الواح ويتعلق بأم المستقبل او المرأة الحامل والوليد نحو:

«اذا كان اعلى جبين المرأة الحامل لامعاً بالبياض فإن الجنين الذي تحمله سيكون بنتاً وستكون غنية.

اذا اخذ الطفل الثدي ولكنه لم يشبع وظل يصرخ فأنه مجروح داخلياً»

٣- النصوص التي تجمع بين التشخيص والوصفات

لقد حاول بعض الكتبة تدوين الوصفات الطبية التي استخدمها الاطباء والى جانبها تشخيص المرض الذي تعطى الوصفة له، واحيانا ذكر تشخيص المرض اولاً ومن ثم ذكرت الوصفة الطبية اللازمة لعلاجه. وبعض من هذه النصوص تضمنت ثلاثة حقول من الكتابة ذكر الحقل الاول منها اسماء الاعشاب المجربة، اي الوصفات اما الحقل الثاني فقد ذكرت فيه اسماء الامراض التي يعطى الدواء لها في حين كتب في الحقل الثالث الطريقة الموجزة لتحضير واعطاء الوصفة للمريض.

«الصبر، دواء لمعالجة المرارة، يفتت ويدق ويسخن ويوضع فوق اللسان ويشرب قبل الفطور مع الزيت المصفى».

«اذا كانت معدة رجل حارة ولا تقبل طعاماً ولا شراباً يأخذ بذور الطرفاء ويمزجها مع العسل وخثرة اللبن ويأكلها ويشفى»

«للتخلص من حرارة المعدة اسحق الادوية السبع، البيان والقصب الحلو...

والحلتيت والتمر وزيت التربنتين وبعد ان تصفى تنقع بالجعة وتسخن بالفرن ثم تصفى بعد تبريدها، وتضيف عليها قشور الشعير وتصب عليها ماء الورد وتضع ذلك في شرجه فيشفى».

٤ - **المواد القانونية التي ذكرت في قانون حمورابي والخاصة بتحديد اجور الطبيب الجراح والعمليات التي يقوم بها ومسؤولياته اذا قصر او اهمل وتسبب في موت المريض**

وقد سبق ان تطرقنا الى هذه المواد (المواد ٢١٥ - ٢٢٣)، والتي تعد من اقدم التشريعات الخاصة بالطب.

٥ - **الرسائل ونصوص اخرى متفرقة**

تم الكشف على عدد كبير من الرسائل الملكية او الرسائل المرسلة الى الملك من قبل الاطباء انفسهم تفصح عن حالات مرضية معينة كان الاطباء يعالجونها او يبعثون بالتقارير عنها الى الملك، كما يستفاد من بعض الرسائل ان بعض الاطباء من بلاد بابل وآشور كانوا موجودين في البلاط الحثي او المصري مما يشير الى مدى شهرتهم ومهارتهم الى الدرجة التي ارسلوا بعدها الى بلاطات الملوك لمعالجة مرضى الاسر الملكية الاخرى.

ويستفاد من هذه النصوص باصنافها المختلفة ان العراقيين القدماء كانوا قد وصلوا الى درجة متقدمة في الممارسات الطبية وانهم عرفوا تشخيص العديد من الامراض وشخّصوا الاعضاء التي يصيبها المرض واطلقوا تسميات مختلفة لتلك الامراض منها مايخص العين او الاذن او الاسنان او الامراض الجلدية والتناسلية والامراض النسوية والنفسية وغيرها، كما انهم برعوا بالجراحة وتجبير الكسور.

الدواء

اما بالنسبة الى الادوية، فقد اعتمدوا بالدرجة الاولى على الاعشاب والنباتات الا انهم استخدموا بعض المعادن والاملاح والاحجار كما استخدموا بعض المنتجات الحيوانية لاعداد الادوية. فمن النباتات استخدموا الجذور والبذور واللحاء والاوراق والفاكهة والاغصان والورود وعصيرها او مائها كما استخدموا اصنافاً معينة من النباتات كالثوم وعرق السوس والبصل.

وقد اتبعوا وسائل مختلفة لاعداد الادوية وتحضيرها واستخدموا احياناً طرقاً كيميائية تنم عن معرفة تامة بخواص النباتات والمعادن، فعرفوا كيفية استخلاص المواد وسحنها وتسخينها وتركيبها وتقطيرها وترشيحها. وكان الاطباء انفسهم هم الذين يعدّون ويحضّرون الادوية اللازمة لعلاج مرضاهم ولاسيما بالنسبة الى المرضى من الطبقة المتنفذة، ومع ذلك، ربما كان بعض العطارين يقوم بدور الصيادلة، كما يقومون اليوم بالنسبة للوصفات الشعبية.

وكان الدواء يؤخذ غالباً عن طريق الفم وكان يعد على هيئة محاليل او عصارات او منقوعات او سفوفات [١] او بشكل حبوب كما في الوصفة الآتية :

«اخلط شحماً حيوانياً صلباً مع بذور الحنظل مع طحين حبوب غير ناضجة لف الخليط (وجزّء الخليط) بـ ١٤ حبة وليبلع المريض هذه الحبات» . [٢]

وكان الدواء يؤخذ في اوقات معينة من الليل او النهار وحسب ارشادات الطبيب كما كانت الادوية تعطي احياناً عن طريق التبخير كما استخدموا الحقن الشرجي وعمل التحاميل . كما استخدمت بعض الادوية خارجياً ولاسيما للامراض الجلدية والحروق وكان من جملة هذه الادوية الدهون والمراهم ، كما جاء في احدى الرسائل المرسلة الى الملك الآشوري :

« ... وليستحم الملك فوراً فأن الحمى ستغادر سيدي الملك ، وليدلك سيدي الملك جسمه بالزيت مرتين او ثلاث مرات كما يعلم الملك ذلك واذا ارتأى الملك ذلك فليجر التدليك غداً فإن هذا المرض هو مرض القيح فليأمر الملك ان يجلبوا له عرق السوس ويجب ان يكون التدليك قوياً ونشيطاً كما ذكرت لتوّي مرتين ، وبنيّتي المجئ لكي اعطي التعليمات فاذا لم يتعرق الملك فاني سارسل الى الملك مجموعة من العقاقير وليضع منها على رقبته وليدهن الملك نفسه في اليوم المحدد بقماش سارسله الى الملك » . [٣]

وهكذا كان العراقيون القدماء السبّاقين في مختلف مبادئ العلوم والمعارف واول من وضع الاسس القوية لجميع العلوم والمعارف التي عرفتها الحضارات الاخرى فيما بعد . اضافة الى ذلك ، تشير الآثار المادية والنصوص المسمارية الى معارف العراقين القدماء بالمعادن والاحجار والاملاح المختلفة حيث كان لديهم معرفة بصلابة الصخور وانواعها وصولاً الى معرفة الآشوريين لانجذاب بعض المواد بعد دلكها بمادة اخرى . كما كانت لديهم

---

(١) عبداللطيف البدري ، من الطب الآشوري ، ص ض .

(٢) Thompson, Assyrian Medical prescriptions for disease of the stomach, p. 49.
نقلاً عن عبدالرحمن يونس ، ص ١٧٠ .

(٣) Pfeifler, R.H., State Letters of Assytia., New Haven , 1935, p.199 .

معرفة بانواع الحيوانات والنباتات كما تشير الى ذلك النصوص المعجمية المطولة التي تبحث في انواع الاشجار والشجيرات والنباتات والاعشاب وتذكر لنا قوائم اخرى اسماء الطيور والحيوانات الاخرى مصنفة باسلوب خاص، اضافة الى ما اظهرته المنحوتات وخاصة الآشورية منها من معرفة دقيقة بتشريح الحيوانات بشكل عام. [1]

مصادر منتخبة

الاحمد، سامي سعيد: الطب في العراق القديم، سومر، ٣٠(١٩٧٤)، ٧٩-١٣٦.

باقر، طه: قضايا رياضية اخرى من تل حرمل، سومر، ٦ (١٩٥٠)، ١٢٣-١٤٢: لوح رياضي على نظرية اقليدس من تل حرمل، سومر، ٦ (١٩٥٠) ٥-٢٨: قضايا رياضية اخرى من تل حرمل وتعليقات على الرياضيات البابلية، سومر، ٧ (١٩٥١)، ١٢٩-١٦٩. موجز في تاريخ العلوم والمعارف في الحضارات القديمة والحضارة العربية الاسلامية، بغداد، ١٩٨٠.

البدري، عبداللطيف: من الطب الآشوري، بغداد، ١٩٧٦ التشخيص والانذار في الطب الاكدي، بغداد، ١٩٧٦.

الجادر، وليد: الطب البابلي والآشوري، (مترجمة) سومر ٢٤ (١٩٦٨) ١٩١-٢٠٦.

حبّة، فرج: الكيمياء وتكنولوجيتها في العراق القديم، سومر ٢٥(١٩٦٩) ١٢٩-١٦٩.

الراوي، فاروق: الرياضيات، احد اهم المظاهر الحضارية في العراق القديم، بغداد، ١٩٨٩: العلوم والمعارف، حضارة العراق، ج٢، ٢٦٩-٣٦٨: المعارف والعلوم البحتة العراقية القديمة في: العراق في موكب الحضارة، ج١، ٢٧٣-٣١٨.

رشيد، فوزي: علم الفلك وقياس الأوقات في العراق القديم، آفاق عربية، بغداد، ١٩٨٦: العلوم الانسانية والطبيعية، موسوعة الموصل الحضارية، موصل، ج١:٣٧٣-٣٩٣.

---

(١) انظر فاروق الراوي، المعارف والعلوم، ص ٣٠٧-٣٠٨.

روتن ، مرغريت : علوم البابليين ، ترجمة يوسف حبّي ، بغداد ١٩٨٣ .
السامرائي ، كمال : الامراض النسوية في التاريخ القديم احياؤها في العراق الحديث، بغداد ، ١٩٨١ .
سارتون ، جورج : تاريخ العلم ، ترجمة مصطفى الامير وآخرون ، مصر ١٩٥٧ .
سليمان ، عامر: جوانب من حضارة العراق القديم ، العراق في التاريخ ، بغداد ، ١٩٨٣ ، ٢٢٢- ٢٣٤ .
ليفي ، مارتن : الكيمياء والتكنولوجيا الكيميائية في وادي الرافدين ، ترجمة محمود فياض المياحي ، وآخرون ، بغداد ، ١٩٨٠ .
هودجر، هنري : التقنية في العالم القديم ، ١٩٧٠ ترجمة رندة قاقيش ، عمان ١٩٨٨ .
يونس ، عبدالرحمن : الطب في العراق القديم ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الموصل ، ١٩٨٩ .

● الفصل العاشر ●

الفنون

نشأة الفنون عند الأنسان :

عاش الانسان الجزء الاعظم من حياته على الارض في عصور حجرية طويلة لم يكن للفن بها اي دور في حياته، وان كان قد رسم اشكال بعض الحيوانات على جدران كهوفه، كما تشير الى ذلك بعض المكتشفات الاثرية، الا ان تلك الرسوم لم تكن على اغلب الظن بدافع تذوق الفن او الرغبة بالتعبير عن الاحاسيس بل ربما كانت بدافع الخوف من تلك الحيوانات ومحاولة السيطرة عليها عن طريق محاكاتها ورسمها كجزء من طقوس سحرية لانعرف عنها اي شيء. وكيفما كانت الحال، فان عدد تلك الرسوم محدود ولاتعطي فكرة واضحة عن الانسان الذي رسمها وسواء اكانت قد رسمت لغايات سحرية ام فنية. الا ان الاثار المادية المكتشفة تشير الى ان الانسان بدأ منذ آواخر العصر الحجري الحديث، اي منذ الالف السادس قبل الميلاد، يتذوق الفن ويمارس انواعا معينة منه في منطقة الشرق الادنى القديم ولاسيما في كل من وادي الرافدين ووادي النيل، وهو امر طبيعي جدا طالما كانت هاتان المنطقتان قد احتضنتا اقدم حضارتين اصيلتين. فبعد ان كان الانسان قد ابتكر صناعة الفخار في اواخر العصر الحجري الحديث، بدأ بممارسة نوع من الفن في اختيار الاشكال وصقل الآنية ووضع الحزوز عليها لتزيينها، وشهد العصر الحجري المعدني (حدود ٥٦٠٠–٣٥٠٠ ق.م) تطورا فنيا كبيرا في صناعة الاواني الفخارية بشكل خاص، كما سبق وان اشير الى ذلك في مكان اخر، حيث بدأ بترويق الاواني وتلوينها حتى بلغت اوج جمالها الفني في الدور الحضاري الذي سمي بدور حلف في اواسط الالف الخامس قبل الميلاد حيث صنعت اجمل واقدم الاواني الفخارية المزوّقة والملوّنة في تاريخ هذا الفن سواء اكان ذلك الجمال والفن ناتج عن دقة الصنع او رقة وسمك الآنية ام جمال الاشكال

وتعدد الالوان وكثرة الزخارف النباتية والحيوانية والهندسية المنفذة عليها، وكل ذلك يعبّر عن تذوق الانسان الفني واهتمامه الكبير بهذا الجانب غير المادي من جوانب حياته بعد ان كان قد وفّر لحياته المستلزمات الضرورية لادامتها فزرع الارض وقام بمشاريع الري وضمن الرزق. وقد استمرت صناعة الفخار الملوّن والمزخرف في العصر التالي، وهو عصر العبيد، الا ان هذا النوع من الفخار انقطع مع نهاية العصر الشبيه بالكتابي (حدود ٣٠٠٠ ق.م) ربما لشيوع استخدام المعادن، واتجه القوم في التعبير عن ذوقهم الفني الى ميادين اخرى كصناعة الاواني المعدنية وصناعة الحلي الجميلة ونحت التماثيل والمسلات الى جانب الفن المعماري وفن صناعة الاختام الاسطوانية وغيرها من ضروب الفن.

ومعلوماتنا عن الفنون بصورة عامة لاترتبط ارتباطا وثيقا بالكتابة وتاريخ ابتداعها وما تم الكشف عنه من نصوص مسمارية كما هي الحال بالنسبة لكثير من المظاهر الحضارية الاخرى بل اننا نستمد جلّ معلوماتنا من الاثار المادية التي خلفها لنا الانسان وعليها طابع او مسحة فنية سواء اكانت بناء شاده الانسان ام قطعة حلي او اثاث او آنية او غير ذلك، لذلك تمتدّ معلوماتنا عن الفنون ونشأتها الى العصور الحجرية خلافا لمعظم العلوم والمعارف الاخرى التي سبق وان تحدثنا عنها. ومع ذلك، فقد امدتنا النصوص المسمارية بمعلومات اضافية عن جوانب معينة من الفنون ولاسيما الفنون التي اعتمدت على اللغة، كالادب بضروبه المختلفة، والغناء، وقدّمت لنا تسميات كثيرة لآلات موسيقية وغيرها مما لم يتم العثور على نماذج منها بعد.

ومما يلاحظ في الاعمال الفنية التي خلّفها لنا العراقيون القدماء بصورة عامة بأنها لاتعبّر عن شخصية الفنان الذي انجزها بل انها جاءت معبّرة عن المدارس والتقاليد الفنية السائدة في وقت انجازها والتي كانت تشيع في المدن والمراكز الحضارية المختلفة بسرعة وتتبع من قبل النحاتين او النقارين او صناع الاواني الفخارية وغيرهم ممن انجزوا الاعمال الفنية، فكانت الاشكال موحدة والزخارف متشابهة حتى اصبح من الممكن للباحث المعاصر ان يحدد العصر الذي تعود اليه القطعة الفنية بمجرد النظر اليها، كما ان الفنانين لم يتركوا لنا اسماءهم على اعمالهم الفنية، كما يفعل الفنانون في الوقت الحاضر، طالما لم يكن عملهم يتم للتعبير عن احاسيسهم ومشاعرهم الفنية بل كان عبارة عن تنفيذ اشكال ورسوم معينة شائعة ابتكرت اصلا لخدمة المعبد او القصر وقلما نجد قطعاً فنية انجزت لاشخاص اعتياديين او انها انجزت لغاية الفن نفسه، شأنها في ذلك شأن الاعمال الفنية التي ينجزها حاليا كل من النقار والحفّار على الخشب والصائغ والحدّاد وغيرهم ممن يصنعون القطع الفنية السائدة والشائعة دون ان يذكروا اسماءهم او ان تظهر شخصياتهم على القطع التي يتم انجازها من قبلهم الا بقدر اتقان المهنة اوعدم اتقانها.

ان المخلفات الفنية التي تم الكشف عنها في مدن العراق القديمة كثيرة جدا ومتنوعة، فهي تشمل الفن المعماري وفن النحت باشكاله المختلفة، المدور والبارز والنحت على الاختام والحفر على العاج والخشب، كما تضم فن تزويق الاواني الفخارية والاختام الاسطوانية والاواني الاخرى المصنوعة من الحجر او الخشب، وفن زخرفة المنسوجات وتلوينها وفن الموسيقى والغناء والرقص وفن صناعة الاثاث وترويقها وزخرفتها بل ان الفن قد يظهر في معظم المظاهر الحضارية حتى في اسلوب الكتابة واختيار العلامات الجميلة ونحتها على الحجر او طبعها على الطين. ومن ضروب الفن ما سبق الحديث عنه في فصول سابقة، كفن تزويق وتلوين الفخار وصناعة الاختام الاسطوانية والفنون ذات العلاقة باللغة والادب او الخاصة بالكتابة مما ستجاوزه هنا منعا للتكرار، وسنحاول في الصفحات الآتية اعطاء فكرة موجزة عن الفنون الاخرى التي لم يسبق التطرق اليها في الفصول السابقة محيلين الطالب الى الكتب والبحوث الكثيرة التي صدرت مؤخرا عن حضارة العراق بصورة عامة وتناولت مختلف العلوم والمعارف والفنون بشيء من التفصيل وفي مقدمتها كتاب او موسوعة حضارة العراق.

ومع كل ذلك، فان الاعمال الفنية التي خلّفها لنا العراقيون القدماء وان كانت لاتنسب الى اشخاص معينين ولا تعبر عن شخصياتهم الا انها تدل على مهارة فائقة في التنفيذ وتذوق فني ورغبة في محاكاة الطبيعة احيانا او الرمز الى الاشياء.

فن العمارة

من الممكن تتبع اصول وبدايات العمارة في العراق القديم الى العصر الحجري الحديث في القسم الشمالي من العراق (بلاد آشور) حيث بدأ الانسان ولاول مرة يبني البيوت البسيطة بالقرب من الارض الزراعية، وكانت البيوت الاولى بالتأكيد غاية في البساطة والسماجة، ثم ما لبث الانسان ان بدأ بتطوير اسلوب البناء واستخدام مواد انشائية احسن من قبل وبدأ منذ العصر الحجري المعدني ببناء الابنية العامة المخصصة للتعبد، اي المعابد واخرى لسكنى الحاكم وموظفيه، اي القصور. وزادت وتنوعت الابنية العامة في العصور التالية فكان هناك الحصون والقلاع والمدن المسوّرة ببواباتها الضخمة وابراجها الشاهقة.

وقبل ان نتحدث عن العمارة في العصور العراقية القديمة وما خلفته من آثار، لابد من التعرف على العوامل الاساسية التي كانت ولاتزال تؤثر في التشكيل المعماري بصورة عامة فمن هذه العوامل عوامل جغرافية ذات علاقة بانواع التربة والصخور والغابات المتوفرة في

المنطقة، او ذات علاقة بالمناخ سواء من حيث ارتفاع او انخفاض درجات الحرارة او البون الشاسع بين درجات الحرارة بين الصيف والشتاء او بين الليل والنهار. كما كان هناك عوامل داخلية تتمثل بالتقاليد المتوارثة التي كانت تؤثر على الطرز المعمارية واخرى خارجية ناتجة عن التأثيرات الوافدة من البلدان والاقاليم المجاورة التي احتك بها العراقيون القدماء واخيرا فقد كان لابداع الفنانين المعماريين دور كبير في ظهور وابتكار طرز معمارية دون غيرها وهناك من يضيف عوامل اخرى اثرت في الفن المعماري منها الظروف الاجتماعية والمعتقدات الدينية التي يمكن ادخالها ضمن عوامل الابداع والابتكار[1].

وربما كانت العوامل الجغرافية اكثرها تأثيرا في الطرز المعمارية التي ظهرت في العراق عبر العصور المختلفة. وكما هو معروف ان تربة ارض الرافدين تربة طينية رخوة في معظم انحاء بلاد بابل وآشور وتصبح لزجة ومتماسكة اذا ما اصابها الماء لذلك اتجه سكان المنطقة ومنذ اقدم العصور الى عمل كتل من الطين كانت في بداياتها غير منتظمة لبناء جدران البيوت مما عرف بالطوف ثم تطورت طريقة استخدام الطوف وغدت كتل الطين منتظمة الشكل وتصب بقالب خشبي ويخلط مع الطين القش والتبن لزيادة تماسك ذرات الطين ومن ثم تجفف في الشمس وتستخدم بعدها لبناء الجدران، وقد عرف الطين المجفف بهذه الطريقة باللبن. وكان الطين يستخدم ايضا كمادة لاصقة بين قطع اللبن نفسها. وقد تنبه العراقيون منذ اقدم العصور الى خاصية الطين في العزل ومنع تسرب الحرارة او البرودة، فزادوا في سمك جدران البيوت والقصور لتحقيق عزل كامل عن الجو الخارجي وفي الوقت نفسه زيادة قوة الجدار. وقد ظل استخدام اللبن شائعا في العراق وفي مختلف المناطق كمادة اساسية للبناء على الرغم من استخدام مواد ثانوية اخرى. ففي بلاد آشور تتوفر الحجارة الصالحة للبناء وتغليف الجدران وعمل المنحوتات، لذا اتجه السكان ومنذ العصر الحجري المعدني الى استخدام الحجر في بناء الاسس اولا، ثم شاع استخدام الحجر لتغليف الجدران من الداخل والخارج ولاسيما جدران القصور الضخمة، كما استخدم الحجر لبناء الاسوار والبوابات وصناعة التماثيل والمنحوتات التي استخدمت كاجزاء من الابنية وكان ذلك في العصور الآشورية المتأخرة على وجه الخصوص. اما في بلاد بابل حيث تفتقر المنطقة الى الحجارة، فقد استعيض عنها بالآجر وهو لبن مشوي بالنار استخدم كمادة ثانوية لتغليف بعض جدران القصور والمعابد كما استخدم في بلاد آشور ايضا للغرض نفسه واحيانا لبناء القبوات والعقادات وتغليف اركان الابنية الكبيرة والضخمة. وكان استخدامه محدودا لغلاء ثمنه قياسا مع كلفة البناء باللبن المجفف بالشمس. وكانت خواص الآجر شبيهة

---

(١) انظر عاد، نجم عبو، فن العمارة في: موسوعة الموصل الحضارية، ج١، ص ٣٩٤.

بخواص اللبن من حيث عزل الحرارة والبرودة اضافة الى قوة البناء بالآجر مقارنة مع الابنية المشيدة باللبن، وقد استخدم الطين غالبا كمادة لاصقة وفي احيان قليلة ولاسيما في اجزاء الابنية المعرضة للامطار وحرارة الشمس، استخدم القير كمادة لاصقة[1] كما استخدم الجص ايضا ولكن على نطاق محدود.

والى جانب اللبن والآجر استخدم سكان بلاد بابل قصب البردي وسعف النخيل لبناء بيوت شبيهة بما هو معروف الان في المنطقة نفسها والمعروفة باسم (الصرايف) لاسيما في منطقة الاهوار والمستنقعات لملائمة هذه البيوت لظروف المنطقة البيئية.

وهكذا كان لتوفر المواد او قلّتها في المناطق المختلفة من العراق اثر كبير في اختبار المواد المستخدمة للبناء كما كان لتلك المواد اثرها في الطرز المعمارية واساليب البناء. الى جانب ذلك، فقد كان لقلّة الآخشاب الجيدة في كل من بلاد بابل وآشور، ولاسيما في بلاد بابل، اثره في توجه السكان الى ابتكار القبو والعقادة والاستعاضة عن السقوف الخشبية المغطاة بالحصير والطين باقبية او عقادات مشيدة بالآجر.

كما كان للتقاليد الموروثة اثرها في شيوع او اختفاء طرز معمارية معينة ولعل من خير الامثلة على ذلك شيوع بناء الزقورة واستخدام الطلعات والدخلات في تزيين جدران المعابد وتشابه تخطيط المعبد في جميع العصور والمناطق. من جانب آخر دخلت بلاد بابل وآشور طرز معمارية بتأثير الاحتكاك والاتصال بالبلدان الاخرى او نتيجة دخول او غزو اقوام اجنبية، واوضح ماظهر ذلك في فن بناء الاسوار في بلاد آشور، كما كان للمعمار العراقي القديم دوره الكبير في الابداع وابتكار ما ينسجم وطبيعة ارض الرافدين وطبيعة المواد المتوفرة فيها .

العناصر المعمارية

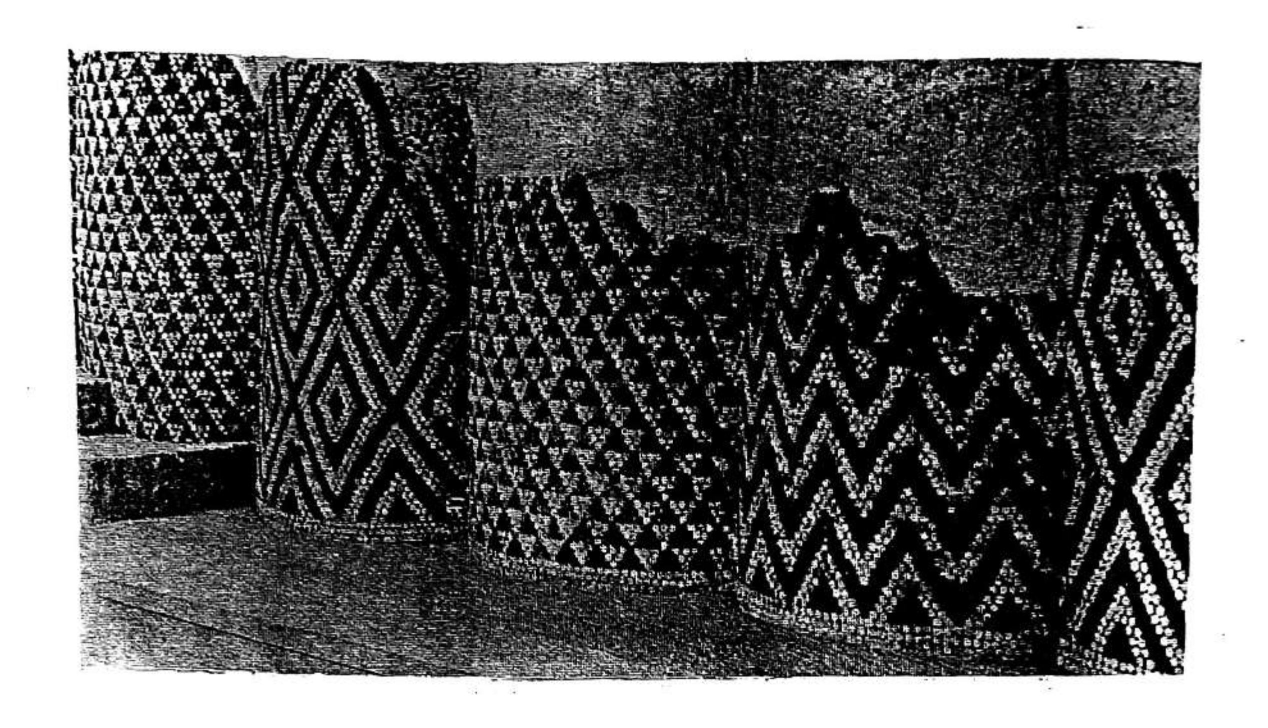
تميز الفن المعماري في العراق القديم بعدد من العناصر المعمارية التي ابتكرها المعمار العراقي القديم بما يتلائم وطبيعة المنطقة كما اسلفنا. ومن المؤكد ان العناصر المعمارية التي انتشرت في بلاد بابل كانت تختلف بعض الشيء عما يقابلها في بلاد آشور نظرا لاختلاف البيئة الجغرافية وما يتوفر فيها من مواد انشائية استخدمت للبناء. ومن العناصر المعمارية البارزة التي يمكن ارجاع اصولها الى سكان وادي الرافدين اسلوب البناء بالطلعات والدخلات. وهو اسلوب خاص ببناء جدران المعابد من الخارج هدفه تقوية الجدار وزيادة تماسكه خاصة

(١) انظر وليد الجادر، العمارة في حضارة العراق، ج٣، ص ٨٣–٨٥.

اذا كان جدارا طويلا ومرتفعا اضافة الى ذلك فقد استخدم لاضفاء مسحة جمالية على الجدار. وقوام هذا الاسلوب في البناء هو بروز اجزاء معينة من الجدار الى الخارج وانخساف اجزاء اخرى وبشكل منتظم ويشبه ذلك بناء الاسيجة في الوقت الحاضر التي تتخللها اعمدة او انصاف اعمدة مربعة او مستطيلة المقطع تبرز عن مستوى السياج الى الخارج. وقد استخدمت الطلعات والدخلات منذ عصور ما قبل التاريخ فكانت تزين جدران معابد دور الوركاء ومابعدها، كما اظهرت التنقيبات الاثرية التي اجريت في وادي النيل انتقال هذا الاسلوب في البناء الى مصر منذ عصر فجر السلالات مما يؤكد وجود علاقات تجارية بين بلاد وادي الرافدين وبلاد وادي النيل منذ مطلع الالف الثالث قبل الميلاد على اقل تقدير. كما كان من اساليب البناء المميزة في العراق القديم اسلوب البناء فوق مصاطب اصطناعية مشيدة من اللبن، وقد ترتفع هذه المصاطب الى عدة امتار كما يظن ان اصول بناء الزقورة يرجع، كما سبق وان اشرنا، الى تطور اسلوب البناء فوق مصاطب متعددة، وقد استمر هذا الاسلوب في البناء على المصاطب وكذلك استخدام الطلعات والدخلات حتى العصور الآشورية المتأخرة واثر في الفن المعماري في العصور التالية.

وظهر في اواسط الالف الرابع قبل الميلاد، اي في دور الوركاء وجمدة نصر، اسلوب جديد في تزيين جدران المعابد ولاسيما واجهاتها، قوامه تغليف تلك الواجهات بصفوف من المخاريط او المسامير الفخارية التي كانت رؤوسها تلون بالوان مختلفة وكانت هذه المسامير تثبت على واجهة المعبد بمادة لاصقة، هي الطين غالباً، بحيث تظهر رؤوسها ذات الشكل الدائري، وترتب بشكل هندسي جميل لتكون مربعات ومثلثات منتظمة ذات الوان متباينة: تماما كما تستخدم قطع الفسيفساء لتزيين الجدران والارضيات. ومن اجمل الامثلة المكتشفة من المسامير الفخارية ما كان يزين معبد كشف عنه في العقير وآخر في الوركاء.

وكان من الابتكارات الجديدة في عصر الوركاء ايضا القبو والعقادة، وهما من العناصر المعمارية التي كان يظن بانها من ابتكار المعمار الروماني الى ان اثبتت المكتشفات الاثرية في العراق استخدامها منذ عصر فجر السلالات وان كان استخدام القبو والعقادة في هذا العصر كعنصر ثانوي وعلى نطاق ضيق جدا حيث وجد بانه استخدم لتسقيف قبور مقبرة اور الملكية ثم شاع استخدام القبو منذ اواسط الالف الثاني قبل الميلاد ولاسيما في بلاد آشور. اما العقادة فكانت تستخدم لتغطية الطاقات الصماء الصغيرة او مداخل البوابات وفي بلاد آشور على وجه الخصوص. كما اظهرت التنقيبات الاثرية في بلاد آشور استخدام الايوان منذ عصور مبكرة وتبين للباحثين خطأ ما كان يذهبون اليه بانه، اي الايوان ،



يرجع باصوله الاولى الى ايران. وقد ظل الايوان ملازما الطرز المعمارية العراقية القديمة في بلاد آشور والمناطق المجاورة في العصور المتأخرة وكان اكثر وضوحا في مدينة الحضر[1]

ومن العناصر المعمارية الاخرى التي شاع استخدامها في العراق القديم الاعمدة والسلالم والقباب واساليب التهوية والانارة الخاصة وغيرها، وقد كشفت لنا التنقيبات الاثرية عن نماذج كثيرة منها اثبتت اصولها العراقية واستمرار استخدامها عبر العصور.

وحيث ان العراقيين القدماء استخدموا اللبن في البناء بالدرجة الاولى في كل من بلاد بابل وآشور، فانهم لم يستخدموا الحجارة او الآجر الا على نطاق ضيق وفي اجزاء معينة من البناء، ونظرا لافتقار اللبن الى جمالية المظهر والى القوة والمتانة خلافا للمواد الانشائية الاخرى كالحجر المهندم، اي الحلان او الرخام، او الآجر المفخور، فقد حاول المعمار العراقي القديم ابتكار طرق جديدة لاضفاء مسحة جمالية على الابنية العامة والخاصة فدأب القوم على اكساء الجدران بطبقة من الطين الناعم المصقول وكانوا يكررون عملية الاكساء هذه سنويا احيانا، او كل بضع سنوات، لتقوية الجدران وسد الشقوق وتجميل المنظر

(١) حول تفصيل هذه العناصر المعمارية انظر عادل نجم عبو، الفن المعماري، ص ٤١٠-٤١٧.

الخارجي. كما استخدم الطلاء الملّون، ولاسيما اللون الابيض، لطلاء الجدران من الداخل والخارج، وفي العصور المتأخرة نسبيا استخدم الجبس والجص لطلاء الجدران واعطائها قوة وجمالا ولوناً برّاقاً.

اضافة الى ذلك، كانت جدران بعض المعابد، ولاسيما المعبد العالي الذي كان يشيد على المصطبة العليا من الزقورة، تزين برسوم جدارية قوامها زخارف هندسية ورسوم حيوانات واشكال آدمية ملّونة تعد من اقدم الرسوم الجدارية المعروفة. وقد ظلت طريقة تزيين الجدران بالرسوم وصبغها بالالوان الى عصور متأخرة. كما استخدم الآجر المموّه بالمينا والمزجج لتزيين واجهات القصور والمعابد، كما يلاحظ ذلك بجلاء في قصر سرجون الثاني في دور-شروكين (خرصباد) وفي شارع الموكب في بابل نبوخذنصر الثاني، كما استخدمت المنحوتات الجدارية المنحوتة نحتا بارزا لتزيين جدران المعابد من الداخل، وكانت هذه المنحوتات مربعة الشكل غالبا وصغيرة الحجم وكانت تعلق على الجدران في العصور السومرية الاولى. وفي العصور الآشورية، ولع الملوك الآشوريون بتزيين جدران قصورهم من الداخل والخارج بمنحوتات رخامية، او من الصخر الحلاّن، ضخمة كان تؤطّر الاجزاء السفلى من الجدران وقد نحت عليها مشاهد ملكية واخرى حربية ودينية مختلفة، وكانت قطع الرخام تستخدم عادة في الاماكن المحمية بالسقوف في حين كانت المنحوتات التي تغلف الاجزاء المعرّضة للامطار وحرارة الشمس بمنحوتات من حجر الحلاّن الاكثر قوة وصلابة من الرخام، وكلا النوعين هما من الحجر الكلسي المتوفر بكثرة في بلاد آشور، في الموصل وما حولها.

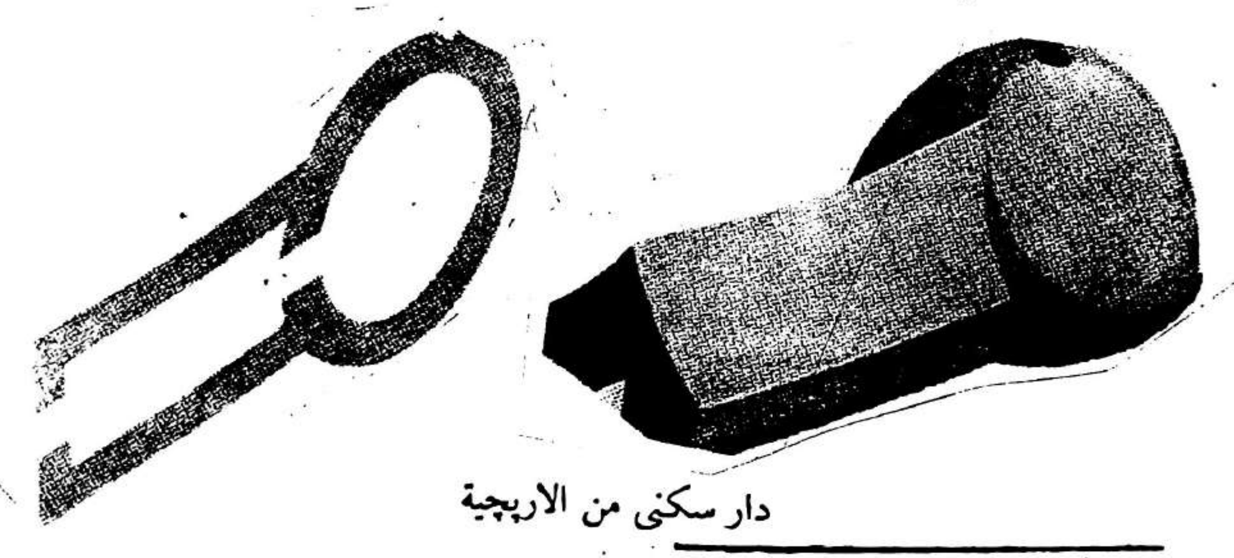
الطرز المعمارية

تعد بيوت السكن من اقدم النماذج المعمارية التي انجزها الانسان، ويمكن تتبع بدايات البيوت او الوحدات السكنية التي بناها الانسان الى العصر الحجري الحديث في القسم الشمالي من العراق. ففي هذه المنطقة من العراق، اهتدى الانسان الى الزراعة وتدجين الحيوانات واستقر نتيجة ذلك الى جوار ارضه الزراعية بعيدا عن الكهوف والمغاور التي اعتاد العيش فيها في العصور الحجرية السابقة، وبدأ باعداد اماكن مناسبة لسكناه. وكانت اولى الابنية او الاماكن التي عاش فيها الانسان عبارة عن حفر دائرية، صفت ارضياتها بالجص والحجارة[1]. وفي الالفين السابع والسادس قبل الميلاد، كانت وحدات الانسان السكنية مبنية على وجه الارض وعلى شكل دائري ايضا حيث كان هذا الشكل

(١) انظر جابر خليل، تخطيط المدن في : موسوعة الموصل الحضارية، ج١، ص ٤٣٤.

اكثر ملائمة لنوعية وطبيعة المواد الانشائية المستخدمة في البناء اضافة الى ملائمته لطبيعة الظروف التي عاشها الانسان وما استلزمته من دفاعات احترازية ضد اي اعتداء خارجي [1]. وقد كشف عن بقايا هذه البيوت في كل من زاوي چمي وملفعات وام الدباغية ويارم تپة في شمال العراق، وشاع استخدامها في دور حلف وانتشرت بكثافة في اطراف الجزيرة والمناطق المجاورة للموصل، واستمر استخدام المخطط الدائري في الالفين الخامس والرابع قبل الميلاد ولكن على نطاق محدود. وكانت البيوت الدائرية مشيدة على اسس من الحجر تعلوها جدران مشيدة بكتل من الطين غير منتظمة (طوف)، في حين استخدم الطين الرائب مادة لاصقة (ملاط). وقد تطور عن هذه الابنية الدائرية البيوت المستطيلة والمربعة وكان تطورا محليا وليس بتأثير عوامل خارجية، ومع ذلك ظلت البيوت الدائرية من هذا النوع مستخدمة ولكن بشكل محدود جدا. وكانت البيوت المستطيلة والمربعة قد استخدمت في القرى الزراعية الاولى حيث كشف عن بقاياها في كل من قرية جرمو قرب كركوك وقرية حسونة قرب الموصل حيث كشفت التنقيبات التي اجريت فيها عن ابنية بيوت قوام البيت غرف صغيرة ذات جدران غير منتظمة مرتبة حول فناء صغير مفتوح، ثم زاد عدد الغرف وغدت اقرب الى الشكل المستطيل منه الى الشكل المربع.

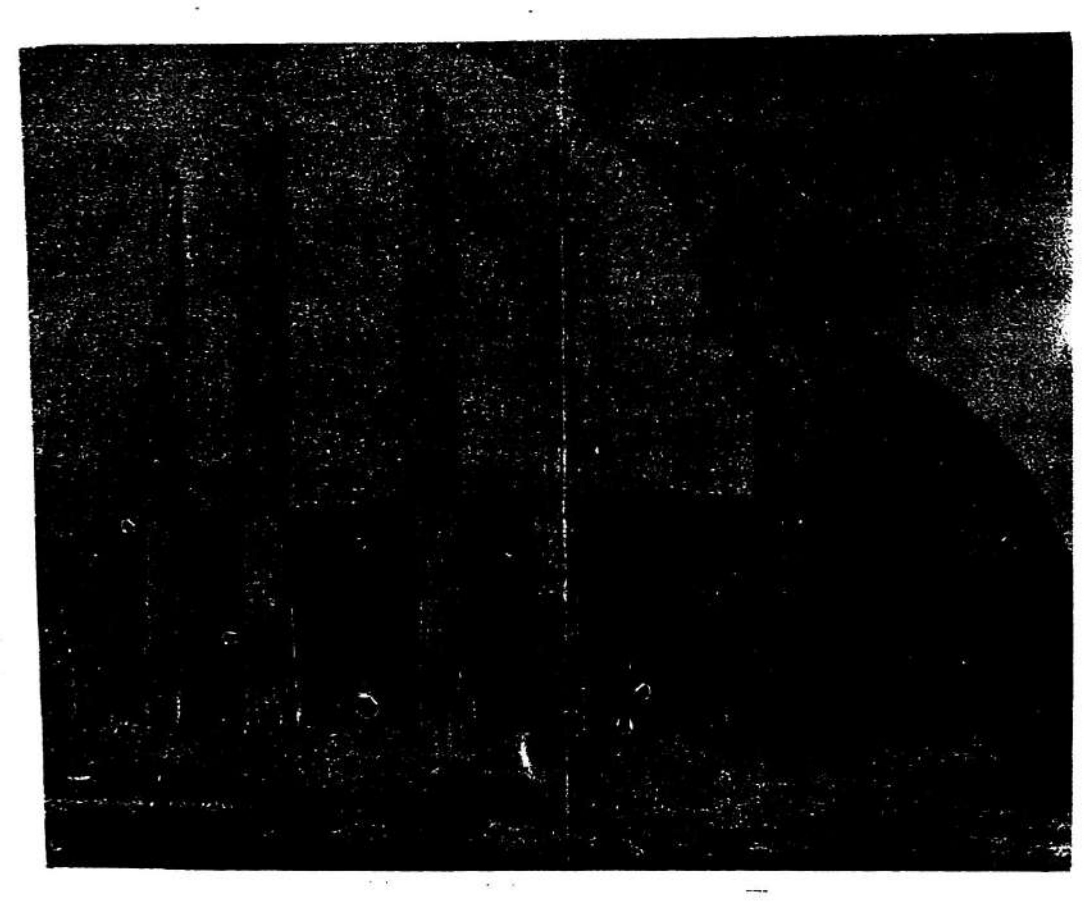
وغدت البيوت تضم الى جانب غرف السكن مخازن للمؤن وزرائب للحيوانات وممرات وغيرها من المرافق وكانت سعتها وعدد غرفها تتناسب وعدد افراد الاسرة. وفي دور حلف من العصر الحجري المعدني ايضا ظهر نوع جديد من البيوت السكنية ذات مخطط دائري ايضا ينفذ اليه بواسطة دهليز مستطيل طويل الشكل، وقد عرف هذا النوع من البيوت باسم ثولو وكشف عن عدد من هذه البيوت في قرية الارپچية داخل حدود مدينة



دار سكني من الارپچية

(1) انظر وليد الجادر، العمار، في حضارة العراق، ج٣، ص ٧٨.

الموصل الحالية، الا ان هذا الطراز من بيوت السكن لم يستمر طويلا بل حلّ محلّه الطراز المربع والمستطيل الآنف الذكر وظل التخطيط العام للبيت العراقي القديم محافظاً على تخطيطه العام في العصور التالية ولم يتغير تغيراً جوهرياً طالما كانت الظروف المناخية مستقرة والمواد الانشائية المتوفرة واحدة وحاجيات الانسان متشابهة. ومن الطبيعي ان معارف الانسان وتجاربه قد انتقلت الى القسم الجنوبي من العراق منذ ان بدأ الاستيطان فيه لاسيما اذا اخذنا بالرأي القائل بان سكان القسم الجنوبي من العراق كانوا قد جاءوا من القسم الوسطي والشمالي من العراق وليس من خارج حدود بلاد بابل وآشور. الا ان طبيعة المنطقة الجنوبية الجغرافية وكثرة الاهوار والمستنقعات فيها وتميز تربة المنطقة بانها تربة غرينية رخوة، كل ذلك دفع بالسكان الى بناء بيوت خفيفة تتلائم وهذه الطبيعة وقد استعانوا بالمواد الاولية المتوفرة، وهي القصب (البردي) والطين، فكان ان بنوا بيوتهم، كما تظهر ذلك المشاهد المنحوتة على الاختام الاسطوانية والمنحوتات الحجرية، على شكل مستطيل غالبا وذات سقوف مستوية او هرمية او على شكل جملون مشيدة بالقصب تماما كما يفعل سكان المنطقة نفسها حتى الان عند بنائهم البيوت التي تعرف عادة باسم 'الصرايف' حيث كانت حزم القصب تُربط مع بعضها وتشكل كل حزمة على هيئة قوس تغطي



سقف الغرفة المستطيلة ثم تغطى بعد ذلك بطبقة من الطين، وكان للبيت باب من الخشب وقد تستخدم دعامات اضافية في وسط البناء لاسناد السقف واعطاء البيت جمالية معينة. الى جانب هذه البيوت، عرفت البيوت من الطراز الذي شاع استخدامه في القسم الشمالي من العراق والذي ما زال الى الان معروفا في شمال وجنوب العراق، ويعرف طرازه محليا بالطراز الشرقي ويتألف من فناء وسطي تحيطه الغرف والمخازن والمرافق الاخرى. وقد تميزت البيوت بصورة عامة بصغر حجم المنافذ والشبابيك لحماية البيت من حرارة الشمس المحرقة وبرودة الجو القارص في الشتاء.

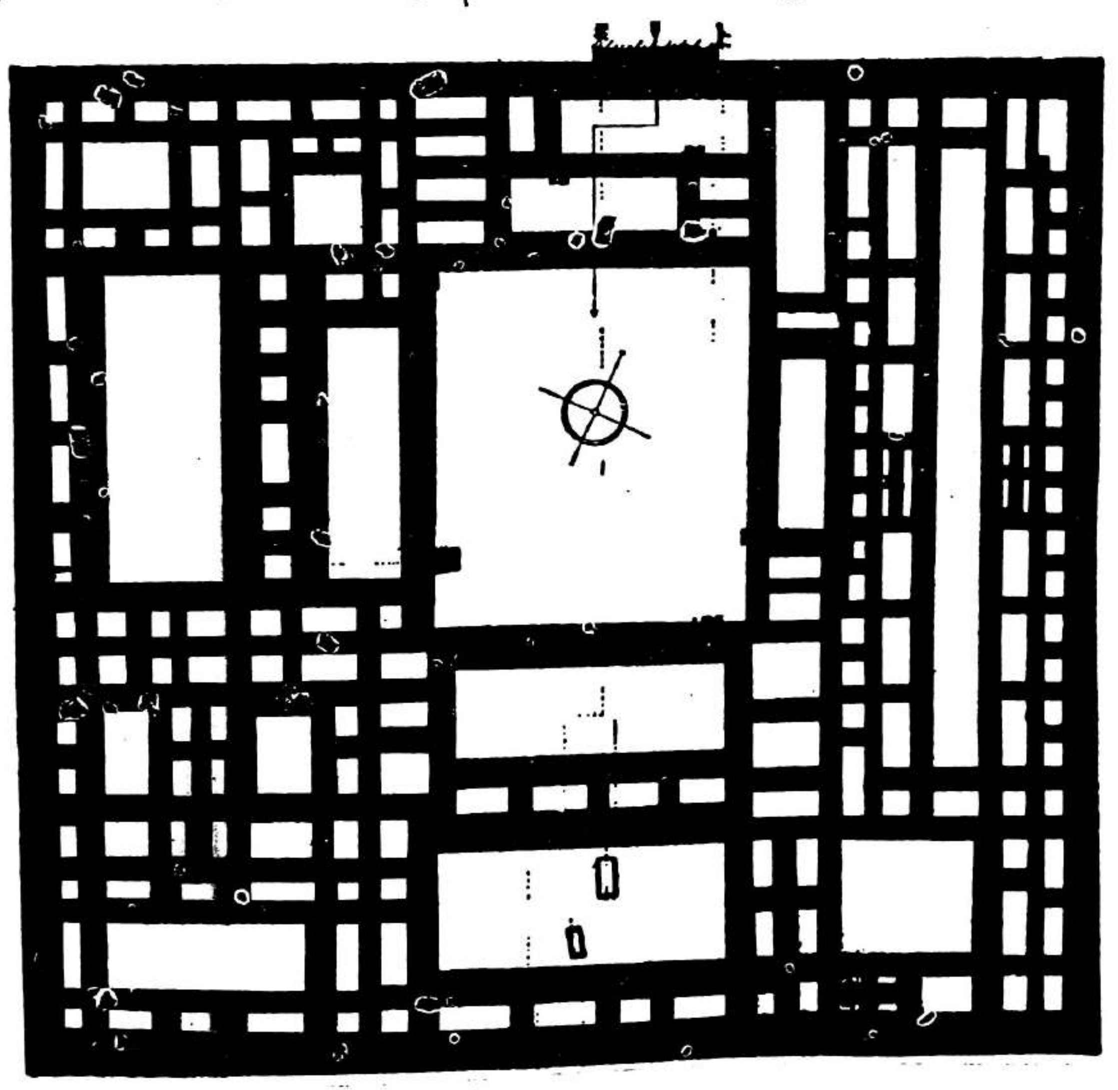
وقد ظل طراز بناء البيوت شائعاً في العراق بنوعية الآنفي الذكر دون تغيير جوهري لآلاف من السنين بل يمكن القول ان تلك الطرز ظلت شائعة في العراق الى الوقت الحاضر في القرى والأرياف والاحياء القديمة في المدن وان ذلك يعد دليلاً قاطعاً على ملائمة هذه الطرز من البيوت لطبيعة المنطقة وظروفها المناخية ومعرفة العراقيين القدماء وتنبههم الى ذلك منذ آلاف السنين، الا ان مايؤسف عليه ان تيار الحضارة الغربية الحديث قد دفع بالعراقيين في العصور الحديثة الى التقليد، وكان من مجالات التقليد والتشبه بالحضارة الغربية -اننا تركنا طرز البناء القديمة واستعضنا عنها بطرز غربية مختلفة تستخدم مواد انشائية، كالسمنت والحديد، تنقل الحرارة والبرودة بسرعة كما تميزت البيوت الحديثة بسعة منافذها وكثرة استخدام الزجاج فيها مما عرّض سكان البيت الى حرارة الشمس المحرقة وبرودة جو الشتاء وعبثا يحاول الناس استخدام المكيفيات والستائر والحواجز لمنع دخول الحرارة والبرودة الى داخل البيت.

٢ - طرز بناء القصور

اشرنا في فصل سابق كيف ان الحكام الأوائل في القسم الجنوبي من العراق كانوا يعيشون في اجنحة خاصة تابعة للمعبد اتخذوها مقرّات لحكمهم الديني والدنيوي، وقد عرف مقر الحاكم هذا باسم إكيپار Egipar. ويصعب التعرف على مخطط هذه الأجنحة طالما كانت جزءاً من المعبد. ومنذ عصر فجر السلالات، انتقل الحاكم او الملك للعيش في مكان مستقل فكان بناء اول القصور الملكية. وتشير النصوص المسمارية الى ان القصر غدا بعد فترة وجيزة من انفصال السلطة الدينية عن السلطة الدنيوية، مقراً ومركزاً لادارة شؤون المملكة ولم يكن مقصوراً على سكنى الملك الحاكم وافراد اسرته، وهذا ماتؤكده المكتشفات الاثرية التي بينت اجنحة القصر المختلفة. وقد تم الكشف عن عدد من

القصور الملكية من عصر فجر السلالات منها قصر كيش وقصر اريدو. وفي كل من هذين القصرين كشف عن عدد من الغرف تحيط بفناء وسطي كما كشف عن قاعة كبيرة فيها اعمدة وسطية وربما كان هناك اكثر من قاعة رئيسة واحدة كما كشف عن قصر ملكي آخر من هذا العصر في مدينة ماري على نهر الفرات ضم اضافة الى عدد كبير من الغرف، مرافق كثيرة اخرى كالافران والحمامات ذات الاحواض ودورات المياه والمدفئات ذات المداخن وجناح يظن انه كان مدرسة لتعليم الصبيان حيث عثر في الغرفة على مصاطب من اللبن اعدت لجلوس التلاميذ اضافة الى المخازن والمستودعات.[1]

ومن العصر الأكدي (٢٣٧١ - ٢٢٣٠ ق.م)، لدينا نموذجان من العمارة الملكية احدهما يتمثل بقصر ملكي غاية في الدقة والتنظيم من حيث التخطيط كشف عنه في



مخطط قصر أكدي في مدينة اشور

(١) انظر ثروت عكاشة، الفن العراقي، بيروت، ص ١٥٠ — ١٥١.

مدينة آشور، وقد ضم الى جانب الغرف المفردة والمزدوجة المحيطة بالأفنية والساحات، قاعتان رئيستان لابد وان كانت احداهما قاعة العرش. اما النموذج الثاني فيتمثل بقصر نرام- سين، حفيد سرجون مؤسس الدولة الاكدية، المكتشف في تل براك على الخابور المؤلف هو الآخر من عدد من الأفنية الوسطية تحيط بها الغرف، وهو يشبه في مخططه القصر المكتشف في آشور.

ومن عصر اور الثالثة (٢١١٣- ٢٠٠٦ ق.م) تم الكشف عن بقايا قصر اور- نمّو مؤسس السلالة، وتبين بأنه كان يضم ثلاثة اجزاء رئيسة يتألف كل منها من ساحة وسطية تحف بها الغرف والأجزاء الثلاثة مرتبطة مع بعضها في وحدة بنائية متكاملة هي القصر. كما ضم القصر قاعة خاصة بالعرش بلغ طولها ٢٤ متراً وعرضها ٤ أمتار ويرتبط بها عدد من الغرف والساحات مما يشير الى ان القصر كان مقراً لادارة شؤون المملكة.[1] وقد تركزت هذه الظاهرة، اي استخدام القصر مقراً ادارياً لادارة شؤون المملكة، في العصر البابلي القديم (حدود ٢٠٠٠- ١٦٠٠ ق.م) بعد ان تم الفصل نهائياً بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية، فاتسعت مساحة القصر وغدا من الأبنية الضخمة التي ضمت غرفاً ومرافق كثيرة وذلك على حساب تقلّص واضح في سعة وضخامة ابنية المعابد، وربما كان قصر زمري- ليم المكتشف في مدينة ماري على نهر الفرات اوضح دليل على ذلك حيث ضم القصر ٣٠٠ غرفة وقاعة مما يشير الى انه كان قد اعد لاستيعاب اعداد كبيرة من الموظفين والاداريين وغيرهم اضافة الى سكن الملك الحاكم وافراد اسرته. كما ضم القصر المخازن والعنابر والمشاغل واحيط بسور ضخم شيد باللبن وليس فيه سوى بوابة رئيسة واحدة بحيث اصبح اشبه بقلعة حصينة وقد تفنن النحاتون بزخرفة جدرانه وتزيينها بالتماثيل والمنحوتات والنقوش الفنية المختلفة.[2]

وتأثر الفن المعماري للقصور الملكية في بلاد آشور بالفن المعماري في البلدان والأقاليم المجاورة التي سيطر عليها الآشوريون ولاسيما في سوريا وجلبوا منها البنائين والنحاتين وغيرهم للعمل في بناء المدن والقصور ولاسيما من عهد آشور ناصربال الثاني (٨٨٣- ٨٥٨ ق.م) ومن جاء بعده من الملوك الآشوريين البارزين. وقد تم الكشف عن عدد من القصور الملكية من العصرين الآشوري الوسيط والآشوري الحديث. ولعل احسن نموذج للقصور الملكية من العصر الآشوري الوسيط هو قصر الملك ادد- نراري الاول من القرن الثالث عشر قبل الميلاد المكتشف في آشور وكان القصر مؤلفاً من قسمين رئيسيين لكل منها فناء

---

(١) حول تفصيل ذلك انظر: مؤيد سعيد، العمارة، المبحث الثاني، في حضارة العراق، ج٣، ص٩٧- ١٨٦.

(٢) انظر عكاشة، الفن العراقي، ص٣١٨.

خاص تحيط به الغرف خصص احدهما للاستقبال في حين خصص الثاني للمعيشة ، وكانت تحيط بالقصر جدران سميكة من اللبن وله بوابة رئيسة واحدة يحيط بها برجان مرتفعان ، وقد ظل هذا النموذج من القصور الآشورية شائعاً في عهود الملوك التاليين.

وكما هو معروف ، فقد تميز العصر الآشوري الحديث (٩١١- ٦١٢ ق.م) بكثرة المخلفات المعمارية وبنشاط الملوك الآشوريين الواضح في مجال العمارة لاسيما ملوك السلالة السرجونية ، وقد تم الكشف عن عدد من القصور الملكية في العواصم الآشورية الأربعة آشور وكلخو ونينوى ودور- شروكين ، وكلها يدل على ضخامة القصور الملكية وروعتها ودقة تخطيطها وتزيينها وزخرفتها بمختلف العناصر الزخرفية كالمنحوتات الجدارية التي كانت تؤطر الاجزاء السفلى من الجدران الداخلية والخارجية والثيران المجنحة التي كانت تزين المداخل والرسوم الجدارية التي كانت تزيّن الاقسام العليا من الجدران الداخلية اضافة الى المسلات والتماثيل الاخرى التي زينت اجزاء معينة من القصور وكأنّ الملوك الآشوريون ارادوا ان يظهروا مبلغ قوتهم وسعة سلطانهم وذلك من خلال تشييدهم لهذه القصور الضخمة ، وقد ساعدهم في ذلك توفّر المواد الاولية اللازمة ، ولاسيما الحجر الكلسي بنوعيه الرخام والحلاّن.ومن اروع الامثلة على القصور الملكية الآشورية من هذا العصر قصر آشور ناصربال الثاني في كلخو والمعروف بالقصر الشمالي الغربي والذي يمكن للزائر مشاهدة بقاياه حتى الوقت الحاضر، وقصر سرجون في دورشّروكين (خرصباد)وقصر سنحاريب واسرحدون وآشور بانيبال في مدينة نينوى.

اما العصر البابلي الحديث ، فكان استمراراً لما كان سائداً في العصر الآشوري الحديث من حيث ضخامة القصور وروعتها وان اختلفت الأساليب والمواد الانشائية حيث استخدم الآجر والآجر المزجج بدلاً من الحجر الكلسي في تزيين وزخرفة الجدران وقد تم الكشف عن قصور كان قد بناها نبوخذنصر الثاني وخلفاؤه في بابل وظل احدها قائماً ، وهو قصر نبوخذنصر الصيفي ، حتى غزو الاسكندر المقدوني لبلاد بابل عام ٣٣١ ق.م. حيث استخدمه الاسكندر لاقامته بل ومرض وتوفي فيه.

وتؤكد عمارة القصور الملكية من العصرين الآشوري والبابلي الدرجة المتقدمة التي وصل اليها الفن المعماري ومدى تفهم المعمار العراقي القديم لطبيعة المنطقة وطبيعة مناخها واختار مايلائمها من ابنية ووفّق بنجاح بين ذلك وبين ماهو متوفر من مواد انشائية. وما يقال عن القصور الملكية ينطبق على الأبنية العامة الاخرى التي ضمتها المدن الرئيسة ، ولاسيما العواصم الآشورية والبابلية ، كالحصون والقلاع والأسوار والبوابات وغيرها.

٣- المعابد والزقورات

كانت المعابد، او بيوت العبادة، اقدم البنايات العامة التي بناها الانسان ويمكن تتبع بداياتها الى الالف الخامس قبل الميلاد. ففي شمال العراق عثر على بقايا اقدم المعابد في تبة گورا قرب الموصل من دور حلف، وفي اريدو في جنوبي العراق كشف عن اقدم المعابد من دور العبيد. ثم ازداد عدد المعابد التي تم اكتشاف بقاياها في العصور التالية وكشف عن سلسلة من المعابد التي كانت قد شيّدت في المنطقة الواحدة حيث كان من التقاليد الشائعة اعادة ترميم او بناء او تجديد المعابد في البقعة ذاتها دون الانتقال الى منطقة ثانية، وقد ظلت عادة اعادة بناء المعابد على انقاض ابنية المعابد السابقة شائعة الى عصور متأخرة، وهي ظاهرة بقت ملازمة لأبنية جميع دور العبادة حتى الوقت الحاضر.

اشرنا عند الحديث عن المعتقدات الدينية ان المعبد العراقي القديم كان يتألف من قسمين رئيسين هما المعبد العالي، اي الزقورة، والمعبد الأرضي كما المحنا الى ان من السمات الرئيسة التي تميز بها تخطيط المعبد بقسميه، انه كان متشابهاً في جميع العصور بصورة عامة مما يشير الى صفة الاستمرارية التاريخية، احدى سمات المعتقدات الدينية العراقية القديمة.

والزقورة، او الصرح المدرج، هي بناء صلد مؤلف من ثلاث الى سبع طبقات مربعة او مستطيلة مدرجة في السعة وتتناقص من حيث المساحة كلما ارتفعنا الى الاعلى ويرقى اليها بواسطة ثلاثة سلالم خارجية، وكان يشيد فوق الطبقة العليا من الزقورة معبد صغير هو المعبد العلوي الذي كان يظن ان الآلهة تنزل لتستريح فيه في اوقات معينة من السنة. ويظن ان بناء الزقورة قد تطور عن اسلوب بناء المعابد الاولى على مصاطب اصطناعية من اللبن. فقد شيد معبد العقير من دور الوركاء مثلاً فوق مصطبتين من البناء الواحدة اصغر من الاخرى. وكانت جدران الزقورة الخارجية تؤطر بالآجر في حين استخدم اللبن المجفف بالشمس لبناء بقية مصاطب الزقورة. وفي بلاد آشور استخدم الحجر الكلسي (الحلان) لتأطير الاجزاء السفلى من جدران الزقورة الخارجية احياناً، كما هي الحال في زقورة كلخو (نمرود). وشاع استخدام الزقورة في انحاء العراق وقلما تخلو مدينة مهمة من بناء الزقورة. وكانت جدران الزقورة احياناً تلوّن بالوان برّاقة، كما تبين ذلك زقورة خرصباد (دور- شروكين) وكما اشار الى ذلك المؤرخ اليوناني هيرودوتس، كما زينت الجدران بالطلعات والدخلات.

اما المعبد الأرضي ، فكان يتألف اساساً من حجرة المدخل التي تؤدي عادة الى ساحة مكشوفة ومن الساحة يدخل المرء الى حجرة اخرى يمكن تسميتها بحجرة المابين ثم الى حجرة اخرى هي حجرة الهيكل التي كانت تعد اقدس جزء في المعبد حيث يوجد فيها المحراب ودكة المذبح وتكون مداخل هذه الحجرات في اكثر المعابد البابلية باتجاه واحد اما في المعابد الآشورية فكان المدخل في حجرة الهيكل في الجانب وليس باتجاه المدخل. وماعدا هذه الاجزاء الرئيسة توجد ساحات خارجية وحجرات ومرافق اخرى تحيط بالساحة الرئيسة اعدت لسكنى الكهنة واداء الخدمات الاخرى الخاصة بالمعبد.[1]

وكانت المعابد تزين عادة من الخارج بالطلعات والدخلات ، وفي دور الوركاء ، بالمسامير الفخارية.

فن النحت

كان فن النحت من اهم الفنون التي مارسها العراقيون القدماء واصدقها تعبيراً عن الأحاسيس الفنية والافكار والمعتقدات الدينية ، كما كان من اكثر الفنون التي خلفت لنا نماذج كثيرة ومن مختلف العصور نظراً لطبيعة المواد المستخدمة للنحت ، وهي الحجارة بالدرجة الاولى ، ومقاومتها الشديدة لمختلف العوامل الطبيعية واحتفاظها بشكلها وهيئتها الاصلية مدة زمنية طويلة. وقد يكون فن النحت مجسّماً ، او مدوّراً كما يسمى احياناً Sculpture in the round ، كنحت التماثيل الآدمية والحيوانية على اختلاف اشكالها واحجامها ، وقد يكون فن النحت بارزاً Relief ، ويشمل النحت على الالواح الحجرية وعلى المسلات والنصب وغيرها. ومن اشكال وانواع النحت ايضاً النحت او الحفر على العاج او على الاختام المنبسطة والاسطوانية والحفر على الخشب وصياغة المعادن. ونستعرض فيما يأتي بايجاز هذه الانواع من فن النحت :

النحت المجسم والبارز

وهو النحت الحقيقي الذي مارسه الانسان منذ اقدم العصور ومايزال يمارسه حتى الآن. واذا تجاوزنا بعض الأواني الحجرية التي صنعها الانسان في العصور الحجرية بطريقة النحت ، وبعض المنحوتات الصغيرة التي استخدمت كحلي واسورة وتمائم[2] ، تعد

---

(١) حول نماذج من ابنية المعابد من العصور المختلفة انظر مؤيد سعيد ، العمارة ، في حضارة العراق ، ج٣ ، ص١٠٧-١٨٥.

(٢) انظر وليد الجادر، النحت ، في حضارة العراق ، ج ٤ ، ص٧- ٢٤.

التماثيل الحجرية الصغيرة المكتشفة في تل الصوان قرب سامراء والتي ترقى بتاريخها الى بداية العصر الحجري المعدني من اقدم النماذج التي وصلتنا عن فن النحت المدور، الا ان من الغريب انه لم يكتشف بعد عن امثلة اخرى من فن النحت في الادوار الحضارية التالية وحتى بداية العصر الشبيه بالكتابي (1) حيث تم الكشف عن نماذج رائعة من فن النحت من العصر الشبيه بالكتابي (حدود ٣٥٠٠– ٢٩٠٠ ق.م)، ولاسيما فن النحت البارز، وتعد مسلّة صيد الاسود، وهي قطعة فنية من حجر البازلت الاسود نحت عليها نحتاً بارزاً مشهد صيد الاسود، وكذلك مايعرف عادة بالاناء النذري، وهو اناء من حجر المرمر ارتفاعه نحو اربعة اقدام وقد زين سطح الاناء من الخارج بالنحت البارز بمشاهد دينية تخص شعائر تقديم القرابين الى الآلهة كمشهد الكهنة العراة وهم يحملون سلال القرابين، كما مثلت على الاناء مشاهد بعض الحيوانات والنباتات. ومن القطع الفنية الاخرى التي ترقى بتاريخها الى هذا العصر وصلنا نموذج من فن النحت المجسم يعد الأول من نوعه، وهو عبارة عن رأس فتاة منحوت من حجر الرخام الأبيض وقد نحتت تقاطيع الوجه بالنحت الكامل، اي بالنحت المدور، بينما كان الجزء الخلفي من الرأس مسطحاً وربما كان نموذجاً لقناع. وتعد هذه القطعة الفنية على درجة كبيرة من دقة التعبير. ومن النماذج الاخرى لفن النحت من هذا العصر الابريق الرخامي من الوركاء الذي يمثل اسلوب النحت المدور والبارز في آن واحد حيث نحت على اكتاف الابريق وعلى سطحه اشكال اسود وابقار.[1] وجميع هذه القطع الفنية الرائعة محفوظة الآن في المتحف العراقي في بغداد.

ويلغ فن النحت وفن الصياغة السومريين الذروة في عصر فجر السلالات، (حدود ٢٩٠٠– ٢٤٠٠ ق.م) وقد وصلتنا نماذج كثيرة من المنحوتات المجسّمة والبارزة، ويغلب على المنحوتات المجسّمة مايعرف بالطراز التكعيبي Cubic Style، اي ان التمثال يبدو وكأنه مكون من مكعبات، وهو احد الأساليب الفنية المعروفة في الوقت الحاضر، ولم يلتزم النحاتون القدماء بالتمثيل الطبيعي للأشخاص بخلاف تمثيل الحيوانات الواقعي. وقد جاءتنا تماثيل كثيرة تمثل شخصيات تاريخية مهمة وتماثيل آلهة كانت توضع عادة في المعابد، وقد عثر على اغلبها في منطقة ديالى، كما شاع في هذا العصر نحت الالواح الحجرية المربعة نحتاً بارزاً بمشاهد مختلفة كالمصارعة والملاكمة وبعض المشاهد الدينية، وكانت تعلق على جدران المعابد من الداخل لتزيينها.

---

(١) انظر وليد الجادر، النحت، ص٢٢.



ومن الملاحظات العامة عن فن النحت في عصر فجر السلالات انه كان يخضع الى قواعد وقيود معينة وينطبق ذلك بوجه خاص على تماثيل الآلهة والاشخاص. ففي تماثيل الآلهة يلاحظ نوعاً من المبالغة في تمثيل بعض الاعضاء مثل سعة العينين والاذنين، كما لم يهتم النحات بالتمثيل الواقعي او الطبيعي على خلاف النحت اليوناني مثلاً، اي ان الفن السومري كان اقرب الى الفن الرمزي. [1]

واستمر فن النحت في العصر الأكدي والعصور التالية له مستمداً اصوله وروحه من فن عصر فجر السلالات بيد انه لم يبق فنّاً جامداً بل دخلته العديد من العناصر الفنية

---

(١) انظر: ثروت عكاشة، الفن العراقي، بيروت، ص١٦٩ وما بعدها.

والاساليب الجديدة فاتصف بالتمثيل الحيوي المتّسم بالقوة والانطلاق من القيود الدينية في تمثيل الاشخاص والآلهة ، ولعل اروع نموذج وصلنا من هذا العصر هو مسلة النصر التي تمثل الملك الأكدي نرام– سين منتصراً على اعدائه وقد حاول الفنان تمثيل المشاهد المنحوتة على المسلة تمثيلاً واقعياً بحسب قربها او بعدها عن المشاهد ، وهو مايعرف بالمنظور وقد ظهر الملك نرام– سين في اعلى النصب وعلى رأسه الخوذة الحربية المقرّنة ويتبعه جنوده وهو يطأ بقدمه الاعداء. وهناك منحوتات مشابهة نقشت على سطح جبل قرة داغ تخليداً لذكرى انتصار نرام– سين ايضاً ، ومن القطع الفنية الاخرى التي تعود الى العصر الاكدي الرأس المسبوك من النحاس الذي عثر عليه في نينوى والذي يرجّح انه يمثل رأس الملك نرام– سين او جده سرجون ، وتمثال الشاب الجالس المفقود الرأس الذي اكتشف قرب قرية باسطكي في محافظة دهوك.

اما بالنسبة الى العصر البابلي القديم (حدود ٢٠٠٠– ١٦٠٠ ق.م) ، فإن ماوصلنا من قطع فنية من هذا العصر قليل جداً خاصة وان التنقيبات لم تصل الى مستوى طبقات هذا العصر في مدينة بابل نفسها نظراً لارتفاع مناسيب المياه الجوفية فيها. ومع ذلك ، تمثل مسلة حمورابي التي نقش في اعلاها بالنحت البارز الملك حمورابي واقفاً بخشوع امام الاله شماش الجالس على العرش ، نموذجاً لفن النحت البارز لهذا العصر.

وفي فترة السيطرة الكشية على بلاد بابل ، اتبع الفنانون الاساليب والطرز الفنية البابلية القديمة وتأثروا الى حد ما بالاقوام التي احتكوا بها كالحثيين والمصريين ، الا ان مااكتشف من قطع فنية تمثل النحت البارز او المجسّم من هذا العصر قليل ايضاً باستثناء مايعرف باحجار الحدود كودورّو Kudurru التي ادخل الكشيون استخدامها الى بلاد بابل. وحجر الكودورّو عبارة عن مسلة شبه مخروطية غير منتظمة لايزيد ارتفاعها عن المتر ، وكان يدون على هذه الاحجار الاقطاعيات الملكية الممنوحة الى الأفراد وخصص قسم من الوجه لتمثيل بعض الاشكال والرموز الخاصة بالآلهة وقد نحتت نحتاً بارزاً على المسلة ، وقد تم العثور على اكثر من ثمانين قطعة من هذه الاحجار معظمها محفوظ في المتحف البريطاني في لندن.

فن النحت في بلاد آشور

تعدُّ المنحوتات الآشورية الضخمة التي تم اكتشافها في العواصم الآشورية من اروع ماتم الكشف عنه من نماذج فن النحت البارز والمجسّم في العراق قاطبة. وهي تزين الان عدداً من قاعات متحف اللوفر في باريس والمتحف البريطاني في لندن والمتحف العراقي في

بغداد وغيرها من المتاحف الشهيرة كما انَّ هناك المزيد من هذه المنحوتات وغيرها مما لايزال في مواقعه الاصلية. إن معظم هذه النماذج يرقى الى العصر الآشوري الحديث (٩١١-٦١٢ ق.م). ويبدو ان الآشوريين، وهم من الاقوام الجزرية كالاقوام الاكدية والبابلية، الذين كانوا قد استقروا في القسم الشمالي من العراق منذ الالف الثالث قبل الميلاد، كما تقدم في شرحنا ذلك، لم يطوّروا لهم فنّاً خاصاً مميزاً الا منذ اواسط الالف الثاني قبل الميلاد، (اي منذ بداية العصر الآشوري الوسيط (حدود ١٥٠٠- ٩١١ ق.م). اما في العصر السابق، وهو العصر الآشوري القديم، فيبدو ان الفنان، او بعبارة ادق النحّات، الآشوري كان يتبع المدارس والطرز البابلية السائدة انذاك لاسيما وإن بلاد آشور كانت تؤلف حينئذٍ جزءاً من الممالك الموحّدة التي كان مركزها في بلاد بابل، كالدولة الاكدية ومملكة اور الثالثة ومملكة حمورابي. ومع ذلك وصلتنا قطع كسر من منحوتة تعود الى الملك الآشوري شمشي- ادد الاول (١٨١٤- ١٧٨٢ ق.م) تصور لنا جانباً من انتصاراته العسكرية وقد ظهر الملك بالنحت البارز وهو يطأ برجله احد الاعداء، كما جاءنا من زمن ابنه يسمخ- ادد تمثال مفقود الرأس كان قد قدّم قرباناً الى آله الشمس في ماري اضافة الى كسر لوحة اخرى وجدت في بئر في مدينة آشور.(١)

وفي العصر الآشوري الوسيط، وقعت بلاد آشور كما مربنا، تحت تأثير اوسيطرة اقوام هندية- اوربية، كالميتانيين الذين احتلوا بلاد آشو لاكثر من مائة سنة، والحثيين الذين احتكوا بالآشوريين اضافة الى المصريين والسوريين والكشيين. وكان من نتائج هذا الاتصال والاحتكاك بالاقوام الاخرى ان تأثر الآشوريون بما كان لدى تلك الاقوام من فنون بصورة عامة كما اثّروا هم انفسهم بفنون تلك الاقوام. ومنذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد، بدأ الفن الآشوري يأخذ طابعه الخاص الذي تميز بشخصيته الآشورية ليس في الطرز والاساليب الفنية فقط بل وفي المواضيع التي تناولها الفنان. وقد جاءتنا نماذج عدة من فن النحت البارز من هذا العصر وكلّها يشير الى ولادة الفن الآشوري المميز. ونظراً لانشغال الآشوريين في هذا العصر الى درجة كبيرة بتثبيت اركان دولتهم وحمايتها من الاخطار المحدقة بها من كل جانب، فقد كان الملوك منصرفون بالدرجة الاولى الى الامور السياسية والعسكرية في حين كانت نشاطاتهم العمرانية وما يتبعها من نشاطات فنية محدودة فكان من نتائج ذلك ان ما وصلنا من قطع فنية من هذا العصر كان قليلاً، ومن المنحوتات البارزة التي وصلتنا مانحت على سفوح الجبال تخليداً للانتصارات العسكرية التي حققها الملوك، مثل تجلا تبليزر الاول، ومنها مانحت على المسلات مثل مسلة تجلاتبليز الاول

(١) انظر: طارق مظلوم، النحت، حضارة العراق، ج ٤، ص ٦٧- ٦٩.

ايضاً. وكان من اروع القطع الفنية من هذا العصر مايعرف بالمسلّة البيضاء المكتشفة في نينوى والتي نقشت بالنحت البارز بمشاهد عديدة تشير الى انها تعود الى عهد الملك آشور ناصربال الاول (١٠٥٠- ١٠٣٠ ق.م).

وفي العصر الآشوري الحديث الذي وصل فيه الآشوريون الى قمة ازدهارهم الحضاري وذروة قوتهم العسكرية، كان طبيعياً ان يقطع فن النحت، ولاسيما النحت البارز، شوطاً بعيداً ليقدم لنا اروع النماذج المعبّرة عن قوة الآشوريين العسكرية ويعكس لنا الانتصارات المتلاحقة التي حققها الآشوريون على مختلف الاقوام. كما شهد هذا العصر بناء وتجديد ثلاث من العواصم الآشورية المهمة التي امدتنا بمئات من القطع الفنية الرائعة. ففي عهد آشور ناصربال الثاني جددت مدينة كلخو (نمرود) وشيدت فيها القصور والمعابد والاسوار واتخذت عاصمة للدولة، وفي عهد سرجون الثاني (٧٢١-٧٠٥ ق.م) شيدت مدينة دور- شرّوكين (خرصباد) لتكون عاصمة البلاد من بعد نينوى في حين اتخذ سنحاريب ابن سرجون نينوى عاصمة له فاعاد بناءها وجدد قصورها ومعابدها واسوارها وزيّن جدران قصورها بالمنحوتات الرائعة. اضافة الى ذلك، فقد تمتعت بلاد آشور في هذا العصر برفاه اقتصادي واضح نتيجة الانتصارات التي حققها الجيش الآشوري فانهالت الغنائم والضرائب عليها. وكانت جميع هذه الظروف من العوامل المساعدة على نشاط وازدهار فن النحت والفنون الاخرى في بلاد آشور، الا انه كان فنّاً مقصوراً على خدمة الدولة وبيان منجزاتها العسكرية والعمرانية واظهار قوة جيشها وملكها لاهداف اعلامية بالدرجة الاولى، لذلك فقد غالى النحات الآشوري في اظهار قوة الجيش والملك وبالغ بالاساليب التي اتبعها الجيش الآشوري للقضاء على التمردات وقمع العصيان بهدف ايقاع الخوف والرعب في نفوس الاعداء من جهة ورفع معنويات الفرد الآشوري من جهة اخرى. وقد دفع ذلك الباحثين المحدثين الى المغالات في وصف الآشوريين بصفات تنمّ عن البربرية والوحشية دون الاخذ بنظر الاعتبار الاهداف الاعلامية المتوخاة من تلك المشاهد والمبالغة المتعمدة فيها، كما تقدمت الاشارة الى ذلك في مكان آخر.

ومنذ عهد آشور ناصربال الثاني (٨٨٣- ٨٥٨ ق.م) بدأت طريقة تزيين جدران القصر الداخلية بالمنحوتات الجدارية الضخمة وتزيين مداخل المدينة والقصر بتماثيل ضخمة تمثل حيوانات مركبة مما عرف لدى الباحثين بالثيران المجنحة، ومن الممكن تتبع اصول هذا الاسلوب في تزيين الجدران والبوابات الى العصور السومرية والبابلية، الا ان كثافة استخدام المنحوتات الجدارية والحيوانات المركبة الحارسة يشير الى تأثيرات آرامية

نتجت عن احتكاك الآشوريين في هذا العصر بالأقوام الآرامية في سوريا [1] ، وربما عمل بعض البنائين والنقارين والنحاتين الآراميين في بناء المدن والقصور الآشورية في كلخو وغيرها من العواصم الآشورية. وقد استمرت طريقة تزيين الجدران والمداخل بالمنحوتات الجدارية والحيوانات الحارسة في عهد السلالة السرجونية في كل من دور- شرّوكين ونينوى واسفرت التنقيبات التي اجريت في هذه المدن عن اعداد كبيرة منها. وقد بينت تلك التنقيبات ان الاجزاء السفلي من جدران القاعات الداخلية ، واحياناً الاجزاء المكشوفة من الجدران ايضاً ، كانت تؤطر بصف من هذه المنحوتات التي تمثل بالمشاهد الرائعة المنحوتة عليها سجلاً حافلاً بمنجزات الملك العسكرية ونشاطاته الدينية وحياته الخاصة اضافة الى مشاهد اخرى دينية وحربية. كما اظهرت التنقيبات ان بعض هذه المنحوتات كانت ملوّنة بألوان مختلفة كالاسود ، الذي استخدم لتلوين الشعر وحدقة العين، والاحمر الفاتح للوجه والبشرة والابيض الذي استخدم لبيان بياض العين. كما استخدمت الالوان ايضاً لتلوين الالبسة والأحذية ، الا ان تعرّض المنحوتات الملوّنة للهواء وحرارة الشمس وتأكسدها افقدها غالبية تلك الالوان خلال سنوات قليلة من بعد اكتشافها.

الى جانب المنحوتات الجدارية هنالك العديد من المسلات المنحوتة نحتاً بارزاً وقد ضمت مشاهد ملكية مختلفة ومن اشهر المسلات المكتشفة مسلة شيلمنصر الثالث المعروفة بالمسلّة السوداء ومسلة اسرحدون المكتشفة في سنجرلي في سوريا ومسلة آشور بانيبال ومسلة اخيه شمش- شوم- اوكن. كما خلّد سنحاريب بعضاً من منجزاته بمنحوتات ضخمة نفّذها النحّات على سفوح الجبال ماتزال بقاياها ظاهرة للعيان حتى الوقت الحاضر، فعند قرية باڤيان في الشيخان قرب الموصل هناك منحوتة عند صدر قناة للري كان سنحاريب قد جلب المياه خلالها من نهر الكومل الى نينوى ، ومنحوتة اخرى على سفح جبل معلثايا بالقرب من مدينة دهوك.

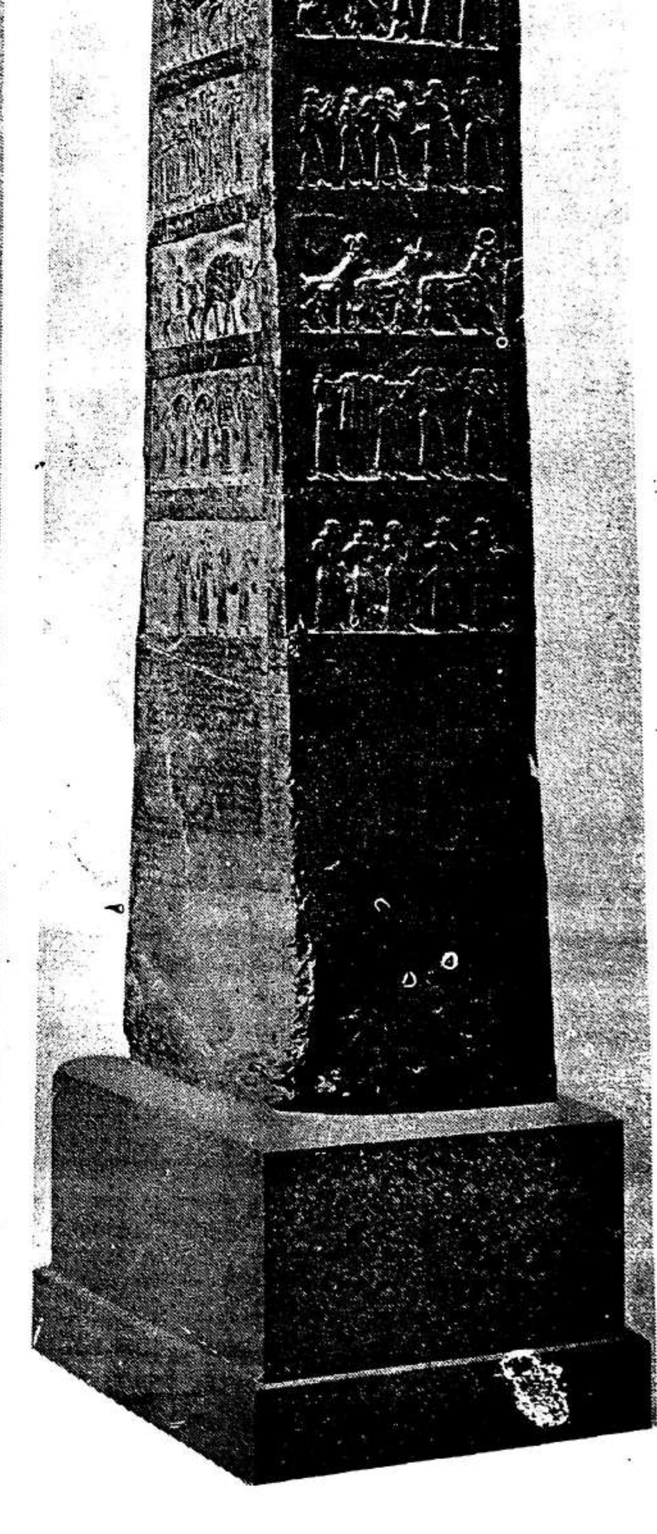
اما بالنسبة للنحت المجسّم ، او المدور، فإن ماوصلنا من نماذجه قليل اذا ماقورن بما وصلنا من منحوتات بارزة ويبدو ان الاهداف المعمارية والزخرفية للقصور والمدن هي التي دفعت الى انجاز اعداد كبيرة من المنحوتات البارزة. كما يلاحظ ان النحت البارز قد طغى على اسلوب النحت في بلاد آشور حتى عندما كان النحات او الفنان ينفّذ قطعة من النحت المدوّر حيث انه لم يكن يأبه باعطاء السمك الطبيعي للتمثال بل اعتنى بالمظهر الامامي والخلفي فقط. وقد تم الكشف عن عدد من تماثيل الآلهة والملوك الا ان عددها محدود فمن العصر الآشوري القديم لم يصلنا الا تمثال واحد وجد في مدينة ماري وآخر

(١) طارق مظلوم ، النحت ، ص ٧٧.

من العصر الآشوري الوسيط يمثل الآلهة عشتار. اما بالنسبة للعصر الآشوري الحديث، فقد تم الكشف عن عدد لابأس به من التماثيل الخاصة بالآلهة والملوك.



آشور ناصربال (الثاني)



المسلة السوداء

وتظل الحيوانات المركبة (لاماسو) التي عرفت بالثيران المجنحة، اهم واشهر ماتم الكشف عنه من منحوتات في بلاد آشور، وكانت هذه المنحوتات توضع في مداخل المدن والقصور حيث كان الاعتقاد السائد بأنها كانت من الملائكة الحارسة التي تحمي المدينة او القصر وسكانها من الشرور وان لها القدرة على طرد الارواح الشريرة. وغالباً ماتتألف هذه التماثيل من رأس انسان وجسم حيوان، ثور او اسد، وجناحي طائر، وقد اضيفت احياناً الى بطن الثور حراشف السمك كما نقشت على اجزاء مهمة من المنحوتة كتابات مسمارية كتلك المنفّذة على المنحوتات الجدارية. ومع الاختلافات الجزئية الموجودة بين المنحوتات المركبة هذه نسبة الى العصر الذي تعود اليه فإنها بصورة عامة متشابهة من حيث الفكرة والغاية التي نفّذت من اجلها، ويمكن ان تفسّر بأنها جمعت في مظهرها بين قوة الثور وثباته، ولهذا ظهر بخمسة ارجل احياناً، او شجاعة الاسد وقوته مقارنة مع بقية الحيوانات، وسيطرة النسر على الطيور كلها ومعرفة الحيوان المركب بالسباحة حيث رمز الى ذلك بالحراشف والى جانب كل ذلك فإن عقل الانسان المدبّر كان يسيطر على الحيوان المركب برأسه الذي يعلوه تاج مقرّن هو التاج الخاص بالآلهة. وكان من اهداف تنفيذ هذه الحيوانات المركبة الى جانب ذلك اهداف جمالية ومعمارية حيث كانت تؤلف جزءاً مكملاً للبناء تغلف الجدران الداخلية للمداخل وتتصل بالمنحوتات الجدارية الاخرى وتحمل السقف.[1]

ولم يصلنا من العصر البابلي الحديث (٦٢٦- ٥٣٩ ق.م) الاّ عدد محدود جداً من المسلات والمنحوتات الجدارية التي تمثل النحت البارز، حيث لم يتبع البابليون اسلوب تزيين جدران القاعات والمداخل بالمنحوتات الجدارية، كما فعل اسلافهم الآشوريون، بل استخدموا عوضاً عن ذلك الآجر المزجج (القاشاني) وزينوا جدران المداخل والقصور والمعابد وملحقاتها الرئيسة والبوابات بنحت بارز منفّذ على تلك الجدران بالقاشاني كما توضح ذلك بوابة عشتار المكتشفة بقاياها في مدينة بابل.

الحفر على العاج

من الفنون التي عرفت في العراق القديم وبشكل خاص في بلاد آشور، فن الحفر على العاج. وكان فن الحفر على العاج معروفاً منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد كما تشير الى ذلك النماذج التي عثر عليها في معبد الآلهة عشتار في مدينة ماري، الا انه لم ينتشر في العصور التالية. وشاع فن الحفر على العاج في المدن الفينيقية على الساحل السوري منذ

(١) انظر طارق مظلوم، النحت، ص٦٦- ٩٤ حول تفصيل ذلك.

منتصف الالف الثاني قبل الميلاد وربما تأثر الآشوريون بذلك عندما احتكوا بهم عن طريق التجارة او اثناء الحملات العسكرية. واكثر ماانتشر الحفر على العاج هو في العصر الآشوري الحديث حيث عثر على اعداد كبيرة من قطع العاج التي تم تنفيذها في العواصم الآشورية. وارتبطت القطع العاجية المنفذة ارتباطاً وثيقاً بصناعة الآثاث حيث كانت العاجيات تزين قطع الآثاث في حين استخدم بعضها الآخر لعمل بعض ادوات الزينة وعدّة للخيول كتلك التي تغطي جانبي عيني الحصان.

تم الكشف عن غالبية العاجيات الآشورية في مدينة كلخو (نمرود) وكان قد اكتشفت من قبل البعثات الانكليزية في القرن الماضي والقرن الحالي ووجدت معظمها في ''صر الشمالي الغربي العائد للملك آشور ناصربال الثاني وفي القصر المحروق لشيلمنصر الثالث، وفي بئر عميق في قصر آشور ناصربال الثاني. وفي السنوات الأخيرة تمكن احد الشبان



العراقيين بجرأته وشجاعته الفائقة من النزول الى اعماق احد الآبار المكتشفة من قبل البعثة البريطانية واستخراج المزيد من القطع العاجية الرائعة[1].

والباحث في العاجيات المكتشفة في نمرود يلحظ ان هناك اساليب مختلفة في صناعتها فنها يحمل طرازاً فينيقياً ومنها منفذ وفق الاسلوب السوري في حين تمثل غالبية العاجيات الاسلوب الآشوري في الحفر على العاج. وربما كانت القطع التي تحمل الاسلوب الفينيقي او السوري قد جلبت كغنائم او هدايا الى بلاد آشور او انها نفذت من قبل صناع سوريين وفينيقيين جيئ بهم الى بلاد آشور. وتؤكد التنقيبات التي اجريت في نمرود قيام النحاتين الآشوريين انفسهم بالحفر على العاج حيث تم العثور على ادوات الحفر المستخدمة كما كشف عن مواد ومعاجين ملونة، [2] كانت تستخدم في تطعيم العاجيات. وكان من جملة القطع المكتشفة اجزاء مكملة لقطع أثاث ملكية مثل العروش والاسرّة والكراسي والأبواب وبعضها على هيئة صناديق واوعية وملاعق ودبابيس وامشاط. كما عثر على اشكال مجسّمة منحوتة نحتاً بارزاً وكان البعض منها مطعماً بالاحجار الكريمة وملبّسا بالذهب.

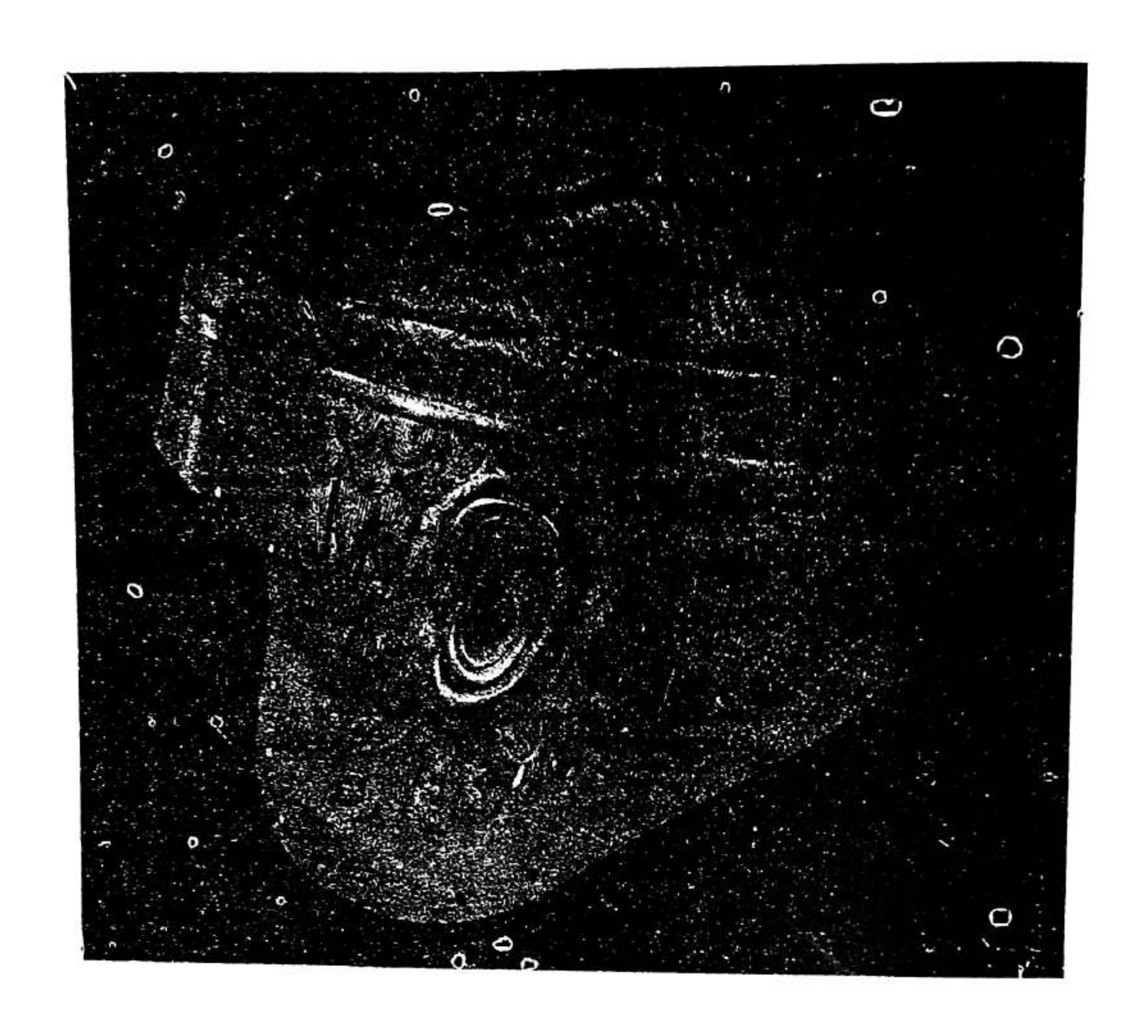
ومن القطع الفنية الرائعة ماعرف لدى المنقبين بمونوليزا النمورد وهي عبارة عن قناع رأس فتاة جميلة ظهرت عليها ابتسامة خفية ولها عينان تفيضان حيوية، شبيهة من بعض الأوجه بموناليزا ليوناردو دافنشي، وقد عثر عليها من قبل البعثة البريطانية في قاع بئر في قصر شيلمنصر، كما ان هناك قطعة اخرى فريدة من نوعها تمثل لبوة تنقضّ على رجل يبدو من قسماته انه نوبي او اثيوبي، وقد طعّمت القطعة بالذهب ولوّنت بالوان جميلة.

فن الصياغة وصب التماثيل

من الفنون التي مارسها العراقيون القدماء منذ فترة مبكرة فن الصياغة وصناعة الحلي وصب التماثيل المعدنية. وتعد الكنوز الذهبية التي تم العثور عليها في مقبرة اور الملكية من عصر فجر السلالات من اروع الامثلة على المستوى الفني الرفيع الذي اتصفت به الصياغة في تلك العصور. كما عثر على نماذج من الحلي والاسلحة المصنوعة من الذهب والنحاس والبرونز من عصور قبل التاريخ تؤكد مهارة العراقيين القدماء ودقتهم في صياغتها وصناعتها. اضافة الى الحلي والاسلحة المزخرفة، فقد تم العثور في مقبرة اور على قيثارات ذهبية زينت احداها برأس ثور مصبوب من الذهب.

(١) انظر: فؤاد سفر وميسر العراقي، عاجيات نمرود، بغداد، ١٩٨٧، ص١٥- ١٦ حيث يشير الى السيد جنيد الفخري الذي تمكن من النزول الى البئر المرموز له بالحرفين AJ واستخرج منه قطعاً رائعة من العاج كانت على عمق كبير لم تصلها يد البعثة البريطانية فيما سبق.

(٢) انظر طارق مظلوم، النحت، ص٩٤- ٩٨.



خوذة ذهبية – من مقبرة اور الملكية .

كما عثر على تماثيل من البرونز تمثل متصارعين او رجل واقف وذلك في منطقة ديالى اضافة الى نموذج عربة تجرها اربعة حيوانات ويقودها سائق . ومما يلاحظ ان تماثيل البرونز جاءت اكثر واقعية حيث ان تمثال البرونز يصنع عادة بطريقة الصب في قالب مأخوذ عن تمثال من الطين ومن الطبيعي انه يمكن اظهار التفاصيل الدقيقة على تمثال الطين في حين يصعب ذلك بالنسبة للنحت على الحجر.

وقد تم العثور على عدد من النماذج من العصر الاكدي منها رأس من البرونز يظن انه يمثل رأس سرجون او حفيده نرام – سين وتمثال الشاب الجالس الذي عثر عليه في محافظة دهوك وكلاهما مصنوع بطريقة الصب . وفي عصر اور الثالثة شاع استخدام تماثيل الأسس التي كانت تدفن في زوايا اسس الأبنية العامة ، وهي تماثيل صغيرة من البرونز تمثل الملك

وهو يحمل على رأسه سلة الطين ومن امثلة ذلك تمثال الملك اور- نمّو مؤسس السلالة.
كما وجد تمثال لجوديا حاكم لجش مصبوب من البرونز ايضاً. ومن عصر حمورابي وصلنا تمثال من البرونز يمثل حمورابي وهو راكع.

ومن العصر الآشوري الحديث، تعد مجموعة الحلي التي تم الكشف عنها في القبور الملكية في مدينة نمرود في السنوات الاخيرة من قبل بعثة عراقية تابعة الى دائرة الآثار والتراث في الموصل من اثمن وانفس ماتم الكشف عنه حتى الآن من الحلي الذهبية، فقد ضمت اعداداً وكميات كبيرة من مختلف انواع الحلي كالأساور والمعاضد والقلائد والكلابات واغطية الرأس وغيرها كثير وتدل على مهارة ودقة متناهية في الصياغة والزخرفة كما تشير الى تأثيرات خارجية ولاسيا من الصاغة الفينيقيين.

وكشفت لنا الحفريات التي تمت في مدينة بلوات (امگريبل) عن صفائح برونزية رقيقة كانت تغلف بوابة قصر شيلمنصر حيث كانت تثبت بمسامير نحاسية على الواح الخشب وقد نقشت هذه الصفائح باسلوب الطرق والحفر وتتألف من شرائط متعددة نقشت عليها مشاهد حربية تسجل انتصارات الملك الآشوري على الاعداء وقد تم الكشف عن بقايا اشرطة برونزية كانت تزين اكثر من بوابة، ونقل معظمها الى المتحف البريطاني في لندن واعيد تركيبها على بوابات من الخشب شبيهة بالبوابات الاصلية.

ومن ضروب الفنون الاخرى التي اضطلع بها العراقيون القدماء صناعة انواع جميلة من الآجر المزجج او القاشاني الذي استخدم بشكل جميل في اجزاء من القصور الآشورية لاسيا في قصر سرجون في دور- شرّوكين. وفي العصر البابلي الحديث، زينت جدران القصور والمعابد، وشارع الموكب، بالآجر المزجج كما تقدمت الاشارة وقد قامت البعثة الالمانية التي كانت تعمل في بابل بجمع قطع الآجر المزجج الساقطة وجمعتها الى بعضها وتبين بأنها كانت تشكل رسوم حيوانات ملوّنة على ارضية زرقاء وابرز الحيوانات الممثلة هي الثيران المجنحة والتنين الخرافي والاسد، وهي رموز الآلهة ادد ومردوخ وعشتار على التوالي.

ومن المجالات الفنية الاخرى المرتبطة بفن النحت والحفر التي مارسها العراقيون القدماء منذ اوائل العصر الحجري المعدني هي صناعة الاختام المنبسطة. وتشير المكتشفات الاثرية ان اقدم استخدام للاختام المنبسطة كان في دور حسونة، وكانت الاختام الاولى عبارة عن قطعة صغيرة مستطيلة تقريباً محززة على احد وجهيها بخطوط مستقيمة متقاطعة. ثم تطور استخدام الاختام المنبسطة وغدت قرصية الشكل بصورة عامة وقد حفر عليها نقوش هندسية وبعض المشاهد الدينية او الحياة اليومية. ومنذ دور الوركاء بدأ استخدام الاختام

الاسطوانية واصبحت سمة من سمات الحضارة العراقية القديمة. والختم الاسطواني عبارة عن خرزة اسطوانية الشكل من احجار جميلة مثقوبة من الوسط طولياً وقد حفر على سطح الاسطوانة نقوش هندسية وحيوانية ونباتية او بعض المشاهد الدينية او غيرها وقد تحمل اسم صاحب الختم وذلك بشكل مقلوب فإذا مادحرج الختم على الطين الطري ترك طبعة موجبة مميزة تفصح عن هوية صاحب الختم. وقد اختلفت النقوش والمشاهد المحفورة على الاختام حسب الاماكن والازمنة وغدا لكل عصر طراز مميز يعين الاثاري على تحديد زمان ومكان صناعة الاختام المكتشفة.[١]

الموسيقى والغناء

كان للموسيقىٰ والغناء دور كبير في حياة العراقيين القدماء، في احزانهم وافراحهم وخلال ادائهم الطقوس الدينية وفي العابهم الرياضية واثناء معاركهم العسكرية، وقد اظهرت التنقيبات الاثرية في مدن ومواقع العراق القديمة بقايا بعض الالات الموسيقية كان بعضها في حالة جيدة، مثل القيثارة الذهبية والقيثارة الفضية والصنوج اليدوية الا ان طبيعة المواد التي صنعت منها معظم الالات الموسيقية، كالخشب والجلد والقصب، وهي مواد عضوية سريعة التلف في التربة الرطبة، وكذلك بالنسبة للمعادن التي تتأكسد بسرعة ويصيبها التلف والبلى، كل ذلك حال دون بقاء الآلات الموسيقية. ومع هذا، فقد افاد الباحثون من المشاهد المصورة او المرسومة على الجدران والاواني الفخارية او المحفورة على الاختام والمنحوتات ومن التماثيل والدمىٰ في التعرّف على انواع الآلات الموسيقية واسلوب العزف عليها وطريقة الاداء والمناسبات التي استخدمت فيها. واضافت النصوص المسمارية المكتشفة معلومات جديدة حيث احتوت على اسماء كثيرة للآلات الموسيقية واسماء اصناف الموسيقيين والمناسبات التي استخدمت فيها الموسيقى بل واسماء الاوتار وبعض التمارين الخاصة بالعزف والى غير ذلك من المعلومات التفصيلية عن الموسيقى والغناء.

وتؤكد المعلومات المستنبطة من الآثار الباقية والمشاهد المصورة والكتابات المسمارية ان الموسيقى والغناء كانت ترافق الانسان العراقي القديم في معظم المناسبات العامة والخاصة، فقد كانت ترافقه في الطقوس والشعائر الدينية في المعبد وفي الاعياد والاحتفالات وفي المعارك والحروب وفي احتفالات النصر ومناسبات التدشين واثناء الدفن والحداد اضافة الى ماكان يعزف في البيت والمدرسة والقصر من اجل الاستمتاع بالانغام الموسيقية واقامة

(١) انظر الحديث عن الاختام الاسطوانية في الفصل الرابع من الجزء الأول من هذا الكتاب، ص ١٠٠ – ١٠٥. كذلك عادل ناجي، الاختام الاسطوانية، حضارة العراق، ج ٤، ص٢١٩ – ٣٢٣.

السهرات . وتشير جميع الادلة الى ان الاستخدام الرئيس للموسيقى كان لمصاحبة الغناء والتراتيل ولايوجد هناك مايشير الى وجود موسيقى الآلات ، وكانت الكلمة التي استخدمت للدلالة على الغناء والعزف هي الكلمة الاكدية زَمارُ Zamaru او زمّارُ Zammaru المضاهية للكلمة العربية زمَّر.

وكان الغناء اما فردي او ثنائي أو جماعي ، وقد يكون بمصاحبة الآلات الموسيقية او بدون ذلك ، وقد يؤدي الغناء الرجال فقط او الرجال والنساء او النساء فقط وينطبق الشيء نفسه على الموسيقى والعزف على الآلات الموسيقية عامة .

وكانت الموسيقى تصاحب الاغاني والتراتيل الدينية الخاصة بمدح الآلهة والملوك كذلك كانت ترافق طقوس وشعائر المناحات والمراثي الغنائية . وتؤكد النصوص المسمارية ، ولاسيما الامثال الشعبية ، مدى الاهتمام بالموسيقى وبالمغنين منذ العصور السومرية المبكرة ومن هذه الامثلة : «لاتبعد المغنّي المبتديْ اذا كان يجيد الاداء» و «اذا حفظ المغنّي اغنية واحدة ولكنه يجيد اداءها فهو مغنٍ بحق» و «المغني (الموسيقي) الجيد هو الذي يعرف كيف يوزن الته ويدعها ترنُّ عالياً وما عدا ذلك فهو مغنٍ (موسيقي) فاشل» .   وقد تفاخر عدد من الملوك ، مثل اشوربانيبال ، بانهم كانوا يجيدون العزف على الآلات الموسيقية .

ويبدو ان اكثر الموسيقيين والمغنين كانوا من طبقة الكهنة والكاهنات، ومع ذلك ، كان هناك من مارس الموسيقى والغناء اضافة الى مهنته الاصلية . وقد ذكرت النصوص المسمارية صنفين رئيسين من الموسيقين هما الكهنة الذين كانوا يعزفون الآلات للألحان الحزينة (ويسمى العازف بالاكدية جالا gāla) والكهنة الذين كانوا يعزفون الالحان المفرحة (بالاكدية نارُ nāru) ، وكان للقصر الملكي عازفين خاصين. ولعبت المرأة دوراً رئيساً في العزف على الآلات الموسيقية والغناء على حد سواء وقد ذكرت اسماء بعض النساء من الموسيقيات منذ عصر فجر السلالات كما تؤكد الآثار المكتشفة في مقبرة اورر الملكية والتي وجد فيها عدد من القيثارات التي صاحبت الحانها مراسيم الدفن ان النساء كن من بين العازفات على تلك القيثارات . اضافة الى ذلك ، توحي بعض الدمى والتماثيل والمشاهد المنحوتة ان النساء كن يشاركن في العزف والغناء اما بشكل متفرد او مع الرجال .

أما الآلات الموسيقية التي استخدمها العراقيون القدماء منذ اقدم العصور السومرية على اقل تقدير، كما تثبت ذلك التنقيبات التي اجريت في المدن السومرية وتؤكده النصوص المسمارية التي ذكرت لنا اسماء الآلات الموسيقية مصنفة حسب المادة التي صنعت منها

ان كانت الخشب ام الجلد ام القصب ، فقد ضمت ، حسب التسميات الحديثة ، الآلات الوترية والات النفخ والات النقر. ومن الآلات الوترية آلة الجنك الكنّارة والعود ، ومن الآلات النفخية الصفّارة والناي الناي المزدوج والبوق والقرن والشعيبية. ومن الآت الايقاع الجلدية الطبل-والتمباني والطبلة والدف والدف المربع . وهناك الآلات المصوتة بذاتها مثل الصنوج اليدوية والخرخاشات والاجراس والمضارب الرّنانة .

وتشير الدراسات المقارنة الخاصة بتأريخ الموسيقى الى ان العراقيين القدماء كانوا قد ساهموا مساهمة كبيرة في هذا المجال حيث يرجع اليهم الفضل في ابتكار الكثير من الآلات الموسيقية الوترية والايقاعية والمصّوتة بذاتها مثل العود والكنارة والجنك والطبلة والدف والصنوج اليدوية كما تشير الدراسات الى ان السومريين كانوا اول من استخدم الفتحات الصوتية على وجه صندوق-الآلة الوترية كما استخدموا الجسر او الفرس في الآلات الوترية ، وهو قطعة خشبية مستعرضة على الصدر ترتكز عليها الاوتار بعد خروجها من المشط ، كما استخدموا المفاتيح ، وهي قطع من الخشب لربط الاوتار فيها ، والى غير ذلك من الانجازات في هذا الحقل.

مصادر منتخبة

بارو، اندرية : سومر وفنونها وحضارتها ، ترجمة عيسى سلمان وسليم التكريتي ، بغداد ١٩٧٧ : بلاد آشور، ترجمة عيس سلمان وسليم التكريتي ، بغداد ، ١٩٨٠ .

بصمة چي ، فرج : كنوز المتحف العراقي ، بغداد.

الجادر، وليد : العمارة حتى عصر فجر السلالات ، حضارة العراق ، ج٣ ، ٧٧– ٩٦ : النحت حتى عصر فجر السلالات ، حضارة العراق ، ج ٤ ، ٧– ٢٤ : الفنون التشكيلية في موسوعة الموصل الحضارية ، ج ١ ، ٤٤٢ – ٤٥٣ .

خليل ، جابر: تخطيط المدن ، في : موسوعة الموصل الحضارية ، ج ١ ، ٤١٩– ٤٤٢ : الفخار بين العصر البابلي والحديث والعصر الاسلامي ، حضارة العراق ، ج٣ ، ٤٧– ٧٦.

---

(١) انظر صبحي رشيد ، الموسيقى ، في : حضارة العراق ، ج٤ ، ص ٤١١.

رشيد ، صبحي انور: تاريخ الفن في العراق القديم ، بيروت ، ١٩٦٩ : تاريخ الآلات الموسيقية في العراق القديم ، بيروت ، ١٩٧٠ : الموسيقى في بلاد آشور، موسوعة الموصل الحضارية ، ج ١ ، ٤٦٨ – ٤٨٩ .

سعيد ، مؤيد : العمارة من عصر فجر السلالات الى نهاية العصر البابلي الحديث ، حضارة العراق ، ج ٣ ، ٧٧ – ١٨٦ : الرسوم الجدارية منذ اقدم العصور، حضارة العراق ، ج ٣ ، ٢٦٧ – ٢٨٤ الفنون والعمارة في العراق القديم ، في العراق في موكب الحضارة ، ج ١ ، ٤١٥ – ٤٣٧ .

سفر ، فؤاد ، وميسر سعيد العراقي : عاجيات نمرود ، بغداد ، ١٩٨٧ .

الصالحي ، واثق : العمارة في العصر السلوقي والفرثي ، حضارة العراق ، ج ٣ ، ١٨٧ – ٢٢٣ . النحت في العصرين السلوقي والفرثي ، حضارة العراق ، ج ٤ ، ١٧٥ – ٢١٨ .

عبو ، عادل نجم : فن العمارة ، في : موسوعة الموصل الحضارية ، ج ١ ، ٣٩٣ – ٤١٩ .

عكاشة ، ثروت : الفن العراقي ، القاهرة ١٩٧٢ .

مظلوم ، طارق : النحت من عصر فجر السلالات حتى العصر البابلي الحديث ، حضارة العراق ، ج ٤ ، ٢٥ – ١٧٤ : فن النحت ، في : موسوعة الموصل الحضارية ، ج ١ ، ٤٥٣ – ٤٦٨ .

مورتكارت ، انطون : الفن في العراق القديم ، ترجمة عيسى سلمان وسليم التكريتي ، بغداد ، ١٩٧٥ .

ناجي ، عادل : الاختام المنبسطة والاسطوانية ، في : حضارة العراق ، ج ٤ ، ٢١٩ – ٣٢٣ .

الفصل الحادي عشر

المدن القديمة وآثارها الباقية

الآثار الباقية

تؤكد الفصول السابقة على أصالة الحضارة العراقية القديمة وتفوقها في مختلف الجوانب المادية والفكرية والثقافية ، وعلى مدى مساهمتها في اغناء الحضارة البشرية . وقد خلفت لنا تلك الحضارة التي ازدهرت عبر العصور المتتابعة والتي تمتد بجذورها الى عصور ماقبل التاريخ ، اثاراً كثيرة تزدان بها اشهر متاحف العالم في الوقت الحاضر. كما تم الكشف عن عدد كبير من المواقع والمدن الاثرية التي ترقى بتاريخها الى عصور مختلفة من تاريخ العراق القديم بدءاً من العصور الحجرية فصاعداً . وتشير المسوحات الاثرية التي تمت على ارض العراق ان هناك المئات بل الآلاف من المواقع والمدن الاثرية المنتشرة في مختلف ارجاء العراق ، ومن هذه المواقع ماتم التنقيب فيه والكشف عن اثاره وبقاياه ومنها ما ينتظر دوره للكشف عما بداخله من آثار باقية ، ومنها ماغمرته او ستغمره مياه مشاريع الري الكبرى التي تنفذ في القطر. وفي المواقع التي تم التنقيب فيها منذ اواسط القرن الماضي وحتى الآن تم الكشف عن العديد من القصور والمعابد والزقورات والاسوار والبوابات ودور السكن وغيرها التي عكست لنا جانباً مهماً من جوانب الحياة العامة والخاصة ، كما تم الكشف في هذه الابنية وفي غيرها عن الاف من القطع الفنية الرائعة من تماثيل آدمية وثيران ومخلوقات خرافية مجنحة ومسلات ونصب تذكارية مختلفة الاشكال والاحجام واحجار حدود (كودورّو) ولوحات منحوتة نحتاً بارزاً ، وملونة احياناً ، كانت تؤطر الاجزاء السفلى من جدران القاعات والممرات والغرف وهي تحمل مشاهد مختلفة من حياة الملك وهو على رأس جيشه او في بلاطه او في اثناء لهوه في صيد الحيوانات او قيامه ببعض الطقوس الدينية فضلاً عن المشاهد الحربية التي تمثل لنا باسلوب مسلسل المراحل التي مرت بها بعض المعارك العسكرية ، كما ان هناك القطع العاجية والفخاريات والآلات

والادوات والاسلحة والحلي المصنوعة من المعادن والاحجار او الفخار ومن الآثار الباقية ايضاً بقايا مشاريع الري التي ماتزال تحكي لنا قصة الانسان وصراعه مع الطبيعة لتوفير المياه وري الحقول والبساتين ومواجهة التحديات. يضاف الى كل ذلك عشرات الالوف من النصوص المسمارية التي دون معظمها على الواح من الطين ذات اشكال واحجام مختلفة او على المسلات والنصب والمنحوتات والتماثيل والآجر وغيرها من المواد. وقد كان لهذه النصوص اهمية كبيرة جداً في تزويدنا بالمعلومات التفصيلية عن تأريخ العراق وتأريخ تطور حضارته كما عكست لنا، كما ذكرنا فيما تقدم، التقدم العلمي والثقافي الذي حققه العراقيون القدماء بصورة عامة. واذا كانت معظم هذه الآثار قد اكتشفت من قبل البعثات الاجنبية ونقلت الى خارج القطر بشكل مشروع او غير مشروع، وهو امر مؤسف حقاً، فانها ماتزال تقوم بدور السفير لحضارتنا الاصيلة في كل بلد تعرض فيه، تحكي لمن يشاهدها قصة الانسان العراقي القديم ومنجزاته الحضارية الرائعة والرائدة مما يبعث في النفوس الفخر والاعتزاز.

ومع أهمية الآثار الباقية والمدن والمواقع الكثيرة المكتشفة العلمية والتأريخية والفنية، الا أنها لاتتناسب والمكانة البارزة التي تحتلها حضارة العراق بين الحضارات البشرية المعروفة، ولاتقارن بما خلفته بعض تلك الحضارات، كالحضارة المصرية القديمة وحضارة بلاد اليونان الرومان. كما ان الملاحظ ان ماخلّفته بلاد اشور من آثار يفوق كثيراً ماخلفته بلاد بابل منها على الرغم من ان اهمية بلاد بابل التأريخية وازدهار حضارتها لاتقل عن اهمية بلاد اشور وازدهارها الحضاري.

ويبدو ان من اهم العوامل التي كان لها تأثيرها على كمية ونوعية الآثار الباقية سواء اكانت آثار منقولة او غير منقولة، يرجع الى طبيعة المواد الاولية المتوفرة في المنطقة ومدى مقاومتها لعوامل التعرية وغيرها من العوامل التي تسبب تلفها او تهدمها، والى طبيعة ارض العراق ونوع تربتها ونسبة الرطوبة فيها والى غير ذلك من العوامل الطبيعية التي تؤثر على الآثار الباقية.[1]

فافتقار ارض العراق بصورة عامة الى الاحجار والمعادن وندرتها، ولاسيما في القسم الجنوبي من العراق، قد دفع العراقيين القدماء الى استخدام الطين كمادة اساسية للبناء نظراً لتوفرها في جميع انحاء العراق وقلّة او انعدام كلفتها. فمنذ ان بدأ الاستقرار وبناء البيوت في العصر الحجري الحديث، استخدمت كتل الطين، اي الطوف، لبناء الجدران، كما استخدمت اغصان وجذوع الاشجار للتسقيف. وبعد فترة من الزمن

(١) حول العوامل المؤثرة في الابنية وطرزها انظر: عادل نجم عبو، فن العمارة، ص ٣٩٤.

ابتكرت طريقة عمل اللبن، وهو كتل من الطين المخلوط بالتبن والمخمّر والمصبوب في قوالب خاصة والمجفف بالشمس. وقد ظل اللبن يمثل المادة الاساسية للبناء في جميع انحاء العراق وعلى مدار العصور والى الوقت الحاضر ولم تستخدم المواد الاخرى كالحجارة والآجر، الا استثناءً، نظراً لكلفة اللبن القليلة وتوفره وصلاحيته لمقاومة التقلبات الجوية وارتفاع وانخفاض درجات الحرارة الشديدين في العراق كما سبقت الاشارة الى ذلك، ومع هذه الايجابيات التي شجعت على استخدام اللبن اكثر فاكثر، الا ان من سلبياته انه مادة ضعيفة تتهدم بسرعة فتتراكم انقاضها خلافاً لمادة الحجر. اضافة الى ذلك، فقد كان من سلبيات استخدام اللبن للبناء صعوبة تمييز بقايا الجدران عن التربة والانقاض المحيطة بها وكان ذلك سبباً في ضياع مخططات الكثير من الابنية المكتشفة ولاسيما بالنسبة للمنقبين الاوائل من الهواة والمغامرين.

وفي بلاد اشور تتوفر بعض انواع الحجر الكلسي الابيض والازرق، اي الحلاّن والرخام، وفي مناطق قريبة من المدن الرئيسة مما شجّع على استخدام الحجارة غير المهندمة لبناء الاسس وفي العصور الاشورية التالية استخدام الحجر المهندم او القطع المنحوتة على شكل الواح كبيرة، في بناء الاسوار وتأطير الاجزاء السفلى من جدران القاعات والممرات والغرف وتبليط الارضيات، ولكن اقتصر استخدام الحجر على الابنية الملكية، او ابنية المعابد وملحقاتها وعلى اجزاء محدودة من تلك الابنية فقط كما سبق والمحنا، ومما يلاحظ ان الاشوريين كانوا على معرفة تامة بطبيعة انواع الحجارة المتوفرة لديهم ومدى مقاومتها لمياه الامطار وحرارة الشمس، فاستخدموا الحجر الكلسي الابيض (الحلاّن)، وهو الاكثر مقاومة، لعمل الثيران المجنحة وتغليف الجدران من الخارج وتبليط الساحات المكشوفة وعمل المسلات والتماثيل التي توضع عادة في اماكن مفتوحة في حين استخدموا الرخام الازرق لتغليف الجدران من الداخل وتبليط الارضيات وعمل التماثيل والمنحوتات المحمية من مياه الامطار بالسقوف.

وفي بلاد بابل، عوّض البابليون عن الحجر الذي يفتقرون اليه باستخدام الآجر، اي اللبن المحروق بالفرن الذي اتصف بالقوة والصلابة، فاستخدموه لبناء الاجزاء المهمة من القصور والمعابد في حين جلبوا الحجارة من بلاد اشور او من غيرها لعمل النصب والتماثيل والمنحوتات، فكانت لذلك قليلة نسبياً. كما استخدم الآجر في بلاد اشور ايضاً ولكن على نطاق محدود وبشكل خاص في بناء الاقبية والاقواس.

اضافة الى ذلك ، استخدم القار، وهو من المواد القوية التي تقاوم تقلبات المناخ ، لطلاء الاجزاء السفلى من الجدران وليكون مادة لاصقة بين الحجارة احياناً.

وفي بلاد بابل ، كان لطبيعة تربة المنطقة الرسوبية الرطبة وانخفاضها نسبياً عن مستوى مناسيب مياه الانهار وتعرضها المستمر للفيضان وقربها من مستوى المياه الجوفيه اثر كبير في تلف معظم الآثار الباقية ، وبشكل خاص الآثار المصنوعة من مواد عضوية لايمكن ان تبقى في مثل هذه التربة الرطبة لمدة طويلة ، او لصعوبة الوصول اليها والكشف عنها لانها تقع دون مستوى المياه الجوفية ، كما هي الحال بالنسبة لبقايا العصر البابلي القديم في مدينة بابل وبعض المدن الاخرى في بلاد بابل.

كما كان لافتقار العراق ، بلاد بابل واشور، الى المعادن ان اضطر القدماء الى استيرادها من مصادرها البعيدة وكان طبيعياً ان تكون كلفتها عالية وكمياتها قليلة ولم تصنع منها سوى الادوات والآلات المهمة كما صنعت منها الحلي الجميلة ولاسيما من الذهب والفضة ، اما الاخشاب ، فان ماهو متوفر منها في العراق يصلح بالدرجة الاولى للتسقيف ، كجذوع النخيل ، الا ان بلاد بابل واشور تفتقر الى الخشب الجيد لصناعة الاثاث مما اضطرهم الى جلب الانواع الجيدة من جبال لبنان وغيرها فصنعت منها بعض الآثاث الملكية الا ان رطوبة الجو والتربة حالت دون بقاء تلك الآثاث. وما يقال عن الاخشاب يتطبق على غيرها من المواد العضوية كالمنسوجات فكان ذلك سبباً من اسباب تلف الكثير من الآثار الباقية التي انطمرت في بطون التلول وتلفت بمرور الوقت.

ومن جانب آخر، كان لاستخدام العراقين القدماء مادة الطين للكتابة اثر كبير في المحافظة على الآلاف من النصوص المسمارية حيث ان الواح الطين الصغيرة ، وبصورة خاصة اذا كانت مفخورة ، تقاوم عوامل الطبيعة المختلفة فلا تتأثر في الحرارة او الرطوبة ، الا قليلاً ، واذا احترقت زادت قوتها وصلابتها وان اكثر مايهدد بقاءها هو تحطمها وهكذا حفظت لنا تربة ارض الرافدين اعداداً كبيرة من هذه الالواح كانت المفتاح الذي عرفنا بمعظم العلوم والمعارف والافكار التي توصل اليها العراقيون القدماء.

ونظراً لكثرة الآثار الباقية وتنوعها مما بسطناه في الفصول السابقة كالآثار المنقولة المكتشفة ، كالرقم الطينية والمنحوتات الجدارية والادوات الحجرية والاختام الاسطوانية والنصب والتماثيل والثيران المجنحة والعاجيات والحلي والفخاريات فقد انتخبنا عدداً محدودا من اهم وابرز المدن العراقية القديمة التي يمكن مشاهدة آثارها الباقية ، اما المدن والمواقع الاخرى فيمكن الاطلاع على ماتم الكشف فيها من آثار وابنية في تقارير

التنقيبات الخاصة بكل منها وفي عدد من الكتب والبحوث التي تناولت مدن ومواقع العراق القديمة.[1]

مدينة أور

احدى اهم المدن السومرية التي نالت شهرة واسعة في مختلف العصور وكانت مركزاً لثلاث من السلالات السومرية الحاكمة، ومركزاً لمملكة قوية موحدة ضمت جميع انحاء العراق وذلك في عهد سلالتها الثالثة (٢١١٣-٢٠٠٦ق.م) وورد ذكرها في العهد القديم على انها المكان الذي عاش فيه النبي ابراهيم الخليل عليه السلام ومنها رحل الى حرّان، كما ذكرها الكتاب العرب واشاروا الى اسمها اور كما سموها قرينة، اي مدينة القمر، وكانت اور من اهم مراكز عبادة الاله القمر في العصور القديمة، كما سموها «ذو قار» لكثرة استعمال القار في ابنيتها[2].

تقع بقايا اور على مسافة ١٧ كيلومترا جنوب غربي مدينة الناصرية، مركز محافظة ذي قار حالياً. وتذكر النصوص المسمارية انها كانت تقع بالقرب من البحر بينما تبعد عنه الآن اكثر من ٢٠٠ كيلومتر وربما كانت الاشارة في النصوص الى مياه الفرات حيث كان يجري بجوارها ثم حوّل مجراه وهو يبعد عنها حالياً مايقرب من اثني عشر كيلومتراً. ويقع الى جوار اور عدد من المواقع الآثرية المهمة التي يتردد ذكرها في تاريخ العصور المبكّرة مثل اريدو، اقدم مستوطن في جنوب العراق ويقع جنوب اور بمسافة ٣٠ كيلومتراً، وتل العبيد الواقع الى الشمال الشرقي من اور بمسافة ٦ كيلومترات، وتحتضن طبقاته السفلى اقدم اثار سكنى الانسان في هذا الجزء من العراق بعد الطبقة السفلى في اريدو.

بدأ التنقيب في اور منذ اواسط القرن الماضي، حيث اجرى عدد من الانكليز تنقيبات غير علمية فيها عثروا خلالها على بعض الآثار المهمة من العصر البابلي الحديث (٦٢٦-٥٣٩ ق.م)، وبعد الحرب العالمية الأولى استأنف البريطانيون اعمال التنقيب في المدينة باساليب علمية وكشفوا عن عدد من القصور والابنية وكانت اهم اعمال التنقيب

---

(١) انظر مثلاً:

دائرة الآثار والتراث، المواقع الاثرية في العراق، بغداد، ١٩٧٠.

طه باقر وفؤاد سفر، المرشد الى مواطن الآثار والحضارة/بغداد،

تقارير التنقيبات المنشورة باللغة العربية واللغات الاجنبية في مجلة سومر التي تصدر عن دائرة الآثار والتراث، بغداد، ١٩٤٥ وحتى الآن.

(٢) انظر شاه الصيواني، اور، بغداد، ١٩٧٦، ص ٩-١٠، وهوامش ص. ١٠.

هي التي قام بها المنقب الانكليزي وولي Woolley من ١٩٢٢وحتى ١٩٣٤[١]،وكان من اهم ما كشف عنه وولي هي مقبرة اور الملكية التي اعطت المدينة شهرة واسعة في العصر الحديث ثم اولت دائرة الآثار والتراث اهتمامها بالمدينة وبصيانة ابنيتها ولاسيما زقورتها الضخمة فاعادت ترميمها وصيانتها.

تاريخ المدينة

اظهرت التنقيبات الواسعة التي اجرتها البعثة البريطانية–الامريكية في اور في الفترة ١٩٢٢–١٩٣٤ على نتائج مهمة كشفت عن تاريخ المدينة منذ بداياتها الاولى وحتى الفترات المتأخرة من تأريخها القديم فقد اوضحت الحفر التي قام بها المنقبون وكشفوا من خلالها على الادوار السكنية والحضارية التي تعاقبت على المدينة، ان المدينة كانت مسكونة منذ دور العبيد، اي منذ اقدم تأريخ الاستيطان في القسم الجنوبي من العراق، كما كشف في الطبقات التالية للطبقة السفلى عن بقايا من دور جمدة نصر والذي ضم بقايا فيضان كبير ظن المنقب وولي بانه بقايا الطوفان المشهور، الا ان الدراسات الاثرية بينت خطأ هذا الرأي وقد عثر في هذه الطبقات على ملتقطات أثرية متنوعة كالاختام والفخاريات وبعض الرقم الطينية التي تحمل علامات مسمارية. اما الطبقات التي ترقى بتاريخها الى عصر فجر السلالات (حدود ٢٩٠٠–٢٤٠٠ ق.م) فكانت على اهمية كبيرة حيث انها تؤكد على ان مدينة اوركانت من المراكز الحضارية المهمة في هذه الحقبة من التأريخ السومري. وقد كشفت في طبقات هذه الحقبة على بقايا ابنية يظن انها بقايا معبدين وعلى ابنية يحتمل انها تمثل بقايا زقورة شيدت على انقاضها زقورة اور الشهيرة في عهد اور–نمو (٢١١٣–٢٠٩٦ ق..م). وكانت اور في عصر فجر السلالات ومابعده مقراً لعبادة الاله القمر ننا (سين).

وكانت مدينة اور من جملة المدن التي ضمها سرجون الاكدي الى حدود مملكته التي وحّدت بلاد سومر واكد، وغدت مدينة ثانوية في فترة الغزو الكوتي الى ان آن لها ان تظهر ثانية على مسرح الاحداث السياسية حيث اسس فيها اور–نمو سلالة ملكية كانت آخر سلالة سومرية حكمت في العراق (٢١١٣–٢٠٠٦ ق.م) يعد عصر هذه السلالة التي يسميها الباحثون المحدثون امبراطورية اور الثالثة، عصر انتعاش وازدهار حضاري ترك لنا اثاراً كثيرة وواضحة ضمّت الابنية كالمعابد والزقورات والآثار الاخرى كالمنحوتات والرقم

---

(١) شاه الصيواني، المصدر السابق.

الطينيه وغيرها . وقد ظلت اور طوال قرن من الزمن مركز اشعاع حضاري الا ان نهايتها المحتومة كانت على ايدي الاقوام العيلامية الغازية ، حيث خرّبت قصورها ومعابدها ونهبت كنوزها وغدت ثانية مدينة مهملة وظلت كذلك طوال العصور التالية وان شهدت بعض الاهتمام والتعمير في عهد عدد من الملوك الكشيين والاشوريين والاكديين ولكن على نطاق ضيق جداً ، وتدريجياً هجرت المدينة وتهدمت ابنيتها وتراكمت فوقها الرمال والاتربة .

الآثار الباقية

اظهرت التنقيبات التي اجريت في مدينة أور بانها لم تكن مدينة واسعة كالمدن العراقية الرئيسة الأخرى حيث بلغت المساحة المسكونة في المدينة حوالي ١٢٠٠ × ٧٠٠ متر مربع يضمها سور ضخم مشيد باللبن شكله بيضوي. وفي داخل هذا السور مساحة واسعة شيدت فيها معابد المدينة الرئيسة تمثل الحرم المقدس. وكان من أهم الآثار المكتشفة في المدينة المقبرة الملكية من عصر فجر السلالات وزقورة اور الشهيرة ، من عهد اور- نمو مؤسس سلالة اور الثالثة اضافة الى عدد من المعابد ، وهي خمسة معابد اهمها معبد الاله نار (ر) (إله القمر سين). وقصر شولجي الكبير المدافن الملكية من عصر اور الثالثة وبعض الأبنية الاخرى من العصور المتأخرة ، ولاسيما من العصر البابلي الحديث.[1]

وتبقى المقبرة الملكية التي يرجح الباحثون انها تعود الى الطور الثالث من عصر فجر السلالات من اهم ما تم الكشف عنه في مدينة اور. وقد آثار اكتشاف المقبرة ضجة كبيرة بين الأوساط العلمية وخارجها لروعة ما تم الكشف عنه فيها من كنوز ذهبية لم يسبق ان كشف عما يماثلها في اي مدينة عراقية اخرى ولغرابة اسلوب الدفن في قبور هذه المقبرة. فلقد تم الكشف في اور على عدة مجموعات من المقابر بعضها يعود الى العصر الشبيه بالكتابي وبعضها الآخر الى عصر اور الثالثة وبعضها الى عصور اخرى ، الا ان تلك المقابر كانت تضم قبوراً اعتيادية خالية مما قد يثير التساؤل. اما المقبرة الملكية من عصر فجر السلالات الثالث ذات الكنوز الذهبية والفنية الرائعة ، فانها تختلف عن غيرها من حيث اسلوب الدفن فيها حيث وجد في القبر الواحد منها عدا الشخص الرئيس الملحود فيها بقايا هياكل عظمية لعدد من الاتباع والحاشية بل وبقايا العربات والحيوانات التي كانت تجرها والى جانب الهياكل العظمية غير المنتظمة وجدت الكنوز الذهبية التي شملت الحلي والمجوهرات والأسلحة والالات الموسيقية وغيرها مما كان قد دفن مع الموتى. ولقد ظهرت

(١) انظر شاه الصيواني ، اور، ٢٥- ٥٦.

تفاسير عدة توضح ماهية هذا الأسلوب من الدفن وطبيعته وما يحمله من معانٍ دينية ، وكان آخر هذه التفاسير واقربها الى القبول ان هذه القبور الجماعية ذات علاقة بطقس الزواج المقدس الذي كان يجري سنوياً ويشارك فيه الملك ، او من ينوب عنه من الكهنة ، والملكة او من ينوب عنها من الكاهنات ، ممثلين عن الاله تموز والالهة انانا ، الهة الخصوبة والبركة وكانت رفاهية البلاد تعتمد حسب معتقداتهم السائدة على الزواج المقدس . ويبدو انه كان من مراسيم وشعائر الزواج المقدس ان يموت العريسان اللذان مثلا الزواج المقدس نيابة عن الآلهة كما كانت المراسيم الطقوسية تقتضي بان يموت كل من ساهم في هذا الطقس ويدفنوا سوية في مراسيم دينية خاصة ربما على انغام الموسيقى ، وهذا ما يفسّر الدفن الجماعي غير المنتظم في المقبرة التي وجدت في اور الا ان ما يضعف من هذا لرأي اننا لم نعثر على مقابر مشابهة من عصور اخرى في حين ظل يعمل بتقليد الزواج المقدس عبر العصور المتتالية [1] . وقد أمكن تحديد هويات بعض المدفونين في القبور الملكية في اور وكان منهم الملكة شبعاد التي ارتؤي اخيراً قراءة اسمها على هيئة پو- آبي Pu-abi [2] .

وتعد زقورة اور التي بناها اور- نمو، مؤسس سلالة اور الثالثة (٢١١٣- ٢٠٩٦ ق.م) على انقاض زقورة سابقة لها ابرز الآثار الباقية من الالف الثالث قبل الميلاد . وكان اور- نمو قد بدأ ببناء الزقورة الا انه لم يتمكن من اكمالها فعمل على اكمالها ابنه شولجي . والزقورة ، كما الحنا فيما تقدم هي عبارة عن صرح مدرج صلد مكون من ثلاث طبقات او مصاطب مشيدة باللبن ومغلفة من الخارج بالآجر، وكان يعلو الطبقة الثالثة معبد صغير لم يبق منه اي شيء وكان يرقى الى الزقورة بواسطة ثلاثة سلالم خارجية . ويحيط بالزقورة على الارض المجاورة فناء واسع تتوزع عليه غرف عديدة اعدت لسكنى الكهنة ولادارة شؤون المعبد . وتقع زقورة اور في النهاية الشمالية القريبة من الحارة المقدسة ولم يبق من الطبقات الثلاث سوى بقايا طبقتين ، وتبلغ قياسات الطبقة السفلى ٦٢,٥ × ٤٣ متراً وارتفاعها ١١ متراً اما الطبقة الثانية فمساحتها ٣٦ × ٢٦ متراً وارتفاعها ٥,٣٥ امتار وتقدر مساحة الطبقة الثالثة ٢٠ × ١١ متراً وارتفاعها ٢,٨٠ متر. ويقدر ارتفاع المعبد العلوي بحدود ٥,٥٥ أمتار. ويبلغ ارتفاع بقايا الزقورة في الوقت الحاضر ١٧,٢٥ متراً في حين كان ارتفاعها وهي كاملة مع المعبد العلوي بحدود ٢٦ متراً . [3] ومما يلاحظ في هذا البنا

---

(١) حول تفسير المقبرة انظر. ساكز، عظمة بابل، ص ٤٢٦- ٤٣١ .
طه باقر، المقدمة ، ٢٧٩ - ٢٨٠ ..

(٢) حول تفاصيل هذه القبور والاسماء التي امكن التعرف عليها انظر طه باقر، المقدمة ٢٧٧- ٢٧٩ .

(٣) شاه الصيواني ، اور، ص ٣٦- ٣٨ .

الضخم رشاقته واناقته وميلان جدرانه الاربعة الى الداخل ، كما ان الجدران الخارجية مزينة بالطلعات والدخلات زيادة في جمال الزقورة وفيها ثقوب تنفذ الى داخل الزقورة ربما لتسريب المياه. وكان بناء الزقورة قد جدد في العصور القديمة في عهد عدد من الملوك كان آخرهم الملك نبونائيد. اخر ملوك الدولة البابلية الحديثة واضطلعت اخيراً دائرة الآثار والتراث بصيانة وترميم ما تبقى من الزقورة وذلك في المدة ١٩٥٩ – ١٩٦٣.

مدينة بابل

اشهر مدن الدنيا القديمة واكبرها مساحة ، ورد ذكرها في العهد القديم كما جاء ذكرها في القرآن الكريم[١] ، وتحدث عن عظمتها وسعتها الكتاب الكلاسيكون امثال هيرودوتس ، وسميت البلاد باسمها فعرفت ببلاد بابل Babylonia وعدت اسوارها وجنائنها المعلقة من عجائب الدنيا السبع المشهورة[٢] وانبهر بها حتى الاعداء واعتبرها آخرون اعجوبة عصرها

تقع بابل على بعد كيلومتراً جنوب غربي بغداد على ضفاف نهر الفرات واسمها القديم باب – ايلي Bāb – ilī ، بمعنى (باب الاله) وبالسومرية Ká – Dingir – ra الذي يحمل المعنى نفسه ، وان كان هناك من يرى ان الاسم يرجع باصوله الى لغة السكان الاوائل ، سكان الفرات الاقدمين.[٣]

كانت بابل احدى القرى الكثيرة المنتشرة في المنطقة في عصر فجر السلالات وربما كانت تابعة لمدينة كيش ، ورد اول ذكر لها من عهد سرجون الاكدي حيث يشير احد النصوص المتأخرة ان سرجون الأكدي نقل تراب بابل او اخذ من ترابها عندما شيد عاصمته اكد. وربما اصاب التدمير بابل في عهد سلالة اور الثالثة ثم انقطعت اخبارها حتى قيام سلالة بابل الاولى (١٨٩٤ – ١٥٩٥ ق.م) ، حيث اصبحت عاصمة لمملكة صغيرة ثم مالبثت ان نمت واتسعت وغدت عاصمة لمملكة كبيرة واسعة ضمت جميع انحاء العراق في عهد حمورابي سادس ملوك السلالة (١٧٩٢ – ١٧٥٠ ق.م) وظلت

---

(١) سورة البقرة الآية/١٠٢

(٢) اطلق السواح والرحالة القدماء على مجموعة من الآثار الباقية الفنية المشهورة اسم عجائب الدنيا السبع وقد ضمت اهرامات مصر ومنارة الاسكندرية واسوار بابل وجنائنها المعلقة ومعبد آسيا الصغرى وتمثال الاله زيوس اليوناني وناؤوس موزوليوس ، ملك في آسيا الصغرى وتمثال جزيرة رودس الضخم (طه باقر المقدمة ، ص ٥٦٠ ، هامش+)

(٣) طه باقر، المقدمة ، ص ٥٢١.

عاصمة لبلاد بابل حتى آخر العهود التاريخية القديمة حيث اتخذها الكشيون عاصمة لهم وان كانوا قد ابتنوا لهم عاصمة جديدة لمدة من الزمن كما اصبحت عاصمة الدولة البابلية الحديثة في عهد نبوبلاصر ونبوخذنصر وخلفائهما. وفي عهد الاسكندر المقدوني، حاول الاسكندر اتخاذها عاصمة ثانية له الا انه توفي قبل ان يحقق احلامه. وعندما شيد السلوقيون مدينة سلوقية دجلة، اخذ الاضمحلال والخراب يدبان في بابل الى ان غدت مدينة مهملة وتهدمت ابنيتها ونقلت كميات كبيرة من آجرها المفخور الى المدن المجاورة.

نقّب في بابل بعثة المانية في المدة ١٨٩٩ – ١٩١٧، وهي اول البعثات الأثرية التي عملت وفق خطة علمية مدروسة، وقد كشفت عن آثار مهمة من العصر البابلي الحديث (٦٢٦ – ٥٣٩ ق.م) والعصور التالية الا ان المياه الجوفية كانت قد ارتفعت الى مستوى عالٍ فغطت آثار العصر البابلي القديم، لذلك فإن مايشاهد من آثار باقية في بابل يرقى بتاريخه الى العصور المتأخرة فقط. وتؤكد التنقيبات التي اجراها الالمان ان المدينة كانت، كما وصفها الكتاب الكلاسيكون، اكبر مدينة في العراق القديم حيث بلغ محيطها زهاء ثمانية عشر كيلومتراً ومساحتها نحو ٢٥٠٠ ايكر، اي نحو عشرة ملايين متر مربع، وبذلك فهي اكبر من مدينة اثينا بنحو خمس مرات. وكانت بابل مستطيلة الشكل تقريباً ويخترقها نهر الفرات من الشمال الى الجنوب، ولا يمكن تقدير عدد سكانها الا ان سعتها تشير الى انها كانت تتسع لما لايقل عن ربع مليون نسمة. وكان يحيط المدينة سوران ضخمان، يتألف كل منهما من اكثر من جدار واحد، خارجي وداخلي. فأما السور الخارجي فهو من منجزات الملك نبوخذنصر في حين يرجع السور الداخلي الى عصر اقدم ويبلغ معدل المسافة بين السورين زهاء كيلومترين خصصت الى سكنى عامة الناس وزراعة البساتين حيث لم يشيد فيها سوى قصر نبوخذنصر الصيفي ومعبد اكيتو. ويبلغ طول السور الخارجي ١٦ – ١٨ كيلومتراً وهو مؤلف من ثلاثة جدران الواحد بعد الآخر، شيد الاول من الداخل باللبن وسمكه سبعة امتار وشيد الجدار الثاني بالآجر وسمكه سبعة امتار ايضاً اما الجدار الثالث فهو مشيد بالآجر ايضاً وسمكه ثلاثة امتار – امامه خندق الماء وقد شيدت ابراج الدفاع في هذا السور اما السور الداخلي فيتألف من جدارين من الآجر تتخللها ابراج دفاعية، سمك الأول ٦,٥ أمتار وسمك الثاني ٣,٧٠ امتار.[1]

كان تخطيط مدينة بابل تخطيطاً منتظماً يتميز بالشوارع الواسعة المتعامدة والتي تنتهي بالبوابات الرئيسة في المدينة، وقد وردت في النصوص المسمارية اسماء الشوارع والبوابات،

---

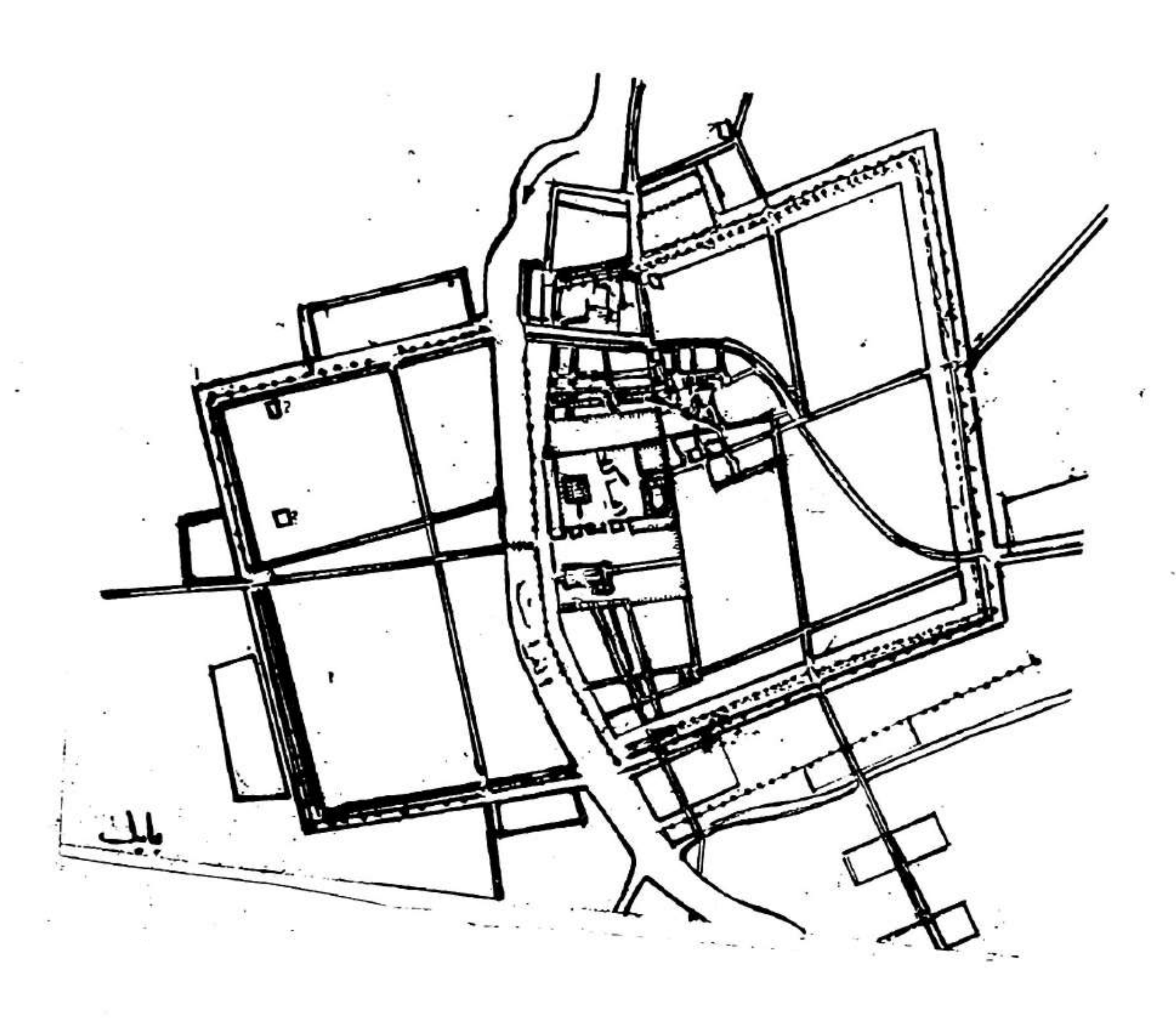
(١) حول اسلوب بناء الاسوار بصورة عامة انظر: جابر خليل، تخطيط المدن، في موسوعة الموصل الحضارية، ج ١، ٤٢٥ – ٤٣١.

وكانت كل بوابة تحمل اسم احد الآلهة ، كما ذكرت النصوص وجود ثلاثة جسور على نهر الفرات .

تعد بوابة عشتار وشارع الموكب من أهم الابنية المكتشفة في بابل وتتألف البوابة من مدخلين ، ويكتنف شارع الموكب من الجانبين جداران ضخمان لاتقل روعتهما عن البوابة نفسها وكان يزين كل منهما اشكال من الآجر المزجج تمثل اسود بلغ عددها ستين اسداً ، ويرمز الاسد الى الآلهة عشتار وقد لونت هذه الاشكال ، وهي ذات لبد حمراء او صفراء على ارضية من الآجر المزجج الازرق . وقد نقلت البعثة الالمانية جميع قطع الآجر المزججة الجميلة التي كانت تزين جدران البوابة وركبت منها الباب كما ينبغي ان يكون عليه في الاصل وبالحجم الطبيعي وذلك في احدى قاعات متحف برلين . واجمل ما في البوابة الحيوانات الملونة بالاحمر والابيض على ارضية مزججة بالازرق منها الثيران ، رمز الاله ادد ، والتنين الخرافي ، رمز الاله مردخ .

وخلف جداري شارع الموكب تقع قصور المدينة الضخمة وهي القصر الشمالي الذي وجد فيه اسد بابل الشهير المنحوت من قطعة واحدة من حجر البازلت ، وهو على هيئة اسد رابض على انسان ، ولا يعلم تأريخه على وجه التأكيد ، وهناك القصر الجنوبي ، وهو من اضخم القصور التي شيدها نبوخذنصر ، وقصرنبوبلاصر ، أما الجنائن المعلقة ، فقد عثر المنقبون في الركن الشمالي الشرقي من القصر الجنوبي على بناية غريبة التخطيط على هيئة مستطيل غير منتظم (٢ × ٣٠ م) ينخفض في مستواه عن ارضية القصر ويتألف البناء من حجرات صغيرة مؤلفة من صفين على جانبي ممر ضيق كما توجد ممرات اخرى ، وقد عثر في احدى الغرف على بئر ذات ثلاث حفر الواحدة الى جانب الاخرى فسرت بأنها المكان الذي كان يرفع منه الماء بواسطة دولاب وقد فسر المنقبون هذه البناية الغريبة باحتمال كونها موضع الجنائن المعلّقة التي اشتهرت بها مدينة بابل وان نبوخذ نصر كان قد شيدها لزوجته الميديّة اميتس وانها كانت عبارة عن سطوح مقامة فوق عقادات تلك الحجرات التي وجدت في اثناء التنقيبات حيث كانت الاشجار والاوراد تغرس فوق تلك السطوح والمغطاة بالتربة .

إن المعلومات المتوفرة لدينا عن الجنائن المعلقة سواء من النصوص المسمارية ام التنقيبات الأثرية قليلة وغير مؤكدة . وقد ورد ذكر الجنائن في مؤلفات الكتاب اليونان والرومان الا ان هيردوتس لم يذكرها واقدم من ذكرها هو الكاتب البابلي بيروسس الذي كتب بالاغريقية عن تأريخ بلاد بابل في مطلع القرن الثالث قبل الميلاد الا اننا لم نعثر على كتابه بل وردت بعض المقتبسات منه في كتب اليونان الاخرى .



أما معابد المدينة ، فقد ذكرت النصوص المسمارية اكثر من الف معبد صغير وكبير بلغ عدد المعابد المخصصة لعبادة الآلهة الرئيسة ١٥٣ معبداً امكن الكشف عن خمسة معابد كبيرة منها فقط اشهرها معبد اي– ساگلا ، وهو معبد الاله مردوخ ومعبد الالهة ننماخ والألهة عشتار والاله ننورتا واخيراً معبد الالهة گولا .

كانت المدينة مؤلفة من قسمين يفصل بينهما نهر الفرات ، القسم الشرقي حيث المدينة الرئيسة ، والقسم الغربي وقد سمي بالمدّينة الجديدة .

والى شمال معبد الاله مردوخ يقع برج بابل الشهير او الزقورة ، وكان يسمى بالعبارة السومرية اي– تمن– آن– كي e-temen-an-ki اي « بيت اسس السماء والارض » . ولايعرف متى شيدت زقورة بابل وربما ترجع الى عصور قديمة قد تصل الى العصر البابلي القديم . وقد بدأ البرج يتهدم حيث حاول الاسكندر المقدوني ترميمه الا ان موته حال دون

ذلك. وازداد الخراب والعبث بالزقورة في العصور التالية وكان السكان المحليون ينقلون آجرّه الى القرى والمدن المجاورة لاستخدامها في البناء حتى لم يعد من الزقورة سوى اسس قاعدتها السفلى وهي عبارة عن حفر عميقة محاطة بخندق مربع الشكل كانت بالاصل اسس جدران القاعدة. ومن المعلومات الآثارية التي سجّلها المنقبون ومخططاتهم ووصف هيرودوتس لها والاخبار الواردة عن الزقوة في النصوص المسمارية من العصر السلوقي يمكن القول ان الزقورة كانت ذات قاعدة مربعة ٩١,٥٥ × ٩١,٥٥ مترا وكانت مشيّدة باللبن ومغلفة بالآجر بثخن ١٥ متراً. وكانت تتألف من سبع طبقات واحدة اصغر من الاخرى ويرقى اليها بسلّم وسطي طوله نحو ٦٢ متراً وعرضه تسعة آمتار وسلمين جانبيين يتصلان به من الاعلى عند الطبقة الثانية او الثالثة وعلى قمة الطبقة المربّعة شيد المعبد العلوي. ولايعرف ارتفاع البرج، الا ان القاعدة العامة ان الزقورات ذات القاعدة المربّعة يكون ارتفاعها بطول ضلعها.[1] وقد وصلنا نص مسماري من فترة السيطرة السلوقية يتحدث عن قياسات الطبقات السبع تؤكد ان برج بابل كان اضخم زقورة شيدت في وادي الرافدين.

مدينة نينوى

احدى اشهر مدن العالم القديم، وثالث العواصم الآشورية من حيث التسلسل الزمني، ذكرتها الكتب القديمة، ومنها كتاب العهد القديم، بانها «المدينة العظيمة» (سفر يونان، اصحاح ١ – ٤) ووردت الاشارة إليها في القرآن الكريم في سورة يونس وتحدث عنها المؤرخون والبلدانيون العرب، ومنهم ابن حوقل من القرن الرابع الهجري، وذكرها الرحالة الاوربيون الذين زاروا الشرق منذ القرن الثاني عشر الميلادي. وقد حفزت هذه الاشارات وغيرها بعض المهتمين بالتأريخ القديم من الاوربيين للاهتمام بآثار نينوى والتعرف على بقاياها، وهكذا بدأ المنقبون الاوائل من الانكليز والفرنسيين يتوافدون الى الموصل للتنقيب في نينوى وغيرها من المدن الآشورية المهمة وذلك منذ اواسط القرن الماضي، فعمل فيها الفرنسي بوتا والبريطاني ليرد، وكلاهما كانا قنصلين لبلديها في الموصل، وقد نال ليرد شهرته العالمية من تنقيباته الناجحة في نينوى. وعمل في نينوى هرمز رسام، وهو من سكان المنطقة، لحساب البعثة البريطانية كما عمل فيها بلاس الفرنسي ورولنصن الانكليزي ثم اعقبهم طومبسون وهاملتون وملوان وغيرهم من المنقبين الانكليز واخيراً كان دور دائرة الآثار والتراث العراقية التي عملت في اسوار نينوى كما كشفت عن

---

(١) انظر طه باقر، ٥٦٩ – ٥٧٠

بقايا قصر سنحاريب الذي كان ليرد قد كشف عنه من قبل[1] . اما جامعة الموصل ، فقد ساهمت هي الاخرى في الكشف عن احدى بوابات نينوى وسورها المحاذي للبوابة[2] .

تقع نينوى على الجانب الشرقي من نهر دجلة قبالة مدينة الموصل القديمة ، وكانت في الازمنة القديمة تطل على شاطىء النهر ، لذلك شيدّ السور المحاذي للنهر على شكل مسناة لمقاومة تيار الماء ، الا ان تغير مجرى النهر ابعدها عن شاطئه مسافة تزيد على الكيلومتر في الوقت الحاضر. ويخترق نينوى حالياً نهر الخوصر (الخوسر في المصادر المسمارية) من جهتها الشرقية ماراً بمحاذاة تل قوينجق من ناحية الجنوب ليصب في دجلة بعد خروجه من نينوى ، وهو كذلك قد غيّر مجراه القديم . وللتوسع الكبير الذي شهدته مدينة الموصل ، طوقت الابنية الحديثة مدينة نينوى وامتد البناء الى داخلها وغدت مدينة نينوى باسوارها وآثارها وتلولها جزءاً من مدينة الموصل .

تتكون اطلال نينوى في الوقت الحاضر من تلين رئيسين هما تل النبي يونس (عليه السلام) وتل قوينجق يبطنان داخلها بقايا القصور والمعابد الآشورية وغيرهما من المباني العامة . ويحيط بالتلين سلسلة من التلال قليلة الارتفاع نسبياً طولها اثنا عشر كيلومتراً تقريباً تشكل شكل شبه منحرف اقصر اضلاعه في الجنوب واطولها في الشرق ، تغطي بقايا سور المدينة وبواباتها،وبموازاة الضلع الشرقية من الخارج بين الطريق المؤدي الى اربيل والطريق المؤدي الى مدينة الزهور بقايا خندق كبير كان قد حفره الآشوريون ليكون خط دفاع للمدينة وكدّسوا الاتربة المستخرجة من الحفر على الجانب الشرقي من الخندق ليكون حائلاً ترابياً ضخماً لازالت بقاياه ظاهرة . وبين التلين الرئيسين وسلسلة التلال المحيطة بالمدينة مساحات واسعة من الاراضي المنبسطة كانت تتوزع فيها الدور السكنية وبعض الابنية العامة والساحات والحدائق والشوارع .

اقتصرت اعمال التنقيب على تل قوينجق وسور وبوابات المدينة ولم تجر تنقيبات نظامية في تل النبي يونس بسبب وجود مرقد النبي يونس عليه السلام ووجود مقبرة عامة حديثة اضافة الى الدور السكنية الكثيرة المنتشرة حول بناء الجامع .

---

(١) حول تفاصيل اعمال التنقيب التي اجريت في نينوى وغيرها من المدن الآشورية انظر : جابر خليل ، الانشطة الآثارية ، في موسوعة الموصل الحضارية ، ج١ ، ٤٨٩ - ٥١٢ .

انظر عامر سليمان ، نتائج حفريات جامعة الموصل في اسوار نينوى ، آداب (الرافدين ، العدد الاول ١٩٧١ .

تؤكد التحريات الأثرية التي اجريت في المدينة ان الموقع كان من قرى عصور قبل التأريخ في الالفين الخامس والرابع قبل الميلاد ، كما تشير التنقيبات الى استمرار السكن في الموقع في الادوار التالية ، فقد عثر على آثار من عصر فجر السلالات والعصر الاكدي وعصر اور الثالثة ، وكانت نينوى احدى المدن المهمة التي ضمتها الدولة الاكدية ومن بعدها امبراطورية اور الثالثة الى حدودها. واحتلت نينوى مكانة بارزة عندما اتخذها تجلاتبليزر الاول (١١١٥–١٠٧٧ ق.م) عاصمة لملكه ، ووصلت نينوى قمة مجدها وازدهارها في عهد الامبراطورية الآشورية الثانية (٧٤٥–٦١٢ ق.م) ، حيث تعود معظم الآثار المكتشفة فيها الى هذا العصر. وكانت نهاية نينوى عام ٦١٢ ق.م على ايدي الجيوش الميدية والكلدية ، ايذاناً بنهاية الآشوريين. وظلت نينوى بلدة صغيرة مسكونة في العصور التالية لاسيما مدة الاحتلال الفرثي ثم قامت عليها قرية صغيرة لازالت موجودة على تل النبي يونس الى الوقت الحاضر.

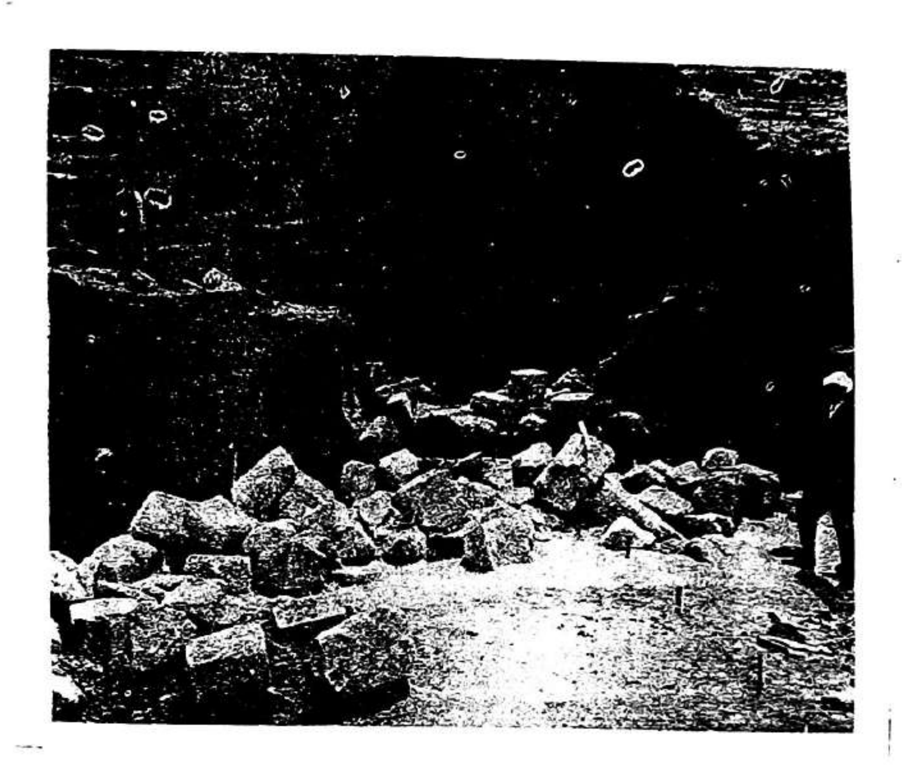
كان من نتائج التنقيب في نينوى أن تم الكشف عن العديد من القصور والمعابد الآشوية والتماثيل والمنحوتات والمسلات المعمولة من الرخام او الحجر الكلسي (الحلان) ولقى اثرية كثيرة اخرى ، كما تم الكشف عن مكتبة آشوربانيبال الرائعة التي ضمت اكثر من خمسة وعشرون الف رقيم طين ، فكانت من اثمن ماتم الكشف عنه في نينوى حتى الآن.

اما سور المدينة الذي يبلغ طوله ١٢ كيلومتراً ، فهو مؤلف من جدارين سميكين شيد الاول منها ، وهو الداخلي ، باللبن في حين شيد الجدار الخارجي بالحجر الكلسي الابيض (الحلان) وتتخلل كلا الجدارين ابراج ترتفع عن الجدار اعدت للدفاع عن المدينة. يبلغ سمك الجدار الصخري ثلاثة امتار ونصف ويرتفع الى مايزيد عن سبعة امتار، اما الجدار الداخلي المشيد باللبن فيبلغ سمكه اكثر من خمسة عشر متراً وقد يصل السمك الى اربعين متراً ، ولا يعرف ارتفاعه على وجه الدقة ويلتصق الجدار الداخلي بالجدار الخارجي الا في الجزء العلوي حيث يفصل بينهما ممر ضيق يبلغ عرضه ثلاثة امتار اعد لسير الجند والعربات. وتتخلل السور ثمانية عشر بوابة موزعة على الاضلاع الاربعة ، يبلغ ارتفاع احداها ، وهي بوابة ادد التي قامت جامعة الموصل باكتشافها وصيانة بعض اجزائها ، اكثر من سبعة عشر متراً[1] عن مستوى سطح الارض المجاورة. وقد تم الكشف عن عدد من هذه البوابات

---

(١) انظر ، عامر سليمان ، نتائج حفريات جامعة الموصل ، ص

واعيدت صيانة بعضها منها بوابة شمش وبوابة المسقى وبوابة نرجال وبوابة سين اضافة الى بوابة ادد المقابلة لابنية جامعة الموصل الحديثة ومؤسسة المعاهد الفنية.[(١)]



بقايا بوابة ادد عند اكتشافها

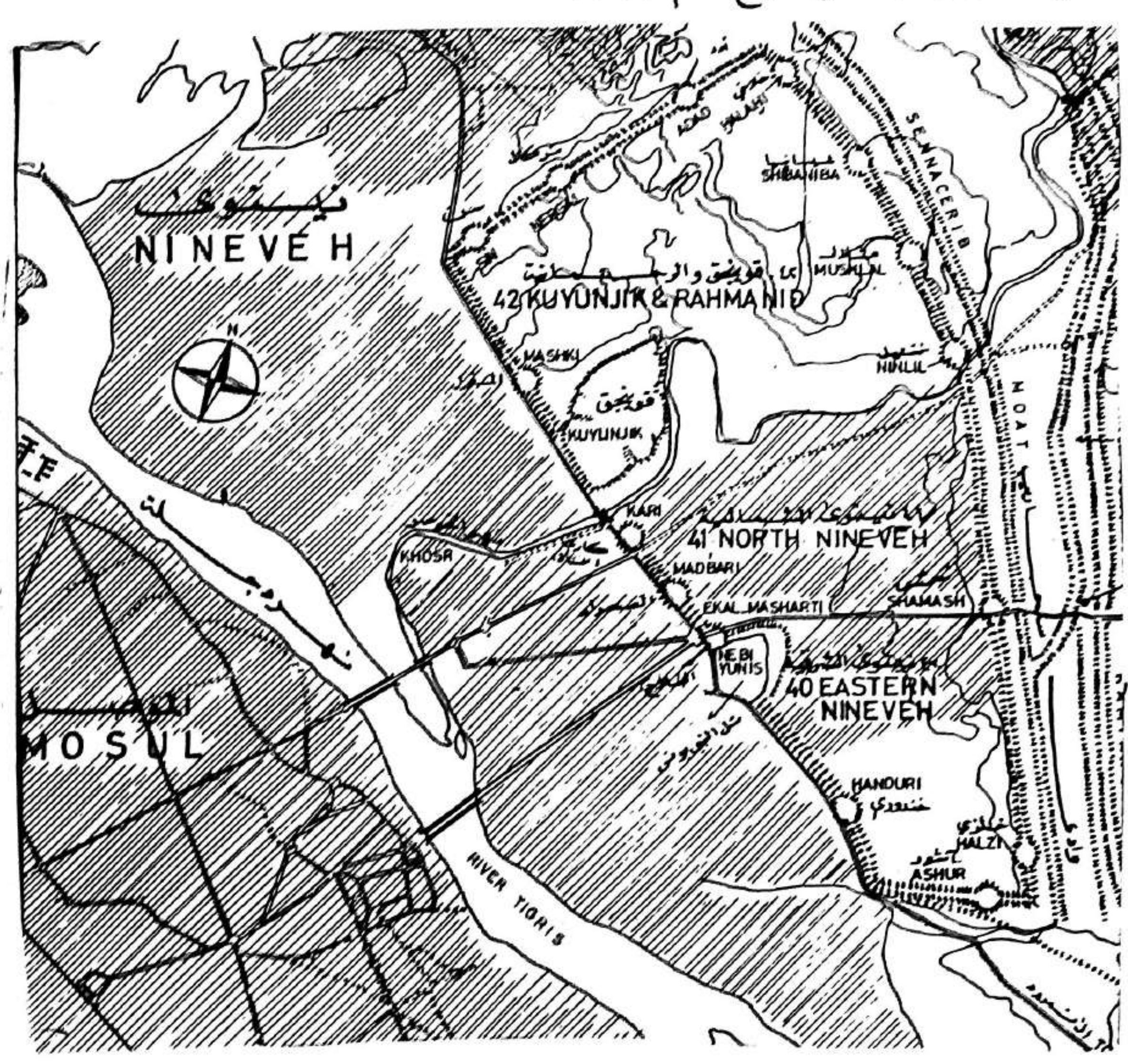
وكانت قصور المدينة ومعابدها قد شيدت في منطقتين رئيستين تؤلفان بقاياهما الان تل النبي يونس وتل قوينجق. ومما يذكره سنحاريب عن اعادته بناء مدينة نينوى وتوسيعها وتنظيمها و اقامة الحدائق فيها:

شيدت سور (المدينة) وجعلت ارتفاعه بارتفاع الجبال وفي اعلى المدينة واسفلها اقمت الساحات، وزرعت لرعيتي ثروة الجبال وجميع البلدان، جميع انواع النباتات من بلاد الحثيين، نباتات المر التي كانت ثمارها اكثر من ثمارها في مواطنها، جميع انواع الكروم الجبلية وجميع الفواكه من جميع البلدان شجيرات واشجار مثمرة»[(٢)].

(١) D.D Luckenbill, The Annals of Sennaherib, Chicago, 1924, p. 121.

(٢) حول ذلك، انظر طارق مظلوم، نينوى في ضوء التنقيبات الاثرية، سومر ٢٣ (١٩٦٧)، عامر سليمان، نتائج حفريات جامعة الموصل في سور نينوى الشمالي، طارق مظلوم ومحمد علي مهدي، نينوى، بغداد، ١٩٧٦ المصادر الاجنبية الاخرى المذكورة في هذه المصادر.

ومن القصور المهمة التي يضمها تل قوينجق هو قصر سنحاريب الضخم الذي قامت دائرة الآثار والتراث باستظهاره في السنوات الاخيرة ويمكن للزائر مشاهدة بقاياه حالياً ، وقد غلفت جدرانه الداخلية بمنحوتات ضخمة وزينت مداخله بالثيران المجنحة . كما يضم التل نفسه بقايا قصر اشور بانيبال الذي عثر فيه على المكتبة المشهورة المعروفة باسمه . اما تل النبي يونس ، فيضم بقايا قصر اسرحدون كما تشير الى ذلك التنقيبات البسيطة التي اجريت فيه . وفي عام ١٩٨٧ وفي اثناء عملية توسيع الجامع تمَّ الكشف عن عدد من الثيران المجنحة التي كانت تزين مداخل قصر اسرحدون كان احدها ذا طراز خاص حيث انه مؤلف من عدد كبير من قطع الصخر (الحلاّن) المكعّبة الشكل مجموعة الى بعضها لتشكل ثوراً مجنحاً ، وقد فقد رأس الثور في العصور القديمة ، كما تم الكشف عن بقايا بوابة القصر وعدد اخر من الثيران المجنحة التي كانت تزين مداخله وذلك في اثناء اعمال دائرة الآثار والتراث في الموقع عام ١٩٩٢

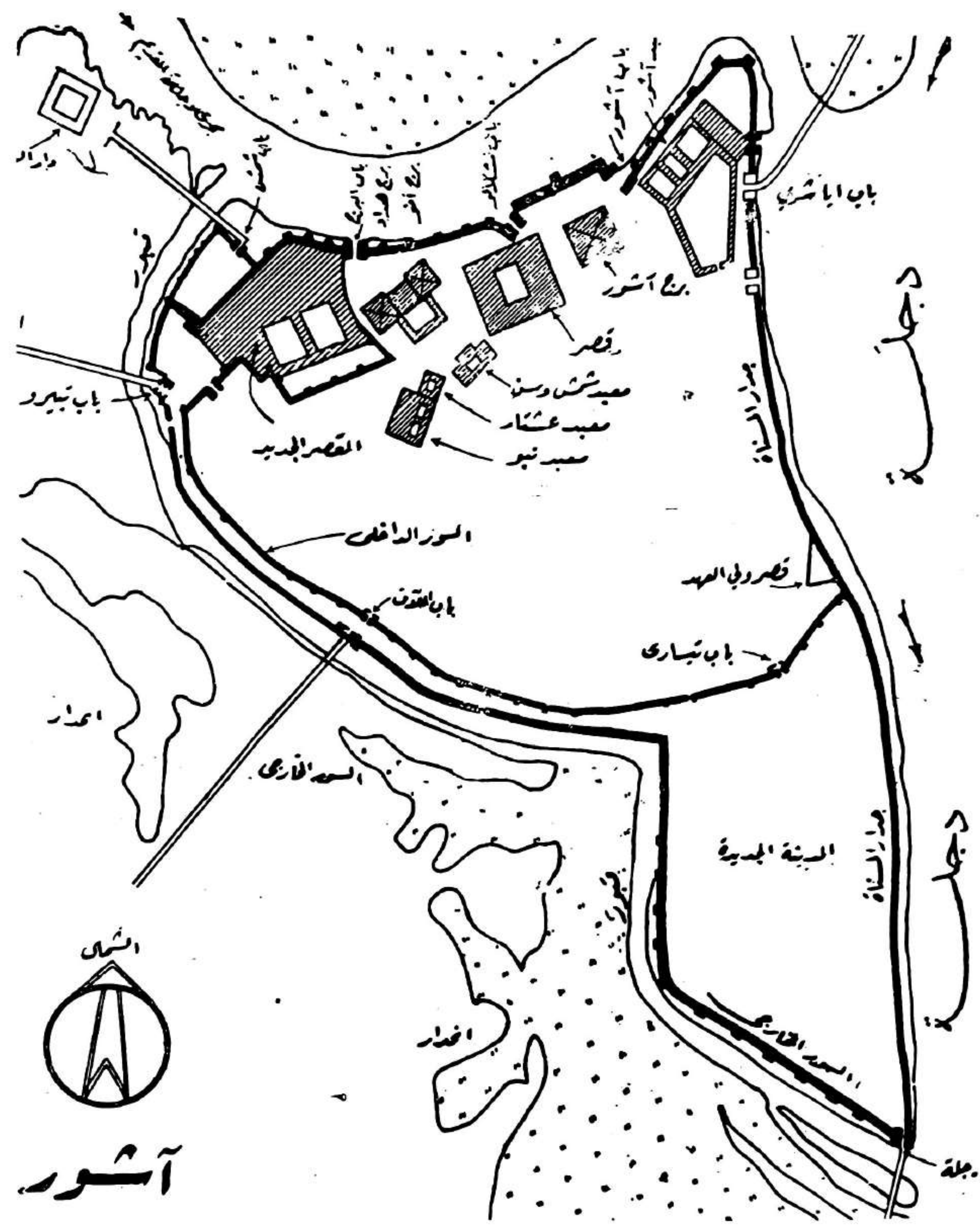


مدينة آشور

وهي اول العواصم الآشورية، وعاصمة الآشوريين الدينية المقدسة لذا دفن فيها معظم الملوك الآشوريين على الرغم من انهم اتخذوا غيرها من المدن عاصمة لهم، ولايخلو عهد ملك من الملوك الآشوريين المهمين من نشاط عمراني في مدينة آشور، وفيها كانت تقام احتفالات رأس السنة واحتفالات ومراسيم تتويج الملوك. وقد سمي اله الآشوريين القومي اشور ايضا، وسميت البلاد ببلاد آشور ونسب الاشوريون الى الاسم نفسه، ولايعرف ايهم اخذ الاسم من الاخر.

تقع بقايا آشور على مثلث مرتفع من الارض يطل على وادي دجلة من الشمال والشرق وبعد مسافة ١١٠ كيلومترات شمال مدينة الموصل وتعرف خرائبها اليوم بالقلعة، او قلعة الشرقاط، نسبة الى مدينة الشرقاط القريبة وتشرف المدينة من جهتها الشمالية على سهل منخفض غريني، اما من جهة الغرب فهناك هضاب صخرية قليلة الكسور ويقابل المدينة عبر النهر سهل فسيح يسمى احيانا سهل مخمور.

تشير التنقيبات الاثرية التي اجريت في المدينة انها كانت مستوطنا صغيرا في عصور ماقبل التاريخ، ومنذ فجر التاريخ اصبحت المدينة على اتصال وثيق بالقسم الجنوبي من العراق، وفي عصر الدولة الاكدية (٢٣٧١- ٢٢٣٠ ق.م) كانت احد المراكز الادارية التابعة للدولة الاكدية حيث عثر على بقايا ابنية من هذا العصر، وكانت كذلك في عصر اور الثالثة ثم استقلت آشور كغيرها من المدن الرئيسة في بلاد بابل وآشور في اعقاب انهيار سلالة اور الثالثة وقامت فيها سلالة محلية جاءتنا اسماء بعض حكامها، وقد قام احدهم بتشييد اسوار المدينة. ثم تدهور وضع آشور بتدهور قوة الآشوريين حتى عاد لها مركزها في عصر الملك شمشي- ادد الاول (١٨١٣- ١٧٨٢ ق.م) فشيدت فيها القصور والمعابد. وفي العصر الآشوري الحديث، وعلى الرغم من ان المدينة لم تعد عاصمة المملكة الاشورية القوية الا انها ظلت محافظة على مركزها الديني بين المدن الآشورية وكان سكانها يتمتعون بامتيازات خاصة بل واعطي للمدينة نوع من الاستقلال الذاتي واعفي سكانها من كثير من الخدمات العامة والضرائب المفروضة على غيرهم. دأب الملوك على تجديد اسوارها وتشييد القصور والمعابد فيها وترميم القديم منها ثم اهملت المدينة في اواخر هذا العصر وتهدمت تحصيناتها واسوارها ولم تقو على مواجهة الجيوش الميدية الغازية، فوقعت بايديهم عام ٦١٤ ق.م.



ويبدو ان المدينة ظلت بلدة صغيرة في العهود التالية، واستعادت آشور بعضا من مركزها القديم في مدة الاحتلال الفرثي للعراق حيث كانت مركزا تجاريا مهما، وقد كشف عن عدد من المباني والقصور من هذه المدة سمي احدها بقصر الاواوين، كما كشف فيها عن عدد من المباني الهلنستية من القرن الاول والثاني للميلاد. ثم هجرت المدينة وانطمرت ابنيتها ولم يكشف عن آثار السكن فيها بعد ذلك.

عملت البعثة الالمانية للتنقيب في مدينة آشور منذ عام ١٩٠٣ وحتى بداية الحرب العالمية الاولى وتمكنت من الكشف عن الكثير من مبانيها وآثارها ونقلت المهم منها الى متحف برلين، كما نقلت بعض الآثار المكتشفة الى متحف استانبول ثم تركت المدينة بعد ذلك فعادت الاتربة وتراكمت على الحفر والابنية المكتشفة الى ان تهيأ لدائرة الآثار والتراث العراقية مؤخرا ان تبدأ اعمال الكشف عن المباني التي كانت قد اكتشفتها البعثة الالمانية وصيانتها بهدف اعادة الكشف عن المدينة بكاملها[1].

ومدينة اشور اصغر العواصم الآشورية وقد شيدت على مساحة من الارض مثلثة الشكل تقريبا ومرتفعة ويحيط بالمدينة سوران محصنان بالابراج الضخمة تتخللها ثلاث عشر بوابة محاطة كل منها بالابراج الدفاعية. كان السور الداخلي يسمى «دورو» في حين سمي السور الخارجي «شلخو»، ويحيط السور الداخلي المدينة من جهتها الشمالية الشرقية بمحاذاة وادي دجلة ثم يستدير على شكل قوس تقريبا ليفصل بين هذين الضلعين، وكان يضم مايعرف بالمدينة الداخلية اما السور الخارجي، فيمتد من الزاوية الشمالية الغربية للمدينة حيث يتصل بالسور الداخلي ويتجه بموازاته في ضلعه المقوس ثم ينعطف ليسير بمحاذاة النهر ثم يتصل بالسور الداخلي ثانية. وكان الجزء الواقع بين الحور الخارجي والسور الداخلي يعرف عند الآشوريين بالمدينة الجديدة. وقد اظهرت التنقيبات التي اجريت في المدينة ان القصور والمعابد تركزت في القسم الشمالي منها، واول ما يسترعي انتباه الزائر بقايا الزقورة التي شيدت الى جوار معبد الاله آشور. وكان شيلمنصر الثالث (٨٥٩–٨٢٤ ق.م) قد جدد بناءها واعاد تشييدها كما جدد بناء معبدي آشور وعشتار واسوار المدينة وكان قد طمر في زوايا الابنية كنزا من خرز العقيق والبلّور الطبيعي والاحجار الكريمة الاخرى وصفائح رقيقة من الحديد والرصاص منقوشة بكتابات مسمارية تذكر ماقام به الملك من منجزات عمرانية. وتذكر الكتابات المكتشفة في المدينة ان آشور ضمت ٣٤ معبدا للالهة الآشورية المختلفة كان عشرا منها ضمن مجمع معبد الاله آشور.

---

(١) حول التنقيبات التي اجريت في المدينة انظر:
فالتر اندريه، معابد عشتار القديمة، ترجمة عبدالرزاق كامل، الترجمة عام ١٩٨٧.
فالتر اندريه، معابد اشور الحديثة، ترجمة عبدالرزاق كامل، الترجمة عام ١٩٨٧.
فالتر اندريه، آشور المدينة الهلنستية، ترجمة عبدالرزاق كامل، الترجمة عام ١٩٨٧.
كذلك فؤاد سفر، آشور ، بغداد، ١٩٦٠

وفي الجزء الجنوبي الشرقي من المدينة شيد سنحاريب قصرا لابنه اسرحدون كما جدد بناء بواباتها وبنى لها بوابات جديدة حملت اسماء شعرية عجيبة. والى الشمال الغربي من المدينة خارج السور شيد دارا للاحتفالات الدينية هو ما يعرف ببيت اكيتو الذي كانت تقام فيه احتفالات رأس السنة الجديدة[١].

مدينة كلخو (نمرود)

ثاني العواصم الاشورية من حيث تاريخ التأسيس، وربما اكثرها روعة من حيث اثارها الباقية. تقع اطلالها على بعد ٣٧ كيلومتراً الى الجنوب الشرقي من مدينة الموصل على الضفة الشرقية من نهر دجلة.

ورد اسم المدينة في النصوص المسمارية على هيئة كلخو Kalḫu في حين ذكرت في كتاب العهد القديم باسم كالح. وفي القرن الخامس قبل الميلاد مرَّ بخرائبها زينفون، قائد حملة العشرة الاف. وذكر بانها كانت تدعى لاريسّا larissa، اما البلدانيون العرب فقد ذكروا اسمها على هيئة اثور[٢]، كما سميت نمرود. ويظن ان اسم نمرود هو تصحيف لاسم اله الحرب الآشوري ننورتا[٣]، وكان الاعتقاد السائد بان نمرود كان ملكا جبارا طاغيا من ملوك الآشوريين وانه هو الذي شيد المدينة وانه هو الذي حاجَّ ابراهيم عليه السلام[٤]، في حين تؤكد النصوص المسمارية عدم وجود ملك يحمل هذا الاسم كما ان المعروف ان النبي ابراهيم عليه السلام كان يعيش في بلاد بابل وليس في بلاد آشور.

كان ليرد اول من نقب في المدينة بين عامي ١٨٤٥ و ١٨٥١ ثم اعقبه هرمز رسام ولوفتس وبعد عشرين سنة استأنفت البعثة البريطانية برئاسة ملوان زوج اجاثا كريستي العمل في الموقع وعملت فيه لعدة سنوات وكانت اجاثا كريستي تعيش في النمرود مع زوجها وكتبت عددا من قصصها البوليسية كان بعض شخوصها من الاشخاص الذين تعرفت عليهم في العراق. وفي السنوات الاخيرة تولت دائرة الاثار والتراث اعمال التنقيب والصيانة وهي لاتزال تعمل فيها وقد اعادت اكتشاف القصور والمعابد التي كانت البعثات الاجنبية قد حفرت فيها ثم تركتها لتنطمر ثانية وتتراكم عليها الاتربة[٥].

---

(١) انظر: عامر سليمان، الآثار الباقية في موسوعة الموصل الحضارية، ج١، ٥٢٤-٥٢٨.

(٢) انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ١١٩/١ تحت مادة اثور كذلك ابو الفداء في تقويم البلدان، ٢٨٥.

(٣) Mallawan, M.E.L, Nimr d and its Remains, London 1965

(٤) ابن منظور، لسان العرب، ٧٢١/٣.

(٥) عبدالله امين اغا وميسر سعيد العراقي، نمرود، بغداد، ١٩٧٦

تاريخ المدينة

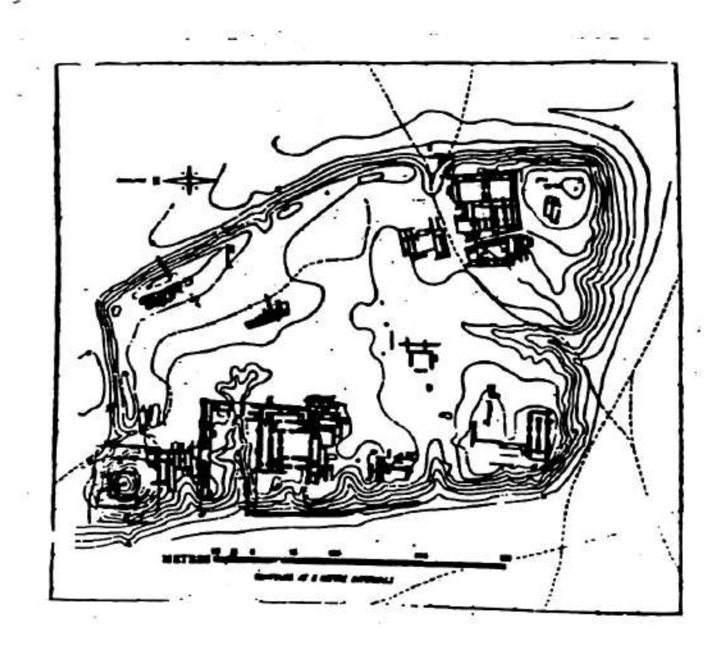
اظهرت التنقيبات التي اجريت في المدينة ان الموقع كان في الالف الثالث ق.م. مستوطنا صغيرا، كما عثر في الموقع على قبر يدل على انه يعود الى العصر البابلي القديم اما الكتابات المسمارية التي خلفها لنا اشور ناصربال الثاني (٨٨٣-٨٥٩ ق.م) فتؤكد على ان المدينة كانت قد شيدت في عهد شيلمنصر الاول (١٢٧٤-١٢٤٥ ق.م) ونالت المدينة شهرتها عندما جددها اشور ناصربال الثاني واتخذها عاصمة لملكه وتقع المدينة وسط سهل فسيح شديد الخصوبة وفير المياه. وكان لموقع المدينة العسكري اهمية خاصة حيث لايفصل اراضيها عن المنطقة الجبلية اي حاجز يعرقل تقدم الحملات العسكرية لذا، اتخذت المدينة قاعدة عسكرية في العصور التالية. كما كانت قريبة من اشور حيث يسهل الاتصال بها عن طريق النهر الذي كان يسير بمحاذاة سور المدينة الا انه يبعد عنها حاليا اكثر من كيلومترين نتيجة تغير مجراه. بعد ان جدد اشور ناصربال المدينة واقام فيها ابنية جديدة انتقل اليها في احتفال مهيب وردت تفاصيله منقوشة على مسلة معروفة باسمه وجدت في المدينة ويذكر الملك ان احتفالات التدشين هذه استمرت عشرة ايام متتالية وحضرها اعداد كبيرة من الممثلين والسفراء الاجانب والامراء والحكام والقادة والموظفين من الآشوريين اضافة الى اعداد كبيرة من المواطنين وقد ذكرت المسلة ان عدد الذين شاركوا بالاحتفالات بلغ ٦٩٥٧٤ شخصا، وان الملك قدم لهم الطعام والشراب فعاشوا في سرور وحبور لمدة عشر ايام متتالية، ومن الطريف ذكره ان الكبّة التي تشتهر بها مدينة الموصل حتى الوقت الحاضر (كُبَبِتُ Kubibate) كانت من بين الاطعمة المعدة للضيوف. وظلت كلخو عاصمة للدولة الاشورية في عهد شيلمنصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ ق.م) الذي شيد فيها ابنية جديدة ثم انتقلت العاصمة من بعده الى نينوى في حين ظلت كلخو قاعدة عسكرية للجيوش الآشورية، وشيدت فيها مباني جديدة في عهود عدد من الملوك الآشوريين المتأخرين. ودّمرت المدينة وهجرت في اعقاب الغزو الميدي لبلاد اشور، وانهارت عليها الاتربة وتراكمت فوقها وظلت كذلك الى ان آن لها ان تكتشف ثانية في العصر الحديث.

مخطط المدينة

يحيط المدينة سور دفاعي ضخم مشيد باللبن طوله حوالي ثماني كيلومترات وهو ذو شكل رباعي غير منتظم يضم مساحة من الارض تقدر بحوالي اربعة كيلومترات مربعة وكان يحاذي سور المدينة من الغرب نهر دجلة لذا شيد هذا الجزء من السور على شكل

مسناة لمقاومة تيار الماء، ويبلغ ارتفاع بقايا المسناة حوالي تسعة امتار عن مستوى قاع مجرى نهر دجلة القديم. اما من الجنوب، فيحاذي المدينة قناة النكوب، وهي قناة باتي Pati القديمة التي كان اشور ناصربال قد حفرها وربط بواسطتها بين الزاب والمدينة والتي يبلغ طولها ١٢ كيلومترا.

وفي الزاوية الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية من المساحة المحاطة بالسور يقوم مجمع الابنية، او المدينة المرتفعة «الاكروبوليس» الذي ضم القصور والمعابد ودور السكن، وقد اقيم المجمع على مصطبة من اللبن ترتفع عن مستوى النهر باكثر من اربعين قدما وتبلغ مساحتها ٨٠٠×٤٠٠م٢ محصنة بسور ثانٍ هو السور الداخلي. وكانت دور السكن مشيدة في بادئ الامر في هذا الجزء من المدينة الا ان توسع المدينة الداخلية وازدياد عدد السكان دفعا الى تشييد دور السكن في الساحة الداخلية المحصورة بين السورين كما شيدت بعض المباني العامة في هذه المنطقة كشف عن ثلاثة منها واستغلت المساحة المتبقية لتجميل المدينة حيث اقيمت فيها الحدائق والمتنزهات واسس فيها حديقة للحيوان والنبات ويمكن الوصول الى المدينة الداخلية بواسطة شوارع وممرات تؤدي الى مداخل السور الداخلي احدها مرصوف بالحجارة وتزينه الاسود الضخمة على جانبي المدخل ويستمر الشارع الى داخل المدينة حيث تحيط به القصور والمعابد الى ان يصل الى ساحة المدينة الكبرى.



مخطط عام للنمرود

كان السور الداخلي ذا شكل مستطيل تقريبا تتخلله عدة بوابات ويرتفع الى مايقرب من سبعة عشر مترا ويبلغ سمكه ٣٧ مترا وقد امكن التعرف على تسعة معابد كانت قد شيدت في المجمع المرتفع وعدد من القصور الملكية ومنها معبد ننورتا، اله الحرب والصيد عند الاشوريين، ومنه اشتق كما يظن اسم المدينة، وهو اقدم المعابد والى جواره تقوم الزقورة التي تظهر حاليا بشكل تل مخروطي ارتفاع بقاياه اكثر من ١٧ مترا وكانت جدران الزقورة السفلى مؤطرة بالاحجار المهندمة (الحلان) وفي اعلى منها غلفت الجدران بالآجر وقد قام شليمنصر باكمال بناء الزقورة. والى جوار الزقورة من الشرق ايضا يقع معبد عشتار ثم معبد نابو الذي كانت سيمر اميس (شموراميت) قد شيدته.

ويعد قصر اشور ناصربال الذي عرف لدى المنقبين بالقصر الشمالي الغربي، اهم بناء مكتشف في كلخو، تبلغ مساحته ٢٠٠× ١٣٠م ويتألف من ثلاثة اجنحة خصص الشمالي منها للادارة والوسطي للتشريفات الملكية والجنوبي الشرقي للسكن والحريم[1].

ولعل من اهم مايشاهده الزائر الان الثيران المجنحة التي تزين مداخل القصر المؤدية الى قاعة العرش. وكان الاشوريون يتصورون ان هذه التماثيل الصماء التي كانت تمثل كائنات خرافية مركبة، تحمي المدينة والقصر ومن فيها من الارواح الشريرة. كما يلفت انتباه الزائر للقصر مسلة اشور ناصربال المكعبة الشكل والتي يظهر على احد اوجهها نحت بارز للملك ولرموز الآلهة في حين نقشت جميع الوجوه بكتابات مسمارية دقيقة تحكي لنا منجزات واعمال الملك اشور ناصربال العسكرية والعمرانية وتدشينة المدينة، كما يمكن مشاهدة بقايا المنحوتات الرخامية الضخمة التي كانت تؤطر الاجزاء السفلى من جدران القاعات والغرف الداخلية وقد نحتت عليها مختلف المشاهد الدينية والعسكرية والحياة اليومية، الا ان الكثير من هذه المنحوتات يظهر مشوها مما يشير الى محاولات سراق الآثار رفع بعضها او اخذ اجزاء منها والتصرف بها.. كما قامت البعثات الانكليزية بنقل عشرات المنحوتات الى المتحف البريطاني في لندن وهي الان تزين عددا من قاعاته الرئيسة. وقد قامت دائرة الاثار والتراث مؤخرا باعادة بناء وصيانة اجزاء مهمة من هذا القصر وحاولت المحافظة على ماتبقى من المنحوتات.

ومن الاثار المهمة التي تم الكشف عنها في القصر العاجيات التي نالت شهرة واسعة ولاسيما القناع الذي يمثل وجه فتاة جميلة، وكانت معظم القطع العاجية المنحوتة والمزخرفة قد وجدت في ابار المدينة على عمق اكثر من خمسين متراً حيث كانت العادة ان تحفظ بعض الكنوز والقطع النفيسة في اماكن بعيدة المنال لاسيما وقت الغزو والاضطرابات.

(١) انظر Mallawan, Nimrud and its Remains. –

ومن القصور الاخرى المكتشفة قصر ادد- نراري الثالث (٨٠٩- ٧٨٢ ق. م) ابن الملكة سميراميس الواقع الى الجنوب الغربي من قصر اشور ناصربال. والقصر المركزي الواقع وسط المدينة والقصر الجنوبي الشرقي الذي شيده اسرحدون كما ان هناك بقايا قصور اخرى منها قصر لسرجون دعاه المنقبون بالقصر المحروق كما تم الكشف عن عدد من بيوت السكن.

وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة الكبيرة كشف عن بقايا مايسمى لدى المنقبين بحصن شليمنصر (٨٥٨-٨٢٤ ق.م) ويضم الحصن قصرا كبيرا للملك يتألف من خمس وحدات بنائية متناظرة كل منها يضم عددا من الغرف والمخازن والحمامات تحيط بساحة وسطية.

وكان من بين الاثار والكنوز الرائعة التي تم الكشف عنها في السنوات الاخيرة من قبل هيئة تنقيبات دائرة الاثار والتراث، الكنوز الذهبية التي وجدت في قبرين من القبور المكتشفة في احد اجنحة قصر اشور ناصربال الثاني وقد ضمت كميات هائلة من الحلي. كالاساور والاقراط والقلادات والكلابات وغيرها وكلها مزخرفة بزخارف دقيقة غاية في الدقة والجمال، كما عثر على بعض الكتابات المسمارية التي تشير الى اسم الاميرة المدفونة في القبر. وقد احدث اكتشاف هذه الكنوز ضجة كبيرة في جميع الاوساط ولاسيما العلمية منها حيث انها غيرت كثيرا من الاراء السائدة حول معتقدات القوم الدينية فيما له علاقة بحياة مابعد الموت.(٢)

دور- شروكين (خرصباد)

آخر العواصم الآشورية من حيث تاريخ التأسيس واقصرها عمراً حيث لم تتخذ عاصمة للدولة الآشورية الا لمدة محدودة جداً ربما لم تتجاوز السنة الواحدة. تقع اطلالها على مسافة ثمانية كيلومترات فقط شرقي مدينة نينوى على الطريق الرئيس المؤدي الى مركز قضاء الشيخان ليس بعيداً عن المفرق المؤدي الى متنزه الشلالات في الموصل.

تعرف بقايا المدينة الآشورية حالياً باسم خرصباد، وهو اسم فارسي اطلق على قرية صغيرة تقع بجوار اطلال المدينة الآشورية ثم شاع استخدامه للدلالة على اطلال المدينة ايضاً. اشار الى هذه المدينة البلدانيون العرب حيث ذكر ياقوت الحموي بأن هناك الى جانب قرية خرستاباد، وهي الصيغة التي ذكرت بها خرصباد، مدينة يقال لها صرغون،

---

(٢) كانت الهيئة باشراف السيد منهل جبر وادارة السيد مزاحم حسين.

خراب . والنخلة صرغون كما جاءت في معجم البلدان هي تصحيف من لفظة سرجون ، وهو اسم مؤسس المدينة التي كانت قد سميت باسمه (دور شرّوكين) اي (مدينة سرجون).

تاريخ المدينة

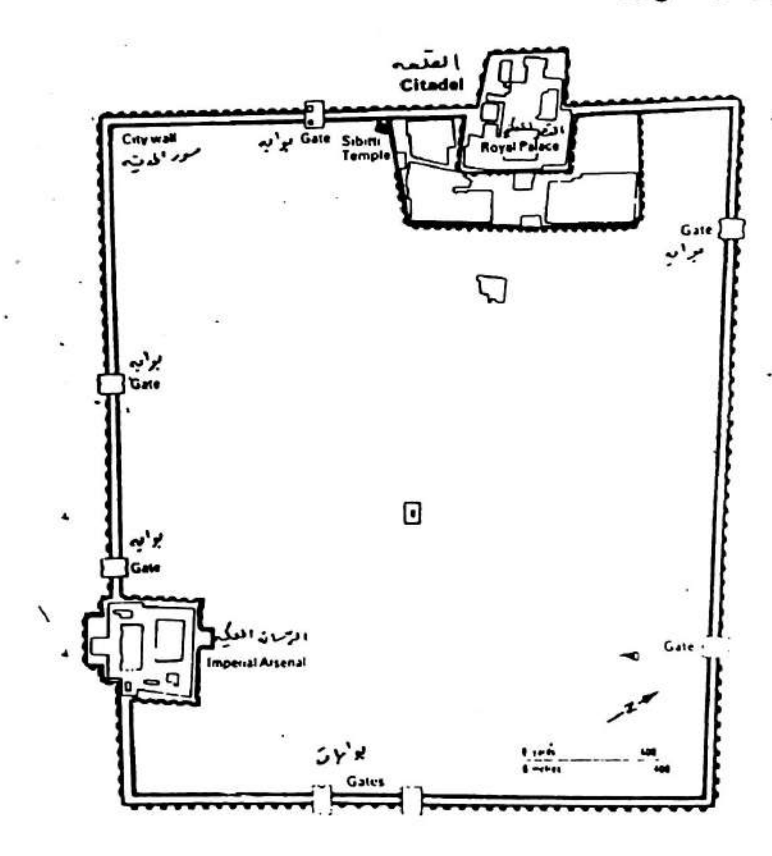
أسس المدينة الملك الآشوري سرجون (الثاني) (٧٢١ – ٧٠٥ ق . م) ودعاها باسمه . وكان سرجون قد اتخذ آشور ثم كلخو ثم نينوى عاصمة لملكه على التوالي ثم قرر بناء مدينة جديدة ، وفي عام ٧١٥ ق . م باشر ببناء المدينة في موقع قريب من مجرى ماء ينحدر من جبل ورد اسمه على هيئة جبل مصري ، وقد شيدت المدينة وفق مخطط هندسي دقيق ، وهي العاصمة الوحيدة التي شيدت اساساً لتكون عاصمة للمملكة . استغرق بناء المدينة عشر سنوات تقريباً ، واستعان سرجون بالفنيين والحرفيين الذين جلبهم من مختلف البلدان والاقاليم التابعة ، وانتقل اليها عام ٧٠٦ ق . م ، اي قبيل وفاته . في احتفال كبير دعا اليه جموع غفيرة من المواطنين وكثير من السفراء والوفود الاجانب وتشير التنقيبات الى ان سرجون انتقل الى المدينة قبل ان يكمل بناؤها وبعد وفاة سرجون ، هجرت المدينة تماماً حيث انتقل ابنه سنحاريب الى مدينة نينوى التي قام بتجديد ابنيتها وتوسيعها وبناء اسوارها ، ولم يكتف سنحاريب بهجر المدينة بل انه اقتلع بعض منحوتاتها الجدارية ونقلها الى نينوى ليزين بها جدران قصره كما وجدت بعض المنحوتات في دور شرّوكين وقد شوهت عن قصد ، كما يبدو ، بازاميل معدنية لاسباب غير معروفة بعد ، وظلت المدينة مهملة كمركز من المراكز الادارية فحسب .

بدأت التنقيبات في المدينة منذ اواسط القرن الماضي فقد عمل فيها كل من بوتا وليرد واوبرت وبلاس ، وكان من نتائج تلك التنقيبات ان تم رسم مخطط كامل تقريباً للمدينة كما تم الكشف عن آثار غاية في الأهمية ضمت مجموعات كبيرة من المنحوتات الجدارية وقطعاً معدنية وتماثيل من الحجر وغيرها . غير ان معظم الآثار التي تم الكشف عنها فقدت في شط العرب بالقرب من القورنة في اثناء نقلها بواسطة الاكلاك الى ميناء البصرة تمهيداً لنقلها الى خارج القطر وهي لاتزال في قاع الشط تنتظر اليوم الذي تنقذ فيه من المياه .

استأنفت اعمال التنقيب في المدينة عام ١٩٢٩ بعثة امريكية ، كما قامت دائرة الآثار والتراث ببعض اعمال التنقيب فيها عام ١٩٣٩ وكشفت عن ثورين مجنحين ضخمين نقلتها الى بغداد لتزين بها مدخل المتحف العراقي الحالي ، كما قامت عام ١٩٥٦ بالكشف عن معبد سيبيتي ، احد معابد المدينة ، وعملت على صيانته على ارتفاع مايقرب من مترين ، وهو مايمكن للزائر ان يشاهده بوضوح في المدينة حالياً .

تبلغ مساحة الارض التي شيدت عليها المدينة مايقرب من الميل المربع وهي على شكل مربع تقريباً (١٧٦٠ × ١٦٨٥ م٢) محاطة بسور ضخم شيد باللبن يبلغ سمكه ٢٥ متراً وتتجه زواياه الى الجهات الاربع الرئيسة مع ازورار بسيط في الزاوية الشمالية الغربية. وقد اقيم في كل ضلع مدخلان كبيران تحف بهما الابراج بأستثناء الضلع الشمالية الغربية حيث استعيض عن احد المدخلين بحصن كبير مشيد على مصطبة ضخمة من اللبن ترتفع بارتفاع السور ويبرز الحصن عن السور من الداخل والخارج وقد شيد فوقه القصر الملكي والبنايات العامة الاخرى. وفي الضلع الجنوبي الغربي حصن مشابه من حيث التصميم يحمي احد المدخلين، وهو المدخل المؤدي الى مدينة نينوى والمناطق الجنوبية.

ويحيط الحصن الرئيس في الضلع الشمالي الغربي سور داخلي يفصله عن بقية اجزاء المدينة ويتخلل هذا السور ايضاً مداخل تحفها الابراج وتحيط بها غرف خصصت للحرس المدافعين والمراقبين والمشرفين.



ان نظرة خاطفة الى مخطط المدينة ومقارنته بمخططات المدن الآشورية الاخرى توضح دقة التخطيط الهندسي لمدينة سرجون وتناسق ابنيتها وانتظام توزيعها وتناظرها على الرغم من ضعف اساليب المسح والتخطيط انذاك مما نتج عنه ازورار بسيط في احدى الزوايا.

وكانت المساحة الواسعة الواقعة بين الحصن او القلعة التي شيدت عليها الأبنية الملكية وبين السور الكبير الذي يحيط بالمدينة قد خصصت لبيوت عامة الناس.

اظهرت التنقيبات التي اجريت في قصر الملك سرجون انه كان غاية في الروعة والاتقان، وقد زينت مداخله بالثيران المجنحة، وقد خطط القصر وفق المخططات المعتادة للقصور الآشورية الملكية حيث يؤدي المدخل الرئيس ذو الابواب الثلاثة الى ساحة كبيرة تحف بها غرف الموظفين واجنحة الخدمات من جهة اليمين، في حين شيدت ثلاثة معابد كبيرة وثلاثة معابد صغيرة على جهة اليسار، ويقع مقر الملك خلف الساحة الكبيرة، ولكي يتفادى الملك النزول الى الساحة الكبيرة المفتوحة في اثناء زيارته لمعبد نابو فقد وصل بين المقر الملكي والمعبد بجسر من الحجر يقوم فوق قنطرة وكانت الساحة الكبرى تحتضن الاحتفالات التي يشارك فيها جميع المواطنين ومنها تنطلق المسيرات الخاصة بالاحتفالات المدنية او الحملات العسكرية.

وفي اقصى الجهة اليسرى، بين الاجنحة الرسمية وابنية المعابد، تقوم الزقورة التي ترتفع ارتفاعاً شاهقاً وربما شيدت في هذا المكان لتكون في خدمة المعابد الستة اضافة الى معبد نابو، وهو المعبد الرئيس في المدينة. وقد تم الكشف عن ثلاث طبقات من الزقورة وجزء من الطبقة الرابعة وربما كانت تتألف اصلاً من سبع طبقات، وترتفع كل طبقة عن الاخرى ثماني عشرة قدم وقد زينت واجهات الطبقات بالطلعات والدخلات ولونت بالوان جذابة. ويرقى الى الزقورة بمنحدر يدور حول اصل البناء من القاعدة الى القمة بالاسلوب نفسه الذي يرقى بواسطته الى اعلى منارة الملوية في سامراء ويبلغ عرض المنحدر حوالي ستة اقدام ويحدّه من الجهة الخارجية شرفات مسننة.(١)

مدينة تربيصُ

من المدن الملكية الآشورية المهمة مدينة تربيص التي تقع اطلالها على بضعة كيلومترات من نينوى، وتتوسط المسافة بينها وبين نينوى ابنية جامعة الموصل الحديثة.

تتمثل بقايا المدينة بتل رئيس يرتفع عن مستوى السهل المجاور من الشرق والجنوب بما يقرب من عشرة امتار وينحدر نحو الغرب والشمال الى ان يتصل بالسهل المجاور ويحيط ببقايا المدينة خندق كبير كان يستخدم كقناة لايصال المياه الى المدينة كما يحيط بها سور ترابي موازٍ للخندق تكون نتيجة حفر الخندق.

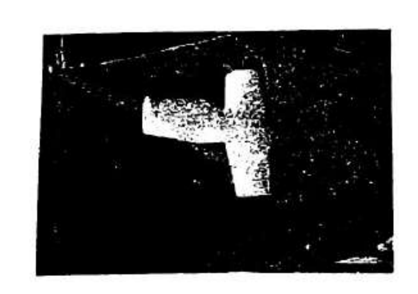
(١) حول التنقيبات التي اجريت في دور- شرّوكين انظر:
Bota, Flandin, Les Monuments de Ninive, 1949– 1950 Place V., Ninive et la Assysie, 1867–70. Loud, Khorsabad, 1936–8.

اشارت النصوص المسمارية المكتشفة في نينوى ، ولاسيما من عصر سنحاريب ، الى مدينة تربيص بأنها من المدن المهمة التي تميزت بمركزها الديني مما دفع ليرد للعمل فيها في اواسط القرن الماضي وذكر انه وجد على عمق بسيط من سطح التل آثار بناء شيد باللبن كما عثر على بعض القطع الرخامية والآجر المختوم باسم الملك سرجون والملك سنحاريب ، غير ان النتائج التي توصل اليها لم تكن مشجعة للاستمرار في العمل فتوقف وعاد ادراجه الى نينوى الغنية بآثارها وقصورها.

وفي عام ١٩٦٨ ، قررت جامعة الموصل البدء بالتنقيب في التل الذي يظن انه يبطن داخله بقايا مدينة تربيص الآشورية فانتقلت هيئة التنقيب التابعة للجامعة برئاسة المؤلف والتي كانت تعمل انذاك في بوابة ادد في سور نينوى الشمالي للعمل في موقع الشريخان. واستمر العمل في الموقع لمدة ثلاث مواسم اكتشفت الهيئة خلالها بقايا معبد الاله نرجال ، وقصر ولاية العهد ، بيت ريدوتي ، وبقايا مايظن انه المسبح المقدس بيت- رمكي.

اما معبد نرجال ، فقد اشارت اليه نصوص اكتشفت في مدينة نينوى كما ورد ذكره في النصوص المدونة على الرخام والآجر الذي وجد في المدينة نفسها ، وتظهر اهمية المعبد من اطلاق اسم نرجال على احدى بوابات العاصمة نينوى المقابلة لمعبد نرجال في تربيص. وقد اظهرت التنقيبات ان المعبد كان قد احرق ابان غزو الجيش المدي للمدينة عام ٦١٤ ق.م. قبيل سقوط نينوى.

وكان من اهم الآثار المكتشفة في المعبد الاسطوانتين الفخاريتين اللتين عثر عليها في زاويتي القاعة الرئيسة في المعبد كما عثر على رقيم طيني كبير الحجم يحمل جزءاً مهماً من اسطورة الاله زو.



وكان البناء الثاني، وهو الأهم الذي امكن الكشف عنه هو مااصطلحت الهيئة على تسميته بالبناءالملكي ويظن انه يضم بنائين ملكيين يمثل الأول منها بقايا قصر ولاية العهد، بيت- ريدوتي، في حين يمثل الثاني بقايا المسبح المقدس بيت- رمكي وهذا مااكسب المدينة اهمية دينية وملكية خاصة.

وتشير النصوص المسمارية المكتشفة في مدينة تربيص الى ان تاريخ انشاء المعبد يرقى الى عهد شيلمنصر الثالث بن آشور ناصربال الثاني على اقل تقدير.[١]

مدينة الحضر- حطرا

تعد مدينة الحضر من اهم المدن العراقية القديمة من حيث روعة آثارها الباقية ومبانيها الشاخصة. تقع في منطقة منعزلة تبعد ١١٠ كيلومترات جنوبي غربي الموصل على يمين الطريق المؤدية الى بغداد، في وسط بادية تكاد تنعدم فيها الحياة لقلّة مياهها وزرعها. ومع هذا فقد نشأت الحضر وازدهرت في ظروف خاصة املتها طبيعة الوضع السياسي العام والعلاقات الدولية التي كانت بين دول العالم القديم انذاك شأنها في ذلك شأن العديد من المدن العربية الاخرى التي قامت على اطراف البوادي مثل تدمر والبتراء. والى الشرق من الحضر بثلاث كيلومترات، يمر وادي الثرثار.

ورد اسم الحضر في المصادر العربية وظلت المدينة تعرف بهذا الاسم الى الوقت الحاضر غير ان المصادر الآرامية ذكرت المدينة باسم حَطرا دي شمش، اي الحضر مدينة الشمس، وواضح ان الاسم العربي والآرامي يرتبط بالتحضر والحضارة.[١]

والحضر من المواقع القليلة في العراق التي لم تمتد اليها ايدي المنقبين الأجانب ومع ذلك، فقد زارتها البعثة الالمانية التي كانت تعمل في مدينة آشور في مطلع هذا القرن ووضعت لها الرسوم والمخططات واخذت لها الصور غير انها لم تجر فيها اية تنقيبات.[٢] وفي

---

(١) حول مدينة تربيص والتنقيبات التي اجريت فيها انظر:
عامر سليمان، اكتشاف مدينة تريبصو الآشورية، آداب الرافدين، العدد الاول، ١٩٧١، ٤٩,١٥
عامر سليمان، الكتابة المسمارية والحرف العربي، موصل، ١٩٨٢
حول ترجمة نص اسطورة زو انظر

Saggs. H.W.F., The Mosul University Zu Tablet,

آداب الرافدين (٢) موصل ١٩٧١، ص٤٠- ٥٧.

(١) انظر فؤاد سفر، سومر، ١٧ (١٩٦١)، ص١٥- ١٦ هامش ٣١.

عام ١٩٥١ ، باشرت دائرة الاثار والتراث بالتنقيب في المدينة كما باشرت في الوقت نفسه بتنظيف وصيانة الأبنية المستظهرة وهي لاتزال تعمل في الموقع في مواسم متتابعة.

لايعرف تاريخ نشأة الحضر وربما كانت مستوطنة صغيرة في العصر الآشوري ، ثم تدفقت اليها القبائل العربية في القرون القليلة السابقة للميلاد وغدت مركزاً دينياً وسياسياً مهماً واتخذت عاصمة لبلاد عربايا ، اي بلاد العرب ، وازدادت اهمية الحضر في فترة التسلط السلوقي ثم في فترة الاحتلال الفرثي للعراق كما سبق وان اشرنا ، وقامت فيها مملكة قوية اشتهرت بمقاومتها حصار الجيوش الرومانية والفارسية . وقد قسم تاريخها الى ثلاثة ادوار ينتهي الاول في منتصف القرن الأول الميلادي ويستمر الثاني ، وهو دور السادة ، الى عام ١١٧ م ويستمر الثالث ، وهو دور الملوك ، الى نهاية تاريخ الحضر في عام ٢٤١ م. وكانت غالبية سكان الحضر من الاقوام العربية وان كانت هناك بعض العناصر الآرامية ، ويرجح انهم استخدموا احدى اللهجات العربية للتفاهم الا انهم كتبوا بالآرامية. [1]

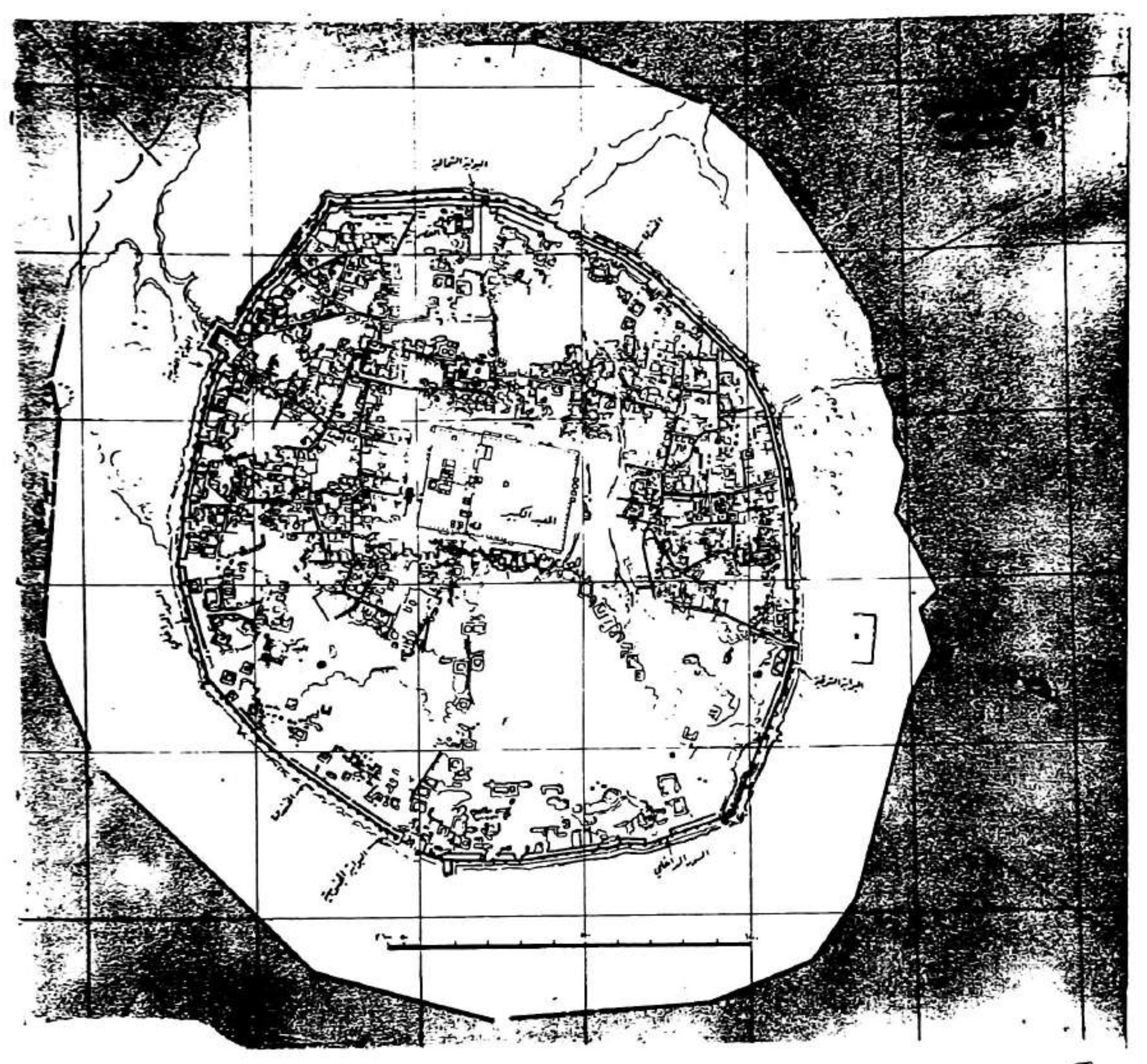
ومن يزر الحضر ويتفحص آثارها الباقية لاتفته ملاحظة الطابع الحضري الخاص الذي يطبع جميع الآثار المكتشفة من ابنية وتماثيل ولقى اثرية اخرى. فقد كانت الحضر بوتقة انصهرت فيها مختلف العناصر الحضارية العراقية القديمة ، الآشورية والبابلية ، والعربية البحتة الخاصة بالقبائل العربية التي عاشت فيها والآرامية التي حملتها بعض العناصر الآرامية التي عاشت الى جنب القبائل العربية فضلاً عن العناصر الحضارية اليونانية والرومانية والفارسية. وقد تمكن الحضريون من هضم جميع هذه العناصر وطبعها بطابعهم الخاص المميز.

والحضر من المدن المستديرة تقريباً ، قطرها نحو كيلومترين ويحيط بها من الخارج خندق عميق وسور مدعم بمائة وثلاثة وستون برجاً وبعدد من القلاع. يتكون السور من جداران سمكها ٣ أمتار و ٢,٥ متر والمسافة بينهما ١٢ متراً عند البوابة الشمالية. وعلى بعد نصف كيلومتر من السور هناك حائل ترابي يحيط بالمدينة من جميع جهاتها ربما كان يمثل خطاً دفاعياً اضافياً. وللمدينة اربعة مداخل تقع في الجهات الاربع الرئيسة ويلاحظ في بنائها انها مزورة الى يمين الداخل او يساره مما يعطي المدافعين عنها امكانية توجيه اسلحتهم على الداخل من البوابة بسهولة. وفي داخل المدينة ، تم الكشف عن معابد صغيرة بلغ عددها ثلاثة عشر معبداً عثر فيها على تماثيل كثيرة لاشخاص قاموا ببناء تلك المعابد او بعض

(1) Andrae, W., Hatra, vol. I and II, Leipzig, 1908, 1912.

حول تاريخ الحضر والتنقيبات التي اجريت فيها واهم الآثار المكتشفة انظر: فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى ، الحضر مدينة الشمس ، بغداد ، ١٩٧٤.

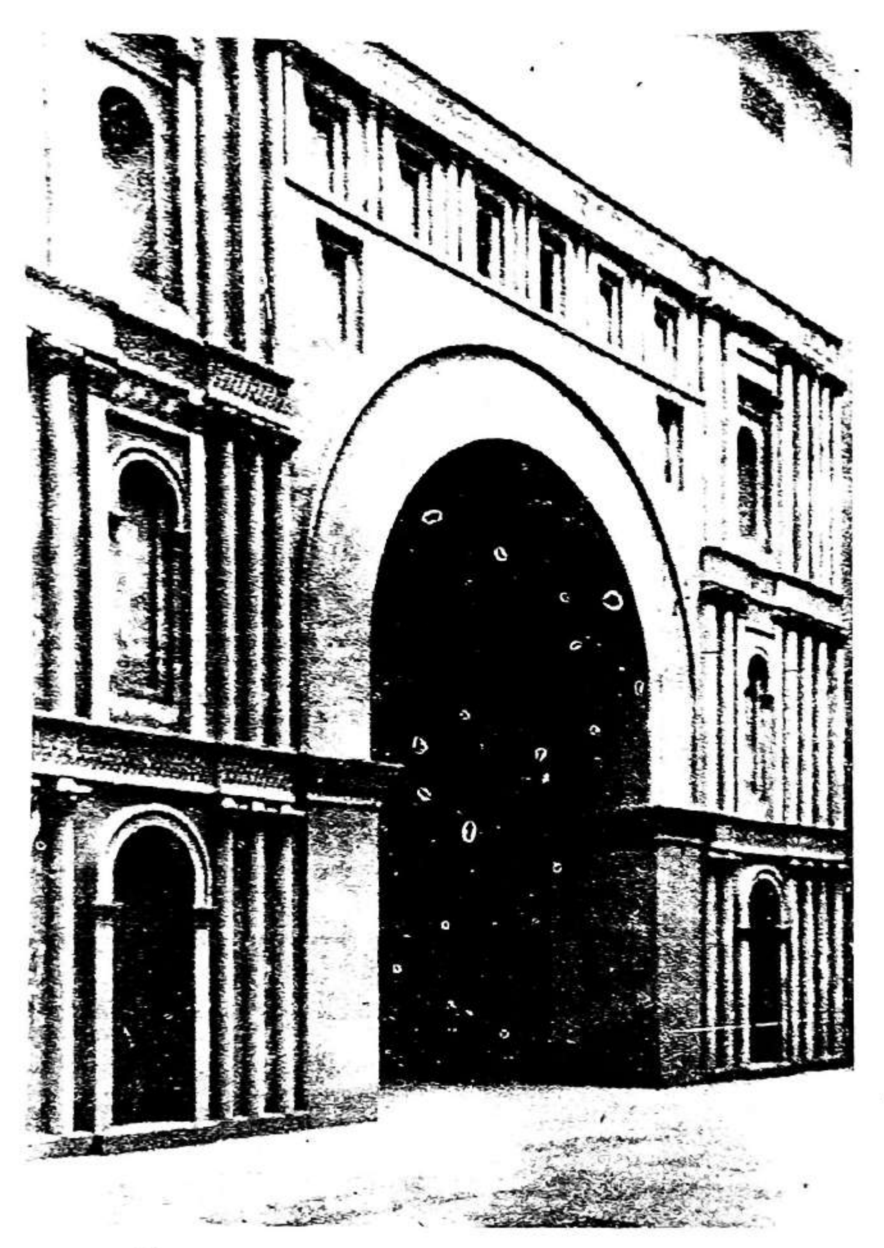
الشخصيات التي اراد الحضريون تمجيدها ، كما كشف عن عدد كبير من الأصنام الخاصة بآلهة الحضر. اضافة الى ماتم الكشف عنه من مدافن على هيئة ابراج مشيدة بالحجر، ومن الابنية المهمة التي تم الكشف عنها قصر عند الباب الشمالي من المدينة ، ويبرز المعبد الكبير، معبد الآله الشمس ، وسط المعابد الصغيرة ، اما الدور السكنية فبمكن مشاهدة بقاياها حول المعابد الصغيرة.



المخطط ـ ١ مدينة الحضر المدورة

ويعد المعبد الكبير الذي تمت صيانة معظم اجزائه اضخم الأبنية المكتشفة واكثرها بهاء وفخامة ، وكان مخصصاً لعبادة الاله الشمس لذا كان اتجاهه نحو الشرق ويتألف المعبد من قسمين رئيسين هما الصحن والحرم. فأما الصحن فيتمثل بمساحة واسعة تحيط بها اروقة ويبدو انه كان مركزاً للاحتفالات الدينية ولاجراء الطقوس والمراسيم الخاصة بالاحتفالات في حين ضم حرم المعبد خمس وحدات بنائية تعتمد الايوان في تصميمها.[1]

(١) انظر فؤاد سفر، الحضر، ص٢٦ – ٣٥.



اضافة الى المدن الرئيسة التي اشير اليها ، هناك العديد من المواقع والمدن الاثرية الاخرى ذات الاهمية الا ان المساحة المخصصة لهذا الفصل لاتسمح باعطاء فكرة وان كانت موجزة عنها مثل مدينة امگر- بيل ، بلوات ، الواقعة بالقرب من قرة قوش في منطقة الموصل ، وهي مدينة آشورية كانت مقراً ملكياً في عهد آشور ناصربال الثاني وخليفته وقد تم الكشف فيها عن صفائح من البرونز تحمل مشاهد حربية ومشاهد صيد وغيرها كانت تغلف باب القصر الكبير في المدينة وقد نقلت معظم تلك الصفائح الى المتحف البريطاني في لندن. ومدينة كارتوكلتي ننورتا التي تقع قبالة مدينة آشور على الضفة الثانية من النهر والتي شيدها الملك الاشوري توكلتي ننورتا الاول (١٢٤٣- ١٢٢١ ق.م). اضافة الى ذلك ، هناك العديد من المدن السومرية والبابلية القديمة في القسم الجنوبي من العراق. مثل مدينة الوركاء واريدو وكيش واشنونا وغيرها كثير لامجال لذكرها هنا.

مصادر منتخبة

اغا، عبدالله امين وميسر سعيد العراقي، نمرود، بغداد، ١٩٧٦.

اندرية، فالتر استحكامات آشور ترجمة عبدالرزاق كامل، بغداد، ١٩٨٧ : معابد عشتار الحديثة : آشور المدينة الهلنستية.

باقر، طه وفؤاد سفر: المرشد الى مواطن الآثار والحضارة، (ست رحلات) بغداد ١٩٦٦ : الدليل التاريخي للآثار، بغداد، ١٩٦٨.

سفر، فؤاد : آشور، بغداد، ١٩٦٠.

سفر، فؤاد ومحمد علي مصطفى : الحضر مدينة الشمس، بغداد، ١٩٧٤.

سليمان، عامر: نتائج تنقيبات جامعة الموصل في اسوار نينوى، آداب الرافدين، ١ (٩٧١)، ٤٥ – ٩٨ : اكتشاف مدينة تربيص الآشورية، آداب الرافدين، ج ١، (١٩٧١) : الآثار الباقية في : موسوعة الموصل الحضارية، ج ١، ٥١٣ – ٥٤٧.

الصالحي، واثق : عمارة الحضر، حضارة العراق، ج ٣، ٢٢٣ – ٢٦٦.

الصيواني، شاه : اور، بغداد، ١٩٧٦.

مظلوم، طارق : نينوى في ضوء التنقيبات الأثرية، سومر، ٢٣ (١٩٦٧).

ومحمد علي مهدي : نينوى، بغداد، ١٩٧٦.

الفصل الثاني عشر

التراث الحضاري

التراث الحضاري هو كل ما تخلفه حضارة ما في الحضارات الاخرى اللاحقة من تأثيرات وعناصر حضارية تدخل في بنائها الحضاري بعد شيء من التحوير والتطوير بما يتلائم وطبيعتها وخصائصها العامة. وقد تنتقل تلك التأثيرات والعناصر الحضارية الى حضارات اخرى في سلسلة متصلة من وسائل انتقال الحضارة الى ان تصل الى الحضارة المعاصرة فتسمى تراثا حضاريا من الحضارة الاولى التي اقتبست منها اصلا تلك العناصر الحضارية. ولاتعد العناصر الحضارية تراثا الا اذا كانت قد اقتبست من حضارة اقدم زمنيا وكانت اوجه الشبه بينها وبين العناصر الحضارية المقتبس عنها كبيرة وواضحة وكانت هناك قنوات لطرق الاتصال والانتقال الحضاري يسّرت انتقال تلك العناصر من الحضارة الاصلية الى الحضارات الاخرى وصولا الى الحضارات المعاصرة.

ومن المعروف ان جميع الحضارات الانسانية بما فيها الحضارة الاوربية المعاصرة والحضارة العربية الاسلامية والمعاصرة فيها من تراث الحضارات السابقة الشيء الكثير. وكان الاعتقاد السائد حتى اواسط القرن الماضي ان جُلَّ ذلك التراث هو من الحضارة اليونانية، الحضارة الاوربية الام التي ارست قواعد كثير من العلوم والفنون والمعارف وتركت تراثها الزاخر ليس فقط في الحضارات الاوربية فحسب بل وفي الحضارة العربية كذلك. فقد اقتبست الحضارة العربية اشياء كثيرة من الحضارة اليونانية من خلال مانقله الكتاب السريان من علوم اليونان ومعارفهم الى اللغة السريانية اولا ومن ثم نقل تلك العلوم والمعارف الى اللغة العربية بتشجيع من الحكام العرب المسلمين. الا ان المكتشفات الحديثة في مختلف مواقع العراق القديمة وقراءة النصوص المسمارية الكثيرة التي تم اكتشافها في العراق وفي الاقطار المجاورة غيرّت تماما من هذا الاعتقاد وبينت بان الحضارة اليونانية نفسها تدين في العديد من عناصر حضارتها العلمية والثقافية والفنية الى الحضارات السابقة لها وفي مقدمتها الحضارة العراقية القديمة. كما بينت تلك المكتشفات والنصوص الى ان

العراق القديم كان قد شهد ولادة حضارة اصيلة تعد الاولى من نوعها في العالم القديم، بدأت طلائعها في عصور قبل التاريخ ثم نمت وتبلورت مع بداية العصور التاريخية وازدهرت خلال فترة ناهزت الثلاثة الاف سنة وان تخللتها بعض فترات الجمود والانكماش. وان حضارة اصيلة مثل هذه الحضارة لايمكن ان تموت فجأة وتنتهي مع نهاية الدول والممالك السياسية التي كانت تحكم المنطقة او مع وقوع العراق تحت السيطرة الاجنبية بل لابد وان تترك تأثيرات واضحة وتراثا زاخرا في الحضارات الاخرى التي اتصلت بها واحتكت معها عن طريق الحرب او السلم خلال عمرها الطويل، وهذا ما اكدته الدراسات المقارنة الحديثة التي شخصت العناصر الحضارية الكثيرة التي كان الاغريق انفسهم، بناة الحضارة اليونانية العريقة التي كانت الاساس الذي قامت عليه الحضارات الاوربية الراهنة، قد اخذوها عن بلاد بابل واشور، اضافة الى ذلك، فقد بينت تلك الدراسات المجالات التي تأثرت بها الحضارة اليونانية بالحضارة العراقية القديمة وبينت ان تلك التأثيرات لم تقتصر على جانب معين بل شملت الفكر والمعتقدات واللغة والادب والفن والعمارة والرياضيات والفلك والطب وغيرها من المجالات. وكان الاتصال بين الحضارة اليونانية وحضارة العراق القديمة قد تم اما عن طريق الاجزاء الغربية من اسيا الصغرى والمناطق الساحلية لسوريا وفلسطين التي كانت بمثابة الجسر الذي عبرت فوقه العناصر الحضارية البابلية والاشورية الى الغرب، او عن طريق الاتصال المباشر مع سكان بلاد بابل واشور والتعرف على حضارتهم والعيش في ظلها وذلك في مدة الاحتلال المقدوني والسلوقي لبلاد بابل واشور، او عن طريق اقوام اخرى نقلت بعض العناصر الحضارية العراقية القديمة الى الحضارات الاخرى بشكل غير مباشر كالاقوام الحورية والحثية والاقوام الفارسية والارامية وغيرها. كما اكدت الدراسات الحديثة ان كتاب العهد القديم، وهو كتاب اليهود المقدس، كان هو الآخر وسيلة من وسائل انتقال العناصر الحضارية العراقية القديمة الى الحضارات الاخرى ولاسيما الحضارة الاوربية فالمعروف ان معظم اسفار العهد القديم كانت قد دونت في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، كما بينا فيما مرّ، وذلك من قبل الاحبار اليهود الذين كانوا يعيشون في بلاد بابل، وكان طبيعياً ان يتأثروا بالحضارة في بلاد بابل واشور ويضمّنوا الاسفار التي دونوها بعض الافكار والنظم والتقاليد والروايات ذات الاصول البابلية والاشورية. والمعروف ايضا ان كتاب العهد القديم هو من اوسع الكتب انتشارا في اوربا حيث انه يؤلف القسم الاول من الكتاب المقدس الذي يقرأه الكبير والصغير من اليهود والنصارى على حد سواء.

وهكذا كانت الحضارة اليونانية ، وكذلك الرومانية ، وكتاب العهد القديم والاقوام التي اتصلت ببلاد بابل وآشور واحتكت مع سكانها القارب الذي نقل التراث الحضاري العراقي القديم الى الحضارات الاوربية المعاصرة ، بعد ان طرأت على العناصر الحضارية المقتبسة بعض التغيير والتحوير عبر الطريق الطويل الذي سلكته الى ان وصلت الى ماهي عليه الان. ثم عادت الحضارة الاوربية المعاصرة فصدّرت لنا ذلك التراث بلباس اوربي حديث على انه من التراث الحضاري الاوربي في حين تؤكد الدراسات الحديثة اصوله العراقية القديمة ، وما النظام العشري (الفرنسي) والستيني (الانكليزي) في العد والمقاييس والاوزان والفلك وما نظرية فيثاغورس (اليوناني) والابراج الفلكية (اليونانية) والتي اثبتت الدراسات الحديثة انها عراقية الاصل ، كما سبق أن رأينا ، الا امثلة قليلة على ذلك.

اما بالنسبة لحضارة العراق المعاصرة ، فأنها تزخر بالتراث الحضاري القديم فاضافة الى ما انتقل اليها من التراث القديم عن طريق الحضارات الاخرى ، كالحضارة اليونانية والفارسية والسريانية واخيراً الاوربية ، والتي كانت قد اخذت اصلاً عن حضارة العراق القديمة ، فقد ترسبت كثير من العادات والتقاليد والاعراف الاجتماعية والاقتصادية وظلت العديد من الافكار والاساليب الفنية شائعة على مرّ العصور وان طرأ عليها بعض التغييرات.

إن في هذا الفصل محاولة بسيطة لايجاز اهم مواطن وجود التراث العراقي القديم في الحضارات المعاصرة الاخرى ، ولاسيما في الحضارة الاوربية والحضارة العراقية الحالية وقد سبق وان اشير الى بعض ذلك في الفصول السابقة.

ففي مجال الادب ، اظهرت الدراسات المسمارية التي تمت خلال هذا القرن ان كثيراً من التآليف الادبية العراقية القديمة كانت قد انتقلت الى الاقطار المجاورة وبعض البلدان البعيدة ، كآسيا الصغرى وبلاد الشام ومصر وبلاد اليونان ، ونالت فيها شهرة واسعة مثل ملحمة جلجامش وقصة فقير نفّر وقصص الخليقة وغيرها وترجم بعضها الى لغات اجنبية ، كاللغة الخورية واللغة الحثية. كما تشير الدراسات الحديثة الى ان هناك اوجه شبه واضحة بين ادب وادي الرافدين والادب اليوناني القديم الممثل بالالياذة والاوديسا ، وهما الملحمتان الشهيرتان المنسوبتان الى الشاعر اليوناني الشهير هوميروس واللتان يقدر تأريخ تدوينها بالقرنين الثامن والسابع قبل الميلاد ، اي بعد تأريخ الملاحم السومرية والبابلية بما يقرب من الفي سنة. كما يمكن تلمس التراث الادبي العراقي القديم في بعض اسفار العهد القديم في التفاصيل الجزئية لعدد من القصص والحوادث التي تناولها ، كقصة الخليقة وحادثة الطوفان وغيرهما. وقد ترك كل من الادب اليوناني وكتاب العهد القديم اثاراً

واضحة في الاداب العالمية التالية ، ولاسيما الاوربية ، وهكذا انتقل التراث الادبي العراقي القديم الى تلك الاداب العالمية.[1]

ومن خلال قنوات الاتصال نفسها وعبر اللغة اليونانية وغيرها من اللغات القديمة التي اخذت عن تراث وادي الرافدين ، انتقلت العديد من المفردات والمصطلحات اللغوية السومرية والاكدية حتى وصلت الى اللغات الاوربية الحديثة ، ومنها اللغة الانكليزية وكما في الامثلة الاتية :[2]

الكلمة الاكدية	لفظ الكلمة	المعنى	الكلمة الانكليزية
كُخلُ	guhlu	كحول	al cohol
قَلاتِ	qalāti	ملح القلي	al kali
قانُ	qānu	قصب	Cane, canor
تركُمان	targumanu	ترجمان	dragoman
كَرنُ	karnu	قرن	horn
مُشكينُ	muškēnu	مسكين/فرنسي	mesquin
		بخيل/ايطالي	mechino
مَنا	mana	مَن	mina
لبتُّ	libittu	لبنة	plinth
شِقلُ	šiqlu	شاقل	[2] shekel

اضافة الى ذلك ، هناك مجموعة من المفردات خاصة باسماء النباتات والمعادن التي كانت تستخدم في المستحضرات الطبية منها :

خَرُبُ	ḫaruba	خروب (خرنوب)	catob
كُرُكَنُ	kurkanu	كركم	crocus
كَسُ	kasu	قاسيا	casia
كَمانُ	kamānu	كمّون	cummin
كُرك	kurka	هذباء	chicory
كَصُّ	gaṣṣu	جص	gupsum

(١) انظر: فاضل عبدالواحد ، من الواح سومر الى التوراة ، ١٨٧

(٢) انظر: عامر سليمان ، اللغة الاكدية ، ٦١-٦٢.

ladanum	لادن	ladanu	لَدَنُ
myrrh	مر	murru	مُرُّ
naphtha	نفط	naptu	نَبتُ
(١) safforn	زعفران	azupiranu	أزوپرانُ

وهناك مجموعة كبيرة من المفردات اللغوية ذات الاصول السومرية او الاكدية دخلت اللغة العربية اما بشكل مباشر او عن طريق لغة ثانية كالفارسية او الارامية او السريانية ونظراً لأن اللغة الاكدية لم تكن معروفة للباحثين واللغوين العرب ممّن الّفوا المعاجم اللغوية في القرون الماضية ، فقد عدّت تلك المفردات من الدخيل او الاعجمي وارجعت اصولها ، في احسن الاحوال ، الى احدى اللغات الوسيطة . وقد قام استاذنا المرحوم طه باقر بجمع اكثر من ٢٥٠ كلمة سومرية واكدية دخلت لغتنا العربية في بحثه القيم «من تراثنا اللغوي القديم» (٢) . وفيما يأتي مجموعة منتخبة من تلك المفردات :

الكلمة كما وردت في المعاجم العربية	الاصل العراقي القديم
أبابُ : الماء والسراب	أبوبُ abūbu بمعنى الماء الغزير او الطوفان
آجر ووواحدته آجرّة اي اللبن المفخور	آگرُّ agurru بمعنى اللبن المفخور
آرجوان : اللون القرمزي	آرگمنُّ argamannu بمعنى الصوف الاحمر القرمزي
ترجمان بمعنى مترجم	ترگُمَنُّ targumannu
تنّور	تِنورُ tinnura
جص	گَصُّ gaṣṣu
سفرجل	سُپرگَلُّ supurgillu
قنّب	قُنَّبُ qunnabu

(١) انظر ساكز، عظمة بابل، ٥٦٤–٥٦٥.

(٢) طه باقر، من تراثنا اللغوي القديم، بغداد، ١٩٨٠.

كما ان اسماء معظم اشهر السنة الشمسية المتداولة في العراق وبعض الاقطار العربية المجاورة هي اسماء عراقية قديمة وليست رومية اوسريانية اوعبرية ، كما تذكر المعاجم العربية القديمة . ومن هذه الاسماء :

نيسان	نيسانُ	nisānu
ايار	آيارُ	ayāru
تمّوز	تمّوزُ	tammuzu
آب	آب	abu
ايلول	اُلولُ	ululu
تشرين	تِشِرتُ	tiširtu
شباط	شِباطُ	šibaṭu
اذار	آدارُ	addāru

كما يعود الى التراث العراقي القديم اسماء معظم المدن والانهار العراقية مثل دجلة والفرات والزاب والخوسر ومثل اوروك واور وكيش ولجش وبابل ونينوى واشور وهيت وتكريت واربيل وغيرها كثير.

كما وضمت اللهجات العراقية العامية العديد من المفردات التي ترجع باصولها الى التراث اللغوي العراقي القديم مثل : كلمة «اكو» و«ماكو» بمعنى يوجد ولايوجد ، وكلمة الفسيل والتالة والاجانة والكر (قياس حجم) والمسحاة والمر والمن وكلمة تِكّة بمعنى حزام وختن، بمعنى صهر وغيرها من المفردات الكثيرة التي يمكن ارجاع اصولها الى اللغة السومرية او الاكدية .

ويرتبط باللغة والنصوص الاكدية والسومرية مما هو من تراث العراق القديم ، تأليف المعاجم اللغوية واسلوب حفظ التآليف في المكتبات ودور السجلاّت ففي بلاد بابل تم تأليف اقدم انواع المعاجم اللغوية التي ذكرت في جداول مطوّلة العلامات المسمارية ومعانيها باللغة السومرية ومايرادفها باللغة الاكدية ومعاجم اخرى ضمت مصطلحات وعبارات وجمل سومرية ومايقابلها باللغة الاكدية كما ضمت بعض المؤلفات قوائم باسماء النباتات والحيوانات والمعادن والاحجار مصنفة وفق تصنيف خاص سار عليه الكتبة البابليون وتعد هذه القوائم من اقدم التصانيف الخاصة بعلم النبات والحيوان.

لم يكن يدر بخلد اي من الباحثين العرب او الاجانب حتى مطلع القرن الحالي بان اصول معظم العلوم التي كانت تعد من التراث اليوناني العريق هي في الواقع من تراث وادي الرافدين. فلقد اكدت جهود عدد من الباحثين المتخصصين في تاريخ العلوم ان اسس العلوم الرياضية والفلكية مثلاً كانت قد وضعت في بلاد بابل منذ اكثر من اربعة آلاف سنة. وقد سبق وان أشرنا الى المرحلة المتقدمة التي وصلها البابليون في عصرهم القديم في علم الرياضيات وعلم الفلك وبقية العلوم الاخرى وهنا لابد من الاشارة الى بعض ماتوصل اليه العراقيون القدماء من نظريات واسس لاتزال تكوّن الاساس الذي تقوم عليه تلك العلوم.

ففي مجال الرياضيات، يرجع الفضل في وضع النظام العشري والنظام الستيني في العد الى العراقيين القدماء الذين استخدموا كلا النظامين، واستخدموا النظام الستيني sexagesimal بالدرجة الاولى في الرياضيات والفلك في حين استخدم النظام العشري Decimal في المجالات الاخرى. كما انهم عرفوا مبدأ المرتبة العددية place value، اي ان قيمة الرقم في مجموعة من الارقام تتوقف على موقعه او مرتبته العددية فيما اذا كان في مرتبة الاحاد او العشرات او المئات او الالوف: وقد اخذ الاغريق هذين النظامين واستخدموهما في حساباتهم الفلكية، وخاصة النظام الستيني والذي لايزال يستخدم حتى الوقت الحاضر في قياس الزمن حيث تقسم الساعة الى ستين دقيقة والدقيقة الى ستين ثانية ويقسم محيط الدائرة الى ٣٦٠ درجة.

اما بالنسبة لاختراع الصفر الذي يعبر بواسطته عن المرتبة الخالية في مجموعة من الارقام، فقد توصل العراقيون القدماء في القرن السادس قبل الميلاد الى اختراع هذا المبدأ المهم الذي لايزال يعتمد في رياضياتنا ووضعوا علامة مسمارية خاصة للدلالة على المرتبة الخالية ولكن اقتصر استعماله على المراتب الداخلية في الارقام اي الوسطية ولم يستخدم، مثلاً، لبيان المرتبة العددية لرقم واحد فقط كالرقم ١٠٠٠ مثلاً الذي حددنا مرتبته بوضع الاصفار الثلاثة الى يمينه. ومن وادي الرافدين انتقلت فكرة استخدام الصفر الى بلاد اليونان ثم الى الهند. وقد طوّر اليونان والهنود الفكرة وعاد العرب المسلمون واقتبسوا عنهم تلك الفكرة مع نوعين من الارقام الهندية وادخلوا عليها بعض التطوير وغدت الاساس الذي قامت عليه العلوم الرياضية فيما بعد حيث اخذها عنهم الاوربيون ولذلك سميت الارقام الاوربيّة بالارقام العربية Arabic Numerals.

ومن التراث العلمي الرياضي الذي خلفته حضارة العراق القديمة في العلوم الرياضية الحالية عدد من المبادئ والقوانين المتعلقة بعلم العدد ونظرياته ، مثل رفع الاعداد الى القوى المختلفة واخذ جذورها من القوى المختلفة ايضاً ودستور مربع مجموع عددين (ا+ب)٢ ، ومربع الفرق بين عددين (أ-ب)٢ ، وهو الدستور الذي استخدم لحلّ المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية ، والذي تطور عنه في الرياضيات الحديثة نظام المتسلسلات series ، مثل متسلسلة نيوتن الشهيرة ، واوجدوا دساتير عددية بارعة في ايجاد جذور صماء مثل جذر ٣ و ٢ ، وهي شبيهة بالدساتير التي استعملها الرياضيون العرب . كما تفننوا في اعداد انواع مختلفة من الجداول الرياضية وجداول اللوغاريتمات .

وفي مجال الهندسة ، اثبتت الدراسات الحديثة ان البابليين نظموا جداول بارقام مطوّلة ثبت بانها ارقام على مبدأ مايعرف بنظرية فيثاغورس الشهيرة في علاقة المربعات المقامة على اضلاع المثلث القائم الزاوية الذي يعزى الى فيثاغورس . بهيئة نظرية الا ان الالواح الرياضية المكتشفة تؤكد ان البابليين عرفوا هذه النظرية وطبقوها باسلوبهم العملي قبل فيثاغورس بما لايقل عن ١٥٠٠ سنة . كما عرفت الرياضيات البابلية مبادئ ومفاهيم اساسية عن الاشكال الهندسية وخصائصها ومنها مبادئ مهمة ماتزال تعد من الاسس التي تقوم عليها الرياضيات الحديثة مثل مبدأ تشابه المثلثات وتناسب اضلاعها المتناظرة ونظرية التوازي والتناسب . وقد وصلنا عن مبدأ تشابه المثلثات قضية من اوائل العصر البابلي القديم (حدود ٢٠٠٠ ق . م) تدور حول تشابه المثلثات المرسومة باقامة عمود من الزاوية القائمة في مثلث قائم الزاوية على وتره ، وهي التي وصفها اليوناني اقليدس على انها نظرية عرفت باسمه .

كما يعد الباحثون في تأريخ الرياضيات ان البابليين كانوا قد وصلوا الى مرحلة متقدمة في علم الجبر حيث عرفوا المعادلات الجبرية الاساسية من الدرجات المختلفة ، معادلات الدرجة الثانية والمعادلات التربيعية والتكعيبية ومعادلات الدرجة الثالثة وغيرها وحلّوها بدساتير جبرية مضاهية للطرق الجبرية الحديثة مما يؤكد بان هذه الطرق هي من تراث وادي الرافدين القديم .

ويؤكد الباحثون المختصون بتاريخ العلوم على ان الرياضيات البابلية اضافة الى تميزها بالمستوى المتقدم الذي بلغته منذ اكثر من اربعة الاف سنة ، فانها قد بدأت باهم مايميز الرياضيات الحديثة وهو الجمع بين علم العدد (الجبر) وعلم الشكل (الهندسة). وكانت تلك الميزة بالاتجاه العلمي الصحيح مما ادهش الرياضيين المحدثين وعدّوا ذلك مقياساً لمدى التقدم الذي حققه العراقيون القدماء في علم الرياضيات . وعلى العكس من ذلك ،

يلاحظ ان المفكرين اليونان وعلى الرغم مما احدثوه من تغييرات اساسية فيما اقتبسوه من المبادئ الرياضية وغيرها من العناصر الحضارية من وادي الرافدين ووضعوها بصيغة تنسجم واتجاههم الثقافي وطراز تفكيرهم الفلسفي وكونوا من المبادئ الرياضية التي اقتبسوها مجموعة من المعارف الرياضية تستند الى البرهان والتحليل المنطقي، بالرغم من كل ذلك فان رياضييهم اتجهوا اتجاهاً خاطئاً حيث صرفوا جهدهم وتفكيرهم على الشكل، اي الهندسة، واهملوا العدد، اي الجبر. وعندما اضطلع الرياضيّون العرب بهذه العلوم ارجعوا ذلك التطور الى مساره الصحيح الذي بدأه العراقيون القدماء وجمعوا بين فرعي الرياضيات الرئيسين، الجبر والهندسة، ثانية. وقد اطلق الرياضي العربي الخوارزمي مصطلح الجبر على العدد وظل المصطلح يستخدم في جميع اللغات حتى الوقت الحاضر Algebra. -

ومن هذا يتضح لنا جلياً غزارة التراث العلمي العراقي القديم، والعربي الاسلامي، في العلوم الرياضية في اوروبا والتي غدت الاساس الذي قامت عليه العلوم الرياضية الحديثة.

اما في مجال الفلك، وهو من العلوم التي برع فيها العراقيون القدماء وحققوا فيها انجازات رائدة ولاسيما فيما يتعلق باقدم الارصادات الفلكية وتدوين تلك الارصادات في جداول فلكية مطولة سمّاها الفلكيون العرب الازياج Ephemerides، فقد انتقلت المعارف البابلية في الفلك الى اليونان عن طريق الجزر الايونية بالدرجة الاولى واعتمد الفلكيون اليونان، امثال طاليس، على الازياج البابلية في التنبؤ عن موعد وقوع كسوف الشمس مبرهناً بذلك بان تلك الظواهر انما تقع بموجب قوانين ثابتة. كما كان الفلكي اليوناني بطليموس من القرن الثاني الميلادي على معرفة تامة بالسجلات الفلكية البابلية واعتمد في حساباته الفلكية على النظام الستيني للتعبير عن الزوايا والكسور كما ترجم اليونان بعض مادونه الفلكيون البابليون وافادوا منه وبلغ الفلك البابلي من الشهرة عندهم انهم اطلقوا عليه اسم «العلم الكلداني»، نسبة الى الكلديين الذين اسسوا آخر سلالة بابلية. ويجمع الباحثون المختصون بان اول فلك رياضي الذي غير علم الفلك الحديث قد ظهر على ايدي الفلكيين البابليين. ويؤكد احد الباحثين في تأريخ الرياضيات وعلم الفلك على ان الفلك الرياضي الحالي انما هو من تراث الفلك البابلي وانه كان من بين الموضوعات العلمية القديمة التي كتب لها البقاء سالمة واقتبستها الشعوب اللاحقة.

وطبق الفلكيون البابليون فلكهم الرياضي في حل قضايا اساسية في الحسابات الفلكية مثل تحديد اطوال الليل بحسب الفصول المختلفة وتحديد اوقات مايسمى بالانقلابين الشتوي في ٢٢ كانون الاول والصيفي في ٢٣ حزيران وحدوث الاعتدالين الربيعي في ٢١ آذارر والخريفي في ٢١ ايلول مستعملين في ذلك دساتير رياضية مضبوطة كما حددوا زمن طلوع القمر وغروبه بالنسبة الى الشمس بحيث يصح الجزم بان الفلكيين البابليين كانوا اول من وضع مايسمى بالنظرية الكوكبية ، وهو المبدأ الذي انتقل الى الفلكيين اليونان ومنهم الى الفلك الحديث.

كما ابتدع العراقيون القدماء مبدأ الكبس intercallation للتوفيق بين السنة القمرية ، وعدد ايامها ٣٥٤ والسنة الشمسية ، وعدد ايامها $\frac{١}{٤}$٣٦٥, وذلك باضافة شهر قمري في فترات زمنية معينة ووضعوا لذلك دستوراً رياضياً مضبوطاً اضافوا بموجبه سبعة اشهر قمرية كبيسة في كل دورة زمنية مقدارها ١٩ سنة. وقد انتقل هذا المبدأ الى معظم الشعوب القديمة.[١]

ومن التراث العراقي القديم مايعرف بالبروج الاثني عشر Zodiac حيث تصور البابليون وجود نطاق وهمي في السماء تمر منه الشمس والكواكب الاخرى في حركاتها في السماء في ازمان مختلفة وقد قسموا هذا النطاق الوهمي الى اثني عشر قسماً او برجاً حدد كل منها بمجموعة من النجوم الثوابت تمر منه الشمس في حركتها السنوية الظاهرية في كل شهر من اشهر السنة ، وتخيلوا هذه المجموعات من النجوم وكأنها تمثل اشكالاً آدمية واشكالاً اخرى فسمّوا كل برج منها باسم الشكل الذي تخيلوه مثل برج الحمل وبرج الاسد وبرج الميزان وغيرها. وقد استغل المنجمون ذلك في قراءة الطالع وربطوا بين حركة النجوم في هذه الابراج وبين مصير الانسان ومستقبل حياته وحددوا كل برج من الابراج الاثني عشر بشهر من اشهر السنة ، وهو الشهر الذي ولد فيه الانسان ، ومن هنا جاءت قراءة الطالع حسب تأريخ ولادة الانسان والمعتمدة من قبل المنجمين الى الوقت الحاضر كما سبق وان اشرنا الى ذلك.

ومن التراث العراقي القديم تقسيم اليوم الى وحدات زمنية ثابتة ، وهي اثني عشر وحدة كل منها تساوي ساعتين من ساعاتنا وكانت تسمى بيرو، وكذلك استخدام الساعات المائية لقياس ساعات الليل ، والمزولة الشمسية التي استخدمت لقياس ساعات النهار وربما عرف الاسطرلاب ، وقد اخذ اليونان كل ذلك ونقلوه الى الحضارات التالية لهم. كما

(١) انظر طه باقر، تاريخ العراق القديم ، ج٢ ، ٢٥٤-٢٥٩.
فاروق الراوي ، المعارف والعلوم البحتة ، في العراق في موكب الحضارة ، ج١ ٢٨١-٢٩٢.

يرجع الفضل في تقسيم الشهر القمري الى اربعة اسابيع الى العراقيين القدماء حيث كانوا يحتفلون في اليوم الاول والسابع منه وفي منتصفه وفي آخر ايامه الا انهم كانوا يبداؤن كل شهر قمري باسبوع جديد.[1]

وكان التنجيم وقراءة الطالع باشكاله المختلفة من الاوهام التي انتقلت الى الحضارات المعاصرة والتي ترجع باصولها الى العراق القديم، ومنها ربط مستقبل الملك والمملكة بحركة النجوم والكواكب الظاهرية ثم ربط مستقبل الفرد على اساس موقع الكواكب في منطقة البروج عند الولادة وهي الطريقة التي مازالت متبعة في الوقت الحاضر عند معظم الشعوب كما ورثت الحضارات اللاحقة عن بلاد وادي الرافدين اساليب قراءة الطالع الاخرى كصب الزيت في الماء وتفسير الاحلام والرؤى وملاحظة الحالات الشاذة في ولادة صغار الحيوانات والناس ومراقبة حركة بعض الحيوانات والى غير ذلك من الامور التي ربطوها بمستقبل الانسان وماتخبؤه له الاقدار. ولايقتصر تراث وادي الرافدين في هذا المجال على الطرق والاساليب المتبعة في معرفة المستقبل بل يتعداه الى تفاصيل ذلك ولعل في المثال الآتي المقتبس من النصوص المسمارية مايوضح بانه لايختلف كثيراً عما هو متعارف عليه بين الناس الى الوقت الحاضر:

«اذا اعتدى ثعبان على رجل ومسكه ولسعه فسيمر
بعدوّه اوقات صعبة اذا مر ثعبان من يسار الرجل الى يمين
الرّجل سيكون له اسم سيء».

ويوضّح ذلك ان الثعبان له علاقة بالعدو وان اليمين هو حظ حسن واليسار حظ سيء.

تراث العراق القديم في الفنون

لايقتصر تراث وادي الرافدين في العلوم الانسانية والصرفة فحسب بل يتعداه الى الفنون بصورة عامة، المعمارية والزخرفية وفي الموسيقى وغيرها، ومن الأمثلة على تراث وادي الرافدين المعماري الذي انتقل عن طريق الاغريق الى اوروبا هو العمود الايوني، وهو طراز من الاعمدة ذي الخطوط الغائرة والعميقة ومتوّج بتاج ذي حلزونات جانبية، وربما كان الشكل الاصلي لهذا العمود هو رمز ديني في العصر الشبيه بالكتابي في العراق القديم وكان عبارة عن حزمة من القصب الطويل مربوطة واستخدمت هذه الحزم كاعمدة لبنايات

---

(١) طه باقر، المقدمة، ط٢، ١٩٥٥، ج١، ٣٥٦-٣٦١.

خاصة بالطقوس الدينية[1] ومازالت الطريقة الاصلية تستخدم حتى يومنا هذا في عمل الاكواخ ، الصرايف ، في منطقة الاهوار والمستنقعات جنوبي العراق .

اما بالنسبة لتراث العراق القديم في الفن المعماري المعاصر في العراق ، فيمكن تتبعه في اسلوب بناء البيوت والأكواخ الريفية ، في قرى شمال العراق (الدوم) وفي الجنوب (الصرايف) وفي تخطيطها ومواد بنائها وتسقيفها واسلوب تهويتها ، كما يكن تتبع اصول القبوات والعقادة والايوان ، وغيرها من العناصر المعمارية التي تدخل في بناء البيوت الشرقية التي مازالت معروفة في المدن القديمة كبغداد والموصل واربيل وغيرها .

وفي الفنون الزخرفية ، ترك الفن العراق القديم بصماته على كثير من الرموز والزخارف التي مازالت مستخدمة الى الآن مثل شجرة الحياة ، او الشجرة المقدسة ، التي استخدمت في العراق القديم منذ العصور السومرية المبكرة وبرزت بشكل واضح في الافاريز والمنحوتات الآشورية وانتقلت الى الفن المسيحي . كذلك رمز الثعابين الملتفة على بعضها الذي انتقل بالتأكيد من الفن العراقي القديم الى الحضارة المعاصرة بدلالاته الخاصة بالشفاء .

كما تزخر عاداتنا وتقاليدنا الاجتماعية والاقتصادية ونظمنا الادارية وحكاياتنا واقاصيصنا الشعبية بتراثنا القديم .

ان دراسة تفصيلية لتقاليد الخطوبة ومراسيم الزواج ومايرافق ذلك من احتفالات وهدايا تقدم من قبل ذوي الفتاة الى العروسة ومن قبل العريس الى زوجته في مناسبات واوقات معينة تشير بالتأكيد الى ان اصول تلك العادات والتقاليد ترجع الى تراث العراق القديم .

وما يقال عن مراسيم وطقوس الخطوبة والزواج ينطبق على الاحتفالات الدينية المختلفة التي كانت سائدة في العراق القديم وتركت آثارها الى الوقت الحاضر كالاحتفال بحلول فصل الربيع في الفترة التي تقع في القسم الأول من شهر نيسان والتي تقابل فترة الاحتفال بأعياد رأس السنة البابلية والاشورية . كما ينطبق الشيء نفسه على المراسيم التي ترافق عملية دفن الموتى ومايقام من احزان لفترات معينة وطقوس خاصة بالدفن ترجع باصولها الى اقدم العصور العراقية القديمة .

---

(١) انظر ساكز، عظمة بابل، ٥٦٧

وتؤكد الدراسات الحديثة والمكتشفات الآثارية الى ان العديد من الآلات الموسيقية التي مازالت مستخدمة حتى الوقت الحاضر، شرقاً وغرباً ترقى باصولها الى بلاد وادي الرافدين، كما سبق واشرنا الى ذلك، سواء من حيث الشكل او طريقة الاستخدام.

كما ان دراسة القوانين العراقية القديمة بما فيها من مبادىء واحكام تشير هي الاخرى الى انها قد تركت آثاراً واضحة في القوانين اللاحقة، وربما كانت المبادئ القانونية العراقية القديمة تؤلف خلفية بعض القوانين الحالية[1] سواء الاوربية منها او العراقية، كما يمكن تلمس تراث وادي الرافدين في نظم الادارة والبريد في الداخل واسس التعامل الدولي وعقد المعاهدات والاتفاقات الدولية السائدة.

من هذا الاستعراض السريع لأهم مواطن التراث العراقي القديم يظهر لنا جلياً بأن الحضارة العراقية القديمة كانت حضارة اصيلة بعناصرها المختلفة ومؤثرة في الحضارات الاخرى التي إتصلت بها وصارعتها على البقاء وانها وعلى الرغم مما تعرض اليه العراق من غزو واحتلال اجنبي في الفترة التي اعقبت سقوط بابل عام ٥٣٩ ق.م، ظلت تؤثر في حياة الاقوام جميعها العراقية والأجنبية وان كثيراً من عناصرها الحضارية المهمة انتقلت الى الاقوام الاخرى اما عن طريق الاتصالات الثقافية والتجارية او عن طريق الحرب والغزو الأجنبي للعراق، وهكذا نقل الحوريون والحثيون والفرس واليونان والرومان والآراميون وغيرهم تلك العناصر الى الحضارات الاخرى وصولاً الى الحضارة المعاصرة ومن الممكن لأي باحث منصف ان يتتبع اصول الكثير من العناصر الحضارية العراقية القديمة التي مازالت تزخر بها الحضارات الاوربية والعربية الى الوقت الحاضر، كل ذلك يشير ويؤكد على التواصل الحضاري من اقدم العصور وحتى الوقت الحاضر مما يبعث على الفخر والاعتزاز ويقوى من العزائم لأخذ مواقعنا في ركب الحضارة العالمية.

مصادر منتخبة

باقر، طه: من تراثنا اللغوي القديم، بغداد، ١٩٨٠.

سليمان، عامر: التراث اللغوي، في حضارة العراق، ج ١، ٢٧٣ - ٣١٨.

علي، فاضل عبدالواحد: حضارة بلاد وادي الرافدين في: العراق في التاريخ، بغداد، ١٩٨٣، ٢٦٩ - ٢٩٠: من الواح سومر الى التوراة، بغداد، ١٩٨٩.

---

(١) انظر ساكز، عظمة بابل، ص ٥٥٥.

٩٣٥
ع ٢٨٤ عامر سليمان
العراق في التاريخ القديم / عامر سليمان . -
الموصل : دار الكتب للطباعة والنشر ، ١٩٩٣ .
جـ ٢ (   ) ص : ٢٤ سم
يتضمن : جـ ٢ . موجز التاريخ الحضاري
١. العراق القديم - تاريخ   ٢. حضارة العراق القديمة
أ. العنوان

م.و
٢ ع / ١٩٩٣


دار ابن الأثير
للطباعة والنشر في جامعة الموصل


9952007326834
3000